

مِثْلَةُ الْفَرْشِ لِلرَّسَائِلِ الْجَامِعَةِ (١٣٩)

مِثْلَةُ الْفَرْشِ لِلرَّسَائِلِ الْجَامِعَةِ

محمَّد بن عبد الله

ضُرُورَتُهَا، وَطُرُقُ إِشْبَاتِهَا، وَلَوَازِمُهَا

تأليف

د. ثامر بن ناصر بن فهد بن غشيان

مَكْتَبَةُ الرُّشْدِ  
نَاشِرُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
مكتبة  
نورنا، ومطالعةنا، وتلاوةنا





مكتبة الرشد، ١٤٢٥هـ

**فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر**

غشيان، ثامر ناصر فهد

رسالة ختم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم - ضرورتها / ثامر  
ناصر فهد غشيان - الرياض، ١٤٢٥هـ

..ص، ..م

ردمك: ١٠١.٣٣٩.١ - ٩٩٦٠

١ - المبرة النبوية أ. العنوان -

٢٣٩ نيوي ١٤٢٥/١٨١٦

رقم الإيداع: ١٤٢٥/١٨١٦

ردمك: ١٠١.٣٣٩.١ - ٩٩٦٠

رِسَالَةُ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ

مُحَمَّدٌ ﷺ

ضُرُورَتُهَا، وَطَرِيقُ إِشْبَاتِهَا، وَلَوَازِمُهَا

تأليف

د. ثامر بن ناصر بن فهد بن غشيان





# جميع الحقوق محفوظة

## الطبعة الأولى

١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م

مكتبة الرشد ناشرون

المملكة العربية السعودية - الرياض - شارع الأمير عبدالله بن عبد الرحمن (طريق الحجاز)  
ص.ب. ١٧٥٢٢ الرياض ١١٤٩٤ هاتف ٤٥٩٣٤٥١ فاكس ٤٥٧٣٣٨١



Email: [alrushd@alrushdryh.com](mailto:alrushd@alrushdryh.com)

Website: [WWW.rushd.com](http://WWW.rushd.com)

- \* فرع طريق الملك فهد: الرياض - هاتف ٢٠٥١٥٠٠ فاكس ٢٠٥٢٣٠١
- \* فرع مكة المكرمة: هاتف ٥٥٨٥٤٠١ فاكس ٥٥٨٣٥٠٦
- \* فرع المدينة المنورة: شارع أبي ذر الغفاري - هاتف ٨٣٤٠٦٠٠ فاكس ٨٣٨٣٤٢٧
- \* فرع جدة: ميدان الطائفة - هاتف ٦٧٧٦٣٣١ فاكس ٦٧٧٦٣٥٤
- \* فرع القصيم: بريدة - طريق المدينة - هاتف ٣٢٤٢٢١٤ فاكس ٣٢٤١٣٥٨
- \* فرع أبها: شارع الملك فيصل - تلفاكس ٢٣١٧٣٠٧
- \* فرع الدمام: شارع الخزان - هاتف ٨١٥٠٥٦٦ فاكس ٨٤١٨٤٧٣

### وكلاؤنا في الخارج

- القاهرة: مكتبة الرشد - هاتف ٢٧٤٤٦٠٥
- بيروت: دار ابن حزم - هاتف ٧٠١٩٧٤
- المغرب: الدار البيضاء - ورقة التوفيق - هاتف ٣٠٣١٦٢ فاكس ٣٠٣١٦٧
- اليمن: صنعاء - دار الآثار - هاتف ٦٠٣٧٥٦
- الأردن: عمان - الدار الأثرية - هاتف ٦٥٨٤٠٩٢ جوال ٧٩٦٨٤١٢٢١
- البحرين: مكتبة الغرباء - هاتف ٩٥٧٨٣٣ - ٩٤٥٧٣٣
- الإمارات: مكتبة دبي للتوزيع - هاتف ٤٣٣٣٩٩٩٨ فاكس ٤٣٣٣٧٨٠٠
- سوريا: دار البشائر - هاتف ٢٣١٦٦٦٨
- قطر: مكتبة ابن القيم - هاتف ٤٨٦٣٥٣٣

# المقدمة

وتشتمل على:

- سبب اختيار الموضوع
- الدراسات السابقة
- عرض مجمل لموضوعات الرسالة ومنهجي فيها
- خطة البحث.

## المقدمة

«إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، من يهديه الله فلا مضلّ له، ومن يضلّل فلا هاديّ له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. أما بعد»<sup>(١)</sup>.

فقد خلق الرحمن الرحيم - سبحانه - بني آدم وجعل لهم وسيلة تحيا بها قلوبهم، وتطمئن بها نفوسهم، وتهتدي بها بصائرهم، وتشفى بها صدورهم؛ فمن اهتدى بها فلا يضل ولا يشقى؛ ومن أعرض عنها فإن له معيشة صنكاً. وهذه الوسيلة هي (النبوة والرسالة) التي يحملها الأنبياء والمرسلون هداية للناس. وقد مرت على البشرية فترة من الزمن أصبحت فيها الدنيا كالأرض الميتة - في معظم بقاعها - لانعدام الهداية التي تحملها الرسالة، وخيمت - على أغلب

---

(١) كانت هذه الكلمات النافعة الجامعة سبباً في إسلام الصحابي ضِمَاد بن ثعلبة الأزدي - رضي الله عنه -؛ فعن ابن عباس «أن ضماداً قدم مكة، وكان من أزد شنوءة، وكان يزقي من هذه الريح [مس الجن]، فسمع سفهاء مكة يقولون: إن محمداً ﷺ مجنون. فقال: لو أني رأيتُ هذا الرجل لعلّ الله يشفيه على يديّ. قال: فلقبه، فقال: يا محمد إني أرفقي من هذه الريح، وإن الله يشفي على يدي من شاء، فهل لك؟ فقال رسول الله ﷺ «إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه...» الحديث، قال فقال [ضماد]: أعد عليّ كلماتك هؤلاء. فأعادهن عليه رسول الله ﷺ ثلاث مرات. قال فقال [ضماد]: «لقد سمعت قول الكهنة، وقول السحرة، وقول الشعراء فما سمعت مثلاً كلماتك هؤلاء، ولقد بلغن ناعوس البحر. قال فقال: هات يدك أبايحك على الإسلام قال: فبايعه. فقال رسول الله ﷺ: «وعلى قومك» قال: «وعلى قومي»...». رواه مسلم في صحيحه، كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخُطبة ١٥٧/٦ مع شرحه للنووي ح ٤٦. وناعوس البحر: عمق البحر، ولجته، وقيل: وسطه. انظر: شرح مسلم، للنووي ١٥٧/٦، والنهاية في غريب الحديث، لابن الأثير ٥/٨١ مادة (نعس). وكان ضماد صديقاً للنبي ﷺ، وكان يتطبّب فخرج يطلب العلم ثم جاء وقد بُعث النبي ﷺ. انظر: الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر ٢٠٢/٢ الترجمة رقم ٤١٧٧.

أرجائها - الظلمة لانقطاع النور الذي تنقله النبوة للناس، حتى من الله تعالى على العباد بالرحمة المهداة، والنعمة المسداة؛ محمد بن عبد الله ﷺ أحسن الناس خلقاً، وأعلاهم نسباً، وأعظمهم آية، وأكثرهم فضائل، وأوفرهم خصائص. أمته خير أمة أخرجت للناس، ورسالته جاءت مكملة للدين خاتمة للرسالات، أرسله الله مبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً.

### سبب اختيار الموضوع:

نشأ عندي الاهتمام الخاص بموضوع «إثبات نبوة محمد ﷺ» عندما كنت موفداً للعمل في معهد العلوم العربية والإسلامية بأمريكا التابع لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - سددها الله - إذ واجهت كثيراً من الأسئلة الملحة - من المسلمين قبل غيرهم - عن البراهين القوية والحجج الدامغة على صحة رسالة نبينا محمد ﷺ، ووسائل تقريرها، وطرق إثباتها على الوجه الصحيح والمنهج السليم، بعيداً عن فلسفة المتكلمين، وكلام الفلاسفة، وإن تيسر وجود كتاب يجمع هذه المطالب فحسن ليتمكنا إقامة الحجة بأيسر وسيلة على الناس أجمعين.

ومن هنا بدأت البحث في هذا الموضوع المهم جاعلاً نصب عيني السؤال التالي:

كيف يمكن أن نبرز وجوه أدلة صدق محمد ﷺ للعالم؟ لإقامة الحجة على الناس بدلائل قوية وحجج باهرة تقنع كل من لديه عقل بصحة دعوة النبي ﷺ؟.

### الدراسات السابقة:

بدأت البحث ورجعت إلى مصادر هذا الموضوع فوجدتها مُفْتَتَّةً إلى أقسام: القسم الأول: الكتب التي تخاطب المسلمين في المقام الأول ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم، وقد اعتنى مؤلفوها بجمع «دلائل النبوة» من السنة المطهرة الشريفة على وجه الخصوص. وأهم الكتب من هذا القسم<sup>(١)</sup> وأشهرها ما يلي:

- ١ - «دلائل النبوة»، لأبي بكر جعفر بن محمد الفريابي (ت ٣٠١هـ).
- ٢ - «دلائل النبوة»، لأبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني (ت ٤٣٠هـ).

---

(١) انظر الكتب المؤلفة في موضوع دلائل النبوة في: «الإعلان بالتوبيخ»، للسخاوي ص ٩١، و«معجم ما ألف عن رسول الله ﷺ»، لصالح الدين المنجد ص ٦٢ - ٦٥.

٣ - «دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة» لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي (ت ٤٥٨هـ)

٤ - «دلائل النبوة»، لأبي القاسم إسماعيل بن محمد الأصبهاني (ت ٥٣٥هـ).  
وهذه المصادر لا تفي بالغرض المنشود إذ كان المراد الوقوف على الكتب التي تقرر صحة نبوته ﷺ ابتداءً؛ بالدلائل المختلفة المتنوعة، لتكون سبباً في إسلام بعد كفر، ولا سيما في زمننا هذا، بينما تلك المصادر تزيد المرء إيماناً بعد إسلام، فانتقلت إلى القسم الثاني.

القسم الثاني: وهي الكتب التي تمحضت لإثبات نبوته ﷺ وتقريرها بالدلائل المتنوعة بشكل عام بعيداً عن الردود أو الاختصار على جنس واحد منها<sup>(١)</sup>.  
ولعل من المفاجئ أن أقول: إن المصادر الأصلية - المتقدمة - التي ألفت في هذا القسم هي مصادر قليلة جداً، وجُل مؤلفيها من المتكلمين - مع الأسف - ومن أشهرها:

١ - كتاب: «حجج النبوة» للجاحظ (ت ٢٥٥هـ)، وهي رسالة صغيرة جداً؛ لا تفي بتحقيق الغرض المنشود، ومؤلفها معتزلي المذهب، مع قلة المادة العلمية<sup>(٢)</sup>.  
وقد أنكر الجاحظ فيها على علماء عصره إحجامهم وتقصيرهم عن التأليف في هذا الفن، ونبه إلى ضرورة جمع آياته ﷺ بالتأليف مثلما جمع عثمان - رضي الله عنه - آيات القرآن في مصحف واحد<sup>(٣)</sup>، ولعل هذا الأمر كان سبباً في شحذ همم من ألفت في الدلائل فيما بعد.  
وأحب أن أنبه هنا من باب التأكيد على أن التقصير كان في التأليف لا في قصور الحجة، فالحجة قائمة، ولكن تحتاج إلى من يعرضها.

٢ - كتاب «الدين والدولة في إثبات نبوة النبي محمد ﷺ»، لابن ربن

---

(١) كُتب في قسم «المبشرات» و«المعجزات» على وجه الخصوص كتب كثيرة - قديماً وحديثاً - انظر: «معجم ما ألفت عن رسول الله ﷺ»، لصالح الدين المنجد ص ١٦، وص ٧٥ - ٨٣.

(٢) وهي رسالة مطبوعة في سبع وعشرين صفحة [ضمن الرسائل الكلامية] للجاحظ، تقديم وتبويب وشرح د. علي أبو ملح من ص ١٣٠ - ١٥٧، وقد نُقِدت في مبحث «طريقة المتكلمين...» انظر: ص ١٧٢ من هذه الرسالة.

(٣) انظر: حجج النبوة، للجاحظ - ضمن الرسائل الكلامية - ص ١٣١.



الطبري، (توفي بعد سنة ٢٤٧ هـ) يُعد كتابه هذا من أفضل ما كتب في الدلائل، حيث نوع في الاستدلالات على نبوته ﷺ، إلا أن الكتاب شبه مجهول، وكتابه مغمور<sup>(١)</sup> يلفه الغموض كعنوانه، مع صعوبة يسيرة في أسلوبه.

٣ - كتاب «تثبيت دلائل النبوة»، للقاضي عبد الجبار (ت ٤١٥ هـ) وهو من المعتزلة، ومن منهجهم حصر الدلائل في المعجزات<sup>(٢)</sup>.

٤ - كتاب «إثبات نبوة النبي ﷺ»، لأبي الحسن أحمد بن الحسين بن هارون الهاروني الحسني الزيدي (ت ٤٢١ هـ)، وغرضه من تأليفه الرد على من يطعن في النبوة ويقدر في القرآن كابن الراوندي وغيره، والمؤلف يعتمد على طريقة الفلاسفة وأسلوب المتكلمين في الحجاج، الأمر الذي يتعذر معه على قارئ اليوم الاستفادة منه.

٥ - كتاب «أعلام النبوة»، لأبي الحسين علي بن محمد الماوردي (ت ٤٥٠ هـ)، وهذا الكتاب من أفضل الكتب التي وقفت عليها ممن أفرد البحث في إثبات نبوته بالدلائل المختلفة، ولكنه بعد أن يذكر مجموعة من الدلائل تراه يعود بها إلى طريقة المتكلمين ويجعلها من قبيل المعجز فحسب<sup>(٣)</sup>.

---

(١) انظر: الدراسة التي قام بها محقق الكتاب «عادل نويهض» عن المؤلف والكتاب في مقدمة التحقيق ص ٥ - ٣.

(٢) هذا من حيث التقرير للمذهب الاعتزالي أما إذا نظرنا في الكتاب نفسه «تثبيت دلائل النبوة» فسوف نجد بأن المؤلف قد خرج عن هذه القاعدة أحياناً فلا يلتزم الكلام داخل إطار المعجزات دائماً، ومن ذلك أنه على سبيل المثال عقد باباً ذكر فيه كُتِبَ رسول الله ﷺ إلى الملوك، ودرسته لما جاء فيها على أنها من دلائل نبوته، انظر: تثبيت دلائل النبوة ص ٥١١ وما بعدها. وتحدث المؤلف عن: سيرته ﷺ في السابقين والبُذريين دليلاً على النبوة. انظر: المصدر السابق ص ٥٢٧، ولو تحرر المؤلف من مذهبه الاعتزالي تحرراً كاملاً لأجاد في هذا الموضوع.

(٣) فحينما قرر أن فضائل الرسول وأخلاقه من دلائل نبوته عاد وجعلها من قبيل المعجز. انظر: أعلام النبوة ص ٢٠٢. ويلاحظ على الكتاب بعض النزعات الكلامية الغالية، ومنها: ١ - قوله باحتمال كون الشريعة التي جاء بها الرسول من عند نفسه، حين قال: «حسن سيرته ﷺ، وصحة سياسته في دين ابتكر شرعه حتى استقر، وتدبير أحسن وضعه حتى استمر، نقل به الأمة عن مألوف، وصرفهم به عن معروف [لديهم]، إلى غير معروف، فأذعن به النفوس طوعاً وانقادت خوفاً وطمعاً... ولئن كان مأموراً بما شرع فهي الحجة القاهرة، ولئن كان مجتهداً فيها فهي الآية الباهرة!!» أعلام النبوة ص ٢١٥. ومنها: =

ولا أبالغ إن قلت إن أفضل ما كُتب من المصادر الأصلية في إثبات نبوته ﷺ كان في ثنانيا الردود على المنكرين لنبوته ﷺ، ولذلك لزم التنقيب عنها، والاستفادة منها، وجعلها مع غيرها، وإبراز أمهاتها، وهذا ما دفعني للكتابة في هذا الموضوع، محاولاً تفادي ما سبق ذكره من ملحوظات، راجياً من الله التوفيق والسداد.

### عرض مجمل لموضوعات الرسالة ومنهجي فيها:

- صدرت الرسالة «بباب تمهيدي» يُظهر الضرورة إلى الرسائل، وحاولت فيه أن أهدم مصادر الضلالة التي اتُّخذت من دون مصدر الهداية، إذ نبذ كثير من الناس طريق الأنبياء، واستغفروا بأهوائهم عن الوحي المنزل من السماء. ثم بيّنت الحاجة إلى رسالة الرسول محمد ﷺ بعد وقوع التحريف في سائر الديانات.

- وفي الباب الرئيسي للرسالة صدرت الحديث فيه بطريقة السلف في إثبات نبوته ﷺ، وأشارت فيه إلى طريقة القرآن في إثباتها، وفي هذا فتح للباحثين لأن ينظروا في طريقة القرآن وأتباعها.

- اعتنيت بالطرائق المختلفة في إثبات نبوته ﷺ آخذاً بمنهج السلف - رحمهم الله - في ذلك، إذ لا تنحصر دلائل نبوته في معجزاته ﷺ دون أن يطالبوا بمعجزة ولذلك سأبين منهج السلف في دلائل نبوته ﷺ في مقابل المناهج الباطلة وبيان خطورة كلامهم في النبوات، ثم حققت القول في مذهب المتكلمين في طريقة الاستدلال على نبوته ﷺ، وما ذهب إليه نفر من المتأخرين في إثبات رسالته ﷺ.

- اعتنيت بأمهات الدلائل على نبوته ﷺ وقد وصلت عندي إلى اثني عشر دليلاً أساسياً، تشكل لب الرسالة.

---

= ٢ - قوله بالصرقة في إعجاز القرآن. انظر: المصدر السابق ص ٧٢ - ٧٣.

قال ابن الصلاح: «هو متهم بالاعتزال، وكنت أتاوّل له وأعتذر عنه، حتى وجدته يختار في بعض الأوقات أقوالهم...» سير أعلام النبلاء للذهبي ٦٧/١٨. وقال الذهبي: «صدوق في نفسه، لكنه معتزلي» ميزان الاعتدال ١٥٥/٣، وقال ابن حجر: «ولا ينبغي أن يُطلق عليه اسم الاعتزل» لسان الميزان ٢٦٠/٤.

وما ذكرته آنفاً في المسألتين السابقتين يدل على تأثره في الأولى بالفلاسفة، وفي الثانية بالمعتزلة.

- اقتصر في ذكر البشارات على أشدها وضوحاً، كما اقتصر فيها على ما هو بين أيدي أهل الكتاب من كتبهم المطبوعة في الوقت الحاضر؛ وذلك لأن كثيراً من الباحثين يستعمل النصوص التي اعتمدها المتقدمون، وهي نصوص قد طرأ عليها التحريف تلو التحريف، بل الحذف أحياناً.

- لا شك أن القرآن الكريم هو أعظم الدلائل وأقوى الآيات على نبوته، وهو الذي جعل الكتب المتقدمة المؤلفة في نبوته ﷺ تتوارى حتى لم يعد لها ذكر، ولكن يبقى هنا إشكال: وهو أن العرب أنفسهم قد ضعفت لغتهم العربية في الزمن الحاضر؛ فلم يعد كثير منهم يفقه معاني كتاب الله فضلاً عن فقهه لوجوه إعجازه، فكيف بغيرهم؟ ممن لا يفقهون حرفاً من العربية، ولذلك سعت في مبحث:

«آيته الكبرى القرآن الكريم» أن آخذ بيد القارئ إلى معنى كون القرآن معجزاً، وإلى ضرب أمثلة واضحة قاطعة على إعجاز القرآن، بنماذج من القرآن تقام بها الحجة على العالمين، وما هي إلا عملية تقريب لما كان عند السلف قريب.

- حاولت قدر المستطاع أن أستحدث بعض المباحث الجديدة لبعض المسائل التي طرقها علماؤنا الأولون في ثنايا كتبهم، ولكن لم ينصوا على نوعها، وإنما وردت في كتبهم أثناء الحجاج والمجادلة، كالمبحث الثاني والثالث والرابع على سبيل المثال، وهي على الترتيب: «توقف الإيمان بالرسول على التسليم بنبوته»، و«الأخذ بدليل السبر والتقسيم»، و«اعتماد منهج الموازنة» مثلاً.

ويبقى موضوع البرهنة على صدق رسولنا محمد ﷺ وإثبات نبوته، من أهم ما ينبغي أن تصرف فيه همُّ الباحثين على أن تتنوع أبحاثهم (إن الصراع مع أهل الكتاب وغيرهم لازال مستمراً حول إثبات نبوته ﷺ وصدق رسالته، ولسنا في حاجة إلى إقناع أولئك بوجود الله، ولا إلى بيان أهمية الرسالات لأنهم أقرروا بوجوده سبحانه، وصدقوا بجنس الرسالة، ولكنهم مكذبون به ﷺ جاحدون لرسالته

فلم يبق أمامنا نحن المسلمين في هذا العصر مع أولئك المنكرين واحتدام الصراع معهم سوى السعي في مواصلة ما بدأ به علماؤنا في المنافعة عن عقيدتنا والذب عنها، والإتيان بالأدلة القاطعة والبراهين الساطعة على صدقه ﷺ، يستطيع

إدراكها كل عاقل، ويدعن لها كل منصف، ولا يجحدها إلا كل ظالم وحاقد، وبذلك يمكن أن نقيم الحجة على الناس في وجوب الإيمان به، ولزوم اتباعه.

وفي نهاية الرسالة يأتي الباب الآخر، وهو نتيجة لما سبقه من تقرير نبوته ﷺ وذكر دلائلها، إذ يلزم من آمن به وصدقه ﷺ أن يؤدي حقوقه ﷺ عليه، وبهذا يُستكمل ركنا الشهادتين «شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فقد: «أوجب الله تعزيزه ﷺ ونصره بكل طريق، وإيثاره ﷺ بالنفس والمال، في كل موطن، وحفظه ﷺ وحمايته من كل مؤذ، وإن كان الله قد أغنى رسول ﷺ عن نُصرة الخلق، ولكن ليلو بعضكم ببعض، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب، ليحق الجزاء على الأعمال كما سبق في أم الكتاب...»<sup>(١)</sup>.

وقد كان اهتمامي بهذا الموضوع الأخير من جهة ذكر الأدلة على ما يجب تجاهه ﷺ من حقوق مستمدة من القرآن والسنة، والعناية ببيان معانيها ﷺ عند السلف وذكر ضوابطها، والتي حصل فيها خلط كثير عند بعض الناس، دون الخروج عن الموضوع وتطويله بذكر سير الصالحين إذ محل ذلك كتب السير والآداب.

### خطة البحث:

وتشتمل على هذه المقدمة، وثلاثة أبواب، وخاتمة.  
المقدمة، وفيها: ما أبديته من سبب اختيار الموضوع وأهميته، والدراسات السابقة فيه، وعرض مجمل لأهم موضوعات الرسالة ومنهجي فيها، وهذا العرض لخطة البحث:

## الباب الأول

### - الباب التمهيدي للرسالة -

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: ضرورة البشرية إلى الرسالات.

المبحث الثاني: نسبه وخلاصة سيرته.

---

(١) الصارم المسلول على شاتم الرسول، لابن تيمية، ص ٢

## الباب الثاني

- الباب الرئيسي للرسالة وهو - بعنوان:

إثبات نبوته ﷺ وصحة رسالته ﷺ

وفيه ثلاثة فصول:

### الفصل الأول

طرائق الناس في إثبات نبوته ﷺ.

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: طريقة السلف في إثبات نبوته ﷺ.

المبحث الثاني: طرائق المخالفين في إثبات نبوته ﷺ، ونقدها.

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: طريقة المتكلمين.

المطلب الثاني: طريقة العقلانية المعاصرة.

### الفصل الثاني

أمهات الدلائل في إثبات نبوته ﷺ

وفيه مباحث:

المبحث الأول: آيته الكبرى القرآن الكريم.

المبحث الثاني: توقف الإيمان بالرسول على التسليم بنبوته.

المبحث الثالث: الأخذ بدليل السبر والتقسيم للتوصل إلى صحة نبوته.

المبحث الرابع: اعتماد منهج الموازنة بين دينه وبين الديانات الأخرى.

المبحث الخامس: صدق إخباره بالغيوب مع أنه كان أمياً قطعاً.

المبحث السادس: بشارات الكتب السابقة به، وانطباقها عليه.

المبحث السابع: آياته الأخرى ﷺ.

المبحث الثامن: قرائن أحواله القاطعة بصدقه.

المبحث التاسع: دعوته ﷺ وموافقته لأصول ما جاءت به الأنبياء.

المبحث العاشر: عصمة الله له حين تعاقد المشركون على قتله.

المبحث الحادي عشر: إتمام الأمر له في حياته، ونصر أمته وانتشار دعوته بعد مماته.



المبحث الثاني عشر: شريعته ﷺ.

### الفصل الثالث

#### خطورة إنكار رسالته ﷺ.

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: الطعن في رسالته ﷺ طعنٌ في ذات الرب تبارك وتعالى بل جحد له بالكلية.

المبحث الثاني: صلاح الحال والمآل لا يتمان إلا بالإيمان به ﷺ. وإذا تقررت نبوته ﷺ وجب الإيمان به وطاعته

### الباب الآخر

#### بيان حقوقه ﷺ

وفيه ثلاثة عشر مبحثاً:

المبحث الأول: الإيمان به ﷺ

المبحث الثاني: تعظيم قوله ﷺ والتحاكم إليه.

المبحث الثالث: كمال التسليم لما جاء به ﷺ.

المبحث الرابع: وجوب طاعته ﷺ، والاستجابة لأمره ونهيه.

المبحث الخامس: وجوب التأسي به ﷺ والأخذ بهديه.

المبحث السادس: الحذر من مخالفة أمره ﷺ، والافتداء بغيره.

المبحث السابع: لزوم محبته ﷺ.

المبحث الثامن: لزوم تعزيزه توقيره ﷺ.

المبحث التاسع: وجوب الصلاة والسلام عليه ﷺ.

المبحث العاشر: بر آله و«أهله» وذريته ﷺ.

المبحث الحادي عشر: معرفة حق أزواجه ﷺ أمهات المؤمنين.

المبحث الثاني عشر: الثناء على أصحابه ﷺ.

المبحث الثالث عشر: صيانة سنته ﷺ، وأهمية الاحتجاج بها.

ثم الخاتمة: وألخص فيها أهم النتائج والتوصيات، فالفهارس. وقمت في أثناء صياغة البحث بملاحظة الأمور التالية:

- ١ - عزو الآيات إلى سورها بأرقام آياتها في متن الرسالة.
  - ٢ - تخريج الأحاديث، والحكم عليها إن كان الحديث في غير أحد الصحيحين آخذاً بحكم الحفاظ عليها.
  - ٣ - توثيق النصوص بإحالتها إلى مصادرها، وعزو الأقوال إلى قائلها.
  - ٤ - الاكتفاء في أغلب المواضع بنسبة التفسير إلى أصحابها، والإشارة إلى طرف عنوان الكتاب إن كان الكتاب مشهوراً، فأقول مثلاً: فتح الباري عوضاً عن ذكر عنوان الكتاب كاملاً.
  - ٥ - ترجمة من تدعو الحاجة العلمية إلى ترجمته.
  - ٦ - الاكتفاء بذكر عنوان المصدر المنقول عنه واسم مؤلفه في الهامش، وذكر المعلومات كاملة في قائمة المصادر.
- ولا يفوتني في خاتمة هذه المقدمة أن أشكر - بعد شكر الله - والديَّ الكريمين، وأقول ربِّ ارحمهما كما ربياني صغيراً، وأشكر فضيلة الاستاذ المشرف الدكتور سلطان عبد الحميد سلطان عضو هيئة التدريس بالجامعة على توجيهه ونصحه وحرصه على إنجاز الرسالة.
- والحمد لله أولاً وآخراً، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.
- وكتبه: ثامر بن ناصر بن غشيان

# الباب الأول

## الباب التمهيدي للرسالة

وفيه مبحثان :

المبحث الأول : ضرورة البشرية إلى الرسالات.

المبحث الثاني : نسبه ﷺ وخلاصة سيرته.

## المبحث الأول

### ضرورة البشرية إلى الرسائل

وفي هذا المبحث نقضُ لمصادر الضلالة التي اتُخذت من دون «الرسالة» وبيان ضلال من اتخذ سبيلاً غير سبيل المرسلين أو اهتدى بغير هدي النبيين .

## المبحث الأول ضرورة البشرية إلى الرسالات

الحمد لله العلي الأعلى، الذي خلق فسوى، والذي قدر فهدى، والذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، جعل سبحانه (النبوة والرسالة)<sup>(١)</sup> وسيلة إلى المعرفة الصحيحة به ومراده من خلقه، وعن طريق الرسل عليهم السلام تحصل الهداية الحقيقية في الغيبات والعبادات والشرائع والأخلاق والآداب، ويعرف المرء الإجابة الشافية عن الغاية من وجوده، ومصيره بعد موته.

ولكن كثيراً من الناس أعرض عن رحمة ربه، وآثر أن يعيش في الظلمات حيث الضلال والشقاء والظنك، وقبل أن يتواصل الحديث عن بيان ضرورة البشرية إلى الرسالات لابد من بيان ضلال أولئك الذين اتخذوا لهم آلهة أخرى؛ يصدرون عنها ويعولون عليها في التوصل إلى الحقائق - بزعمهم - بدلاً من النبوة مصدر الهداية الحقيقية، وهؤلاء الضالون يمكن تصنيفهم إلى صنفين:

**الصنف الأول:** المقدسون لعقولهم:

القائلون بأن (العقل وحده) هو مصدر الهداية الحقيقي، وما عداه فتخرصات وأوهام، كالفلاسفة وكل من جعل العقل وحده إلهه.

**الصنف الثاني:** وهم المقدسون لمنهج العلوم المادية.

---

(١) النبوة: «... من النبأ لإنبائه عن الله تعالى، وقيل: من النبوة وهو الارتفاع لعلو شأنه، وقيل: من النبي وهو الطريق لأنه وسيلة إلى معرفة الله تعالى. وفي العرف: من قال له الله أرسلتك، أو بلغهم عني ونحوه... يختص برحمته من يشاء من عباده، وهو أعلم حيث يجعل رسالته» الموافق، للإيجي ص ٣٣٧.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في التفريق بين النبي والرسول: «فالنبي هو الذي ينشئه الله، وهو ينبيء بما أنبأه الله به، فإن أرسل مع ذلك إلى من خالف أمر الله ليبلغه رسالة من الله إليه، فهو رسول، وأما إذا كان يعمل بشريعة قبله ولم يرسل هو إلى أحد يبلغه عن الله رسالة فهو نبي وليس برسول» النبوات ص ٢٥٥.



القائلون بأن ما أثبتته (الحس والتجربة المادية فقط) هو الحق وما عداه فغير ثابت علمياً!!، وقد عم هذا الاتجاه الغرب المعاصر كله<sup>(١)</sup>.  
وليبيان بطلان هذين المذهبين نتناولهما بالنقض كما يلي:

### بيان عجز عقولهم عن أن تكون مصدراً للهداية

أضع جملة من الحقائق القطعية الثابتة عن أحوال المقدسين لعقولهم ليظهر بعدها مدى جواز استقلالية العقل في الوصول إلى الهداية:

#### - تخبط المقدسين لعقولهم في أهم القضايا وأخطرها:

إن المعولين على العقل وحده في البحث عن الهداية في القضايا الكبرى المصيرية واللازمة لصالح الإنسان؛ لم يصلوا فيها إلى نتائج مرضية، أو حلول ثابتة، بل هم في أمر مريج.

وفي ذلك قال ابن قتيبة<sup>(٢)</sup>: «وقد كان يجب مع ما يدعونه [المقدسون للعقل] من معرفة القياس، وإعداد آلات النظر أن لا يختلفوا كما لا يختلف الحُساب والمُساح والمهندسون، لأن آلاتهم لا تدل إلا على عدد واحد، وإلا على شكل واحد... فما بالهم أكثر الناس اختلافاً، لا يجتمع اثنان من رؤسائهم على أمر واحد في الدين»<sup>(٣)</sup>.

وقال أبو حامد الغزالي<sup>(٤)</sup>: «لِيُعْلَمَ أن الخوض في حكاية اختلاف الفلاسفة تطويل، فإن خبطهم طويل، ونزاعهم كثير، وآراؤهم منتشرة، وطرقهم متباعدة

---

(١) ويختلف المذهبان في أن أهل الصنف الأول يشبتون وجود الغيب أو ما يسمونه ما وراء الطبيعة أو ما وراء المادة «المتافيزيقيا» ولكنه إثبات على ضلال، وأما الآخرون فلا يؤمنون بما وراء الحس.

(٢) هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، ذو الفنون صاحب التصانيف، ولد ببغداد وسكن الكوفة ثم ولي قضاء الدينورة مدة فنسب إليها، توفي ببغداد سنة ٢٧٦هـ. انظر: سير أعلام النبلاء ٢٩٦/١٣، والأعلام ١٣٧/٤.

(٣) تأويل مختلف الحديث ص ١٤.

(٤) هو أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي؛ فيلسوف، متصوف، له نحو مائتي مصنف، رحل إلى نيسابور ثم إلى بغداد فالحجاز فبلاد الشام فمصر، وعاد إلى بلده «الطابران» التي ولد فيها بخراسان سنة ٥٠٥هـ. انظر: وفيات الأعيان ٤٦٣/١، وطبقات الشافعية ١٠١/٤، والأعلام ٢٢/٧.

متدبرة، فلنقتصر على إظهار التناقض في رأي مقدمهم الذي هو الفيلسوف المطلق، والمعلم الأول، فإنه رتب علومهم وهذبها بزعمهم، وحذف الحشو من آرائهم، وانتقى ما هو الأقرب إلى أصول أهوائهم، وهو «أرسطاليس»<sup>(١)</sup> وقد رد على كل من قبله، حتى على أستاذه الملقب عندهم بأفلاطون الإلهي<sup>(٢)</sup>، ليعلم أنه لا تثبت ولا إتقان لمذهبهم عندهم، وأنهم يحكمون بظن وتخمين، من غير تحقيق ويقين... ولو كانت علومهم الإلهية متقنة البراهين نقية عن التخمين كعلومهم الحسائية؛ لما اختلفوا فيها كما لم يختلفوا في الحسائية»<sup>(٣)</sup>.

ولعل أي كتاب من كتب الفلسفة يعطيك فكرة عن ذلك الاضطراب في الأقوال والخلط في الأفكار؛ ظلمات بعضها فوق بعض، فتراهم يخوضون في مسائل لا تحتمل أن تكون عرضة للاختلاف لكونها من المسائل الحتمية والمصيرية، ولا تقبل أنصاف الحلول، بل هي أشد من أن تكون قضية حياة أو موت لأنها مسائل متعلقة بهداية الإنسان أو ضلاله، فإما أن يكون في النور أو في الظلمات.

### - الحيرة المخيمة على أصحاب هذه الاتجاه:

إن حالة هؤلاء المقدسين لعقولهم تدل دلالة واضحة على هشاشة التعويل على العقل في التوصل إلى الهداية، فقد عاشوا في ظل عقولهم الضالة عيشة الحائر

---

(١) وهو أرسطو أو أرسطاليس أو المعلم الأول كما يسمونه (٣٨٤ - ٣٢٢ قبل الميلاد) فيلسوف موسوعي، مؤسس علم المنطق، تربي في أثينا بمدرسة أفلاطون، ثم انتقد نظرياته، وتأرجح بين المادية والمثالية، يرى أن المثال الأعلى للأخلاق هو الله: أكمل الفلاسفة باعتباره عقل يعقل ذاته - تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً - . انظر: الموسوعة الفلسفية، وضع لجنة من الأكاديميين ترجمة سمير كرم ص ٢٠، والموسوعة الفلسفية، د. عبد المنعم الحنفي ص ٣٥ - ٣٩.

(٢) هو أفلاطون (٤٢٧ - ٣٧٤ قبل الميلاد) فيلسوف مثالي يوناني، أثرت فيه أحداث محاكمة أستاذه سقراط عندما حُكم عليه بالإعدام فقتل نفسه بالسم، وحددت تلك الواقعة توجه أفلاطون الفلسفي كله، وقد أنشأ «أكاديمية» فلسفية يقال إنها أول أكاديمية في التاريخ، والخط العريض لفلسفته محاولة الوصول إلى العلاقة بين ما هو أزلي من جهة وما هو فان من جهة أخرى، وبين «المثال» و«المادة»، وهو صاحب ما سماه بالمدينة الفاضلة والتي تقوم على الطبقية. انظر: الموسوعة الفلسفية، وضع لجنة من الأكاديميين ص ٤٠ - ٤٣ والموسوعة الفلسفية، د. عبد المنعم الحنفي ص ٥٢ - ٥٥.

(٣) تهافت الفلاسفة، لأبي حامد الغزالي ص ٧٦ - ٧٧.

القلق المضطرب، الذي يبحث عن طوق للنجاة ينقذه من لجة الضياع.  
وفي ذلك يقول الرازي<sup>(١)</sup> وهو من «فاق أهل زمانه في علم الكلام،  
والمعقولات، وعلم الأوائل»: «لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلاسفية، فما  
رأيتها تشفي عليلًا، ولا تروي غليلًا...»<sup>(٢)</sup>.

### - ضلال أمم باكملها بسبب تقديسها لعقولها:

إن شئت أن تعرف مصير المعولن على عقولهم في التماس الهداية فانظر إلى  
حال أشهر الأمم القائلة بنفي الرسالات المنكرة للنبوات بحجة أن العقل هو مصدر  
الهداية الأبدية، فهذا زعيم الأمة الهندية<sup>(٣)</sup> في العصور الحديثة يقول مفخراً بدينه  
الباطل: «عندما أرى بقرة لا أعدني أرى حيواناً، لأنني أعبد البقرة، وسأدافع عن  
عبادتها أمام العالم أجمع»، ولقد قاده عقله إلى تفضيل أمه البقرة على أمه التي  
ولدتها فقال: «وأمي البقرة تفضل أمي الحقيقية من عدة وجوه، فالأم الحقيقية  
ترضعنا مدة عام أو عامين وتتطلب منا خدمات طول العمر، ولكن أمنا البقرة  
تمنحنا اللبن دائماً، ولا تطلب منا شيئاً...»<sup>(٤)</sup>

ومضى عابد البقر يقارن بين أمه الحقيقية وأمه البقرة فقال «إن ملايين  
الهنود يتجهون للبقرة بالعبادة والإجلال، وأنا أعد نفسي واحداً من هؤلاء  
الملايين»<sup>(٥)</sup>.

هذه هي حال الذين لا يدينون بالنبوات فتراهم يذلون أنفسهم للأنعام وغيرها  
من المخلوقات، ولقد وجدت بأن أكثر الأمم ضلالاً في الاعتقادات، وانحلالاً في

---

(١) محمد بن عمر بن الحسين فخر الدين الرازي، ولد سنة ٥٤٤هـ، أصولي، مفسر، من  
الأذكياء والمصنفين، قال الذهبي: «وقد بدت منه في تواليه بلايا وعظائم...» مات بهرة  
سنة ٦٠٦هـ انظر: سير أعلام النبلاء ٢١/٥٠٠.

(٢) وقد قال آياتاً قبل مقولته تلك تبدأ بقوله:

نهاية إقدام العقول عقل وغاية سعي العالمين ضلال

انظر: المصدر السابق، وطبقات الشافعية ٢/٨٢ - ٨٣، ودرء تعارض العقل والنقل

١٦٠/١.

(٣) هو غاندي زعيم الهند في العصر الحديث، ومقاوم الاستعمار الإنجليزي فيها.

(٤) مقارنة الأديان (٤) أديان الهند الكبرى، د. أحمد شليبي. ص ٣٦.

(٥) المصدر السابق

الأخلاقيات، وسقماً في العقليات هي الأمم التي لا تؤمن بالنبوات<sup>(١)</sup>.

### - يذهب المقدسون لعقولهم إلى ما تحيله العقول:

إن المعوليين على العقل في إنكار النبوات قد ذهبوا في قولهم ذلك إلى ما تحيله العقول؛ فقول البراهمة في إقصاء النبوات والاكتفاء بالعقليات «لو صح لانسد باب العلم والنصيحة، وانغلق باب الأمر بالمعروف بشتى أنواعه، ولانسد باب الإصلاح والمصلحين، وجاز لكل إنسان إذا أرشده مرشد أفهم وأعلم منه أن يرد عليه ويقول له: لي من عقلي غنى عنك وعن تعاليمك»<sup>(٢)</sup>، وتصبح الحياة بعد ذلك فوضى.

### - العقول متفاوتة: فعقل من نعتمد؟

عقل مَنْ نعتمد في حسم المسائل التي يختلف فيها الناس؟ وما هو المعيار على أن عقل فلان من الناس هو الصواب وعقل فلان هو الضلال؟ لا إجابة على هذه الأسئلة إلا ببعثة الرسل فهي التي تحسم الخلاف بين العقول؛ إذ المغترون بعقولهم لا يقبلون إلا بما تقول به آراؤهم، وفي ذلك قال الماوردي<sup>(٣)</sup>: «إن قضايا العقول قد تختلف فيما تتكافأ فيه أدلتها فانحسم ببعثة الرسل»<sup>(٤)</sup>.

ولو كانت العقول متكافئة لأصبح الناس على درجة واحدة من الذكاء، ولانقضت جميع تصرفاتهم، ولانتفى التفاوت بين البشر، ولكن الذي يشهد الحس بوقوعه أن الناس متفاوتون تفاوتاً بيناً في قدراتهم العقلية، بل الشخص الواحد نفسه قد تتفاوت قدراته العقلية من مرحلة لمرحلة، ومن وقت لآخر، فلا يأتي على الباحث زمان إلا وقد تطور علمه في أمر ما لم يكن قد عقله من قبل<sup>(٥)</sup>.

---

(١) ولكي تقف على انحدار الإنسان حين يبتعد عن هداية الأديان؛ انظر: موسوعة غرائب المعتقدات والعادات، محمد كامل عبد الصمد.

(٢) فلسفة التوحيد والنبوة، محمد جواد مغنية ص ٧٣.

(٣) أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي، ولد في البصرة وانتقل إلى بغداد، وولي القضاء، أشار إلى تأثيره بمذهب المعتزلة كل من ابن الصلاح والذهبي، توفي ببغداد سنة ٤٥٠هـ، من كتبه: الأحكام السلطانية، والحاوي، وأعلام النبوة. انظر: سير أعلام النبلاء ٦٧/١٨، والأعلام ٣٢٧/٤، وصحيفة (١٢) من مقدمة هذه الرسالة.

(٤) أعلام النبوة، للماوردي ٦٨/٢.

(٥) انظر: الاعتصام، للشاطبي ٣٢٢/٢، ورسالة التوحيد، لمحمد عبده ص ٧٤.

قال الشهرستاني<sup>(١)</sup>: «ليس كل عاقل إنساني على استعداد ما يعقل عليه أمره، ولا كل نفس بشري بمثابة من يقبل عنه حكمه، بل أوجبت مثته [سبحانه] ترتيباً في العقول والنفوس، واقتضت حكمته أن يرفع بعضهم فوق بعض درجات، ورحمته خير مما يجمعون، ورحمة الله الكبرى هي النبوة والرسالة، وكل ما فيها خير مما يجمعون بعقولهم المختلفة»<sup>(٢)</sup>، وفي هذا رد على من ذهب إلى أن العقول لا تتفاوت.

ومن يخضع لمن؟ إذا قدس كل عقله؟ فالعقول مهما بلغت قوتها، واحتد ذكاؤها، فإنها تتنازع في مسائل كثيرة فكيف السبيل لإلزامها بالصواب إذ كان عند غيرها؟ وكيف يمكن أن نحمل عقلاً كبيراً - عند نفسه - على متابعة قول غيره؟

قال الماوردي: «إن العقول ربما استكبرت من موافقة الأكفاء، ومتابعة النظراء، فلم يجمعهم عليه إلا طاعة المعبود فيما أذاه رسله، فصارت المصالح بهم أعم والإتقان بهم أتم، والشمل بهم أجمع، والتنازع بهم أمتع»<sup>(٣)</sup>.

وقال ابن حزم<sup>(٤)</sup>: «ما وضعه واضح ما بأحق بأن يتبع مما وضعه واضح آخر، هذا أمر يُعلم بالضرورة..»<sup>(٥)</sup>، ولهذا كانت الرسالة ضرورة كما سيأتي بيانه.

(١) محمد بن عبد الكريم بن أحمد أبو الفتح الشهرستاني، بصير في علم الكلام وأديان الأمم ومذاهب الفلاسفة، وصنف فيها كتابه الشهير «الملل والنحل»، ولد في شهرستان وانتقل إلى بغداد ثم عاد إلى بلده وتوفي بها سنة ٥٤٩هـ، بالغ في نصرة مذاهب الفلاسفة والذب عنهم حتى اتهم بالإلحاد والغلو في التشيع. انظر: معجم البلدان مادة «شهرستان»، وسير أعلام النبلاء. ٢/ ٢٨٦.

(٢) الملل والنحل ٢/ ٢٥٢.

(٣) أعلام النبوة، للماوردي ٢/ ٧١.

(٤) هو علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري، أبو محمد، عالم الأندلس، ذو الفنون المعارف، الفقيه، الحافظ، الأديب، صاحب التصانيف، ولد بقرطبة سنة ٣٨٤هـ، نشأ في تنعم وترفه، وورَّز في شببته ثم انصرف إلى العلم، وبلغ رتبة الاجتهاد، وكان معروفاً بالحدة والبعد عن المصانعة، قال الذهبي: «متبحر في النقل، عديم النظر على يبس فيه، وفرط ظاهرية في الفروع لا الأصول...» وكان ينهض بعلم جمعة، ويجيد النقل، ويحسن النظم والنثر، وفيه دين وخير، ومقاصده جميلة، ومصنفاته مفيدة وقد زهد في الرئاسة، ولزم منزله مكباً على العلم، فلا نغلو فيه ولا نجفو عنه... توفي سنة ٤٥٦هـ. انظر: سير أعلام النبلاء ١٨/ ١٨٤، والأعلام ٤/ ٢٥٥.

(٥) الفصل لابن حزم ١/ ١٧٤.



## - قصور عقولهم عن المعارف الضرورية:

إن «غاية ما يمكن للعقل أن يجنيه من ثمرات بحثه المستقل بعد معاونة الفطرة السليمة له أن يعلم: أن فوق هذا العالم إلهاً قاهراً دبره، وأنه لم يخلقه باطلاً، بل وضعه على مقتضى الحكمة والعدل، فلا بد أن يعيده كرة أخرى لينال كل عامل جزاء عمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر»<sup>(١)</sup>.

وهل هذا القدر كاف في هداية الإنسان؟ إن التجارب التاريخية تؤكد ضلال أمم بكاملها في نظرتها للخالق لكونها تبعت أهواءها وحادت عن هدي أنبيائها<sup>(٢)</sup>.

بل إن الذين أثبتوا وجود الله - سبحانه - من المقدسين للعقل لهم اعتقادات غريبة في صفات الله - عز وجل -؛ كقول الفلاسفة: إن الله لا يعلم الجزئيات، فهل يليق هذا بالله الخالق المدبر العليم الخبير الحي القيوم؟<sup>(٣)</sup>.

هذا، ولقد اعترض المعتزلة على وصف العقل بالعجز أو القصور في التوصل إلى المعارف الضرورية - تقديساً للعقل على مذهبهم - وذهبوا إلى أن إثبات التوحيد ومعرفته لا تشترط له بعثة الرسل، وأن الله تعالى لو لم يبعث الرسل لكان الإيمان به ويتوحيده واجباً على الناس بسبب ما رُكب فيهم من العقول وبين لهم من الأدلة وممكنهم من النظر والاستدلال<sup>(٤)</sup>. ولكن هذا المذهب لا تسنده أحداث التاريخ الإنساني كله من جهة كثرة الانحرافات التي خاضعت فيها العقول البشرية.

وذهبت الأشاعرة إلى أنه لو لم يرد الشرع ما كان يجب على العباد معرفة الله تعالى أو شكر نعمته، وذلك لتفاوت العقول، وقصورها عن إدراك المعرفة، وخاصة الغيبيات...<sup>(٥)</sup>. وتوسط بينهم الشهرستاني فقال: «بأن المعارف قد تحصل بالعقل ولكنها لا تجب إلا بالسمع»<sup>(٦)</sup>. ولعل العنصر القادم يزيد الأمر وضوحاً.

(١) النبا العظيم، د. محمد دراز ص ٤٠.

(٢) انظر الأمثلة على ضلال تلك الأمم من كتاب: الله؛ كتاب في نشأة العقيدة الإلهية، عباس محمود العقاد ص ٧٣. - مع التحفظ على عنوان الكتاب..

(٣) انظر: تهافت الفلاسفة؛ أبو حامد الغزالي ص ٢٠٦.

(٤) انظر: الكشف: للزمخشري ١/١٢٩، والمغني؛ للقاضي عبد الجبار ١٥/١٠٨.

(٥) انظر: الاقتصاد في الاعتقاد؛ للغزالي ص ١٦٠.

(٦) نهاية الإقدام للشهرستاني ص ٣٧١.

## - عجز العقول عن إدراك تفاصيل الشرع:

لو سلمنا أن بعض العقول السليمة أدركت بعض القواعد الشرعية الكلية فهل بمقدورها أن تدرك جزئيات تلك القواعد وتفصيلاتها الشرعية؟

قال ابن القيم<sup>(١)</sup>: «فالعقل يدرك حسن العدل، وأما كون هذا الفعل المعين عدلاً أو ظلماً فهذا مما يعجز العقل عن إدراكه في كل فعل وعقد»<sup>(٢)</sup>.

وقال: «فمن أين للعقل معرفة الله تعالى بأسمائه وصفاته؟ ومن أين له معرفة تفاصيل شرعه ودينه الذي شرعه لعباده... ومن أين له معرفة الغيب الذي لم يُظهر الله عليه أحداً من خلقه إلا من ارتضاه من رسله؟ إلى غير ذلك مما جاءت به الرسل وبلغته عن الله وليس في العقل طريق إلى معرفته»<sup>(٣)</sup>.

ولذلك ضل كثير من الناس في التحريم والتحليل، فكثير من الناس إلى يومنا هذا يحللون لأنفسهم؛ الخمر والزنا والميتة والدم ولحم الخنزير: «فالعقول عاجزة عن إدراك مدارك الأحكام الشرعية»<sup>(٤)</sup>.

ثم إن تفاصيل الأمور الشرعية؛ كالصلوات والزكاة والصوم والحج والحدود والكفارات وغير ذلك لا يُهتدى بالعقل إليها، فالحاجة داعية إلى الأنبياء في ذلك»<sup>(٥)</sup>.

وقد أقر شيخ المعتزلة أن تفاصيل الأمور الشرعية وأعيانها أمر يجهله العقل فهذا القاضي عبد الجبار<sup>(٦)</sup> يقول:

---

(١) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي، الدمشقي، المعروف بابن قيم الجوزية، ولد بدمشق سنة ٦٩١هـ، برع في علوم الشريعة، وكان إماماً في العقيدة، والتفسير، والفقه، والإجماع، والتاريخ والقراءات واللغة، عرّض عليه القضاء فامتنع، ولازم شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية وأفاد منه، وحُبس معه مدة في قلعة دمشق. انظر: البدر الطالع، للشوكاني ١٤٣/٢، ومقدمة التحقيق لكتاب ابن القيم «زاد المعاد» تحقيق شعيب وعبد القادر الأرناؤوط ص ١٥.

(٢) مفتاح دار السعادة ١١٧/٢.

(٣) مفتاح دار السعادة ١١٧/٢.

(٤) التفسير الكبير؛ للرازي ٧٦/١١.

(٥) مفيد العلوم ومبيد الهموم، للقزويني ص ٣٧.

(٦) عبد الجبار بن أحمد الهمداني الأسدي، أبو الحسين؛ قاض، أصولي، شيخ المعتزلة، ويلقبونه قاضي القضاة، ولا يطلقون هذه اللقب على غيره، ولي القضاء بالري ومات =

«إن ما يدل عليه العقل: هو ما فيه استدلال عقلي معلوم. فأما ما ليس هذا حاله فلا دليل في العقل عليه... فكيف يدل الدليل العقلي على أن الصلاة بلا طهارة لا تكون داعية على فعل الواجبات، بل تدعو إلى فعل القبيح، وإذا وقعت على طهارة دعت إلى فعل الواجب ونهته عن الفحشاء والمنكر، فإن ذلك حالها في وقت دون وقت، وشخص دون شخص، كما نقوله في الحائض والطاهرة»، ثم قال: «إن العقل يدل على الشكر والعبادة لله تعالى، إلا أنه لا يدل على أعيان الأفعال التي بها نعبده، وكذلك لا يدل على شروطها وأوقاتها وأماكنها»<sup>(١)</sup>.

والحق أن مختلف الطوائف الإسلامية - سوى المعتزلة - قد اتفقت على إنكار القول بكفاية العقل في معرفة العقائد والأخلاق والشرائع<sup>(٢)</sup>.

قال ابن خلدون<sup>(٣)</sup>: «ولا تثقن بما يزعم لك الفكر من أنه مقتدر على

---

= فيها سنة ٤١٥هـ وله تصانيف كثيرة، تعد المصدر الأساس في مذهب المعتزلة انظر: ميزان الاعتدال ٩١/٢، تاريخ بغداد ١١٣/١١، الأعلام ٢٧٣/٣ - ٢٧٤.

(١) المغني في أبواب التوحيد والعدل ٢٧/١٥.

(٢) وقد أفاض الأشاعرة - على وجه الخصوص - في بيان قصور العقل عن تفصيل المجمل الذي يحتاج إلى شرح وبيان ولا بد له من معونة خارجية، ولا أريد هنا أن أتوسع في مسألة التحسين والتقبيح بين الأشاعرة والمعتزلة ويمكن أن يقال بإيجاز؛ أن دور النبوة والعقل متكاملان ولا تعارض بينهما، وأن إثبات أحدهما لا يعني إنكار الآخر، فالكل مصدر إلا أن العقل مصدر غير مستقل بذاته فقول الله تعالى: ﴿وَجَدَلْ لَهُمُ الْحَبِيبَ وَمُحَرَّمٌ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَ﴾ [الأعراف ١٥٧] نص صريح في أن الحلال كان طيباً قبل حله، وأن الخبيث كان طيباً قبل تحريمه، ولكن من يهتدي إلى هذا أو ذاك قبل ورود النص ومن المرجح في حل هذا أو ذاك قبل مجيء الحاكم الشرعي على الجميع؟، فبالنص الشرعي تقوم الحجة، ولو عارض من عارض من أصحاب الأهواء. انظر مذهب السلف في هذه المسألة في: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٦٧٦/١١، وانظر للتوسع في مذهب المتكلمين؛ ميزان العمل، للغزالي ص ١١٩، والاقتصاد في الاعتقاد، له ص ١٦٦، وغاية المرام؛ للآمدي ص ٣٣٦، والإرشاد؛ للجويني ص ٣٠٣.

(٣) عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي، الإشبيلي، من ولد واثل بن حجر، مولده ومنشؤه بتونس، رحل إلى فاس وغرناطة وتلمسان والأندلس ومصر وولي قضاء المالكية بها، اشتهر بكتابه «العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر» المعروف بمقدمة ابن خلدون، التي أصل فيها لعلم الاجتماع، توفي بالقاهرة فجأة سنة ٨٠٨هـ. انظر: الضوء اللامع ١٤٥/٤، والأعلام ٣٣٠/٣.

الإحاطة بالكائنات وأسبابها، والوقوف على تفصيل الوجود كله، وسفه رأيه في ذلك، واعلم أن الوجود عند كل مدرك في بادئ رأيه منحصر في مداركه لا يعدوها والأمر في نفسه بخلاف ذلك والحق من ورائه»، ثم قال: «العقل ميزان صحيح، فأحكامه يقينية لا كذب فيها، غير أنك لا تطمع أن تزن به أمور التوحيد والآخرة وحقيقة النبوة وحقائق الصفات الإلهية وكل ما وراء طوره فإن ذلك طمع في محال، ومثال ذلك مثال رجل رأى الميزان الذي يوزن به الذهب فطمع أن يزن به الجبال وهذا لا يُدرك»<sup>(١)</sup>.

قلت: العقل ميزان صحيح إذا كان تابعاً للوحي.

وقال الشيخ محمد بن صالح العثيمين: «فإن الناس مهما أوتوا من الفهم والعقل والذكاء لا يمكنهم أن تستقل عقولهم بالتنظيم العام المصلح للأمة بأكملها»<sup>(٢)</sup>.

ويقول محمد عبده<sup>(٣)</sup>: «ليس في سعة الإنسان في الأفراد كافة أن يعرف من الله ما يجب أن يعرف، ولا أن يفهم من الحياة الآخرة ما ينبغي أن يفهم، ولا أن يقرر لكل نوع من الأعمال جزاءه في تلك الدار الآخرة»<sup>(٤)</sup>.

ثم إن العقل من جهة أخرى عاجز عن غذاء القلوب ومداواة النفوس، وهذه حاجات ضرورية لا يتفك عنها الإنسان إلا إذا أراد أن يتفك عن آدميته، فأئني للعقل أن يُشبع كل تلك الحاجات الضرورية وهو ليس من أهلها.

### - موقع العقل من مصادر المعرفة:

إن العقل ليس هو المصدر الوحيد للمعرفة، وإنما هو أحد روافدها، وهو يشبه إلى حد بعيد سائر الملكات والمواهب التي من الله بها على عباده، فالعقل

---

(١) المقدمة «الفصل العاشر في علم الكلام» ص ٤٥٩، وقد صرح في هذا الفصل بأشعرية.

(٢) حكمة إرسال الرسل، الشيخ محمد بن صالح العثيمين ص ٣ - ٥.

(٣) هو محمد عبده بن حسن خير الله من آل التركماني؛ فقيه، ومفسر، ومتكلم، وأديب لغوي، ومشارك في العلوم، دعا إلى إصلاح التعليم في الأزهر، اهتم بالوعظ والتدريس والدعوة، وشارك في مناوئه الإنجليز فسجن ثم نفي، ثم عاد وعين مفتياً للديار المصرية ١٨٩٩هـ له كتب متعددة وأنشأ مجلة العروة الوثقى، ونسب إلى المدرسة العقلية الحديثة، توفي سنة ١٣٢٣هـ. انظر: الأعلام ٦/٢٥٢، ومعجم المؤلفين ٣/٤٧٥.

(٤) رسالة التوحيد ص ٧٦.

يعتريه الضعف كما يعتري غيره من آلات الإنسان الأخرى، كما أنه محدود القدرات كسائر الآلات الأخرى؛ ففوق البصر والسمع مثلاً يضعفان ويقفان عند حد معين يستحيل عليهما أن يتجاوزاه مهما كانت قوتهما، ولا يسعهما أن يسمعا ويبصرا كل شيء في الكون، وكذلك العقل. ولو كان العقل غير محدود القدرات لعقل كل شيء في الكون، ولاستغنى عن الخالق سبحانه، وهذا لا يدعيه أحد، يكفي أن أقرب الأشياء إليه ويجمعه معه جسد واحد «وهو الروح» سر الحياة لم يتوصل العقل لحقيقتها بعد مع علاقته الوثيقة بها.

هذا وتنقسم العلوم إلى ثلاثة أقسام من جهة علاقتها بالعقل<sup>(١)</sup>:

الأول: العلوم الضرورية كامتناع اجتماع النقيضين وارتفاعهما وهذه تلزم جميع العقلاء.

الثاني: العلوم النظرية، وهي التي تكتسب بالنظر والاستدلال، وهي نوعان: نوع: يتمحض العمل فيها للعقل كالعلوم الطبيعية والطب وغيرهما. ونوع: يكون أعمال العقل بالنظر في أدلتها، كالنظر في الأدلة الشرعية وتأملها لاستنباط الأحكام.

الثالث: العلوم التي لا طريق للعقل لاستنباطها أو التوصل إلى معرفتها إلا عن طريق الوحي، إلا أنه يعقلها: بمعنى أنه لا يحيلها كالغيبات.

وأوضح دليل على هذا النوع آخر آية في سورة لقمان في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ٣٤﴾ [لقمان: ٣٤].

يقول «كانت»<sup>(٢)</sup>: «إن عقل الإنسان مركب تركيباً يؤسف له!! فإنه مع شغفه

(١) انظر: الاعتصام، للشاطبي ٣١٨/٢.

وللاستزادة من هذا الموضوع انظر: كتاب «الاتجاه العقلي في مشكلة المعرفة عند المعتزلة»، لمهري أبو سعده، وكتاب «الإنسان والعقل»، د. نايف معروف، وكتاب «دراسات عقلية وروحية في الفلسفة الإسلامية» د. علي عبد الفتاح المغربي.

(٢) هو إيمانويل كانت ويكتب كمنط أو كانط في بعض الكتب (١٧٢٤ - ١٨٠٤ من) فيلسوف ألماني، مؤسس المثالية الكلاسيكية، نشأ وتعلم في «كونيجسبرغ» وعمل أستاذاً بها اهتم بنقد الفلسفات في المعرفة والأخلاق وعلم الجمال وقد أصبح يمثل فترة فاصلة في =

بالبحث في مسائل لا تدركها حواسنا؛ لم يستطع أن يكشف عن معمياته<sup>(١)</sup>.  
 ليس تركيب العقل هو الذي يؤسف عليه لأن الله خلقه لحكمة ضلوا عنها،  
 وإنما الذي يؤسف له هو ضلالهم عن خالقهم وبعدهم عن هداة.  
 وخلاصة البحث في موضوع عجز العقول عن أن تكون مصدراً للهداية؛ أن  
 يقال في العقل - وهو عين البصيرة - ما يقال في العين - وهي وسيلة البصر الحسية  
 - ؛ فكلاهما أداة للنظر لكنهما يحتاجان إلى نور يأتيهما من الخارج فيكشف لهما  
 مختلف القضايا الغائبة عنهما لكي يقفا عليها<sup>(٢)</sup>.  
 وبهذا يبقى البحث جارياً لمعرفة مصدر الهداية ومنبع الرحمة لبني آدم لكي  
 يخرج من الظلمات إلى النور، فهل العلم المادي الحديث القائم على التجربة هو  
 ذلك المنقذ من الضلال؟ هذا ما سنتعرف عليه فيما يلي:

أما الصنف الثاني: من الهاربين عن مصدر الهداية الحقيقية فهم؛ المقدسون  
 لسلطان العلم التجريبي القائلون بأننا نؤمن بما أثبتته «العلم الحسي المادي» علم  
 الدنيا الظاهر<sup>(٣)</sup> أما ما وراء هذا العلم فقد ضربوا به عرض الحائط، وترتب على  
 ذلك «دعوة تدعو الناس إلى رفض كل مالا تثبته التجربة، واعتبار كل العقائد الدينية  
 التي تتصل بما غاب عن حواسنا أوهاماً تعوق مسيرة البشرية في الانطلاق إلى

---

= الفلسفة قبله وبعده. انظر: الموسوعة الفلسفية، وضع لجنة من الأكاديميين ص ٣٨٧،  
 والموسوعة الفلسفية، د. عبد المنعم الحنفي ص ٥٢ - ٥٥.

(١) نقلاً عن قيمة العقل في الإسلام؛ محمد الصايم ص ٤٩.  
 (٢) المثال مقتبس من شيخ الإسلام، وقد ذكره في عدة مواضع من كتبه ومنها في «الجواب  
 الصحيح» ٣/ ٣٣٨.

(٣) يرى «أرنولد توينبي» أن هناك أسلوبين لإدراك الحقيقة: أولهما: «الأسلوب العلمي»: الذي  
 يعتمد على المشاهدة والتجربة، والآخر: «الأسلوب الشعري» الذي يفيض من الداخل،  
 والحقيقة التي نصل إليها عن طريق الأسلوب الأول تسمى «الحقيقة العلمية» بينما تسمى  
 الحقيقة التي نحصل عليها عن طريق الأسلوب الثاني «الحقيقة الشعرية» An Historian  
 Approach to Religion.

وانظر: الدين في مواجهة العلم، وحيد الدين خان، ترجمة ظفر الإسلام خان ص  
 ١١٣.

أقول: كل الذين لا يؤمنون بالنبوة والأنبياء يعززون ما يأتي به النبي على أنه أمر نابع  
 من داخله وليس أمراً يأتيه من الخارج، على اختلاف في التفسيرات بينهم.

المعرفة»<sup>(١)</sup> وكأن الكون كله مادة فحسب.

وقد سادت هذه النزعة الغرب كله، وأجزاء كبيرة من الشرق، وهجمت هجمة شرسة على معظم أجزاء العالم الإسلامي في القرنين الماضيين، حتى فُتن الناس في العصر الحديث بسلطان «العلم المادي» وظنوا أن هذا العلم قادر على إشباع جميع ضرورات الإنسان وحل جميع ألغاز العالم، وتفاءلوا بحل مشكلات الكون كلها، وظنوا أنهم بتفجيرهم الذرة قادرون على تفجير كل أسرار العالم، إلى أن وصل بهم الضلال إلى أن جعلوا العلم شيئاً والإيمان شيئاً آخر؛ فإما أن تكون عالماً غير مؤمن، وإما أن تكون مؤمناً غير عالم. هذه هي المعادلة التي تشخص حالة هذا العصر.

وقد ذهب «فرويد»<sup>(٢)</sup> إلى أن البشرية قد تخلصت من عصرين مظلمين؛ (عصر الخرافة، ثم عصر التدين)، (ودخل عصر العلم)!. وكأن العلم نقيض الدين.

وقد عزز من سلطان هذا العلم أن الدين الذي يدين به الغرب دين محرف، بل دين وثني، - كما سيأتي بيانه عن النصرانية في المبحث القادم - وفي الوقت نفسه استطاع هذا العلم المادي أن يبهز الناس بمخترعاته المختلفة وابتكاراته المتطورة، فبدا لهم أن هذا العلم هو المخلص الحقيقي من الضلالة، والمخرج لهم من عصر الظلمات إلى النور، ولذلك يسمون العصور السابقة لعصر الآلة «عصور الظلام»، ويطلقون على العصر الذي سادت فيه العلوم التجريبية المادية «عصر التنوير»<sup>(٣)</sup> ولا بد لنا من بيان بطلان هذا الاتجاه وتفنيد تلك الأقوال بما يلي:

---

(١) أزمة العصر؛ محمد محمد حسين ص ١٢٦.

(٢) هو سيجموند فرويد (١٨٥٦ - ١٩٣٩م) طبيب وأخصائي أمراض عقلية نمساوي، يهودي، صاحب نظرية التحليل النفسي ومؤسسها، يُخضع جميع أحوال الإنسان للتحليل، ويفسرها على أنها مظاهر للحوافز اللاشعورية «الجنسية» ولا زال هذا المفهوم يمارس على نطاق واسع في البلاد الرأسمالية.

انظر الموسوعة الفلسفية؛ وضع لجنة من الأكاديميين؛ ترجمة سمير كرم ص ٣٠٧ - ٣٠٩، والموسوعة الفلسفية، د. عبد المنعم الحنفي ص ٣٣٠ - ٣٣١.

(٣) زعم «الابلاس»: «أن العالم العظيم الذي سيتمكن من معرفة انتشار الذرات.. سيكون في استطاعته أن يتنبأ بكل مستقبل الكون وأحداثه» وصرح «تيندال»: «إن العلم يكفي الآن وحده لمعالجة جميع شؤون الإنسان» نقلاً عن: الدين في مواجهة العلم، وحيد الدين خان، ترجمة ظفر الإسلام خان ص ٦٩ - ٧٠.

## بيان عجز علومهم المادية عن أن تكون مصدراً للهداية

### - اختلال ثوابتهم العلمية:

يمكن أن يقال لهم: إن هذا العلم الذي بهر عقولكم وأعمى بصائرهم؛ هل توصل بكم إلى حقائق ثابتة؟ أم أنه وقف بكم عند ظواهر ونظريات قلقة؟ هل ما زعمتموه من حقائق علمية وبخاصة عن الإنسان بقيت على ما هي عليه أم طرأ عليها كثير من التغيير والتعديل؟.

لنأخذ مثلاً على ذلك: نظرية داروين<sup>(١)</sup> وهي أهم نظرية تفسر كيفية وجود الإنسان عندهم، وقد عدوها حقيقة علمية، بل بنوا عليها سائر علومهم المتعلقة بحياة الإنسان، واعتبروا من أنكرها جاهلاً أو متعصباً أو عبداً للأوهام، وعدوا كتاب داروين «أصل الأنواع» الكتاب الذي غير مجرى التاريخ، وأصبحت هذه النظرية هي الوسيلة المنطقية الوحيدة - عندهم - التي يمكن بها تفسير عملية الخلق<sup>(٢)</sup>، ولكن ما هي الأدلة التي قامت عليها هذه النظرية؟ يقول وحيد الدين خان: «إن محامي نظرية الارتقاء لم يستطيعوا حتى الآن من تمكيننا من مشاهدة

---

قال د. فؤاد زكريا في مقال نشره بمجلة عالم الفكر الكويتية بعنوان «العلم والحرية الشخصية» قال: «في العصر الحديث أصبحت الصورة التي يرسمها العلم للكون تتصف بالآلية، ولا تترك مجالاً لقيم الإنسان ورغباته. لقد أصبح العالم موحشاً لا مكان فيهما لمشاعر الإنسان.. إن العصر الحديث أوجد انفصلاً قاطعاً بين عالم الطبيعة وعالم الإنسان وقضى على التداخل بين هذين المجالين» ج ١/ ٤٤.

(١) هو تشارلز روبرت داروين (١٨٠٩ - ١٨٨٢م) عالم طبيعي انجليزي تعلم بجامعة كامبردج، وأسس نظرية الارتقاء العضوي في تطور الخلق، نافياً أن يكون هناك طفرات أو ثغرات؛ أي نافياً خلق آدم كما جاء في الأديان السماوية، وتبني النظرية كل من الغرب والشرق الشيوعي ما دام أنها تخدم قاعدتهم: أن البقاء للأقوى. انظر: الموسوعة الفلسفية، وضع لجنة من الأكاديميين؛ ترجمة سمير كرم ص ١٩٢ - ١٩٣. والموسوعة الفلسفية د. عبد المنعم الحنفي ص ١٧٧.

(٢) انظر لأقوالهم فيها من مصادرها، نقلها عنهم بحروفها صاحب كتاب: الدين في مواجهة العلم: وحيد الدين خان، ترجمة ظفر الإسلام خان ص ١٦ - ٢٥، وانظر: نظرية التطور - دراسة مقارنة -، وهي رسالة دكتوراه لد. محفوظ علي عزام أثبت فيها أن النظرية مجرد فرض محض وتخمين من أصحابها، وليس عليها دليل علمي يعتمد عليه.



بالعين، أو تجربة - في معمل ما -، أو تجربة أي أساس تقوم عليه مزاعمهم! (١)  
والعجيب أنهم يعترفون بتهافت الأدلة التي قامت عليها نظرية داروين،  
ولكنهم يعلمون أن البديل هو الإيمان بما جاءت به الأديان في خلق آدم عليه  
السلام (٢).

ويقول رسل (٣): «السوء حظنا لم تعد الطبيعة النظرية تحدثنا اليوم بالثقة  
الرائعة نفسها التي كانت تحدثنا بها في القرن السابع عشر، لقد كانت لأعمال  
«نيوتن» (٤) أربعة تخيلات رئيسية: المكان، والزمان، والمادة، والقوة، وقد  
أصبحت هذه العناصر نسياً منسياً في علم الطبيعة الحديث... وقد أصبح هذا  
التصور قديماً إن لم أقل إنه قد مات فعلاً» (٥).

---

(١) المصدر السابق.

(٢) ينتفي العجب بعد قراءة النص التالي: يقول «آثر كيث»: «إن الارتقاء غير ثابت ولا يمكن  
إثباته، ونحن نؤمن بهذه النظرية لأن البديل الوحيد هو [الإيمان] بالخلق مباشرة، وهو أمر  
لا يمكن حتى التفكير فيه». الدين في مواجهة العلم، وحيد الدين خان ص ٣٨.

(٣) برتراند آرثر وليام رسل (١٨٧٢ - ١٩٧٠م)، بريطاني، كان جده رئيس وزراء المملكة  
فيكتوريا، درس الفلسفة، وتأثر بهيغل، وتخرج من جامعة كامبردج وهو في الثامنة عشرة،  
وكان من المتفوقين وخاصة في الرياضيات، رحل إلى باريس، وأمريكا وعمل بها أستاذاً  
ولاقى بها صراعات بسبب مواقفه الإلحادية المتطرفة، كما أنه ناهض الشيوعية بعنف ثم  
عاد إلى إنجلترا وحصل على جائزة نوبل للأدب عام ١٩٥٠م، ويعد من أكبر المفكرين  
الغربيين تأثيراً في عصرنا الحديث. انظر الموسوعة الفلسفية: وضع لجنة من الأكاديميين؛  
ترجمة سمير كرم ص ٣١٨، والموسوعة الفلسفية د. عبد المنعم الحنفي ص ٢٠٨ -  
٢١٣.

(٤) اسحاق نيوتن (١٦٤٢ - ١٧٢٧م)، مؤسس الميكانيكا التقليدية، تعلم بكمبردج، وعلم بها،  
اكتشف قانون الجاذبية الكلية، وعرف باسمه، وامتد مجال تطبيق القانون على ظواهر  
الطبيعة والكون، بل ظهرت نزعة فلسفية نتيجته وهي الحتمية وتجاوزت مجال الفيزياء إلى  
علم الاجتماع والاقتصاد والتاريخ، وخطورة هذه النظرية أنها أدت إلى: (الاعتقاد بأن  
الكون يمكن تصوره دون علة خارجة عنه، وأن قوانين الطبيعة هي وحدها المتحكم في  
المادة وتشكلها وصوريتها، وأن هناك انتظاماً بناء على قوانين السببية) انظر الموسوعة  
الفلسفية: د. عبد المنعم الحنفي ص ٤٩٣ - ٤٩٤، معجم الفلاسفة: إعداد جورج  
طرايشي ص ٦٨٤ - ٦٨٥.

(٥) كتاب: تطوري الفلسفي ص ١٧ نقلاً عن «الدين في مواجهة العلم»، وحيد الدين خان،  
ترجمة ظفر الإسلام خان ص ٣١.

ويقول: «إنه لا يمكن الادعاء بالقطعية على النحو الذي سار عليه الفلاسفة المتسرعون، بكثرة وبدون جدوى»<sup>(١)</sup>

ثم جاءت نظرية «أينشتاين»<sup>(٢)</sup> (النسبية) و(قلبت) كثيراً من موازين الثوابت عندهم، وشككت فيما كانوا يظنونونه مسلمات؛ فأصبح «الزمن» - على سبيل المثال - حقيقة نسبية وليس حقيقة ثابتة.

ثم إن «المادة» التي قدسوها وبنوا عليها بنيانهم في البحث والاستدلال قد تفتت فانهدم كل ما قرروه؛ لأن الأساس الذي تعود إليه المادة هو الذرة، والذرة نفسها قد انشطرت، وخرجت منها أشياء وضعوا لها أسماء فقط ولا يعلمون ماهيتها؟ وأشياء لا يعلمون عنها شيئاً، عبروا عنها بعد بحث مضى بالطاقة، والطاقة نفسها غامضة الجوهر، فما هي هذه الطاقة؟ حاروا في تفسيرها وأجابوا عنها بأجوبة تشبه أجوبة الفلاسفة عن ماهية الروح.

ولا تزال علومهم حائرة، كلما توقفوا عند قضية اجتروا نظرية الصدفة.

### ومن اختلال ثوابتهم المادية جزمهم بأزلية المادة:

من الحقائق الثابتة في الفكر الغربي أن «المادة لا تفتنى» وأنها أزلية لا بداية لها ولا نهاية، بغير برهان قاطع، ولا حجة واضحة، وكلما أراد أحد المسلمين أن يناقش في هذه المسألة على ضوء دينه أثمهم بالرجعية وأنه ضد العلم، وقد ظهر من علمائهم اليوم من يناقش في تلك الأمور المسلمة عندهم، وبدأ في زحزحة تلك الثوابت الراسخة عندهم مما يدل على أنهم قد ضلوا فيما يظنون أنهم تمكنوا منه؛

---

(١) انظر: المصدر السابق.

(٢) ألبرت أينشتاين (١٨٧٩ - ١٩٥٥م) ألماني يهودي، فيزيائي، مؤسس نظرية النسبية، أدت أبحاثه إلى وجود أفكار جديدة عن المكان والزمان والحركة والمادة والضوء والجاذبية، غادر ألمانيا بسبب النازية واستقر في أمريكا، وآراء أينشتاين الفلسفية وثيقة الصلة بآراء «سبينوزا» اليهودي، تتلخص في الإنكار التام بوجود الله، وإنكار وجود شيء غير مادي، والتداخل السببي لجميع عمليات الكون.

انظر الموسوعة الفلسفية: د. عبد المنعم الحنفي ص ٨٢ - ٨٣، والموسوعة الفلسفية: وضع لجنة من الأكاديميين، ترجمة سمير كرم ص ٧٠ - ٧١.

هذا وقد اختارت مجلة «التايم» - وهي المجلة الأشهر عالمياً - هذا الرجل على أنه شخصية القرن العشرين!!

وهو العلم المادي فكيف يحتاجون فيما ليس لهم به علم وهو العلم الغيبي الأخرى؟؟.

وهذه الفكرة «أزلية المادة» فكرة مقدسة في العالم الغربي وتبنى عليها نظريات علمية عندهم، ولكن ظهر من الباحثين في جامعة «كاليفورنيا» بأمريكا من ينقض هذه النظرية من أساسها ببراين علمية وهو جورج هربت، ويقول: «الأدلة الكونية تثبت أن العالم متغير، إذاً فليس أزلياً أبدياً، فالضرورة الكونية تلجئنا إلى الاعتقاد؛ أن هناك وراء الكون المادي حقيقة سرمدية عالية بإرادته وحكمته اللانهائية يتغير الكون على نظام بارع...»<sup>(١)</sup>.

ويقول أوسكار أحد علماء الفلك: «هناك فرضيتان بالنسبة للأجرام السماوية: ١ - إنها لا بدء لها، أي أزلية.

٢ - إنها مخلوقة حادثة.

إن الفرضية الأولى ساقطة مردودة، حيث المادة متغيرة، تنمو وتتسع ثم العلوم الطبيعية على دقة عميقة، تقدر بداية كل جسم... إن العلوم باستطاعتها أن تثبت: إن الكون مخلوق، ولكنها لا تستطيع أن تبين الكيفية العجيبة المرموزة والقوانين الطبيعية وعللها كما هي...»<sup>(٢)</sup>.

#### - سطحية علومهم:

لقد ابتعدت العلوم التجريبية عن قواعد الهداية للبشرية، واعتنت بالجانب المادي فيه وكأن الإنسان مجرد آلة تُطبق عليه قوانين الحركة، فقد عجز «العلم الحديث» عن تقديم تفسير للحياة، أو حلول للمشكلات الروحية والنفسية ولعل من أسباب فشلهم تطبيقهم المناهج العلمية المادية الحسية على العلوم الدينية<sup>(٣)</sup>.

يقول عبد الحميد صديقي: «إن التفاؤل الساذج بمقدرة العلوم المادية لا مسوغ له... فالعلم وسيلة ملائمة لشرح الظواهر الطبيعية شرحاً منهجياً، ولكنه لا يستطيع أن يقرر لنا قواعد لهداية البشر، ولا يستطيع العلماء أن يبينوا لماذا خلقت الأشياء أصلاً؟... والحقيقة أن كلمة «لماذا؟» والتي تعتبر ذات شأن بالغ للإنسان

(١) انظر: الفكر المادي في ميزان الإسلام، د. صابر طعيمة ص ٢٣٦.

(٢) انظر: المصدر السابق.

(٣) انظر: النبوة في الإسلام، عبد الحميد صديقي ص ١٣.

مصدر إحراج للعالم؛ إن العلم الذي يتصور أنه مستند على الإدراك بالحواس فقط إنما هو علم مفلس لا يملك شيئاً مما يدعيه من اكتفائه بنفسه... والعلم [الذي] لا يستطيع أن يجد في الطبيعة هدفاً... فهو يعالج نصف الأدلة، لقد أزيحت كلمة «غرض» من مصطلحات العلماء ولكن «الغرض» أو «الغاية» لا يزالان معلقين... وفضلاً عن ذلك لا يستطيع المنهج العلمي أن يعيتنا على حل مشكلة المنشأ والمآل»<sup>(١)</sup>.

### - افتقار علومهم للوفاء بأبسط الحاجات البشرية:

قال أليكسس كارل<sup>(٢)</sup> عن حاجتهم الماسة إلى عنصر مهم مفقود في حياتهم ليهديهم إلى سبيل الرشاد: «لقد أصبح جلياً أن تقدم كل العلوم المتعلقة بالإنسان لا يكفي لإشباع احتياجاتنا عنه، وبإيجاز شديد: إن علمنا عن ذاتنا لا يزال في حالة بدائية»، ويقول: «إننا لا نستطيع التوصل إلى أسرار الإنسان بنفس الأسلوب الذي نستخدمه في اكتشاف خواص المادة... أما عجزنا الأكبر والأهم فهم أن كل دراستنا الطبيعية في دراسة «جثة» الإنسان الميت، فلسنا نتمتع بعد بصلاحية الإنسان الحي»<sup>(٣)</sup>.

ويقول: «وحقيقة الحقائق: أننا نفتقد الوسائل اللازمة لمعرفة القوانين الثابتة لنشاطنا الروحي، وللتمييز بين الخطأ والصواب، ولمعرفة إمكانية كوننا أحراراً في بناء ذاتنا وبناء بيتنا»<sup>(٤)</sup>. لاحظ افتقار علومهم عن سد حاجتين عظيمتين: ١ - غذاء القلوب بالإيمان والاعتقاد الصحيح الراسخ، ٢ - والحاجة إلى شرع يميز بين الحلال والحرام.

ولكن د. كارل نفسه حينما أشار إلى ضرورة سد تلك الحاجات الضرورية

---

(١) المصدر السابق - بتصرف يسير - ص ١٨ - ١٩.

(٢) وهو د. ألكسس كارل (١٨٧٣ - ١٩٤٤م) طبيب فرنسي عمل ودرس الطب بفرنسا، ثم رحل إلى أمريكا وعمل بمعهد روكفلر للأبحاث العلمية بنيويورك قرابة ٣٠ عاماً ثم عاد إلى بلده، منح جائزة نوبل ١٩١٢م لأبحاثه الطبية الفذة وكتابه «الإنسان الذي نجهله» أو كما اشتهر باسم «الإنسان ذلك المجهول» لقي إقبالاً كبيراً جداً وأعيد طبعه عدة مرات، وترجم إلى لغات العالم. انظر مقدمة الكتاب المشار إليه بترجمة: شفيق أسعد فريد. ولعل السبب في انتشار هذا الكتاب أنه كشف للعالم ذلك الشطر المهم في حضارتهم الزائفة.

(٣) الإنسان الذي نجهله ص ١٩ فصل: (الحاجة إلى معرفة الإنسان معرفة أفضل).

(٤) المصدر السابق ص ٣٩.

وقع في الخطأ نفسه، حينما أحال العلاج فيها إلى قوانين العلم التجريبي المادي!! وأنى له أن يصل إلى العلاج وهو يسلك السبيل الخاطئ؟ فكان كالمستجير من الرمضاء بالنار.

### تناقضهم:

يستخدم علماؤهم مصطلحات علمية هي في ذاتها تنقض مذهبهم الذي يسرون عليه، فهذه المصطلحات ليست مما يمكن إخضاعه للتجربة الحسية، أو تُرى تحت المجهر، إنما هي مصطلحات يفهمها العقل ويدرك معانيها دون أن تكون مواداً صلبة تدرك حقيقتها بالحواس: «إنه لعجب عجاب أن ترى المادي الذي يزعم أنه لا يبحث إلا في الحقائق والتجارب المادية الملموسة وهو يستخدم مصطلحات مجردة؛ كالقوة والقانون والقضية والجوهر، وكأن هذه المصطلحات نفسها والمواد التي يتعامل معها شيء واحد، وكأن هذه المصطلحات مواد محسوسة... ثم هو أيضاً إذ ينكر كل ما فوق الحواس وهو لا ينفك يستخدم مصطلحات مثل؛ الوحدة والتكاثر والتماثل والاختلاف والسبب والآخر والخصائص وغيرها من الألفاظ الخاصة بما فوق الطبيعة على وجه الخصوص، تراه يستعملها لا شعورياً بلا حجة ولا مسوغ، وخلاصة القول: إن المادي إنما هو مفكر من مفكري ما وراء الطبيعة ولكنه غير شاعر بذلك، ولا مفر له من أن يكون كذلك»<sup>(١)</sup>.

### النتائج الوخيمة لعلومهم المادية

أولاً: نبذ الوحي، لأنه لا يدخل تحت الحواس ولا يخضع لتجاربيهم المقيتة، وكأن التجربة هي مصدر العلم الوحيد، وما علموا أن العلوم الرياضية كالحساب مثلاً لا علاقة له بالتجربة الحسية، وهو في الوقت نفسه من العلوم اليقينية<sup>(٢)</sup>.

ثانياً: نبذ الدين وفشو الإلحاد في أبشع صوره، وهذه بعض الأقوال لأشهر علمائهم<sup>(٣)</sup>: يقول «كانت»: «إيتوني بالمادة وسوف أعلمكم كيف يُخلق الكون منها»،

(١) مدخل لفلسفة الدين، جون كيرد، ترجمة كاظم جوادى ص ٨.

(٢) انظر: الإسلام ومواجهة المذاهب الهدامة، د. محمد البهي ص ٣٢ - ٣٩.

(٣) انظر تلك الأقوال في: الدين في مواجهة العلم لوحيد الدين خان، ترجمة ظفر الإسلام خان ص ٦٤.

وأعلن «هيجل»<sup>(١)</sup>: «إنني أستطيع خلق الإنسان لو توفر لي الماء والمواد الكيماوية والوقت»، وصرخ «نيتشه»<sup>(٢)</sup>: «لقد مات الإله الآن».

ثالثاً: الفساد العريض بسبب الإعراض عن هدي النبوة: والمصيبة أنهم يرونه إصلاحاً فينشرونه في العالم يقول ألكسس كارل: «إنه لعبث حقاً أن نظل دائبين في تزيين حياتنا ونحن نرى أنها تقضي على أخلاق شعوب عظيمة، وعلى أكرم ما لديها فتمحوها... ما من شك قط في أن العلوم الآلية والطبيعية والكيماوية عاجزة عن أن تمنحنا التأدب بالأخلاق، والصحة، والاتزان العصبي، والأمن، والسلام»<sup>(٣)</sup>.

وهناك جملة من النتائج الوخيمة لسيطرة العلم المادي على العالم، منها: فشو الشرك وسلب حق الخالق لاعتمادهم وتوكلهم على سلطان العلم الزائف. ومنها: فشو الحروب الوحشية التي تُستخدم فيها مختلف الأسلحة الفتاكة والتي تهلك الحرث والنسل نتيجة؛ علومهم المدمرة وبحوثهم غير المنضبطة بضابط رادع.

ومنها: ظهور الأمراض الخطيرة، والتي لم تُعرف في الأمم السالفة نتيجة؛ لما أفرزته نظرياتهم المادية في علم الاجتماع والأخلاق. ومنها: انتشار الربا انتشاراً هائلاً جعل كثيراً من الناس في ضيق مستمر نتيجة؛ علومهم الاقتصادية القائمة على الظلم واستنزاف أموال الضعيف. ومنها: تلويثهم الهواء والماء، وهي فضلات منتجات علومهم الحديثة. إلى غير ذلك من النتائج، وليس وراء هذا البعد عن مصدر الهداية الحقيقية إلا الضلال والفساد.

---

(١) جورج فلهلم فريدريتش (١٧٧٠ - ١٨٣١م) واحد من الفلاسفة الكلاسيكيين الألمان، مثالي متناقض، رحب بالثورة الفرنسية، تولى كرسي الأستاذية بجامعة برلين، وكان لفلسفة هيجل أثرها في تطور الماركسية. انظر: الموسوعة الفلسفية؛ وضع لجنة من الأكاديميين، ترجمة سمير كرم ص ٥٦٦ - ٥٦٨، ومعجم الفلاسفة، جورج طرابيشي ص ٧٢١ - ٧٢٥.

(٢) فريدريك فلهلم ولد في روكن ببروسيا (١٨٤٤ - ١٩٠٠م) فيلسوف ألماني، ورائد للأيدلوجية الفاشية، كان من المقرر أن يصبح قساً لكنه عدل عن ذلك، تأثر ببسمارك، وتخلّى عن فكرة كون الفن وسيلة للهروب، وكانت آراؤه رد فعل للأيدلوجية البرجوازية الطبقة. انظر: الموسوعة الفلسفية؛ وضع لجنة من الأكاديميين، ترجمة سمير كرم ص ٥٥٣ - ٥٥٤، ومعجم الفلاسفة، جورج طرابيشي ص ٦٧٧ - ٦٨٠.

(٣) الإنسان الذي لا نعرفه ص ٥١.

## - اعتراف بعد جحود:

إن الرجوع إلى الدين - مع قصور فهمهم له - كانت نهاية المطاف لكثير من عظمائهم الكبار في العلوم التجريبية، أو على الأقل الاعتراف بأن هناك قوة أعظم من قوة العلم الحديث. وليس من قبيل المصادفة أن تشبه نهاية هؤلاء بما انتهى إليه أمر الفلاسفة والمتكلمين من قبل، ومن هؤلاء<sup>(١)</sup>: («سان سيمون»؛ عميد منظري الحضارة الغربية، و«أوجيست كونت»؛ رائد المذهب الوضعي)<sup>(٢)</sup> إذ قد اعترفا بأن عليهما أن يعيدا النظر في نظرتهم الغالية في علومهم المادية القاصرة عن الوفاء بحاجات الإنسان الضرورية، ولا بد من الرجوع إلى الأديان. والأعجب من هؤلاء كلهم: «كارل ماركس» عدو الأديان في العصر الحديث، وعميد مؤسسي النظام الشيوعي الإلحادي في العالم؛ قضى سنوات حياته الأخيرة مريضاً بأمراض جسيمة، أدت إلى ظهور الدماغل في جسده كله، وتسببت له بالأم مريرة، لم يحتملها، إلى درجة أنه ترك الغرب وعلمه وطبه، واتجه للاستشفاء بالجزائر - البلد المسلم -، ولم يشف، وفي تلك الأثناء أعلن وأكد: «أنه لم يسع إلى إنكار الإله بقدر سعيه إلى تحرير الإنسان»<sup>(٣)</sup>.

وهو بهذا يسجل تراجعاً كبيراً في مذهبه الإلحادي الذي كرس حياته لتقريره.

## تقرير حاجة البشرية إلى الرسالة

إذا لم يكن العقل مستقلاً بمعرفة طريق الهداية، ولم يكن العلم المادي التجريبي قادراً على التوصل إلى المعارف الضرورية، والأخلاق القويمة، والشرائع العادلة، فمن القادر إذن على انقاذ البشرية من عمائتها، وإخراجها من ضلالتها؟  
الجواب: أنه لن يظفر المخلوق الضعيف بوسيلة؛ تهديه إلى الصراط المستقيم بين السبل المتفرقة إلا بوسيلة تأتيه من الخالق القوي الغني الرحمن الرحيم الحكيم الخبير، فهو أرحم بعبده من أن يجعله يهيم على وجهه، وهو

---

(١) انظر ترجمة هؤلاء القوم مفصلة في: كتاب «نهاية عمالقة في حضارة الغرب»، د. رشدي فكار، إعداد وتقديم: سيد أبو دومة. وتقع ترجمة «سان سيمون» في الفصل الأول ص ٢٥ - ٣٠، وترجمة «أوجيست كونت» في الفصل الثالث ص ٣٥ - ٥٨.

(٢) المصدر السابق، ص ٥٩ - ٧١، وهناك أمثلة أخرى في المصدر نفسه.

(٣) المصدر السابق ص ٧١.

سبحانه خبير بحاجاته؛ فهو ربه وخالقه، أعلم به منه، وبما ينفعه ولا يضره، وما يصلحه ولا يفسده، وبما يهيده ولا يُضله، فأَي استضاءة بغير نوره ظلمة، وأي اهتداء بغير هديه ضلالة.

ولكن ما هي تلك الوسيلة أو الوساطة بين الله وخالقه التي تبلغهم عن الله مراده؟؟

الجواب: إن من رحمة الله بعباده أن أرسل إليهم رسلاً بشراً رجالاً من أنفسهم<sup>(١)</sup>؛ يعرفونهم ببرهم، ويدلونهم عليه، ويبينون لهم؛ أسماء الله وصفاته، ومحابه ومساخطه، وثوابه وعقابه، وكل ما يحقق لهم صلاحهم في دنياهم وأخراهم.

وتظهر أهمية الرسالة ومدى ضرورتها والحاجة الماسة إليها في العناصر التالية:

### - رسالة الأنبياء روح العالم ونوره:

يمكن أن يقال - على سبيل الاختصار - إن الرسالة بالنسبة للعالم؛ كالروح للأبدان، بدونها تموت، كالنور للأبصار، بدونها تعمى، وكالماء للأحياء بدونها تنعدم الحياة.

أما على سبيل التفصيل فقد قرر شيخ الإسلام ابن تيمية<sup>(٢)</sup> ضرورة الرسالة

---

(١) جعل الله الرسل من البشر؛ ليكون وقعهم في الناس أعظم، وتصديق الناس لهم أقوى، والافتداء بهم أسير. وقد اعترض المشركون على إرسال رسول من البشر، فرد الله عليهم بقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَفُتِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ ۝﴾ [الأنعام: ٨] ولذلك كان من رحمة الله بعباده أن أنزل إليهم رسولاً من البشر، ولو أرسل الله من الملائكة رسولاً إلى الناس لجاءهم على صورة بشر كما في حديث جبريل المشهور، لكي يراه الناس ويأخذوا عنه دينهم، ولكن ليس من طبيعة الملك أن يعيش بين الناس، فلن يستطيع أن يأكل أو يتزوج... ولن يستطيع أن يسلك سلوك البشر في أشياء كثيرة فيمتنع حينئذ الاقتداء به، وسوف يلتبس أمره على الناس؛ هل هو ملك أو إنسان؟. ولو نزل بصورته التي خُلق عليها؛ فلن يأنس له أحد بل سيفرقون منه خوفاً ورهباً لعظم صورته التي خلقه الله عليها.

(٢) تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد السلام بن تيمية، الحراني، ثم الدمشقي، شيخ الإسلام، ولد بخران سنة ٦٦١هـ ثم انتقل مع والده وأهله إلى دمشق، أحد المجتهدين المحيين لهدي السلف في الأمة، كان متبحراً ومؤلفاً في العلوم الشرعية، منافعاً =



بكلام فضل قلما تجد نظيره في شموله وقوته، قال - رحمه الله -:

«قاعدة نافعة في وجوب الاعتصام بالرسالة، وبيان أن السعادة والهدى في متابعة الرسول، وأن الضلال والشقاء في مخالفته، وأن كل خير في الوجود إما عام وإما خاص؛ فمنشؤه من جهة الرسول، وأن كل شر في العالم مختص بالعبد؛ فسببه مخالفة الرسول أو الجهل بما جاء به، وأن سعادة العباد في معاشهم ومعادهم؛ باتباع الرسالة. والرسالة ضرورية للعباد لا بد لهم منها، وحاجتهم إليها فوق حاجتهم إلى كل شيء، والرسالة روح العالم، ونوره، وحياته، فأبي صلاح للعالم إذا عدم الروح والحياة والنور؟ والدنيا مظلمة ملعونة إلا ما طلعت عليه شمس الرسالة، وكذلك العبد ما لم تُشرق في قلبه شمس الرسالة، ويناله من حياتها وروحها، فهو في ظلمة وهو من الأموات، قال تعالى: ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَمْ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَمَكُونُ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأنعام: ١٢٢] فهذا وصف المؤمن: كان ميتاً في ظلمة الجهل فأحياه الله بروح الرسالة ونور الإيمان، وجعل له نوراً يمشي به في الناس، وأما الكافر فميت القلب في الظلمات»<sup>(١)</sup>.

وذكر رحمه الله وجه تسمية الرسالة بالروح وتشبيه الوحي بالماء فقال:

«الرسالة روح، والروح إذا فقدت الحياة، والوحي كالماء الذي ينزله من السماء به حياة الأرض وبالنار التي يحصل بها النور، وشبه العلم بالماء لأن به حياة القلوب كما أن الماء به حياة الأبدان... وأما الكافر ففي ظلمات الكفر والشرك غير حي، وإن كانت حياته حياة بهيمية، فهو عادم الحياة الروحانية العلوية التي سببها الإيمان، وبها يحصل للعبد السعادة والصلاح في الدنيا والآخرة فإن الله سبحانه جعل الرسل وسائط بينه وبين عباده في تعريفهم ما ينفعهم وما يضرهم، وتكميل ما يصلحهم في معاشهم ومعادهم، وبعثوا جميعاً بالدعوة إلى الله وتعريف

---

= عن الإسلام وعقيدة السلف باليد واللسان والبنان، امثّلن وأوذى بسبب مناصرته الدليل، وحبس بقلعة القاهرة والإسكندرية، وبقلعة دمشق مرتين، وتوفي بها سنة ٧٢٨هـ، من أشهر تلاميذه ابن القيم، وابن مفلح، وابن عبد الهادي، وابن كثير. انظر: شح الإسلام ابن تيمية، سيرته وأخباره عند المؤرخين، د. صلاح الدين المنجد، وانظر: البداية والنهاية، لابن كثير ١٣٢/١٤ - ١٤١، وتذكرة الحفاظ للذهبي ٢٧٨/٤.

(١) مجموع الفتاوى ٩٣/١٩ - ٩٤.

الطرق الموصل إليه، وبيان حالهم بعد الوصول... وحاجة العبد إلى الرسالة أعظم بكثير من حاجة المريض إلى الطب؛ فإن آخر ما يُقدَّر بعدم الطبيب موت البدن، وأما إذا لم يحصل للعبد نور الرسالة وحياتها مات قلبه موتاً لا تُرجى الحياة معه أبداً. أو شقي شقاوة لا سعادة معها أبداً، فلا فلاح إلا باتباع الرسول فإن الله خص بالفلاح أتباعه وأنصاره قال تعالى: ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤] فخص هؤلاء بالفلاح، كما خص المتقين الذين يؤمنون بالغيب وقيمون الصلاة وينفقون مما رزقهم، ويؤمنون بما أنزل إلى رسوله وما أنزل من قبله، ويوقنون بالآخرة؛ بالهدى والفلاح، فعلم بذلك أن الهدى والفلاح دائر مع الرسالة وجوداً وعدمًا... ثم ذكر أن الذين نزل بهم الغضب وعاقبهم ومسخهم وخسف بهم وأرسل عليهم الصيحة والظوفان وغيرها من أنواع العقاب؛ إنما هم المكذبون بالرسول، المعرضون عما جاؤوا به، ولذلك أبقى آثارهم وديارهم عبرة لمن بعدهم، ثم ذكر وجهاً آخر لضرورة الرسالة فقال - رحمه الله - : «والرسالة ضرورة في إصلاح العبد في معاشه ومعاده، فكما أنه لا صلاح له في آخرته إلا باتباع الرسالة، فكذلك لا صلاح له في معاشه ودنياه إلا باتباع الرسالة؛ فإن الإنسان مضطر إلى الشرع؛ فإنه بين حركتين: حركة يجلب بها ما ينفعه، وحركة يدفع بها ما يضره، والشرع هو النور الذي يبين له ما ينفعه وما يضره، والشرع نور الله في أرضه وعدله بين عباده، وحصنه الذي من دخله كان آمناً.

وليس المراد بالشرع التمييز بين الضار والنافع بالحس فإن ذلك يحصل للحيوان العجم، فإن الحمار والجمال يميز بين الشعير والتراب، بل التمييز بين الأفعال التي تضر فاعلها في معاشه ومعاده والأفعال التي تنفعه في معاشه ومعاده، كنفع الإيمان والتوحيد والعدل والبر، والتصدق والإحسان، والأمانة والعفة، والشجاعة والحلم، والصبر والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وصلة الأرحام وبر الوالدين، والإحسان إلى الممالك والجار، وأداء الحقوق، وإخلاص العمل لله، والتوكل عليه والاستعانة به... والتسليم لحكمه، والانقياد لأمره، وموالة أوليائه ومعاداة أعدائه، وخشيته بالغيب والشهادة، والتقوى إليه بأداء فرائضه واجتناب محارمه، واحتساب الثواب عنده، وتصديقه وتصديق رسله في كل ما أخبروا به، وطاعته في كل ما أمروا به، مما هو نفع وصلاح للعبد في دنياه وآخرته وفي ضد ذلك شقاوته ومضرته في دنياه وآخرته.

ولولا الرسالة لم يهتد العقل إلى تفاصيل النافع والضار في المعاش والمعاد<sup>(١)</sup>.

فمن أعظم نعم الله على عباده وأشرف منته عليهم؛ أن أرسل إليهم رسله وأنزل عليهم كتبه، وبين لهم الصراط المستقيم، ولولا ذلك لكانوا بمنزلة الأنعام والبهائم بل شر حالاً منها، فمن قبل رسالة الله واستقام عليها فهو من خير البرية، ومن رذها وخرج عنها فهو من شر البرية، وأسوأ حالاً من الكلب والخنزير والحيوان البهيم.... وليست حاجة أهل الأرض إلى الرسول كحاجتهم إلى الشمس والقمر والرياح والمطر، ولا كحاجة الإنسان إلى حياته ولا كحاجة العين إلى ضوءها، والجسم إلى الطعام والشراب، بل أعظم من ذلك وأشد حاجة من كل ما يقدر ويخطر بالبال، فالرسل وسائط بين الله وبين خلقه في أمره ونهيه، وهم السفراء بينه وبين عباده...<sup>(٢)</sup>

(١) وحتى أولئك الذين عظموا العقل وجعلوه سبيل التمييز بين القبيح والحسن؛ لما أرادوا أن يميزوا بين القبائح والمحاسن على التفصيل لجؤوا إلى ما جاء به الأنبياء لأن أي اختلاف في التفاصيل يفضح فساد الأصل الذي اعتمدوا عليه، ويؤكد القاضي عبد الجبار - شيخ المعتزلة - على قصور العقل عن تفصيل المجمل، وأن وجوب المصلحة وقبح المفسدة متقرران في العقل، إلا أن العقل لا يستطيع الجزم بأن هذا الفعل مصلحة، وذلك مفسدة، وبناء على ذلك يخلص إلى أن فائدة البعثة تكمن في أمرين:

١ - أنها تقرر ما ركبه الله في عقولنا.

٢ - أنها تفصل ما قد تقرر فيها. وما يهمني هنا الأمر الثاني.

ولذلك يشبه القاضي عبد الجبار الرسل بالأطباء، إذ قالوا: إن هذا البقل ينفع وذلك يضر، ولكننا علمنا قبل ذلك رفع الضرر عن النفس واجب، وجر النفع إلى النفس حسن، فكما لا يكون والحال ما قلناه قد أتوا بشيء مخالف للعقل، فكذلك حال هؤلاء الرسل.

انظر: شرح الأصول الخمسة ص ٥٦٤، وقارن المغني، له ١١١/١٥ - ١١٢.

وكلام عبد الجبار هذا اعتراف ضمني بأن العقل لا يمكن أن يستغني عن الوحي، وليس بوسع أن يستقل عن الرسالة، ولست في حاجة إلى بيان دور العقل في الإسلام من جهة مكانته، والبحث على أعماله، ووجوب حفظه، فمن أراد التوسع فليُنظر: إيثار الحق على الخلق لابن الوزير اليماني ص ١٤، والاعتصام للشاطبي أواخر الجزء الثاني ص ٣٠٠ وما بعدها، ودرء تعارض النقل والعقل: الجزء الأول.

(٢) الفتاوى ٩٣/١٩ - ١٠١.

وهذا النقل الأخير نقله السفاريني بحروفه في كتابه: لوايح الأنوار البهية ٢/٢٤٩ - ٢٥٠.

ولذلك إذا تأملت في الآيات التي ورد فيها لفظ (النور) في القرآن، سوف تجدها في الغالب إما وصفاً للرسالة وإما وصفاً لحاملها، أما إطلاق النور على الرسالة - المتضمنة للاعتقادات والتشريعات - فكثير جداً في كتاب الله؛ ومنه قوله تعالى:

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَائُهُمُ الظُّلُمَاتُ يُخْرِجُهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُّورَ اللَّهِ بِأَقْوَاهِمَ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُشِيرَ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢].

وأما وصف الرسول ﷺ بالنور فقد جاء بلفظ (نور) في قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥].

وجاء بلفظ (سراجاً منيراً) في قوله تعالى: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٦].

وذلك لأن السراج المنير يحتاج الناس إليه في كل وقت ليلاً ونهاراً، وفي كل مكان خارج البيوت وداخلها، ونوره لا يتأذى منه، وهكذا هديه ودينه وشرعه. بخلاف السراج الوهاج وهي الشمس التي تخرج في النهار، ولها أمكنة محددة، وقد يتأذى منها فيصاب بعض الناس بما يسمى بالضربة الشمسية التي قد تؤدي إلى الوفاة فمن بلاغة القرآن أن وصف رسول الله ﷺ بالسراج المنير.

ويكفي في بيان عظم شأن الوحي قول الله تعالى لأشرف خلقه أجمعين: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧].

وبيّنه قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

## ـ الرسائل ضرورة لقيام الحجة على الناس:

كيف تقوم الحجة على الناس فيكون لا مجال لأحد في الاعتذار عن عدم الإيمان بالله ورسوله؟

الجواب: من رحمة الله بعباده أن أرسل الرسل قطعاً لأي شبهة للناس على ربهم، كما قال تعالى: ﴿مَنْ أَهْتَدَىٰ فَأَنَا لِيَهْتَدِيَ لِنَفْسِيْهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَحْضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا نُزِذْ وَازِدَةً وَزَرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعْذِرِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء: ١٥] .

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَنْ نُنْزِلَ وَتُخْزَىٰ ﴿١٦﴾﴾ [طه: ١٣٤] .

وقال تعالى: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾﴾ [النساء: ١٦٥] .

وقال ﷺ: «... ولا أحد أحب إليه العذر من الله، ومن أجل ذلك بعث المبشرين والمنذرين»<sup>(١)</sup>. أي بعث الرسل للإعذار والإنذار لخلقه قبل أخذهم بالعقوبة<sup>(٢)</sup>

فحين لا تكفي الفطرة في استقامة الإنسان على جادة الحق؛ ولما يعتريها من ركام العادات والأعراف والتقاليد، ولا يكفي العقل في هداية الإنسان لقصوره عن هذه الضرورات الكبرى، لذا شاء الله أن يرسل إلى الناس الرسل مبشرين ومنذرين لئلا يكون هناك مجال للإعذار؛ إنقاذاً للفطرة من ركام الإلف والعادة، وتحريراً للعقل من أسر الأهواء والشهوات، وتجديداً وتذكيراً للعهد الذي أخذ على بني آدم من ظهر أبيهم، ليعذر إلى عباده قبل أن يأخذهم بالعذاب.

وقد اعترف رأس المتكلمين «الرازي» بأن إقامة الحجة على الناس لا تكون إلا بالشرع وفي هذا يقول: «وجوب شكر الله تعالى لا يثبت بالعقل بل بالسمع.

لأن الوجوب لا تتقرر ماهيته إلا بترتيب العقاب على الترك، ولا عقاب قبل ورود الشرع»<sup>(٣)</sup>.

(١) وراه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول النبي ﷺ: «لاشخص أغير من الله» ٣٩٩/١٣ ح ٧٤١٦ من حديث المغيرة بن شعبة مع قصة في أوله، ومسلم في صحيحه، كتاب اللعان ١١٣٦/٢، وكتاب التوبة، باب غيرة الله، عن ابن مسعود ٢١١٣/٤.

(٢) انظر: فتح الباري لابن حجر ٤٠٠/١٣.

(٣) انظر: النبوات؛ للرازي ص ٩٥.

ولم يستطع الزمخشري<sup>(١)</sup> أن يحدد عن ضرورة السمع في إقامة الحجة على الناس فقال عن الرسل: «منبهون عن الغفلة، وباعثون على النظر... فكان إرسالهم إزاحة للعلّة، وتعميماً للإلزام الحجة؛ لثلاثاً يقولوا: لولا أرسلت إلينا رسولاً فيوقظنا من سنة الغفلة وينبها لما وجب الانتباه إليه»<sup>(٢)</sup>.

### - الرسالة سبيل النجاة:

قال الله تعالى عن أهل الجنة: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ فَجَازَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولَنَا بِالْحَقِّ وَوَدُّوا أَنْ يُنْكِرُوا الْجَنَّةَ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأعراف: ٤٣].

ففي هذا المقام قرن أهل الجنة هذا الاعتراف والتقرير بقولهم: (لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ) فدل على أن الرسل وبعثتهم هي التي مكنتهم من معرفة الله تعالى ومراده وأحكامه والعمل به، وبالتالي مكنتهم الله برحمته من الدخول في الجنة والوصول إلى دار النعيم.

### - ضرورة الرسالة لمعرفة حال المجرمين وبيان سبيل المرسلين:

ختم الله تعالى سورة جليّة من القرآن وهي سورة الصافات ببيان ضلال المشركين وسوء اعتقادهم في الله تعالى، قال سبحانه: ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨١﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨٢﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٣﴾﴾ [الصافات: ١٨٠ - ١٨٢] والآيات الثلاث متصلة ببعضها؛ فلما نزه الله نفسه العلية مما يتفوه به المشركون في الآية الأولى، ثم ذكر المرسلين الذين جاؤوا بالتنزيه والتقديس الكاملين على الوجه الصحيح، ثم سلّم وأثنى عليهم، لأنهم هم أهل الفضل في تعريف الخلق بالخالق، بالوصف الصحيح الصادق، وكانت بعثتهم منة على الخلق، ونعمة على الإنسانية، ومن مقتضيات الربوبية الرحيمة الحكيمة. ثم ختم ذلك كله بقوله: (وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ). ونصوص القرآن كثيرة في بيان حال

(١) هو محمود بن عمر بن محمد الخوارزمي الزمخشري، معتزلي المذهب، عالم باللغة والتفسير، سافر إلى مكة وجاور بها زمناً فلقب بجار الله ثم عاد إلى الجرجانية في خوارزم ومات بها سنة ٥٣٨هـ.

انظر: وفيات الأعيان ٨١/٢، والأعلام ١٧٨/٧.

(٢) تفسير الزمخشري ٥٩١/١.

المجرمين؛ تحذيراً من اتباعهم، وتخويفاً من مآلهم.

### - ضرورة الرسالة لبيان مراد الله من عباده:

فالرسل يدعون الناس إلى عبادة الله وحده، ويحذرونهم من عبادة غيره، ويأمرهم بمكارم الأخلاق، وينهونهم عن قبيحها، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَن هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَن حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [النحل: ٣٦] ومنذ أن هبط آدم على الأرض جاءه الهدى من عند الله: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [البقرة: ٣٨]. فالناس بحاجة إلى من يعلمهم أمور دينهم ويهديهم إلى الصفة التي يرضاها لهم في العبادة، وقد ذكر ابن حزم أن العلوم والصناعات لا يمكن أن يهتدي إليها أحد بطبعه دون تعليم، وكذلك الشرائع والعبادات تحتاج إلى معلم وهو النبي<sup>(١)</sup> قال الماوردي: «إن التآله لا يخلص إلا بالدين، والدين لا يصلح إلا بالرسول المبلغين عن الله»<sup>(٢)</sup>.

### - الرسائل رحمة من الله بعباده:

«والله سبحانه أجل وأعظم وأعدل وأرحم من أن يخلق عباده ثم يتركهم سدى يسировن في طريق الهلاك من غير حارس ودليل. . إن الله أرحم بعباده من الأم العطوف بوليدها»<sup>(٣)</sup>.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «الناس كلما قويت حاجتهم إلى معرفة شيء يسر الله أسبابه، كما يسر ما كانت حاجتهم إليه في أبدانهم أشد، فلما كانت حاجتهم إلى النفس والهواء أعظم منها إلى الماء كان مبدولاً لكل أحد في كل وقت، ولما كانت حاجتهم إلى الماء أكثر من حاجتهم إلى القوت كان وجود الماء أكثر. وكذلك لما كانت حاجتهم إلى معرفة الخالق أعظم كانت آياته ودلائل ربوبيته وقدرته وعلمه ومشيتته وحكمته أعظم من غيرها، ولما كانت حاجتهم إلى معرفة صدق الرسل بعد ذلك أعظم من حاجتهم إلى غير ذلك أقام الله سبحانه من دلائل

(١) انظر: الفصل في الملل والأهواء والنحل ١/١٤٢.

(٢) أعلام النبوة ٧١/٢.

(٣) فلسفة التوحيد والنبوة، محمد جواد مغنية ص ٩.

صدقهم، وشواهد نبوتهم وحسن حال من اتبعهم، وسعادته ونجاته، وبيان ما يحصل له من العلم النافع، والعمل الصالح، وقبح حال من خالفهم، وشقاوته وجهله وظلمه ما يظهر لمن تدبر ذلك»<sup>(١)</sup>،

وقال الماوردي: «إن الله منعم على عباده بما يرشدهم إليه من المصالح، ولما كان في بعثة الرسل ما لا تدركه العقول كان إرسالهم من عموم المصالح التي تكفل بها»<sup>(٢)</sup>.

وقال الباقلاني<sup>(٣)</sup> في إنعام الله على عباده بإرسال الرسل: «في إرساله تعريض لخلق من المكلفين لثواب جزيل، ونفع عظيم، صبح ذلك في حكمته، وكان عدلاً من فعله سبحانه»<sup>(٤)</sup>.

### - ضرورة الرسالة لإقامة العدل بين الناس:

لا يقضي على طغيان الإنسان، وجهه لأن يستأثر بكل شيء لنفسه، وجموحه لأن تكون له الغلبة والمنفعة إلا ضوابط سلوكية محكمة، وموازن للحق ثابتة تقيم العدل بين الناس، فتنصف المظلوم من الظالم، وتعيد الحق إلى نصابه، وبدون تلك الموازن ينشأ التخاصم والتشاجر والعداء والمقاتلة في حياة الأفراد وحياة الأمم، والناس جميعاً يتفقون على الإذعان لما فاق قدرتهم، وعلا متناول استطاعتهم لذا شاء الله تعالى أن يختار من البشر مرشدين هادين، يوحى إليهم بموازن الحق والعدل؛ التي تدهش عظمتها المدارك، فلا يملك الناس إزاءها إلا الإذعان والقبول لها، لأنها شرع إلهي قاهر، وليست من وضع البشر، وأولئك هم المرسلون.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ

(١) الجواب الصحيح ١٤١/٥.

(٢) أعلام النبوة ٧٠/٢.

(٣) هو محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر، أبو بكر، ولد في البصرة، وسكن بغداد وتوفي بها كان معروفاً بسرعة البديهة، وكان من علماء الكلام، انتهت إليه الرياسة في مذهب الأشاعرة، ولي القضاء، ووجهه عضد الدولة إلى ملك الروم سفيراً له فجرت له مناظرات في القسطنطينية مع علماء النصارى، وبين يدي ملكها ظهرت فيها قوة حجته توفي سنة ٤٠٣ هـ انظر: تاريخ بغداد ٣٧٩/٥، والأعلام ١٧٦/٦.

(٤) تمهيد الدلائل ص ١٥٤.



النَّاسُ بِالْفِئْتِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرَسُولَهُ  
يَالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ [الحديد: ٢٥] .

قال الماوردي: «إن العقول بما استكبرت من موافقة الأكفاء ومتابعة النظراء فلم يجمعهم عليه إلا طاعة المعبود فيما أداه رسله، فصارت المصالح بهم أعم والإتقان بهم أتم، والشمل بهم أجمع، والتنازع بهم أمتع»<sup>(١)</sup>.

قال محمود شكري الألوسي<sup>(٢)</sup>: «إذا لم يكن بينهم - أي الناس - عدل يتفق الجميع عليه بقوانين كلية؛ وهي علم الشرائع؛ التي لا بد لها من واضع يقررها على ما ينبغي مصونة عن الخطأ وهو الشارع، يختل نظام الجمهور، ويحل الناس في ورطة هلاك وثبور، ثم إن الشارع لا بد أن يمتاز باستحقاق الطاعة، وهو إنما يتقرر بآيات تدل على أن شريعته من عند ربه... فالأنبياء صلوات الله عليهم جميعاً هم رسل الله إلى عباده بأوامره ونواهيه زيادة على ما اقتضه العقول من واجباتها، وإلزاماً لما جوزته من مباحاتها؛ لما أَرَادَهُ اللهُ تعالى من كرامة العاقل وتشريف أفعاله واستقامة أحواله وانتظام مصالحه، حين هياه للحكمة، وطبعه على المعرفة، ليجعله حكيماً، وبالعواقب عليماً، لأن الناس بنظرهم لا يدركون مصالحهم بأنفسهم، ولا يشعرون لعواقب أمورهم بغرائزهم، ولا ينزجرون مع اختلاف همهم، دون أن يَرِدَ عليهم آداب المرسلين، وأخبار القرون الماضية، فتكون آداب الله فيهم مستعملة، وحدوده فيهم متبعة، وأوامره فيهم ممثلة، ووعدده فيهم زاجراً وقصص الأمم واعظاً؛ فإن الأخبار العجيبة إذا طرقت الأسماع، والمعاني الغريبة إذا أيقظت الأذهان استمدتها العقول فزاد علمها، وصح فهمها، وأكثر الناس سماعاً أكثرهم خواطر، وأكثرهم خواطر أكثرهم تفكراً وأكثرهم تفكراً

(١) أعلام النبوة، ٧١/٢.

(٢) هو محمود شكري بن عبد الله بن شهاب الدين محمود الألوسي الحسيني، أبو المعالي؛ مؤرخ، عالم بالأدب والدين، من الدعاة إلى الإصلاح، ولد في رصافة بغداد وأخذ العلم عن أبيه وعمه، وتصدر للتدريس، وحمل على البدع وأهلها فعاداه كثيرون وسعوا به إلى السلطان «عبد الحميد الثاني» فصدر أمر بنفيه إلى الأناضول فلما وصل إلى الموصل ١٣٢٠هـ قام أعيانها دفاعاً فسمح له بالعودة إلى بغداد فعاد، ولما احتل البريطانيون بغداد عرضوا عليه أن يتولى قضاءها فانقبض عن مخالطتهم ولزم بيته عاكفاً على التأليف والتدريس توفي سنة ١٣٤٢هـ، انظر الأعلام ١٧٢/٢ - ١٧٣.

أكثرهم علماً، وأكثرهم علماً أكثرهم عملاً فلم يوجد في بعثة الرسل معدل، ولا منهم في انتظام المصالح بدل<sup>(١)</sup>.

وقد أقر الفلاسفة أنفسهم بضرورة ظهور من يسن للناس أحكاماً تكفل العدل للجميع، ويملك من الشريعة ما يخوله من أن ينزل الجميع إلى حكمه ويخضع له، يقول ابن سينا<sup>(٢)</sup> «من المعلوم أن الإنسان يفارق سائر الحيوانات بأنه لا يحسن معيشته لو انفرد وحده... وأنه لا بد أن يكون الإنسان مكفياً بآخر من نوعه... هذا يبطل لذلك، وذلك يخبر لهذا... فإذا كان هذا ظاهراً فلا بد من وجود الإنسان وبقائه من مشاركة، ولا تتم المشاركة إلا بمعاملة... لا بد في المعاملة من سنة وعدل، ولا بد في السنة والعدل من سأن ومعدل، ولا بد أن يكون هذا بحيث يجوز أن يخاطب الناس ويلزمهم السنة، ولا بد أن يكون إنساناً، ولا يجوز أن يترك الناس وآراءهم في ذلك فيختلفون ويرى كل منهم ماله عدلاً وما عليه ظلماً فالحاجة إلى هذا الإنسان في أن يبقى نوع الإنسان ويتحصل وجوده أشد من الحاجة إلى إنبات الشعر على الأشفار وعلى الحاجبين وتقدير الأخص من القدمين، وأشياء أخرى من المنافع التي لا ضرورة فيها في البقاء بل أكثر ما لها أنها تنفع في البقاء فلا يجوز أن تكون العناية الأولى تقتضي تلك المنافع ولا تقضي هذه<sup>(٣)</sup> التي هي أسها، ولا أن يكون المبدأ الأول والملائكة بعده يعلم ذلك، ولا يعلم هذا... فواجب إذن أن يوجد نبي، وواجب أن يكون إنساناً، وواجب أن تكون له خصوصية ليست لسائر الناس، حتى يستشعر الناس فيه أمراً لا يوجد لهم فيتميز منهم<sup>(٤)</sup>».

---

(١) الدلائل العقلية، محمود شكري الألوسي، ١، مخطوطة بخط المؤلف نفسه سنة ١٣١٩ هـ توجد نسخة مصورة (مايكروفلم) برقم ٨٥٤٧، بالمكتبة المركزية بجامعة الملك سعود، قد عازمت على تحقيقها إن شاء الله تعالى.

(٢) هو أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا (الفيلسوف) ولد في قرية قرب بخارى تعلم الفلسفة والهندسة والحساب والمنطق وبرع في الطب، وعلم وهو لم يتجاوز الثامنة عشرة، وقد تلقى العلم عن دعاة الباطنية، رحل إلى أصفهان ولزم أميرها ١٥ سنة إلى أن توفي سنة ٤٢٨ هـ انظر: معجم الفلاسفة؛ جورج طرابيشي ص ٢٦ - ٣٠.

(٣) في مختصر الشفاء القسم الثالث ص ٤٩٨: «تفيض تلك المنافع ولا تفيض هذه النجاة».

(٤) الشفاء، الإلهيات لابن سينا ص ٤٤١ وانظر الكلام بحروفه في النجاة ص ٤٩٨ - ٥٠٠، والإشارات ص ٢٢٦ - ٢٢٧، انظر النبوة بين الفلسفة والصوفية ص ٢٥.

وقال في موضع آخر: «الإنسان مدني بطبعه، والتمدن عبارة عن اجتماع الناس، وهذا لا يخلو عن المعاوضة والمعارضة التي تحتاج إلى قانون ينظم هذا الاجتماع، لكي يذهب كل فرد لتحقيق ما يشتهي فيقع الجور والظلم، وينتشر الهرج والمرج، ويختل النظام ولكيلا يحدث هذا الاختلاف لا بد أن يتفقوا على العدل في المعاملة، وهذا يستدعي وضع قانون ينظم أمورهم وهذا القانون هو الشرع، والشرع لا بد له من شارع، ولا يصح أن يوكل إليه موضع هذا القانون لأنه سيؤدي إلى التنازع والتشاجر والاختلاف تبعاً لتباين العقول والأهواء، فلذلك ينبغي أن يمتاز الشارع عنهم بميزة لا توجد فيهم، وهي الآية التي تظهر على يديه، والتي عن طريقها يستدلون على صدقه وتستحثهم على قبول دعوته»<sup>(١)</sup>.

وكما ترى في النقول السابقة أن الفلاسفة وهي طائفة ضالة قد أقرت بضرورة النبوة من عدة وجوه إلا أنها ضلت في أهم الوجوه، وهو أن الفلاسفة زعمت - كما سيأتي تفضيل مذهبهم - أن هذا «النبى» أتى بالشرع الذي يخضع له الجميع من تلقاء نفسه، ولو أنهم أقروا بالمذهب الحق لتحقيق لهم غرضهم بصورة أعظم، فلئن يخضع الناس للمخلوق أعظم من أن يخضعوا للمخلوق.

وإقامة العدل الصادر من قوة عليا يخضع لها الناس كلهم من أكثر المسائل التي ركز عليها الفلاسفة في إثبات النبوة - على ضلالهم العظيم فيها - ومن ثم تبعهم المتكلمون في الأخذ بالعامل نفسه في إثباتهم للنبوة<sup>(٢)</sup>.

والرسالة ضرورة لإقامة العدل بين الناس لأمر نؤكد عليه وهو أن الذي يحمل الناس على الإذعان للشرع هو إيمانهم بالله الذي رضي لهم هذا الدين؛ فيمثلون أمره ونهيه، ويخضعون لحكمه، وهم يعلمون أن في ذلك الشرع مصلحتهم، فيأخذون به راضين، منشرحي الصدور<sup>(٣)</sup>.

«إن الأخلاق إذا كان يحميها القانون فقط، أو الضمير، أو الرأي العام؛ لم تكن أخلاقاً محصنة، فكل هذه الوسائل لا تمنع الإجرام، فكم من الجرائم يستطيع الإنسان ارتكابها ولا يصل إليها القانون، ولا الحكومة، ولا الرأي العام، وما سمي

(١) الإشارات والتنبيهات - بتصرف - القسم الرابع ت سليمان دنيا ص ٦٠.

(٢) انظر: نهاية الإقدام للشهرستاني ص ٣٧٥ - ٣٧٦، ومناهج الأدلة لابن رشد ص ٢١٠، والمغني، للقاضي عبد الجبار، ٣٧/١٥ وما بعدها.

(٣) انظر: النبوة اصلاح تقتضيه رحمة الله: سعدي ياسين ص ٩.

بالضمير ليس إلا مرآة منعكسة للعرف، والتقاليد، فالضمير في الهند كان يسمح للزوجة أن تُدفن حية مع زوجها، والضمير في أمريكا كان يسمح للأميركي الأبيض أن يعامل الزنيجي معاملة الإنسان للغنم، والدين هو الذي يسد هذه الثلمة، فيربط قلب الإنسان بربه، وضميره بإلهه، وإلهه مطلع على خفاياه، ويراقبه حتى في خلجات نفسه<sup>(١)</sup>.

### - الرسالة ضرورة أخلاقية:

عصف بالميزان الأخلاقي ما عَصَفَ بالعقائد من زوابع الضلالة، وقد أصبحت القيم الأخلاقية والثوابت السلوكية أموراً مختلفاً فيها، قابلة للنزاع، وذلك على يد الذين لم يأخذوا بمنهج الرسائل، والتفاوت في معايير الفضيلة أدى إلى الفوضى والتنازع بين البشر لتصادم الأهواء، وتناقض الآراء، فإن الخير في نظر أحدهم شراً في نظر الآخرين. وقد أودع في النفس البشرية مجموعة من القوى والغرائز، كالقوة الشهوانية البهيمية، والقوة العصبية السُّبُعية، وغيرها...

يرى أبو حامد الغزالي فيها أن الإنسان لو تَرَكَ لهذه القوى العنان دون شريعة تحدد لها موازين الخير والشر لضل وأضل بمقدار ما ركب فيه من تلك الغرائز والشهوات، فالشرع يُروِّض القوى النفسية، ويمنعها من متابعة الشهوة، والتخيلات الخاطئة، والتوهمات الباطلة<sup>(٢)</sup>.

ولنطلع - سريعاً - على المناهج المختلفة، والمدارس المتباينة في مفهوم الأخلاق - عندهم - والتي ظهرت في ثلاثة أشكال:  
أولها: ما دعا إليه «بوذا»<sup>(٣)</sup>:

(١) فلسفة التوحيد والنبوة، محمد جواد مغنية ص ٧٧ - ٧٨.

(٢) انظر: إحياء علوم الدين: كتاب رياضة النفس.

(٣) عاش بوذا في نحو سنة ٥٠٠ ق.م، شمال شرقي الهند وتنحدر أسرته من أسر ملوك الهند، طُلُقَ ملذات الحياة وعيشة الترف التي كان ينعم بها، وأسس فلسفة أخلاقية تدعو إلى الانسحاب من الحياة والزهد فيها، مع إنكاره لوجود الآلهة ولوجود الله كذلك، ولعل سبب انتشار ديانتته أنها ثارت على النظام الطبقي في الهند، وأن هذه الثورة جاءت من أمير له مكانته، تتغير البوذية من زمن لآخر إلا أنها لم تفقد إلحاديتها ونظامها الأخلاقي القاسي، والبوذية ديانة واسعة الانتشار يقدر أتباعها بـ ٥٠٠ مليون يقطنون شرق آسيا، وقد أخرجها الإسلام من الهند فانتقلت إلى أطراف شبه القارة الهندية، ثم إلى الصين =

من فضيلة الرحمة واللين والمحبة لكل أحد، والمساواة بين الناس كلهم.  
وثانيها: ما دعا إليه «ميكافيللي»<sup>(١)</sup>:

من تقديم العنف والغلبة، والتفريق بين الناس في الحقوق، وتمجيد الحروب لذاتها، واعتبار (القوة) هي الفضيلة الكبرى...  
وثالثها: ما دعا إليه الفلاسفة الأوائل<sup>(٢)</sup>:

الذين أنكروا وضع ضوابط محددة، وإنما يحكم الإنسان عقله تبعاً للظروف.  
ثم جاء إمام فلاسفة الغرب الحديث «سبينوزا»<sup>(٣)</sup> فزعم أنه «قدم لنا نظاماً

= وتمركزت فيه وفي تايلند ويورما ونيبال، وللغرب اهتمام كبير بها الآن، وولّه واحتفاء غير عادي برئيسها الحالي «دلالي لاما» وهذا الأمر يحتاج إلى دراسة وتحليل. انظر الموسوعة الفلسفية: مجموعة من الأكاديميين ص ٩١ - ٩٢، والموسوعة الفلسفية: د. عبد المنعم الحنفي ص ١١٧، ومعجم الفلاسفة: جورج طرابيشي ص ١٩٧ - ١٩٩، ومن الأقوال العجيبة في موضوع البوذية أن خليفة بن إسماعيل الإسماعيل - كاتب معاصر - كتب عن البوذية فقال: هناك وجهة نظر إسلامية ترى أن بوذا كان أحد أنبياء الله، وأنه كان من عباد الله الصالحين، ولم يعز هذه المعلومة إلى أي مصدر. انظر كتابه: كيف تعرفهم؟ ص ١٤.

(١) هو نيقولا ميكافيللي (١٤٦٩ - ١٥٢٧م)، اشتهر بكتابه «الأمير»، جاء بطريقة جديدة في علاقة السياسة بالأخلاق إذ رأى أن الحاكم ينبغي أن يتجرد من الضمير، وأن يتجاوز معاني الخير، ويتوجه لبناء الدولة القوية مستخدماً في سبيل ذلك ما يراه مناسباً من الوسائل طبقاً لما تملّيه عليه الظروف وقال: إن السياسي لا يحتاج إلى الفضائل، ولكنه يحتاج إلى القوة، ويرى الفيلسوف الآخر «نيتشه» - من أكبر فلاسفة الغرب - «النموذج الإنساني» مجرداً من أخلاق الرحمة والرفق والعطف إذ هي أخلاق العبيد وثقافة المنحطين لا السادة الأقوياء - معتمداً على فلسفة ميكافيللي -. انظر الموسوعة الفلسفية: د. عبد المنعم الحنفي ص ٤٤٣ - ٤٤٤، وص. ٤٩.

(٢) وهم: سقراط وأفلاطون وأرسطو، وتابعهم كثير من الفلاسفة المتأخرين.

(٣) باروخ بنديكت سبينوزا (١٦٣٢ - ١٦٧٧م) فيلسوف مادي هولندي، طردته الجالية اليهودية بأمستردام من مجتمعهم، اعتبر الطبيعة هي علة نفسها ولا تحتاج إلى شيء عداها من أجل وجودها!!، وقد عمل الكثير لترويج الإلحاد وما يسمونه بالتفكير الحر، ونادى بجعل الدين للمبادئ الأخلاقية السامية، وفي هذا يكمن السبب في أنه لا ينبغي للدين أو الدولة المساس بحرية الفكر، وكان له تأثير قوي على مادية القرنين ١٧ - ١٨م، انظر: الموسوعة الفلسفية: وضع لجنة من الأكاديميين، ترجمة سمير كرم ص ٢٤٢ - ٢٤٣، ومعجم الفلاسفة: جورج طرابيشي ص ٣٥٩ - ٣٦٠.

أخلاقياً يُعد أسمى ما وصل إليه الفكر الحديث»<sup>(١)</sup>.

وسبينوزا هذا لا يؤمن بالتواضع، ويراها نفاقاً وتملقاً ووجلاً، ويرى أن لوم النفس ومحاسبتها عيباً، وقد أقام نظامه الأخلاقي على اللذة، وتقديس الذات والأنانية، وأن الناس في الواقع برآء مما يقترفون من آثام، وعلينا أن تأخذنا الرحمة في معاقبة الأشرار لأنهم لا يعلمون ما يفعلون!!<sup>(٢)</sup>.

هل يعقل أن تكون الأخلاق عرضة للتلاعب إلى هذا الحد؟ لقد عاشت البشرية واقعاً سيئاً جداً عندما أخذت بأقوال هؤلاء القوم حينما عبثوا بقيم الناس عبثاً أوصلهم إلى أن أصبح المعروف عندهم منكراً والمنكر معروفاً، وهذا شأن من حاد عن الرسائل.

### الرسالة ضرورة نفسية:

إن الذين يؤمنون برسالة الرسل يتصفون بطمأنينة النفس، قادرين على اجتياز عقبات الحياة ومآسيها، متوكلين على ربهم، مؤمنين بالقدر خيره وشره يستقبلون صنوف الابتلاءات بيقين لا يتزعزع، إذ كل بلاء عندهم دون النار عافية، وكل نعيم دون الجنة حقير، المؤمن يفرغ إلى الصلاة إذا داهمه خطب، يفر إلى الله الرحمن الرحيم إذا زل أو ضل، هكذا يعيش من يؤمن بهدي الرسل وما جاؤوا به، وشتان بينهم وبين من بحثوا عن الطمأنينة خارج نطاق دين المرسلين، فتراهم يركضون وراء سراب خادع، يزيد الظمآن ظمأً، ولست بحاجة إلى برهان على ما ذكرت (لأن التاريخ القديم والحديث شاهد على ما قلت، فالأمم الكافرة من خلال وضعها العقائدي والاجتماعي والنفسي عبارة عن: شريكيات، وانتحارات، واضطرابات، وقلق وتوتر، وسخط وتبرم على الذات، وعلى الدهر، وعلى المجتمع، وعلى كل شيء، مهما تيسرت سبل العيش المادية، ولقد فشل العالم الغربي كله بحضارته المادية، وبصيغته المختلفة في إسعاد الإنسان وتحقيق أمله في حياة مطمئنة هادئة تكفل له الحياة الطيبة.

### - حكم إرسال الرسل على الله تعالى:

تبيّن فيما سبق مدى ضرورة الرسالة، ولذلك اختلف المتكلمون في القول

(١) انظر: قصة الفلسفة: ويل ديورانت، فصل العقل والأخلاق ص ٢٢٥ - ٢٢٦.

(٢) المصدر السابق ص ٢٣٢.

بوجوب إرسال الرسل على الله - تعالى - على مذاهب:

ذهب المعتزلة بناء على القاعدة المقررة عندهم بأن الحسن والقبح عقليان يكون إرسال الرسل حسناً بمقتضى العقل، وعدم إرسال الرسل يكون قبيحاً، وعلى ذلك يكون إرسال الرسل - عندهم - واجباً على الله تعالى<sup>(١)</sup>. ولهذا قالوا: «متى حسنت البعثة وجبت»<sup>(٢)</sup>. ومعنى الواجب على الله تعالى - عندهم - هو الذي لا يقتضي سلب الإرادة عنه تعالى أو الاختيار، فهو يستطيع أن يفعل أو يذر، ولكنه في حال البعثة يختار الفعل لأن البعثة حسنة، وفعل ما هو حسن من مقتضيات الحكمة، ويسمونه الوجوب العقلي<sup>(٣)</sup>، هذا وقد اقترنت الماتريديّة من المعتزلة كثيراً في هذه المسألة<sup>(٤)</sup>، بل قد ذهب بعض الفلاسفة إلى أبعد من هذا فقالوا بوجوب البعثة على الله بمعنى لزومها فتكون واجبة الصدور عن الله تعالى فلا يكون لله ثمة اختيار<sup>(٥)</sup>! ويقول الآمدي<sup>(٦)</sup>: «فالنبوة عند الفلاسفة الإسلاميين من الواجب العقلي؛ على معنى: أنه لم يكن من العقل بد من حصول لطف المبدأ الأول وإفاضة الجود»<sup>(٧)</sup>.

وذهب الأشاعرة إلى جواز إرسال الرسل على الله، وفي ذلك يقول التفتازاني<sup>(٨)</sup>: «فالحق أن البعثة لطف من الله تعالى ورحمة يحسن فعلها، ولا يقبح

- 
- (١) انظر: المغني، القاضي عبد الجبار ١٩/١٥ وشرح الأصول الخمسة ص ٥٦٤، والمسيرة في علم الكلام، الكمال بن الهمام ص ٨٠، والنبوة والنبؤ، د. طه الدسوقي ص ٨٠.
- (٢) المغني، للقاضي عبد الجبار ٢٠/١٥، والقاتل هو أبو هاشم المعتزلي.
- (٣) انظر: المسيرة في علم الكلام، للكمال بن الهمام ص ٨٠.
- (٤) انظر: كتاب التوحيد، لأبي منصور الماتريدي ص ١٧٩.
- (٥) انظر: شرح العقائد النسفية ص ٣٩٢.
- (٦) هو أبو الحسن علي بن محمد بن سالم التغلبي من آمد (ديار بكر) ولد بها وتعلم في بغداد والشام، برع في علم الأصول، ثم انتقل إلى القاهرة، فدرس فيها، وخرج منها مستخفياً إلى حما لما نسب إليه من التعطيل ومذهب الفلاسفة وتوفي بدمشق سنة ٦٣١هـ. انظر: ميزان الاعتدال ٤٣٩/١، ومفتاح السعادة ٤٩/٢، والأعلام ٣٣٢/٤.
- (٧) غاية المرام في علم الكلام، للآمدي ص ٣٢٩، ومذهب الفلاسفة القائلين بوجوب الرسالة قائم على مذهبهم الضال في الفيض. انظر: النجاة مختصر الشفاء القسم الثالث ص ٤٩٨ - ٥٠٠.
- (٨) سعد الدين مسعود بن عمر، ولد بتفتازان من أعمال خراسان، وتوفي في سمرقند، =

تركها على ما هو المذهب في سائر الألفاظ»<sup>(١)</sup>.

ويقول الشهرستاني: «وصارت الأشعرية وجماعة أهل السنة إلى القول بجواز وجود النبوة عقلاً»<sup>(٢)</sup>.

ولعل ما يشير الدهشة حقاً موقف المعتزلة حين يرون أن النبوة واجبة على الله ومع ذلك يذهبون إلى أن التكليف واقع قبل ورودها!!.

قلت: فما الحاجة إذن إلى النبوة إذا كان الإنسان مكلفاً ومحاسباً قبل ورود الشرع؟، والله سبحانه وتعالى فعال لما يريد، لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه، يحب العذر لعباده، وما كان سبحانه معذباً أحداً حتى يبعث رسولاً.

وقد نبه ابن سلوم<sup>(٣)</sup> إلى تنبيهين لطيفين في حكم الرسالة حيث ذكر في التنبيه الأول «أن إرسال الرسل... مئة من الله تعالى وفضل لا واجب عليه»، وفي التنبيه الثاني: «أن الرسالة ضرورية للعباد لا غنى لهم عنها، وحاجتهم إليها فوق حاجتهم إلى كل شيء...»<sup>(٤)</sup>، ولعله بهذين التنبيهين قد توسط بين المذهبين السابقين.

فعندنا متعلقان بالنبوة؛ أحدهما متعلق بالله تعالى، وتكون النبوة منه تعالى فضل وإنعام على عباده، وثانيهما متعلق بالعباد؛ إذ حاجتهم إليها فوق كل حاجة، ولذلك جاءهم من الله موعظة، وشفاء لما في الصدور، وهدى، ورحمة للمؤمنين، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]، فالرسالة تشتمل على هذه الأمور الضرورية التي نصت عليها الآية وهي أنها:

---

= وكان من علماء المنطق والكلام والبلاغة والفقه، ويغلب على كتبه الطابع التعليمي، ولذلك بقيت كتبه ضمن مناهج كثير من دور العلم عند الأشاعرة، أقام بسرخس، وأبعده تيمورلنك إلى سمرقند، وتوفي بها سنة ٧٩٣هـ انظر: البدر الطالع ١٢/٢، الأعلام ٢١٩/٧.

(١) شرح المقاصد ١٢٩/٢.

(٢) نهاية الإقدام ص ٤١٧.

(٣) هو محمد بن علي بن سلوم التميمي النجدي، عالم بالفرائض، ولد في قرية من قرى سدبر بنجد، وانتقل إلى الأحساء، ثم سكن سوق الشيوخ، وتوفي بها سنة ١٢٤٦هـ انظر الأعلام ٢٩٧/٦ - ٢٩٨، ومعجم المؤلفين ٥١٣/٣ - ٥١٤.

(٤) مختصر لوامع الأنوار البهية ص ٤٥٠.



- (موعظة): للزجر عن كل ما لا ينبغي؛ كالطبيب الذي ينهى مريضه عما يضره.

- (وشفاء لما في الصدور): لعلاج أمراض الشبهات والشهوات، وحصول العقائد الصحيحة والأخلاق الحميدة، فتصح القلوب وتسلم بدواء الرسالة من العقائد الفاسدة والأخلاق المذمومة.

- (وهدي): لمعرفة الطريق المستقيم وترك السبل المتفرقة.

- (ورحمة): لكل من أراد النجاة والسلامة في الدنيا والآخرة.

وبعد هذا التثبيت لضرورة الرسالة السماوية لبني آدم، نكون قد قطعنا شوطاً مهماً ومرحلة كبيرة من البحث لأنني أعتقد أن الذين يؤمنون بوجود الله كلهم ينقسمون إلى فريقين:

- فريق يؤمن بالله رباً ولكنهم لا يهتدون بهديه الذي ارتضاه لهم، ولا يأخذون برسالته التي أرسلها إليهم عن طريق رسله - عليهم السلام -، فتراهم يشركون معه غيره، ويصدرون عن غير دينه الذي أوحاه الله إلى أنبيائه ليرشدوا الناس إلى سبل السلام، وهؤلاء هم الأصناف الضالة الذين تناول البحث السابق مصادرهم بالنقض.

- وفريق يؤمن بالله رباً ويوحدونه ويهتدون بهدي رسله إليهم.

وليست مشكلات العالم ناشئة من إثبات وجود الله؛ لأن أكثر الناس يقرون بذلك فهو أمر فطري، وإنما الإشكال فيمن يؤمنون بالله وهم في الوقت نفسه يجحدون نعمته التي من الله بها عليهم، ولذلك كان من الضروري توضيح ضلال أولئك الجاحدين الذين اتخذوا غير سبيل المرسلين، واتبعوا غير هدي النبيين، فضلوا وأضلوا.

## المبحث الثاني نسبه و خلاصة سيرته

## المبحث الثاني نسبه ﷺ و خلاصة سيرته

### نسبه ﷺ الشريف:

محمد رسول الله ﷺ خير الناس نسباً وأعلامهم شرفاً، وقد شهد له سادة قريش بشرف الأصل، وعلو المحتد، فهذا أبو سفيان يقول - قبل إسلامه -: «هو فينا ذو نسب»<sup>(١)</sup>، وهذا إقرار بشرف نسبه ﷺ من أبي سفيان زعيم قريش على الرغم من عداوته لرسول الله ﷺ يومئذ، وقد اصطفى الله كنانة من بني إسماعيل، واصطفى من بني كنانة قريشاً، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفى رسوله محمداً ﷺ من بني هاشم<sup>(٢)</sup>. وقد بعثه الله الحكيم الخبير من خير القرون نسباً؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «بُعِثْتُ من خير قرون بني آدم قرناً فقرناً، حتى بعثت من القرن الذي كنت منه»<sup>(٣)</sup>.

### أما سرد نسبه ﷺ:

فهو محمد<sup>(٤)</sup> بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، الفتح ٣٢/١ (حديث هرقل) ح ٧، وأطراف الحديث مبثوثة في الصحيح في ١١ موضعاً. قال ابن حجر: «والتنوين في (ذو نسب) دليل على التعظيم» انظر المصدر السابق.

(٢) انظر نص الحديث في صحيح مسلم من حديث واثلة بن الأسقع في كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي ﷺ وتسليم الحجر عليه قبل النبوة ح ٢٢٧٦، وجامع الترمذي ٢٨١/٢ ح ٣٦٠٩، ومسنند أحمد ٢١٠/١.

(٣) أخرجه البخاري في المناقب، باب صفة النبي ﷺ، وأحمد في مسنده ٤١٧/٢.

(٤) ومن أسمائه: أحمد، والمأحى الذي يمحو الله به الكفر، والهاشر الذي يحشر الناس على قدمه والعاقب الذي ليس بعده أحد والمقفى أي المتبع النبیین وقيل بمعنى العاقب، ونبي الرحمة ونبي الملحمة: كان كثير الغزوات الملاحم، ونبي التوبة: حيث جاءت دعوته تفتح أبواب التوبة للناس مهما ضلوا وأخطؤوا، هذا ما جاء في الصحيحين: انظر صحيح =

بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، وعدنان من ولد إسماعيل بن إبراهيم.

وهذا هو النسب الصحيح المتفق عليه<sup>(١)</sup>، وما فوق ذلك مختلف فيه<sup>(٢)</sup>.  
وأُمّه: آمنه بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة.

---

= البخاري كتاب الأنبياء باب ما جاء في أسماء النبي ٨/٤٩٢ ح ٤٨٩٦، وصحيح مسلم كتاب الفضائل باب في أسمائه ح ٢٣٥٤، ٢٣٥٥، وله ﷺ أسماء أخرى في غيرهما، وانظر: طبقات ابن سعد ١/١٠٤، ودلائل النبوة لأبي نعيم ١/٣٦ - ٣٧، ودلائل النبوة للبيهقي ١/١١١، وانظر: الرياض الأنيقة في شرح أسماء خير الخليقة، للسيوطي.

قال الذهبي: «قد تواتر أن كنيته أبو القاسم» تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام - السيرة النبوية -، للذهبي، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري ص ٣٣.  
(١) وقال الذهبي عن هذا النسب الشريف بهذه السرد: «هذا بإجماع الناس» تاريخ الإسلام ص ١٦

(٢) وقد اضطربت أقوال الناسيين فيما فوق عدنان، فلا يكادون يجمعون على جد لعدنان، قال ابن سعد: الأمر عندنا الإمساك عما وراء عدنان إلى إسماعيل.  
وقال عروة بن الزبير: ما وجدنا من يعرف ما وراء عدنان ولا قحطان إلا تخرصاً.  
وقال السهيلي: وما بعد عدنان من الأسماء مضطرب فيه.  
بل قد روي من طريق ابن عباس أنه لما بلغ عدنان قال: كذب النسابون - مرتين أو ثلاثاً - وروي ابن مسعود أيضاً مثله.

وروي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: إنما نسب إلى عدنان وما فوق ذلك لا ندري ما هو. وقال القضاعي: وقد اختلف النسابون فيما بين عدنان وبين إسماعيل اختلافاً كثيراً... فقد أضلت العرب ما فوق عدنان وقحطان إلا تخرصاً لم يأت به كتاب ولا سنة، والانتصار على معد بن عدنان وقحطان في الأنساب أولى.  
انظر: طبقات ابن سعد ١/٥٨، والبروض الأنف ١/١١١، تاريخ الإسلام ص ١٧، وتاريخ القضاعي ص ١١٠.

وانظر بقية النسب الشريف في: سيرة ابن هشام ١/٣٤ - ٣٦، وكتاب الشجرة النبوية في نسب خير البرية ﷺ لجمال الدين يوسف بن عبد الهادي المقدسي (ابن المبرد) ص ٣.

## خلاصة سيرته ﷺ<sup>(١)</sup>:

ولد ﷺ يوم الاثنين<sup>(٢)</sup>، في شهر ربيع الأول<sup>(٣)</sup> من عام الفيل، العام الذي أهلك الله فيه إبرهة الحبشي وجيشه لما أرادوا هدم الكعبة، وكان دينهم إذ ذاك النصرانية، فهم أقرب حالاً مما كان عليه أهل مكة عباد الأصنام، ولكن نصر الله تعالى كان لأهل مكة، نصراً لا صنع فيه لبشر، ليعلم أهل مكة أن الله ما نصرهم لخيريتهم على أهل الحبشة، ولكن صيانة للبيت العتيق وإيداناً ببعثة خاتم الأنبياء محمد ﷺ

وصاحب مولده أحداثٌ غير عادية، أصحابها: أن آمنة أم رسول الله ﷺ رأت حين وضعته نوراً أضاءت له قصور الشام<sup>(٤)</sup>.  
وقد توفي أبو الرسول ﷺ وأمه حامل به، وكان لأبيه خمس وعشرون سنة<sup>(٥)</sup>.

وقد أمضى ﷺ فترة رضاعته عند حليلة السعدية في ديارها في بني سعد

---

(١) لا أبالغ إن قلت إن هذا المبحث كان من أشق المباحث في الرسالة عليّ، وقد أضافه مجلس الكلية ولم يكن من أصل الخطة - ولعل في ذلك خيراً لي وللرسالة - ، حيث إن البحث العقدي يختلف عن السرد التاريخي للسيرة، لذلك حاولت أن أوفق بين الأمرين بما يناسب موضوع الرسالة، وأسأل الله التوفيق.

(٢) قال صلى الله عليه وسلم: «ذاك يوم ولدت فيه، وفيه أوحى إليّ» رواه مسلم في كتاب الصيام باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر...، ح ١١٦٠.

(٣) ذهب إليه ابن كثير، والسهيلي، ونقل بعضهم الإجماع فيه.

انظر: سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد للصالح ٤٠٢/٢.

(٤) رواه أحمد في مسنده ١٢٧/٤، والحاكم في مستدركه، ووافقه الذهبي ٤١٨/٢ وروى ابن سعد بأسانيد متعددة أن آمنة لما وضعته خرج مع نور أضاء له ما بين المشرق والمغرب، انظر: طبقات ابن سعد ٩٦/١، ووقعت أحداث أخرى تحتاج إلى تحقيق، وقد ذكرها كتاب السيرة، ومنها: ارتجاس إيوان كسرى، وسقوط أربع عشرة شرفة من شرفاته، وخمود نار فارس ولم يحدث لها ذلك منذ ألف سنة، وغيرها انظر المصدر السابق وسيرة ابن هشام.

(٥) هذا ما جزم به ابن إسحاق ورجحه الواقدي وابن سعد، وصححه الذهبي وقال: ابن كثير إنه المشهور، وقال ابن الجوزي: إنه الذي عليه معظم أهل السير، وانظر: سبل الهدى والرشاد، للصالح ٣٩٨/٢.

حيث البيئة النقية. وبعد فطامه ﷺ حان وقت رجوعه ﷺ لأمه آمنة إلا أن حليلة أقنعت أمه ليبقى عندها لما رآته من بركته ﷺ عليها وعلى أهل بيتها وماله وأرضها ودابتها. ثم وقعت حادثة شق الصدر عندما كان في بني سعد حيث أتى ملكان لرسول الله ﷺ وشقا صدره واستخرجا منه علقه (وهي حظ الشيطان منه) وألقيا بها، وغسلاً قلبه بماء برد<sup>(١)</sup>. خافت عليه حليلة وزوجها من أن يصيبه مكروه فعادا به إلى أمه. فلم تفزع أمه آمنة من تلك الحادثة بل فرحت، وأخبرت حليلة أن لهذا الغلام شأنًا عظيمًا لكثرة ما رأت عليه من العلامات منذ أن حملت به ووضعت، مما جعلها على يقين بأن الشيطان لن يكون له على هذا الغلام سيلاً.

توفيت أمه ﷺ وهو ابن ست سنين فكفله جده، وأخذ يحوطه برعايته ويقربه أكثر من بنيه، ويُدنيه منه، ولكنه توفي أيضاً وكان لرسول الله ﷺ ثمان سنين، فاهتم به عمه أبو طالب - شقيق أبيه - وكان رحيماً رفيقاً به، ولما شب ﷺ لم يركن إلى تلك الرعاية من عمه بل كان ﷺ «يرعى الغنم على قراريط لأهل مكة»<sup>(٢)</sup>.

وكان ﷺ في شبابه مثلاً في حسن الأخلاق، ولا سيما الصدق والأمانة وكان ﷺ يلقب (بالأمين) ولعل قصة حُكمه ﷺ بين القبائل في اختلافهم الشديد فيمن يضع الحجر الأسود في مكانه حين إعادتهم بناء الكعبة لهو أكبر دليل على حكمته وأمانته وعدم انحيازه إلى قومه؛ وقد اتفقت القبائل على أن يجعلوا حكماً بينهم أول من يدخل باب بني شيبه ليقضي بينهم فكان ﷺ؛ ولما رأوه فرحوا به وقالوا: «أتاكم الأمين» فوضع رداءه وبسطه ثم وضع الركن فيه، وأخذت كل قبيلة بناحية من الثوب ورفعوه جميعاً حتى إذا بلغوا موضعه وضعه بيده الشريفة الطاهرة ثم بنوا عليه<sup>(٣)</sup>.

وقد طُهر ﷺ من دنس الجاهلية؛ فلم يعظم صنماً، ولم يعتقد شركاً بل

(١) انظر نص حادثة شق الصدر في: صحيح مسلم ١٤٧/١ ح ١٦١، والمسند ١٢٧/٤،

والمستدرک ٦٠٠/٢، وطبقات ابن سعد ١٣١/١، والبداية ٢٩٩/٢.

(٢) رواه البخاري في صحيحه ح ٢٢٦٢ ومعنى قراريط: جزء من الديار.

(٣) والقصة رواها أحمد في مسنده ٤٢٥/٣ وحسنها الألباني في تعليقه على كتاب فقه السيرة

للغزالي ص ٨٤.

كان ﷺ محفوظاً فلم يشهد منكرأ فضلاً عن أن يقع فيه<sup>(١)</sup>.

ولما سمعت خديجة بنت خويلد - وكانت امرأة قرشية حكيمة حازمة شريفة لبيبة - بصدقه وأمانته ﷺ بعثت إليه وعرضت عليه أن يخرج بمالها تاجراً إلى الشام، وجعلت بصحبته غلامها ميسرة فرأى من رسول الله صفات كريمة حكاها لسيدته خديجة فعرضت نفسها على رسول الله - وكانت امرأة يرغب أشراف الرجال في الاقتران بها - فأثرت رسول الله من بينهم، وكان في الخامسة والعشرين من عمره، وكانت هي في الأربعين من عمرها، فكانت نعم النصير لزوجها، وقد أنجبت لرسول الله جميع أولاده ما عدا ابنه إبراهيم<sup>(٢)</sup>.

ولما بلغ ﷺ الأربعين من عمره ظهرت عليه مبادئ النبوة فكان لا يرى رؤيا إلا وقعت مثل فلق الصبح<sup>(٣)</sup> ثم بدأ يخلو بنفسه في غار حراء أياماً وليالي يتقرب فيها من ربه<sup>(٤)</sup> بعيداً عن أهل مكة وجاهليتهم

ثم وقع أعظم حدث مر على البشرية؛ حيث تكرم مالك الملك، وتفضل ذو الرحمة الواسعة على الخلق باختيار أكرمهم محمد ﷺ ليكون رسولاً منه إلى الجن والإنس، حاملاً الرسالة الخاتمة.

وبينما كان رسول الله ﷺ في خلوته في غار حراء فجاءه الملك فقال: اقرأ. قال: ما أنا بقارئ. قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ. قلت: ما أنا بقارئ. فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ. فقلت: ما أنا بقارئ فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني فقال: ﴿اقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝﴾ [العلق: ١ - ٥]<sup>(٥)</sup>.

(١) انظر حماية الله لرسوله من الوقوع في دنس الجاهلية في صحيح البخاري ح ٣٦٤ ومسلم ح ٣٤٠.

(٢) انظر طبقات ابن سعد ٦/٨، والبداية ٣١٨/٢، ودلائل النبوة للبيهقي ٦٤٩/٢.

(٣) وشبهت رؤياه بفلق الصبح؛ لأن مبادئ أنوار شمس النبوة كانت الرؤيا، فما زال ذلك النور يتسع حتى أشرقت الشمس وتم نورها. انظر: سبل الهدى والرشاد، للصالحى ٢/٣١٨.

(٤) في رواية: «يتحنف» أي يتبع الحنيفية ملة إبراهيم، وفي أخرى: «يتحنث» أي ينقي نفسه ويظهرها من الحنث، كما يقال: يتأثم، ويتخرج.

(٥) رواه البخاري من حديث عائشة، كتاب بدء الوحي ح ٣، مع الفتح ٢٢/١.

ومن هول هذا الحمل الذي تحمله رسول الله ﷺ وهذا اللقاء الصعب بالملك: «... رجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقال: زملوني زملوني. فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر... فقالت: «كلا والله ما يخزيك الله أبداً؛ إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق»<sup>(١)</sup>، وفي رواية أخرى زيادة: «وتصدق الحديث» وفي أخرى: «وتؤدي الأمانة»<sup>(٢)</sup>. وهذه الصفات دليل على ما أقسمت عليه من نفي الخزي عن محمد ﷺ.

«فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى - ابن عم خديجة - وكان امرأ تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة: يا ابن عم اسمع من ابن أخيك. فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى. فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزل الله على موسى»<sup>(٣)</sup> أي صاحب السر الذي جاء بالخير لموسى وهو (جبريل) فعرف أنه رسول الله وتمنى ورقة أن يبقى مؤيداً للرسول في أثناء معاناته المشاق من قومه،

= وفي هذه الآيات الكريمات فوائد عظيمة أذكر منها ما لها صلة بموضوع إثبات الرسالة: أشارت الآيات الكريمات إلى إثبات الرسالة المحمدية من طريقين:

الطريق الأول: في قوله: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۚ﴾ [العلق: الآية ٢] فنقل الإنسان من مجرد علقه إلى كائن متكلم سميع بصير عليم هو بحد ذاته أمر معجز فما المانع أن يختص سبحانه بعض عباده بعلم مخصوص ينقله به من الأمية إلى النبوة فهو سبحانه الذي ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ﴾ [العلق: الآية ٥].

الطريق الثاني: في قوله: ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۚ﴾ [العلق: الآية ٤] فالذي علم البشر بطريق الكتابة قادر على تعليم من شاء علماً عظيماً بطريق آخر ولو كان «أمياً»، كتعليم آدم الأسماء كلها. انظر: مجموع الفتاوى ٢٦٣/١٦، وتفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٤٣٤/٣٠.

(١) رواه البخاري من حديث عائشة، كتاب بدء الوحي ح ٣، مع الفتح ٢٢/١. تكسب المعدوم: أي تعطي الناس ما لا يجدونه عند غيرك. وتقري الضيف: أي تهيم له طعامه وشرابه. ونوائب الحق: حوادثه، وإنما أضافت النوائب للحق لأنها تكون في الحق والباطل. انظر: المصدر السابق ٢٤/١ - ٢٥ وسبل الهدى والرشاد، للصالحى ٣٣٤/٢ - ٣٣٥.

(٢) المصدر السابق.

(٣) رواه البخاري من حديث عائشة، كتاب بدء الوحي ح ٣، مع الفتح ٢٢/١.



وأن يكون قوياً لنصرة الدعوة في ابتدائها، تأكيداً منه لصحة ما جاء به ﷺ وإيماءاً بتصديقه، ولكنه لم يلبث أن تُوفي، ثم فتر الوحي<sup>(١)</sup> فتأخر مدة من الزمن ليذهب ما وجده ﷺ من الروح، وليحصل له التشوف إلى العود<sup>(٢)</sup>.

وفي فترة الوحي تلك وبينما رسول الله ﷺ يمشي؛ إذ سمع صوتاً من السماء، فرفع بصره ﷺ فإذا الملك الذي جاءه بغار حراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فرعب منه، فرجع يقول: «زملوني فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبُّكَ فَكَثِيرٌ ﴿٣﴾﴾ [المدثر: ١-٤] فحمي الوحي وتتابع<sup>(٣)</sup>.

والمعنى: يا أيها المتدثر بشيابه من الرعب لرؤية ملك الوحي لا تخف وأقبل على الإنذار بعذاب الله، وعظم ربك بتنزيهه من كل نقیصة، ووصفه بصفات الكمال، وعبادته والرغبة إليه دون غيره، وطهر نفسك من الإثم والذنوب، ولا تلبس ثوبك على معصية، واهجر النجاسات التي يعبدونها المشركون كالأصنام والأوثان<sup>(٤)</sup>.

ثم تتابع نزول الوحي، ونزلت سورة «الضحى» مقسمة به على أن الله الذي أكرم محمداً ﷺ بالرسالة ما ودّعه وما قلاه. قال تعالى: ﴿وَالضُّحَى ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴿٣﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرَى ﴿٥﴾﴾ [الضحى: ١-٥]<sup>(٥)</sup>.

(١) الوحي في لغة: الإعلام في خفاء، واصطلاحاً: الإعلام بالشرع، ويطلق على جبريل لأنه حامل الوحي، وقد يُطلق الوحي ويراد به اسم المفعول منه أي الموحى، وهو كلام الله المنزل على النبي. انظر: فتح الباري ٩/١.

(٢) أشار إلى هذا المعنى ابن حجر ٢٧/١، وعزاه إلى ما أفادته رواية البخاري في كتاب التعبير للحديث نفسه، فرجعت إلى كتاب التعبير فوجدت الحديث برواية معمر، وفيه: «وفتر الوحي فترة حتى حزن النبي ﷺ فيما بلغنا حزناً غداً منه مراراً كي يتردى من رؤوس شواهق الجبال، فكلما أوفى بذروة جبل كي يلقي بنفسه تبيدي له جبريل فقال: يا محمد إنك رسول الله حقاً، فيسكن لذلك جأشه، وتقر نفسه فيرجع» رواه البخاري في صحيحه، كتاب التعبير، باب أول ما بُدئ به رسول الله من الوحي الرؤيا الصادقة ٣٥١/١٣ - ٣٥٢.

(٣) رواه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي ح ٤، مع الفتح ٢٧/١، وجاء في ثمانية مواضع من الصحيح

(٤) انظر: تفسير ابن جرير الطبري ١٤٣/١٤ - ١٤٨.

(٥) انظر: طبقات ابن سعد ١٩٦/١، وسيرة ابن هشام ٢٤١/١، وفتح الباري ٢٧/١ - ٢٨.

وكان ﷺ حريصاً على ضبط القرآن وحفظه أثناء قراءة جبريل - عليه السلام - لئلا ينفلت منه ﷺ؛ فكان يحرك لسانه بالقراءة، ويعالج من التنزيل شدة: «فأنزل الله تعالى ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَتَّبِعَ بِهِ﴾ ١٦ ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ ١٧ [الْقِيَامَةُ: ١٥ - ١٦] قال: جمعه لك في صدرك وتقرأه ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاقْبَرْهُ﴾ ١٨ [الْقِيَامَةُ: ١٨] قال: فاستمع له وأنصت ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ ١٩ [الْقِيَامَةُ: ١٩]: ثم إن علينا أن تقرأه، فكان ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل استمع، فإذا انطلق جبريل قرأه النبي ﷺ كما قرأه»<sup>(١)</sup>.

وكان الوحي يأتي رسول الله ﷺ أحياناً مثل صلصة الجرس فيسمعه الجالسون عنده وكأنه دوي النحل، وهو أشده عليه فإذا فارقه وعى عنه ما قال، وأحياناً يتمثل له الملك رجلاً فيكلمه - وينفث في روعه - فيعي ما يقول<sup>(٢)</sup>.

وكان ﷺ يعاني من التعب والكرب لما ينزل عليه الوحي لما فيه من مخالفة العادة وكونه أمر طارئ زائد على الطباع البشرية؛ قالت عائشة - رضي الله عنها -: «ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه، وإن جبينه ليتفصد عرقاً»<sup>(٣)</sup>.

فكانت بعثته ﷺ كالغيث الذي اضطر الخلق إليه، فأحيا به القلوب وأغاث به النفوس، فمن الناس من كان كالأرض الطيبة التي شربت الماء فانتفعت به، ومنهم من زادت طبيته فانتفع في نفسه ونفع غيره كالصحابة رضي الله عنهم ومن سار على هديهم. وهناك من لم يقبل هذا الغيث مع حاجته إليه فأصبح كالأرض الصماء الملساء يمر عليها الماء فلا تنتفع منه بشيء، بل منهم من أفسد هذا الغيث على غيره كالأرض السبخة التي تفسد الماء<sup>(٤)</sup>.

وهذه هي مواقف الناس من رسالته ﷺ قديماً وحديثاً.

(١) رواه البخاري من حديث ابن عباس في كتاب بدء الوحي ح ٥، الفتح ٢٩/١، والآيات الواردة في الحديث هي من سورة [الْقِيَامَةُ: ١٦ - ١٩].

(٢) انظر فتح الباري - بتصرف -، حيث حاولت الجمع بين الصفات الواردة في مجموع الأحاديث اعتماداً على ما ذكره ابن حجر - رحمه الله - ١٨/١ - ٢١.

(٣) رواه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي ١٨/١ ح ٢، ويتفصد: يسيل.

(٤) هذا معنى حديث رواه الباري في صحيحه في كتاب العلم، باب فضل من علم وعلم ١/١٧٥.

وقد جعل الله رسوله الأمي ﷺ: هادياً، وشاهداً، ومبشراً، ونذيراً، ورحمة للعالمين، وداعياً إلى الله بإذنه، وسراجاً منيراً، وكان بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً، جعل آيته الكبرى ومعجزته العظمى القرآن الكريم الذي تحدى به بلغاء العرب وفصحاءهم فأقروا بحلاوته وقوته وبيانه وعلوه، ولم يتجرؤوا على محاكاته، وكان غاية جهدهم منصباً على صد الناس عنه حتى قال قائلهم بعد جهد مضمّن: ﴿... إِنْ هَذَا إِلَّا نَجْمٌ يُزْجَرُ ۝﴾ [المدثر: ٢٤]. ولا يزال التحدي به قائماً في كل زمان، ظاهراً للعيان، ولم ولن يصمد أمامه أحد إلى قيام الساعة.

أسلم في أول الأمر ألصق الناس به ﷺ لعلمهم اليقيني بصدقة ﷺ، فأسلمت زوجه خديجة بنت خويلد - رضي الله عنها - ، وأسلم الصديق أبو بكر - رضي الله عنه - من الرجال، وأبو الحسن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - ابن عمه من الصبيان، وكانت دعوته ﷺ أول أمره سرية محصورة في الأقربين.

ثم صدع بالدعوة، وبدأ دين الله يتشر شيئاً فشيئاً، فعارضه سادة قريش بشدة ولجؤوا إلى أسلوب التخويف والتعذيب والترهيب، وإلى أسلوب المداينة أحياناً فلم يفلحوا في ثنيه ﷺ عن دعوته، وضرب أروع الأمثلة في الثبات، ثم استخدم المشركون أسلوب التضييق والحصار المعنوي والحسي<sup>(١)</sup>، فما كان منه ﷺ إلا أن اتخذ من الهجرة ملاذاً آمناً من التعذيب والإيذاء، فهاجر مجموعة من المسلمين إلى الحبشة حيث كان ملكها من أهل الكتاب وكان ملكاً عادلاً لا يظلم عنده أحد.

وفي السنة العاشرة من البعثة مات عمه أبو طالب على الكفر بالرغم من إلحاح الرسول ﷺ عليه حتى اللحظات الأخيرة فنزلت: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ۝﴾ [القصاص: ٥٦]، وماتت في العام نفسه مناصرتة الأولى زوجته خديجة - رضي الله عنها - فسمي ذلك العام بعام الحزن.

وكان ﷺ يتألم كثيراً لإصرار قومه على الكفر، كما قال تعالى: ﴿لَمَّا بَلَغَ نَفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۝﴾ [الشعراء: ٣] وقال: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ نَفْسَكَ عَلَى آثَرِهِمْ

(١) كحصار المشركين لبني هاشم في شعب أبي طالب سنة ٧هـ وقطعوا عنهم الطعام والبيع والشراء وهجروهم فلا يناكحونهم ولا يخالطونهم، وكتبوا في ذلك صحيفة حتى بلغ بالمحاصرين الجهد مدة ثلاث سنوات، وقيل سنتين.. انظر خبر الحصار في سيرة ابن هشام ٣٧٥/١.

إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ [الكهف: ٦]؛ فنهاه تعالى عن هذا التأسف الشديد الذي يصيبه من جراء عدم قبول بعضهم لدعوته فقال تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨]، ولقد كان ﷺ حريصاً أشد الحرص على دخول الناس في الإسلام لما يعلم من عظم الأمر الذي يحمله.

وبعد أن لاقى رسول الله ﷺ من أهل مكة الإيذاء والحرَج والتضييق خرج إلى الطائف في أواخر السنة العاشرة من البعثة، فدعا أهلها فلم يجيبوه، بل أغروا به سفهاءهم فجعلوا يرمونه ﷺ بالحجارة حتى دميت رجلاه، فانصرف ﷺ محزوناً.

ثم أسري برسول الله ﷺ جسداً وروحاً يقظةً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ليلاً، ثم عرج به إلى السموات العلا؛ ليرى من آيات ربه الكبرى، وفي تلك الليلة فُرضت الصلوات الخمس<sup>(١)</sup>.

ولما أراد الله إظهار دينه ونصر نبيه ﷺ جاء نفرٌ من أهل المدينة للحج وكانوا لا يتجاوزون العشرة فوافاهم رسولُ الله ﷺ وعرضَ عليهم الإسلام، وقرأ عليهم القرآن، فما كان منهم إلا أن استجابوا لله ورسوله وآمنوا به وصدقوه، فلما قفلوا إلى المدينة دَعَوْا إلى الإسلام، وبدأ ينتشر فيها شيئاً فشيئاً.

فلما كان في العام المقبل لقيه اثنا عشر رجلاً من الأنصار عن العقبة فأسلموا وبايعوا، ثم انصرفوا إلى المدينة، وبعث معهم ﷺ مصعب بن عمير - رضي الله عنه - يعلم من أسلم، ويدعو من لم يسلم، وأسلم على يديه خلق كثير من الأنصار، ثم وافى منهم - ٧٣ رجلاً وامرأتان - رسولُ الله ﷺ في الحج خفية، وبايعوه على الإسلام، وعلى أن ينصروه ويدافعوا عنه، ويمنعوا منه ما يمنعون منه أنفسهم ونساءهم وأبناءهم.

وكان الأذى يشتد بالمسلمين بمكة فشكا أصحاب رسول الله ﷺ إليه حالهم واستأذنوه في الهجرة إلى المدينة فأذن لهم، فخرجوا أرسالاً مختلفين قادمين على الأنصار فأوَّههم ونصروهم وواسوهم، ولم يبق بمكة إلا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعلي، أو مفتون محبوس، أو مريض، أو ضعيف عن الخروج.

(١) انظر للتوسع: زاد المعاد، لابن القيم ٢٤/١، وسبل الهدى والرشاد، للصالحى ١/٣ - ٢٤٧.

وأراد المشركون منع رسول الله ﷺ من الهجرة باغتياله بطريقة خبيثة فأخذوا من كل قبيلة غلاماً قوياً وأعطوه سيفاً ليضربوه مجتمعين ضربة رجل واحد، ويتفرق دمه ﷺ في القبائل، ولكن الله عصمه ﷺ منهم، وأعمى أبصارهم، وخرج ﷺ من بيته سالماً فلم يروه، وأبقى علياً في فراشه، وبقي المشركون عند بيته يرصدون مضجعه ويتربصون به، ولما علموا أنه ﷺ قد نجا من بين أيديهم لم يأسوا وأسرعوا للحاق به ﷺ وبصاحبه أبي بكر في الطريق إلى المدينة وكادوا أن يظفروا بهما حينما وصلوا غار ثور، وكان رسول الله ﷺ وصاحبه مختبئين فيه، وخاف أبو بكر على رسول الله ﷺ ولكن الله كان معهما فهياً لهما أسباب النجاة حتى وصلا إلى قباء، وفي ذلك قال تعالى: ﴿لَا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَالِثَ أَثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَخْرُجْ إِنَّا اللَّهُ مَعَنَا فَاَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدُوهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْغَلِيظُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة: ٤٠] .

وقال ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرَ الْمَكْرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال: ٣٠] .

وتأخر علي - رضي الله عنه - بمكة ثلاثة أيام ليؤدي الودائع التي كانت عند رسول الله ﷺ إلى أهلها، ثم لحق بالنبي ﷺ بقباء حيث أقام بها ﷺ أياماً وأسس مسجدها، ثم نزل ﷺ بالمدينة حيث بركت ناقته ﷺ، وكان ذلك موقع مسجد النبي ﷺ، وقد تنافس أهل المدينة في استضافته ﷺ فنزل عند أبي أيوب الأنصاري - رضي الله عنه - حيث بركت الناقة قريباً من بيته، إلى أن بنى الصحابة المسجد النبوي باللبن وجذوع النخل والجريد، وكان ﷺ ينقل معهم الحجارة، وجعل مساكنه بجوار المسجد. وأخى ﷺ بين المهاجرين والأنصار على الحق والمواساة، وكانت هجرته ﷺ وهو ابن ثلاث وخمسين سنة.

بدأت شعائر الإسلام وأحكامه تنتزل على الناس بالمدينة - بعد أن ترسخ التوحيد في النفوس وخالط الإيمان بشاشة القلوب - وكان كثير من تلك الأحكام ينزل بمناسبة سؤال أو واقعة، ولذلك كان نزول القرآن من السماء منجماً، ومن الشرائع التي نزلت بالمدينة؛ الإذن بالقتال للظلم الذي وقع على المسلمين ولكونه وسيلة من وسائل نشر الدين والدفاع عنه إذ لا تزال قوى الظلم تمنع الناس عن

معرفة الحق أو تصدهم عنه .

فوقعت غزوة بدر الكبرى في السنة الثانية من الهجرة وهي البطشة التي أعز الله بها الإسلام وأهلك بها رؤوس الكفر، وهزم جمعهم .

ثم توالى الغزوات وتتابع نزول الأحكام، ولم تكن نتيجة المعارك في صالح المسلمين دائماً وكانت سجالاً، فقد أصيب المسلمون في غزوة أحد في السنة الثالثة للهجرة بنكبة كبيرة حينما خالف بعض الرماة خطة رسول الله ﷺ وعصوا أمره .

ولم تتوقف الدعوة لنشر دين الله على الجهاد أو دعوة قوم معينين، بل كان رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام يسلكون جميع الوسائل المشروعة لنصرة الإسلام؛ ومن ذلك إرساله الرسل بالكتب إلى أقطار الأرض يدعوهم فيها إلى الإسلام؛ فأرسل كتاباً إلى النجاشي «ملك الحبشة» فأسلم<sup>(١)</sup>، وكتاباً إلى هرقل «عظيم الروم» فعظم كتابه وهمّ بالإسلام ولما أحس بانقلاب الروم عليه، خافهم على ملكه فأمسك، وكتب ﷺ إلى كسرى ملك فارس كتاباً فمزقه، فدعا عليه رسول الله ﷺ فمزق الله ملكه وبادت دولة الفرس في زمن عمر - رضي الله عنه -، وأرسل ﷺ إلى المقوقس «ملك الإسكندرية ومصر» فقال خيراً وقارب أن يسلم ولكنه ضمن بملكه، وأرسل بهدايا لرسول الله ﷺ. وأرسل ﷺ عمرو بن العاص إلى ملكي عُمان فأسلما، وقال أحدهما واسمه الجُلَنْدَى: «لقد دلني على هذا النبي الأمي أنه لا يأمر بخير إلا كان أول آخذ به، ولا ينهى عن شر إلا كان أول تارك له، وأنه يغلب فلا يبطر، ويُغلب فلا يهجر، وأنه يفي بالعهد، وينجز الوعد، وأشهد أنه نبي»<sup>(٢)</sup>. وأرسل ﷺ إلى ملك اليمامة<sup>(٣)</sup> وإلى ملك البلقاء من أرض الشام، وإلى

---

(١) روي أنه أخذ كتاب رسول الله ﷺ ووضع على عينيه ونزل عن سريره ثم أسلم وحسن إسلامه وقال: لو كنت أستطيع أن آتية لأتيته . وكان النجاشي هذا واسمه أضحمة من أعلم الناس بالإنجيل، وكان هرقل يرسل رجال الدين يتعلمون منه، ويقرؤون عليه، فإذا حذقوا انصرفوا إليه ووجه إليه آخرين، وصلى عليه رسول الله ﷺ بالمدينة يوم مات بالحبشة انظر طبقات ابن سعد ١/١٣٩، وصحيح مسلم ٥/١٦٦، وزاد المعاد ١/٢٠.

(٢) انظر ترجمته وقوله ذاك، وشعراً قاله بعد إسلامه في: الإصابة، لابن حجر ١/٢٦٣ حرف الجيم .

(٣) فأجاب بكتاب قال فيه: ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله، وأنا خطيب قومي وشاعرهم =

ساوى العبدى ملك البحرين، وإلى أهل اليمن أرسل معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعري داعيين إلى الإسلام بعد عدة رسل فأسلم عامة أهل اليمن ملوكهم وسوقتهم. وقد سنحت للمسلمين هذه الفرصة في نشر الدعوة لما تم صلح الحديبية بين المسلمين وقريش في السنة السادسة، وقد استمرت الهدنة إلى السنة الثامنة حيث أسلم أولئك الملوك، وأسلم كذلك خيار العرب؛ كخالد بن الوليد أحد أعظم القادة العسكريين في التاريخ، وعمرو بن العاص أحد رجالات الدولة الإسلامية، وأبو هريرة راوية الإسلام، وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين، فاغتنظ أهل مكة لهذه المكاسب التي كسبها المسلمون فنقضوا الصلح، وكان خيراً للمسلمين حيث فُتحت مكة في رمضان من السنة الثامنة. وفي السنة التاسعة تابعت وفود العرب على رسول الله ﷺ حتى سميت هذه السنة بسنة الوفود لكثرة من وفد فيها على النبي ﷺ، وفيها وقعت غزوة تبوك وهي آخر غزواته ﷺ.

وفي السنة العاشرة حج رسول الله ﷺ، حجة الوداع، وخطب فيها خطبة عظيمة أرسى فيها قواعد راسخة في العدل، ونزل عليه فيها قوله تعالى: ﴿...الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا...﴾ [المائدة: ٣]، ثم عاد إلى المدينة وتوفي بها ﷺ.

---

= فاجعلني بعض الأمر؛ فطمع في الملك ولم يسلم انظر: الإصابة ١٢٨/٢.

## الباب الثاني

### إثباتُ نبوة محمد ﷺ وصحةُ رسالته ﷺ

وفيه ثلاثة فصول:

- الفصل الأول : طرائق الناس في إثبات نبوته ﷺ.
- الفصل الثاني : أمهات الدلائل في إثبات نبوته ﷺ.
- الفصل الثالث : خطورة إنكار رسالته ﷺ.



# الفصل الأول

## طرائق الناس في إثبات نبوته ﷺ

وفيه مبحثان :

المبحث الأول : طريقة السلف في إثبات نبوته ﷺ.

المبحث الثاني : طرائق المخالفين في إثبات نبوته ﷺ، ونقدها.

# المبحث الأول

## طريقة السلف في إثبات نبوته ﷺ

قبل البدء بالحديث عن طريقة السلف في إثبات نبوة محمد ﷺ لابد من التعرّيج على طريقة القرآن في إثبات نبوته ﷺ.

## المبحث الأول

### طريقة السلف في إثبات نبوته ﷺ

#### تمهيد في طريقة القرآن في إثبات نبوة محمد ﷺ<sup>(١)</sup>

قرر القرآن نبوة محمد ﷺ بأساليب متنوعة، منها:

- الاستدلال بمجيء الأنبياء قبله ﷺ وأنه ﷺ جاء من جنسهم:

كان الرسل قبل محمد ﷺ بشرأ، رجالاً؛ يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق، ويتزوجون النساء، ولا يعلمون الغيب، وليسوا ملائكة، وهذا هو مقتضى الحكمة، ثم إن الله عز وجل قد بين أن إرسال الرسل من جنس البشر هو الأمر المعلوم في تاريخ البشر كما قال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِيْ إِلَيْهِمْ فَتَنَلُّواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]. وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنْ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرَى مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَنِيجُ إِلَّا مَا يُوْحِيْ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأحقاف: ٩] .

(١) تعد الكتابات في هذا الموضوع محدودة جداً؛ إذ صرفت عناية المؤلفين في مسائل النبوة على بعض المباحث التفصيلية؛ كالعصمة، والتفريق بين الرسول والنبي، ومن أولو العزم؟، وحكم التفضيل بين الأنبياء، وعددهم، وماهية الوحي، وهل من جنس الجن والنساء رسل؟، وحكم تفضيل الأنبياء على الملائكة، ورأى الفلاسفة في اكتساب النبوة... وتركزت أهم مسألة في الدين بعد الإيمان برب العالمين دون أن تلقى العناية الكافية من الباحثين من حيث التقرير والشرح والتبيين، وهي: الإيمان برسوله محمد ﷺ الأمين، وكيفية إثباتها كما جاءت في الكتاب المبين. ولعل من أفضل من أشار إلى أطراف هذا الموضوع مهتدياً بالقرآن الكريم - حسب علمي - هو فضيلة الشيخ العلامة/ عبد الرحمن بن ناصر السعدي في كتابه الصغير الحجم الكبير الفائدة: القواعد الحسان لتفسير القرآن: (القاعدة السابعة: في طريقة القرآن في تقرير نبوة محمد) ص ١٩ - ٢٣، وهو خير ما وقفت عليه في هذا الباب وأندت منه.

ومن يقر بجنس الأنبياء لا يبقى عنده أدنى شك في نبوة محمد ﷺ. وكانت دعوة الرسل قبله ﷺ إلى التوحيد ونبذ جميع ما يعبد من دونه؛ وكان محمد ﷺ مثلهم في كل ما ذكر؛ ولم يكن ﷺ بدعاً من الرسل، فلم الإنكار والتعجب في أمره ﷺ؟، وشأنه ﷺ شأن الرسل من قبله، بل كان ﷺ مصدقاً للمرسلين، وداعياً إلى ما دعوا إليه قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا إِلَهَ هَٰؤُلَاءِ نَارِكُهُمْ لِرَسُولِهِمْ وَبِالْحَقِّ وَصَلَّى الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿١٥﴾ [الصافات: ٣٦ - ٣٧]، وقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

قال شيخ الإسلام - في تعليقه على الآية السابقة -: «بين أن هذا الجنس من الناس<sup>(١)</sup> معروف قد تقدم له نظراء وأمثال، فهو معتاد في الآدميين وإن كان قليلاً فيهم، وأما من جاءهم رسول ما يعرفون قبله رسولاً كقوم نوح، فهذا بمنزلة ما يتنبه الله من الأمور»<sup>(٢)</sup>.

وقال أيضاً: «ولما أراد سبحانه تقرير جنس ما جاء به محمد ﷺ قال: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ رَسُولًا شَهِدًا عَلَيْكَ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ ﴿٥﴾ فَقَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ ﴿١١﴾ [المزمل: ١٥ - ١٦]. فهو سبحانه يثبت وجود جنس الأنبياء ابتداء - كما في السور المكية - حتى يثبت وجود هذا الجنس وسعادة من اتبعه، وشقاء من خالفه، ثم نبوة عين هذا النبي تكون ظاهرة»<sup>(٣)</sup>.

وقال: «النبوة في الآدميين هي من عهد آدم فإنه كان نبياً، وكان بنوه يعلمون نبوته وأحواله بالاضطرار، وقد علم جنس ما يدعو إليه الرسل، وجنس أحوالهم، فالمدعي للرسالة في زمن الإمكان إذا أتى بما ظهر به مخالفته للرسل علم أنه ليس منهم، وإذا أتى بما هو من خصائص الرسل علم أنه منهم، لا سيما إذا علم أنه لا بد من رسول منتظر، وعلم أن لذلك الرسول صفات تميزه عن سواه»<sup>(٤)</sup>.

كما أن القرآن يقرر نبوته ﷺ بما قد علم عند أهل الذكر من أنه - سبحانه - لم يرسل إلى الناس ملائكة رسلاً، بل رجالاً كما قال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَتَتْلُوْا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٧﴾ [التحل: ٤٣].

(١) أي الأنبياء والمرسلين.

(٢) النبوات ص ٤٢.

(٣) النبوات ص ٣٧ - ٣٩، وشرح الأصفهانية ص ٤٨٠ - ٤٨١.

(٤) شرح الأصفهانية ص ٩٣.

وهذا هو مقتضى الحكمة: لأنه أبلغ في إيصال الرسالة، وأنسب للبشر في الاقتداء، وأسلم للملك نفسه حيث قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُ فِي الْأَرْضِ مَلَكًا يَمْشِي مَطْمَئِينَ لَآتَيْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٥]. ومعنى ذلك أن الملائكة لن يكونوا مطمئنين لو مشوا في الأرض وعدم إرسال الرسل من الملائكة فيه رحمة بالناس فقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَرْسَلْنَا مَلَكَ لَقُضِيَ الْآمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ [الأنعام: ٨].

ولو ظهر الملك للناس بصورته التي خلقه الله عليها فلن تتحملة طاقة الناس، كما قال ابن عباس: «لو أتاهم ملك ما أتاهم إلا في صورة رجل لأنهم لا يستطيعون النظر إلى الملائكة من النور»<sup>(١)</sup>.

وإذا علمنا أن رسول الله محمدًا ﷺ لم يكن بدعاً من الرسل؛ فلم يكن ملكاً، ولم يدع إلى ما يخالف دعوة الأنبياء من الأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك، وإتيان الفضائل والمكارم، والبعد عن الفواحش والرذائل، ثم قارنا بين حاله ﷺ وحال الأنبياء قبله فسوف نجد بأنه يفوقهم في المحاسن، وما نزهوا عنه من النقائص والعيوب؛ فيكون الاعتراف بنبوته أجدر.

والمانع الحقيقي من الإيمان به ﷺ - في أغلب الحالات - ذلك الداء الذي أخبر الله عنه وهو الكبر أو الحسد في قوله تعالى: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] فكثير من الناس يقرون بأصل النبوة وأن الرسالة يمكن أن تكون لبشر ولكنهم يريدونها لزعيم لهم اعتراضاً على الاختيار فأنزل الله عليهم ﴿أَمَرَ بِقِسْمٍ رَّحِمَتْ رَيْكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سَخِرِيًّا وَرَّحِمْتُ رَيْكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

**- التحذير من الكفر به ﷺ بالتذكير بحال المكذبين بالرسول من قبله:**

التذكير بحال المكذبين بالرسول من قبل وكيف حاق بهم سوء العذاب كثير في كتاب الله، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

(١) تفسير ابن كثير ١٢٣/٢.

وما وقع من عذاب على قرية مكذبة إلا بعد أن أعذر الله منهم؛ فبعث فيهم النذرة؛ فبينوا لهم سبيل الهداية من سبيل الضلالة؛ لإقامة الحجة عليهم، قال تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ﴾ ﴿١٧٤﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [الشعراء: ٢٠٨ - ٢٠٩]، وقال تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ ﴿١٧٥﴾﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿مَنْ أَهْتَدَىٰ فَأِنَّمَا يَهْتَدِ لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا نَزِرُ وَازِرَةٌ وَزَرَ آخِرُ وَمَا كُنَّا مُعْذِرِينَ حَقًّا نَبْعَثُ رَسُولًا﴾ ﴿١٧٥﴾﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال تعالى: ﴿... فَأَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَ عَقِبَةُ الْكَاذِبِينَ﴾ ﴿١٧٦﴾﴾ [آل عمران: ١٣٧] .

قال ابن القيم: «أي: قد كان من قبلكم أمم أمثالكم، فانظروا إلى عواقبهم السيئة، واعلموا أن سبب ذلك كان من تكذيب بآيات الله ورساله، وهم الأصل وأنتم الفرع، والعلة الجامعة، التكذيب والحكم بالهلاك... وأن من قبلنا كانوا أقوى منا فلم تدفع عنهم قوتهم وشدتهم ما حل بهم»<sup>(١)</sup>.

**- موعظة قرآنية جليلة تدعو إلى القيام لله مثنى وفرادى ثم التفكير في شأن هذا الداعي ﷺ:**

دعوة قرآنية عظيمة منهجية تدل المرء إلى الحقيقة؛ بأن يقوم لله ويخلص له في طلب الحق، ويصدق مع نفسه، ويتفكر فيما بينه وبين نفسه ويجادلها وينظرها ويحاورها، أو أن يقوم اثنان اثنان لله دون صخب يغلب على التأمل فيتناظران ويتساءلان في أمر الرسول حتى يصلوا إلى نتيجة مجردة من الأهواء، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْطِيَكُمْ بِوَحْدِهِ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ شِئْنٍ وَفُرْدَىٰ ثُمَّ تَنْفَكُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ ﴿١٧٦﴾﴾ [سبأ: ٤٦]، وفي هذا الأسلوب الراقي العظيم للبحث عن الحق دعوة للنظر في حال الداعي ودعوته بهدوء وروية بعيداً عن إلقاء التهم جزافاً واستباق النتائج دون تأمل.

**- تقرير استحالة أن يكون محمد ﷺ كاذباً في دعوته:**

إذ اتفقت الحوادث في سيرته ﷺ التي يعرفها العرب أربعين سنة على أنه ﷺ كان عظيماً في أخلاقه ولا سيما في صدقه وأمانته والدلائل على ذلك كثيرة ولذلك قال تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَمْ مُنْكَرُونَ﴾ ﴿١٧٧﴾﴾ [المؤمنون: ٦٩] .

(١) إعلام الموقعين ١/ ١٨١ - ١٨٢

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: أم لم يعرف هؤلاء المكذبون محمداً! وأنه من أهل الصدق والأمانة؛ فينكروا قوله؟ أولم يعرفوه بالصدق ويحتجوا بأنهم لا يعرفونه؟ فكيف يكذبونه وهم يعرفونه فيهم بالصدق والأمانة»<sup>(١)</sup>.

وقال ابن القيم: «فإن كون القول للشيء كذباً وزوراً يُعلم: - من نفس القول تارة وتناقضه واضطرابه وظهور شواهد الكذب عليه، فالكذب باد على صفحاته وباد على ظواهره وباطنه.

- ويعرف من حال القائل تارة فإن المعروف بالكذب والفجور والمكر والخداع لا تكون أقواله إلا مناسبة لأفعاله، ولا يتأتى منه من القول والفعل ما يتأتى من البار الصادق المبرأ من كل فاحشة وغدر وكذب وفجور.

بل قلب هذا [الكاذب] وقصده وقوله وعمله يشبه بعضه بعضاً، وقلب ذلك [الصادق] وقوله وعمله وقصده يشبه بعضه بعضاً فدعاهم سبحانه إلى تدبر القرآن، وتأمل سيرة القائل وأحواله، وحينئذ تتبين لهم حقيقة الأمر، وأن ما جاءهم به ﷺ في أعلا مراتب الصدق»<sup>(٢)</sup>.

#### - نفي المطامع الشخصية وترفعه عن المطالب الدنيوية:

فلم يكن لرسول الله ﷺ أي مطلب دنيوي مقابل دعوته للناس، قال تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ...﴾ [سَبَأ: ٤٧]. قال ابن جرير الطبري: «يقول تعالى ذكره: قل يا محمد لقومك المكذبين الرادين عليك ما أتيتهم به من عند ربك؛ ما أسألكم من جُعِلَ على إنذاركم عذاب الله وتخويفكم به بأسه، ونصيحتي لكم في أمري إياكم بالإيمان بالله والعمل بطاعته، فهو لكم لا حاجة لي به، ومعنى الكلام: قل لهم إني لم أسألكم على ذلك جُعلاً فتتهموني، وتظنوا أنني إنما دعوتكم إلى اتباعي لما آخذ منكم»<sup>(٣)</sup>.

وقد عرضت قريش على رسول الله ﷺ أنواعاً من الإغراءات ليرتك دعوته فعرضوا عليه المال، والشرف، والزواج من أي أبيات قريش شاء ولكنه ترفع عن كل تلك العروض وأبى أن يترك أمر الرسالة<sup>(٤)</sup>.

(١) تفسير الطبري ٤٢/١٨.

(٢) الصواعق المرسله ٤٧٠/٢.

(٣) تفسير الطبري ١٠٥/٢٢.

(٤) انظر سيرة ابن هشام ٢٨٥/١، ٣١٣ - ٣١٥، ودلائل النبوة للبيهقي ٢٠٢/٢.

- عدم مجارة المشركين في تلبية طلباتهم للمعجزات ورد اقتراحاتهم في تعيين جنسها:

فلما جاء الرسول ﷺ بالوحي وكان وحيه هو آيته، وآيته مما يؤمن عليها البشر، جحد الظالمون تلك الآية وتكلموا بغير علم وعاندوا واقترحوا نزول آيات عينوها كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَلْبُوعًا ۖ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّحِيلٍ وَعَنْبٌ فَتَفْجُرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا فَيَجْري ۖ أَوْ تَشُقُّطَ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ۚ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُفُوعِكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا تُفَرِّقُ فُلَ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ۚ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ۚ قُلْ لَوْ كُنْتُ فِي الْأَرْضِ مَلَكًا يَمْشِي مَطْمَئِنِّينَ لَزَلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴿٩٥﴾ [الإسراء: ٩٥ - ٩٥].

فتعيين الآيات ليس عندهم، ولا عند الرسول، فإنها عند الله، وليس لأحد من الأمر شيء، ولهذا قال: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا آيَاتٌ مِّنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٥﴾﴾ [العنكبوت: ٥٥] الآيات عند الله إن شاء أنزلها، وإن شاء منعها، وأي فائدة تحصل إذا كان إيمانهم معلقاً بمجرد الخارقة لا لتأكيد الحق والبحث عنه. وإذا كان القصد بيان الحق من الباطل حصل المقصود بأي وسيلة توصل للحق، وكان اقتراح الآيات المعينة على هذا ظلماً وجوراً وتكبيراً على الله، وعلى الحق. قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرَاطِينَ فَلَسَوْهُ بِإِذْيِهِمْ لَقَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾ [الأنعام: ٧]، وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْتَوَقُّ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الأنعام: ١١١].

ولم تكن المعجزة دائماً مطلباً صادقاً من مريدي الإيمان أو المستعدين له وإنما هي في كثير من الأحيان مطلب المصيرين على الكفر، ولذلك لا استجابة هنا لمطلب المعجزة ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ قُلْتُمْ قُلْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [آل عمران: ٨٣].

- القرآن كاف لمن أراد الوقوف على حقيقة رسالة محمد ﷺ:

وكان هذا التحدي الأكبر للمشركون بهذا القرآن العظيم الذي جاء به



محمد ﷺ من ربه الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢] «وقد تحدى به أعداءه ومن كفر به أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور مثله، أو بسورة واحدة من مثله، فعجزوا ونكصوا ويأثوا بالخيبة والخسران والفشل الذريع وهم أهل اللسان المبرزون في ميدان القول والفصاحة ومع ذلك ما استطاعوا ولا قدروا - مع شدة حرصهم - ومحاولتهم أن يأتوا بسورة منه، وما استطاعوا وما قدروا - مع شدة حرصهم - ومحاولتهم أن يجدوا فيه نقصاً أو عيباً ينزل به عن أعلى درجات الفصاحة؛ فلجأوا وكلهم غيظ إلى السيف وإراقة الدماء، وما كانوا يعمدون إلى هذا لولا أنهم لم يجدوا سبيلاً إلى محاربته بالقول، وما كانوا يزعمونه عندهم علوماً وحكماً فكان عدولهم إلى السيف وإراقة الدماء أكبر الأدلة على صدق الرسول، وأنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، وأقطع البراهين على أنه الحق والهدى من عند الله الذي جمع الله فيه لرسوله وللمؤمنين فيه كل ما يكفل لهم سعادة الدنيا والآخرة في كل شؤونهم، وأن هذا القرآن لأكبر أدلة رسالته وأجلها وأعمها»<sup>(١)</sup>.

والله تعالى يقرر أن القرآن كاف جداً لمن أراد التوصل إلى صدق الرسول في مواضع عدة منها قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّكَ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١]. وهذا كلام مختصر جامع: فيه من الآيات البينات والدلالات الباهرات شيء كثير، حيث إن مجرد إتيان الرسول بهذا الكتاب وهو أُمي من أكبر الآيات على صدقه، ثم عجز المشركين عن معارضته وتحديهم إياه آية أخرى، ثم ظهوره وبروزه جهراً وعلانية يتلى عليهم ويقال هو من عند الله قد أظهره الرسول في وقت قل فيه أنصاره وكثر مخالفوه وأعداؤه فلم يخفه ولم يشن ذلك من عزمه، بل خرج به على رؤوس الأشهاد ونادى به بين الحاضر والباد بأن هذا كلام ربي. فهل أحد يقدر على معارضته أو ينطق بمباراته أو يستطيع مجاراته؟ ثم هيمنته على الكتب المتقدمة وتصحيحه للمصحح، ونفي ما أدخل فيها من التحريف والتبديل. ثم هدايته إلى سواء السبيل في أمره ونهيه فما أمر بشيء فقال العقل: ليته لم يأمر به، ولا نهى عن شيء فقال العقل: ليته لم ينه عنه، بل هو مطابق للعدل والميزان، والحكمة

(١) القواعد الحسان لتفسير القرآن للسعدي ص ٢٢ - بتصرف يسير - .

المعقولة لذوي البصائر والعقول. ثم مسامرة إرشاداته وهدايته وأحكامه لكل حال ولكل زمان بحيث لا تصلح الأمور إلا به. فجميع ذلك يكفي من أراد تصديق الحق، وعمل على طلب الحق. فلا كفى الله من لم يكفه القرآن، ولا شفى الله من لم يشفه الفرقان، ومن اهتدى به واكتفى فإنه رحمة له وخير، لما فيه من العلم الغزير والعلم الكثير<sup>(١)</sup>. وهذا الكلام لا يعني إلغاء غير القرآن من الآيات الدالة على نبوته ﷺ، وإنما المقصود أن القرآن الكريم هو آيته الكبرى، وحجته العظمى، وأما القول إن دليل رساله التوحيد هو القرآن فذلك ينقضه القرآن نفسه.

### - إثبات الرسالة بآياته ﷺ الأخرى:

أثبت القرآن الكريم نفسه الآيات الأخرى لرسول الله ﷺ:

- كانشق القمر قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الْسَّاعَةَ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرَ ۖ وَلَئِنْ يَرَوْا آيَةً يُعَرِّضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ۖ﴾ [القمر: ١ - ٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «... وانشقاق القمر قد عاينوه وشاهدوه، وتواترت به الأخبار، وكان النبي ﷺ يقرأ هذه السورة في المجمع الكبار، مثل الجُمُع والأعياد؛ لسمع الناس ما فيها من آيات النبوة ودلائلها... وكلُّ الناس يقر ذلك ولا ينكره، فعلم أن انشقاق القمر كان معلوماً عند الناس عامة... ومعلوم بالضرورة في مطرد العادة أنه لو لم يكن انشقاق القمر لأسرع الناس المؤمنون به إلى تكذيب ذلك، فضلاً عن أعدائه من الكفار والمنافقين، لا سيما وهو يقرأ عليهم ذلك في أعظم مجامعهم»<sup>(٢)</sup>.

- وهناك غيرها من الآيات: كالإسراء والمعراج، وعصمته ﷺ من الناس، ونجاته من المشركين نجاة عجيبة حين تعاقدوا على قتله، ونصر الله له في أحلك المواقف كغزوة بدر والأحزاب وغيرهما، وغير ذلك من الآيات الكثيرة والمعجزات الباهرة التي نص عليها القرآن.

### - شفقتة ﷺ الشديدة بالخلق لمصلحة الخلق:

فلا شك أن ذلك الحنو الكامل على أمته، والحرص الشديد على دخولهم في الإسلام لدليل قوي على صدقه ﷺ، فالمدعي الكاذب لا هم له سوى مصلحته

(١) تفسير السعدي للآية المذكورة.

(٢) انظر الجواب الصحيح ٤١٤/١ - ٤١٩ باختصار.

الشخصية، أما أن يصل حد الحرص على المدعو حدَّ هلاك النفس فهذا دليل قاطع على أن وراء الإسلام فوزاً عظيماً يعلمه من دعا إليه علماً يقينياً، ولذلك لم يوجد ولن يوجد أحد من الخلق أعظم شفقة ولا برأ وإحساناً إلى الخلق منه؛ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وآثار ذلك ظاهرة للناظرين.

### - استحالة صدور هذا الكتاب العظيم من محمد ﷺ الكريم:

من المستحيل أن يجيء هذا القرآن بما حوى من علوم عظيمة، وإعجاز باهر من قبل رجل أمي لا يقرأ ولا يكتب ولا جالس أحداً من أهل العلم، ولم يتحدث قبل أن يبلغ الأربعين بشيء يشير ولو من بعيد عما احتواه القرآن الكريم من علوم، ولم يظفر أحد حتى هذه اللحظة بمقولة علمية محفوظة عنه ﷺ قبل النبوة، ومن يقرأ القرآن يجد فيه من العلوم التفصيلية ما يستحيل معه صدورها إلا من لدن حكيم خبير، ومنها:

١ - الإخبار بقصص الأنبياء السابقين مطولة ومفصلة ومصححة للأحداث التي شوهت من قبل على الوجه الذي لا يستريب فيه أحد أنها من عند الله؛ فلما ذكر سبحانه قصة موسى مطولة قال بعدها: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحِمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٦]، ولما ذكر قصة يوسف قال: ﴿ذَٰلِكَ مِّنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢]، وقال في أهمية هذا الدليل: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّنَا أُولَٰئِكَ تَأْتِيهِمْ بَيِّنَةٌ مَّا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ [طه: ١٣٣].

وقد قص القرآن تلك القصص على ما وقع وحصل «مما أدهش أهل الكتاب وغيرهم، وأخرس ألسنتهم حتى لم يقدر أحد منهم ممن كان في وقته ولا ممن كانوا بعد ذلك أن يكذبوا بشيء منها فكان ذلك أكبر الأدلة على أنه رسول الله حقاً»<sup>(١)</sup>. وقال شيخ الإسلام - رحمه الله -: «أتاهم بتجلية ما في الصحف الأولى، كما في التوراة والإنجيل، مع علمهم بأنه لم يأخذ من أهل الكتاب شيئاً، فإذا أخبرهم بالغيوب التي لا يعلمها إلا نبي أو من أخبره نبي وهم يعلمون أنه لم يعلم ذلك بخبر أحد من الأنبياء تبين لهم أنه نبي، وتبين ذلك لسائر الأمم فإنه إذا كان

(١) القواعد الحسان لتفسير القرآن، للسعدي ص ٢٠.

قومه المعادون وغير المعادين له مقرين بأنه لم يجتمع بأحد يعلمه ذلك، صار هذا منقولاً بالتواتر وكان مما أقر به مخالفوه، مع حرصهم على الطعن لو أمكن<sup>(١)</sup>.

٢ - جعل سبحانه تعليم الرسول ﷺ لقومه ما لم يكونوا يعلمون من أظهر آيات نبوته ﷺ قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ يَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ يُبَدُّونَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَوْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ لَا آبَاءَ لَهُمْ وَلَكِن مَّا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١].

قال ابن القيم - رحمه الله -: «جعل سبحانه تعليمهم ما لم يعلموا هم ولا آباؤهم دليلاً على صحة النبوة والرسالة، إذ لا يُنال هذا العلم إلا من جهة الرسل، فكيف يقولون: ما أنزل الله على بشر من شيء»<sup>(٢)</sup>.

وقال سبحانه: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٦].

إن من يعقل الأمور البديهية لا يخطر بباله مجرد خاطر باختلاق الرسول هذا الكلام المعجز حيث لم يتل ﷺ مدة عمره شيئاً من جنس القرآن فكيف يقول على الله؟ لقد لبث عمراً طويلاً بين ظهرائهم يعرفون حاله وجنس كلامه؛ فأتاهم بكتاب عظيم أعجز الفصحاء، وأعيا البلغاء، وحير الفصحاء، وله من الخصائص التي لا يمكن أن تكون في مقدور البشر.

فلو أعمل القوم عقولهم وتدبروا حال كلامه ﷺ وحال هذا الكتاب لجزموا جزماً لا يقبل الرب بصدقه ﷺ وأنه ناقل غير منقول.

قال سبحانه: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لِأَنَّكَ الْبَاطِلُونَ﴾ [البقرة: ٢٣] بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَنبُتُ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَحْكُدُ إِتَائِنًا إِلَّا الْأَعْلَالُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٩] كان يمكن للمشركين أن يرتابوا في صدق رسول الله لو رأوه يقرأ كتاباً أو يخط بيمينه رسالة، ولكن قومه يعرفون صدقه وأمانته، ومدخله ومخرجه، وسائر أحواله، أما وقد جاء بهذا الكتاب الجليل الذي تحداهم ولم يحدثوا أنفسهم بمجرد معارضته، لهو من أظهر البيئات القاطعات

(١) الجواب الصحيح ٤٠٧/١.

(٢) مفتاح دار السعادة ٧٥/١.

التي لا تقبل الارتياب في رسالته ﷺ.

٣ - التصحيح المتواصل والتنبيه الدائم لما يقع... بأسلوب يصل أحياناً إلى درجة العتاب بآيات تُقرأ على أسماع الخلائق؛ كما في أول سورة عبس لما أقبل ﷺ على بعض وجهاء قريش طمعاً في إسلامه وجاء أحد أصحابه وهو عبد الله بن أم مكتوم - وكان من السابقين - وكان ضريباً فأعرض عنه<sup>(١)</sup> فنزل قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۖ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَى ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّكَ بُرْءٌ ۚ أَوْ يَكْكُرُ فَنفَعُهُ الذِّكْرَى ۚ أَمَّا مَنْ اسْتَفْتَى ۙ فَآتَ لَمْ يَصْدَى ۚ وَمَا عَلَيْكَ إِلَّا بُرْءٌ ۚ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ۙ وَهُوَ يَخْشَى ۙ فَأَنزَلْنَاهُ اللَّهُ ۙ﴾ [عبس: ١ - ١٠]، وكما جاء في أول سورة التحريم، وقضية أسرى بدر، وقضية استغفاره ﷺ للمنافقين.

والمدعون من البشر والراغبون في العلو في الأرض يحاولون بشتى الطرق إخفاء أخطائهم وعيوبهم ليستروا حقائق الأمور عن الناس، ولو كان القرآن الكريم من وضعه ﷺ أو من عند نفسه لما رأينا فيه تلك التنبيهات والاستدراكات والتصحيحات والعتاب بكل تلك الصراحة، وبكل ذلك الوضوح، ليدل ذلك على أن القرآن من عند الله<sup>(٢)</sup>.

٤ - حاجته ﷺ الماسة لنزول الوحي في أوقات حرجة كان قد تأخر عنه فيها نزوله عليه، وكان بإمكانه - لو كان متقولاً - أن يقول أي شيء يرد به شماته المشركين ويقطع سخرية المستهزئين، ومن ذلك أنه ﷺ كان بحاجة شديدة لنزول آيات تبرهن على أن الله ما قلاه، ومع ذلك فتر الوحي وتأخر ثم نزلت «سورة الضحى» بعد ذلك.

وكان ﷺ في محنة شديدة أثناء حادثة الإفك، وكان بإمكانه لو كان القرآن من كلامه أن يقول جملة واحدة تبرئ أحب الناس إليه زوجه عائشة من كلام المنافقين الذي أصم آذان الناس في ذلك الوقت، وملأت شائعاتهم أرجاء المدينة، حتى نزل الفرج بعد حين لحكمة أرادها رب العالمين، بآيات من سورة النور تبرئ أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها -.

٥ - وإذا قيل؛ إن القرآن مجرد افتراء من محمد فانظر إلى هذا الرد في قوله

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٤/٤٧٠.

(٢) انظر للتوسع في هذا الموضوع كتاب: النبأ العظيم، د. محمد دراز.

تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [يونس: ٣٨].

يقول الشوكاني: «وسبحان الله العظيم ما أقوى هذه الحجة وأوضحها وأظهرها للعقول، فإنهم لما نسبوا الافتراء إلى واحد منهم في البشرية والعربية قال لهم: هذا الذي نسبتموه إليّ وأنا واحد منكم ليس عليكم إلا أن تأتوا وأنتم الجمع الجم بسورة مماثلة لسورة من سوره، واستعينوا بما شئتم من أهل هذه اللسان العربي، على كثرتهم وتباين مساكنهم، أو من غيرهم من بني آدم أو من الجن، أو من الأصنام فإن فعلتم هذا بعد اللتيا والتي فأنتم صادقون فيما نسبتموه إليّ وألصقتموه بي، فلم يأتوا بعد هذا الكلام والتنزل البالغ بكلمة، ولا نطقوا ببنت شفة، بل كاعوا عن الجواب وتشبثوا بأذيال العناد البارد والمكابرة المجردة عن الحجة»<sup>(١)</sup>.

٦ - لو كان القرآن من عند محمد ﷺ لكان من المستبعد أن يخرج على الناس بأمور خفية يشق عليه كشفها للناس، من ذلك قصة زواجه ﷺ من زينب بنت جحش - رضي الله عنها -، وذلك أن زيد بن حارثة تزوجها ومكثت عنده قريباً من سنة أو أكثر، ثم وقع بينهما خلاف، فجاء زيد يشكوها إلى رسول الله، فجعل رسول الله ﷺ يقول له: «اتق الله وأمسك عليك زوجك» وقد أعلم الله نبيه أن زينب ستكون من أزواجه قبل أن يتزوجها، فلما أتاه زيد ليشكوها إليه قال: (اتق الله وأمسك عليك زوجك) فقال: قد أخبرتك أنني مزوجكما، وتخفي في نفسك ما الله مبديه» وعن أنس قال: جاء زيد بن حارثة يشكو؛ فجعل النبي ﷺ يقول: (اتق الله وأمسك عليك زوجك)، قالت عائشة: لو كان رسول الله ﷺ كاتباً شيئاً كتّم هذه»<sup>(٢)</sup>.

- شهادة الله تعالى لمحمد ﷺ بكونه مرسل من الله:

قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾﴾ [الرعد: ٤٣].

وشهادته تعالى لرسول ﷺ جاءت: بقوله - تعالى - وفعله وإقراره، أما قوله؛

(١) فتح القدير ٢/ ٤٢٢.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب «وكان عرشه على الماء» ٨/ ١٧٥ - ١٧٦.

فبما أوحاه الله له مما يثبت به رسالته . وأما فعله ؛ فلأن الله تعالى أيد رسوله ونصره نصرًا خارجاً عن قدرته وقدره أصحابه وأتباعه ، وهذه شهادة منه تعالى له ﷺ بالفعل والتأييد .

وأما إقراره ؛ فإنه أخبر الرسول عنه أنه رسول ، وأنه أمر الناس باتباعه فمن اتبعه فله رضوان الله وكرامته ؛ ومن لم يتبعه فله النار والسخط ، وحل له ماله ودمه ، والله يقره على ذلك ، ولو تقول عليه بعض الأقاويل لعاجله بالعقوبة .

وكذلك شهادة علماء أهل الكتاب له ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ [الرعد : ٤٣] وهذا يشمل علماء أهل الكتابين ؛ فيشهد منهم للرسول من آمن واتبع الحق وصرح بتلك الشهادة التي عليه . ومنهم ممن كتم ذلك ؛ فإخبار الله عنه أن عنده شهادة أبلغ من خبره ، ولو لم يكن عنده شهادة لرد استشهاده بالبرهان ، فسكوته يدل على أن عنده شهادة مكتومة .

وإنما أمر الله بإستشهاد أهل الكتاب لأنهم أهل هذا الشأن وكل أمر إنما يُستشهد فيه أهله ومن هم أعلم به من غيرهم ، بخلاف من هو أجنبي عنه كالأميين من مشركي العرب وغيرهم فلا فائدة في استشهادهم لعدم خبرتهم ومعرفتهم<sup>(١)</sup>

- قسمه سبحانه بالقرآن على أنه ﷺ من المرسلين:

﴿يَس ١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾﴾ [يس : ١ - ٥] .

وهذا قسم من الله تعالى بالقرآن الحكيم على رسالة محمد ﷺ وأنه من جملة المرسلين ، ومن تأمل أحوال المرسلين وأوصافهم وعرف الفرق بينهم وبين غيرهم عرف أنه من خيار المرسلين بما فيه من الأوصاف الكاملة والأخلاق الفاضلة ، ولا يخفي ما بين المقسم به وهو القرآن الحكيم وبين المقسم عليه ؛ وهو رسالة الرسول محمد ﷺ من الاتصال وأنه لو لم يكن لرسالته دليل ولا شاهد إلا هذا القرآن الحكيم لكفى به دليلاً وشاهداً على رسالة محمد ، بل القرآن العظيم أقوى الأدلة المتصلة على رسالة الرسول . . . فتأمل جلالة القرآن الكريم كيف جمع بين القسم بأشرف الأقسام على أجل مقسم عليه<sup>(٢)</sup> .

(١) تفسير السعدي ص ٣٧٥ .

(٢) المصدر السابق باختصار ص ٦٣٨ .

وقد جعلت شهادة الله للرسول محمد ﷺ دليلاً على صدقه أيضاً في قوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيِّنًا وَنَجِيًّا يَتَّبِعُكُمْ شَيْدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [العنكبوت: ٥٢].

#### - نصر الله له ﷺ ذلك النصر الباهر:

والآيات على ذلك كثيرة، وسيأتي تفصيلها في مبحث مستقل، ولو كان ﷺ كاذباً لكان ذلك ينافي علمه وحكمته وقدرته، وإن كان ﷺ صادقاً وهو سبحانه يؤيده وينصره نصراً باهراً على أقوى أمم أهل الأرض، وهو سبحانه ييسر له الأمور على أعدائه، ويمكنه في الأرض فهذه شهادة عظيمة منه سبحانه أن محمداً رسول من عنده صادقاً وحقاً، وهذا من آيات رسالته وأدلة توحيده كما هو ظاهر للمتأملين؛ فالله الذي يعلم ما في السماوات وما في الأرض يعلم حال محمد ﷺ كما يعلم حال المكذبين به، ونصر الله له هو مقتضى حكمة العزيز الحكيم ورحمته وأن من قدح في رسالته فقد قدح في حكمة الله وفي قدرته وفي رحمته بل وفي ربوبيته<sup>(١)</sup>، فلو كان محمد ﷺ متقولاً عليه مع علم الله به وقدرته على عقوبته لكان قدحاً في علمه - سبحانه - وقدرته وحكمته، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ لَقَوْلٌ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا يَنْكُرُ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاكِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٧].

#### - اجتماع أكمل الصفات الحسنة فيه ﷺ:

قرر القرآن نبوته ورسالته بما جمع الله له وكمله به من الأخلاق الكاملة، وما هو عليه من الصفات الجميلة، وما من خصلة حسنة إلا ولرسول الله ﷺ أعلاها وأكملها، قال تعالى ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿١﴾﴾ [القلم: ٤] مما يدل على أنه رسول رب العالمين والمصطفى المختار من الخلق أجمعين؟.

#### - بشارات الكتب السابقة به ﷺ:

من الاستدلال بما هو موجود في كتب الأولين، وشارات الأنبياء والمرسلين السابقين، وسيأتي تفصيل هذا الدليل في مبحث مستقل.

(١) انظر شرح العقيدة الطحاوية ص ٥١٩.



## إخباره ﷺ بالغيوب:

وسياتي تفصيل هذا الدليل في مبحث مستقل.

### عصمة الله له ﷺ:

بالرغم من تكالب الأعداء عليه ﷺ وجذهم التام في الإيقاع به، إلا أن الله عصمه ﷺ منهم، بل ونصره عليهم، وما ذاك إلا لأنه رسول الله حقاً، وأمينه على وحيه، وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظَرُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩] من القوة والثقة ما جعل رسول الله يمضي في تبليغ دعوته دون فزع أو خوف<sup>(١)</sup>، وسياتي تفصيل هذا الدليل في مبحث مستقل.

### هيمنة شرعه على كل الشرائع قديمها وحديثها:

جاءت شريعته ﷺ مهيمنة على الشرائع جميعها، وجميع محاسن الأديان قد جمعها الله في هذا الدين وفاق عليها بمحاسن وأوصاف لم توجد في غيره.

### - تفنيد مزاعم المكذبين بالرسول ﷺ

نقف عند موضع من كتاب الله يفند زعم المكذبين به ﷺ؛ إذ سياتي تفنيد المزاعم التي قيلت عن رسول الله ﷺ مفصلة في مبحث «السبر والتقسيم»، فقد زعم المكذبون بالرسول ﷺ أن الشياطين تنزل عليه ﷺ، وقالوا: إنه ﷺ شاعر. فبين تعالى أن الشخص الذي تنزل عليه الشياطين متصفٌ بصفات رديئة فهو (أفأك؟) كذاب، كثير قول الزور، (أثيم)؛ كثير المعاصي يأمر بالشرك والظلم، ويعظم الدنيا، ويحب الإثم والعدوان، وهذا كله مناقض لمقصود النبوة التي تأمر بالتوحيد والعدل والإحسان، وفضائل الأعمال<sup>(٢)</sup>.

قال سبحانه: ﴿هَلْ أُتِيتُكُمْ عَلَىٰ مَن نَّزَّلُ الشَّيَاطِينَ﴾ [الشعراء: ٢٢١ - ٢٢٣].

وبالنظر في حال محمد ﷺ فسوف نجدها ﷺ مبينة لحال هؤلاء أعظم مبينة فهو الصادق الأمين الذين جمع بين البر والإحسان إلى الخلق وصدق اللهجة ونزاهة الأفعال، والأمر بالتوحيد، والتحذير من الظلم، وهذا الوحي الذي ينزل عليه من عند الله ينزل محروساً محفوظاً معزولاً عن الشياطين فهل يستوى من هذا

(١) انظر مدارج السالكين، لابن القيم ٤٦٥/٣.

(٢) انظر النبوات ص ١٨٨ - ١٩٠.

هديه بإفك أولئك؟.

أما اتهامه بأنه شاعر فهذا زعم باطل يرد عليه بقوله تعالى: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ [الزمر: ٢٢٤] أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾ [الشعراء: ٢٢٤ - ٢٢٧] والوصف الشايت للشعراء من خلال الوقوف على أحوالهم أنهم غاؤون عن طريق الهدى، مقبلون على طريق الردى، وتجد أتباعهم غاوين ضالين، ومن شدة غوايتهم أنك تراهم في كل واحد من أودية الشعر يهيمون، فتارة في مدح، وتارة في هجاء، وتارة يتغزلون، وتارة يمرحون، وتارة يسخرون، وتارة يتزهدون، فلا يستقر لهم قرار ولا يشتون على حال.

هذا ومن أوصافهم التي يمكن مقارنتها بحال النبي محمد ﷺ... وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ فهل حاله ﷺ تشبه حالة الشعراء؟، أولم يروا إلى حال أتباعه ﷺ ورضي عنهم أنهم من المشهود لهم بالرشاد والاستقامة وسداد الرأي والحكمة؟ ألم يروا إلى أفعاله ﷺ كيف تطابق أقواله؟، ويُستثنى من هؤلاء الشعراء أولئك الذين آمنوا بالله ورسوله وعملوا صالحاً وأكثروا من ذكر الله، وانتصروا من المشركين من بعدما ظلموا فصار شعرهم من أعمالهم الصالحة.

- ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

قال ابن القيم: «والعلم الدال على نبوته: أن ما يأمر به ﷺ تشهد العقول الصحيحة حسنه، وكونه معروفاً، وما ينهى عنه تشهد قبحه، وكونه منكراً، وما يحله تشهد كونه طيباً، وما يحرمه تشهد كونه خبيثاً... وهي بخلاف دعوة المتغلبين المبطلين، والكذابين والسحرة، فإنهم يدعون إلى ما يوافق أهواءهم وأغراضهم من كل قبيح ومنكر وبغي وإثم وظلم، ولهذا قيل لبعض الأعراب وقد أسلم لما عرف دعوته: عن أي شيء أسلمت؟ وما رأيت منه مما دلك على أنه رسول الله؟ قال: «ما أمر بشيء فقال العقل: ليت نهى عنه. ولا نهى عن شيء فقال العقل: ليت أمر به، ولا أحل شيئاً فقال العقل: ليت حرّمه، ولا حرّم شيئاً فقال العقل: ليت أباح» فانظر إلى هذا الأعرابي، وصحة عقله وفطرته، وقوة إيمانه، واستدلالة على صحة دعوته بمطابقة أمره لكل ما حسن في العقل»<sup>(١)</sup>.

(١) مدارج السالكين ٢٣٥/١ .

## - تمهيد موجز لطريقة السلف في إثبات نبوته ﷺ حول

### (ظهور الآيات على نبوته وكثرتها)

كلما اشتدت حاجة الناس إلى شيء يسر الله وجوده وهياً أسبابه، ويكون توفره لهم بحسب ميسر الحاجة إليه، وهكذا في مسألة الدلائل؛ لما كان الناس أحوج ما يكونون إلى معرفة موجدهم وخالقهم ومالكهم سبحانه جعل الله الأدلة على ربوبيته أظهر ما تكون، فكل مخلوق دليل على وجود الخالق، والمخلوقات أعظم من تحصى، ومن هذه الحثيثة تكون أدلة ربوبيته سبحانه أكثر من أن تحصى.

والأدلة متفاوتة بحسب ظهور الدليل فيها؛ فمن أدلة الربوبية ما يمكن أن يستدل بها الناس كلهم على ربوبيته - سبحانه - لظهورها؛ كخلق الإنسان، والحيوان، والنبات، والسماء، ومنها ما يظهر لبعض الناس دون بعض، فمن يهتم بالعلوم الدقيقة من خلق الإنسان والحيوان وينظر ويتأمل يظهر له من دلائل الربوبية ما لا يظهر لغيره، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخِزَتِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۝﴾ [آل عمران: ١٩٠] وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ

= وقد ذكر ابن القيم أن إثبات النبوة أحد مقاصد القرآن الكبيرة، واستدل - رحمه الله - على النبوة من سورة الفاتحة من ثمانية مواضع أختصرها فيما يلي:  
- من قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [الفاتحة: ٢] وقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]؛ والله هو المألوه المعبود، ولا سبيل للعباد إلى معرفة عبادته إلا عن طريق رسوله ﷺ.

- من قوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، وقوله: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٣] إذ ربوبيته ورحمته تمنع ترك عباده سدى، وإهمال عباده، وعدم تعريفهم ما ينفعهم في معاشهم ومعادهم ومن هنا كان إرسال الرسول ﷺ ضرورة، ومن أعطى اسم الرحمن حقّه عرف أنه متضمن لإرسال الرسول أعظم من تضمنه لإنزال الغيث، فاقضاء الرحمة لما تحصل به حياة القلوب أعظم من اقتضائها لما تحصل به حياة الأبدان.  
- ومن قوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] دليل على أن بيان طريق الهداية لا يكون إلى عن طريق الرسول ﷺ، فإذا حصلت هداية البيان ترتب عليها هداية التوفيق. ومن هنا يعلم اضطراب العبد إلى هذا الدعاء فوق كل ضرورة.  
انظر: مدارج السالكين، لابن القيم - باختصار - ٧/١ - ٢٤.

تُخْتَلِفُ أَلْوَنُهَا وَغَرِيبٌ مُؤَدٍّ ﴿٢٧﴾ وَمِنْ النَّاسِ وَالْذَوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ [فَاطِر: ٢٧ - ٢٨].

ويقال الأمر نفسه في أدلة تصديق الرسول، فالخلق بحاجة عظيمة إلى التعرف على دلائل صدقه ﷺ، ولما كانت حاجة العباد إلى هذا الأمر عظيمة جعل الدلائل على صدقه ﷺ ظاهرة بينة متعددة متنوعة، وهي من جنس أدلة الربوبية من حيث تفاوتها؛ فمنها ما هو ظاهر بين لكل أحد، ومنها ما يظهر لمن تأمله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: «ولما كان محمد ﷺ رسولاً إلى جميع الثقليين جنهم وإنسهم، عربهم وعجمهم، وهو خاتم الأنبياء لا نبي بعده، كان من نعمة الله على عباده، ومن تمام حاجته على خلقه أن تكون آيات نبوته، وبراهين رسالته معلومة لكل الخلق الذي بعث إليهم، وقد يكون عند هؤلاء من الآيات والبراهين على نبوته ما ليس عند هؤلاء.

وكان يظهر لكل قوم من الآيات النفسية والأفقية ما يبين به أن القرآن حق كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥١﴾ سَتُريَهُمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٢﴾﴾ [فُصِّلَتْ: ٥٢ - ٥٣].

أخبر سبحانه أنه سيُري عباده الآيات في أنفسهم، وفي الأفاق حتى يتبين لهم أن القرآن حق، فإن الضمير عائد إليه، إذ هو الذي تقدم ذكره... والقرآن إن كان من عند الله، ثم كفر به من كفر، فلا أحد أضل ممن هو في مثل حاله، إذ هو في شقاق بعيد، وإن قُدِّرَ أنه لم يعلم أنه حق؛ فهو ضال.

والشقاق قد يكون مع العناد، وقد يكون مع الجهل، فإن الآيات إذا ظهرت، فأعرض عن النظر الموجب للعلم كان مشاقاً، ولهذا قال عقب ذلك: ﴿سَتُريَهُمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ...﴾ [فُصِّلَتْ: ٥٢]: فأخبر أنه سيُري عباده من الآيات الأفقية والنفسية ما يبين أنه حق، ثم قال: ﴿... أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فُصِّلَتْ: ٥٣] فإن شهادته وحده كافية بدون ما ينتظر من الآيات... وشهادته للقرآن ولمحمد ﷺ تكون:

١ - بأقواله - تعالى - التي أنزلها قبل ذلك على أنبيائه،

٢ - وبأفعاله؛ وهو ما يُحدثه من الآيات والبراهين الدالة على صدق رسله؛

فإنه صدَّقهم بها فيما أخبروا به عنه، وشهد لهم بأنهم صادقون<sup>(١)</sup>.  
ولذلك لم يحجّر السلف من دلائله ﷺ أمراً واسعاً، بل وجهوا الناس إلى  
مصادرها، وأمهااتها، وفصلوا فيها وكلٌ يغترف منها بحسب حاجته.

### طريقة السلف في إثبات نبوته ﷺ:

عندما نقف على طريقة السلف - رحمهم الله - ونستعرض الدلائل التي  
يذكرونها في سياق إثباتاتهم لنبوته ﷺ فسنجدها أدلة متنوعة متعددة لا تعتمد على  
دليل واحد وتُهدر غيرها، وإنما يذكرون مجموعة من الدلائل والقرائن التي تدل  
على صدق محمد ﷺ، وفي هذا افساح للمجال لأن يشع على العالمين نور هدايته.  
والسلف - رحمهم الله - حينما يقررون أصلاً من أصول الدين أو يتصدّون  
لبیان مسألة من المسائل الشرعية إنما يصدرّون فيها عن الكتاب والسنة، وعمل  
سلف الأمة، وعلى رأسهم خيرهم؛ صحابة رسول الله ﷺ - رضي الله عنهم  
أجمعين - وإذا أردنا رصد أسباب إيمانهم برسول الله ﷺ فسوف نجدها أسباباً  
متعددة من دلائل متنوعة لا تتوقف على أحدها:

فمن الصحابة من آمن بمجرد علمه أنه ﷺ قال: إني رسول الله، فأمن على  
الفور، ولم يحتج إلى أمر خارج عما يعرفه من سيرته وخُلُقهِ ومن هؤلاء أبو بكر  
الصدّيق رضي الله عنه<sup>(٢)</sup>

وهكذا كان حال خديجة - رضي الله عنها - حين قالت للنبي ﷺ لما نزل

---

(١) الجواب الصحيح ٤٠٥/٥ - ٤٠٨.

(٢) قال البيهقي: «إن أبا بكر الصديق - رضي الله عنه - لقي رسول الله ﷺ فقال: أحقّ ما تقول  
قريش يا محمد من تركك آلهتنا وتسفيهك عقولنا، وتكفيرك آبائنا؟ فقال رسول الله ﷺ:  
«بلى، إني رسول الله ونبيه، بعثني لأبلغ رسالته وأدعوك يا أبا بكر إلى الله وحده لا شريك  
له، ولا تعبد غيره، والموالة على طاعته، وقرأ عليه القرآن». فأسلم وكفر بالأصنام،  
وخلع الأنداد، وآمن بحق الإسلام، ورجع أبو بكر وهو مؤمن مصدق. قال رسول الله  
ﷺ: «ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كبرة وتردد ونظر إلا أبا بكر ما تردد فيه»  
رواه البيهقي في الدلائل ١٦٤/٢ عن ابن إسحق، ونقله عن البيهقي ابن كثير في البداية  
والنهاية ٢٦/٣.

وكان أبو بكر - رضي الله عنه - رجلاً مألُفاً لقومه محبباً سهلاً، وكان أنسب قريش،  
وأعلم قريش بما فيها من خير وشر، وكان محل ثقة قومه، ولذلك كان إسلامه سبباً في  
إسلام كثيرين ممن كان لهم الأثر الكبير في نصرة الإسلام؛ كعثمان بن عفان، =

عليه الوحي في غار حراء وخاف على نفسه: «كلا والله لا يخزيك الله، إنك لتصل الرحم، وتصديق الحديث، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق»<sup>(١)</sup>.

فقد رأت - رضي الله عنها - برجاجة عقلها أن هذه الصفات قد جمعت مكارم الأخلاق، وعلى رأسها الصدق؛ الذي يستلزم العدل، وحبه الإحسان إلى الخلق؛ والذي يستلزم جلب الخير لهم، وقطع الشر عنهم، والإضلال شر الأعمال، فمن جمع هذه الشيم والأعمال العظيمة لم يكن الله ليخزيه أبداً<sup>(٢)</sup>.

وممن أسلم بمجرد سماعه لدعوته ﷺ عمرو بن عَبَسَةَ السُّلَمي<sup>(٣)</sup>: قال - رضي الله عنه -: «كنت وأنا في الجاهلية أظن الناس على ضلالة، وأنهم ليسوا على شيء، وهم يعبدون الأوثان، فسمعت رجلاً بمكة يخبر أخباراً، فقعدت على راحلتي، فقدمت عليه، فإذا رسول الله ﷺ مستخفياً، جُرءاء عليه قومه فتلطفْتُ حتى دخلت عليه بمكة. فقلت له: ما أنت؟ قال: «أنا نبي» فقلت: وما نبي؟ قال: «أرسلني الله» فقلت: وبأي شيء أرسلك؟ قال: «أرسلني بصلة الأرحام، وكسر الأوثان، وأن يُوَحِّدَ الله لا يُشْرِكُ به شيء» قلت له: فمن معك على هذا قال: حرُّ وعبد - قال ومعه يومئذ أبو بكر وبلال ممن آمن - فقلت: إني متبعك... الحديث»<sup>(٤)</sup>.

وعن ابن عباس قال: «إن ضماًداً قدم مكة، وكان من أزد شنوءة، وكان يرقى من هذه الريح»<sup>(٥)</sup> فسمع سفهاء من أهل مكة يقولون: إن محمداً مجنون،

---

= والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، وغيرهم. وهؤلاء الذين نصصت على أسمائهم من المبشرين بالجنة. انظر: سيرة ابن هشام ٢٦٨/١، والبداية والنهاية ٢٩/٣، والدرر في اختصار المغازي والسير لابن عبد البر ص ٣٨.

(١) رواه البخاري في بدء الوحي ٢٢/١.

(٢) انظر: منهاج السنة النبوية ٤١٩/٢ - ٤٢٠.

(٣) وهو عمرو بن عَبَسَةَ بن خالد بن حذيفة، الإمام الأمير، السلمي البجلي، أحد السابقين، ومن كان يقال له ربيع الإسلام، كان من أمراء الجيش يوم وقعة اليرموك. انظر: طبقات ابن سعد ٢١٤/٤.

(٤) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب (٥٢) إسلام عمرو بن عَبَسَةَ ٥٦٩/١.

(٥) المراد بها: الجنون، ومس الجن. انظر: النهاية في غريب الحديث.

فقال: لو أني رأيت هذا الرجل لعل الله يشفيه على يدي. قال: فلقية. فقال: يا محمدا! إنني أرقى من هذه الريح، وإن الله يشفي على يدي من شاء، فهل لك؟، فقال رسول الله ﷺ: «إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، أما بعد». قال: فقال: «أعد علي كلماتك هؤلاء». فأعادهن عليه رسول الله ﷺ ثلاث مرات. قال: فقال: لقد سمعت قول الكهنة، وقول السحرة، وقول الشعراء، فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء، ولقد بلغن ناعوس البحر<sup>(١)</sup> قال: فقال: هات يدك أبياعك على الإسلام. قال: فبايعه. فقال رسول الله ﷺ: «وعلى قومك؟» قال: وعلى قومي<sup>(٢)</sup>.

وكان ممن أسلم قديماً «خالد بن سعيد بن العاص»، وكان سبب إسلامه أنه لقي رسول الله ﷺ وهو بأجباد فزعاً من رؤيا رآها فقال: يا محمد إلى من تدعو؟ فقال: «أدعو إلى الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، وتخلع ما أنت عليه من عبادة حجر لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع ولا يدري من عبده ممن لم يعبه». قال خالد: فأني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله. فسرّ رسول الله ﷺ بإسلامه...<sup>(٣)</sup>.

ولما سمع ورقة بن نوفل والنجاشي وغيرهما ما جاء به الرسول ﷺ عرفوا أنه الحق.

قال ورقة بن نوفل: «هذا هو الناموس الذي كان يأتي موسى<sup>(٤)</sup>». وقال النجاشي: «إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة<sup>(٥)</sup>».

(١) أي وسط البحر، وقيل: لجته، وقيل قعره الأقصى.

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة ٥٩٣/٢ - ٥٩٤.

(٣) رواه البيهقي في دلائل النبوة ١٧٣/٢، وعنه ابن كثير في البداية والنهاية ٣٢/٣.

(٤) رواه البخاري في بدء الوحي ٢٢/١.

(٥) رواه أحمد في مسنده من حديث أم سلمة ٢٠١/١ - ٢٠٣، والهيثم في مجمع الزوائد ٢٤/٦ - ٢٧. هذا وقد آمن النجاشي برسول الله ﷺ، وصلى عليه رسول الله ﷺ لما مات صلاة الغائب وقال: «مات اليوم عبد صالح»، وقال: «إن أخاً لكم قد مات، فقوموا فصلوا عليه» رواهما مسلم في صحيحه، كتاب الجنائز، باب التكبير على الجنازة ٦٥٦/٢.

وانظر كيف أسلم النجاشي لما عرض جعفر بن أبي طالب<sup>(١)</sup> - رضي الله عنه رسالة الرسول محمد ﷺ دون أن يذكر معجزته ﷺ ابتداءً، وإنما بدأ بدعوته ﷺ وخصاله ﷺ.

قال له النجاشي: «ما هذا الدين الذي قد فارقتم فيه قومكم؟ ولم تدخلوا في ديني ولا في دين أحد من هذه الملل؟ فقال: «أيها الملك، كنا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسئ الجوار، ونأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا؛ نعرف نسبه، وصدقه، وأمانته، وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وأباؤنا من دونه، من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الأرحام، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات... فعُدّ أمور الإسلام فصدقناه، وآمنا به، واتبعناه على جاء به من الله، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئاً، فحرّمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحلّ لنا، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا، ليردونا إلى عبادة الأوثان عن عبادة الله تعالى، وأن نستحل ما كنا عليه من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا، وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لا نُظلم عندك أيها الملك... فقال النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله شيء؟ فقال له جعفر: نعم. فقال النجاشي؛ فاقرأه عليّ، فقرأ عليه صدرّاً من «كهيعص» فبكى والله النجاشي، حتى اخضلت لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم، حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى، ليخرج من مشكاة واحدة...»<sup>(٢)</sup>.

---

(١) جعفر بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، أحد السابقين إلى الإسلام، وكان خير الناس للمساكين، هاجر الحبشة فأسلم النجاشي ومن تبعه على يديه، ثم هاجر إلى المدينة واستقبله الرسول ﷺ وقبل ما بين عينيه، استشهد بموته من أرض الشام مقبلاً غير مدبر سنة ٨هـ، وكان يقال له: «جعفر الطيار» وهو شقيق أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وكان أسن منه بعشر سنين. انظر: الإصابة ٢٣٩/١ ترجمة رقم ١١٦٦، ومعجم الأعلام ص ١٦٨.

(٢) روى القصة البيهقي في دلائل النبوة وروى أصل القصة الإمام أحمد في مسنده عن =



والشاهد من هذه القصة تقديمه لموضوع الرسالة التي جاء بها محمد ﷺ دلالة على صدقه.

وهؤلاء كان عندهم علمٌ بما جاء به موسى فقارنوه به؛ وتوصلوا إلى صدقه ﷺ.

بل من الصحابة - رضي الله عنهم - من آمن به بمجرد رؤيته للنبي، كما يعرف كثيرٌ من الناس المصلح من المفسد بمجرد رؤية وجهه هذا ووجه هذا.

ومن هؤلاء عبد الله بن سلام لما رأى وجه رسول الله ﷺ حينما قدم المدينة قال: «فلماً رأيتُ وجهه عرفتُ أنه ليس بوجه كذاب»<sup>(١)</sup>.

وكما قال حسان بن ثابت - رضي الله عنه -:

«لو لم تكن فيه آيات مبينة كانت بديهته تأتيك بالخبر»<sup>(٢)</sup>

أما الذين آمنوا بمجرد سماعهم لكلام الله «القرآن الكريم» فكثير، ومن أشهرهم «الجن»؛ فعن ابن عباس - رضي الله عنه -؛ قال: «ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن وما رأيهم. انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ. وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء. وأرسلت عليهم الشهب. فرجعت الشياطين إلى قومهم. فقالوا: مالكم؟ قالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب. قالوا: ما ذاك إلا من شيء حدث. فاضربوا مشارق الأرض ومغاريها. فانظروا ما هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء. فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاريها. فمر النفر الذين أخذوا نحو تهامة «وهو بنخل عامدين إلى سوق عكاظ وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر» فلما سمعوا القرآن استمعوا له. وقالوا: هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء. فرجعوا إلى قومهم فقالوا: يا قومنا!

---

= أم سلمة ٢٠١/١. والهيثمي في مجمع الزوائد ٢٤/٦، وقال: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

(١) عبد الله بن سلام بن الحارث، أبو يوسف (ت ٤٣هـ) صحابي قيل: إنه من نسل يوسف بن يعقوب، كان يهودياً، وكان يقول عنه اليهود: هو سيدنا وابن سيدنا، ثم نقضوا كلامهم لما أسلم عند قدوم النبي ﷺ المدينة، وكان اسمه «الحصين» فسماه رسول الله عبد الله. انظر: صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة ح ٣٩١١ الفتح ٢٤٩/٧. انظر: أسد الغابة في معرفة الصحابة ١٧٦/٣، ومعجم الأعلام ٤٤٢.

(٢) حسان بن ثابت بن المنذر الخزرجي الأنصاري، أبو الوليد (ت ٥٤هـ) شاعر النبي ﷺ. انظر: الإصابة، ومعجم الأعلام ١٩١.

إنا سمعنا قرآنًا عجباً يهدي إلى الرشd فأمنّا به. ولن نشرك بربنا أحداً. فأنزل الله عز وجل على نبيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ [الجن: ١] (١).

ومن الناس من لا يكتفي بدليل واحد فتراه يرقب الدلائل واحداً تلو الآخر حتى تتظافر عنده فلا تدع مجالاً للشك عنده في أن هذا القائل: إني نبي؛ هو نبي من عند الله قطعاً.

وممن ظهرت له دلائل نبوة محمد ﷺ واحدة تلو الأخرى حتى أراد الله به خيراً فأسلم «أبو سفيان» سيد قريش، ولذلك قصة لطيفة تعج بالفوائد وهي: أنه لما ظهرت الروم على فارس (٢)، مشى هرقل عظيم الروم من حمص إلى بيت المقدس مشياً على الأقدام؛ شكراً لله على النصر في حرب الفرس، فلما وصل وصلى فيه، قدم عليه حينئذ كتاب من رسول الله ﷺ يدعوه إلى الإسلام. وفي تلك الأثناء كان أبو سفيان ونفر من قريش قد قدموا إلى الشام للتجارة بعد أن عقدت قريش الصلح مع رسول الله ﷺ فاطلع على ظهور هرقل وانتصارهم على الفرس، وشهد مشي هرقل من حمص منزله إلى إيلياء «بيت المقدس» حيث فرشت له الأرض بالبسط والرياحين إلى أن انتهى إلى إيلياء فصلى فيها مع البطارقة والأساقفة، قال أبو سفيان:

«أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش، وكانوا تجاراً بالشام في المدة التي كان رسول الله ﷺ مأد فيها أبا سفيان وكفار قريش، فأتوه وهم بإيلياء، فدعاهم في مجلسه، وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم ودعا ترجمانه فقال: أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقال أبو سفيان: قلت: أنا أقربهم نسباً. فقال: ادنوه مني. وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره. ثم قال لترجمانه: قل لهم إني سائل هذا عن هذا الرجل، فإن كذبتني فكذبوه، قال فوالله لولا الحياء من أن يأتروا علي كذباً لكذبت عنه، ثم كان أول ما سألتني عنه أن قال: كيف نسبه فيكم؟، قلت: هو فينا ذو نسب، قال: هل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟ قلت: لا. قال: فهل كان من آبائه من ملك؟ قلت: لا. قال: فأشراف الناس يتبعونه أم

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب الجهر بالقراءة في الصبح، والقراءة على الجن ٣٣٢/١.

(٢) يوم الحديبية انظر تفسير ابن كثير ٤٢٦/٣، وتفسير القرطبي ٥/١٤.

ضعفاؤهم؟ قلت: بل ضعفاؤهم. قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون. قال: فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا. قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا. قال: فهل يغدر؟ قلت: لا، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها، قال ولم تمكني كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة. قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم. قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قلت: الحرب بيننا وبينه سجال ينال منا وننال منه. قال: ماذا يأمركم؟ قلت: يقول اعبدوا الله وحده لا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما يقول آبائكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة. فقال للترجمان: قل له:

١ - سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب؛ فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها.

٢ - وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول فذكرت أن لا فقلت: لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يتأسى بقول قيل قبله.

٣ - وسألتك هل كان من آبائه من ملك فذكرت أن لا قلت: فلو كان من آبائه من ملك قلت رجل يطلب ملك أبيه.

٤ - وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال فذكرت أن لا؛ فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله.

٥ - وسألتك أشرف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه؛ وهم أتباع الرسل.

٦ - وسألتك أيزيدون أم ينقصون، فذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم.

٧ - وسألتك أيرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه، فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب.

٨ - وسألت هل يغدر فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر.

٩ - وسألتك بما يأمركم فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والصدق، والعفاف:

فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج، لم أكن أظن أنه منكم، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه.

ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ الذي بعث به دحية الكلبي<sup>(١)</sup> إلى عظيم بصرى<sup>(٢)</sup> فدفعه إلى هرقل فقرأه فإذا فيه:

«بسم الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله، إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد؛ فإني أدعوك بدعاية الإسلام: أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم اليريسيين<sup>(٣)</sup>، ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله، ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون».

قال أبو سفيان: فلما قال ما قال، وفرغ من قراءة الكتاب كثر عنده الصخب، وارتفعت الأصوات، وأخرجنا، فقلت لأصحابي حين أخرجنا: لقد أمر<sup>(٤)</sup> أمر ابن أبي كبشة<sup>(٤)</sup>، إنه يخافه ملك بني الأصفر، فما زلت موقناً أنه سيظهر حتى أدخل الله علي الإسلام».

«وكان ابن الناطور<sup>(٥)</sup>، صاحب إيلياء<sup>(٦)</sup>، وهرقل أسقف على نصارى الشم، يحدث أن هرقل قدم إيلياء أصبح خبيث النفس، فقال بعض بطارقه؛ قد

---

(١) بكسر الدال، وحكي فتحها؛ لغتان، ويقال: إنه الرئيس بلغة أهل اليمن، وهو ابن خليفة الكلبي، صحابي جليل كان أحسن الناس وجهاً، وأسلم قديماً، وبعثه النبي ﷺ في آخر سنة ست بعد أن رجع من الحديبية بكتابه إلى هرقل، وكان وصوله إلى هرقل في المحرم سنة سبع، قاله الواقدي. انظر: الفتح ٣٨/١.

(٢) بصرى بضم أوله: مدينة بين المدينة ودمشق، وقيل هي حوران، وعظيمها هو: الحارث بن أبي شمر الغساني. انظر الفتح: ٣٨/١.

(٣) وفي رواية: «الأريسيين»، وهم الفلاحون والزرارعون، ومعناه أن عليك إثم رعاياك الذين يتبعونك وينقادون بانقيادك، ونبه بهؤلاء على جميع الرعايا لأنهم الأغلب، ولأنهم أسرع انقياداً، فإذا أسلم أسلموا وإذا امتنع امتنعوا، انظر شرح النووي ١٠٩/١٢ - ١١٠.

(٤) أمر: أي عظم، وابن أبي كبشة: يعني به النبي ﷺ لأن أبا كبشة أحد أجداده، وعادة العرب إذا انتقصت نسبة إلى جد غامض. انظر: الفتح ٣٨/١.

(٥) قال ابن حجر: «وهو بالطاء المهملة، وهو بالعربية حارس البستان، وهو اسم أعجمي» ١/٣٨.

(٦) بكسر أوله واللام، وياء وألف ممدودة، وحكي بالقصر: اسم مدينة بيت المقدس بالعبرية، قيل معناه: بيت الله، وهي على جبل حيط بها الجبال وماؤها من الأمطار، فتحت في عهد عمر رضي الله عنه انظر فتح الباري ٣١/١.

استنكرنا هيئتك، قال ابن الناطور: وكان هرقل حزاء<sup>(١)</sup> ينظر في النجوم فقال لهم حين سألوه: إني رأيت الليلة حين نظرت في النجوم ملك الختان قد ظهر، فمن يختن في هذه الأمة؟ قالوا ليس يختن إلا اليهود فلا يهتمك شأنهم واكتب إلى مدائن ملكك فيقتلوا من فيهم من اليهود، فبينما هم على أمرهم أتى هرقل برجل أرسل به ملك غسان يخبر عن خبر رسول الله ﷺ فلما استخبره هرقل قال اذهبوا فانظروا أمختن هو أم لا؟ فنظروا إليه فحدثوه أنه مختن، وسأله عن العرب؟ فقال: هم يختنون، فقال هرقل: هذا ملك هذا الأمة قد ظهر ثم كتب هرقل إلى صاحب له، برومية، وكان: نظيره في العلم<sup>(٢)</sup>، وسار هرقل إلى حمص، فلم يرم حمص حتى أتاه كتاب من صاحبه يوافق رأي هرقل على خروج النبي ﷺ وأنه نبي، [فكتب إليه صاحب رومية أنه النبي الذي ننتظره لا شك فيه فاتبعه وصدقته]<sup>(٣)</sup>، فأذن هرقل لعظماء الروم في دسكرة<sup>(٤)</sup> له بحمص ثم أمر بأبوابها فغلقت، ثم اطلع فقال: يا معشر الروم هل لكم في الفلاح والرشد، وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبي؟ فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب، فوجدوها قد غلقت فلما رأى هرقل نفرتهم، وأيس من الإيمان قال: ردوهم علي، وقال: إني قلت مقالتي آنفاً أختبر بها شدتكم على دينكم، فقد رأيت. فسجدوا له ورضوا عنه، فكان ذلك آخر شأن هرقل<sup>(٥)</sup>

(١) هو الذي يحزر الأشياء ويقدرها بظنه، ويقال للذي ينظر في النجوم حزاء من قبل هذا، لأنه ينظر في النجوم وأحكامها بظنه وتقديره فربما أصاب. انظر المصباح المنير ١/١٨٤، ومقدمة فتح الباري «هذي الساري» ص ١٠٥.

(٢) يقرأ من العبرانية انظر هذه الزيادة مما رواه ابن جرير في تاريخه بسنده عن الزهري ٢/٦٤٩.

(٣) انظر هذه الزيادة مما رواه ابن جرير في تاريخه بسنده عن الزهري ٢/٦٤٩.

(٤) واحدة من الدساكر، وهي القصور، قال في المصباح المنير: الدسكرة بناء شبه القصر حوله بيوت يكون للملوك ١/٢٦٣، وانظر: شرح الحديث لابن حجر في الفتح ١/٣٥.

(٥) أخرجه البخاري في بدء الوحي ١/٤ - ٧، الفتح ١/٣١ - ٣٣ وقد خرجه البخاري في أحد عشر موضعاً من الصحيح، ورواه مسلم في الجهاد، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام ٣/١٣٩٣ - ١٣٩٧، وأحمد في المسند ١/٢٦٢، ٣/٤٤١، والترمذي في الاستئذان ٥/٦٩ رقم ٢٧١٧، وأبو داود في الأدب ٥/٣٤٩، والبيهقي في السنن الكبرى في السير ٩/١٧٧، وانظر القصة في طبقات ابن سعد ١/٢٥٩، والروض الأنف للسيهلي ٢/٣٥٥، وزاد المعاد ٣/٦٨٨.

ومن أعظم فوائد الحديث مما له صلة بالبحث:  
اعتبار قرائن الأحوال وعدم الاقتصار على المعجزات في معرفة صدق النبي ﷺ.

وكان من أهم الأسباب التي جعلت مُلك الفرس يزول، ومُلك الروم يطول؛ إن أولئك مزقوا كتاب رسول الله فمزق الله مُلكهم وانتهى صيتهم في خلافة عمر رضي الله عنه، أما الروم فقد عظموا كتاب رسول الله إليهم وكاد مُلكهم أن يُسلم فبقي مُلكهم إلى حين<sup>(١)</sup>.

وهكذا «الدين الحق كلما نظر فيه الناظر، وناظر عنه المناظر، ظهرت له البراهين، وقوي به اليقين، وازداد به إيمان المؤمنين، وأشرق نوره في صدور العالمين»<sup>(٢)</sup>.

فالمقصود إذن بدلائل نبوته ﷺ على المذهب الحق أنها:  
الطرق التي يمكن من خلالها إثبات صدق من يقول إني رسول الله أو كذبه.

---

= قال ابن حجر عن قصة ابن الناطور أنها: «موصولة إلى ابن الناطور لا معلقة كما زعم بعض من لا عناية له بهذا الشأن، وكذلك أغرب بعض المغاربة فزعم أن قصة ابن الناطور مروية بالإسناد المذكور عن أبي سفيان عنه، لأنه لما رآها لا تصريح فيها بالسماع حملها على ذلك، وقد بين أبو نعيم في دلائل النبوة أن الزهري قال: لقيته بدمشق في زمن عبد الملك بن مروان، وأظنه لم يتحمل عنه ذلك إلا بعد أن أسلم، وإنما وصفه بكونه كان أسقفاً لينبه على أنه كان مطلعاً على أسرارهم عالماً بحقائق أخبارهم» ٣٨/١ وانظر دلائل النبوة لأبي نعيم ص ٢٩١.

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية عن ابن إسحق في روايات قصة هرقل: «وهو ذو علم وبصيرة في هذا الشأن، حفظ ما لا يحفظ غيره، قال ابن إسحاق: «وأخذ هرقل كتاب رسول الله ﷺ فجعله في قسبة من ذهب، وأمسكها عنده تعظيماً له» الجواب الصحيح ٢٨٢/١، وقال ابن تيمية عن هذا الكتاب نفسه: «قلت: وكان هرقل من أجل ملوك النصراني في ذلك الوقت، وقد أخبر غير واحد أن هذا الكتاب إلى الآن باق عند ذرية هرقل، في أرفع صوان وأعز مكان، يتوارثونه كابراً عن كابر، وأخبر غير واحد أن هذا الكتاب باق إلى الآن عند الفنس صاحب قشتالة، وبلاد الأندلس يفتخرون به وهذا أمر مشهور معروف» الجواب الصحيح ٢٨٨/١ - ٢٨٩. ألفنس: هو الفونس السادس: أحد ملوك النصراني ١٥هـ، وقشتالة: إقليم عظيم بالأندلس عاصمته طليطلة انظر: المصدر السابق الطبعة المحققة، ومرصد الإطلاع ١٠٩٤/٣

(٢) الجواب الصحيح ٨٨/١.

والتمييز بين الصادق والكاذب له طرق كثيرة لا تتوقف عند أحدها، والناس يميزون بين الصادق والكاذب في النبوة وغيرها. بل قدرتهم على فضح الكاذب في النبوة أعظم من غيرها لكونها أشرف المناصب، والدواعي إلى التحقق من صدق صاحبها أعظم من التحقق في أمر الشاعر أو الطبيب أو من دونهما كالفلاح أو الصائغ ونحوهما، والناس يعرفون هؤلاء إن كان الواحد منهم صادقاً في صنعته أو لا. وعليه فمن يقول إني رسول الله؛ لا بد أن يأتي بينات تدل على رسالته، وأن يقول أقوالاً يبين بها دعوته، ويعمل أعمالاً يصدق بها أقواله، ويأتي بعلوم شريفة تخبر عن رسالته، ويتعامل مع الخلق بأخلاق تفصح عن معدنه، وكلها أفعال وأحوال قابلة للفحص والاختبار والتمحيص والتدقيق للنظر والتحقق من صدق صاحبها أو من عدمه<sup>(١)</sup>.

«ومعلوم أن مدعي الرسالة إما أن يكون من أفضل الخلق وأكملهم، وإما أن يكون من أنقص الخلق وأذلهم... فكيف يشتهب أفضل الخلق وأكملهم بأنقص الخلق وأرذلهم»

والتمييز بين الصادق والكاذب يتأتى من وجوه كثيرة<sup>(٢)</sup>.

وتشبه طريقة التعرف على النبي - عند السلف - طريقة التعرف على أصحاب الاختصاص من الناس كالأطباء والفقهاء والمهندسين؛ فهؤلاء جميعهم لهم خصائص معينة يعرفون بها من خلال تتبع أخبارهم والنظر في سائر أحوالهم. ولا شك أن الدلائل تتفاوت؛ وبعضها أقوى من بعض، ولا شك بأن أقوى دلائل الأنبياء هي الآيات أو ما اصطُلح عليها فيما بعد بالمعجزات، ولا شك بأن أقوى آياته ﷺ القرآن الكريم، إلا أن السلف لم يقتصروا على المعجزات في إثبات النبوات.

ولو نظرنا في المقابل في حال الذين لم يسلموا برسول الله ﷺ؛ كان كثير منهم على يقين من صدقه ﷺ لما يعرفون من حاله، ولكنهم أبوا لسبب أو لآخر<sup>(٣)</sup>.

(١) انظر: النبوات ص ١٦٧ - ١٦٨، والأصفهانية ص ٤٧٢ - ٤٧٧، كلاهما شيخ الإسلام وشرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي ص ١١٢.

(٢) انظر: الأصفهانية، لابن تيمية ص ٤٧٣، وشرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز ص ١١٢.

(٣) ومن أشهر هؤلاء أبو طالب عم النبي ﷺ فقد عزم على نصرة رسول الله والدفاع عنه، =

ومنهم المقوقس - ملك مصر - حينما جاءه كتابُ رسول الله ﷺ قال: «...»  
 قد نظرت في هذا فوجدته لا يأمر بمزهود فيه ولا ينهى عن مرغوب فيه، ولم  
 أجده بالساحر الضال، ولا الكاهن الكاذب، ووجدت معه آلة النبوة، ثم جعل  
 الكتاب في حُقي من عاج، وختم عليه، ودفعه إلى خازنه<sup>(١)</sup>، ولكنه لم يُسلم فقال ﷺ:  
 «ضَنَّ الخبيث بملكه ولا بقاء لملكه»<sup>(٢)</sup>، وكان حوار المقوقس مع المغيرة بن  
 شعبه<sup>(٣)</sup> قبل ذلك سبباً في إسلامه المغيرة فحينما سأله المقوقس عن كيفية  
 صلاته ﷺ، وإلام يأمر، وعمَّ ينهى، وسأل عن نسبه وعن شأنه مع اليهود، وعن

= وقال:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم	حتى أوسد في التراب دفينا
فامضي لأمرك ما عليك غضاضة	أبشر قرَّبَ ذاك منك عيونا
ودعوتني وزعمت أنك ناصحي	فلقد صدقت وكنت قبل أمينا
وعرضت ديناً قد عرفت بأنه	من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أو حذاري سبة	لوجدتني سمحاً بذلك مبينا

انظر: سيرة ابن هشام ٢٨٠/١، ودلائل النبوة، للبيهقي ١٨٨/٢، وسبل الهدى  
 والرشاد، للصالحى ٤٣٧/١.

وهذا النضر بن الحارث بن كلدة بن علقمة بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي قال:  
 «يا معشر قريش إنه والله لقد نزل بكم أمر ما ابتليتُم بمثله، لقد كان محمد فيكم غلاماً  
 حدثاً، أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثاً، وأعظمكم أمانة... حتى إذا جاءكم بما جاءكم  
 قلتم: ساحر، لا والله ما هو بساحر، قد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم. وقلتم كاهن، لا  
 والله ما هو بكاهن؛ قد رأيا الكهنة وحالهم، وسمعنا سجعهم. وقلتم شاعر؛ لا والله ما هو  
 بشاعر؛ قد رأينا الشعر وسمعنا أصنافه كلها هزجه ورجزه وقريضه. وقلتم: مجنون لا والله  
 ما بمجنون؛ لقد رأينا الجنون، فما هو بخنقه ولا وسوسته، ولا تخليطه. يا معشر قريش  
 انظروا في شأنكم فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم». ومع ذلك كان هذا الرجل ممن يؤذي  
 رسول الله، وينصب له العداوة، واستمر على جاهليته حتى قتل في بدر. انظر السيرة لابن  
 هشام ٣١٩/١ - ٣٢٠، ودلائل النبوة للبيهقي ٢٠١/٢ - ٢٠٢.

(١) انظر: طبقات ابن سعد ٢٦٠/١، وسيرة ابن هشام ١٨٨/٤، وأعلام السائلين ص ٨٠ - ٨١.

(٢) المغيرة بن شعبه بن أبي عامر بن مسعود الثقفي، أحد دهاة العرب وقادتهم وولاتهم، يقال  
 له: «مغيرة الرأي» توفي سنة ٥٠هـ انظر: الإصابة ٤٤٣/٣ ترجمة رقم ٨١٨١، ومعجم  
 الأعلام ص ٨٥٥



صدقه وحديثه مع الناس... قال المغيرة: «فقمنا من عنده وقد سمعنا كلاماً ذلّلنا لمحمد ﷺ وخضّعنا له»، وكان من جملة كلام المقوقس في رسول الله ﷺ: «هذا نبي مرسل إلى الناس، ولو أصاب الروم والقبط اتبعوه، وقد أمرهم بذلك عيسى ابن مريم، وهذا الذي تصفون منه بعث به الأنبياء قبله، وستكون له العاقبة حتى لا ينازعه أحد، ويظهر دينه إلى منتهى الخف والحافر، ومنقطع البحور، ويوشك قومه أن يدافعوه بالراح، قال المغيرة ومن معه: لو دخل الناس كلهم معه ما دخلنا، فأغض المقوقس رأسه فقال: أنتم في اللعب!!!»<sup>(١)</sup>.

ولما نزل جيش المسلمين بملك الإسكندرية قال: أخرجوا إلي رجلاً يكلمني وأكلمه، فخرج له عمرو بن العاص<sup>(٢)</sup> وحديثه عن حال رسول الله ﷺ مع قومه وعن أمره ونهيه وغلبته على أعدائه... إلى أن قال: «إن رسولكم قد صدق، قد جاءتنا رسلنا بمثل ما جاء به رسولكم، فإن أنتم أخذتم بأمر نبيكم لم يقاتلكم أحد إلا غلبتموه، ولم يشارككم أحد إلا ظهرتم عليه، وإن فعلتم مثل الذي فعلنا وتركتهم أمر نبيكم، لم تكونوا أكثر عدداً منا ولا أشد منا قوة»<sup>(٣)</sup>.

ومن خلال ما سبق بحثه عن طريقة القرآن في تقرير نبوة النبي محمد ﷺ، وتأمل أسباب إيمان خير القرون به ﷺ ولا سيما في بداية ظهور دينه ﷺ نجد أن

(١) أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة ص ٤٧ - ٥٠، والوفا بأحوال المصطفى لابن الجوزي ٢/ ٧١٩.

(٢) عمرو بن العاص بن وائل بن هشام بن سعيد بن كعب بن لؤي القرشي، أمير مصر، قال ابن حجر: «أن رجلاً قال لعمرو: ما أبطأ بك عن الإسلام وأنت أنت في عقلك؟ قال: إنا كنا مع قوم لهم علينا تقدم، وكان ممن يوازي بهم الجبال، فلما بعث رسول الله ﷺ فأنكروا عليه، فلذنا بهم، فلما ذهبوا وصار الأمر إلينا نظرنا وتدبرنا، فإذا حقّ بيّن، فوقع في قلبي الإسلام، ففرقت قريش ذلك مني؛ من إبطائي عما كنت أسرع فيه.. فبعثوا إليه فتى منهم فناظرني، فقلت: أنشدك الله ربك وب من قبلك ومن بعدك أنحن أهدي أم فارس والروم؟ قال نحن أهدي قلت: فنحن أوسع عيشاً أم هم؟ قال: هم، قلت فما يتفعلننا فضلنا عليهم إن لم يكن لنا فضل إلا في الدنيا وهم أعظم منا فيها أمراً في كل شيء؟ وقد وقع في نفسي أن الذي يقوله محمد من أن البعث بعد الموت ليجزي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته حق ولا خير في التماذي في الباطل» الإصابة ٢/ ٣ ترجمة رقم ٥٨٨٤، ولما أسلم كان النبي يقربه ويدنيه لمعرفته وشجاعته وولاه غزوة ذات السلاسل توفي سنة ٤٣ هـ انظر: المصدر السابق.

(٣) أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة ص ٥٠. والوفا بأحوال المصطفى لابن الجوزي ٢/ ٧٢٠.

الأسباب الدافعة إلى الإيمان به ﷺ متعددة، والدلائل الدالة على صدقه ﷺ متنوعة؛ أعلاها معجزته الباهرة القرآن الكريم، ودونها آيات كثيرة، وعلامات مختلفة؛ في أقواله وأعماله وسيرته وسائر أحواله ﷺ، فمن الناس من آمنه به ﷺ اعتماداً على سمو أخلاقه مما يستحيل معه كذبه، ومنهم من آمن اقتناعاً بسلامة دعوته وصلاح دينه واستقامة شريعته، ومنهم من نظر في حال أتباعه وتغير أحوالهم ومبادرتهم إلى كل خير بعد إسلامهم، ومنهم من كانت تكفيه نظرة إلى وجهه الشريف فيعلم أنه ليس بوجه كذاب، ومنهم من نظر في مجموع أمور فيه ﷺ، ومنهم من يتقصى بعض العلامات التي تدل عليه كما جاء في تحري سلمان الفارسي<sup>(١)</sup> - رضي الله عنه - لثلاث علامات من علامات نبوة خاتم الأنبياء توصل إليها من علم أهل الكتاب وهي أنه ﷺ: لا يأكل الصدقة، ويقبل الهدية، وخاتم النبوة الذي وُصف له فلما ظهرت له واستثبتها أسلم.

وهذا كله يدل على أن مجرد الاختصار على المعجزات في التوصل إلى نبوته ﷺ ضلال كبير.

قال ابن أبي العز الحنفي - رحمه الله - في معرض رده على أهل الكلام والنظر الذين قرروا نبوة الأنبياء بالمعجزات فقط: «ولا ريب أن المعجزات دليل صحيح، لكن الدليل غير محصور في المعجزات، فإن النبوة إنما يدعيها أصدق الصادقين، أو أكذب الكاذبين، ولا يلتبس هذا بهذا إلا على أجهل الجاهلين، بل قرائن أحوالهما تعرب عنهما، وتعرف بهما، والتمييز بين الصادق والكاذب له طرق كثيرة فيما دون دعوى النبوة، فكيف بدعوى النبوة؟!»<sup>(٢)</sup>.

(١) هو سلمان ابن الإسلام، ويقال له سلمان الخير أبو عبد الله، سابق الفرس إلى الإسلام، وكان قد سمع بأن النبي سيبعث فخرج في طلب ذلك فأسر وبيع بالمدينة، فاشتغل بالرق حتى كان أول مشاهدته الخندق، كان لبيا حازماً من عقلاء الرجال وعبادهم ونبلائهم، وقد ذكر قصة إسلامه الذهبي معزوة إلى مصادرها انظر: سير أعلام النبلاء ٥٠٥/١، والإصابة ٦٠/٢ ترجمة رقم ٣٣٥٧.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز ص ١٤٠.

## نماذج من السلف وطريقتهم في إثبات نبوته ﷺ:

تفرد صحيح الإمام البخاري<sup>(١)</sup> - رحمه الله - بمنزلة رفيعة على ما سواه من كتب أهل العلم؛ لأسباب عديدة، ولعل من أهمهما: أنه أصبح كتاب بعد كتاب الله تعالى، ومنها: فقه صاحبه - رحمه الله - ومن ذلك: براعة استهلاله لكتابه الصحيح؛ إذ ليس من الغريب عليه - رحمه الله - وهو إمام جليل القدر قوي النظر في نصوص الشريعة أن يبدأ كتابه الصحيح بتلك البداية البديعة الرائعة والتي حيرت العلماء، وبهرت شراح الحديث في مناسبة ترجمة الباب الأول لما رواه وأورده من نصوص تحتها، ولعل من المناسب هنا أن يُغطَّى جانب آخر من جوانب مناسبة النصوص لترجمة الباب، وهو جانب الحديث على نبوته ﷺ ودلالة تلك النصوص عليها، سائلاً الله التوفيق والسداد.

قال - رحمه الله - في بداية الجامع الصحيح:

«باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ؟ وقول الله جل ذكره: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [النساء: ١٦٣]»<sup>(٢)</sup>.

هذا النص يدل على أن محمداً ﷺ لم يكن بدءاً من الرسل، وأن الوحي الذي جاءه قد أوحى بجنسه إلى نوح والأنبياء من بعده - عليهم السلام - ، وبهذا يكون البخاري قد أثبت صدق الرسالة بطريقة القرآن والتي سبق شرحها في أول هذا المبحث وهي أنه ﷺ أتى بما أتى به الأنبياء من قبله فلماذا الإنكار عليه؟، وبالمقارنة بينه ﷺ وبينهم، وبين دينه ﷺ وبين دينهم من حيث المحاسن والفضائل؛ فسوف تكون النبوة والرسالة متأكدتين في حقه أعظم من غيره.

ثم روى - رحمه الله - حديث النية المشهور «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى...»<sup>(٣)</sup>.

---

(١) أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن المغيرة البخاري، حبر الإسلام صاحب «الجامع الصحيح». من أكبر حفاظ الحديث، وأشهرهم، وأشدّهم شروطاً في قبول الحديث، سيرته عطرة، وأثاره محمودة، توفي رحمه الله في ٢٥٦هـ. انظر: هدي الساري مقدمة فتح الباري لابن حجر ص ٤٧٧ - إلى آخر المقدمة، وانظر: سير أعلام النبلاء ٢٣٤/٨ - ٢٥٤.

(٢) صحيح البخاري ٢/١ - ٧، وفي الفتح ٨/١ - ٤٥.

(٣) انظر: المصدر السابق.

الدال على أن دين محمد ﷺ قائم على إخلاص النية في العمل لله تعالى، وهو لب الدين.

ثم روى حديثاً في كيفية إتيان الوحي إلى رسول الله ﷺ؛<sup>(١)</sup> الدال على الصفات التي يكون عليها الوحي أثناء تنزله على رسول الله.

ثم روى حديثاً في كيفية بداية النبوة ونزول جبريل<sup>(٢)</sup> بالوحي على رسول الله ﷺ ورعبه من ذلك الموقف وتثبيت خديجة لزوجها رسول الله ﷺ بناء على ما عرفته من أخلاق، وأن الله لا يخزي من كان هذا حاله، وتوصل ورقة بن نوفل - وهو من علماء أهل الكتاب - إلى أن محمداً ﷺ هو الرسول الذي بشرت به الكتب بناء على ما سمعه منه من كلام الله، والصفة التي جاء بها جبريل، وما رآه على محمد ﷺ نفسه من علامات.

ثم روى حديثاً يدل على مدى المعاناة التي كان يجدها ﷺ أثناء تنزل القرآن عليه وحرصه على حفظه، فكان يحرك شفثيه مع جبريل أثناء قراءة القرآن ليتقن حفظه، فبشره القرآن بأنه سبحانه سييسر عليه قراءته، وما عليه سوى الإنصات، وسوف يقرأ القرآن كما أنزل عليه بعد فراغ جبريل من قراءته<sup>(٣)</sup>.

ثم روى حديثاً بسنده عن ابن عباس قال: «كان رسول الله ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة»<sup>(٤)</sup>.

مما يدل على أن القرآن يملأ القلوب بالمعاني العظيمة، ويغنيها بالمعارف الإيمانية؛ فتفيض النفوس بالخير والجود. وكان أثر القرآن واضحاً على رسول الله ﷺ حيث كان في رمضان أجود ما يكون، ولقربه من الوحي أصبح أجود من الريح المرسلة، لدوام هبوه بالرحمة، وعموم نفعه للعالمين، وهذا هو أثر الوحي الذي جاء به محمد ﷺ.

ثم روى حديث هرقل<sup>(٥)</sup> والمشتمل على صفات الأنبياء؛ ليقيم الدلائل

(١) انظر: المصدر السابق.

(٢) انظر: المصدر السابق.

(٣) انظر: المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

(٥) انظر: المصدر السابق.

المتنوعة على صدق من أوحى إليه .

ومن هنا نعرف قيمة هذا الإمام الكبير، وفقهه لدين الله، ومعرفته بالوحي بنوعيه كتاباً وسنة، فهو بهذه المقدمة غير المعهودة في كتب الحديث أراد أن يثبت أصل الوحي - الذي يشمل كل ما جاء به محمد ﷺ من دين سواء من القرآن أو السنة - في أول الباب من الصحيح . . «بدء الوحي» ووسطه وآخره .

أما أوله فبالآية القرآنية الدالة على أنه ﷺ من جنس الأنبياء وأنه أتى بما أتى به من قبله فلم التعجب من إرساله ﷺ؟ .

وأما أوسطه فبحديث يدل على حكمة الله تعالى في اختيار محمد ﷺ ليكون محلاً للرسالة لما تميز به من خصال كريمة .

وأما آخره بحديث هرقل المؤكد على النبوة من خلال قرائن أحواله ﷺ، وجاء - رحمه الله - بأصل عظيم عليه مدار الوحي؛ ألا وهو الإخلاص من خلال حديث عمر حديث «النية» . وروى كذلك: كيف بدأ الوحي؟، وكيف جاء؟، وعلى أي صفة يتنزل عليه؟ وكيف كان ﷺ يتلقاه؟ وما أثره على من يقرؤه؟

ولعل هذا الفهم الذي يربط أحاديث الباب الأول كلها من صحيح البخاري يعطي بعداً آخر ومعنى جديداً لما ذكره العلماء في مناسبة الأحاديث لترجمة الباب الأول من صحيح البخاري «بدء الوحي» والله أعلم .

وفي موضع آخر من الصحيح بوب البخاري رحمه الله في كتاب «المناقب» باباً بعنوان: «باب علامات النبوة في الإسلام» ولم يقل: باب معجزات النبوة، وقد روى فيه جملة من الأحاديث الدالة على نبوته ﷺ .

قال ابن حجر: «العلامات جمع علامة؛ وعبر بها المصنف لكون ما يورده من ذلك أعم من المعجزة والكرامة»<sup>(١)</sup> .

- وهذا الإمام أبو حنيفة<sup>(٢)</sup> - رحمه الله - يذكر أن للنبي ﷺ آيات ولكنه في الطريق إلى معرفة الرسول لا يذكر المعجزة<sup>(٣)</sup> .

(١) فتح الباري ٦/ ٥٨١ - ٥٨٢ .

(٢) هو النعمان بن ثابت بن زوطى، التيمي بالولاء، الكوفي، الفقيه المجتهد، عالم العراق أحد الأئمة الأربعة، توفي سنة ١٥٠ هـ . انظر: سير أعلام النبلاء ٦/ ٣٩٠، ومعجم الأعلام ص ٨٩٧ .

(٣) انظر: العالم والمتعلم ص ٣١ .

- وهذا الإمام الشافعي<sup>(١)</sup> - رحمه الله - يذكر أن الدليل على أن محمداً رسولُ الله: القرآن المنزل، وإجماع الناس، والآيات التي لا تليق بأحد غيره<sup>(٢)</sup>.

- وهذا الإمام الترمذي<sup>(٣)</sup> - رحمه الله - يذكر في آخر جامعہ باباً بعنوان: (في آيات إثبات نبوة النبي ﷺ) وابتدأه بالعلامات التي دلت على نبوته قبل البعثة، وذكر فيه أحاديثاً وأبواباً أخرى داخلية من حيث موضوعها في الباب المذكور، واختتمه بأحاديث صفته وصفة خاتم النبوة<sup>(٤)</sup> ولم ينص على كلمة معجزاته في باب من الأبواب.

- وهذا الإمام البغوي<sup>(٥)</sup> - رحمه الله - يعقد باباً في كتابه «شرح السنة» بعنوان «باب علامات النبوة» يذكر فيه بعض الآيات المتنوعة<sup>(٦)</sup>.

وله - رحمه الله - كتاباً آخر بعنوان: «الأنوار في شمائل النبي المختار» ذكر في أوائله باباً بعنوان:

(باب علامات نبوته)<sup>(٧)</sup>. ذكر فيه دلائل متنوعة ابتداء من حادثة شق الصدر وانتهاء باستجابة الله لدعاء رسول ﷺ.

- وهذا شيخ الإسلام ابن تيمية يقرر في أكثر من موضع هذا المنهج فيقول:

---

(١) هو محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع الهاشمي القرشي المطلبی، أبو عبد الله أحد الأئمة الأربعة، توفي سنة ٢٠٤ هـ. انظر: سير أعلام النبلاء ٥/١٠، ومعجم الأعلام ص ٦٧٧.

(٢) ويذكر أن الشافعي أول من صنف في الرد على البراهمة المنكرين للنبوات. انظر: مناقب الشافعي، للرازي ص ٧٠، وانظر: الأسس المنهجية لبناء العقيدة الإسلامية، د. يحيى هاشم فرغل ص ٧٤.

(٣) محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك الترمذي السلمي الحافظ، العَلَم الإمام، البارع، من أهل ترمذ على نهر جيحون مصنف «الجامع» و«العلل» توفي سنة ٢٧٩ هـ. انظر: سير أعلام النبلاء ١٣/٢٧٠، ومعجم الأعلام ص ٧٦٧.

(٤) جامع الترمذي ٥/٥٩٢ - ٦٠٦ وانظر تحفة الأحوذی للمباركفوري ٩٨/١٠ - ١٣٤.

(٥) عبد الله بن محمد بن عبد العزيز بن المُرْزُبَان، أبو القاسم، الحافظ الإمام الحجة المعمر مسند العصر البغوي الأصل، البغدادي الدار والمولد حدث عنه مسلم وأبو داود توفي سنة ٣١٧ هـ وعمره ١٠٣ سنة. انظر: سير أعلام النبلاء ١٤/٤٤٠، ومعجم الأعلام ص ٤٥٣.

(٦) انظر شرح السنة للبغوي ١٣/٢٨٤ - ٣١٤.

(٧) ص ٢٨ - ١٤٠.

«ما من أحد ادعى النبوة من الكذابين إلا وقد ظهرت عليه من الجهل والكذب والفجور واستحواذ الشياطين عليه ما ظهر لمن له أدنى تمييز، وما من أحد ادعى النبوة من الصادقين إلا وقد ظهر عليه من العلم والصدق والبر وأنواع الخيرات ما ظهر لمن له أدنى تمييز... بل كل شخصين ادعيا أمراً من الأمور أحدهما صادق في دعواه والآخر كاذب فلا بد أن يبين صدق هذا وكذب هذا من وجوه كثيرة، إذ الصدق مستلزم للبر، والكذب مستلزم للفجور... والناس يميزون بين الصادق والكاذب بأنواع الأدلة، وحتى في المدعين للصناعات والمقالات؛ كالفلاحة والنساجة والكتابة... فما من أحد يدعي العلم بصناعة أو مقالة إلا والتفريق في ذلك بين الصادق والكاذب له وجوه كثيرة.

وكذلك من أظهر قصداً وعملاً كمن يظهر الديانة والأمانة والنصيحة والمحبة وأمثال ذلك من الأخلاق فإنه لا بد أن يتبين صدقه أو كذبه من وجوه متعددة. والنبوة مشتملة على علوم وأعمال لا بد أن يتصف الرسول بها وهي أشرف العلوم وأشرف الأعمال، فكيف يشتبه الصادق فيها بالكاذب، ولا يتبين صدق الصادق وكذب الكاذب من وجوه كثيرة»<sup>(١)</sup>.

وبذلك يكون السلف قد أخذوا بطريقة القرآن في الاستدلال على نبوة الأنبياء ﷺ بمختلف الآيات ولم يقصروها على المعجزات.

**\* العلماء الذين نشطوا في جمع الأدلة على نبوته ﷺ لم يحصروها في المعجزات، ومنهم:**

- علي بن ربن الطبري<sup>(٢)</sup> في كتابه «الدين والدولة في إثبات نبوة النبي محمد ﷺ»؛ وهو من أول المصنفات في دلائل النبوة، وقد جعلها عشرًا وسماها «شهادات ومقاييس العبر» وخص ثالثها بالآيات؛ وقصد بها المعجزات.

(١) الأصفهانية ص ٤٧٤ - ٤٧٧..

(٢) علي بن ربن الطبري، أبو الحسن، نشأ بطبرستان، اختلف في اسمه واسم أبيه «رَبَن» كثيراً ف قيل ذبل، وقيل: دبل، وقيل: زين، والراجح عند محقق الكتاب أنه «رَبَن»، والمستشرقون يزعمون أن المترجم له كان يهودياً فأسلم، بينما يثبت محقق الكتاب أنه كان نصرانياً فأسلم، وهذا هو الصحيح إذ جاء في الكتاب المذكور ما يثبت ذلك (ت ٢٤٧هـ)، انظر: دراسة المحقق «عادل نويهض» لحياة المؤلف والترجمة له بتوسع في المقدمة ص ٥ - ٣٠، ومعجم الأعلام ص ٥١٨.

- وأبو نعيم الأصبهاني<sup>(١)</sup> في كتابه «دلائل النبوة» قسمه على خمسة وثلاثين فصلاً ولم يقصره على المعجزات.
- وأبو بكر البيهقي<sup>(٢)</sup> في كتابه:
- «دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة»، جمع من سيرته ﷺ ما يدل على صحة نبوته من قريب أو بعيد، وكتاب كبير غزير الفائدة.
- ونوع في الأدلة على النبوة أبو القاسم الأصبهاني<sup>(٣)</sup> في كتابه «دلائل النبوة»
- واقتصر القرطبي<sup>(٤)</sup> في كتابه:
- «الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام، وإثبات نبوة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام» على أربعة دلائل إلا أنه جعل في أولها: «سيرته وأخلاقه وأحواله ﷺ».

### ✽ خضوع بعض المتكلمين لمنهج السلف في إثبات نبوته ﷺ:

لم يقاوم بعض المتكلمين ممن نشط في جمع دلائله ﷺ تلك الأنوار الساطعة، والبراهين القاطعة، والأدلة الناصعة على نبوته ﷺ - ولو لم تكن من معجزاته ﷺ -، فاضطروا إلى النص عليها مع مخالفتها للأصول العقدية عندهم، ومن هؤلاء الذين ألفوا في إثبات نبوته ﷺ:

- (١) أحمد بن عبد الله بن أحمد الأصبهاني، أبو نعيم، الحافظ، العلامة، الثقة، ولد سنة ٣٣٦هـ ويعد كتابه من أفضل ما صنف في الدلائل توفي سنة ٤٣٠هـ انظر: سير أعلام النبلاء ٤٥٣/١٧، ومعجم الأعلام ص ٤٩.
- (٢) هو أحمد بن الحسين البيهقي النيسابوري، ولد سنة ٣٨٤هـ قال ابن ناصر الدين: كان واحد زمانه، وفرد أقرانه حفظاً وإتقاناً وثقة، شيخ خراسان، له تصانيف حسنة، قال ابن كثير: دلائل النبوة لأبي بكر البيهقي من عيون ما صُنف في السيرة والشمال، وتوفي سنة ٦٧١هـ. انظر: شذرات الذهب ٣/٣٠٤.
- (٣) إسماعيل بن محمد بن الفضل التيمي الأصبهاني، العلامة، الحافظ، الملقب بِقِوام السنة، ولد في سنة ٤٥٧هـ أملى وصنف وجرح وعدل، وكان من أئمة العربية، توفي سنة ٥٣٥هـ. انظر: سير أعلام النبلاء ٨٠/٢٠، ومعجم الأعلام ص ٤٩.
- (٤) محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرج الأندلسي القرطبي «المفسر» أبو عبد الله، رحل من الأندلس إلى المشرق، كان إماماً متبحراً متفتناً حافظاً، فقيهاً مفسراً له تصانيف عديدة تدل على وفور عقله، توفي سنة ٦٧١هـ. انظر: شذرات الذهب ٥/٣٣٥.



- الجاحظ في كتابه «حجج النبوة»<sup>(١)</sup> فقد نوع في الاستدلال على نبوته ﷺ .  
 - وهذا الماوردي<sup>(٢)</sup> في كتابه الشهير «أعلام النبوة» وهو من أفضل التصنيفات  
 في إثبات نبوته ﷺ، لولا بعض الاعتزاليات التي أدخلها في كتابه، قد قسمه على  
 واحد وعشرين باباً ما بين معجز وغيره، وقد وافق الماوردي ابن حزم في كتابه  
 «الفصل» حينما سمى دلائل نبوته ﷺ بـ «أعلام النبوة» .  
 - وقد سمى القاضي عبد الجبار كتابه «تثبيت دلائل النبوة»؛ خرج فيه عن  
 ثوب الاعتزال في الاختصار على المعجزات في النبوات، وحشد كل ما رآه دليلاً  
 على نبوته ﷺ حتى أنه قد جعل إيمان الصحابة واحداً من أهم دلائل نبوته ﷺ .  
 فكان لغلبة الأدلة المتنوعة على نبوته ﷺ الأثر الأكبر على هؤلاء فلم يجدوا  
 بداً من التعرض لها وإن كانت أصولهم العقدية تكتفي بالمعجزات دليلاً على  
 نبوته ﷺ .

### \* وهذا هو الشأن فيمن ألف في إثبات نبوته من المتأخرين، ومنهم:

- محمود شكري الألوسي حينما وضع رسالته اللطيفة «الدلائل العقلية في  
 إثبات نبوة محمد ﷺ» ونوع فيها الدلائل ومنها الدلائل العقلية .  
 - وأورد رحمة الله الهندي<sup>(٣)</sup> في كتابه «إظهار الحق» ستة مسالك لإثبات  
 النبوة، وجعل ظهور المعجزات على يديه ﷺ في أحد تلك المسالك الست .

(١) مطبوع ضمن (الرسائل الكلامية) تقديم وتبويب وشرح د. علي أبو ملحم من ص ١٣٠ -  
 ١٥٧، والجاحظ لما ظهرت له أهمية النبوة ودلائلها وعلاماتها وأحوالها نجد الجاحظ  
 يأسى لأن الهم تقاعست عن التأليف الجامع في هذا الموضوع في وقت مبكر .

(٢) وقد ذكرت الماوردي بين المتكلمين لأن أبا عمرو بن الصلاح قال فيه: «هو متهم  
 بالاعتزال، وكنت أتأول له واعتذر عنه، حتى وجدته يختار في بعض الأوقات أقوالهم...  
 وكان لا يتظاهر بالانتساب إلى المعتزلة، بل يتكتم، ولكنه لا يوافقهم في خلق القرآن،  
 ويوافقهم في القدر» سير أعلام النبلاء ٦٧/١٨، وقال الحافظ الذهبي فيه: «صدوق في  
 نفسه، لكنه معتزلي» ميزان الاعتدال ١٥٥/٤، وحاول السبكي تبرئته من الاعتزال فقال:  
 «ليس معتزلياً، فإنه لا يوافقهم في جميع أصولهم... الطبقات الكبرى ٣/٣٠٣ - ٣١٤ .

(٣) رحمة الله بن خليل الرحمن الهندي الحنفي، نزيل الحرمين (ت ١٣٠٦هـ) باحث وعالم  
 بالملل والمناظرة. انظر: معجم الأعلام ص ٢٦٧.

- ود. محمد عبد الله دراز<sup>(١)</sup> في كتابه «النبأ العظيم» استدل على منهج السلف من خلال رؤيته الثاقبة المدفوعة بالفطرة السليمة فقال: «أعلم أنك مهما أزحت نفسك راحة اليقين، وأرخيت لها عنان الشك، وتركتها تفترض أسوأ الفروض في الواقعة الواحدة والحادثة الفذة من هذه السيرة [النبوية] المكرومة، فإنك متى وقفت منها على مجموعة صالحة؛ لا تملك أن تدفع هذا اليقين عن نفسك، إلا بعد أن تتهم وجدانك وتشك في سلامة عقلك. فنحن قد نرى الناس يدرسون حياة الشعراء في أشعارهم، فيأخذون عن الشاعر عن كلامه صورة كاملة تتمثل فيها عقائده، وعوائده، وأخلاقه، ومجرى تفكيره، وأسلوب معيشته، ولا يمنعه من زخرف الشعر وطلاؤه عن استنباط حيلته، وكشف رغوته عن صريحه، ذلك أن للحقيقة قوة غلبة تنفذ من حجب الکتتمان فتقرأ بين السطور وتُعرف في لحن القول، والإنسان مهما أمعن في تصنعه ومداهنته لا يخلو من فلتات في قوله وفعله إذا احتاج أو ظفر أو خلا بمن يطمئن إليه: ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

فما ظنك بهذه الحياة النبوية التي تعطيك في كل حلقة من حلقاتها مرآة صافية لنفس صاحبها فتريك باطنه من ظاهره، وتريك الصدق والإخلاص ماثلاً في كل قول من أقواله، وكل فعل من أفعاله. بل كان الناظر إليه إذا قويت فطنته، وحسنت فراسته، يرى أخلاقه العالية تلوح في ميحاه ولو لم يتكلم أو يعمل.

ومن هنا كان كثير ممن شرح الله صدورهم للإسلام لا يسألون رسول الله على ما قال برهاناً، فمنهم العشير الذي عرفه بعظمة سيرته؛ ومنهم الغريب الذي عرفه بسيماء في وجهه<sup>(٢)</sup>.

وهكذا نرى أن الحق يعلو ولا يعلى عليه، فقد ذهب معظم علماء المسلمين على مختلف مشاربهم في جانب الإثبات والاستدلال والتصنيف بعيداً عن المباحث الكلامية إلى منهج السلف الصالح المستقيم.

(١) د. محمد عبد الله دراز (١٨٩٤ - ١٩٥٨م) من علماء الأزهر اهتم بعلوم القرآن وكانت رسالته للدكتوراه عن التعريف بالقرآن والأخلاق في القرآن، توفي في أثناء حضوره لمؤتمر إسلامي في «لاهور» ألقى فيه بحثاً عن «موقف الإسلام من الأديان الأخرى وعلاقته بها»، كان غيوراً على دينه يدافع عنه في كل محفل. انظر مقدمة كتابه «النبأ العظيم» طباعة ونشر إدارة إحياء التراث الإسلامي بالدوحة قطر.

(٢) انظر النبأ العظيم: د. محمد عبد الله دراز ٣٤ - ٣٥.

## المبحث الثاني

### طرائق المخالفين في إثبات نبوته ﷺ

وفيه مطلبان :

المطلب الأول : طريقة المتكلمين.

المطلب الثاني : طريقة العقلانية المعاصرة.

## المطلب الأول

### طريقة المتكلمين في إثبات نبوته ﷺ

ذهب جمهور المتكلمين إلى الاستدلال على نبوة نبينا محمد ﷺ بالمعجزات، وهذا الطريق هو العدة عندهم<sup>(١)</sup>.

يقول التفਤازاني: «المعجزات هي العدة في إثبات النبوة، وإلزام الحجة على المجادل والمعاند. وقد تُذكرُ وجوهٌ أخرى للتقوية والإرشاد لطالب الحق»<sup>(٢)</sup>. يعني أن الوجوه الأخرى غير المعجزة ليست عمدة بل للاعتضاد فقط وإذا أمعنا النظر في كلام المتكلمين في إثباتهم لنبوته ﷺ وجدنا أنهم ثلاث فئات:

الفئة الأولى: وهم الذين اقتصروا على إثبات نبوته ﷺ بالمعجزة.  
الفئة الثانية: وهم الذين استدلوا بصفاته ﷺ وأخلاقه وسيرته وسائر أحواله

---

(١) والمقصود بالمتكلمين هنا: المعتزلة، والأشاعرة، والماتريدية، وسائر من يعتمد على علم الكلام في تقرير العقيدة كالزيدية وغيرهم. وانظر مذهبهم في النبوة في: رسالة إلى أهل الشجر الأشعري ص ١٦٠ - ١٧٦، والمغني للقاضي عبد الجبار الجزء ١٥، والتمهيد للباقلاني ص ١٥٦ - ١٥٧، والفصل لابن حزم ٩٥/١، والإرشاد إلى قواطع الأدلة للجويني ٢٣٣ - ٢٧٦، والاعتقاد للبيهقي ص ١٧٠ - ١٨٢ ومحصل أفكار المتقدمين والمتأخرين للرازي ص ١٥٧، والنبوات له ص ٩٩ - ١٥٣، والمواقف للأيجي ص ٣٣٧ - ٣٧٠، وأعلام النبوة للماوردي ص ٢٠ وما بعدها.

(٢) وذكر أربعة وجوه وهي باختصار:

- ١ - ما اجتمع من صفاته الشريفة وأخلاقه الحميدة.
- ٢ - ما اشتملت عليه شريعته من علوم ومعاملات وآداب.
- ٣ - نصر الله له على قوى الأرض الكافرة مع ضعفه وقلة أعوانه.
- ٤ - حاجة الناس إليه.

انظر المقاصد، للتفتازاني ١٨٨/٢

على نبوته ﷺ؛ ثم يزعمون - بتكلف واضح - أنها داخلة في المعجزات .  
الفئة الثالثة: وهم - النادر - من انتقل من طريق المعجزات إلى طريقة قرائن الأحوال .

يقول الإيجي في: «المقصد الرابع: في إثبات نبوة محمد ﷺ، وفيه مسالك:

المسلك الأول: - وهو العمدة - : أنه ادعى النبوة وظهرت المعجزة على يده»<sup>(١)</sup>

ثم قال: «المسلك الثاني: - وارتضاه الجاحظ والغزالي - الاستدلال بأحواله قبل النبوة وحال الدعوة، وبعد تمامها، وأخلاقه العظيمة، وأحكامه الحكيمة وإقدامه حيث يحجم الأبطال . . .» ولكنه حاول أن يجعلها من باب الإعجاز فقال: «أمر من تتبعها علم أن كل واحد منها، وإن كان لا يدل على نبوته، لكن مجموعها؛ مما لا يحصل إلا للأنبياء»<sup>(٢)</sup>.

ثم قال: «المسلك الثالث: إخبار المتقدمين عليه عن نبوته» ثم أورد اعتراضاً على الأخير ولم يجب عنه؛ قائلاً: «المعتمد ظهور المعجزة على يده وهذه الوجوه الأخر للتكملة وزيادة التقرير»<sup>(٣)</sup>.

ثم قال: «المسلك الرابع: - وارتضاه الإمام الرازي - أنه عليه السلام ادعى بين قوم لا كتاب لهم ولا حكمة فيهم؛ أني بعثت بالكتاب والحكمة لأتمم مكارم الأخلاق وأكمل الناس في قوتهم العلمية والعملية وأنور العالم بالإيمان والعمل الصالح؛ ففعل ذلك وأظهر دينه على الدين كله كما وعده الله؛ ولا معنى للنبوة إلا ذلك، وهذا قريب من مسلك الحكماء»<sup>(٤)</sup>.

وبهذا يمكن أن نرجع مذهب المتكلمين إلى مسلكين:

المسلك المعتمد: وهو طريق المعجزة وهو الذي عليه جمهور المتكلمين من المعتزلة والأشاعرة والماتريدية

(١) المواقف ص ٣٤٩.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق ص ٣٥٧.

المسلك الآخر: وهو قرائن الأحوال على اختلاف فيها، وإليه ذهب الجاحظ والغزالي، والرازي، وأغفلت المصادر شيخ الماتريدية ورأسها أبا منصور الماتريدي خلافاً للمشهور عن المذهب.

وللنظر في صحة تلك الدعوى من خلال مصادر القوم أبدأ بالمعتزلة والتعرف على مذهب الجاحظ في النبوة.

### طريقة المعتزلة:

قرر القاضي عبد الجبار في «شرح الأصول الخمسة» بعد أن استغرق معظم الكتاب في إثبات «التوحيد والعدل» أن ما تقدم من بحث كان المقصود منه التوصل إلى المعجزة التي هي باب تصديق الرسول ﷺ. فهم يرون أن لا شيء يصح أن يدل على بعثة الرسل إلا طريق المعجزات<sup>(١)</sup>.

أما البشارات فقد أثبتوها وأطلقوا عليها الأخبار، ولكنهم اشترطوا في قبولها شرطين:

- أن يكون نفس الخبر معجزاً

- أو أن يقترن به المعجز؛

وبهذا تكتسب هذه الأخبار عندهم صفة المعجزات، وبناء على هذا فإنهم يؤكدون على أنه لا يجوز أن يدل على النبوات إلا المعجزات<sup>(٢)</sup>.

وهذا من حيث التقرير أما إذا نظرنا في الكتاب الذي ألفه القاضي عبد الجبار نفسه في النبوة بعنوان: «تثبيت دلائل النبوة» فسوف نقف على شواهد لنبوته ﷺ متعددة لا تنحصر في معجزاته ﷺ ومن ذلك أنه عقد باباً ذكر فيه كتب رسول الله ﷺ إلى الملوك، ودرسته لما جاء فيها من دلائل

---

(١) انظر: شرح الأصول الخمسة من أول الكتاب إلى ص ٥٦٥، والمغني ١٤٨/١٥ - ١٤٩. ومما ذكره من المعجزات: إشباعه العدد الكبير من الطعام اليسير، وإجابة الشجر له حين دعاها، وحنين الجذع الذي كان يخطب عليه بعد أن تحول عنه إلى المنبر ولم يسكن حتى احتضنه النبي فسكن، وغير ذلك. انظر: المصدر السابق. ومن المعجزات القرآن الكريم، ووجه إعجازه عندهم: «هو أنه تحدى بمعارضته العرب، مع أنهم كانوا الغاية في الفصاحة والمشار إليهم في الطلاقة... وقرعهم بالعجز عن الإتيان بمثله، فلم يعارضوه، وعدلوا عنه لا لوجه سوى عجزهم عن الإتيان بمثله» المصدر السابق ص ٥٨٦.

(٢) انظر: المغني ١٥٠/١٥.

نبوته<sup>(١)</sup>، وسيرته ﷺ في السابقين والبدرين<sup>(٢)</sup>.

أما الزمخشري فهو سائر على طريقة شيوخه المعتزلة حتى اعتبر المعجزات طريقاً وحيداً في إثبات النبوة، ومع كونه يمر بالآيات التي تقرر اعتبار البشارات دليلاً على نبوته ﷺ، إلا أنه اعتبرها عاملاً مساعداً في إثبات النبوة، ولم يعتبرها طريقاً مستقلاً من طرق إثبات النبوة<sup>(٣)</sup>.

### الجاحظ وطريقته في إثبات نبوته ﷺ:

إن الجاحظ قد سلك مسلكاً مختلفاً عن المتكلمين في إثباته لنبوة محمد ﷺ وهو الاستدلال بأخلاقه وصفته وسيرته.

قال الرازي: «الطريق الثاني لإثبات نبوته - عليه السلام -؛ الاستدلال بأخلاقه وأفعاله وأحكامه وسيره، فإن كل طريق منها وإن كان لا يدل على النبوة لكن مجموعها، مما يعلم قطعاً أن لا يحصل إلا للأنبياء، وهذه طريقة اختارها الجاحظ، وارتضاها الغزالي في كتابه «المقصد»<sup>(٤)</sup>.

وقد ذهب د. بلقاسم الغالي في كتابه: «الجانب الاعتزالي عند الجاحظ»<sup>(٥)</sup> إلى أن الرازي قد أثنى على الجاحظ في هذا المسلك، ثم قال الباحث: «وقليلة هي المسائل التي مدح فيها أشعري معتزلياً»<sup>(٦)</sup>.

والصحيح أن الرازي لم يثنِ على الجاحظ، بل ضعّف منهجه وقال: «أما الدليل الثاني [وسبق أن عزاه للجاحظ]: وهو الاستدلال بمحاسن أحواله على نبوته فضيف، لأن غاية ما في الباب أنه يدل على كون ذلك الإنسان متميزاً عن سائر الناس بمزيد الفضيلة»<sup>(٧)</sup>.

(١) تثبت دلائل النبوة ص ٥١١ وما بعدها.

(٢) المصدر السابق ص ٥٢٧.

(٣) انظر: الكشف ١/١٦٤، ١/٢٠٤، وانظر إلى تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْهِمُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَقْنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [البقرة: ٨٩].

(٤) محصل أفكار المتقدمين من العلماء والحكماء والمتكلمين ص ١٥٨.

(٥) ص ٢٥٤ - ٢٥٦.

(٦) المصدر السابق ص ٢٥٥.

(٧) محصل أفكار المتقدمين من العلماء والحكماء والمتكلمين ص ٦١.

وبعد اطلاعي على كتاب الجاحظ وهو مطبوع ضمن رسائله [الرسائل الكلامية] فوجئت بالمبالغة الشديدة التي أحيط بها هذا الكتاب حيث لقي من الإشادة الشيء الكثير، ومما قيل فيه: أن ابن الأخشاد<sup>(١)</sup> لما دخل مكة حاجاً قام منادياً بعرفات والناس حضور من الآفاق: «رحم الله من دلنا على كتاب الفرق بين النبي والمنتبي» لأبي عثمان الجاحظ<sup>(٢)</sup> وهو نفسه كتاب «حجج النبوة» حيث استغرق ثلثي الكتاب في موضوع الفرق بين النبي والمنتبي<sup>(٣)</sup>. وقال الخياط: «لا يعرف المتكلمون أحداً منهم نصر الرسالة واحتج للنبوة بلغ في ذلك ما بلغه الجاحظ...»<sup>(٤)</sup>.

والحقيقة أنني لما وقفت على الكتاب وجدته كتاباً يقع في سبع وعشرين صفحة، خالياً من المحاجة القوية المتوقعة من مثل الجاحظ، ولم يزد على المعجزة من الدلائل سوى دعائه المستجاب<sup>(٥)</sup>، والإشادة بخُلُقهِ ﷺ في آخر الكتاب - في نصف صفحة -<sup>(٦)</sup>! <sup>(٧)</sup>.

(١) من شيوخ المعتزلة ت ٣٢٦هـ وصفه ياقوت بأنه على معرفة كبيرة بالعلوم الحكمية، انظر: معجم الأدباء ١٠٢/١٦

(٢) نقلاً عن الجانب الاعتزالي عند الجاحظ د. بلقاسم الغالي ص ٢٤٩.

(٣) انظر: كشاف آثار الجاحظ د. علي أبو ملحم.

(٤) الانتصار في الرد على ابن الراوندي، للخياط ص ١٥٤. نقلاً عن الجانب الاعتزالي عند الجاحظ ص ٢٥٠.

(٥) انظر: «حجج النبوة» [ضمن الرسائل الكلامية] للجاحظ تقديم وشرح د. علي أبو ملحم ص ١٥٠

(٦) المصدر السابق ص ١٥٧.

(٧) وكذلك مَنْ عرف وزن الجاحظ الأدبي ووازن بين كتابه «المختار في الرد على النصارى» بكتبه الأخرى فسوف يجد بأن كتابه في الرد على النصارى من أقلها وزناً وأضعفها حجة انظر: «المختار في الرد على النصارى» ولم يستحسن ابن قتيبة - رحمه الله - هذا الكتاب، لأنه كما قال: «تجوّز فيه في الحجة»، انظر: «تأويل مختلف الحديث» ص ٧١ - ٧٢.

وهو كما قال، فإنه وإن كان قد بين فيه خيب النصارى وبغضهم للإسلام، لكنه لم يرد على جميع الشبه التي أوردها هو في أول كتابه. وتحول كلامه فجأة إلى بحث كلامي بعيد الصلة ببيان بطلان عقائد النصارى. وهكذا شأن المتكلمين في ردودهم على النصارى. تأمل على سبيل المثال رد الرازي على النصارى في مناظرته لهم، فهو بحث كلامي لا يخرج منه القارئ برد مفهم على النصارى، ولذلك لا يعول كثيراً على أصحاب المنهج =



## طريقة الغزالي:

أبو حامد الغزالي هو الرجل الثاني الذي نص عليه المتكلمون أنفسهم بعد الجاحظ في أنه أخذ منهج الاستدلال بأحوال النبي ﷺ على نبوته<sup>(١)</sup>، وبالرجوع إلى تراث الغزالي سوف نظفر بما يلي:

أثبت الغزالي أهمية النبوة بطريق ضعيف حيث قال:

«ودليل إمكانها وجودها، ودليل وجودها معارف في العالم لا يتصور أن تنال بالعقل، كعلمي الطب والنجوم، فإن من بحث عنها علم بالضرورة أنها لا تدرك إلا بإلهام إلهي وتوفيق من جهة الله تعالى، ولا سبيل إليها بالتجربة...»<sup>(٢)</sup>.  
والحقيقة أن هذا الكلام غير صحيح لأن العلمين كليهما من العلوم الكسبية التي تنال بطرق وقواعد متعارف عليها عند أهلها بغض النظر عن حكم الأخير.

أما حينما أراد إثبات طريق النبوة قال: «فإن وقع لك الشك في شخص معين أنه نبي أم لا، فلا يحصل اليقين إلا بمعرفة أحواله إما بالمشاهدة أو بالتواتر والتسامع، فإنك إذا عرفت الطب والفقه يمكنك أن تعرف الفقهاء والأطباء، بمشاهدة أحوالهم، وسماع أقوالهم، وإن لم تشاهدهم.

ولا تعجز أيضاً عن معرفة كون الشافعي رحمه الله فقيهاً، وكون جالينوس طبيباً، معرفة بالحقيقة لا بالتقليد عن الغير بل بأن تتعلم شيئاً من الفقه والطب، وتطالع كتبها وتصانيفها فيحصل لك علم ضروري بحالها.

فكذلك إذا فهمت معنى النبوة فأكثرت النظر في القرآن والأخبار يحصل لك العلم الضروري بكونه ﷺ على أعلى درجات النبوة، وعضد ذلك بتجربة ما قاله في العبادات، وتأثيرها في تصفية القلوب، وكيف صدق في قوله... فإذا جربت ذلك في ألف وألفين وآلاف حصل لك علم ضروري لا تمارى فيه.

فمن هذا الطريق اطلب اليقين بالنبوة لا من قلبه العصا ثعباناً، وشق القمر!؛ فإن ذلك إذا نظرت إليه وحده ولم تنضم إليه القرائن الكثيرة الخارجة عن الحصر

---

= الكلامي في الرد على النصارى.

(١) انظر: محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين للرازي ص ١٥٧، والمواقف للأيجي ص ٣٣٧ - ٣٧٠.

(٢) المتخذ من الضلال ص ٥٤.

ربما ظننته أنه سحر وتخيل وأنه من الله إضلال، فإنه يضل من يشاء ويهدي من يشاء، وترد عليه أسئلة المعجزات، فإن كان إيمانك مستنداً إلى كلام منظوم في وجه دلالة المعجزة فينخرم إيمانك بكلام مرتب في وجه الإشكال والشبهة عليها.

فليكن مثل هذه الخوارق إحدى الدلائل والقرائن في جملة نظرك حتى يحصل لك علم ضروري لا يمكنك ذكر مستنده على التعيين، كالذي يخبر جماعة بخبر متواتر لا يمكنه أن يذكر أن اليقين مستفاد من قول واحد معين بل حيث لا يدري ولا يخرج عن جملة ذلك، ولا بتعيين الآحاد، فهذا هو الإيمان القوي العلمي<sup>(١)</sup>

وفي كلامه السابق إهمال واضح للمعجزات، وخلط بين النبي والساحر، ونظرة مبتدعة لطريقة الاستدلال بالقرآن حيث إنه زعم أن القرآن وحده غير كاف في إثبات الرسالة ولا بد من انضمامه إلى النظر في أحوال النبي، إذ قد يُشكل الكلام المنظوم على المستدل - كما زعم -: «فإن كان إيمانك مستنداً إلى كلام منظوم في وجه دلالة المعجزة فينخرم إيمانك بكلام مرتب في وجه الإشكال والشبهة عليها»<sup>(٢)</sup> وهذا غلط عظيم.

ولا أعلم إن كان أبو حامد قد نسي كلامه في كتابه «إلجام العوام» في موضوع طريق تصديق الرسول ﷺ، أم أنه ظهر في كتاب «المنقذ» بخطاب مختلف عن خطابه في كتاب «إلجام العوام»!!.

وقد جعل الغزالي طريق تصديق الرسول ﷺ في كتابه «إلجام العوام» على مراتب: «الأولى: وهي أقصاها ما يحصل بالبرهان المستقصى المستوفى في شروطه، المحرر أصوله ومقدماته درجة درجة، وكلمة كلمة، حتى لا يبقى مجال احتمال وتمكن التباس... وقد يخلو العصر منه...!! ثم ذكر مراتب أخرى يحصل فيها التصديق بأدلة عقلية...»

ثم ذكر في المرتبة الرابعة؛ أن تصديق الرسول يحصل فيها: «المجرد السماع ممن حسن الاعتقاد فيه بسبب كثرة ثناء الخلق عليه، فالمجرب بالصدق والورع

(١) المنقذ من الضلال ص ٥٥ - ٥٧.

(٢) المصدر السابق.

والتقوى مثل الصديق، إذ قال: قال رسول الله ﷺ كذا مصدق به جزماً...». أما في المرتبة الخامسة فيحصل التصديق فيها بمجرد: «سماع الشيء مع قرائن أحوال لا تفيد القطع عند المحقق...»<sup>(١)</sup>.

فهو على هذا يرى أن ما قرره آنفاً في «المنقذ من الضلال» من أدنى وأضعف طرق التصديق وأن أبا بكر الصديق رضي الله عنه آمن بالرسول الله بطريق المرتبة الرابعة، وهذا تناقض ظاهر.

وأفضل ما قاله في هذا الباب ما جاء في كتابه «إحياء علوم الدين» وذلك في خاتمة كتاب: «آداب المعيشة وأخلاق النبوة» لما شارف الانتهاء من حديثه عن أخلاق النبي ﷺ وآياته الدالة على صدقه قال: «فأعظم بغاوة من ينظر في أحواله، ثم في أقواله، ثم في أفعاله، ثم في أخلاقه، ثم في معجزاته، ثم في استمرار شرعه إلى الآن، ثم في انتشاره في أقطار العالم، ثم في إزعان ملوك الأرض له، في عصره وبعد عصره، مع ضعفه ويتمه، ثم يتمارى بعد ذلك في صدقه. وما أعظم توفيق من آمن به وصدقه، واتبعه في كل ما ورد وصدر فأسأل الله تعالى أن يوفقنا للاقتداء به في الأخلاق والأفعال والأحوال والأقوال بمنه وسعة جوده»<sup>(٢)</sup>.

هذا أفضل ما قاله في نبوته ﷺ أما أسوأ ما قاله في نبوته ﷺ ففي كتابه «معارج القدس» فإنه في هذا الكتاب فيلسوف جلد، قال في بيان خواص النبوة: «ولها خواص ثلاث: أحدها: تابعة لقوة التخيل والعقل العلمي، ثانيها: تابعة لقوة العقل النظري، وثالثها: تابعة لقوة النفس»<sup>(٣)</sup>.

ثم يفصل في تلك الخواص بكلام فلسفي خالص.

والخلاصة أن الغزالي مضطرب في طريقة إثبات النبوة من خلال تلك الأقوال السابقة إلا إذا قيل بتعدد شخصياته، وبناء عليها تتنوع خطابات وعليه فليس ثمة تناقض، خطاب يكون للعوام، وخطاب آخر يكون للخواص، ولكل ما يناسبه. أو

(١) إجماع العوام ص ٢٩٥ - ٢٩٨.

(٢) إحياء علوم الدين ٣٨٧/٢.

وهذا ابن حزم يقرر أن المعجزات هي طريق النبوة، ثم يقول: «إن سيرة محمد ﷺ لمن تدبرها تقتضي تصديقه ضرورة، وتشهد له بأنه رسول الله حقاً فلو لم تكن له معجزة غير سيرته ﷺ لكفى» الفصل ٩٥/١.

(٣) معارج القدس ص ١٥٠.

أن يقال إن كلامه في «المنقذ» هو المتأخر، وعليه يكون ما فيه هو الذي استقر عليه مذهب الغزالي، ولا سيما وأنه ألفه في سنة ٤٩٩هـ<sup>(١)</sup>، ولذلك نسب كل من الرازي والإيجي مذهب الاستدلال على نبوته ﷺ بقرائن الأحوال إلى الغزالي<sup>(٢)</sup>.

ويبقى إشكال آخر على الغزالي في كتابه «المنقذ» وهو أنه لما أراد أن يفسر النبوة جعلها من جنس الكشف الذي يحصل للصوفية، والكتاب كله ذو نزعة إشراقية، تأمل قوله: «وبالجملة فمن لم يرزق منه شيئاً [الكشف والمشاهد] بالذوق فليس يدرك حقيقة النبوة إلا الاسم»<sup>(٣)</sup>. ثم قال: «وراء العقل طور آخر تتفتح فيه عين أخرى يبصر بها الغيب، وما سيكون في المستقبل، وأموراً أخرى...»<sup>(٤)</sup> وهذا الأمر يجعلني أرفض قبول رأي الباحثين الذين جعلوا مذهب الغزالي قريباً من مذهب أهل السنة في طريقة الاستدلال على نبوته ﷺ<sup>(٥)</sup>.

### طريقة الرازي:

قرر الرازي مذهبه في إثبات نبوته ﷺ بثلاث طرق:

الأولى: إثباتها بالمعجزة في كتابه «المسائل الخمسون في أصول الدين»، وقال فيه: «المسألة الأربعون: في نبوة محمد عليه السلام وعلى آله وأصحابه: الدليل عليها: هو أن محمداً عليه السلام؛ ادعى النبوة وأظهر المعجزة على وفق دعوته، وكل من كان كذلك فهو رسول الله»<sup>(٦)</sup>.

وأشار إليها في كتابه «محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين» حيث وسع الكلام في الدليل على نبوته قليلاً فذكر ثلاثة مسالك:

١ - المعجزات، و٢ - «الاستدلال بأخلاقه وأفعاله وأحكامه وسيره، فإن كل طريق منها - وإن كان لا يدل على النبوة لكن مجموعها - مما يعلم قطعاً أن لا

---

(١) انظر: «المنقذ من الضلال» ص ٦٤ حيث ذكر فيه أنه مكث في عزلة مدة عشر سنين، وألف الكتاب المذكور في سنة ٤٩٩هـ.

(٢) انظر: محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين للرازي ص ١٥٧، والمواقف للإيجي ص ٣٣٧ - ٣٧٠.

(٣) المنقذ ص ٥٠.

(٤) المصدر السابق ص ٥٣.

(٥) انظر: الجانب الاعتزالي عند الجاحظ، د. بلقاسم الغالي ص ٢٥٥.

(٦) ص ٦٤.

يحصل إلا الأنبياء»، وبهذا يكون قد أرجعها للأول

٣ - البشارات به «فهذه مجامع أدلة نبوته عليه السلام، والاستقصاء فيها مذكور في المطولات»<sup>(١)</sup>.

أما طريقة الرازي الثانية في إثبات نبوته ﷺ - ففيها شيء من التفصيل - تابعه عليها ابن الوزير اليماني<sup>(٢)</sup> وهي؛ أنهما أدخلتا الدلائل كلها في المعجزات، ثم قاما بتقسيم المعجزات إلى قسمين:

١ - معجزات حسية. و٢ - ومعجزات عقلية. وجعلنا في «المعجزات الحسية» ثلاثة أقسام:

أ - أموراً خارجة عن ذاته. ب - أموراً في ذاته. ج - أموراً في صفاته وذكرنا من «صفاته» ما يلي:

« - أن أحداً ما سمع منه كذباً لا في أمر الدين ولا في أمور الدنيا، ولو صدر عنه شيء من ذلك مرة واحدة لاجتهد أعداؤه في نشره وإظهاره.

- أنه ما فعل قبيحاً منفراً عنه لا قبل النبوة ولا بعدها.

- أنه لم يفر عن أحد من أعدائه لا قبل النبوة ولا بعدها، وإن عظم الخوف واشتد الأمر.

- أنه كان عظيم الشفقة والرحمة على أمته.

- أنه كان في أعظم درجات الكرم والسخاء.

- أنه ما كان للدنيا في قلبه وقع.

- أنه كان في غاية الفصاحة.

- أنه بقي على طريقته المرضية أول عمره إلى آخره، والمزور لا يمكنه ذلك.

- أنه عليه الصلاة والسلام كان مع أهل الغنى والثروة في غاية البعد عن المطامع والترفع عنها، ومع الفقراء والمساكين في غاية القرب منهم والتواضع لهم

(١) انظر: محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين، للرازي ص ١٥٧ - ١٥٨.

(٢) محمد بن إبراهيم بن علي أبو عبدالله، من آل الوزير، قال الشوكاني: «هو الإمام الكبير المجتهد المطلق المعروف بابن الوزير، ولد في سنة ٧٧٥هـ... تمشيخ وتوحش في الفلوات وانقطع عن الناس مات سنة ٨٤٠هـ بصنعاء». انظر: البدر الطالع ٨٣/٢.

واللطف بهم<sup>(١)</sup>.

ويلاحظ أنهما جعلاً «صفاته» من المعجزات وهذا بعيد جداً، والسبب في ذلك؛ أنهما لمّا جعلاً العمدة هي المعجزات قاما بإدخال كل دليل قوي فيها، وإن لم يكن من جنسها.

وانظر إلى كيفية إدخالهما لتلك الصفات في المعجزات: «أنه كان عليه الصلاة والسلام في كل واحدة من هذه الأخلاق الكريمة في الغاية القصوى من الكمال، ولا يتفق ذلك لأحد من الخلق غير أهل العصمة من الله تعالى، فكان اجتماع ذلك في صفاته من أعظم المعجزات»<sup>(٢)</sup>.

ثم إنهما فصلًا في القسم الثاني - بدلائل حسنة - ولكنهما اصطلاحاً عليها اسماً بعنوان: «المعجزات العقلية» ولا مبرر لتسميتها بالمعجزات، ولا ينطبق عليها تعريف المعجزة.

ولكي يظهر بُعد ما ذهباً إليه فيما اصطلاحاً أنه «المعجزات العقلية» أوجز أنواعها فيما يلي:

النوع الأول: ... أنه لم يمارس شيئاً من العلوم ولم يخالط أحداً من العلماء ألبتة، وظهر بين قوم غلبت عليهم الجهالة، ثم بلغ من معرفة الله تعالى وصفاته وأسمائه وأفعاله وأحكامه هذا المبلغ العظيم...

الثاني: أنه ﷺ قبل البعثة لم يكن باحثاً عنها ولا مشغولاً بها، ولو وقع شيء منه لطمعن به عليه ثم جاء بكلام عجز عنه الأولون والآخرون بعد الأربعين من عمره دفعة واحدة...

الثالث: تحمله ﷺ أنواع الأذى في تبليغ الرسالة، ولم تغيره تلك المتاعب والمشاق عن نهجه.

الرابع: - من معجزاته العقلية - أنه ﷺ كان مستجاب الدعوة!!

الخامس: - من معجزاته العقلية - ورود البشارة به ﷺ في التوراة والإنجيل!!

السادس: - من معجزاته العقلية - إخباره ﷺ عن الغيوب وصدقه في

---

(١) انظر: الأربعين في أصول الدين، للرازي ص ٣٠٩، وإيثار الحق على الخلق لابن الوزير ص ٧٨ - ٧٩.

(٢) المصدران السابقان.

ذلك<sup>(١)</sup>.

ويلاحظ التكلف الواضح في إدخال تلك الدلائل في قسم المعجزات.

### الطريقة المرضية عند الرازي:

أما الطريقة التي يرتضيها الرازي في إثبات نبوته ﷺ ويكشف فيها عن نفسه؛ فهي التي قررها في كتابه «النبوات» فقال: «القسم الثاني من كتاب النبوات في تقرير القول بالنبوة عن طريق آخر» وهو «قدرة النبي على تكميل الناقصين»، [ويقول فيه]: «اعلم أن القائلين بالنبوات فريقان: أحدهما: الذين يقولون: إن ظهور المعجزات على يده يدل على صدقه... وهذا نقول هو الطريق الأول، وعليه عامة أرباب الملل والنحل.

والقول الثاني: أن نقول:

أن نعرف أولاً أن الحق والصدق في الاعتقادات ما هو؟

وأن الصواب في الأعمال ماهو؟ فإذا عرفنا ذلك، ثم رأينا إنساناً يدعو الخلق إلى الدين الحق، ورأينا أن لقوله أثراً قوياً في صرف الخلق من الباطل إلى الحق، عرفنا أنه نبي صادق، واجب الاتباع. وهذا الطريق أقرب إلى العقل، والشبهات فيه أقل، وتقريره لا بد أن يكون مسبقاً بمقدمات<sup>(٢)</sup> - وقرر بعض المقدمات الفلسفية - ثم قال: «إذا عرفت هذه المقدمات، فنقول: مرض النفوس الناطقة شيثان: الإعراض عن الحق، والإقبال على الخلق، وصحتها شيثان: الإقبال على الحق، والإعراض عن الخلق فهو النبي الصادق، وقد ذكرنا أن مراتب هذا النوع من الناس مختلفة بالقوة والضعف، والكمال والنقصان، فكل من كانت قدرته على إفادة هذه الصحة كان أعلى في درجة النبوة وكل من كانت درجته في هذا الباب أضعف، كان أنقص في درجة النبوة»<sup>(٣)</sup>.

ثم شرع بتأييد قوله بآيات من القرآن بتفسيره الخاص تدل عنده على تكميل الأنبياء للآخرين في قواهم العلمية والعملية، ويرى الرازي أن هذا الطريق أشرف

---

(١) انظر: الأربعين في أصول الدين، للرازي ص ٣١٠. وإيثار الحق على الخلق، لابن الوزير ص ٨١ - ٨٢.

(٢) النبوات ص ١٦٣.

(٣) المصدر السابق ص ١٦٨.

وأعلى وأكمل من طريق المعجزة وقد قرر هذه الطريقة في تفسيره<sup>(١)</sup>.

وهي طريقة مأخوذة من ابن رشد الفيلسوف؛ فهذه الشرائع التي يأتي بها الأنبياء هي التي تدل دلالة قطعية على النبوة، ويمثل ابن رشد النبي بالطبيب الذي يُعرَف أنه طبيب عن طريق إبرائه للمريض، فان استطاع فهو طبيب وإلا فلا، فكذلك الأنبياء يعلم صدقهم عن طريق وضع الشرائع<sup>(٢)</sup>.

والحقيقة أن الرازي واضح الميل إلى طريقة الفلاسفة الإسلاميين من خلال كتابه «النبوات».

هؤلاء الثلاثة وهم؛ «الجاحظ والغزالي والرازي» هم أشهر المتكلمين الذين اختطوا طريقاً مختلفاً عن طريق المعجزات، وبقي معنا علمين آخرين لا بد من الوقوف عندهما: الأول منهما قد أغفله الباحثون وهو: أبو منصور الماتريدي، وأما الثاني فهو الماوردي، ولنبدأ بأبي منصور الماتريدي.

### طريقة الماتريدي:

يُعد أبو منصور الماتريدي<sup>(٣)</sup> أفضل المتكلمين طريقة في إثبات نبوته ﷺ وهي طريقة مختلفة عنهم تقترب كثيراً من طريقة السلف، ولكن تلاميذه من بعده قد ذهبوا مذهب المتكلمين فيها وخرجوا على منهج شيخهم في هذه المسألة، وجاءت طريقة أبي منصور الماتريدي في إثبات نبوته ﷺ من خلال الأوجه التالية - غير محصورة في وجه واحد منها -:

١ - بذاته وجوهره ﷺ من خلال؛ صفته الخلقية، والخلقية، وطيب معدنه، وجمال صورته، وقرائن أحواله. ومما قاله في هذا المقام:

«وزينه [تعالى] بكل زين.. ولم يؤخذ عليه كذب قط، ولا عرفت عنه هفوة، ولا منه على أعدائه فرار، ولا في أخلاقه سوء... لا يداري ولا يماري، ولا يعرف فحشاً ولا ينتصر لنفسه، وكان في الإشفاق بالمحل الذي عوتب عليه

(١) انظر تفسير الرازي ١٢٠/١٧ - ١٢٣، والنبوات له أيضاً ص ١٨٥.

(٢) انظر: الكشف عن مناهج الأدلة ص ١٢٩ - ١٣٤ وفصل المقال ص ٢٤.

(٣) هو محمد بن محمد بن محمود أبو منصور السمرقندي الماتريدي، نسبة إلى ماتريد محلة قرب سمرقند، مؤسس فرقة الماتريدية، من أشد الناس على المعتزلة، توفي سنة ٣٣٣هـ انظر: الخطط للمقريزي ٣٥٩/٢ والماتريدية، دراسة وتقويماً، أحمد بن عوض الله الحربي ص ٩٣ - ١١٤.



بقوله: ﴿... فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٌ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨]، وقوله: ﴿لَمَّا بَلَغَ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣]، وفي التحزن بما فيه هلاك الخلق كما وصفه الله وعصمه بقوله: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَلَالٍ مِمَّا يَتَكَبَّرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧] وقال: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]... ولم يدخر شيئاً لغد، وقد عرض عليه أعلا ما يرغب فيه من متاع الدنيا والرياسة بأن يداهن قليلاً فما أجاب فيه، بل عادى لله الأقوياء والملوك والسادات، حتى أكرمه الله بالرعب في قلوب الخلق فلم يكن يقصد إليهم في الحرب إلا خافوه... وما اجتمعت آراؤهم على إطفاء نوره وطمس أثره فما ازداد إلا ظهوراً...»<sup>(١)</sup>.

٢ - الآيات الحسية: وذكر منها: انشقاق القمر، واجتذاب الشجر، وتسليم الحجر، وشربهم الماء الكثير من البشر...<sup>(٢)</sup>.

٣ - القرآن الكريم واعتبره آية عقلية<sup>(٣)</sup>.

٤ - الآيات العقلية، ومن منهجه الذي يحمد له أنه يقرن غالباً الآيات العقلية عنده بدليلها من القرآن، فيقول:

«وأما العقلية فهي على وجوه:

أحدها: أن أمره لم يكن مستغرباً بل كان مستمراً على العادة بوجود مثله في الأمم، فلذلك يبطل وجه الرد عليه في أول وهلة. قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤] وقال: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلٌّ مَّا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبَعَدًا لِّقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٤].

والثاني: موافقة مجيئه وقت الحاجة إليه إذ كان زمن فترة ودروس العلم، مع جزي عادة الله بمعاينة أسباب الهداية عند زوال أهله عن نهج الهدى قال الله تعالى: ﴿يَتَأَمَّلِ الْكِتَابَ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنْتُمْ

(١) كتاب التوحيد لأبي منصور الماتريدي - باختصار -، تحقيق د. فتح الله خليف ص ٢٠٢ - ٢٠٤.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

تُخْفَتُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْقُوا عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ [المائدة: ١٥].

والثالث: كون المبعوث فيهم بموضع الحاجة إليه لخلاء جنسه عن أسباب العلم بقوله: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١﴾﴾ [الجمعة: ٢].

والرابع: كونه في أظهر الأماكن للخلق؛

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِنُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَلِنُذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَبَّ فِيهِ فِرَيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفِرَيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴿٧﴾﴾ [الشورى: ٧]...

وهذه فيما حاجهم به في أحوالهم، ثم حاجهم بما في أحوال النبي: منها؛ أنه نشأ في قوم لم يكن لهم كتب، ولا دراسة، مع أنه لم يفارق قومه، وما كان لهم كتب كان قد سبق له الارتياض في دراستها، ثم كان في ضمن تلك لو طرأ عليهم طارئ لا يجهل مكانه وذلك قوله: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَمْ مُنْكَرُوا ﴿١٣﴾﴾ [المؤمنون: ٦٩] وقوله ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَذَابَ لِلْمُكَذِّبِ ﴿١٤﴾﴾ [هود: ٤٩]، وقد نشأ أمياً، والامي لا يأخذ عن الكتب... ولذلك اشتد تعجبهم من حفظ القرآن قال تعالى: ﴿سَتَقَرُّوْكَ فَلَا تَنْسَخَ ﴿١﴾﴾ [الأعلى: ٦]...

وأيضاً: أنه لم يذكر عنه في سالف عمره التشاغل بنظم الكلام وتعاطي ضروره، ثم يمتنع عن مثله أن يتهياً له ما يُعجز عنه المعروفين بارتياضه، دليله أنه لم يُطعن بشيء من ذلك، بل لما قيل بقوله قال لهم: ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَنُزِّلُهُمْ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [يونس: ٣٨] سكتوا ولم يدعوا عليه إظهاره فيه قال الله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣١﴾﴾ [يونس: ١٦].

وأيضاً: أن الله تعالى أمرهم بتأمل أحواله، هل يجدون ما يعذرهم في ترك الاكتراث إليه؟ فلم يجدوا؛ قال الله تعالى ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَحْدِهِ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ خِزْيٍ وَفَرْدَى ثُمَّ تَنْفَكُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤١﴾﴾ [سبأ: ٤٦].

وأيضاً: مما دعاهم إلى النظر في أموره أن هل يجدون فيه ما وجدوا في المتسمين بصنعة الكلام من التصدي للملوك لنيل الدنيا، بل عرضت عليه المطامع

من الثروة والرياسة ليرجع عن دينه مما لديه يعز البشر، فلم يجب إلى ذلك، ليعلم بالطبيعة المستمرة على ما فيه مخالفة الهوى، وكف النفس عن الملاذ، إنه على ما راضه الله وأكرمه لدار كرامته، دون الميل إلى شيء من حطام الدنيا، وقال: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦].

وأيضاً: ما حاجهم بالدعاء إلى النظر في الأديان ليعلموا تمكسه بأحسن ما في العقول، مما فيه لزوم اختيار مثله فقال: ﴿قُلْ أُولَئِكَ جَحَشْتُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [الزخرف: ٢٤] وقال ﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَسْبُدَ إِلَّا لِلَّهِ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]<sup>(١)</sup> ثم تطرق قليلاً إلى وجوه من إعجاز القرآن، ثم عاد إلى دلائل أخرى عقلية فقال:

«التأييد الذي يظهر دعوته ويفلح حجته، يبصره من شاقه وحاده؛ إذ الله تعالى بعثه في أوان طموس من آثار الدين إلى العباد لينقذهم من الردى، ثم لما أقامه هذا المقام الجليل، والخطب الجسيم لم يخله عن نصره والتمكين، ليقوي منته عليه بما أكرمه من المقام بقوله: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١] ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّكَ اللَّهُ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١] ويمثله سبقت كلمته لعباده المرسلين. ثم كان له أيضاً من خصوص حال أن بعث إلى الناس كافة، ووعد له الغلبة والنصر<sup>(٢)</sup> ولولا طول كلامه لواصلت النقل منه لجدة بحثه على من قبله.

وأود أن أشير هنا إلى أن أبا منصور قد ختم بحثه في إثبات نبوته ﷺ بمجادلة حسنة لمن يؤمن بالأنبياء ولم يؤمن بمحمد ﷺ يقول فيها:

«نسألهم عن المعنى الذي له أقروا به أو أقر به سلفهم، فإن أشاروا إلى معنى على تحقيق ذلك أنه من المعاني التي توجب النبوة الزمناهم في نبوة محمد ﷺ ذلك المعنى بعينه، وإن كانت الآية مختلفة... وإن تعلقوا بظواهر الآيات لم يجدوا لأحد مثل الذي لمحمد في الأعجوبة والرفعة...»<sup>(٣)</sup>

(١) كتاب التوحيد لأبي منصور الماتريدي، تحقيق د. فتح الله خليف ص ٢٠٤ - ٢٠٧

(٢) المصدر السابق ص ٢٠٨.

(٣) المصدر السابق ٢١٠.

ويلاحظ أن أبا منصور لم يستعمل كلمة معجزة في كلامه السابق كله، ولم يتحدث عن شروط أو تعريف، بل استخدم الألفاظ الشرعية، مثل: آية، حجة...، ولا أعلم سبباً جعل تلاميذه يصرون على الاقتصار على المعجزة في إثبات النبوة، ويخالفون مذهبه، حتى أصبح مذهب المتأخرين ممن خالفوه في تقرير النبوة هو الذي استقر عليه مذهب الماتريدية<sup>(١)</sup>.

### طريقة الماوردي:

أما الماوردي فقد قرر أن «حجج الأنبياء على أممهم هو المعجز الدال على صدقهم»<sup>(٢)</sup>.

وفي تعريفه للمعجز قال: «فالمعجز ما خرق عادة البشر من خصال لا تستطيع إلا بقدرة إلهية تدل على أن الله تعالى خصه بها، تصديقاً على اختصاصه برسالته فيصير دليلاً على صدقه في ادعاء نبوته»<sup>(٣)</sup> وفي قوله «من خصال» غموض لم يبين مراده منها.

ثم قام على طريقة المتكلمين بحشد جميع الدلائل المختلفة تحت بند المعجزات، فلما أراد إثبات نبوته ﷺ قال: «يتعين إقامة الدليل على إثبات نبوته... وأما الدليل؛ فحجاج يتنوع أنواعاً... يشتمل على أعداد متنوعة وشواهد مختلفة فَرَّقَ الله تعالى بينها لتكون الحجج متغايرة والبراهين متناظرة بحسب ما علمه من المصلحة، ورآه من أسباب الإجابة، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ [الأنعام: ١٠٥]<sup>(٤)</sup> إلى هنا كلام جميل جداً، ولكنه فسر الآية بقوله: «أي يخالف بينها في المعجزات؛ فكان بعضها حجة قاطعة، وبعضها أمانة لائحة تجري عليها أحكام ما قاربها فتقوى بعد الضعف وتحج بعد الكشف، وإن لم تكن للإنذار بانفرادها من قواطع الحجج المغنية عن دليل يحج»<sup>(٥)</sup>.

ثم قال: «وإذا تقرر أن المعجز محدود بما ذكرناه من خرق العادة فقد ينقسم ما خرج عن العادة على عشرة أقسام» ومن هنا يحاول إدخال سائر ما ورد عنه ﷺ

(١) انظر: أصول الدين، للبزدوي ص ٩٧، والتمهيد، لأبي المعين النسفي ص ٤٤.

(٢) أعلام النبوة ص ٢٨.

(٣) المصدر السابق.

(٤) أعلام النبوة ص ٥٥.

(٥) المصدر السابق.

من دلائل في هذه الأقسام العشرة، ولقد أورد أعلام النبوة في خمسة عشر باباً، من السابع إلى الحادي والعشرين.

وبعد التأمل فيها يظهر أنه قد خرج منها عن المعجزات الأبواب الستة الأخيرة. ولكنه يبذل قصارى جهده - على طريقة المتكلمين - في دفعها بالقوة لتكون تحت مظلة المعجزة.

ومن ذلك أنه لما تحدث عن شرف أخلاقه وكمال فضائله قال: «فإن قيل: فليست فضائله دليلاً على نبوته، ولم يسمع بنبي احتج بها على أمته، ولا عول عليها في قبول رسالته لأنه قد يشارك فيها حتى يأتي بمعجز يخرق العادة فيعلم بالمعجز أنه نبي لا بالفضل. قيل: الفضل من أماراتها وإن لم يكن من معجزاتها، ولأن تكامل الفضل معوز فصار كالمعجز، ولأن من كمال الفضل اجتناب الكذب، وليس من كذب ادعاء النبوة بكامل الفضل فصار كمال الفضل موجباً للصدق، والصدق موجباً لقبول القول، فجاز أن يكون من دلائل الرسل»<sup>(١)</sup>.

وبعد هذا العرض لآراء المتكلمين في طريقة إثبات نبوته ﷺ نجد بأن القناعة - عند أكثرهم - متوفرة في تنوع دلائله ﷺ وعدم حصرها في المعجزات، ولكن الجرأة في نقض الأصل الراسخ - عندهم - القائل بحصرها في المعجزات غير متوفرة، فعمد جُلّهم إلى اعتبار سائر الدلائل الواضحة على إثبات نبوته ﷺ من قبيل المعجز، وهكذا شأن البدعة إذا ترسخت فمن الصعب الإقلاع عنها.

---

(١) أعلام النبوة ص ٢٠٢.

## المطلب الثاني

### طريقة العقلانية في إثبات نبوته ﷺ

العقلانية المعاصرة؛ هو اتجاه يغلب عليه تحكيم العقل المتأثر بالمناهج الغربية في العلوم الحسية التجريبية وتطبيق تلك المناهج على النصوص الشرعية، ولذلك كان من إفرازات هذا الاتجاه رد النصوص الشرعية التي تخالف أهواءهم - إن وجدوا إلى ذلك سبيلاً - أو تأويلها ولو بأسلوب باطني يوافق اتجاههم الضال. وبنظرة سريعة على عناوين الكتب التي تحدثت عنه ﷺ في تلك الفترة تعطيك صورة عن مدى الذل والضعف أمام سطوة الفكر الغربي<sup>(١)</sup>.

إن الموجة السائدة - في عصر الاستعمار وما بعده - على العالم الإسلامي أفرزت طبقة من المثقفين والكتاب الذين ينشرون مقالاتهم أو كتبهم عن نبي الإسلام ﷺ تنحو منحى إنكار المعجزات والاقتصار على إثبات النبوة بالقرآن الكريم والصفات الشخصية له ﷺ، ومنهم من يهتم بإبراز عظمة الرسول ﷺ بصفته إنساناً تميز بعبقريّة فريدة، وشخصية مؤثرة أسرة، متأثرين بالاستدلالات العلمية الحديثة والمناهج الغربية المطبقة على العلوم الحسية، دون الحديث عن المعجزات والدلائل التي درج المسلمون عليها في الاستدلال على نبوته ﷺ، محاولين تجريده ﷺ عن كل ما له صلة بالمعجزات، وذلك بسبب طغيان المنهج التجريبي

---

(١) من الأمثلة على تلك الكتب: - كتاب «محمد الثائر الأعظم»، فتحي رضوان.  
- كتاب «الرسول العربي محمد بن عبد الله السوبرمان العالمي الأول» !!!؟؟؟، لبيب الرياشي.

- كتاب «محمد رسول الحرية»، لعبد الرحمن الشوقوي.  
- كتاب «عبقريّة محمد»، لعباس محمود العقاد.  
- كتاب «ديمقراطية محمد»، محمد حلمي محمود.  
- كتاب «اشتراكية محمد»، محمود شلبي.

الحسي على العلوم كلها، ولهذا لا نعجب من خلو كتاب «حياة محمد» لمحمد حسين هيكل<sup>(١)</sup> من ذكر المعجزات سوى القرآن وأصحاب هذا الاتجاه العقلي قد أخذوا بفكرة هدامة تقول: إن البشرية قد بلغت سن الرشد ولم تعد بحاجة إلى الإقناع بالمعجزات<sup>(٢)</sup>.

### قول العقلانية على النقيض من قول المتكلمين:

بالرغم من أن كلاً من المتكلمين والعقلانيين المعاصرين قد قدسوا العقل وجعلوه مصدرهم الأول إلا أنهم اختلفوا اختلافاً بيناً في موضوع المعجزات، فالمعجزات عند المتكلمين هي العدة في إثبات النبوة، والمعجزات عند العقلانيين المعاصرين ليست بالدليل الذي يعول عليه، بل إنهم يحاولون أن يتصلوا منها بكل طريق، ويعتمدون على غيرها من الدلائل ولا سيما صفات النبي الشخصية ومدى تأثيرها في العالم.

والحقيقة أن تفسير أصحاب هذا الاتجاه العقلاني لمعنى النبوة وطريقة إثباتها أمر يثير العجب إذ يفسرون النبوة على أنها ظاهرة إنسانية!، تصدر من ذات النبي، ومن عبقرية الفذة التي يستطيع بها التأثير والتغير في واقع الحياة!!<sup>(٣)</sup>.

وأستبعد هنا أن تكون يد الفلسفة القديمة قد مست أصحاب هذا الاتجاه وإن كنت لا أستبعد أن تكون يد الفلسفة الحديثة بماديتها الفجة قد حركت هذه النزعة في نفوس أصحاب المدرسة العقلانية.

حيث إنهم يحاولون أن يفسروا حقائق النبوة كالوحي<sup>(٤)</sup> والإسراء والمعراج

---

(١) محمد حسين بن سالم هيكل (١٣١٢ - ١٣٧٦هـ) كاتب صحفي، مؤرخ من أعضاء المجمع اللغوي، ومن رجال الدولة بمصر. انظر: معجم الأعلام ص ٧٠١.

(٢) انظر تقرير هذه الفكرة في: المدنية والإسلام؛ محمد فريد وجدي ص ٧١ - ٧٢، والوحي المحمدي؛ محمد رشيد رضا ص ٦٢ - ٧٠، وتفسير المنار ١١/ ١٥٥ - ١٥٩.

(٣) انظر: تجديد التفكير الديني، محمد إقبال ص ١٤٣.

(٤) كل الذين تحدثوا عن حقيقة الوحي في تلك الفترة لجؤوا إلى إقناع الغرب بأمثلة بعيدة، وكان من الواجب أن يكون القبول بالوحي في هذا الزمن سائفاً جداً لأننا نرى أن الكلام ينتقل عبر الفضاء ومن مسافات بعيدة جداً عن طريق أجهزة لا تعقل، فإذا كنا نشاهد هذا الأمر عياناً فكيف ينكر من ينكر حقيقة الوحي والناقل له ملك كريم إلى بشر ذي خلق عظيم؟. والله يفعل ما يشاء لا معقب لحكمه.

وانشقاق القمر وسائر المعجزات تفسيراً خاضعاً للعقلية الغربية المادية.

### أمثلة ونماذج:

- فريد وجدي، ومن أقواله التي تبين موقفه من المعجزات قوله:

«تمتاز العصور النبوية - يعني عصور الأنبياء - بالخوارق للنواميس الطبيعية، فأساطير الأديان ملأى بذكر حوادث من هذا القبيل، كان لها أقوى تأثير في حمل الشعوب التي شهدت على الإذعان للمرسلين، الذين حدثت على أيديهم، وقد حدثت أمور من هذا القبيل في العصر المحمدي صاحبت الدعوى في جميع أدوارها، وكانت أعظم شأنًا وأجل أثرًا من كل ما سبق من نوعها؛ ولست أقصد بها ما تناوله الناس من شق الصدر، وتظليل الغمامة، وانشقاق القمر، وما إليها مما لا يمكن إثباته بدليل محسوس، ومما يتأتى توجيئه إلى غير ما فهم منه، ولكني أقصد تلك الانقلابات الأدبية والاجتماعية التي تمت على يد محمد ﷺ في أقل من ربع قرن، وقد أعوز أمثالها في الأمم القرون العديدة والآماد الطويلة... وقد لاحظ قراؤنا أننا نحرص فيما نكتبه في هذه السيرة على أن لا نسرف في كل ناحية إلى ناحية الإعجاز ما دام يمكن تحليلها بالأسباب العادية حتى ولو بشيء من التكلف؛ مسيرة لمذهب المبالغين في الثبوت والمحافظة على الدستور العلمي ثقة منا بأن بحثاً لا تحترمه النخبة المثقفة ولا تجد فيه صورة صحيحة لمثلها الأعلى في عرض المسائل وتحليلها لا يمكن أن يؤدي إلى ما قصد منه من الخدمة العامة»<sup>(١)</sup>.

وذكر طريقته في إثبات النبوة قائلاً: «الأدلة المنطقية على صحة النبوة وإمكان الوحي كثيرة، ولكن العقلية العصرية يصعب عليها أن تقتنع بها، فإن الفلسفة المادية قد أثارت شبهات جمّة على النبوات، ونفت وجود العالم الروحاني، وادعت أن كل ما يقال فيه ويستند إليه من أوهام الأقدمين وأساطيرهم، وقد تسربت هذه الفلسفة إلى عقول الناس من مصادر عدة، ولذلك وجب على من يعالج مسألة النبوة والوحي أن يعدل عن الاستناد من الأدلة المنطقية إلى الأدلة العلمية، بشرط

---

(١) انظر: مقالاً له بعنوان «السيرة النبوية تحت ضوء العلم والفلسفة» في «مجلة الأزهر»؛ الجزء السابع، المجلد الحادي عشر، نقلاً عن القول الفصل، لمصطفى صبري ص



أن تكون مبنية على أمور يقينية سرى على بحثها الأسلوب العلمي<sup>(١)</sup>.  
ويكرر - دائماً - في كتاباته أن المعجزات كانت مناسبة لمرحلة معينة كانت البشرية فيها في مرحلة الطفولة، ولكن لما بلغت رشدًا جاء محمد ﷺ بالأدلة المنطقية والعلمية<sup>(٢)</sup>.

- وأما محمد حسين هيكمل فقد خلا كتابه «حياة محمد» من معجزاته ﷺ، وأشار فيه إلى القرآن فقط بالرغم من أن المقصود بالكتاب التعريف به ﷺ، وفيه خطاب لغير المسلمين<sup>(٣)</sup>.

- وأيده على هذا النهج مصطفى المراغي<sup>(٤)</sup>، في تقديمه لكتاب «حياة محمد» - كما أيده بل ودافع عنه محمد رشيد رضا<sup>(٥)</sup> في كتابه: «الوحي المحمدي»<sup>(٦)</sup>.

- أما عباس محمود العقاد<sup>(٧)</sup> وكتابه «عبقريّة محمد» فقد صنع فيه ما يثير العجب حيث أغفل الحديث عن نبوة محمد ﷺ واعتنى بما سماه «عبقريته»، ولم يجعل تلك العبقريّة أمراً يضاف إلا دلائل نبوته بل جعلها أمراً مستقلاً مغنياً عما سواه، ومن أقواله في هذا الصدد قوله: «إنما نجحت دعوة الإسلام لأنها دعوة

---

(١) المصدر السابق ٩٠ ص . ولا أعلم كيف يكون الدليل علمياً ولا يكون منطقياً؟. انظر: موقف العقل والعلم ١/١٢٢

(٢) انظر: المدنية والإسلام، محمد فريد وجدي ص ٧١ - ٧٢.

(٣) انظر: حياة محمد ص ١٣، ٥١، ١٩٣.

(٤) هو محمد بن مصطفى بن محمد بن عبد المنعم المَراغي (١٢٩٨ - ١٣٦٤هـ) باحث مصري، عارف بالتفسير من دعاة التجديد والإصلاح، ممن تولوا مشيخة الجامع الأزهر، عرف بمحمد مصطفى، ولد بالمراغة - من جرجا في الصعيد - معجم الأعلام ص ٧٩٧

(٥) محمد رشيد بن علي رضا خليفة القلموني البغدادي الأصل الحسيني النسب، ولد ونشأ بالقلمون بالشام (١٢٨٢ - ١٣٥٤هـ) صاحب مجلة المنار وأحد رجال الإصلاح، من الكتاب العلماء بالحديث والأدب والتاريخ والتفسير. انظر: معجم الأعلام ص ٧٠٧.

(٦) انظر: كتاب «الوحي المحمدي»، لمحمد رشيد رضا: الفصل الثاني المقصد الثاني، والفصل الخامس.

(٧) عباس محمود بن إبراهيم بن مصطفى العقاد (١٣٠٦ - ١٣٨٣هـ) إمام في الأدب، مصري، له مؤلفات كثيرة في فنون متنوعة، كان أجش الصوت في قامته طول، ولأجله نعت بالعملاف.

انظر: معجم الأعلام ص ٣٨٣.

طلبتها الدنيا، ومهدت لها الحوادث، وقام بها داع تهباً لها بعناية ربه، وموافقة أحواله وصفاته... فلا حاجة بنا إلى خارقة ينكرها العقل...»<sup>(١)</sup>.

وقد تصدى لأصحاب هذا الفكر مصطفى صبري<sup>(٢)</sup> وخصص كتاباً<sup>(٣)</sup> في الرد عليهم، وأغلظ عليهم فيها، ولكنه تطف مع العقاد في العبارة على غير العادة، مع إنكاره لما جاء في النص السابق ولا سيما أنه لم يشر إلى إعجاز القرآن الكريم<sup>(٤)</sup>.

- وأما خالد محمد خالد فيشتط في عبارته قائلاً: «لو لم يكن محمد رسولاً لكان إنساناً في مستوى الرسول... ولو لم يتلق الأمر من ربه لتلقى من ذات نفسه؛ يا أيها الإنسان بلغ ما يعتمل في ضميرك»<sup>(٥)</sup>!!.

كل هذا حيدة عن أن يجري على ألسنتهم ذكر الوحي والملائكة وجبريل والمعجزات، وكأن هذه الأمور في زعمهم بعيدة عن مفهوم العصر المتطور<sup>(٦)</sup>.

وأخطر ما وقفت عليه في تهوين شأن المعجزات تحت ضغط المنهج الغربي ما جاء في تفسير المنار: «ولولا حكاية القرآن لآيات الله التي أيد بها موسى وعيسى لكان إقبال أحرار الإفرنج عليه أكثر، واهتداؤهم به أعم وأسرع، لأن أساسه قد بني على العقل والعلم وموافقة العقل»<sup>(٧)</sup>.

- وينكر عبد العزيز جازيش<sup>(٨)</sup> وجود معجزة غير القرآن للرسول ﷺ: «لو

---

(١) عبقرية محمد ص ٢٥.

(٢) مصطفى صبري (١٢٨٦ - ١٣٧٣هـ) من علماء الحنفية، فقيه باحث، تركي الأصل. انظر: معجم الأعلام ص ٨٤٢.

(٣) ومنها: كتابه «القول الفصل بين الذين لا يؤمنون بالغيب والذين لا يؤمنون»، وهو مجلد واحد مختصر من كتابه الآخر الضخم: «موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين ورسله».

(٤) عبقرية محمد ص ١٢ - ١٣.

(٥) إنسانيات محمد ص ٩.

(٦) انظر: موقف العقل والعلم ٤/٤١، وتجديد التفكير الديني، لمحمد إقبال ص ١٤٣.

(٧) تفسير المنار ١١/١٥٥ وانظر الوحي المحمدي ٦٢.

وانظر مثلاً أخطر منه في نفي المعجزات «سيد أحمد خان» في: مفهوم تجديد الدين؛ بسطامي سعيد ص ١٢٨.

(٨) عبد العزيز بن خليل جازيش (١٢٩٣ - ١٣٤٧هـ) خطيب من الكتاب، له علم بالأدب والتفسير، ومن رجال الحركة الوطنية بمصر، تونسي الأصل. انظر. معجم الأعلام ص

كانت المعجزات الصادقة من البراهين التي لا يفر المعاند من الخنوع لها لأمد الله بها رسوله، ولأيده بما لا يحيط بها الحصر من ضروبها، ولكن علمه أن هذه الآيات قد نزلت بمن قبلهم فظلموا بها، واستنكرتها أنفسهم بغياً وعلواً، ولهذا بين لنا في صراحة ووضوح أن الله سبحانه وتعالى أبى أن يؤيد هذا الدين إلا بالمعجزة التي لا تنافر فطرته، ولا يقوى معاند على معارضتها تلك هي القرآن الكريم نفسه<sup>(١)</sup>.

ويرد مصطفى صبري على هؤلاء كلهم بقوله:

«ثم ليعلم الذين يتنازلون عن معجزات نبينا الكونية، ويقصرون معجزته على القرآن، إرضاء لمنكري المعجزات والخوارق من المستشرقين، وتفضيل موافقتهم في عقلية الإنكار على تجشم معارضتهم أن القرآن مهما حُب إليهم وأعجبوا به فلا يبلغ تقديرهم وإعجابهم مبلغ اعتباره معجزةً تثبت بها نبوة محمد ﷺ، وقد يطمع منهم أن يعدوه أفضل كتاب في الدنيا وضعه البشر، أما أنه كلام الله أنزله على خاتم أنبيائه ليكون له معجزة النبوة فأمر خارق لسنة الكون، لن يقبله منكر المعجزات والخوارق».

وما دام أناس من المسلمين وفيهم معالي مؤلف «حياة محمد» ينكرون معجزاته الكونية لا لعدم استنادها إلى الروايات الصحيحة بل لكونها أيضاً مخالفة لسنة الكون، مخالفة للعلم، مخالفة لمقتضى العقل فكيف ينتظر من المستشرقين الذين لا يدينون بالإسلام أن يقبلوا القرآن على أنه من المعجزات الخارقة، أعني أن كلام الله لا كلام سيدنا محمد، فالواجب إذن أن يداوى أساس الداء، وتقاوم حملات المنكرين من جباهها<sup>(٢)</sup>.

ومن المعاصرين الذين ينحون الطريق نفسه؛ د. محمد عمارة حيث كرر المقولة السابقة من أن الأمم السابقة لا زالت في دور الطفولة، أما بعد بلوغ الإنسان رشده فإن الاعتماد على المعجزة الخالدة معجزة القرآن هو الواجب فقط، وقال: «كانت شرائع الرسل السابقين وعقائدها تهتم بالتفاصيل، والجزئيات، وتجعل النصوص والمأثورات والخوارق الطبيعية والملاحظة المرجع والأساس، في بناء الهيكل الاعتقادي لتلك الشرائع والرسالات، ولقد ارتبطت تلك الخواص بما

(١) الإسلام دين الفطرة والحرية ص ١٤٨.

(٢) موقف العقل والعلم ١١٠/٤ - ١١١.

اقتضته المرحلة التي يمر بها الإنسان على درب تطوره في تلك الأزمان، فلقد كانت الإنسانية في دور طفولتها أو لم تبلغ سن الرشد والنضوج. أما في الشريعة الإسلامية التي جاءت ختاماً لشرائع السماء الإلهية تهدي الإنسان الذي بلغ سن رشده ومرحلة نضوجه، وتأخذ بيده إلى الصواب حتى يوم الدين، أما في هذه الشريعة فلقد اعتمد الهدى الإلهي على؛ كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.. ولهذا التطور الذي بلغه الإنسان على درب مسيرته عندما جاءت شريعة الإسلام كان المكان العالي للعقل في هذه الشريعة على نحو لم يحدث في شريعة سبقتها، أو أمة تقدمت أمة محمد عليه السلام. وفي الشرائع السابقة كانت المعجزات؛ خوارق طبيعية ومشاهدة تحتاج أكثر ما تحتاج على الحضور... أما في شريعة الإسلام فإن معجزة القرآن الكريم قد جاءت وثيقة الصلة بالعقل الراشد والرشيد.. فهو سبيل النظر فيها، يميز المحكم من المتشابه، ويرد المتشابه إلى المحكم ويستنبط ويؤول...»<sup>(١)</sup>.

وإن مما يؤسف له أن ينكر أمثال محمد رشيد رضا آية انشقاق القمر ويؤولها حيث قال: «ليس له أن يجعلها من عقائد الإسلام ويُنفّر مستقلي الفكر ومتبعي الدليل من المسلمين وغير المسلمين منه»<sup>(٢)</sup>.

وهكذا الهوى يعمي ويصم؛ فإن هذه الآية المعجزة التي ينكرها محمد رشيد رضا وسبق أن أنكرها الرازي وغيره، وألوهها بالحق وظهوره، هي آية عظيمة ومعجزة باهرة؛ وقد كان رسول الله ﷺ يقرأ بها في الجامع كصلاة العيد، فلو لم تكن معجزة حقيقية لسارع أصحاب الرسول ﷺ لإنكارها وهم مستضعفون بمكة، لكونهم قد ضحوا بكل شيء في سبيل دين الله الذي جاء به محمد ﷺ، وقد وقعت تلك المعجزة بمكة ونزلت آياتها بها، ولم يكن هناك أي مطمع مادي في تمسكهم بالإسلام بل كانوا معذيين محاصرين، فلو لم ينشق القمر لبادر أصحابه ﷺ بالتكذيب والرجوع عن الإسلام إذ لا مصلحة في تحمل الأذى في سبيل دين باطل يكذب عليهم، ولأصبحت تلك الآية منقصة في رسول الإسلام ينشرها مشركو قريش ليل نهار ليصدوا بها عن دين الله، وهذا لم يقع مما يدل على تحقق وقوع تلك المعجزة.

(١) التراث والمستقبل، محمد عمارة ص ١٥٦ - ١٥٧.

(٢) تفسير المنار مج ٣٠ ج ٥ ص ٣٧٦.

## الفصل الثاني

### أمهات الدلائل في إثبات نبوته ﷺ

وفيه مباحث :

المبحث الأول : آيته الكبرى القرآن الكريم.

المبحث الثاني : توقف الإيمان بالرسول على التسليم بنبوته.

المبحث الثالث : الأخذ بدليل السبر والتقسيم للتوصل إلى صحة نبوته.

المبحث الرابع : اعتماد منهج الموازنة بين دينه وبين الديانات الأخرى.

المبحث الخامس : صدق إخباره بالغيوب مع أنه كان أمياً قطعاً.

المبحث السادس : بشارات الكتب السابقة به، وانطباقها عليه.

المبحث السابع : آياته الأخرى ﷺ.

المبحث الثامن : قرائن أحواله القاطعة بصدقه.

المبحث التاسع : دعوته ﷺ وموافقة لأصول ما جاءت به الأنبياء.

المبحث العاشر : عصمة الله له حين تعاقد المشركون على قتله.

المبحث الحادي عشر: إتمام الأمر له في حياته، ونصر أمته وانتشار دعوته بعد مماته.

المبحث الثاني عشر : شريعته ﷺ.

## المبحث الأول آيته الكبرى القرآن الكريم

حينما ينظر الباحث في الكتب التي ألفت في إعجاز القرآن الكريم يقف أمام بحر هائل لا ساحل من العجائب والآيات، وتصبح حاله كحال الذي يحاول جمع ضوء الشمس في حيز صغير، ولذلك حاولت أن أضع حدوداً للموضوع تهدي إلى أهم أصوله لينطلق القارئ بعدها في بقية فروعه، ولهذا سأتناول هذا الموضوع من خلال العناصر التالية:

### الأدلة على أن القرآن هو الآية الكبرى لنبيينا محمد ﷺ

لما زعم المشركون أن محمداً ﷺ هو الذي ألف القرآن، قال الله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الطور: ٣٣ - ٣٥].

ثم تحداهم بعشر سور ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيْنَ وَادْعُوا مَنِ اسْتَفَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَآءِ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [هود: ١٣ - ١٤].

ثم تحداهم بسورة واحدة ﴿وَلَنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [البقرة: ٢٣ - ٢٤].

وقال تعالى أيضاً ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَفَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [يونس: ٣٨].

فعجز جميع الخلق أن يعارضوا ما جاء به ثم سجل على جميع الخلق العجز إلى يوم القيامة بقوله: ﴿قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨].

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: «قال النبي ﷺ: ما من الأنبياء نبي

إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»<sup>(١)</sup>.  
معنى الحديث:

إن معجزات الأنبياء تتماثل من حيث إنها حسية ومخصوصة بزمانها، أو بمن حضرها، أو منقرضة بانقراض من شاهدها، أما معجزة نبينا محمد ﷺ الظاهرة فهي القرآن الكريم، الذي لم يعط أحد مثله: وهو أفيدها، وأدومها؛ لاشتماله على الدعوة والحجة واستمرار تحديه في أسلوبه وبلاغته ومعانيه وأخباره، وعجز الجن والإنس عن أن يأتوا بسورة من مثله مجتمعين أو متفرقين في جميع الأعصار، مع اعتناء معارضيه بمعارضته فلم ولن يقدرُوا، فعم نفعه من حضر ومن غاب، ومن وجد ومن سيوجد إلى آخر الدهر، ولذلك فإن محمداً ﷺ أكثر الأنبياء أتباعاً<sup>(٢)</sup>.

هذا شرح للحديث على وجه الإجمال، وأما أسباب اختصاص نبينا محمد ﷺ على سائر الأنبياء بهذه المعجزة الظاهرة، يبينها محمود الألوسي فيقول: «الثلاثة أسباب صار بها من أخص إعجازه، وأظهر آياته:

الأول: أن معجز كل رسول موافق للأغلب من أحوال عصره والشائع المنتشر من ناس دهره... فلما بعث نبينا محمد ﷺ في عصر الفصاحة والبلاغة

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، الباب الأول ٣/٩. وفي كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، الباب الأول أيضاً، مع الفتح ٢٤٧/١٣، وبلطفه رواه مسلم في صحيحه، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته ١٨٦/٢.

(٢) ذكر النووي في معنى الحديث ثلاثة معان، أما الأول والثالث فقد ضمته الشرح السابق، وأما المعنى الثاني فقد ذكره النووي ونقله عنه ابن حجر والألوسي دون تعليق وهو: «أن الذي أوتيته لا يتطرب إليه تخييل بسحر وشبهه بخلاف معجزة غيره فإنه قد يخیل للساحر بشيء مما يقارب صورتها كما خيلت السحرة في صورة عصا موسى، والخيال قد يروج على بعض العوام، والفرق بين المعجزة والسحر والتخييل يحتاج إلى فكر ونظر وقد يخطئ الناظر فيعتقدهما سواء» شرح مسلم للنووي ١٨٨/٢، وفتح الباري، لابن حجر ٧/٩، وهذا معنى بعيد؛ إذ لا يشتبه النبي بغيره على الناس، ولو صح لكان فيه تكليف ما لا يطاق، والفرق بين النبي والساحر والكاهن كالفرق بين الليل والنهار، والمعجزة تابعة له، وحال من يدعو إلى الصدق والخير ومعه آيته التي تدل عليه، لا يشتبه مع من يدعو إلى الكذب والشر ومعه آيته التي تدل عليه، والله أعلم.

خص بالقرآن في إيجازه وإعجازه، بما عجز عنه الفصحاء وأذعن له البلغاء، وتبلد فيه الشعراء ليكون العجز عنه أقهر، والتقصير فيه أظهر، فصارت معجزاته وإن اختلفت متشاكلة المعاني مختلفة العلل.

الثاني: إن المعجزة في كل قوم بحسب أفهامهم وعلى قدر عقولهم وأذهانهم... والعرب أصح الناس أفهاماً، وأحدهم أذهاناً... فخصوا من معجز القرآن بما تجول فيه أفهامهم، وتصل إليه أذهانهم...

الثالث: إن معجز القرآن أبقى على الأعصار وأنشر في الأقطار من معجز يختص بحاضره، ويندرس بانقراض عصره، وما دام إعجازه فهو أحج، وبالاختصاص أحق...

وهذه المعجزة جمعت بين الدليل لما فيه من الإعجاز وغيره من وجوه الدلالة وبين المدلول لما فيه من بيان الإيمان وأدلتها وبيان الأحكام الشرعية والقصص والأمثال والوعد والوعيد وغير ذلك من علومه التي لا تنحصر، ثم جعل مع ذلك حفظه وتلاوته من أفضل الأعمال التي يتقرب بها إلى الله تعالى... ولهذا توفرت الدواعي على حفظه على ممر الدهور والأعصار، ففي كل قرن ترى من حفظته ما يفوت العد والإحصاء ويستنفذ نجوم السماء، ومثل ذلك لم يتفق لغيره من الكتب الإلهية المقدسة...<sup>(١)</sup>.

وفي قوله ﷺ: «أرجو أن أكون أكثرهم تابعاً» آية من آيات نبوته، كما قال النووي: «فإنه أخبر عليه السلام بهذا في زمن قلة من المسلمين ثم من الله تعالى وفتح على المسلمين البلاد وبارك فيهم حتى انتهى الأمر واتسع الإسلام في المسلمين إلى هذه الغاية المعروفة والله الحمد على هذه النعمة وسائر نعمه التي لا تحصى»<sup>(٢)</sup>.

## - توضيح هذا الإعجاز

### - بيان حال محمد ﷺ:

إن وضعه ﷺ من الناحية العلمية معروف عند المشركين فهو:  
- بشر مثلهم، وليس من جنس آخر،

(١) الدلائل الإلهية، محمود شكري الألوسي - مخطوط رقم ٨٥٤٧ ج ٦ - ٧.

(٢) شرح سلم للنووي ١٨٨/٢.



- أمي؛ لا يقرأ ولا يكتب،

- تجاوز الأربعين ولم يكن معروفاً قبل ذلك بالخطابة ولا بالشعر ولا بالرياسة في مجال الكلام بل كان يعمل بمجال بعيد عن الكلمة وهو التجارة، ولم يُحفظ عنه قبل البعثة أثر يدل على إنشائه لقصيدة أو حتى خطبة نثرية.

- أنه ﷺ أتى بكتاب نسبه إلى الله، أجمع العرب على فصاحته وبلاغته وحسن نظمه واشتماله على علوم شتى وآداب تترى.

- وقوع التحدي بهذا الكتاب:

- أن هذا التحدي قائم في وجه كل معارض للرسول.

- التحدي بأن يأتوا بسورة من مثله.

- وللمعارض أن يستعين بمن شاء من أعوان وشهداء سواء كانوا من الجن، أو من الإنس أو من الجن والإنس مجتمعين معاً.

- وجود دواعي التحدي:

- العرب أهل لغة؛ فصاحة وبلاغة وبياناً

- أن معارضي الرسول أهل عداوة عظيمة له.

- وهم حريصون أشد الحرص على إبطال دعوته بأي وسيلة ومن أي طريق.

- نتيجة التحدي صدق نبوة محمد ﷺ لأنهم:

عجزوا غاية العجز عن الإتيان بسورة من مثله، ولو كان عندهم أدنى تأهل وتمكن لفعلوا، ولكنهم لم يقدرُوا، إذ كلام الفقير الناقص الجاهل لا يكون أبداً مثل كلام الذي له الكمال المطلق، والغنى المطلق، والقدرة المطلقة، والعلم المطلق. فكما أن الله ليس كمثله شيء في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، فبالضرورة ليس لكلامه مثل ولا شبيه، ولا يشبهه كلام المخلوقين إلا على من اختل عقله، وغاب فؤاده، وهذا برهان ساطع ودليل قاطع على صحة ما جاء به ﷺ

ويبقى على من عجز عن هذا التحدي قراران لا مفر من اتخاذ أحدهما:

- إما أن يؤمن بأن محمد ﷺ رسول من الله، وأن القرآن حق كلام الله وهذا

هو مقتضى العقل وسبيل الفطرة السليمة، وطريق الناجين في الدنيا والآخرة

- وإما أن يعاند وهو يعلم أن القرآن حق وهذا سبيل الجاحدين

ومقتضى الجهل والعناد وأصحاب النفوس المريضة والقلوب السقيمة، وطريق

الخاسرين في الدنيا والآخرة.

وقد كان هذا التحدي سبباً في إسلام الكثيرين؛ لأن القرآن بهذه الاستشارة للعقول والألباب والقلوب يدعو للتفكر في القرآن بشكل أكبر، ويجعل الإنسان الشاك يتدبر أكثر وأكثر، حتى يصل إلى النهاية المحمودة إذا كان ممن يبحث الحق متجرداً من الهوى.

وهذا إجمال لإعجاز القرآن، ولمن اعتنى بإثبات نبوته ﷺ تفصيل من القول:

قال القاضي عبد الجبار: «إنه ﷺ قد علم وتيقن حين تحداهم بأن يأتوا بمثل هذا القرآن أو بمثل عشر سور أو بمثل سورة أنهم لا يأتون بذلك، ولو لم يتقين ذلك لما تحداهم ولا قال، لأن العاقل لا يقدم على مثل هذا وهو لا يأمن أن يأتوا بمثله فيفتضح وتبطل حجته، ويستظهر عليه خصمه، ويظهر كذبه، وينصرف عنه أصحابه... سيما والعرب أمم كثيرة، والفصاحة ماثورة فيهم غالبية على رجالهم ونسائهم وعبيدهم وإمائهم، وهو لا يعرفهم بأعيانهم، ولا يحيط علماً بأشخاصهم وبشعرائهم وخطبائهم وبلغائهم وفصحائهم ودعاتهم، فكان لا يأمن أن يتبتل له قوم منهم غضباً لأديانهم، وعصبية لأبائهم، وأنفة لأنفسهم، فيأتون بمثل ذلك في الفصاحة والبلاغة، أو بما يقارب ذلك فيهدمون كل ما بنى، وهو العاقل الحليم الذي لا يدفع عدوه عقله فلم يكن ليخبر أنهم لا يأتون بشيء من ذلك إلا وهو على يقين أنهم لا يأتون بذلك ولا بما يقاربه، فما في الدنيا عاقل تأمل أمره ﷺ إلا وأمر له الفكر والعلم بذلك... فالرسول ﷺ قد ادعى أعظم الأمور وأجلها: وهو أن الله اصطفاه على العالمين، وجعله وحده منذ أرسله حجة على كل من أدركه وكل من يأتي بعده إلى يوم القيامة، وأن من خالفه فقد حل ماله ودمه وأهله وذريته، وعليه الخزي والغضب من الله في الدنيا والآخرة، وأنه قد وجب على كل عاقل طاعته، والانقياد له، إلى غير ذلك مما يطول ذكره، وأن حجته في ذلك أن الخلق أجمعين لو اجتمعوا واجتهدوا لن يأتوا بمثل هذا القرآن أو بمثل سورة منه لا يأتون بمثله، وأنهم إن أتوا بذلك فقد بان كذبه، وحرمت طاعته، ووجبت معصيته، وحل دمه ودم كل من صدقه<sup>(١)</sup>. وكلام القاضي هذا حجة عليه في وجوب الأخذ بكل ما جاء به ﷺ من أي طريق صحيح، والإيمان به على الوجه الظاهر.

(١) تثبت دلائل النبوة، للقاضي عبد الجبار ٢/ ٤٠٠ - ٤٠١.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فأخبر من ذلك الزمان أن الإنس والجن إذا اجتمعوا لا يقدرون على معارضة القرآن بمثله، فمعجز لفظه ومعناه ومعارفه وفنونه وعلومه أكمل معجزة وأعظم شأنًا، والأمر كذلك فإنه لم يقدر أحد من العرب وغيرهم؛ مع قوة عداوتهم، وحرصهم على إبطال أمره بكل طريق، وقدرتهم على أنواع الكلام أن يأتوا بمثله»<sup>(١)</sup>

**تفسير شيخ الإسلام لآية التحدي وإبرازه مجموعة من علامات النبوة:**  
﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَيَّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

قال - رحمه الله - : «ومحمد ﷺ أخبر بهذا في أول أمره، إذ كانت هذه الآية في سورة (سبحان) وهي مكية، صدرها بذكر الإسراء الذي كان بمكة باتفاق الناس، وقد أخبر خبراً وأكدته بالقسم عن جميع الثقليين؛ إنسهم وجنهم أنهم إذا اجتمعوا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله، بل يعجزون عن ذلك، وهذا فيه آيات لنبوته:

منها: إقدامه على هذا الخبر العظيم، عن جميع الإنس والجن إلى يوم القيامة بأنهم لا يفعلون هذا بل يعجزون عنه، وهذا لا يُقدم عليه من يطلب الناس أن يصدقوه إلا وهو واثق أن الأمر كذلك، إذ لو كان عنده شك في ذلك لجاز أن يظهر كذبه في هذا الخبر فيفسد عليه ما قصده، وهذا لا يُقدم عليه عاقل، مع اتفاق الأمم؛ المؤمن بمحمد، والكافر به على كمال عقله ومعرفته وخبرته، إذ ساس العالم سياسة لم يُسنهم أحد بمثلها.

ثم جعله هذا في القرآن المتلو المحفوظ إلى يوم القيامة الذي يُقرأ به في الصلوات، ويسمعه العام والخاص والولي والعدو؛ دليلاً على كمال ثقته بصدق هذا الخبر، وإلا لو كان شاكاً في ذلك لخاف أن يظهر كذبه عند خلق كثير بل عند أكثر من اتبعه ومن عاداه، وهذا لا يفعله من يقصد أن يصدقه الناس، فمن يقصد أن يصدقه الناس لا يقول مثل هذا، ويظهره هذا الإظهار، ويشيعه هذه الإشاعة، ويخلده هذا التخليد إلا وهو جازم عند نفسه بصدقه.

ولا يُتصور أن بشراً يجزم بهذا الخبر إلا أن يعلم أن هذا مما يعجز عنه

(١) الجواب الصحيح بتصرف ٤٢٦/١.

الخلق، إذ علم العالم بعجز جميع الإنس والجن إلى يوم القيامة هو من أعظم دلائل كونه معجزاً، وكونه آية على نبوته، فهذا من دلائل نبوته من أول الأمر، عند من سمع هذا الكلام، وعلم أنه من القرآن الذي أمر ببلاغه إلى جميع الخلق، وهو وحده كاف في العلم بأن القرآن معجز.

دع ما سوى ذلك من الدلائل الكثيرة على أنه معجز؛ مثل عجز جميع الأمم عن معارضته، مع كمال الرغبة والحرص على معارضته، وعدم الفعل مع كمال الداعي يستلزم عدم القدرة، فلما كانت دواعي العرب وغيرهم على المعارضة تامة عُلم بعجز جميع الأمم عند معارضته، وهذا برهان ثان يعلم به صدق هذا الخبر، وصدق هذا الخبر آية لنبوته غير العلم بأن القرآن معجز، فإن ذلك آية مستقلة لنبوته وهذه آية ظاهرة باقية إلى آخر الدهر، معلومة لكل أحد، وهي من أعظم الآيات<sup>(١)</sup>.

ويقول القاضي عياض في هذا التحدي: «فلم يزل يقرّعهم أشدّ التقريع، ويوبخهم غاية التوبيخ، ويُسَفِّهُ أحلامهم، ويحطّ أعلامهم، ويشتت نظامهم، ويذمّ آلهتهم وآباءهم، ويستبيح أرضهم وديارهم وأموالهم، وهم في كل ذلك ناكصون عن معارضته، محجمون عن مماثلته، يخادعون أنفسهم بالتشغيب والتكذيب، والإغراء بالافتراء... والادعاء مع العجز: (لو نشاء لقلنا مثل هذا)، وقد قال الله لهم: ولن تفعلوا؛ فما فعلوا ولا قدروا. ومن تعاطى ذلك من سخفائهم كمسيلمة كشف عوّاره جميعهم... وإلا فلم يخف على أهل الميز منهم أنه ليس من نمط فصاحتهم، ولا جنس بلاغتهم؛ بل ولوا عنه مدبرين وأتوا مدعين من بين مهتدي وبين مفتون<sup>(٢)</sup>»

وقال محمود شكري الألوسي: «فلم ينطق أحد منهم إلى يومنا هذا ببنت شفه، ولا أعرب عن موصوف أوصفه، وأظهر الكل العجز عن المعارضة في كل وقت وحين، بل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين؛ فكان محمداً ﷺ موجود كل عصر بين أظهرنا، والوحي غير منقطع منا، لأن دليل نبوته ورحمته يذكر الناس بصحة نبوته في سائر الأقطار آناء الليل وأطراف النهار، وينادي بأفصح لسان وأوضح بيان، على صحة رسالته وصدق دعوته، ويدعو الناس في

(١) الجواب الصحيح ٤٠٨/٥ - ٤٠١.

(٢) الشفا، للقاضي عياض ٣٦٥/١.

مشارك الأرض ومغاريها إلى العمل بأحكامه العلية والاستنارة بضياء شمس هديه التي أشرقت بالأنوار الإلهية والشريعة المحمدية<sup>(١)</sup>.

وقال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْزَنُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ۝﴾ [البقرة: ٢٣ - ٢٤].

في هذه الآية الكريمة الدالة على التحدي يبين د. محمد دراز بعض صور الإعجاز، ويقول:

«تعجيز العالم كله عن الإتيان بمثله.. فانظر إلى هذا النفي المؤكد بل الحكم المؤبد هل يستطيع عربي يدري ما يقول أن يُصدر هذا الحكم وهو يعلم أن مجال المساجلات بين العرب مفتوح على مصراعيه؟ وأن الناقد المتأخر متى أعمل الروية في تعقب قول القائل المتقدم لا يعيه أن يجد فيه فائتاً ليستدرك أو ناقصاً ليكمل أو كاملاً ليزداد كمالاتاً؟ ألم يكن يخشى بهذا التحدي أن يثير حميتهم الأدبية فيهبوا لمنافسته وهم جميع حذرون؟ وماذا عساه يصنع لو أن جماعة من بلغائهم تعاقدوا على [إنشاء] صيغة المعارضة ثم يتناولوها سائرهم بالإصلاح والتهذيب كما كانوا يصنعون في نقد الشعر، فيكمل ثانيهم ما نقصه أولهم، وهكذا حتى يُخرجوا كلاماً إن لم يبه فلا أقل من أن يساميه ولو في بعض نواحيه؟ ثم لو طوعت له نفسه أن يصدر هذا الحكم على أهل عصره فكيف يُصدره على الأجيال القادمة إلى يوم القيامة، بل على الإنس والجن؟... [إنها معجزة] رماها بين أظهر العالم فكانت هي القضاء المبرم سُلط على العقول والأفواه فمن يهم بمعارضته إلا بلاء بالعجز الواضح والفشل الفاضح على مر العصور والدهور<sup>(٢)</sup>.

### معجزة القرآن تعادل أضعاف معجزات الأنبياء

وقع التحدي بسورة من مثله من القرآن، وإذا عرفنا أن أقصر سورة من القرآن هي قوله تعالى ﴿إِنَّا أَنْعَمْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ ۝ إِنَّكَ شَانِئَتَكَ ۝ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝﴾ [الكوثر: ١ - ٣] تصل على هذا معجزات القرآن من هذه الحيشة إلى عدد كثير جداً.

(١) الدلائل العقلية، محمود شكري الألوسي - مخطوط رقم ٨٥٤٧.

(٢) النبا العظيم ص ٤٤ - ٤٥.

ولنتقل الآن إلى الأوجه التي وقع بها الإعجاز في القرآن الكريم وهو بحث عظيم جداً أسأل الله أن يوفقنا للتوصل إلى أهم أطرافه.

## وجوه إعجاز القرآن

تتابع فحول العلماء قديماً وحديثاً على استنباطها، وبسطها بما يوقع الباحث في حيرة من أمره في كيفية ضمها ونظمها في مبحث واحد، ولذلك سوف أستعرض رؤوسها عند العلماء وأرجعها - بإذن الله - إلى أصولها:  
ذكر أبو سليمان الخطابي<sup>(١)</sup> أن الكلام يقوم على ثلاثة أشياء:

١ - لفظ حامل

٢ - معنى به قائم

٣ - رباط لهما ناظم

ثم قال: «إن القرآن إنما صار معجزاً:

١ - لأنه جاء بأفصح الألفاظ،

٢ - في أحسن نظوم التأليف،

٣ - مضمناً أصح المعاني»<sup>(٢)</sup>.

٤ - تأثيره العجيب في النفوس.

وفي الوجه الرابع قال: «قلت في إعجاز القرآن وجه آخر ذهب عنه الناس، فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم، وذلك صنيعة بالقلوب، وتأثيره في النفوس فإنك لا تسمع كلاماً غير القرآن منظوماً ولا منشوراً، إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة، والحلاوة بحال، ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه إليه، تستبشر به النفوس، وتشرح له الصدور، حتى إذا أخذت حظها منه، عادت مرتاعة، قد عراها الوجيب والقلق، وتغشاها الموت والفرق، تقشعر منه الجلود،

---

(١) حَفَد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي أبو سليمان الخطابي (٣١٩ - ٣٨٨هـ) فقيه محدث من أهل (بست) من بلاد كابل، صاحب التصانيف قال أبو طاهر السلفي: «إذا وقف مصنفٌ على مصنفاته، واطلع على بديع تصرفاته، تحقيق إمامته وديانته فيما يورده وأمانته». انظر: العبر ٣/٣٩، وسير أعلام النبلاء ١٧/٢٣.

(٢) «بيان إعجاز القرآن» ص ٢٦ - ٢٧، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن تحقيق خلف الله وزغلول سلام.

وتنزعج له القلوب، يحول بين النفس وبين مضمراتها»<sup>(١)</sup>.  
وذكر القاضي أبو بكر الباقلاني في كتابه «إعجاز القرآن» ثلاثة أوجه، وهي باختصار:

- ١ - غيب المستقبل، والوفاء به وتحققه.
  - ٢ - غيوب الحوادث الماضية وقصص الأولين - مع أنه ﷺ كان أمياً -.
  - ٣ - أنه بديع النظم، عجيب التأليف، متناه في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عنه عجز الخلق عنه. وفصل في هذا الوجه الأخير عشرة وجوه...<sup>(٢)</sup>
- وهذه الوجوه يمكن أن ترجع إلى اثنين؛ إذ الأول والثاني من جنس واحد. وأما القرطبي فقد ذكر في تفسيره «الجامع لأحكام القرآن» عشرة وجوه وهي - باختصار -:

- ١ - النظم البديع المخالف لكل نظم معهود في لسان العرب وفي غيرها.
- ٢ - الأسلوب المخالف لجميع أساليب العرب.
- ٣ - الجزالة التي لا تصح من مخلوق بحال.
- ٤ - التصرف في لسان العرب على وجه لا يستقل به عربي.
- ٥ - الأخبار عن الأمور التي تقدمت في أول الدنيا إلى وقت نزوله من أمي لا يقرأ ولا يكتب.
- ٦ - الوفاء بالوعد، المدرك بالحس في العيان، في كل ما وعد الله.
- ٧ - الإخبار عن المغيبات في المستقبل التي لا يطلع عليها إلا بالوحي.
- ٨ - ما تضمنه القرآن من العلم الذي هو قوام جميع الأنام في الحلال والحرام، وفي سائر الأحكام
- ٩ - الحكم البالغة التي لم تجر العادة بأن تصدر في كثرتها وشرفها من آدمي.
- ١٠ - التناسب في جميع ما تضمنه ظاهراً أو باطناً من غير اختلاف<sup>(٣)</sup>.

---

(١) المصدر السابق ص ٧٠.

(٢) انظر: «إعجاز القرآن» ص ٤٨ وما بعدها و«الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن - دراسة تحليلية - نقدية»، د. عبد الرؤوف مخلوف. وقد كرر الباقلاني في كتابه «التمهيد» تلك الوجوه الثلاثة أيضاً ص ١٢٩ - ١٣٠.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي ١/ ٥٠ - ٥٤.

ويمكن إرجاعها إلى أربعة وجوه:

١ - من (١ - إلى - ٣) ترجع إلى وجه واحد وهو الإعجاز المختص باللغة على اختلاف فنونها.

٢ - من (٥ - إلى - ٧) ترجع إلى وجه واحد وهو الإعجاز بالمغيبات على اختلاف زمنها.

٣ - (٨ - ٩) يرجعان إلى وجه واحد؛ وهو إعجاز القرآن بما يحويه من علوم ومعاني عظيمة يعجز البشر على الإحاطة بها.

٤ - والأخير (١٠) ويمكن التعبير عنه بسلامة القرآن من التناقض.

وعدها القاضي عياض<sup>(١)</sup> في كتابه الشفا في أربعة أوجه، وهي - باختصار -:

١ - حسن تأليفه والتثام كلمه وفصاحته، ووجوه إيجازه، وبلاغته الخارقة<sup>(٢)</sup>.

٢ - صورة نظمه العجيب، والأسلوب الغريب المخالف لأساليب كلام العرب ومناهج نظمها ونثرها<sup>(٣)</sup>.

٣ - ما انطوى عليه من الإخبار بالمغيبات ومالم يكن ولم يقع؛ فوجد كما

---

(١) هو العلامة القاضي أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض الينصبي الأندلسي، ثم السبتي المالكي ولد سنة ٤٧٦هـ سكن سبتة ثم رحل إلى الأندلس، استبحر في العلوم، وجمع وألف، وسارت بتصانيفه الركبان، واشتهر اسمه في الآفاق، وما زاده ذلك إلا تواضعاً، قال الذهبي عن أشهر كتب القاضي عياض «الشفا بتعريف حقوق المصطفى» ما يلي: تواليفه نفيسة، وأجلها وأشرفها كتاب «الشفا» لولا ما قد حشاه بالأحاديث المفتعلة؛ عمل إمام لا نقد له في فن الحديث ولا ذوق، والله يشبهه على حسن قصده، وينفع بشفائه، وقد فعل، وكذا فيه من التأويلات البعيدة ألوان ونبينا ﷺ غني بمدحة التنزيل عن الأحاديث، وبما تواتر من الأخبار عن الآحاد، وبالأحاد النظيفة الأسانيد عن الواهيات فلماذا يا قوم نشبع بالموضوعات، فيطرق إلينا مقال ذوي الغل والحسد، ولكن من لا يعلم معذور، فعليك يا أخي بكتاب «دلائل النبوة» للبيهقي، فإنه شفاء لما في الصدور وهدى ونور» قال محقق الجزء (٢٠) شعيب الأرنؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي: وهو [أي دلائل النبوة للبيهقي] كسابقه فيه أحاديث واهية وعذره فيها أنه ساقها بأسانيدها. وانتهى كلام المحقق. توفي سنة ٥٤٤ بمراكش. انظر: سير أعلام النبلاء ٢٠ ٢١٢ - ٢١٨.

(٢) انظر الشفا ص ٣٥٨ - ٣٦٩.

(٣) انظر: المصدر السابق ص ٣٦٩ - ٣٧٤.



ورد، وعلى الوجه الذي أخبر به<sup>(١)</sup>

٤ - ما أنبا به من أخبار القرون السالفة، والأمم البائدة، والشرائع الدائرة، مما كان لا يعلم منه القصة الواحدة إلا الفذ من أحبار أهل الكتاب. وقد علموا أنه أمي لا يقرأ ولا يكتب ولا اشتغل بمدرسة<sup>(٢)</sup>.

والوجهان الأولان - في نظري - يعودان إلى وجه واحد، وقد قال القاضي نفسه في أثناء حديثه على الوجه الثاني من وجوه الإعجاز عنده: «والإعجاز بكل واحد من النوعين: الإيجاز والبلاغة بذاتها؛ أو الأسلوب الغريب بذاته كل واحد منهما نوع إعجاز على التحقيق لم تقدر العرب على الإتيان بواحد منهما... وذهب بعض المحققين... إلى أن الإعجاز في مجموع البلاغة والأسلوب... والصحيح ما قدمناه»<sup>(٣)</sup>.

وأما الثاني والرابع فهما أيضاً من جنس واحد فيبقى له وجهان فقط: ١ - اللغة، ٢ - المغنيات.

ثم ذكر القاضي وجوهاً أخرى أضيفها هنا إلى ما سبق مع حذف ما أراه داخلاً في غيره لكي نقف على خلاصة وجوه الإعجاز عنده وهي - باختصار - :  
٣ - الروعة التي تلحق قلوب سامعيه، والهيبة التي تعتر بهم عند تلاوته لقوة حاله.

٤ - كونه آية باقية لا تعدم ما بقيت الدنيا مع تكفل الله بحفظه<sup>(٤)</sup>.

٥ - «أن قارئه لا يمل، وسامعه لا يمج، بل الإكباب على تلاوته يزيده حلاوة، وترديده يوجب له محبة، وغيره من الكلام... يُمل مع التردد، ويُعادى إذا أعيد»<sup>(٥)</sup>.

٦ - «جمعه لعلوم ومعارف... لا يحيط بها أحد من علماء الأمم... فجمع فيه من بيان علم الشرائع، والتنبيه على طرق الحجج العقلية والرد على فرق الأمم؛ براهين قوية... إلى ما حواه من الحكم وأخبار الدار الآخرة ومحاسن

(١) انظر: المصدر السابق ص ٣٧٥ - ٣٧٩.

(٢) انظر: الوجوه الأربعة بتفصيلها في المصدر السابق ٣٥٨/١ - ٣٨٤.

(٣) المصدر السابق ٣٧٢/١.

(٤) انظر: المصدر السابق ٣٨٨/١.

(٥) المصدر السابق ٣٩٨/١ - ٣٩٠.

الآداب والشيم»<sup>(١)</sup>.

٧ - ومنها: «جمعه بين الدليل ومدلوله؛ وذلك أنه احتج بنظم القرآن وإيجازه وبلاغته، وأثناء هذه البلاغة أمره ونهيه ووعدته ووعيده، فالتالي له يفهم موضع الحجة والتكليف معاً من كلام واحد»<sup>(٢)</sup>.

٨ - ومنها: «تيسيره تعالى حفظه لمتعلميه، وسائر الأمم لا يحفظ كتبها الواحد منهم، والقرآن ميسر حفظه للغلمان في أقرب مدة»<sup>(٣)</sup>.

وذكر وجوهاً أخرى داخلة في باب البلاغة ثم قال:

«وحقيقة الإعجاز الوجوه الأربعة التي ذكرنا؛ فليعتمد عليها»<sup>(٤)</sup>.

والأوجه الأخرى التي رقمتها من ٣ - ٨ يُعتمد عليها أيضاً، هذا وقد ذكر ابن حجر معظم تلك الوجوه ملخصة عن الشفا<sup>(٥)</sup>.

وقد خصص د. محمد عبد الله دراز كتابه الممتع «النبا العظيم» لإثبات أن القرآن يستحيل على بشر أن يتقوله، ثم ذكر وجوهاً من الإعجاز ترجع إلى ثلاثة نواحي وهي:

١ ناحية الإعجاز اللغوي، ويرى أنه أظهر وجوه الإعجاز.

٢ - ناحية الإعجاز العلمي.

٣ - ناحية الإعجاز الإصلاحي التهذيبي الاجتماعي<sup>(٦)</sup>.

### - من أبرز وجوه إعجاز القرآن:

من الجدير بالذكر أن من الناس من وقف أمام إعجاز القرآن مبهوراً إلى درجة جعلتهم يحجمون عن ذكر وجوه الإعجاز فيه<sup>(٧)</sup> قال أبو سليمان الخطابي: «قالوا:

(١) المصدر السابق ١ / ٣٩٠ - ٣٩١

(٢) المصدر السابق ١ / ٣٩٤.

(٣) المصدر السابق ١ / ٣٩٥.

(٤) المصدر السابق ١ / ٣٩٦.

(٥) انظر: فتح الباري ٧ / ٩.

(٦) انظر: النبا العظيم ص ٧٩ - ٨١، والكتاب في مجمله حديث عن الإعجاز.

(٧) «سئل بندار الفارسي عن موضع الإعجاز في القرآن، فقال: هذه مسألة فيها حيف على المعنى، وذلك أنه شبيه بقولك: ما موضع الإنسان من الإنسان... فالقرآن لشرفه لا =

وقد يخفى سببه عند البحث، ويظهر أثره في النفس، حتى ليلتبس على ذوي العلم والمعرفة به، قالوا: وقد توجد لبعض الكلام عذوبة في السمع، وهشاشة في النفس، لا توجد لمثلها لغيره والكلامان معاً فصيحان، ثم لا يوقف على شيء من ذلك على علة. قلت [الخطابي]: وهذا لا يقنع في مثل هذا العلم، ولا يشفي من داء الجهل به، وإنما هو إشكال أحيل به على إبهام...»<sup>(١)</sup>.

وهناك من أشار إلى وجه الإعجاز في القرآن ولكنه عجز عن تفصيله؛ وقد شكّا أبو سليمان الخطابي من حال هؤلاء فقال: «ذهب الأكثرون من علماء النظر إلى أن وجه الإعجاز من جهة البلاغة، لكن صعب عليهم تفصيلها وصغوا فيه إلى حكم الذوق»<sup>(٢)</sup> ومنهم من ذهب مذهباً ممجوجاً فقال (بالصرف)<sup>(٣)</sup>.

- محاولة متواضعة لجمع أبرز وجوه الإعجاز في القرآن: وهي ستة وجوه:

#### ١ - الإعجاز بلغته.

= يشار إلى شيء فيه إلا وكان المعنى آية في نفسه، ومعجزة لمحاوله، وهدي لقائله، وليس في طاقة البشر الإحاطة بأغراض الله في كلامه، وأسراره في كتابه، فذلك حارت العقول، وتاهت البصائر» كتاب «أبو حيان التوحيدي ورأيه في الإعجاز»، لمحمد عبد الغني الشيخ ص ٢٣٤.

(١) بيان إعجاز القرآن، للخطابي ص ٢٤ - ٢٥.

(٢) المصدر السابق.

(٣) وقد مضت قرون ولا يكاد يمر باحث بموضوع الإعجاز دون الإشارة إلى الصرف، وكأن النظام قد حقق بغيته بهذا القول الضال؛ إذ صرفَ قوله بالصرف همم كثير من الباحثين وشغلهم بالرد عليه عما هو أهم. فقد ذهب أبو إسحاق النظام ت ٢٣١ - شيخ الجاحظ - وهشام الفوطي وغيرهما من المعتزلة إلى أن العرب عجزوا عن معارضة القرآن لأن الله صرف همهم عن معارضته والإتيان بمثله. وقولهم هذا ظاهر البطلان.

وأيسر ما يقال في الرد عليهم؛ إن العرب لو كانوا قادرين على معارضة القرآن والإتيان بمثله؛ فلماذا لا يقومون الآن بجمع أقوال فصحاء العرب وبلغاتهم - قبل البعثة وبعدها - ومن عيون كلامهم ما يضاهاون به القرآن أو بكلام يوازيه أو يقاربه في ألفاظه ومعانيه؟؟، انظر: مقالات الإسلاميين، للأشعري ١/ ٢٧١، والملل والنحل، للشهرستاني ١/ ٥٧، ومقدمة محمود محمد شاكر لكتاب «الظاهرة القرآنية» لمالك بن نبي ص ٤٠ - ٤١، وكتاب «الإعجاز البياني للقرآن الكريم» لعائشة بنت الشاطئ ص ٦٢. وانظر كتاب: «أبو حيان التوحيدي ورأيه في الإعجاز»، لمحمد عبد الغني الشيخ ١/ ٢٤٢ - ٢٤٣، وكتاب «إعجاز القرآن»، للرافعي ص ١٦٤.

- ٢ - الإعجاز بعلومه ومعارفه ومعانيه.
  - ٣ - الإعجاز بأخباره القاطعة التي لا تتخلف.
  - ٤ - الإعجاز بمغيباته.
  - ٥ - الإعجاز بتأثيره في النفوس.
  - ٦ - الإعجاز بسلامته من الاختلاف والتناقض.
- ولنفصل قليلاً في بيان تلك الوجوه:

### الوجه الأول: الإعجاز بلغته من حيث:

فصاحته، ونظمه، وتأليفه، وبلاغته، وأسلوبه، وجزالة ألفاظه، وتصرفاته، وإيجازه، وبيانه، وحسنه، وجماله، وإبداعه.

- فاللفظة الواحدة من القرآن الكريم لو أخذتها وأدزت لغة العرب كلها لتحصل على لفظة أحسن منها، أو مثلها، أو قريب منها، لتضعها مكانها لما استطعت.

- ولو أخذت نظم تلك اللفظة في سياق آيتها في القرآن وقُلبت أساليب العرب لتحصل على نظم أحسن منه أو مثله أو قريب منه لما استطعت.

- ولو أردت أن تؤلف بكلمات أخرى غير كلمات القرآن لتوازي حسن تأليفه لما استطعت.

- ولو أردت أن توجز معنى من المعاني التي وردت في القرآن بألفاظ أقل مما ورد في القرآن وتؤدي المعنى نفسه لما استطعت.

ومهما حاولت وبحث عمن يعاونك واجتمع لك بلغاء الإنس والجن وفصحائهم في اللغة وأساليبها ليضاهوا آية من كلام الله فسوف يعود الجميع بالخيبة والحسرة وما ظفروا بشيء من حاجتهم ولا قدر أنملة.

ويمكن للشاك المرتاب في هذا الدين ممن ينتمي لأي دين أن يختار ما يشاء من أي الذكر الحكيم، ثم ليعد كلماتها عدداً، ثم ليحص عدتها من أبلغ كلام يحصل عليه من كلام العرب، ولينظر نسبة ما حواه هذا الكلام من المعاني ثم لينظر؛ كم كلمة يستطيع أن يضعها أو يبدلها هناك من كلام الله؟! ويبقى المعنى المراد من الآيات كما هو<sup>(١)</sup>.

(١) انظر للتفصيل في الإعجاز اللغوي: النبا العظيم ص ١١٢ وما بعدها.

وفي ذلك يقول الماوردي: «إن الزيادة فيه [أي القرآن] ممتازة، وتغيير ألفاظه منه مُفْتَضَحَةٌ»<sup>(١)</sup>.

وهذا الوجه من الإعجاز هو الوجه الذي ذهب إليه أكثر العلماء:  
قال الخطابي مبيناً إعجاز القرآن في النظم: «وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص والأشكل به؛ الذي إذا أُبدِلَ تبدَّل المعنى وقَسَدَ الكلام»<sup>(٢)</sup>.

وقال ابن جرير الطبري في تفسيره: «ومن أشرف المعاني التي فَضَّلَ بها كتابنا سائر الكتب قبله؛ نظمه العجيب، ووصفه الغريب، وتأليفه البديع...»<sup>(٣)</sup>  
والقرآن جمع مراتب البيان في أسلوبه وفي هذا يقول الخطابي:

«إن أجناس الكلام مختلفة، ومراتبها في درجات البيان متفاوتة، فمنها البليغ الرصين الجزل، ومنها الفصيح الغريب السهل، ومنها الجائر الطلق الرسل، فحازت بلاغات القرآن من كل قسم من هذه الأقسام حصّة، وأخذت من كل نوع شعبة، فانتظم لها بانتظام هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع بين صفتي الفخامة والعذوبة وهما على الانفراد من نوعتهما كالمتضادين، لأن العذوبة نتاج السهولة، والجزالة والمثانة يعالجان نوعاً من الوُعورة، فكان اجتماع النوعين في نظمه مع نبوّ [ارتفاع] كل واحد منهما عن الآخر فضيلة خص بها القرآن، ليكون آيةً بينةً لنبيه ﷺ»<sup>(٤)</sup>.

فالقرآن خُصَّ بحسن التأليف، وبراعة التركيب، والإيجاز البديع في قمة الحلاوة مع رونق الطلاوة، في سهولة كلماته مع جزالاتها، وعذوبتها وسلاستها.  
قال أبو بكر الباقلاني عن وجه كون القرآن معجزاً: «لأنه بديع النظم، عجيب التأليف، متناه في البلاغ إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه»<sup>(٥)</sup>.  
وبعد أن ساق الرُّمّاني<sup>(٦)</sup> أنواع الكلام قال عن طريقة القرآن:

(١) أعلام النبوة ص ٧٠.

(٢) بيان إعجاز القرآن ص ٢٩.

(٣) تفسير الطبري ١/٦٦.

(٤) إعجاز القرآن، للخطابي ١٤.

(٥) إعجاز القرآن، للباقلاني ص ٧.

(٦) علي بن عيسى بن علي الرُّمّاني أبو الحسن، ولد سنة ٢٩٦هـ معتزلي، مفسر، من كبار النحاة، توفي سنة ٣٨٤هـ. انظر: معجم الأعلام ص ٥٢٧.

فأتى القرآن بطريقة مفردة خارجة عن العادة؛ لها منزلة في الحسن تفوق كل طريقة، وتفوق الموزون الذي هو أحسن الكلام<sup>(١)</sup>.

وهذا الأمر جعل رجلاً من العرب لما سمع قوله تعالى: ﴿فَأَصْدَقَ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضُ عَنِ الْمُتْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤] سَجَدَ، وقال: «سجدت لفصاحته»<sup>(٢)</sup>.

وسمع آخر قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا اسْتَفْتَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا...﴾ [يوسف: ٨٠]؛ فقال: أشهد أن مخلوقاً لا يقدر على مثل هذا الكلام<sup>(٣)</sup>.

ومن الأمثلة المشهورة التي ترد كثيراً في كتب الإعجاز قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَمْرَ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَكَلَّمَهُ فِي آيَةٍ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧]؛ حيث جمع في آية واحدة بين أمرين، ونهيين، وخبرين، وبشارتين<sup>(٤)</sup>.

ومن إيجاز الألفاظ مع كثرة المعاني وحسن التأليف وتلاؤم الكلم قوله: ﴿وَقِيلَ يَتَازَرُضْ أَلَيْكَ مَاءُكَ وَنَسْمَاءُ أَقْلِي وَغِيصُ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٤٤].

ومن إيجازه المعجز، والجامع بين الحجة والدعوة قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأُولَى الْأَلْبَنِي لِمَلِكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩] وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤]<sup>(٥)</sup>.

وعن ابن عباس رضي الله عنه أن الوليد بن المغيرة: «جاء إلى النبي ﷺ فقراً عليه القرآن فكأنه رقى له، فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال: يا عم إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالاً قال: لم؟ قال: ليعطوكه، فإنك أتيت محمداً لتعرض لما قبله، قال: قد علمت قريش أنني من أكثرها مالاً، قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر له، أو أنك كاره له، قال: وماذا أقول؟، فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجز ولا بقصيدة مني، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول

(١) النكت في إعجاز القرآن [ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن] ٤٤.

(٢) انظر: الشفا ١/٣٦٥.

(٣) انظر: المصدر نفسه.

(٤) انظر: المصدر نفسه ١/٣٦٦.

(٥) انظر: المصدر نفسه ١/٣٦٨.

شيئاً من هذا.

والله إن لقوله الذي يقول لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلو، وإنه يحطم ما تحته.

قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه، قال: فدعنا حتى نفكر، فلما فكر قال: (هذا سحر يؤثر) يآثره عن غيره، فنزلت: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۖ﴾ [المدثر: ١١] (١).

ولعلي أختم هذا الوجه من وجوه الإعجاز بكلام جامع لشيخ الإسلام ابن تيمية حول نظم القرآن وأسلوبه فقال رحمه الله :-

«نفس نظم القرآن وأسلوبه عجيب بديع؛ ليس من جنس أساليب الكلام المعروفة، ولم يأت أحد بنظير هذا الأسلوب، فإنه ليس من جنس الشعر، ولا الرجز، ولا الخطابة، ولا الرسائل.

ولا نَظْمُهُ نظم شيء من كلام الناس، عربهم وعجمهم، ونفس فصاحة القرآن وبلاغته هذا عجيب خارق للعادة ليس له نظير في كلام جميع الخلق» (٢).

### الوجه الثاني: الإعجاز بعلومه ومعارفه ومعانيه:

اشتمل القرآن الكريم على علوم ومعارف نزلت لتخرج الناس من الظلمات إلى النور، وتهديهم سبل السلام، وقد بلغت في شمولها ودقتها وعدالة شرائعها ومحاسن توجيهاتها حداً يستحيل معه أن تصدر عن غير الله فلا يستطيع بشر مهما أوتي من علم أن يضاهي علوم القرآن أو يقاربها، بل الناس كلهم أجمعون عاجزون عن ذلك...

وكنت على وجل من ذكر هذا الوجه؛ إذ سائر كتب الإعجاز تركز على الإعجاز البلاغي والبياني المختص باللغة؟ حتى ظفرت - بحمد الله وتوفيقه - على جوهرة مكنونة من جواهر شيخ الإسلام ابن تيمية التي وضعها في كتابه القيم «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» بل أشار إلى ما هو أعظم مما كنت على وجل منه حيث قال: «فالإعجاز في معناه أعظم وأكثر من الأعجاز في لفظه،

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک وقال: هذا حديث صحيح الإسناد على شرط البخاري ولم يخرجاه ٥٠٧/٢.

(٢) الجواب الصحيح ٤٣٣/٥.

وجميع عقلاء الأمم عاجزون عن الإتيان بمثل معانيه أعظم من عجز العرب عن الإتيان بمثل لفظه»<sup>(١)</sup>

وانظر إلى تعليله البديع في سبب جعله - رحمه الله - إعجاز معناه أعظم من إعجاز لفظه؛ وهو أن العاجزين عن اللفظ هم فصحاء العرب، أما العاجزون عن الإتيان بمعاني القرآن الكريم فهم عقلاء العالم كله.

وقال: «نفس ما أخبر به القرآن في باب توحيد الله وأسمائه وصفاته أمر عجيب خارق للعادة، ولم يوجد مثله في كلام بشر لا نبي ولا غير نبي.

وكذلك ما أخبر به عن الملائكة، والعرش، والكرسي، والجن، وخلق آدم، وغير ذلك، ونفس ما أخبر به القرآن من الدين، والشرائع كذلك، ونفس ما أخبر به من الأمثال. هو أيضاً كذلك.

ومن تدبر ما صنفه جميع العقلاء في العلوم الإلهية، والخلقية، والسياسية، وجد بينه وبين ما جاء في الكتب الإلهية؛ التوراة والإنجيل والزيور وصحف الأنبياء وجد بين ذلك وبين القرآن من التفاوت أعظم مما بين لفظه ونظمه، وبين سائر ألفاظ العرب ونظمهم...

فكيف وليس في التوراة والإنجيل مماثلاً لمعاني القرآن؛

لا في الحقيقة،

ولا في الكيفية،

ولا الكمية؟.

بل يظهر التفاوت لكل من تدبر القرآن وتدبر الكتب»<sup>(٢)</sup>

ويقول محمود شكري الألوسي عن سعة علوم القرآن التي لا يحصيها العلماء فضلاً عن أن يأتي بها بشر أمة:

«إن معاني القرآن غير محدودة، وعلومه ليست بمحصورة، ولا معدودة، فقد اتسع مجاله في كل فن؛ من أخبار، وأحكام، ومواعظ، وأمثال، وأخلاق، وآداب، وترغيب وترهيب، ومدح الأخيار، وذم الفجار، وتحذير من قبائح السجايا، ومواقع الدنايا، وتدبير السياسات، ومجادلة الأخصام، وتبكيك الطغام،

(١) الجواب الصحيح ٤٣٤/٥.

(٢) الجواب الصحيح ٤٣٤/٥ - ٤٣٥.



وإقامة الدلائل على وجود الباري تعالى وتوحيده، وعلى الحشر والنشر، ودفع الشبه، وإزالة الريب، ووصف دار النعيم وأحوال سكانها، ودار الجحيم وأحوالها، ووصف عالم السموات، وما في العالم العلوي من الآيات، من كواكب، وأمطار، وسحاب، وبروق ورعود، وعجائب، ووصف الأرض وجبالها، وسهولها، وبحارها، وينابيعها وأنهارها، وما اشتملت عليه من نباتات، وحيوانات، ومعادن، وأزهار، وأثمار، وأشجار، وأطياف، وظلمات، وأنوار، حتى يصح أن يقال إنه لم يُبقِ علماً من علوم الأوائل والأواخر إلا صرح به، أو أشار إليه على أساليب متنوعة، وطرائق مبتدعة، لم يقع فيه تناقض، ولم يتخلله تضارب، خالياً عن جميع العيوب، خارجاً بحسن نظمه عن مشابهة كل أسلوب، ليس له مثال يحتذى عليه، ولا إمام يقتدى به، فلا هو من أنواع القصائد العربية، ولا من الأراجيز البدوية، ولا من الخطب القسّية، ومع ذلك فهو في العقول مستحسن، وفي النفوس مستملح، وفي الأذواق مستعذب، وفي القلوب محبوب، وللأسماع مألوف، كلما تكرر حلا، وسمعته من أي الأفواه علا وغلا، مع اقتران معانيه المتغايرة، و اقتران نظائرها في السور المختلفة، فيخرج في السورة من وعد إلى وعيد، ومن ترغيب إلى ترهيب، ومن ماض إلى مستقبل، ومن قصص إلى مثل، ومن حكم إلى جدل، فلا ينبو ولا يتنافر، وهي في غيره من الكلام متنافرة فتتجانس معانيه»<sup>(١)</sup>.

تنبيه:

لا يخفى أن القرآن حينما يقرر الأحكام وينزل الشرائع لا يخلو من الإعجاز البلاغي فهو خطاب للعقل والقلب معاً ألا تراه في قصص وأنباء السابقين لا يغفل حق العقل من ذكر الحكمة والعبرة:

«وفي أثناء إقامة البراهين العقلية لا يغفل حق القلب من تشويق وترقيق وتحذير وتهويل؟ اقرأ مثلاً: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

انظر كيف جمع الاستدلال والتهويل والاستعظام في هذه الكلمات القليلة، بل الدليل نفسه جامع بين عمق المقدمات اليقينية ووضوح المقدمات المسلمة،

(١) الدلائل العقلية، محمود، شكري الألوسي - مخطوط - ل ١١.

ودقة التصوير لما يعقب تنازع الآلهة من «الفساد»...<sup>(١)</sup> فهل يوجد مثل هذا في كتب الكلام؟ وانظر من آيات الأحكام إلى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقَصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْبُ بِالْحَرْبِ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَأَبَيْعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاةُ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾ [البقرة: ١٧٨].

«انظر إلى الاستدراج إلى الطاعة في افتتاح الآية بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾».

وترقيق العاطفة بين الواترين والموتورين في قوله: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ﴾ وقوله ﴿فَأَبَيْعُ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وقوله ﴿وَأَدَاةُ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ﴾ والامتنان في قوله: ﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ والتهديد في ختام الآية: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

ثم انظر في أي شأن يتكلم؛ أليس في فريضة مفصلة وفي مسألة دماء؟ وتتبع هذا المعنى في سائر آيات الأحكام حتى أحكام الإيلاء والظهار والطلاق، ففي أي كتاب من كتب التشريع تجد مثل هذه الروح؟ بل في أي لسان تجد هذا المزج؟ تالله لو أن أحداً حاول أن يجمع في بيانه بين هذين الطرفين فَفَرَّقَ هَمَّهُ وَوَزَعَ أجزء نفسه لجاء بالأضداد المتنافرة، ولخرج بثوب بيانه رقعا ممزعا<sup>(٢)</sup>.

وذكر القاضي عياض أن أحد علماء النصارى أسلم زمن عمر - رضي الله عنه - لما سمع أسيراً من أسرى المسلمين - عندهم - يقرأ القرآن، وبسبب آية واحدة من كتاب الله قرأها هذا الأسير المسلم كانت سبباً في إسلام ذلك العالم النصراني وهي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيُخَشِ اللَّهَ فَاُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النور: ٥٢] وقال عنها إنها جمعت ما جاء به المسيح عليه السلام كله من أحوال الدنيا والآخرة، فجا إلى عمر في المدينة وأعلن إسلامه<sup>(٣)</sup>.

(١) انظر النبأ العظيم ص ١١٦.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) انظر: الشفاء، للقاضي عياض ٣٣٦/١.

### الوجه الثالث: الإعجاز بأخباره القاطعة التي لا تتخلف

وللمنكر لما جاء به ﷺ من أخبار قاطعة أن ينظر فيها ويسأل نفسه: هل تخلف منها شيء؟ ولينظر في الأخبار التي تضمنت معنى التحدي والتعجيز ويسأل نفسه هل أقدم أحد على تكذيبها أو إثبات نقيضها؟، تأمل بعض تلك الأخبار:

حفظ القرآن من أي تغيير - حذفاً كان أو إضافة أو تبديلاً -:

قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩] وقال تعالى: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فُصِّلَتْ: ٤٢].

تيسير حفظ القرآن:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٧﴾﴾ [القمر: ١٧]. وهذا من أعظم آيات القرآن إذ لا يوجد كتاب في العالم أيسر منه حفظاً لمن يقبل عليه ولو كان غير عربي.

الإخبار بنصر الروم على الفرس بمدة:

قال تعالى: ﴿آلَ ۙ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿١﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٢﴾﴾ [الروم: ١ - ٣].

الإخبار بموت أناس بأعيانهم على الكفر:

لما طعن الوليد بن المغيرة في القرآن:

﴿نَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾ [المذثر: ٢٤ - ٢٥] قال تعالى مبيناً جزاءه الذي يعني موته على الكفر: ﴿سَأْمِلُهُ سِقْرٌ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَتَزَكَّ مَا سَقَرٌ ﴿٢٧﴾ لَا بُتِي وَلَا نَذْرٌ ﴿٢٨﴾﴾ [المذثر: ٢٦ - ٢٨] وقال عن أبي لهب مبيناً مصيره قبل موته: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصِلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٤﴾﴾ [المسد: ١ - ٢] وكان كما أخبر القرآن؛ مات الوليد كافراً، ومات أبو لهب كافراً، ولو أنهما أعلنّا إسلامهما - ولو ظاهراً - ليكذبا الإسلام لأدى ذلك إلى التشكيك في خبره ﷺ ولكنه القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وأخبر بهزيمة كفار قريش والقرآن ينزل في مكة:  
 وذلك قبل الهجرة، في قوله تعالى: ﴿سَيَهَيِّجُ الْجَمْعَ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ۖ﴾ [القمر: ٤٥]  
 وظهر تصديق ذلك يوم بدر وغيره.

وأخبره بظهور دين محمد ﷺ على الدين كله:  
 في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظَاهِرَهُ عَلَىٰ  
 الدِّينِ كُلِّهِ ۚ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣].  
 وصدق الله ورسوله، وظهر دينه على كل دين، وأذن له أهل كل ملة.

ومن أعظم وجوه تعجيز القرآن للمنكرين:

تعجيز اليهود عن تمني الموت:

وهذا من أشهر وجوه الإعجاز التي يتضمنها القرآن:

١ - أخبر الله نبيه - عن اليهود - أنهم ليسوا من أمرهم على يقين كما يدعون،  
 وأن رهبتهم لكم شديدة، وأنت إن دعوتهم إلى تمني الموت لا يتمنونه، فقال:  
 ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ أَلْدَارُ الْآخِرَةِ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ  
 كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٩٤ - ٩٥].

٢ - أعاد هذا التقرير والتوبيخ في سورة أخرى وفي زمان آخر فقال: ﴿قُلْ  
 يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ  
 صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١٠٦] وَلَا يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ [الجمعة: ٦ - ٧]؛  
 فما تمنوه أبداً مع هذا الاقتضاء، والمطالبة التي تغيب وتغضب.

٣ - بالرغم من شدة عداوة اليهود لرسول الله ﷺ وحرصهم على تكذيبه  
 وفضيحته، وزلة تكون منه، وبذلهم في ذلك دماءهم وأموالهم وأولادهم وحاربوه  
 وأعانوا عليه، وتكلفوا كل شدة ومشقة ومع ذلك ما أقدموا على تمني الموت مع  
 سهولته وقربه، وهو أن يقولوا: ليتنا متنا<sup>(١)</sup>.

يقول القاضي عبد الجبار متعجباً من هذه الآية الباهرة: «هذه الآيات العظام،

(١) انظر: النقاط الثلاث في: تثبيت دلائل النبوة، للقاضي عبد الجبار ٤١١/٢ - ٤١٢.

والأعلام الكبار الهائلة الواضحة المكشوفة الباهرة القاهرة، التي ما فكر فيها عاقل إلا ملأت قلبه علماً بنبوته ﷺ وصدقه، وبهرت عقله، فإنك لا تدري أمن إقدامه ﷺ على الإخبار عنهم بأنهم لا يتمنون ذلك مع خفته وسهولته، ومع علمه بشدة حرصهم على تكذيبه، وفضيحتة تَغَجَّب؟ أم من إحجامهم عن ذلك مع شدة حاجتهم إليه؟ ولم يقل هذا من عندي... بل هذا من قول الله ربي وربكم وإلهي وإلهمكم العالم بسرهم وجهرهم، فجعله كتاباً يقرأ ويتلى، ليكون أشد وأغيظ وأبلغ في الحجة وأظهر في التنبيه، ولتعلم أنه ما قال هذا لهم إلا وهو يعلم أنه لا يتمنونه، وهو أعجب من قوله للعرب أنكم لا تأتون بمثل هذا القرآن، وهذا مقام لا يقومه مثله ﷺ مع عقله وعظم دعاويه إلا مع اليقين، لتعلم ثقته ﷺ بربه جل وعز وسكونه إلى ما يوحى إليه.

وقد تحيرت الملحدة وأعداء رسول الله، وتاهت عقولهم عند هذه الآيات فهم يلعنون العرب لِمَ لَمْ يأتوا بمثل هذا القرآن، وكون اليهود لِمَ لَمْ يتمنوا الموت فيكذبونهم فيستريحون ونستريح<sup>(١)</sup>.

### عجز النصارى عن المباهلة:

بعد أن بين الله تعالى للنصارى تهافت قولهم في المسيح - عليه السلام - بقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقْنَاهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩] قال سبحانه عقيق هذه الآية: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [آل عمران: ٦٠].

أي هذا هو القول الحق في عيسى، ولا محيد عنه، ولا صحيح سواه، وماذا بعد الحق إلا الضلال؟ ثم قال تعالى أمراً رسوله ﷺ أن يباهل من عاند الحق في أمر عيسى بعد ظهور البيان: ﴿فَمَنْ حَاكِجَكْ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْوَحْيِ فَقُلْ قَاتِلُوا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَكُمْ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ٦١].

عن حذيفة قال: «جاء العاقبُ والسيدُ صاحباً نجران إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعناه. قال: فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعل، فوالله لئن كان نبياً

(١) المصدر السابق، وبنحوه مختصراً ذكر هذا المعنى شيخ الإسلام ابن تيمية في الجواب ٦/

فلاعنتا لا تُفْلَحُ نحن ولا عقبتنا من بعدنا. قالوا: إنا نعطيك ما سألتنا، وابعث معنا رجلاً أميناً. ولا تبعث معنا إلا أميناً. فقال: «لأبعثن معكم رجلاً أميناً حقاً أمين» فاستشرف له أصحاب رسول الله ﷺ، فقال: «قم يا أبا عبيدة بن الجراح» فلما قام، قال رسول الله ﷺ: «هذا أمين هذه الأمة»<sup>(١)</sup>

وفي زيادة عند الترمذي: «ولو خرجوا يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون مالاً ولا أهلاً»<sup>(٢)</sup>.

فدعاهم رسول الله ﷺ إلى المباهلة: بأن يحضر هو وأهله وأبناؤه، وهم يحضرون بأهلهم وأبنائهم، ثم يدعون الله تعالى؛ أن ينزل عقوبته ولعنته على الكاذبين، فتشاوروا هل يجيئون إلى ذلك؟ فلم يجيبوا لأنهم عرفوا أنه نبي الله حقاً. وفي هذه القصة فوائد ذكرها ابن حجر في الفتح، ومنها - باختصار - :  
- جواز مجادلة أهل الكتاب، وقد تجب إذا تعينت مصلحته.

- مشروعية مباهلة المخالف إذا أصر بعد ظهور الحجة، وقد دعا ابن عباس إلى ذلك ثم الأوزاعي، ومما عُرف بالتجربة أن من باهل وكان مبطلاً لا تمضي عليه سنة من يوم المباهلة<sup>(٣)</sup>.

وبعد أن قام عليهم الحجة بضرب المثل لعيسى بآدم عليه السلام ثم أمر رسوله بالمباهلة إن هم أصرروا على كفرهم وعنادهم، فقال سبحانه: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ۟مْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا آرْبَابًا مِن دُونِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿١٣٠﴾﴾ [آل عمران: ٦٤].

ونأخذ من هذه القصة دليلاً واضحاً على أن دعوة النبي ﷺ حق وأن القرآن حق، وأنه كلام القادر على إنزال العذاب والهلاك على الكاذبين، وأن قبول النبي ﷺ للمباهلة وامتناع مخالفه منها دليل على أن صدق محمد ﷺ في نبوته كان أمراً معروفاً وثابتاً حتى عند مخالفه من أهل الكتاب حيث نكصوا عن قبول المباهلة

- 
- (١) رواه البخاري في صحيحه، باب قصة وفد نجران ٩٣/٨ مع الفتح حديث ٤٣٨٠.  
(٢) رواه الترمذي بذكر قصة في أوله، وقال حسن صحيح، وانظر: تفسير ابن كثير ٣٦٩/١.  
وانظر: جامع البيان للطبري ٣/٣٩٥ - ٢٩٦، وانظر: الأجوبة الفاخرة على الأسئلة الفاجرة للقرافي، ص ١٤.  
(٣) انظر: فتح الباري ٨/٩٥.

خوفاً من نزول العذاب بهم<sup>(١)</sup>.

### الوجه الرابع: الإعجاز بالمغيبات

الإخبار بالغيب إحدى الدلائل التي تدل بقوة على صدق النبوة، وسيأتي - إن شاء الله - تفصيل ذلك في المبحث الخامس من هذا الباب؛ إذ لا بد من أفراد هذا المبحث على حده للتنبيه على بعض المسائل التي لا يتسع المقام لذكرها هنا، علماً بأن هذه الوجه من وجوه الإعجاز قد أشار إليه جل من ألفت في الإعجاز - حسب اطلاعي - قديماً وحديثاً من المتكلمين وغيرهم، فهو محل اتفاق، ووجه دلالة على النبوة في غاية الظهور.

ومن الجدير ذكره هنا: أن الاكتشافات العلمية أو ما يسمى «بالإعجاز العلمي» - إن صحت التسمية - داخل في هذا الباب؛ إذ في القرآن أخبار عن حقائق موجودة في الكون، ولكنها في حكم الغيب بالنسبة إلى بعض الناس في بعض الأوقات، وهي بمنزلة الإخبار عن الدابة مثلاً فهي غيب بالنسبة لمن لم يحضرها لكونها خارجة عن إدراك حواسهم، وهذا هو شأن المكتشفات العلمية التي توصلت الوسائل الحديثة في العصور المتأخرة إلى كشف ما كان مخبئاً وإظهار ما كان مستوراً من أسرار الكون إلى الحواس فيراها الناس رأي العين كما يرون الشمس. ومن ذلك؛ مراحل تكون الجنين في بطن أمه - على سبيل المثال - جاءت النصوص القرآنية مفصلة بدقة عجيبة مراحل تكوينه كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْلًا فَكَسَوْنَا الْإِطْلَمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَارَكُ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون: ١٣ - ١٤].

ثم تَكشَّفت للعيان بوسائل الرؤية الحديثة من النواظير والمجاهر. وهكذا ينبغي أن نقف مع كل ما هو كشف كوني؛ إذ لا بد أن يثبت عندنا ثبوتاً قطعياً محسوساً يصل في ثبوته إلى درجة اليقين والقطع، فإذا كان ما أخبر به القرآن خبراً محكماً قاطعاً وكانت الحقيقة التي جاءت في العلوم الكونية موافقة ومطابقة لما جاء به، يمكن أن يقال إنه إعجاز من باب الإخبار بالمغيبات المستقبلية.

«ولكن بعض الباحثين طاب لهم أن يتوسعوا في علوم القرآن ومعارفه فنظموا

(١) انظر: الجواب الصحيح، لابن تيمية ١٦٩/١ - ١٧٠.

في سلكها ما بدا لهم من علوم الكون، وهم في ذلك مخطئون ومسرفون، وإن كانت نيتهم حسنة وشعورهم نبيلاً، ولكن النية والشعور مهما حسناً لا يسوغان أن يحكي الإنسان غير الواقع، ويحمل كتاب الله ما ليس من وظيفته<sup>(١)</sup>.

### الوجه الخامس: الإعجاز بتأثيره في النفوس

وقد فطن للنص على هذا الوجه أبو سليمان الخطابي حينما قال: «في إعجاز القرآن وجه آخر ذهب عنه الناس، فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم، وذلك: صنيعة بالقلوب، وتأثيره في النفوس، فإنك لا تسمع كلاماً غير القرآن منظوماً ولا منثوراً إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة بحال، ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه إليه.

تستبشر به النفوس، وتنشرح له الصدور، حتى إذا أخذت حظها منه، عادت مرتاعة، قد عراها الوجيب والقلق، وتغشاها الموت والفرق، تقشعر منه الجلود، وتنزعج له القلوب، ويحول بين النفس وبين مضمراتها، وعقائدها الراسخة فيها... فكم من عدو للرسول من رجال العرب.. أقبلوا يريدون اغتياله وقتله؛ فسمعوا آيات القرآن فلم يلبثوا حيث وقعت في مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأول، وأن يركنوا إلى مسالمته، ويدخلوا في دينه وصارت عداوتهم موالاة، وكفرهم إيماناً<sup>(٢)</sup>.

وهذا التأثير ليس بغريب؛ إذ لو نزل هذا القرآن على جبل لتزلزل وتصدع فكيف بالإنسان؟ كما قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خُسْفًا ۖ مَّتَّصِدًّا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۖ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الحشر: ٢١].

وعن جبير بن مطعم عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ في المغرب بالطور فلما بلغ هذه الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِن غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خُلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ بَلْ لَا يُؤْفِكُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَيْكِ أَمْ هُمُ الْمُحِيطُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الطور: ٣٥ - ٣٧] كاد قلبي أن يطير<sup>(٣)</sup>.

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني ٣٥٤/٢.

(٢) إعجاز القرآن ص ٧٠

(٣) رواه البخاري، كتاب التفسير ج ٤٨٥٤، الفتح ٦٠٤/٨.



ثم أسلم بعد ذلك وكانت تلك الآيات أول ما وقر في قلبه .  
وروي عن نصراني أنه مر بقارئ يقرأ القرآن فوقف يبكي فقبل له : مم  
بكي؟ قال : للشجاء والنظم<sup>(١)</sup> .

وكان هذا سبباً في هداية كثيرين قال تعالى : ﴿الرَّ كِتَبُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ  
لِنُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝﴾  
[إبراهيم : ١] .

والجن تعجبت منه فأمنت :

قال تعالى : ﴿قُلْ أُوْحَىٰ إِلَيْكَ أَنَّهُ سَمِعَ نَفْرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝  
يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَمْ نُشْرِكْ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۝﴾ [الجن : ١ - ٢] .  
ولا زال القرآن يؤثر في الناس ذلك التأثير القوي حتى أمر المسلمون بأن  
يقرؤوا القرآن على المستجير الكافر لعله يسلم . قال تعالى : ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ  
أَمْسَجَارَكَ فَاجِرُهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ اتَّلَفَهُ مَأْمَنُهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ۝﴾  
[التوبة : ٦] .

ولو أخذنا من هذا الوجه وجهاً آخر لما كنا مبالغين ، وهو تأثير القرآن في  
المؤمنين ؛ إذ بلغ تأثيره مبلغاً خرق به العادة في كل ما عرف من الكتب ، وبيان  
ذلك أن الإصلاح الذي نتج من تأثير القرآن في الناس ، والتحول الضخم الذي  
حصل لما حدث ولم يكن ليحدث في أي عهد من عهود التاريخ قديمه وحديثه إلا  
على أساس الإيمان العميق... بحيث يكون له من السلطان القاهر على النفوس ،  
والحكم النافذ على العواطف والميول ما يصد الناس عن نهجهم الأول في  
عقائدهم التي توارثوها ، وعبادتهم التي ألفوها ، وأخلاقهم التي نشأوا عليها ،  
وعاداتهم التي امتزجت بدمائهم ، وما يحملهم على اعتناق هذا الدين الجديد الذي  
هدم تلك الموروثات ، وحارب تلك الأوضاع المألوفة لديهم . وهذا الأساس الذي  
لا بد منه تَقْصُرُ عنه جميع الكتب التعليمية التي يؤلفها العلماء والمصلحون ، وتعجز  
عن إيجادها كافة القوانين التي يضعها المشرعون...<sup>(٢)</sup> .

وللقرآن أسلوب بديع في إصلاح النفوس ببسط الأمل ، وفتح باب الغفران

(١) الشفاء ، للقاضي عياض ٣٨٥/١ ، والشجاء : الحزن .

(٢) مناهل العرفان في علوم القرآن ، محمد عبد العظيم الزرقاني ٤٠٥/٢ - ٤٠٦ .

والرافة وقبول التوبة، وذكر المعاني التي ترتاح لها النفوس، وتستريح إليها آمال القلوب فلا تقنط.

فإذا قرأ المذنب قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٣] وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥] وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَحِبَّادِي الَّذِينَ آتَرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

حينئذ تتفتح أبواب الآمال في الرجوع إلى طريق الاستقامة وسلوك سبيل الصالحين، وتدفعه تلك الآيات بذلك الأسلوب المؤثر لأن يفر إلى الغفور الرحيم فيتوب إليه، ويقبل على العمل الصالح.

كل هذا وقارته لا يمل، وسامعه لا يمج، بل الإكباب على تلاوته يزيده حلاوة، وترديده يوجب له محبة، لا يزال غصاً طرياً، وغيره من الكلام ولو بلغ في الحسن والبلاغة مبلغه، يمل مع الترديد، ويعادى إذا أعيد، وكتابنا يستلذ به في الخلوات، ويونس بتلاوته في الأزمات... ولهذا وصف رسول الله ﷺ القرآن بأنه:

«لَا يَخْلُقُ عَلَى كَثَرَةِ الرَّدِّ، وَلَا تَنْقُضِي عِبْرَهُ، وَلَا تَغْنِي عَجَائِبَهُ، وَهُوَ الْفَصْلُ لَيْسَ بِالْهَزْلِ، لَا يَشِيعُ مِنْهُ الْعِلْمَاءُ، وَلَا تَزِيغُ بِهِ الْأَهْوَاءُ، وَلَا تَلْتَبِسُ بِهِ الْأَلْسُنُ، هُوَ الَّذِي لَمْ تَنْتَهِ الْجَنُّ حِينَ سَمِعَتْهُ أَنْ قَالُوا: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ ① يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرَكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ②» [الجن: ١ - ٢] (١) ... (٢).

والقرآن يزداد أثره الطيب بالإقبال عليه ويترك في نفوس المؤمنين المختبين

---

(١) اللفظ المقارب لهذه الرواية ما رواه أبو نعيم في الحلية بلفظ: «هو الذي لا تختلف به الألسن، ولا يُخلقه كثرة الرد...» وقال: غريب من حديث أبي إدريس عن معاذ [مرفوعاً] لم نكتبه إلا من حديث يونس ٢٥٣/٥ في ترجمة يونس بن ميسرة، وقال الهيثمي في «المجمع» في سنده عمرو بن واقد وهو متروك ١٦٥/٧.

(٢) الشفا، للقاضي عياض ٣٩٠/١.

أثراً بالغاً، ذكره تعالى العلام بما في النفوس بقوله: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانٍ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الزمر: ٢٣]، ولقد تواصل الكفار فيما بينهم - لما عرفوا ذلك التأثير العجيب للقرآن - بأن يمنعوا أنفسهم وغيرهم من سماعه، بل عزموا على أن يحدثوا لغواً عند تلاوته تشويشاً على الآخرين وصدأً للسامعين: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [فصلت: ٢٤] وباؤا كالعادة بالفشل الذريع، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون.

### الوجه السادس: الإعجاز بسلامته من التناقض والاختلاف

قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢].

قال ابن كثير: «لو كان [القرآن] مفتعلاً مختللاً كما يقوله من جهلة المشركين والمنافقين في بواطنهم لوجدوا فيه اختلافاً؛ أي اضطراباً وتضاداً كثيراً، وهذا [القرآن] سالم من الاختلاف فهو من عند الله»<sup>(١)</sup> وكل كلام غيره وجد فيه الاختلاف، فإن سلم في المعنى - وهذا نادر - لم يسلم في الأسلوب. هذا ما تمكنت من جمعه في هذا الباب العظيم الواسع النافع؛ في أعظم دلائله ﷺ، حجة مستمرة، وآية باقية.

(١) تفسير ابن كثير ٥٢٩/١.

## المبحث الثاني

### توقف الإيمان بالرسول على التسليم بنبوته

تقرير هذا الدليل؛ أن يقال لمن يؤمن بنبوته - أي نبي من - الأنبياء: على أي شيء استندت في إيمانك به؟

الجواب: أن كل من يؤمن بنبي من الأنبياء يعتمد على:

- تواتر دعوى النبوة
- ظهور دليل النبوة
- صحة دعوة النبي من؛ توحيد الله، وعبادته...
- صلاحية شخص النبي؛ صدقه، وأمانته...

ولو تأملنا في شأن محمد ﷺ ومدى تحقق هذه الحثيات فيه لما وسع إنسان عاقل يحكم بالعدل بين الأمور المتماثلة، وتماثل الأمور المتطابقة إلا أن يؤمن به لا سيما أنه ﷺ قد جاء بأعظم الدلائل، ورسخ التوحيد، ونفى الشرك، وأكمل الشرائع، وتمم محاسن الأخلاق، ولا زال دينه أظهر الأديان، وكتابه أصح الكتب.

فالعاقل المنصف إن رأى نجمين لم يتردد أن يقول: إنهما نجمان، وإن رأى نورين لم يتوقف في أن يقول إنهما نوران، ومن يقل غير هذا فينفي عن أحدهما ما للآخر فهو خائن للحقيقة، ملزم نفسه بنفي الاثنين؛ إذ النظر في أحدهما نظير النظر في الآخر، وينبغي أن يكون حكمه على أحدهما قرين الحكم على الآخر.

والأنبياء أشبه ما يكونون بالإخوة كلهم ينتمون إلى أب واحد «وهي النبوة، والدعوة إلى التوحيد»، وأمهاتهم شتى وهى شرائعهم المختلفة، فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ: «أنا أولى الناس بابن مريم؛ الأنبياء أولاد علات..»، وفي رواية:

«الأنبياء إخوة من عَلاَت، وأمّهاتهم شتى، ودينهم واحد»<sup>(١)</sup>.

قال النووي: «قال العلماء أولاد العَلاَت بفتح العين المهملة وتشديد اللام؛ هم الإخوة لأب من أمّهات شتى، وأما الإخوة من الأبوين فيقال لهم أولاد الأعيان، قال جمهور العلماء: معنى الحديث؛ أصل إيمانهم واحد، وشرائعهم مختلفة، فإنهم متفقون في أصول التوحيد، وأما فروع الشرائع فوقع فيها الاختلاف، «دينهم واحد»: فالمراد به أصول التوحيد وأصل طاعة الله تعالى وإن اختلفت صفتها وأصول التوحيد والطاعة جميعاً»<sup>(٢)</sup>.

قال ابن حجر: «وأصله أن من تزوج امرأة ثم تزوج أخرى كأنه علٌّ منها، والعلل الشرب بعد الشرب... أن أصل دينهم واحد؛ وهو التوحيد، وإن اختلفت فروع الشرائع، وقيل المراد أن أزممتهم مختلفة»<sup>(٣)</sup>.

ولذلك قال في الحديث نفسه: «أنا أولى الناس بابن مريم؛ لأنهم إخوة، ولأن عيسى بشر به، ولأن زمنهم متقارب، ولم يأت رسول بينهما.

#### من فرق بين متمثلين فليتهم عقله:

فالذي يكذب محمداً ﷺ يكذب بالتالي كل من ادعى النبوة قبله ممن جاء بدليل صادق على نبوته: «وقد ركز الله في فطر الناس وعقولهم التسوية بين المتمثلين، وإنكار التفريق بينهما، والفرق بين المختلفين وإنكار الجمع بينهما»<sup>(٤)</sup>.

بل أشار ابن القيم - رحمه الله - أن من فرق بين متمثلين قد أغلق عقله وسد عليه طرق الاستدلال بالكلية، فقال:

«فلو جاز التفريق بين المتمثلين لانسدت طرق الاستدلال وغلقت أبوابه»<sup>(٥)</sup>.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى (واذكر في الكتاب مريم... ح ٣٤٤٢، ٣٤٤٣ مع الفتح ٤٧٨/٦، واللفظ الوارد لمسلم رواه في صحيحه، كتاب الفضائل، باب فضائل عيسى عليه السلام ١٨٣٧/٤ ح ٢٣٦٥.

(٢) شرح مسلم ١٢٠/١٥.

(٣) فتح الباري ٤٧٨/٦.

(٤) إعلام الموقعين، لابن القيم ١١١/١.

(٥) المصدر نفسه ١١٢/١.

## من أصول الدين عدم التفريق في الإيمان بين الرسل

ولهذه القاعدة العقلية السابقة أصل عقدي من أصول الدين وهو عدم التفريق بين رسل الله من حيث تصديقهم والإيمان بنبوتهم. فالرسل - عليهم الصلاة والسلام - دينهم واحد؛ وهو عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ...﴾ الآية [الشورى: ١٣] ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُتِقَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الْفَاطِلِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [الشورى: ٢١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فهذا دين الأولين والآخرين من الأنبياء وأتباعهم، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، في كل زمان ومكان، بطاعة رسله عليهم الصلاة والسلام، فلا يكون عابداً لله من عبده بخلاف ما جاءت به الرسل... فلا يكون مؤمناً به إلا من عبده بطاعة رسله، ولا يكون مؤمناً به عابداً له إلا من آمن بجميع رسله، وأطاع من أرسل إليه، فيطاع كل رسول إلى أن يأتي الذي بعده فتكون الطاعة للرسول الثاني: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ يُؤْذِنَ اللَّهُ...﴾ [النساء: ٦٤].

ومن فرق بين رسله فأمن ببعض وكفر ببعض كان كافراً كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿٥٠﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٥١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٢﴾﴾ [النساء: ٥٠ - ٥٢].

فلما كان محمد ﷺ خاتم النبيين، ولم يكن بعده رسول ولا من يجدد الدين، لم يزل الله سبحانه وتعالى يقيم لتجديد الدين من الأسباب من يكون مقتضياً لظهوره؛ كما وعد به في الكتاب؛ فيظهر به محاسن الإيمان ومحامده، ويعرف به مساوئ الكفر ومفاسده<sup>(١)</sup>.

## التكذيب بنبوة محمد ﷺ تكذيب بسائر الأنبياء قبله:

وذلك لأن من يكذب به ﷺ فهو في الحقيقة يكذب بالطريق الذي عرفنا من خلاله صدق الأنبياء.

(١) الجواب الصحيح ٣٨/١ - ٨٥.

قال ابن تيمية - عمن يكذب بنبوة محمد ﷺ ويصدق غيره؛ بأن هذا التكذيب يقتضي تكذيب من قبله من الأنبياء :-

«فإن الطريق الذي يُعلم به نبوة موسى وعيسى يُعلم به نبوة محمد بطريق الأولى، فإذا قالوا: علمت نبوة عيسى وموسى بالمعجزات وعرفت المعجزات بالنقل المتواتر إلينا؛ قيل لهم: معجزات محمد ﷺ أعظم، وتواترها أبلغ، والكتاب الذي جاء به محمد ﷺ أكمل، وأمته أفضل، وشرائع دينه أحسن، وموسى جاء بالعدل وعيسى جاء بتكميلها بالفضل، وهو ﷺ قد جمع في شريعته بين العدل والفضل.

فإن ساغ لقائل أن يقول: هو مع هذا كاذب مفتر، كان على هذا التقدير الباطل لغيره أن يقال فيه ذلك، فيبطل بتكذيبهم محمداً ﷺ جميع ما معهم من النبوات؛ إذ حكم أحد الشيثين حكم مثله، فكيف بمن هو أولى منه؟؟... فلو قال قائل: إن هارون ويوشع وداود وسليمان كانوا أنبياء، وموسى لم يكن نبياً... أو قال ما يقوله اليهود: إن داود وسليمان... كانوا أنبياء والمسيح بن مريم لم يكن نبياً كان هذا قولاً متناقضاً معلوم البطلان، فإن الذين نفى عنهم هؤلاء النبوة أحق بالنبوة وأكمل نبوة ممن أثبتوها له، ودلائل نبوة الأكمل أفضل فكيف يجوز إكمال النبوة للنبي المفضول دون الفاضل؟ وصار هذا كما لو قال قائل: إن «زفر وابن القاسم والمزني والأنثم»<sup>(١)</sup> كانوا فقهاء، وأبا حنيفة ومالك والشافعي وأحمد لم يكونوا فقهاء، أو قال: إن «الأخفش وابن الأنباري والمبرد»<sup>(٢)</sup> كانوا نحاة، والخليل وسيبويه والفراء لم يكونوا نحاة... بل وكذلك من قال: إن موسى وعيسى رسولان والتوراة والإنجيل كتابان منزلان من عند الله، ومحمد ليس برسول، والقرآن لم ينزل من الله، فبطلان قوله في غاية الظهور والبيان لمن تدبر ما جاء به محمد ﷺ وما جاء به من قبله وتدبر كتابه والكتب التي قبله، وآيات نبوته وآيات نبوة هؤلاء وشرائع دينه وشرائع دين هؤلاء»<sup>(٣)</sup>.

(١) هؤلاء من فقهاء الإسلام ولكنهم لا يبلغون منزلة الفقهاء الأربعة أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد في العلم والإفتاء والتأليف والشهرة والأتباع واستمرار المذهب.

(٢) هؤلاء من علماء اللغة العربية ونحاتها، ولكنهم لا يبلغون منزلة الخليل وسيبويه والفراء في العلم والتأليف والشهرة.

(٣) الجواب الصحيح ٢٦/٢ - ٢٩ - باختصار ..

## بالمقارنة تتضح الحقائق

بمعنى أننا لو نظرنا إلى ما جاء به مدَّعو النبوة جميعهم وأجرينا مقارنة بينهم من حيث:

- تواتر دعوة النبوة،
  - دلائل النبوة واستمرارية ظهورها،
  - غاية الدعوة؛ من التوحيد ونفي الشرك وعبادة الله...،
  - الشرائع وصلاحياتها للإنسان.
  - الكتب ومحتواها العلمي وأسلوبها اللغوي،
  - الأخلاق وموازينها. وجميع ما جاؤوا به
  - ظهور الدين ونصر الله لنبيه.
- ثم بعد ذلك للعاقل أن يقارن بين جميع الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - بناء على ما سبق، ثم يسأل نفسه: أي الأنبياء قد حاز شرف السبق في هذا المضمار؟ وهل يسوغ لأحد أن يُخرج محمداً ﷺ من هذه المنظومة؟ مع كونه أعلاهم جميعهم بكل تلك المقاييس؛ بدليل النبوة، وترسيخ التوحيد، واستمرار الشريعة، وحفظ المصادر، واستقرار موازين الفضيلة، وظهور الدين على الدين كله.
- ولذلك كان الطعن في نبوته ﷺ طعناً في نبوة مَنْ قبله؛ قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

«فما من جنس من الأدلة يدل على نبوة موسى والمسيح إلا ودلالته على نبوة محمد ﷺ أقوى وأكثر، فيلزم من ثبوت نبوة موسى والمسيح ثبوت نبوة محمد ﷺ، ومن الطعن في نبوة محمد ﷺ الطعن في نبوة موسى والمسيح...»<sup>(١)</sup>.

### امتناع التصديق بنبوة نبي مع التكذيب بمحمد ﷺ

وهذا ما يترتب على التكذيب به ﷺ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية - مخاطباً المكذبين به ﷺ -:

لا يمكنكم أن تصدقوا بنبوة نبي من الأنبياء مع التكذيب بمحمد ﷺ، والطريق الذي بها تثبت نبوة محمد ﷺ بمثلها وبأعظم منها، بل نحن نبين أن

---

(١) الجواب الصحيح ٤٥/٢



التصديق بنبوته، أولى من التصديق بنبوة غيره، وأن كل ما يستدل به على نبوة نبي فمحمد ﷺ أحق بجنس ذلك الدليل من غيره، وما يعارض به نبوة نبي فالجواب عن محمد ﷺ أولى من الجواب عن غيره، فهو مقدم فيما يدل على النبوة، وفيما يجاب به عن المعارضة، وهو أكمل في ذلك. فيمتنع مع العلم أن يصدق بنبوة غيره مع التكذيب بنبوته، كما يمتنع مع العلم والعدل أن يكذب بنبوته مع التصديق بنبوة غيره، كما يمتنع مع العلم والعدل في كل اثنين أحدهما أكمل من الآخر في فنٍّ، أن يقر بمعرفة ذلك الفن للمفضول دون الفاضل؛ لأن الظالم يفضل المفضول مع علمه بأنه مفضول، والجاهل قد يعرف المفضول ولا يعرف الفاضل<sup>(١)</sup>.

وقد اختصر أبو منصور الماتريدي الكلام في هذا الباب بمجادلة موجزة قال فيها: «نسألهم عن المعنى الذي له أقروا به، أو أقر به سلفهم، فإن أشاروا إلى معنى على تحقيق ذلك أنه من المعاني التي توجب النبوة ألزمناهم في نبوة محمد ﷺ ذلك المعنى بعينه، وإن كانت الآية مختلفة... وإن تعلقوا بظواهر الآيات لم يجدوا لأحد مثل الذي لمحمد في الأعجوبة والرفعة...»<sup>(٢)</sup>.

وهذا حق إذ سطوع دليل نبوته لا يزال مشرقاً على الأرض؛

وفي ذلك يقول محمود شكري الألوسي: «فكان محمد ﷺ موجود كل عصر بين أظهرنا، والوحي غير منقطع منها، لأن دليل نبوته وقاطع برهانه وحجته يذكّر الناس بصحة نبوته في سائر الأقطار آناء الليل وأطراف النهار، وينادي بأفصح لسان وأوضح بيان على صحة رسالته، وصدق دعوته، ويدعو الناس في مشارق الأرض ومغاربها إلى العمل بأحكامه العلية، والاستنارة بضياء شمس هديه التي أشرقت بالأنوار الإلهية، والشرعية المحمدية، في كل عصر من الأعصار غضة طرية، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، لم يعتره ما اعتري سائر الشرائع ولا يعترها لما اختص به من الخصائص والأسرار، التي أودعت فيها، فكما أن في زمن حياة محمد ﷺ وأيام بعثته لم تمس الحاجة إلى إرسال رسول آخر، كذلك في القرون التي بعده لا حاجة إلى رسول آخر وتشريع شريعة أخرى، فالقرآن العظيم كلما يتلى على وجهه كأن السامع يسمعه من رسول الله ﷺ ففائدة البعثة لم تزل موجوة ثابتة، وهي دعوة الخلق إلى الحق، وإرشادهم إلى مصالح المعاش والمعاد، وإعلامهم بالأمور التي

(١) الجواب الصحيح ١٣٠/٥ - ١٣١.

(٢) كتاب التوحيد، للماتريدي ص ٢١٠.

تعجز عنها عقولهم، وتقرير الحجج القاطعة وإزاحة الشبه الباطلة<sup>(١)</sup>.

### الضرورة كانت تدعو إلى إرساله ﷺ

ثم نقول لمن يكذب به هنالك أمران نلفت نظرك إليهما:

١ - لماذا التعجب من إرساله وهو من جنس الرسل؛ فلم يكن أمره مستغرباً بل كان مستمراً على العادة بوجود مثله في الأمم، فلذلك يبطل وجه الرد عليه في أول وهله. قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

وقال: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلٌّ مَّا جَاءَ أُمَّةً رُسُلُهُمْ كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بِضَعْفٍ مِمَّا كَفَرُوا﴾ [المؤمنون: ٤٤].

بل جاء بدعوتهم التي جاؤوا بها: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَتَنَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَقْلُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

ولم يكن بدعاً من الرسل: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرَى مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأحقاف: ٩].

بل جاء ﷺ مصداقاً للمرسلين: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَرِيكَ إِلهًا مِثْلَ آبَائِنَا وَإِهْمَانَا لِشَاعِرٍ تَجْتُنِمْ﴾ [بل جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ] [الصفافات: ٣٦ - ٣٧] ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَهِيدًا عَلَيْهِ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ [فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا] [المزمل: ١٥ - ١٦].

٢ - أن مجيئه كان ضرورة، ومن أوجه تلك الضرورة:

- فترة دروس العلم.

- انحراف أهل الهداية عنها؛ قال تعالى ﴿يَتَأْخَذُ الْكِتَابَ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْقُوا عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥].

فمن الذي يخرج الحق صافياً من بين ضلالة اليهود والنصارى الذين أضلوا البشرية ضلالاً بعيداً، وكان المؤمل فيهم أن يهدوها سواء السبيل، ومن سبل ضلالهم: اعتقاد الملتين في المسيح عليه السلام: فالنصارى يقولون فيه: هو الله، وهو ابن الله وهو إنسان تام وإله تام، واليهود يقولون: هو ابن زنا، وهو ابن

(١) الدلائل العقلية، محمود شكري الألوسي - مخطوط - ٨٧.

يوسف النجار، ويقولون عن مريم إنها بغى بعيسى ويقولون هو ساحر كذاب. وقد جاء محمد ﷺ بالحق المبين بعد أن تاه الناس بين الأمتين المنحرفتين في هذا الرسول الأمين، فقال في المسيح عليه السلام: إنه عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول، وروح منه، وهو وجه في الدنيا والآخرة، ومن المقربين، والمسلمون يؤمنون به على هذا الاعتقاد المستقيم ويصفونه بما جاءهم به رسولهم محمد ﷺ في الكتاب الحكيم: لا يغفلون فيه غلو النصراني، ولا يقصرون في حقه تقصير اليهود، وكذلك قولهم في سائر الأنبياء، وفي أولياء الله المتقين<sup>(١)</sup>.

### مقصود دعوة الرسل قد تحقق على يديه ﷺ

إن ما ترتب على بعثة محمد ﷺ من تحقيق التوحيد وتثبيت شرائع العدل وغيرها من مقاصد إرسال الرسل أعظم من غيره وأجل وأكثر. وكل من كان صدور هذه الفوائد عنه أكثر وأكمل وجب القطع أن رسالته أعظم وأكمل.

إذا عرفت هذا فنقول إن تأثير دعوة موسى عليه السلام كانت مقصورة على بني إسرائيل فقط، أما بقية البشر الذين هم أضعاف أضعاف بني إسرائيل فلا هداية لهم، وأما دعوة عيسى عليه السلام فكما قال محمود الألوسي: «كأنه لم يظهر لها تأثير إلا في أقل قليل وذلك لأننا نقطع بأنه ما دعا إلى الدين الذي يقول به هؤلاء النصراني لأن القول بالأب والابن والتثليث أقبح أنواع الكفر وأفحش أقسام الجهل، ومثل هذا لا يليق بأجهل الناس فضلاً عن الرسول المعظم المعصوم... فعلمنا أنه ما كانت دعوته ألبتة إلى هذا الدين الخبيث، وإنما كانت دعوته إلى التوحيد والتنزيه ثم إن تلك الدعوة ما ظهرت ألبتة بل بقيت مطوية غير مروية فثبت أنه لم يظهر لدعوته إلى الحق أثر ألبتة. أما دعوة محمد ﷺ إلى التوحيد والتنزيه فقد وصلت إلى أكثر بلاد المعمورة، والناس قبل وصوله كانوا على الأديان الباطلة فعبدة الأصنام كانوا مشغولين بعبادة الحجر والخشب، واليهود كانوا في دين التشبيه وصناعة التزوير، وترويج الأكاذيب وغير ذلك من المفساد، والمجوس كانوا في عبادة إلهين، ونكاح الأمهات والبنات، والنصارى كانوا في التثليث، والصابئة كانوا

(١) انظر - للتفصيل - الجواب الصحيح ٢/ ١٤٠ - ١٤٤، وانظر: كتاب التوحيد للماتريدي ص

في عبادة الكواكب، فكان أهل العالم معرضين عن الدين الحق. فلما أرسل الله محمداً ﷺ إلى هذا العالم بطلت الأديان الخبيثة، وزالت المقالات الفاسدة، وطلعت شمس التوحيد، وأقمار التنزيه من قلب كل أحد وانتشرت تلك الأنوار في بلاد العالم.

ثبت أن تأثير دين محمد ﷺ في علاج القلوب المريضة والنفوس الظلمانية كان أتم وأكمل من تأثير دعوة سائر الأنبياء فوجب القطع بأنه أفضل من جميع الأنبياء والمرسلين في كل ما يتعلق بالنبوة والرسالة، وهذا برهان ظاهر من باب البرهان الكمي فإننا بحثنا عن حقيقة النبوة والرسالة ثم بينا أن كمال تلك الماهية ما حصلت لأحد من الأنبياء كما حصلت لمحمد ﷺ<sup>(١)</sup>.

### محمد ﷺ مصداق سنة الله في المرسلين.

فقد جرت سنة الله بنصر أوليائه الصادقين، وكان نصيب محمد ﷺ من النصر والتمكين أعظم نصيب؛ والله لا ينصر القوم الكاذبين في كل تلك الأزمنة، وفي كل تلك المواطن.

وقد قرر شيخ الإسلام ابن تيمية قاعدة عظيمة في هذا الباب وهي قوله - رحمه الله -:

«كل من كان أتم إيماناً بالله ورسوله كان أحق بنصر الله تعالى»<sup>(٢)</sup>.

وهذه القاعدة مستقاة من قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ ۝٥١﴾ [غافر: ٥١]. وقوله تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٢١﴾ [المجادلة: ٢١]. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ۝٧٦ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ۝٧٧ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ۝٧٨﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٣].

ولذلك كان جزاء اليهود الذين كذبوا كلاً من المسيح ومحمد - عليهما السلام - غضباً من الله على غضب كما قال تعالى: ﴿بَشِّرْهُمْ أَشْرَؤُا بِوَعْدِهِمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَقِيَ أَن يُنَزَّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٩٠﴾ [البقرة: ٩٠] فالغضب الأول

(١) الدلائل العقلية، محمود شكري الألوسي - مخطوط - ج ٧ - ص ٨.

(٢) الجواب الصحيح ١٧٩/٢.

بتكذيبهم المسيح، والثاني بتكذيبهم لمحمد ﷺ، والنصارى لم يكذبوا المسيح فكانوا منصورين على اليهود، والمسلمون منصورون على اليهود والنصارى: فإنهم آمنوا بجميع كتب الله ورسله، ولم يكذبوا بشيء من كتبه ولا كذبوا أحداً من رسله بل اتبعوا ما قال الله لهم:

﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ إِنْزِيلًا وَنُحْمَلُ وَنَقُوبُ وَالْأَسْبَاطُ وَمَا أَوْفَى مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أَوْفَى النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [البقرة: ١٣٦].

وقال: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة: ٢٨٥].

ولما كان المسلمون هم المتبعون لرسول الله حقاً؛ المسيح وغيره والله قد وعد أن ينصر الرسل وأتباعهم [وكان نصر الله للمسلمين نصراً عظيماً] فكان ما احتجوا به [النصارى] حجة عليهم لا لهم<sup>(١)</sup>،...<sup>(٢)</sup>.

وما ضعف المسلمون اليوم إلا بسبب تقصيرهم في اتباع رسل الله، ولما كان الصحابة زمن رسول الله ﷺ مستمسكون بدعوته، ومتبعون لما جاء به ﷺ كان تأييد الله لهم ذلك: «التأييد الذي يظهر دعوته ويفلح حجته، يُبصره من شاقه وحاده؛ إذ الله تعالى بعثه في أوان طموس من آثار الدين إلى العباد لينقذهم من الردى، ثم لما أقامه هذا المقام الجليل والخطب الجسيم لم يخله عن نصره والتمكين، ليقوي منته عليه بما أكرمه من المقام بقوله: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَنَوْمٍ يَقُومُ الْأَشْهُدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٥١] ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾ [المجادلة: ٢١] ويمثله سبقت كلمته لعباده المرسلين. ثم كان له أيضاً من خصوص حال أن بعث إلى الناس كافة، ووعد له الغلبة والنصر»<sup>(٣)</sup>.

(١) وكان النصارى قد احتجوا على المسلمين بقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَسِيحَ إِبْنُ مَرْيَمَ وَرَافُكُ إِلَيْكَ وَمُطَهَّرُكَ مِنْكَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاجِلُ الَّذِينَ أَتَمَّوْكَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ نُفَرِّقُكُمْ عَنْكُمْ وَنَجْزِي الْكَافِرِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [آل عمران: ٥٥].

(٢) الجواب الصحيح ١٧٩/٢ - ١٨٠ بتصرفه.

(٣) كتاب التوحيد، لأبي منصور الماتريدي ص ٢٠٨.

## المبحث الثالث

### الأخذ بدليل السبر والتقسيم للتوصل إلى صحة نبوته

يتركب هذا الدليل من جزئين:

١ - التقسيم: حصر أوصاف المحل

٢ - السبر: فحص تلك الأوصاف؛

لإبطال ما لا يصح منها،

وإبقاء الصحيح<sup>(١)</sup>.

ويمكن أن يصاغ هذا الدليل بما يتناسب مع بحثنا هنا بما يلي:

١ - حصر الأوصاف التي يمكن إطلاقها عليه ﷺ وهذه مرحلة (التقسيم).

٢ - ثم تأتي مرحلة (السبر): وهي فحص تلك الأوصاف وإبطال ما لا يصح منها، ثم يتعين إبقاء الصحيح.

وهذا الدليل يفيد اليقين إذا كانت القسمة حاصرة لكل الصفات، ولا يبقى أحد الأقسام مغفولاً عنه، أما إذا كانت القسمة غير حاصرة فلا<sup>(٢)</sup>.

والقسمة محصورة في نبينا محمد ﷺ وهي: إما أن يكون صادقاً في دعواه النبوة أو لا يكون.

ولنبداً بالحالة الثانية، والتي هي في الحقيقة ادعاءات شتى عند المكذبين به؛ كذاب، مجنون، كاهن، طالب رياسة وملك، أخذ القرآن عن غيره... وكان من إعجاز القرآن أن ذكرها وفندها، ولا تخرج ادعاءات المكذبين به قديماً وحديثاً

---

(١) أوجز التعاريف للسبر هو تعريف ابن الأنباري: «السبر يرجع إلى اختبار أوصاف المحل» شرح البرهان، وانظر: البحر المحيط للزركشي ٢٢٢/٥، والإحكام في أصول الأحكام للآمدي ٧٧/٤، ومناهج الجدل في القرآن الكريم ص ٧٤، وأصول الفقه د. بدران ص ١٨٢، وانظر مثلاً له في الشرع عند السيوطي في الإتقان في علوم القرآن ١٣٦/٢.

(٢) انظر: درء التعارض لابن تيمية ٨٧/١.

- حتى أقوال المستشرقين -، عن تلك الشبه!!.

ولنبداً بذكر تلك الادعاءات عليه ﷺ:

- أن يكون كذاباً:

زعم وادعى أنه رسول من عند الله

فهل الكاذب يمكنه أن يدعي بكل حزم وجزم وحتم ويقين وصلابة وقوة؛ أنه رسول لإبراهيم وموسى وعيسى، وأنه ولد سيد آدم، وأن آدم فمن دونه تحت لوائه يوم القيامة، وأنه لما أسري به وعرج إلى ربه علا على الأنبياء كلهم؛ على إبراهيم وموسى وهارون، ويحيى وعيسى وغيرهم، وأخبر أنه لا نبي بعده، وأن أمته الآخرون في الخلق، السابقون يوم القيامة، وأن الكتاب الذي أنزل إليه أحسن الحديث، وأنه مهيمن على ما بين يديه من الكتب. وأمر الخلق بمتابعته وطاعته على سبيل الحتم والإيجاب، وألزمهم بتصديقه في كل ما يخبر به من غير أن يخير أحداً في اتباعه وتصديقه وطاعته ولا يسوغ له مخالفته بوجه من الوجوه، فهل يعقل هذا كله؟؟

والكاذب لا بد أن يكون في خبرة تناقض؛ لامتناع قدرة البشر على أن تخبر بمثل هذه الأخبار، وما فيها من الغيوب، ويأمر بهذه الأوامر مع سلامة ذلك من التناقض، ولهذا لا يوجد بشر غير نبي يسلم من ذلك.

وإذا كان محمد ﷺ قد علم بالاضطرار من سيرته أنه كان يتحرى الصدق والعدل، وأنه ما جربت عليه كذبة قط، وعلم أنه كان جازماً بكل ما يخبر به مع عظم الأخبار وكثرتها، فهل يسوغ تكذيبه لعاقل؟؟

محمد ﷺ دعا الناس وحده وهو بمكة، فأمن بن المهاجرون ثم آمن به الأنصار بالمدينة، ثم آمن به أهل البحرين ولم يعط أحداً منهم درهماً، ولا كان معه ما يخيفهم به، لا سيف ولا غيره، بل مكث بمكة بضع عشرة سنة وهو والمؤمنون به مستضعفون لم يكن له مال يبذله لهم ولا سيف يخيفهم به.

فالنبي متصف بخلال الخير الكثيرة، ولا يمكن بحال من الأحوال أن يكون كاذباً؛ لأن الله تعالى لا يخزي ولا يخذل من كان متصفاً بأنواع البر والإحسان وقد اختاره تعالى لكي يحمل مشعل الهداية للبشرية.

ولهذا لما كانت خديجة رضي الله عنها تعلم من النبي ﷺ أنه الصادق البار قال لها لما جاء الوحي: «إني قد خشيت على نفسي فقالت له: «كلا والله لا يخزيك الله، إنك لتصل الرحم، وتصديق الحديث، وتحمل الكل، وتقري

الضعيف، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق<sup>(١)</sup>.

فهو لم يخف من تعمد الكذب فإنه يعلم من نفسه ﷺ أنه لم يكذب، لكن خاف في أول الأمر أن يكون قد عرض له عارض سوء، فذكرت خديجة ما ينفي هذا، وهو ما كان مجبولاً عليه من مكارم الأخلاق، ومحاسن الشيم والأعمال، وهو الصدق المستلزم العدل، والإحسان إلى الخلق، ومن جمع فيه الصدق والعدل والإحسان لم يكن ممن يخزيه الله.

وصلة الرحم، وقرى الضيف، وحمل الكل، وإعطاء المعدوم والإعانة على نوائب الحق، هي من أعظم أنواع البر والإحسان، وقد عُلم من سنن الله أن من جبله الله على الأخلاق المحمودة ونزَّهه عن الأخلاق المذمومة فإنه لا يُخزيه<sup>(٢)</sup>.  
ودعوى اتهمه بالكذب قد أخذت صوراً شتى، ولنبدأ بها: من قولهم إنه مجنون حاشاه ﷺ

### - أن يكون مجنوناً:

إن ادعى النبوة وهو يظن أنه نبيّ وصدّق نفسه في هذه الدعوى فهذا مجنون مخطئ ضال قد التبست عليه الأمور.

ومن كان هذا حاله فلا بد أن يخطئ كثيراً جداً فيما يخبر به ولا بد أن يظلم ظلماً بيناً فيما يأمر به، ولا يتصور استمراره على هذه الدعوى، بل لا بد أنه كاذب، فإن من صدق نفسه في مثل هذه الدعوى وهو ليس بصادق يكون من أجهل الناس، وأظلمهم، وأبعدهم عن التمييز بين الحق والباطل، والصدق والكذب، والخير والشر، وبناء على هذا تكون أقواله وأعماله متناقضة، متصادمة مع الحقائق الشرعية والتاريخية.

وكيف يشتبه جنونُ هذا وهو يدعي تلك الدعاوى العظيمة، التي لا يدعي عاقل بمثلها، مع كثرة ما يخبر به، ويأمر به وينهى عنه فلا بد أن يكون في أخباره وأوامره من الضلال والغبي والتناقض ما يبين لأكثر الخلق.

---

(١) رواه البخاري في بدء الوحي ٢٢/١، ومسلم في الإيمان باب بدء الوحي، رقم ١٦٩. وقد سبق تخريجه.

(٢) انظر: الأصفانية ص ٤٧٩، منهاج السنة ٤١٩/٢، وكلاهما شيخ الإسلام ابن تيمية، وانظر: شرح الطحاوية لابن أبي العز ص ١١٤ - ١١٥.



أما محمد رسول الله ﷺ - ودعوته إلى الأمور الكلية، والسنن العامة، والشرائع والنواميس، وأثره الطيب العظيم في الناس - فحاله مباين لحال من سبق ذكره أشد المباينة، وهذا الأمر ظاهر غاية الظهور من كل وجه، وسوف نختار وجهاً واحداً ينفي تلك الشبهة الداحضة.

فيقال لمن زعم تلك الشبهة: لو كان محمد ﷺ كما زعمتم فكيف يتبعه أرجح الناس عقلاً، وأسدهم قولاً، وأثقلهم أحلاماً، كأبي بكر وعمر رضي الله عنهما؟؟. فأبو بكر الصديق وهو من هو في كمال عقله وخلقه وشرفه عند قومه نراه قد بذل نفسه في سبيل دين محمد ﷺ وأنفق ماله كله حتى قال له النبي ﷺ: «ما تركت لأهلك؟» قال: «تركت لهم الله ورسوله»<sup>(١)</sup>.

ثم تولى أمر المسلمين بعد وفاة رسول الله ﷺ وترك ما كان معه من مال للمسلمين - وكان معروفاً بالتجارة -، واكتفى كل يوم بدرهمين له ولعِياله.

ثم تولى بعده عمر بن الخطاب، وفتح أعظم ممالك العالم، مملكة فارس والروم، وفتح الشام والجزيرة ومصر، ولم يعرف الناس عدلاً على وجه الأرض بعد عدل الأنبياء كما كان في عهد عمر، وهو بهذا قد استن بسنة من هو عند عمر أحب إليه من نفسه، وكان أمير عمر على الشام أحد الصحابة الكرام؛ «أبو عبيدة بن الجراح» من أزهد الخلق في الأموال وأعبدهم للخالق، وأرحمهم للمخلوق، وأبعدهم عن هوى النفس، ولهذا قال النبي ﷺ فيه: «إن لكل أمة أميناً، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح»<sup>(٢)</sup>...

وكان أميره على فارس «سعد بن أبي وقاص» وكان مستجاب الدعوة، من أزهد الناس، وآخر من بقي من أهل الشورى والناس يتنازعون في الولاية وهو معتزل في قصره بالعقيق، لا يزاحم أحداً فقال له ابنه عمر: «تركت الناس يتنازعون الملك وجلست ههنا؟ فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يحب العبد التقي الغني النقي الخفي»<sup>(٣)</sup>

(١) رواه الترمذي كتاب المناقب وقال: هذا حديث حسن صحيح ٦١٤/٥ رقم ٣٦٧٥.

(٢) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب قصة أهل نجران، مع الفتح ٩٤/٨ ح ٤٣٨٢، ومسلم كتاب فضائل الصحابة باب فضائل أبي عبيدة ١٨٨١/٤.

(٣) رواه مسلم كتاب الزهد والرفائق ٢٢٧٧/٤ ح ٢٩٦٥.

وانظر: الجواب الصحيح - باختصار وتصرف - ٤٦/٦ - ٥٤.

فمن كان هؤلاء العقلاء والزهاد والحكماء الذين حكموا بالعدل والإنصاف أتباعه فكيف يكون حال المتبوع ﷺ؟؟.

ومع هذا يحلم الله على المكذبين برسوله فيعظهم ويأمرهم بالتفكير في حاله ﷺ والتمهل قبل إطلاق الأحكام المسبقة والنظر مع المسألة وأن يقفوا وقفة تدبر متأنية فيقول سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُعْطِيكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرْدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾ [سَبَأ: ٤٦] ﴿أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ﴾: قياماً خالصاً بلا هوى أو مصلحة أو حكم مسبق فيكون ذلك التفكير تفكيراً هادئاً بعيداً عن المؤثرات. ﴿مَثْنَىٰ﴾ ليحصل الأخذ والرد والتناظر، ﴿وَفُرْدَىٰ﴾ ليواجه المرء نفسه بصدق وبدون مجاملة لأحد، ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾ هل تفكرتم في حاله ﷺ قبل البعثة وبعدها ألم تعلموا أنه ﷺ كان معروفاً برجاحة العقل والشهرة بالأمانة؟ وأنه ما عُرف عنه جنون أو خباله فهو صاحبكم معكم أربعين سنة تعرفونه جيداً ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ وهذه دعوته ﷺ فيها الخير لكم فهو ﷺ جاء لينقذكم من الضلال في الدنيا والعذاب في الآخر (١).

﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الصَّافَات: ٣٧].

لم يستطع المشركون أن يواجهوا الحق الذي جاء به محمد ﷺ إلا باستشارة العواطف الجاهلية، والعصبية العرقية حتى لا يلتفت الناس إلى الحق الواضح السهل، قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا يَنْتَوِي قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكَ عَنْمَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾﴾ [سَبَأ: ٤٣ - ٤٥] وهذا هو أسلوب ضعاف الحجة، وهو احتجاجهم بمجرد مخالفة الرسول ﷺ لما كان عليه آباؤهم، وهذا ليس بحجة كافية مطلقاً.

ثم انتقلوا إلى ذات الرسول ﷺ فقالوا عن تلك الآيات القرآنية بأنها أكاذيب مختلفة، وهم بذلك يتهمون الرسول بالكذب

ولكن إذا كان ما جاء به أكاذيب فكيف يؤثر في النفوس ذلك التأثير

(١) انظر للتفسير ابن كثير ٢/٢٥٩ وفتح القدير للشوكاني ٤/٣٣.

العجيب؟ فقالوا: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّؤْتٍ﴾ [المائدة: ١١٠].

عندها فنّد القرآن هذه الاتهامات، فرد عليهم بقوله: ﴿وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾ [سبأ: ٤٤] فهم أميون لم ينزل الله عليهم كتباً سابقة، ولا أرسل إليهم قبل الرسول محمد ﷺ رسولا بحيث يمكنهم أن يقارنوا بينها وبين القرآن ثم يخرجون بأن ما جاء به الرسول ﷺ «إفك مفترى» وليس من عند الله!!، فليس لتكذيبهم بالقرآن وبالرسول وجه ولا شبهة يتشبثون بها، وقد نسي أو تناسى مشركو قريش أن هناك أقواماً سابقين كذبوا الرسل وكانوا أقوى منهم عشرات المرات في العلم والمال والقوة والبناء ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مَعْسَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلًا﴾ [سبأ: ٤٥] فماذا كان مصيرهم ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الحج: ٤٤]؟؟ وهم يعرفون المصير البئيس لهؤلاء المكذبين<sup>(١)</sup>.  
وللمنكرين لنبوته ﷺ قول آخر فقالوا وبش ما قالوا:

- إنه شاعر!!

وقد ذكر الله هذه الشبهة في كتابه الكريم ورد عليها فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُرْتَصِبِينَ﴾ ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلُسَهُمْ يَهَذًا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور: ٣٠ - ٣٤].

أي عقل هذا الذي يحكم عليه بأنه شاعر؟؛ فإن كانت عقول المشركين التي تعرف صروف الكلام وضروبه قد أمرتهم أن يقولوا عنه: إنه شاعر فبئست تلك العقول. بل هو الطغيان الذي حملهم على هذا القول البعيد فحجبهم عن وضوح أمره ﷺ وبعده ﷺ عن طبائع الشعر والشعراء التي بينها الله في كتابه الكريم بقوله: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْفَأْوَنَ﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسِعِلُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤ - ٢٢٧].

حيث بين تعالى صفات الشعراء لتقارن مع صفات الرسول ﷺ وتسقط تلك الشبهة من وجوه:

١ - أن من يجاري الشعراء ويتبع أقوالهم فهو من الضالين عن الحق - كما

(١) انظر تفسير الآية في تفسير ابن كثير ٢/ ٢٦٠.

هو مشاهد معروف - فالشعراء مقبلون على الغي في أنفسهم مضلّون لأتباعهم، أما أتباعه ﷺ فهم من أكمل الناس عقلاً وحكمة وشرفاً ومكانة عند العرب؛ كخديجة وأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وحمة وغيرهم...

٢ - أن أغراض الشعر كثيرة عند العرب، وفنونه متنوعة، وأعذبه عندهم أكذبه، والشعراء يخوضون فيها، وفي كل شعب من شعاب الزور؛ فتارة يمزقون الأعراض بالهجاء، وتارة يأتون من المجون ما يستقبحه العقلاء، وتارة يصرحون بالفجور بأسلوب يمجّه الذوق، وتارة يخوضون في بحر السفاهة والوقاحة، وتارة يذمون الحق، وتارة يمدحون الباطل، وتارة يرغّبون في فعل المحرمات، وتارة يدعون الناس إلى فعل المنكرات، ودواوين الشعراء شاهدة على هذا، فهي مليئة بمدح الخمر والزنا واللواط وسيء الأخلاق.

قال ابن عباس في تفسير الآيات: «في كل لغو يخوضون»<sup>(١)</sup>.

والمقصود: أن الشعراء يعيشون حالة قلق مستمر، وتقلب متواصل، لا قرار لهم، مع فساد أغراضهم الشعرية، وبالمقارنة:

هل تنطبق تلك الصفات المذكورة على محمد ﷺ ودعوته؟.

٣ - أن الشعراء أصحاب كلام رنان فقط بدون عمل، وأن أفعالهم تناقض أقوالهم وقد يتفاخر الشاعر بالكرم أو بالشجاعة وهو أبعد ما يكون عنهما كما تجده في كثير من الدعاوى الكاذبة في أشعارهم<sup>(٢)</sup>.

فهل ينطبق شيء من هذا الأوصاف على رسول الله ﷺ؟

أم أنه ﷺ قد عرف عنه ﷺ أنه لا يدعو إلا إلى كل خير وبر وتقوى، وأنه ﷺ إذا دعا إلى شيء كان أسبق الناس إليه، وإذا نهى عن شيء كان أسبق الناس إلى تركه، فكان قدوة حسنة في سائر أحواله.

---

(١) رواه البخاري تعليقاً بصيغة الجزم، كتاب الأدب، باب ما يجوز من الشعر... وما يكره منه ٥٣٧/١٠.

(٢) وبعد تبرئته من تهمة الشعر، نجد القرآن لا يغفل أولئك الشعراء الذين استنابهم الله، وهم؛ من آمن، وعمل صالحاً، وأكثر من ذكر الله، وانتصر من الظالمين، ودخل في حزب المؤمنين، ونافع عن الحق المبين.

انظر: فتح القدير، للشوكاني ١٢١/٤، وتفسير السعدي ص ٥٤٩.

فمن المحال أن يكون ﷺ من صنف أولئك الشعراء ولذلك قال سبحانه: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ [يس: ٦٩].

وبين سبحانه أن النبي ﷺ لا يصح له ولا يتأتى منه الشعر ولم يقل قبل البعثة ولا بعدها شيئاً من الشعر<sup>(١)</sup>.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ [يس: ٦٩]: القرآن موعظة للمؤمنين مشتمل على الأحكام الشرعية، لينذر من كان صحيح القلب فيقبل على الحق: والشعر ليس كذلك. وخبراء اللغة من العرب قد نفوا هذه التهمة كالوليد لما أراد أن يقول في القرآن قولاً أعرض عن هذه الشبهة بعد أن فكر وقدر وأتى بغيرها.

### ورموه ﷺ بالسحر والكهانة:

وللسحرة والكهان صلة قوية جداً بالشياطين، بل إن بضاعة السحرة والكهان قامت سوقها وراجت بالاتصال بالجن والشياطين ودعمهم، والشياطين يوحون لأوليائهم، وأولياء الشياطين؛ شياطين مثلهم؛ يكتر فيهم الكذب وتكثر فيهم الشرور والمعاصي والآثام والأمر بالظلم والفسق، وهم معروفون بالإفك العظيم، والبهتان الأثيم.

ولم يظهر من أحوال محمد ﷺ إلا الصدق ثم الصدق ثم الصدق ولم يأمر إلا بكل خير وبر وصلاح، بل إنه ذم الكهانة والسحر ذمّاً عظيماً وأمر بالتعوذ منهما، وحذر من الإتيان إلى السحرة والكهان أو سؤالهم. ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَا تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢﴾ يَقُولُونَ أَسْمِعْ وَكَثُرُهُمْ كَذِبٌ ﴿٣﴾﴾ [الشُّعَرَاءُ: ٢٢١ - ٢٢٣].

قال ابن كثير في بيان من تنزل عليه الشياطين:

«فهذا هو الذي تنزل عليه الشياطين والكهان وما جرى مجراهم من الكذبة والفسقة»<sup>(٢)</sup>.

هذا ولقد حُجبت السماء، وحرست حرساً شديداً، ورصدت بالشهب لكل من تسول له نفسه بأن يقعد للسمع منذ ظهور نور نبوته، ولم يعد ممكناً للشياطين أن يسترقوا السمع من السماء، وهذا أمر شهدت به الشياطين نفسها؛ إذ تغيرت

(١) للاستزادة في موضوع نفي الشعر عنه ﷺ وما نسب إليه منه انظر: فتح الباري ٥٤١/١٠، وفتح القدير ٣٧٩/٤.

(٢) تفسير ابن كثير ٣/٣٤١، وانظر فتح القدير ٤/١٢٠ - ١٢١.

أحوالهم وخابت سرقهم كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَهَا مِثْلَ ثَخَلٍ مَّسْتُورٍ﴾ (٨) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدًا لِّلشَّيْطَانِ فَحَمَلَ الْإِنسَانُ إِلَاهُ (٩) [الجن: ٨ - ٩] ﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ (١٠) وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿لَهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعٌ ذُوُلُونَ﴾ (الشُّعَرَاءُ: ٢١٠ - ٢١٢).

**وإما أن يكون - عند المكذبين به - متاجراً بدعوته طالباً لجمع المال:**  
وهنا دعوى أخرى فندتها الآيات الكريمات بقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجَرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (سَبَأ: ٤٧).  
قال الشوكاني: «وفي هذا إخبار أنه لم يكن له ﷺ غرض في الدنيا ولا رغبة فيها حتى تنقطع عن المشركين الشكوك ويرتفع الريب، فما طلب ﷺ من مقابل على الرسالة»<sup>(١)</sup>.

- ما حقيقة دوافع الرسول إلى ما يدعو إليه؟ هل هو الجاه والشهرة والمال الذي تحرصون عليه؟؟ لا إن المال الذي تتهافون عليه هو لكم فلم يُبعث الرسول جابياً بل بعث هادياً إلى الله ، والله كفيلاً برزقه، ولذلك يقول بعدها: ﴿قُلْ إِنِّي رَقِيَ يَقْدُفُ بِالنَّارِ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ (١٨) قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ (١٩) قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ امْتَدَدْتُ فِيمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رَقِيْتُ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ (٢٠) وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَرَغُوا فَلَا قُوَّةَ وَاتَّخَذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ (٢١) وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاقُشُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ (٢٢) [سَبَأ: ٤٨ - ٥٢].

هذا وقد عرضت عليه ﷺ السلطة، والأموال، والنساء لكي يتخلى عن دعوته فما زاده ذلك إلا ثباتاً على الحق ودعوة إليه، بل إنه انتصب مع ضعفه وفقره وقلة أعوانه وأنصاره حرباً لأهل الشرك؛ آحادهم وأوساطهم وأكاسرهم وجبابرهم، ولو كان من أرباب المال والجاه للجا إلى استنزاف أموال أولئك بكل سبيل ليحصل على مراده، ولكن رسول الله ﷺ جابه أهل الباطل بباطلهم فضلل آراءهم، وسفه أحلامهم، وأبطل مللهم، وهدم دولهم، وظهر دينه على الأديان، وزاد على مر الأعصار والأزمان، وشاع في المشارق والمغارب، من غير اعتماد على كثرة مال أو عتاد فهل يكون ذلك إلا بعون إلهي؟<sup>(٢)</sup>.

(١) فتح القدير بتصرف يسير ٣٣٤/٤

(٢) انظر: الأسس المنهجية، د. يحيى هاشم فرغل ص ٣٤٥ - ٣٤٦.

## شبهة أخرى

وهناك من يقول إن محمداً ﷺ لم يكن نبياً رسولاً بل كان ملكاً عادلاً، وضع ناموساً سياسياً، وقانوناً عدلياً، ينفع به الخلق ويحملهم به على السيرة العادلة بمبلغ علمه، كما كان للأمم من يضع لها النواميس مثل واضعي النواميس من اليونان والهند والفرس وغيرهم.

وهذا القول قرين قول الفلاسفة الذي سعوا إلى إنشاء الجمهورية الفاضلة فلم يخلفوا سوى الدمار، والعلماء قاطبة شاهدة بتناقضهم وضلالهم، وليس من شأن هؤلاء أن يأمرُوا بالتوحيد والعمل الصالح، إذ دعوة المرسلين لا علاقة لها بطريقة الفلاسفة، فالفلاسفة ينشدون إقامة «جمهورية أفلاطون» الدنيوية التي تقوم على فلسفة الهوى.

أما إن كانوا يزعمون أنه ﷺ مَلِك يتحرى العدل والصدق باجتهاده ورأيه، فمن الممكن جداً أن يأمر بأشياء وينهى عن أشياء وتكون المصلحة والعدل والصدق بخلاف ما أمر أو بخلاف ما نهى.

ومن الجائز جداً أن يخبر بأخبار وتكون الحقيقة بخلاف ما أخبر ولا بد أن يغلط في بعض ما يخبر به من الأمور العلمية، ولا بد أن يخطئ في بعض ما يأمرهم به في الأمور العملية، لأنه يخبر ويأمر عن اجتهاد محض حسب ما يراه وهو في تلك الحالة غير معصوم.

فإذا كان يأمر بخلاف الحق، ويخبر بخلاف الواقع، فليس هذا بنبي، ورسول الله محمد ﷺ لم يؤثر عنه شيء من ذلك ألبته.

ثم إنه من العقل في عُرف الناس أنه ﷺ لو كان ملكاً أن يستعين بقومه ويغريهم بالمال والجاه.

ثم لو كان زعيماً يدعي لنفسه الزعامة:

ف«أي مصلحة للعاقل الذي يدعي لنفسه حق الزعامة في أن ينسب بضاعته [الوحي] لغيره، وينسلخ منها انسلاخاً؟ على حين أنه كان يستطيع أن يتحلها فيزداد بها رفعة وفخامة شأن، ولو انتحلها لما وجد من البشر أحداً يعارضه»<sup>(١)</sup>

وصاحب الجاه عادة ضنين بإنتاجه الفكري: «أما أن أحداً ينسب لغيره أنفُس

(١) النبا العظيم، د. محمد دراز ص ٢٢.

آثار عقله وأعلى ما تجود به قريحته فهذا ما لم يلد الدهر بعد»<sup>(١)</sup>  
ولو قيل إنه نسب كلامه لربه لكي يستصلح الناس وينفذ أمره فيهم ليكون  
لقوله حرمة وتعظيماً.

يقال لهم: رأينا الناس من أتباعه «الصحابة» لا يفرقون في الطاعة بينهما، بل  
استوجب على الناس طاعته، وكانوا يقولون له بأبي أنت وأمي يا رسول الله، وكان  
لقوله ﷺ - على الاستقلال - أعظم الوقع في نفوس أتباعه تصديقاً واتباعاً<sup>(٢)</sup>  
وكل منصف اطلع على تفاصيل سيرته ﷺ يجزم جزماً قاطعاً بأنه ﷺ كان  
أبعد الناس عن المواربة، وأن سره وعلايته سواء؛ دقة في الصدق، وصرامة في  
الحق، في جليل الأمور وصغيرها، يشهد بذلك أصحابه وأعداؤه على السواء إلى  
يومنا هذا، قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْهِمْ وَلَا أَذْرَكُكُمْ بِهِ فَقَدْ  
لِئْتُمْ فِيكُمْ عُثْرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٦].

وإذا كان الأمر كذلك فمعلوم بالتواتر أن محمداً ﷺ أعلن أنه رسول من عند  
الله جاء بما جاء به نوح إبراهيم وموسى وعيسى من الدين، وأخبر أنه لا نبي  
بعده، وأن الكتاب الذي أنزل عليه مهيمن على ما بين يديه من الكتاب، قال ذلك  
جازماً بصدق نفسه، عالماً بأن ما يأمر به عدل لا يجوز لمن أمره أن يعصيه بوجه  
من الوجوه، وهذه دعاوى عظيمة، لم يدع بشر مثلها، وفيها من الأخبار الكثيرة  
عن الغيوب المستقبلية والماضية وفيها من الشرائع الكثيرة، والسنن العامة، ثم  
وجدنا بعد سبر وفحص أن أخباره كلها يصدق بعضها بعضاً، وأن أوامره ونواهيها  
هي الطريق الأقوم وأن الكتاب الذي جاء به لا يتخلف خبره ولا يتناقض أمره،  
فكان كما قال: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنُ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا  
كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

وصدق في كل ما قال وجزم، مما يدل على أنه النبي المعصوم الذي لا  
يخبر إلا بحق ولا يأمر إلا بعدل ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ  
وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥].

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.



## دعواهم أن القرآن مختلق والرد عليها

### أم يقولون تقوله:

ولم يسلم القرآن الكريم من دعوى الاختلاق، وذلك لأنهم يعلمون أنه الدليل الواضح على نبوة محمد ﷺ، ولو فُرض أن القرآن ليس من عند الله - كما يزعمون - فلا يخلو:

إما أن يكون محمد ﷺ نفسه قد تقوله من تلقاء نفسه

وإما أن يكون قد أخذه من غيره، وفي هذه الحالة لا يخلو هذا الغير:

إما أن يكون من العرب أنفسهم أو من غيرهم، وهذا الغير لا يخلو:

إما أن يكون من أهل الكتاب أو من غيرهم من الأعاجم..

وهناك جواب إجمالي على هذا الزعم، وجواب تفصيلي لكل شبهة من تلك الشبه - إن شاء الله -، ولنبدأ بالجواب الإجمالي، قال تعالى ﴿وَقَالُوا أَتُطِيزُوا الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّكُمْ كَانُمْ عَنْفُورًا رَجِيمًا ۝﴾ [الفرقان: ٥ - ٦].

قال ابن كثير: «وهذا الكلام لسخافته وكذبه وبهته منهم يعلم كل أحد بطلانه، فإنه قد علم بالتواتر وبالضرورة أن محمداً رسول الله ﷺ لم يكن يعاني شيئاً من الكتابة، لا في أول عمره ولا في آخره، وقد نشأ بين أظهرهم من أول مولده إلى أن بعثه الله نحواً من أربعين سنة، وهم يعرفون مدخله ومخرجه، وصدقه ونزاهته، وبره وأمانته، وبُعده عن الكذب والفجور، وسائر الأخلاق الرذيلة، حتى إنهم كانوا يسمونه في صغره وإلى أن بُعث «الأمين»، لما يعلمون من صدقه وبره، فلما أكرمه الله بما أكرمه به نصبوا له العداوة، ورموه بهذه الأقوال التي يعلم كل عاقل براءته منها، وثاروا فيما يقذفونه به، فتارة من إفكهم يقولون: ساحر، وتارة يقولون: شاعر، وتارة يقولون: كذاب، وقال الله تعالى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۝﴾ [الإسراء: ٤٨] وقال تعالى في جواب ما عاندوا هاهنا وافتسروا: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّكُمْ كَانُمْ عَنْفُورًا رَجِيمًا ۝﴾ [الفرقان: ٦]: أي أنزل القرآن المشتمل على أخبار الأولين والآخرين إخباراً حقاً صدقاً، مطابقاً للواقع في الخارج، ماضياً ومستقبلاً»<sup>(١)</sup>.

(١) تفسير ابن كثير ٢٩٩/٣.

أما الجواب التفصيلي:

### الشبهة الأولى:

أن يكون محمد ﷺ قد تقوله من تلقاء نفسه:

فمن المستحيل أن يكون القرآن من تأليفه ﷺ لعدة اعتبارات، منها:

#### أولاً: حاجته لتنزل القرآن في أحوال كثيرة:

- ففي بداية البعثة حينما بدأ بالدعوة وانتظر الناس نزول قرآن فتأخر وفتّر الوحي حتى سخر المشركون من رسول الله ﷺ وقالوا إن ربه قد قلاه أي تركه وأبعده، ثم نزلت سورة الضحى.

فلو كان القرآن من عنده ﷺ لبادر إلى اختلاق بعض الآيات ليُسكت أفواه المشركين، ولو كان القرآن من رأسه ﷺ لبادر إلى تبرئة أحب الناس إليه أم المؤمنين عائشة بكلام يقطع دابر الإفك عنها<sup>(١)</sup>، ولكنه رسول الله الذي نزل عليه قوله تعالى ﴿وَلَوْ نَفَقْنَا لَمَنَّا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ﴾ [الحاقة: ٤٤].

#### ثانياً: آيات العتاب له ﷺ:

إليك بعض الأمثلة القرآنية التي اشتملت على نقد أو عتاب له ﷺ، وأحياناً ما هو فوق العتاب، وأي عاقل يقرأها سيحكم باستحالة صدور القرآن منه ﷺ.

اقرأ أول سورة التحريم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التحريم: ١].

وقوله تعالى ﴿... وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ [الأحراب: ٣٧].

وقوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣].

وقوله تعالى: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَى قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّ هُمُ الْأَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣].

وقوله تعالى: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يَشِيعَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧].

وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ﴿١﴾ وَهُوَ يَخْشَى ﴿٢﴾ فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ﴿٣﴾ كَلَّا إِنَّهَا

(١) انظر: النبأ العظيم، د. محمد دراز ص ٢٣ - ٢٤.

تَذَكُّرٌ ﴿١١﴾ [عَبَسَ: ٨ - ١١].

ولو كان ﷺ كاتباً شيئاً لكتبتم أمثال هذه الآيات، ولكنه الوحي من الله وهو رسول الله ﷺ:

﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿١٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيزٍ ﴿١٥﴾ فَأَنزِلْ نَزْلُكَ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾﴾ [التكوير: ٢٤ - ٢٧].

### آيات التحذير والتنبية:

ولو كان ﷺ كاتباً شيئاً من القرآن لكتبتم أمثال هذه الآيات في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ بِالْحَقِّ لِنَتَحَكَّمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَدَكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْعَالَمِينَ خَصِيماً ﴿١٥﴾ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهُ لَكَ إِنَّكَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً ﴿١٦﴾ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَفُونَ أَنفُسُهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّافاً أَثِيماً ﴿١٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطاً ﴿١٨﴾ هَتَأْتُهُمْ هَتُوءَآءُ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلِ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٩﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوْءًا أَوْ يَظْلِمِ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً ﴿٢٠﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴿٢١﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرَوْهَا بَرِيئاً فَقَدْ أَخْتَلَى بِهِنَّ وَلَئِنَّمَا تُبَيِّنُا ﴿٢٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّوكَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً ﴿٢٣﴾﴾ [النساء: ١٠٥ - ١١٣].

وملخص القصة أن رجلاً من الأنصار يقال له طعمة بن أبيرق سرق درعاً من جابر له يقال له قتادة بن النعمان وكانت الدرع في جراب دقيق فذهب بها إلى بيته ثم خباها عند يهودي، فالتمس أصحاب الدرع درعهم فذهبوا إلى طعمة فحلف لهم أنه لم يأخذها، ثم ذهبوا إلى اليهودي فأخرجها لهم، وقال: دفعها إلي طعمة وشهد له أناس من اليهود على ذلك، فذهب قوم طعمة وهم بنو ظفر إلى رسول الله ﷺ فكلّموه في ذلك على أن يجادل عن صاحبهم، فهم رسول الله أن يفعل حتى نزلت الآية<sup>(١)</sup>

(١) ذكرت القصة باختصار وانظر تفصيلها وسبب نزولها: فيما أخرجه الحاكم وصححه، وأقره الذهبي ٣٨٥/٤، وأسباب النزول للواحدي ص ١٨٣.

ففي هذه الآيات انتصار لليهودي بالرغم من كفره وإثبات أنه بريء من سرقة الدرع، وأنه صادق فيما قال. وفيها إثبات الخيانة على طعمة بالرغم من إسلامه وكونه من الأنصار. وفيها نهى لرسول الله ﷺ من المجادلة عن الخائنين.

تأمل من الآيات السابقة قوله: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ۝١٥٥﴾ وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ إِنَّكَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝١٥٦﴾ [النساء: ١٥٥ - ١٥٦]، وقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ﴾ [النساء: ١١٣]. وهذا كله يدل على استحالة صدور هذا القرآن منه ﷺ.

### الشبهة الثانية:

**الزعم بأنه ﷺ يتلقى علومه من مشركي العرب:**

قال د. محمد دراز: «أما أن محمداً لم يكن له مُعَلِّم من قومه الأميين فذلك ما لا شبهة فيه لأحد، ولا نحسب أحداً في حاجة إلى الاستدلال عليه بأكثر من اسم «الأمية» الذي يشهد عليهم بأنهم كانوا خرجوا من بطون أمهاتهم لا يعلمون من أمر الدين شيئاً، وكذلك اسم «الجاهلية» الذي كان أخص الألقاب بعصر العرب قبل الإسلام، فهؤلاء الذين فقدوا أساس هذا العلم في أنفسهم حتى اشتق لهم من الجهل اسم، كيف يحملون وسام التعليم فيه لغيرهم بله التعليم لمعلمهم الذي وسمهم بالجهل غير مرة في كتابه، وسرد جهالاتهم في غير سورة من هذا الكتاب، حتى قيل: إن شرك أن تعلم جهل العرب فاقراً ما بعد المائة من سورة الأنعام. ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ آلِهَةً وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ ۝١٥٠﴾ [الأنعام: ١٥٠] (١).

### الشبهة الثالثة:

**الزعم أن محمداً ﷺ يتلقى العلم عن أهل الكتاب:**

«وأما أنه لم يكن له معلم من غيرهم فحسب الباحث فيه أن نحيله على التاريخ وندعه يقلب صفحات القديم منه والحديث، والإسلامي منه والعالمي، ثم نسأله هل قرأ فيه سطوراً واحداً يقول إن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب لقي قبل إعلان نبوته فلاناً من العلماء فجلس إليه يستمع من حديثه عن علوم الدين ومن

(١) النبأ العظيم ص ٥٦.

## قصصه عن الأولين والآخرين؟

ليس علينا أن نقيم برهاناً أكبر من التحدي لإثبات أن ذلك لم يكن وإنما على الذين يزعمون غير ذلك أن يثبتوا أن ذلك قد كان فإن كان عندهم علم فليخرجوه لنا إن كانوا صادقين»<sup>(١)</sup> ثم فند الزعم بأنه أخذ من بحيرا الراهب وورقة بن نوفل كما زعم بعضهم بكلام طويل ثم قال: «فمن عرف للتاريخ حرمة، وآمن بوقائعه كما هي كانت هذه الوقائع حجة لنا عليه، ومن لم يستح أن يزيد في التاريخ حرفاً من عنده فيقول إن محمداً ضم السماع إلى اللقاء فليقل ما شاء، وليعلم أنه سيخرج لنا بهذه الزيادة تاريخاً متناقضاً يكذب أوله آخره، وآخره أوله، إذ كيف يعقل أن رجلاً رأى علامات النبوة في امرئ فبشره بها قبل وقوعها، أو آمن بها بعد وقوعها، تطاوعه نفسه أن يقف من صاحب هذه النبوة موقف المرشد المعلم! فأين يذهبون؟»<sup>(٢)</sup>

هذا من حيث التاريخ أما من حيث مضمون القرآن ومقارنته بكتب أهل الكتاب فسوف نجد من الدلائل أن القرآن له الهيمنة على كتب أهل الكتاب، ومنها الآيات التالية التي تبين الضلالات الشركية والمنكرات العملية، والجهالات الفكرية، التي كان عليها أهل الكتاب وتناولها القرآن بدقة عجيبة مثل قوله تعالى: ﴿يَتَأْخَذَ الْكِتَابَ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِدْرِهِمْ وَمَا أُنْزِلَ مِنَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ لِمَا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ٦٥].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨] وذلك لما زعموا أن الله لما خلق السموات والأرض استراح.  
وقوله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا...﴾ [البقرة: ١٠٢].  
وقوله: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيكَ سَتَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [آل عمران: ١٨١].

وقوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَقْلُوبَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُغُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ...﴾ [المائدة: ٦٤].

(١) المصدر السابق ص ٥٧.

(٢) المصدر السابق ص ٥٨.

وقوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِيُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَتَلْنَاهُمْ اللَّهُ أَفَى يَوْمَئِذٍ﴾ [التوبة: ٣٠].

وقوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوا قُلُوبَهُمْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [المائدة: ١٨].

وقوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ بَنِيَّ اسْمِعُوا لَكُمْ قَوْلَ اللَّهِ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [٧٦] لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٢ - ٧٣].

وقوله: ﴿فَمَا نَقِضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسٍ أَغْلُفًا بَلْ طَغَىٰ عَلَىٰ اللَّهِ بِكَفَرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [١٥٠] وَبِكَفَرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ هَبْنَاهَا عِظِيمًا﴾ [١٥١] وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظُّلُمِ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ [النساء: ١٥٧ - ١٥٥].

فهل ترى في هذا كله صورة أساتذة يتلقى عنهم صاحب القرآن علومه؟ أم بالعكس ترى منه معلماً يصحح لهم أغلاطهم وينعى عليهم سوء حالهم.

بل إن القرآن كشف الحالة التي كان عليها علماء أهل الكتاب، ففضح تلاعبهم بالدين، وأكلهم أموال الناس بالباطل، ودرسهم في الكتاب بما ليس منه ليشتروا به ثمناً قليلاً، وتحريفهم الكلم عن مواضعه، وإخفاءهم كثيراً مما نزل على موسى، بل فضح أخلاقهم من لبس الحق بالباطل، وكتمان الحق...

ثم نقول لمن يزعم أن محمداً كان يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ: قل لنا: ما اسم هذا المعلم؟ ... فلا تسمع إلا دعوى بدون تحديد أو تعيين، ويكون مثل مدعيها كمثل الذين يخلقون لله شركاء لا وجود لهم إلا في الوهم، فيقال له كما قيل لهم: ﴿... قُلْ سَمَوْتُمْ أَمْ نَنْتَبِهْتُمْ﴾ بما لا يعلم في الأرض أم يُظَاهِرُونَ الْقَوْلَ بَلْ زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ﴾ [الرعد: ٣٣]... بل نقول إن محمداً كان يمشي بين أظهر المشركين يصحبهم ويمسيهم، ألم يكونوا يرونه بأعينهم في حله ورحيله؟ ﴿أَمْ لَمْ

يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٦٩﴾ [المؤمنون: ٦٩] (١)

### الشبهة الرابعة:

الزعم بان محمداً يتلقى علومه من أعجمي:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾ [النحل: ١٠٣].

قال ابن كثير: «فكيف يتعلم ما جاء بهذا القرآن في فصاحته وبلاغته ومعانيه التامة الشاملة التي هي أكمل من معاني كل كتاب كيف يتعلم من رجل أعجمي؟ لا يقول هذا من له أدنى مسكة من العقل» (٢)

فمشركو العرب عنصر غائب في المعادلة لأنهم لم يكونوا أهل علم بالنبوات وغيرهم كانوا أعاجم يستحيل أن يصدر عنهم ذلك الكتاب العظيم في معناه البليغ في مبناه.

وقال رحمه الله في الآيتين التي تلي الآية السابقة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾ إِنَّمَا يَقْرَأُ الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [النحل: ١٠٤ - ١٠٥].

قال: «يخبر تعالى أنه لا يهدي من أعرض عن ذكره، وتغافل عما أنزله على رسوله، ولم يكن له قصد إلى الإيمان بما جاء من عند الله، فهذا الجنس من الناس لا يهديهم الله إلى الإيمان بآياته، وما أرسل به رسوله في الدنيا، ولهم عذاب أليم موجه في الآخرة، ثم أخبر تعالى أن رسوله ﷺ ليس بمفتر ولا كذاب، لأنه إنما يفتر الكذب على الله وعلى رسوله شرارُ الخلق، ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ من الكفرة والملحدين المعروفين بالكذب عند الناس. والرسول محمد ﷺ كان أصدق الناس وأبرهم، وأكملهم علماً وعملاً وإيماناً و يقيناً معروفاً بالصدق في قومه، ولا يشك في ذلك أحد منهم بحيث لا يُدعى بينهم إلا بالأمين محمد ﷺ» (٣).

وقال د. محمد دراز: «لقد طوعت لهم أنفسهم أن ينسبوا هذا التعليم

(١) انظر النبأ العظيم - باختصار - ص ٥٩ - ٦٣

(٢) تفسير ابن كثير ٥٨٦/٢ - ٥٨٧

(٣) المصدر السابق.

لنصراني رومي مشتغل في الحداثة، منهمك في مطرقته وسندانه عامي لا يعلم الكتاب إلا أمانى لسانه أعجمي... فيا له من منطق كان العي في موضعه خيراً لهم وأستر عليهم... لو كان لهذا الغلام أن يكون مرجعاً علمياً كما أرادوا فما الذي منعهم أن يأخذوا منه كما أخذ أصحابهم؟ وبذلك كانوا يستريحون من عنائه ويدأون من جنس دائه، بل ما منع ذلك الغلام أن يبدي للعالم صفحته فينال في التاريخ شرف الأستاذية؟ أو يتولى بنفسه تلك القيادة العالمية؟ وبأيت شعري لماذا لم ينسبوا تلك العلوم الغربية عنهم إلى أهلها من أحبار المدينة أو رهبان الشام؟ أليس ذلك أحسن تليقاً وأجود سبكاً وأدنى إلى الرواج وأبعد عن الإحالة من نسبتها إلى حداد مكة؟ أم ضاقت بهم الأرض فلم يجدوا أحداً أمثل منه ولا أعلم بالدين والتاريخ؟ تالله لو أنهم وجدوا باب التعليم الخارجي أمتع سداً من سائر الأبواب وأدخل منها في معنى المكابرة التي لا تروج لما ضيقوا على أنفسهم دائرة الاتهام حتى تورطوا في هذا المحال...

هؤلاء قوم محمد ﷺ وهم كانوا أحرص الناس على خصومته، وأدري الناس بأسفاره ورحلاته، وأحصاهم لحركاته وسكناته، قد عجزوا كما ترى أن يعقدوا صلة علمية بينه وبين أهل العلم في عصره، فما للملحدين اليوم وقد مضى نيف وثلاثة عشر قرناً انقضت فيها سوق الحوادث وجفت الأقلام وطويت الصحف، ولا يزالون يبحثون عن تلك الصلة في قممات التاريخ وفي الناحية التي أنفَ قومه أن ينبشوها؟...

ومن تتبع أنواع المجادلات التي حكاها القرآن من الطاعنين فيه رأى أن نسبتهم القرآن إلى تعليم البشر كانت هي أقل الكلمات دوراناً على ألسنتهم، وأن أكثرها وروداً في جدلهم هي نسبته إلى نفس صاحبه على اضطرابهم في تحديد تلك الحالة النفسية التي صدر عنها القرآن: أشعر هي؟ أم جنون؟ أم أضغاث أحلام؟...

فانظر؛ كم قلبوا من وجوه الرأي في هذه المسألة؟ حتى إنهم لم يقفوا عند الحدود التي يمكن افتراضها في كلام رصين كالقرآن، وفي عقل رصين كعقل صاحبه، بل ذهبوا إلى أبعد الأحوال النفسية التي يمكن أن يصدر عنها كلام العقلاء والمجانين... وإن ذلك لمن أوضح الأدلة على أنهم لم يكونوا يشيرون بهذا الوجه أو ذاك إلى تهمة محققة لها مثار في الخارج أو في اعتقادهم، وإنما أرادوا أن يدلوا



بكل الفروض والتقادير مغمضين على ما فيها من مُحال ونابٍ ونافر، ليشيروا بها غباراً من الأوهام في عيون المتطلعين إلى ضوء الحقيقة، وليلقوا بها أشواكاً من الشك في طريق السائرين إلى روض اليقين... فإن شئت أن تطلع على هذه الصورة المضحكة من البلبلة الجدلية فاقراً وصفها في القرآن: ﴿بَلْ قَالُوا أَضَلَّتْ أَعْيُنُنَا أَوْ سَمِعْنَا بَلْ أَفْتَرْنَا بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ۝﴾ [الأنبياء: ٥]، فهذه الجملة القصيرة تمثل لك بما فيها من توالي حروف الإضراب مقدار ما أصابهم من الحيرة والاضطراب في رأيهم، وتُريك من خلالها صورة شاهد الزور إذا شعر بحرج موقفه؛ كيف يتقلب ذات اليمين، وذات الشمال، وكيف تتفرق به السبل في تصحيح ما يحاوله من محال؟ ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۝﴾ [الإسراء: ٤٨]؛<sup>(١)</sup>

وبعد هذا العرض يتبين لنا كذب المنكرين لنبوته ﷺ من كل وجه وعليه فإن الوجه الثابت والحق الراسخ أنه ﷺ رسول رب العالمين لا ريب فيه، ولا حجة لمنكره.

(١) النبأ العظيم - باختصار - ص ٦٤ - ٦٩.

## المبحث الرابع

### اعتماد منهج الموازنة بين دنيه والديانات الأخرى

لا يمكنني أن أدعي التجرد في هذا الموضوع - كما يدعي المستشرقون - وأكثرهم كاذبون، ولكنني تعلمت من دين الإسلام مجموعة من الأسس التي لا يرفضها طالب هدى أو باحث عن الحق، وهي لا تتعارض بحال مع العقل الصحيح السليم فلتحاكم إليها.

#### الأسس التي تقوم عليها الموازنة:

##### ١ - إقامة العدل وتحريم الظلم:

وهذا من تعاليم القرآن التي أرشدنا إليها في التعامل مع الآخرين أياً كانوا، وهي قاعدة مقررة في أكثر من موضع من كتاب الله، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلّٰهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللّٰهُ أَوَّلَىٰ بِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِن تَلَوُّوا أَوْ نَعَرَضُوا فَقَانَ اللّٰهُ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾ [النساء: ١٣٥].

قال ابن كثير: «يأمر الله تعالى عباده المؤمنين أن يكونوا قوامين بالقسط، أي بالعدل، فلا يعدلوا عنه يميناً ولا شمالاً، ولا تأخذهم في الله لومة لائم، ولا يصرفهم عنه صارف، وأن يكونوا متعاونين متساعدين متعاضدين متناصرين، يقول: ﴿شُهَدَاءَ لِلّٰهِ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلّٰهِ﴾ أي أَدُوها ابتغاء وجه الله، فحينئذ تكون صحيحة عادلة حقاً، خالية من التحريف، والتبديل والكتمان، ولهذا قال: ﴿وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾ أي: اشهد بالحق ولو عاد ضرره عليك، وإذا سئلت عن الأمر فقل الحق فيه، ولو عاد ضرره عليك فإن الله سيجعل لمن أطاعه فرجاً ومخرجاً من كل أمر يضيق عليه... وإن كانت الشهادة على والديك وقربائك، فلا تراهم فيها بل اشهد بالحق، وإن عاد الضرر عليهم فإن الحق حاكم على كل أحد، وقوله: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَٰ أَنْ تَعْدِلُوا﴾: أي؛ لا يحملنكم الهوى والمعصية

وبغض الناس إليكم على ترك العدل في أموركم وشؤونكم، بل الزموا العدل على أي حال كان، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَيْكُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾، ومن هذا قول عبد الله بن رواحة لما بعثه رسول الله ﷺ لأهل خيبر يخرص عليهم ثمارهم وزروعهم، فأرادوا أن يزسوه ليرفق بهم فقال: «والله لقد جئتمكم من أحب الخلق إليّ، ولأنتم أبغض إليّ من أعدادكم من القردة والخنازير، وما يحملني حبي إياهم، وبغضي لكم على ألا أعدل فيكم، فقالوا: بهذا قامت السموات والأرض»<sup>(١)</sup>!

وقال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّيِمِينَ لِلّٰهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَيْكُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [المائدة: ٨].

قال ابن جرير: «يعني بذلك جل ثناؤه؛ يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله محمد، ليكن من أخلاقكم وصفاتكم القيام لله، شهداء بالعدل، في أوليائكم وأعدائكم، ولا تجوروا في أحكامكم، وأفعالكم، فتجاوزوا ما حددت لكم في أعدائكم لعداوتهم لكم»<sup>(٢)</sup>.

وقال شيخ الإسلام: «والكلام في الناس يجب أن يكون بعلم وعدل، لا بجهل وظلم»<sup>(٣)</sup>.

### العدل حق لكل أحد، والظلم محرم في كل حال:

فالعدل بخلاف الحب، والبغض، والولاء، والبراء وغيرها من الحقوق التي تصرف في أحوال معينة ولبعض الناس دون بعض، بينما العدل حق لكل إنسان مهما كانت شرعته ومنهجه، وكذلك الظلم محرم في كل حال ولا يجوز هضم حق أحد كائناً من كان، وهذا التفريق لا يدركه بعض الناس فإذا عادى أحداً ظلمه، واغتصب حقه، ووقع في عرضه، ولم يعطه حقه بدعوى أنه مخالف له أو أنه عدوه... وإذا أحب أحداً جامله وأعطاه مالا يستحقه.

قال شيخ الإسلام: «فإن العدل واجب لكل أحد، وعلى كل أحد، في كل

(١) تفسير ابن كثير ٤١٢/٢.

(٢) تفسير الطبري. ٩٥/١٠.

(٣) منهاج السنة النبوية ٣٣٧/٤.

حال، والظلم محرم مطلقاً لا يباح قط بحال قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتُوبًا قَوْمِينَ لِلّٰهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَيْكُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا اَعْدِلُوا هُوَ اَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللّٰهَ اِنَّ اللّٰهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [المائدة: ٨].

وهذه الآية نزلت بسبب بغضهم للكفار، وهو بغض مأمور به، فإذا كان البغض الذي أمر الله به قد نهى صاحبه أن يظلم من أبغضه فكيف في بغض مسلم بتأويل أو شبهة أو بهوى نفس؟ فهو أحق أن لا يظلم، بل يعدل عليه<sup>(١)</sup>، والشاهد من النقل أن العدل واجب حتى مع من نبغضه شرعاً.

وقال في موضع آخر مبيناً أهمية العدل في الكلام والأحكام: «والله يحب الكلام بعلم وعدل، ويكره الكلام بجهل وظلم... وأمر بالعدل على أعداء المسلمين»<sup>(٢)</sup>.

ولكثرة الظلم في القول خاصة، جاء النص على الأمر بالعدل فيه فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ اَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ اَشَدُّهُمُ وَاَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تَكْفُفْ نَفْسًا اِلَّا وُسْعَهَا وَاِذَا قُلْتُمْ قَاعِدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبًى وَيَعْتَدِ اللّٰهُ اَوْفُوا ذٰلِكُمْ وَصْنَكُمْ يَدِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأنعام: ١٥٢].

وقد جاء في القرآن ما يشير إلى وجوب الحذر من غلبة الطبع الإنساني الذي جبل عليه: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا اَلْاٰمَانَةَ عَلَى السَّمٰوٰتِ وَاَلْاَرْضِ وَالجِبَالِ فَأَبَيْنَ اَنْ يَّحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْاِنْسَانُ اِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب: ٧٢].

وفي ذلك إشارة إلى وجوب الحذر من دائي الظلم والجهل، وعلى الإنسان أن يحصن نفسه بالعلم وأن يوطنها على العدل.

قال شيخ الإسلام: «... والله أمرنا أن لا نقول عليه إلا الحق، وأن لا نقول عليه إلا بعلم، وأمرنا بالعدل والقسط، فلا يجوز لنا إذا قال يهودي أو نصراني فضلاً عن الرافضي قولاً فيه حق أن نتركه، أو نردّه كله، بل لا نرد إلا ما فيه من الباطل دون ما في من الحق»<sup>(٣)</sup>.

وهذا ليس تكريماً للقاتل، وإنما تكريماً للحق، والحكمة ضالة المؤمن أخذها

(١) منهاج السنة ١٢٦/٥.

(٢) الفتاوى ٩٦/١٦.

(٣) منهاج السنة النبوية ٣٤٢/٢.

أنى وجدها وهو أولى بها.

ولذلك يجب عدم جحد ومعاودة ما عند المخالف من حجج صادقة قال شيخ الإسلام:

«وليس مما أمر الله به، ورسوله، ولا مما يرتضيه عاقل؛ أن تقابل الحجج القوية بالمعاودة والجحد، بل قول الصدق. والتزام العدل لازم...»<sup>(١)</sup>.

وقال ابن القيم: «ومنشأ جميع الأخلاق السافلة من [أربعة] الجهل، والظلم، والشهوة، والغضب، فالجهل يريه الحسن في صورة القبيح، والقبيح من صورة الحسن، والكمال نقصاً، والنقص كمالاً. والظلم: يحمله على وضع الشيء في غير موضعه...»<sup>(٢)</sup>.

قال ابن القيم: «والله تعالى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق، وأمره أن يعدل بين الطوائف، ولا يتبع هوى أحد منهم، فقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْنَا اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣]»<sup>(٣)</sup>.

ولذلك نهانا الله جل وعلا عن الطغيان؛ إذ هو فساد الأديان وهذا هو الأساس الثاني:

## ٢ - تجنب الطغيان:

قال تعالى: ﴿فَاسْتَفِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّكُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [هود: ١١٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ

(١) درء تعارض العقل والنقل ٢٠٧/٩.

(٢) مدارج السالكين ٣٠٨/٢ ثم ذكر ما يحمله كل من الشهوة، والغضب، ثم قال: «ويتركب من كل خلقين من هذه الأخلاق أخلاق مذمومة، وملاك هذه الأربعة أصلان: إفراط النفس في الضعف، وإفراطها في القوة، فيتولد من إفراطها في الضعف: المهانة والبخل، والخسة واللؤم، والذل والحرص، وسفساف الأمور والأخلاق. ويتولد من إفراطها في القوة؛ الظلم، والغضب، والحدة، والفحش، والطيش...» ثم قال: «وكل خلق محمود مكتنف بخلقين ذميمين، وهو وسط بينهما، وطرفاه خلقان ذميان، كالجود؛ يكتنفه خلقاً البخل والتبذير...» مدارج السالكين ٣٠٩/٢.

(٣) مدارج السالكين ٥٢٢/٣

يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى ﴿٨٨﴾ [طه: ٨١]، وقال تعالى: ﴿أَلَا تَطْفَرُ فِي الْمِيزَانِ ﴿٨٩﴾﴾ [الرَّحْمَن: ٨]، وقال تعالى ﴿هَذَا وَكِتَابُ لِلْكَافِرِينَ لَشَرٌّ مَقَابِ ﴿٩٠﴾﴾ [ص: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ لَقِيَ ﴿٩١﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴿٩٢﴾﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٩٣﴾﴾ [التَّازِعَات: ٣٧ - ٣٩].

ومن المادة نفسها؛ «الطاغوت» وهو المعتدي كثير الطغيان، ويطلق في النصوص على؛ كل رأس في الضلال، وعلى الشيطان، وعلى الكاهن والساحر، ويطلق أيضاً على؛ كل ما عبد من دون الله وهو راض من الجن والإنس طاغوت قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٦﴾﴾ [البقرة: ٢٥٦].

فإقامة العدل وتجنب الظلم أساسان قويان من الأسس التي تقوم عليها الموازنة بين الأديان من حيث النظر في كل دين ومدى تحقيقه للعدل وبعده عن الظلم فمتى ما كان الدين قائماً بالعدل بعيداً عن الظلم عرف فضله على غيره، إذ من المستحيل أن يدعو الدين الحق إلى الظلم أو الطغيان، فهذا أمر مذموم شرعاً وعقلاً، وعليه: فنقول وبكل وضوح وصوت عال إن الشرك بالله هو أعظم الظلم، وأن عبادة غيره سبحانه هو أعظم الطغيان:

### الشرك بالله أعظم الظلم والطغيان:

الدليل على أن الشرك بالله أعظم الظلم والطغيان أن دعوة الأنبياء كلهم من لدن آدم ودعوة الرسل من لدن نوح إلى دعوة خاتم النبيين محمد ﷺ كانت إلى عبادة الله وحده لا شريك له؛ ونبذ عبادة ما سواه سبحانه، وهذا أمر مقرر في دعوة كل نبي، فنجد كل نبي يدعو قومه قائلاً: ﴿... يَنْفَقُوا أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [هود: ٥٠].

لا يشذ عن هذا الأمر واحد من المرسلين بل يستحيل أن يخرج أحدهم عن هذا الدين؛ إذ الشرك سلب لأعظم حقوق الله على العبيد، وهو توحيد الله الذي خلق السموات والأرض الذي له الملك كله وله الأمر كله، الحي الذي لا يموت لا تأخذه سنة ولا نوم، فكيف يُعبد غيره ويدعى غيره؟

ولو قيل إن المسيح عليه السلام كان إلهاً، فماذا كان يعبد نوح وإبراهيم وإسحق ويعقوب وغيرهم من الأنبياء؟ هل كانوا على ضلال؟ انظر إلى وصية لقمان لابنه: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَبْنَىٰ لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ

ولذلك نهى الله عن الغلو في الدين:

ويمكن أن يكون هذا الأمر أساساً آخر نحتكم إليه قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَدُوحٌ مِنْهُ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خِيَرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَكُمْ وَلَدٌ لَمْ يَمَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ [النساء: ١٧١].

وقال: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَصْلُوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾ [المائدة: ٧٧] قال ابن جرير الطبري في تفسيره للآية الأولى:

«لا تتجاوزوا الحق في دينكم فتفترطوا فيه، ولا تقولوا في عيسى غير الحق، فإن قولكم في عيسى: إنه ابن الله، قول منكم على الله غير الحق»<sup>(١)</sup> وأضاف عند الآية الثانية - آية المائدة - قوله:

«لا تفرطوا في القول فيها تدينون به من أمر المسيح، فتتجاوزوا فيه الحق إلى الباطل فتقولوا فيه «هو الله» أو «ابن الله»<sup>(٢)</sup> وزاد الأمر وضوحاً ابن كثير حيث لم يقصر الظلم الذي وقع فيه النصارى على المسيح عليه السلام فحسب، بل أدخل فيه غلوهم في أتباع المسيح عليه السلام فقال:

«ينهى تعالى أهل الكتاب عن الغلو والإطراء، وهذا كثير في النصارى فإنهم تجاوزوا الحد في عيسى حتى رفعوه فوق المنزلة التي أعطاه الله إياها، فنقلوه من حيز النبوة إلى أن اتخذوه إلهاً من دون الله؛ يعبدونه كما يعبدون الله. وغلّوا في أتباعه، وأشياعه، ممن زعم أنه على دينه، فادّعوا فيهم العصمة، وأتبعوهم في كل ما قالوه سواء كان حقاً أم باطلاً، ضلالاً أو رشاداً، صحيحاً أو كذباً، ولهذا قال [سبحانه]: (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله)<sup>(٣)</sup> وفي قول ابن كثير السابق على إيجازه تشخيص دقيق لحال النصارى فهم:

(١) تفسير الطبري ٤١٦/٩.

(٢) المصدر السابق ٤٨٧/١٠.

(٣) تفسير ابن كثير ٥٨٩/١ - ٥٩٠.

أولاً: نقلوا المسيح عليه السلام من حَيَزَ النبوة إلى درجة الإلهية.  
وثانياً: صدّقوا كل ما شرعه أتباعه من الرهبان وإن كان باطلاً أو ضلالاً  
فضلوا وأضلوا، وهذا ظلم وطفغان.

أما القرطبي والشوكاني فقد أضافا إلى الظلم الذي وقع فيه النصارى ظلماً من  
نوع آخر وقع فيه اليهود:  
حيث ذكروا أن المخاطب بآية ﴿قُلْ يَتَأَهَّلَ الْمُكْتَبُ لَا تَقْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ  
الْحَقِّ﴾<sup>(١)</sup>

هم: (اليهود والنصارى) على السواء من حيث جميعاً قد تجاوزوا الحد  
الشرعي، وخرجاً عن دائرة الدين باعتقادهم الظالم.  
يقول القرطبي:

«غلا اليهود في عيسى حتى قذفوا مريم، وغلا النصارى فيه حتى جعلوه رباً،  
فالإفراط والتقصير كله سيئة وكفر»<sup>(٢)</sup>.

وقد تابع الشوكاني القرطبي على هذا المعنى فقال: «النهي لهم [لأهل  
الكتاب] عن الإفراط تارة، وعن التفريط أخرى. فمن الإفراط غلو النصارى في  
عيسى حتى جعلوه إلهاً، ومن التفريط غلو اليهود فيه عليه السلام حتى جعلوه لغير  
رِشْدَةٍ»<sup>(٣)</sup><sup>(٤)</sup>.

قال الشوكاني في تفسيره للآية الثانية<sup>(٥)</sup>:

«نهاهم عن الغلو في دينهم؛ وهو المجاوزة للحد كإثبات الإلهية لعيسى  
كما يقول النصارى، أو حطه عن مرتبته العلية كما يقول اليهود فإن كل ذلك من  
الغلو المذموم وسلوك طريقة الإفراط أو التفريط، واختيارهما على طريق  
الصواب»<sup>(٦)</sup>

(١) في الآيتين السابقتين آية المائدة ٧٧، وآية النساء ١٧١.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي ١٦/٦، وانظر ١٦٢/٦ في المصدر نفسه.

(٣) تقول: هو لرِشْدَةٍ خلاف قولك: لزَيْه. انظر: الصحاح ٤٧٤/٢. ويقال: هو ولد (لرِشْدَةٍ)  
أي صحيح النسب، أو من نكاح صحيح. انظر: المعجم الوسيط ٣٤٦/١.

(٤) فتح القدير، للشوكاني ٥٤٢/١.

(٥) ﴿لَا تَقْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ [المائدة: الآية ٧٧] المائدة: ٧٧.

(٦) فتح القدير، للشوكاني ٦٥/٢.



ومن هنا تأتي الموازنة: في أي الأديان أحق بالاعتناق؛ أهو الدين الذي يسلب حق الله ويعطيه للمخلوق فيقع في الظلم العظيم؟ أم هو الدين الذي يتهم رسل الله ويصفهم بأقبح الأوصاف وأخسها فيستحق الغضب والعقاب الأليم؟ أم الدين الذي يأمر بحق الله على العبيد، فيحقق العدل بتجريد التوحيد الذي جاء به أكمل البشر؟

ولذلك كانت هذه الأمة هي الأمة الوسط، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

والتوسط والاعتدال؛ أحب الأمور إلى الله تعالى، كما ذكر ذلك الطبري، حينما علّل رحمه الله وصف الأمة بالوسطية فقال:

«وأرى أن الله تعالى ذكّره إنما وصفهم بأنهم وسط؛ لتوسطهم في الدين، فلا هم أهل غلو فيه؛ غلو النصارى الذين غلوا بالترهب، وقولهم في عيسى ما قالوه، ولا هم أهل تقصير؛ تقصير اليهود الذين بذلوا كلام الله، وقتلوا أنبياءهم، وكذبوا على ربهم، ولكنهم أهل توسط واعتدال فيه، فوصفهم الله بذلك إذ كان أحب الأمور إلى الله أوسطها»<sup>(١)</sup>

والهداية إلى هذا الطريق أحوج ما يكون إلى ابن آدم، فهو الطريق الوسط القويم، وهو صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، ولذلك أمر المسلمون أن يقرؤوا في كل ركعة من ركعات الصلاة قوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦ - ٧].

وفي ذلك يقول ابن القيم:

«ودين الله وسط بين الجافي عنه، والغالي فيه. كالوادي بين جبلين، والهدى بين ضلالتين، والوسط بين طرفين ذميمين.

فكما أن الجافي عن الأمر مضيع له، فالغالي فيه مضيع له؛ هذا بتقصيره عن الحد، وهذا بتجاوزه الحد»<sup>(٢)</sup>.

قال ابن القيم: «ما أمر الله تعالى بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان؛ إما إلى

(١) تفسير الطبري ٦/٢.

(٢) مدارج السالكين ٤٩٦/٢.

تفريط وتقصير، وإما إلى مجاوزة وغلو، ولا يبالى بأيهما ظفر<sup>(١)</sup>.  
وقد ضرب ابن القيم رحمه الله أمثلة كثيرة لتزغات إبليس الشيطانية التي أضلت كثيراً من الناس منها - ماله علاقة بموضوعنا -:  
الغلو في الأنبياء: قال ابن القيم: «قصر [أي الشيطان] بقوم [وهم اليهود] في حق الأنبياء، وورثتهم حتى قتلوهم، وتجاوز بآخرين [وهم النصارى] حتى عبدوهم»<sup>(٢)</sup>.

- الغلو في الصالحين: «وقصر بقوم حتى جفوا الشيوخ من أهل الدين والصلاح، وأعرضوا عنهم، ولم يقوموا بحقوقهم، وتجاوز بآخرين حتى عبدوهم مع الله... وقصر بقوم حتى منعهم قبول أقوال أهل العلم، والالتفات إليهم بالكلية. وتجاوز بآخرين حتى جعلوا الحلال ما حللوه، والحرام ما حرموه»<sup>(٣)</sup>.

- الغلو في المسيح عليه السلام: «وقصر باليهود في المسيح، حتى كذبوه ورموه وأمه بما برأهما الله تعالى منه، وتجاوز بالنصارى حتى جعلوه ابن الله، وجعلوه إلهاً يعبد مع الله»<sup>(٤)</sup>.

فالمقصود بالأمة الوسط هنا: أنهم خيار الناس، وخيار الناس هم: عدولهم، لأنهم أقاموا العدل، واجتنبوا الظلم؛ في حق الله، وحق أنبيائه، ولم يقعوا فيما وقعت فيه أمة الغلو وأمة الجفاء<sup>(٥)</sup>.

### ٣ - اجتنب الهوى:

وهذا هو الأساس الثالث الذي ينبغي التمسك به لإتباع الهدى فإن اتباع الهوى يُعمي ويصم، ويجعل الإنسان يأخذ من الأقوال والأعمال ما يوافق نفسه، ويرد منها ما تبغضها بقطع النظر عن الحق.

قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ يَخِرُّونَ عَلَىٰ إِنْ رَبِّكَ هُوَ أَعْلَمُ

(١) إغائة اللهفان من مصايد الشيطان لابن القيم ١١٦/١.

(٢) المصدر السابق ١١٧/١.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

(٥) انظر: تفسير الطبري ٧/٢ - ٨، وتفسير ابن كثير ١٩٠/١، وأضواء البيان، للشنقيطي ١/ ٨٧، وفتح الباري، لابن حجر، في كتاب التفسير، باب قوله: «وكذلك جعلناكم أمة وسطاً» ٢٦/٦، ١٣/٦١٣.

بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ [الأنعام: ١١٩]، وقال: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ يَتَّبِعْ هُدًى مِنْكَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠]. وقال: ﴿... وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٠].

### قاعدة في الموازنة والغرض منها:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «والحكم بين الشيئين بالتمائل أو التفاضل يستدعي معرفة كل منهما، ومعرفة ما اتصف به من الصفات التي يقع بها التماثل والتفاضل».

وقد فضل الله بعض النبيين على بعض؛  
كما قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ ذِكْرًا﴾ [الإسراء: ٥٥].  
وقال تعالى: ﴿تِلْكَ الْأَرْسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣] ومعلوم أن المرسلين يتفاضلون:

- تارة في الكتب المنزلة عليهم
  - وتارة في الآيات والمعجزات الدالة على صدقهم.
  - وتارة في الشرائع وما جاؤوا به من العلم والعمل.
  - وتارة في أممهم.
- فمن عنده علم وعدل: نظر في القرآن وفي غيره من الكتب كالطهارة والإنجيل، أو في معجزات محمد ﷺ ومعجزات غيره. أو في شريعته وشرعية غيره، أو في أمته وأمة غيره، وَجَدَ له من التفضيل على غيره ما لا يخفى إلا على مفرط في الجهل أو الظلم»<sup>(١)</sup>.
- ثم قال: «وهذا الذي ذكرنا، من اعتبار الشيء بنظرائه وموافقيه وأشباهه، واعتباره بأضداده ومخالفه، حتى يعرف في المتشابهين أيهم أكمل، وأفضل، وفي المختلفين أيهم أولى بالحق والهدى والعدل موجود في سائر الأمور علمها وعملها...»<sup>(٢)</sup>.

(١) الجواب الصحيح ١٣٢/٥ - ١٣٣.

(٢) المصدر السابق ١٤١/٥ - ١٤٢.

ثم الموازنة والنظر في مختلف الديانات تكون بناء على مدى تحقيق تلك الديانة للعدل، الذي هو أحب الأمور إلى الله تعالى، والذي هو مطلب العباد ذوي الفطر السليمة، وبمقدار ما يحقق الدين العدل الواجب الأخذ به يكون له الظهور على الأديان الأخرى.

وفيما يلي بعض الأمثلة التي تبين فضل الإسلام على غيره:

### بعض الأمثلة التي تبين فضل الإسلام على غيره

#### ١ - تحقيق العدل وتجريد التوحيد لله:

ضل كثير من الناس في اعتقادهم في الله، ولكن الأمر الخطير أن تضل أمة من أهل الكتاب؛ فإن اليهود شبهوا الخالق بالمخلوق، وقالوا عنه - تعالى -: بخيل، وفقير، وأن يده مغلولة، وأنه لما خلق العالم تعب واستراح، وأنه بكى، وناح على بعض من أهلكه من عباده... وأمثال ذلك من صفات النقص التي يتعالى الله عنها ويتقدس سبحانه، وهذه النقائص من الصفات منصوص عليها في صلب كتبهم المقدسة عندهم!!.

وأما النصارى فقد شبهوا المخلوق بالخالق فيما يختص بالخالق من صفات الكمال التي لا يوصف بها إلا هو، فجعلوا المخلوق إلهاً من دون الله وقالوا: إن المسيح هو الله، وهو ابن الله، وثالث ثلاثة، خالق كل شيء ومليكه، وهو بكل شيء عليم، وهو على كل شيء قدير، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، واتخذوا الملائكة والأنبياء أرباباً، وصوروا المسيح وأمه - عليهم السلام - والصالحين واتخذوهم شفعاء، يشفعون لهم عند الله كما يفعل عباد الأوثان.

ودين محمد رسول الله ﷺ عدل وسط؛ والمسلمون القائمون بالقسط يصفون الله بما وصف به نفسه، ووصفه به رسله، من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل، يصفونه بصفات الكمال، فيصفونه بالحياة، والعلم، والقدرة والرحمة، والعدل والإحسان، وغيرها من صفات الكمال، وينزهونه عن صفات النقص كالموت والنوم والجهل والعجز والظلم. ولا يصفون أحداً من المخلوقين بصفات الخالق بل كل ما سوى الله من الملائكة والأنبياء والصالحين وسائر الناس فقراء إليه، وهو الغني الحميد الصمد الذي يحتاج إليه كل أحد، ولا يحتاج إلى أحد، فأبي عدل وحق وهدى واستقامة أعظم من هذا.

ولقد كان هذا الوضوح والصفاء في العقيدة من أعظم أسباب إسلام كثيرين،

أذكر نموذجاً قديماً، وآخر حديثاً.

ممن أسلم قديماً: عبد الله بن الترجمان<sup>(١)</sup>؛ دار بينه وبين شيخه قبل أن يسلم - جاء فيه: «قلت: وما تقول في دين هؤلاء النصارى: فقال لي: يا ولدي لو أن النصارى أقاموا على دين عيسى الأول لكانوا على دين الله، لأن عيسى وجميع الأنبياء دينهم دين الله، ولكن بدلوا وكفروا»<sup>(٢)</sup> ودين الله الذي جاء به الأنبياء دين التوحيد.

أما ممن أسلم حديثاً؛ محمد منجورا أفريقي<sup>(٣)</sup> يقول: «لقد كان من بين أصدقائي مسلمون، وكانوا يتحدثون عن الإسلام بما يثير انتباهي فعلاً؛ مثل وحدانية الله مدللين على ذلك من القرآن بآيات منها سورة الأَخْلَاص ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝﴾ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝﴾ [الإخلاص: ٤].

وقوله: ﴿وَاللَّهُ إِلَهٌُ وَحْدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ۝﴾ [البقرة: ١٦٣].

وقوله: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَتَأْخُذُكُمْ مِنْ دُونِهِ أُولِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ

---

(١) هو انسلم تورميديا من أهالي جزيرة «ميورقة» في الأندلس، نشأ نشأة دينية متعصبة في تلك الجزيرة وهي في قبضة النصارى بعد أن كانت بين المسلمين، ولذلك كان صاحب الترجمة يقول (أضلي من مدينة ميورقة أعادها الله للإسلام)، له قصة جميلة صدر بها كتابه المذكور «تحفة الأريب» ص ٦١ - ٩١ أما اسمه بعد إسلامه فهو عبد الله بن عبد الله الترجمان، زوجه السلطان الحفصي من ابنة الشيخ محمد الصفار فانجب ولدأ سماه محمداً، لقب بالترجمان لانشغاله بالترجمة بالكتب والرسائل التي ترد على السلطان توفي بتونس سنة ٨٣٢ هـ انظر: كشف الظنون، لحاجي خليفة ٣/ ٣٦٢، ومقدمة كتاب تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب، تحقيق ودراسة عمرو وفيق الداعوق ص ٢٣ - ٣١.

(٢) تحفة الأريب ص ٦٨.

(٣) ولد في زائير، تلقفته الكنيسة الكاثوليكية، وصنعتة على عينها ليتحمل أعباء الدعوة النصرانية، وبالفعل أصبح قسيساً في الكنيسة الكاثوليكية بزائير، وذاع صيته لقوة حجته، وتأثيره، ونشاطه، وانهاالت عليه الإغراءات في الغرب فقرر أن يكون جهده المقبل في البحث العلمي في مجال (المقارنة بين الإسلام والنصرانية) لأنه موضوع الساعة، وعليه الصراع في أفريقيا وقال في نفسه: البقاء للأقوى والأصلح، وكان الرجل مائلاً للنصرانية ولكن قوة الإسلام كانت هي الأغلب والأصلح للفطرة. انظر كتاب «لماذا أسلم هؤلاء القساوسة؟» للشوادفي الباز ص ١٦٦ - ١٧٣.

لَأَقْسِمَ نَفْعًا وَلَا مَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْفَلَكُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٦﴾ [الزَّعْد: ١٦]... وغيرها من الآيات القرآنية التي تنص على الوجدانية في إصرار بين... وترد على كل من يقول بغير الوجدانية بحكمة وبلاغة.

ومنها قوله تعالى: ﴿يَصْدَحِي السَّجِينُ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَبَّحْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الَّذِينَ الْفَاسِقُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يُوسُف: ٣٩ - ٤٠] ثم يعلن [القرآن] كفر الذين قالوا بعقيدة الثلاث.

إلى جانب الحديث عن سماحة الإسلام، وما رسمه منهاجاً وخلقاً ينبعث عن عقيدة المسلم، مع ما يعزز ذلك ويحيطه من تلك القصص الرائعة... وما تملكه من قوة التأثير وبلاغة في التعبير<sup>(١)</sup>.

وقد أسلم كثيرون بسبب سماع أو قراءة آيات من القرآن ولا سيما سورة الإخلاص التي لا يزال سامعها يتأملها وتردد في رأسه وتحرك قلبه حتى يستجيب لنداء الفطرة المنبعث بفعل تلك السورة العظيمة التي تعدل ثلث القرآن<sup>(٢)</sup>.

ومن الآيات التي تآثر بها المهتدون إلى الإسلام تلك الآيات التي تثبت وحدانية الله، وتحذر من الشرك، وترد على من قال بالوهية المخلوق تأمل في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا ﴿٩٠﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا مَا آتَى الرَّحْمَنُ عِبَادًا ﴿٩٣﴾ لَقَدْ أَخَصَمْنَاهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم: ٨٨ - ٩٥].

وقوله تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِي وَسَخَّرْ سَبِّحَتُهُمْ إِلَيَّ جَمِيعًا ﴿١٧٧﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا

(١) كتاب: لماذا أسلم هؤلاء القساوسة؟ للشوادفي الباز ص ١٦٦ - ١٦٧

(٢) انظر: «مناهج المهتدين إلى الإسلام من علماء اليهودية والنصرانية في الجدل الديني حتى القرن التاسع» جامعة عين شمس، خالد عبد الرحيم، رسالة ماجستير. وانظر: قصة إسلام «يوسف إسلام» (كات ستيفنس - سابقاً) في كتاب «إسلامي» سلسلة: رجال أسلموا.

فَيَعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٧٦﴾ [النساء: ١٧٢ - ١٧٣]

## ٢ - القرآن والكتب الأخرى

### فضل القرآن على غيره من الكتب الأخرى:

لن أخوض في مجال الإعجاز إذ لا مقارنة بين القرآن وغيره، وسبق الحديث عن الإعجاز في مبحث مستقل، ولكنني سادع الحديث لأحد المهتمين إلى الإسلام - قديماً -، وهو علي بن ربن الطبري<sup>(١)</sup>.

لننظر كيف تحدث عن المعاني العظيمة التي اشتمل عليها القرآن ولم يجدها في غيره ألبتة، قال:

«لا يوجد عند العرب والعجم والهند والروم... كتاب جمع من التوحيد، والتهليل، والثناء على الله عز وجل، والتصديق بالرسول والأنبياء، والحث على الصالحات الباقيات، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والترغيب في الجنة والتزهيد في النار، مثل هذا القرآن منذ كانت الدنيا، فمن جاءنا بكتاب هذه نسبته ونعته، وله من القلوب هذا المحل والجلالة والحلاوة ومعه هذا النصر واليمن والغلبة، وكان صاحبه الذي نزل عليه أمياً لم يعرف الكتابة والبلاغة قط، فهو من آيات النبوة لا شك فيه ولا مرية...»

إنني رأيت جميع الكتب المخلدة لا تعدو أن تكون إما في آداب الدنيا وأخبار أهلها، وإما في الدين.

فأما كتب الآداب والفلسفات والطب فإن غرضها ومغزاها غير هذا الغرض، ولن تذكر مع كتب التنزيل.

وأما ما كان منها في الدين فأول مسمياتها وموجوداتها التوراة التي في أيدي أهل الكتاب. ونجد عامتها في أنساب بني إسرائيل ومسيرها من مصر وحطها

---

(١) سبقت ترجمته ص ١١٩، كان نصرانياً فأسلم، ومما لم أذكره هناك لمناسبته هنا قوله: «وما زلت وأنا نصراني أقول، ويقول عم لي كان من علماء القوم وبلغائهم إن البلاغات ليست من آيات النبوة لأنها مشتركة في الأمم كلها، حتى إذا اعتزلت التقليد والإلف وفارقت لزاوة العادة والتربية، وتدبرت معاني القرآن علمت أن الأمر فيه كما قال أهله» الدين والدولة في إثبات نبوة النبي محمد ﷺ ص ٩٨.

وترحالها وأسماء المنازل التي نزلوها، وفيها مع ذلك سنن وشرائع... يعجز عنها  
حَوْل الرجال وطاقَتُهُم...

وأما الإنجيل الذي في أيدي النصارى فإن جلّه خبر المسيح ومولده  
وتصرفه... وليس فيها من السنن والشرائع والأخبار إلا اليسير القليل.

وأما كتاب الزبور ففيه أخبار وتسابيح ومزامير... وليس فيها شيء من السنن  
والشرائع.

فأما القرآن... منسوج بالتوحيد، والتهليل، والتحاميد، والسنن والشرائع،  
والخبر والأثر، والوعد والوعيد، والرغبة والرغبة، والنبوات والبشارات؛ بالأمر  
الجميلة التي تليق بجلال الله وحكمته، وطوله، وبسط الأمل بالغفران والرفقة، وقبول  
التوبة، والمعاني التي ترتاح لها الأنفس، وتستريح إليها الآمال فلا تقنط. بل يقول  
الله فيه: ﴿... فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ١٧٣﴾  
[البقرة: ١٧٣]، ويقول: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَجَسَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ  
فَأَسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا أَنْ يَنْصَحُوا عَلَيْهِمْ وَأَنْ يَنْصَحُوا لَهُمْ يَنْصَحُوا ١٣٥﴾ [آل عمران: ١٣٥] ويقول: ﴿قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ أَشْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا  
مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُمْ هُمُ الْغَافُرُونَ الرَّحِيمُ ٥٣﴾ [الزمر: ٥٣].

ولذلك استحق أن يقال: إن هذا الكتاب آية من آيات النبوة إذ لم يكن له  
نظير مذ خُلِقَ الخلق وُحِطَ فِي الرُّقِّ<sup>(١)</sup>.

ثم قال: «وإنه ليشتمل على فضائل أخرى باهرة ذات أنوار وأسرار وهي: إن  
تلك الكتب، بل هذه التي للحكماء خاصة، إنما ألفها قوم أدباء علماء بعد تفكير  
وارتياض، ويعد أن نشؤوا في المدن وسمعوا الأخبار وناقسوا العلماء. فأما  
النبي ﷺ فلم يكن ذلك، بل أمي لم يسمع من مصري ولا رومي ولا هندي ولا  
فارسي، ولا اختلف إلى مجالس الأدباء لطلب أدب وقراءة كتاب، وجاء بكلام بهر  
أهل اللغة وغمر أهل الفصاحة والسلطة، وخضعت له رقاب الأمة: ﴿أَمْ يَقُولُونَ  
أَفَرَأَيْنَاهُ قُلُوبًا يَفْتَرُونَ سُوْرَ مِثْلِهِ مُفْتَرِينَ وَادْعُوا مِنْ أَسْطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ  
صَادِقِينَ ١٣﴾ [هود: ١٣].

وقال: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا

(١) انظر: الدين والدولة - وباختصار - ص ٩٨ - ١٠٦.



شَهِدَاءَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ [البقرة: ٢٣].

فما كان في القوم من تزمزم ونطق، بل بصبصوا وأذعنوا ودانوا. وقد يحتج علماء أهل الذمة بأن النبي عليه السلام كان أمياً وأن الله لا يبخل على أنبيائه برسم الكتابة... والجواب فيه: أن الله تعالى خص كلاً منهم بما رأى جل وعز، فمنهم الخطيب البارع مثل داوود، ومنهم التمتام والألثغ مثل موسى، ومنهم من أحيا الميت دون غيره، ومنهم من فلق البحر، وفجر من الصخر ينابيع المياه، ولم يعط ذلك غيره. ومنهم حكيم كاتب مثل سليمان، ومنهم أمي مثل داوود... فلم يُزِر ذلك به كما أنه لم يُزِر بالمسيح ألا يكون ملاعب الأسنة أو من رماة الحدق أو لا يكون ماسحاً ولا مهندساً. وكما أنه لم يُزِر بموسى ألا يكون لسنأ خطيباً أو ماشياً على الهواء ولا يكون أبرأ الأكمه والأبرص، وإن لم يزِر به وبداوود ونظرائهما عليهم السلام أن لا يكون الله رفعهما إلى السماء كما رفع غيرهما [يقصد المسيح ومحمد]، فليس لقائل أن يقول بخل على فلان النبي بما جاد به لفلان النبي بل قائل ذلك معاند مارد...

وكذلك النبي ﷺ لم يشنه أنه أمي مثل داوود، بل جعل الله ذلك آية باهرة وحجة على من كفر به من قومه، إذ كان قد صح عند الأمم وأهل الذمة أنه لم يجيئوا بهذا القرآن بفضل بيان أو حكمة أرضية. ولقد كان عليه السلام موجزاً في كلامه، نزوراً يذم المكثار المهذار ويترسل في القول... فالأمية التي عابه بها أهل الذمة غير مزرية به ﷺ ولا عاتبة بل حجة وبرهان منير. فلو جاء بمثل هذا الكتاب الذي قد وصفته رجل أديب خطيب لكان كذلك آية من الآيات، فكيف إذا جاء به رجل أمي؟؟؟ فإن ذلك يشهد له أن الله أنطقه، وروح القدس سدده له، وأعانه عليه<sup>(١)</sup>.

قال ابن كثير في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَن قُرْآنًا سُرَّتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمٌ بِهِ الْمَوْتُ بَلِ اللَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً أَفَلَمْ يَأْتِيسَ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعاً وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْوَعْدَ ﴿٣١﴾﴾ [الزمر: ٣١].

«يقول - تعالى - مادحاً للقرآن الذي أنزله الله على محمد ﷺ ومفضلاً له على

(١) الدين والدولة - باختصار - ص ٩٨ - ١٠٧.

سائر الكتب المنزلة قبله (ولو أن قرآنا سيرت به الجبال) أي: لو كان في الكتب الماضية كتاب تسير به الجبال عن أماكنها، أو تقطع به الأرض وتنشق، أو تكلم به الموتى في قبورها، لكان هذا القرآن هو المتصف بذلك دون غيره، أو بطريق الأولى أن يكون كذلك لما فيه من الإعجاز الذي لا يستطيع الإنس والجن عن آخرهم إذا اجتمعوا أن يأتوا بمثله، ولا بسورة من مثله، ومع هذا فهؤلاء المشركون كافرون به جاحدون له<sup>(١)</sup>.

ولا نقول إن القرآن لم يقف في وجهه معارضون حاولوا الطعن فيه، ولكن مكرهم عاد عليهم بخسارة مضاعفة؛ إذ كلما طعن فيه الطاعنون ظهرت وجوه أخرى من وجوه عظمة هذا الكتاب الكريم، وفي ذلك قال ابن تيمية «من أعظم أسباب ظهور الإيمان والدين، وبيان حقيقة أنباء المرسلين، ظهور المعارضين لهم من أهل الإفك المبين... وذلك أن الحق إذا جحد وعورض بالشبهات، أقام الله تعالى له مما يحق به الحق ويبطل به الباطل من الآيات البينات بما يظهره من الأدلة والبراهين الواضحة وفساد ما عارضه من الحجج الداحضة.

فالقرآن لما كذب به المشركون، واجتهدوا في إبطاله بكل طريق مع أنه تحداهم بالإتيان بمثله، ثم الإتيان بعشر سور، ثم الإتيان بسورة واحدة، كان ذلك مما ذل ذوي الألباب على عجزهم عن المعارضة، مع شدة الاجتهاد وقوة الأسباب، ولو اتبعوه من غير معارضة وإصرار على التبطيل لم يظهر عجزهم عن معارضته التي بها يتم الدليل<sup>(٢)</sup>.

وقال رحمه الله: «نفس ما أخبر به القرآن في باب توحيد الله وأسمائه وصفاته أمر عجيب خارق للعادة، لم يوجد مثله في كلام بشر لا نبي ولا غير نبي. وكذلك ما أخبر به عن الملائكة، والعرش، والكرسي، والجن، وخلق آدم، وغير ذلك، ونفس ما أخبر به القرآن من الدين، والشرائع كذلك، ونفس ما أخبر به من الأمثال. هو أيضاً كذلك.

ومن تدبر ما صنفه جميع العقلاء في العلوم الإلهية، والخلقية، والسياسية، وجد بينه وبين ما جاء في الكتب الإلهية؛ التوراة والإنجيل والزبور وصحف الأنبياء

(١) تفسير ابن كثير ٣٨١/٤ - ٣٨٣.

(٢) الجواب الصحيح ٨٦/١.

وجد بين ذلك وبين القرآن من التفاوت أعظم مما بين لفظه ونظمه، وبين سائر ألفاظ العرب ونظمهم...

فكيف وليس في التوراة والإنجيل مماثلاً لمعاني القرآن؛ لا في الحقيقة، ولا في الكيفية، ولا الكمية؟ بل يظهر التفاوت لكل من تدبر القرآن وتدبر الكتب.<sup>(١)</sup> وقد جاء في القرآن من القصص ما لا يوجد في التوراة والإنجيل مثل قصة هود وصالح وشعيب وغير ذلك.

وفي القرآن من ذكر المعاد وتفصيله ووصف الجنة والنار والنعيم والعذاب ما لا يوجد مثله في التوراة والإنجيل، بل التوراة ليس فيها تصريح بذكر المعاد وعامة ما فيها من الوعد والوعيد، فهو في الدنيا كالوعد بالنصر والرزق والعاقبة، والوعيد بالقحط والأمراض والأعداء، وإن كان ذكر المعاد موجوداً في غير التوراة من النبوات، ولهذا كان أهل الكتاب يقرون بالمعاد وقيام القيامة الكبرى<sup>(٢)</sup>.

وقال الألوسي في ظهور القرآن على غيره من الكتب: «والمنصف غني عن إثبات مزية القرآن العظيم على غيره... فإن معاني القرآن غير محدودة، وعلومه ليست بمحصورة ولا معدودة، فقد اتسع مجاله في كل فن... حتى يصح أن يقال إنه لم يبق علماً من علوم الأوائل والآخر إلا صرح به، أو أشار إليه على أساليب متنوعة وطرائق مبتدعة، لم يقع فيه تناقض، ولم يتخلله تضارب... ومع ذلك فهو من العقول مستحسن، وفي النفوس مستملح، وفي الأذواق مستعذب، وفي القلوب محبوب»<sup>(٣)</sup>. وهذا كله لا يوجد في غيره من الكتب

### ٣ - مصادر الإسلام محفوظة:

لم تمتد يد التحريف إلى مصادر المسلمين، واستمر حفظ الله للذكر إلى يومنا هذا كما جاء الوعد الإلهي بذلك: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

(١) الجواب الصحيح ٤٣٤/٥ - ٤٣٥.

(٢) انظر: الجواب الصحيح ٧٩/٢، واليهودية، د. شلبي - سلسلة مقارنة الأديان - ص ١٩٨ - ٢٠٠. حيث تخلو التوراة الحالية من التصريح بالثواب والعقاب في الآخرة مما يدل على وقوع التحريف. انظر: إقرار ابن كمونة اليهودي بذلك في كتابه «تنقيح الأبحاث للملل الثلاث» ص ٤٠. وذكر أن ذلك لا يضر!!.

(٣) الدلائل العقلية، محمود شكري الألوسي - مخطوط - ل ١١.

وسمي «القرآن» بهذا الاسم لكونه مقروءاً متلوّاً بالأسنة، وسمي «الكتاب» بهذا الاسم لكونه مدوناً مكتوباً بالأقلام في الكتب، فهما تسميتان من تسمية الشيء بالمعنى الواقع عليه.

فالقرآن لا يزال بحمد الله مقروءاً متلوّاً منذ أن جاء جبريل بالوحي إلى يومنا هذا كما جاء به، وهو كذلك لا يزال محفوظاً في السطور، وحفظه قراءةً مطابق تماماً لحفظه كتابةً.

فلا يؤخذ بحفظ حافظ حتى يوافق الرسم المجمع عليه من القراء المنقول إلينا جيلاً بعد جيل على هيئته التي وضع عليها أول مرة ولا ثقة لنا بكتابة كاتب حتى يوافق ما عند الحفاظ بالإسناد الصحيح المتواتر.

والقرآن لم يصبه - بحفظ الله وإنجازاً لوعده - ما أصاب الكتب الماضية من التحريف والتبديل وانقطاع السند... والسرف في هذا «أن سائر الكتب السماوية جئ بها على التوقيت لا للتأييد، وأن هذا القرآن جئ به مصداقاً لما بين يديه من الكتب ومهيماً عليها، فكان جامعاً لما فيها من الحقائق الثابتة زائداً عليها بما شاء الله زيادته، وكان ساداً مسدها ولم يكن شيء منها ليسد مسده، ففضى الله أن يبقى حجةً إلى قيام الساعة وإذا قضى الله أمراً يشر له أسبابه وهو الحكيم العليم»<sup>(١)</sup>.

قال الألوسي: «ولما كان القرآن العظيم شريعة نبينا محمد ﷺ ومأخذ الأحكام الإلهية، كما كان أعظم معجزة وأظهر دليل وبرهان على نبوته ورسالته لم يمكن أن يعتري هذه الشريعة نقص ولا تحريف ولا تبديل ولا تغيير، كما اعتري شرائع من قبله من الرسل والأنبياء - صلوات الله عليهم أجمعين -.

فإن كلام البشر لا يلتئم مع الكلام المعجز الخارج عن طوقهم، والعيان أعدل شاهد على ذلك، ألا ترى أن أحداً لا يمكنه أن يزيد حرفاً أو ينقصه فضلاً عن كلمة في آية من آيات الله تعالى فإذا فعل ذلك ثم تلا بين ملاً من المسلمين ردوا عليه قراءته، وأنكروا أشد الإنكار، ولم يقبلوا منه سوى ما تواتر من القراءات المأثورة....

أما كتب سائر الأنبياء والرسل - عليهم الصلاة والسلام - فلا تكن بهذه المنزلة ولا بهذه المثابة، فإنها إما أحكام وقصص، وإما سير وأمثال، وإما أدعية وأذكار

---

(١) النبأ العظيم؛ د. محمد دراز ص ١٤.

ونحو ذلك ، والمعجزة شيء آخر كالعصا وقلق البحر لموسى - عليه السلام - ، وإحياء الموتى ، وإبراء الأعمى والأبرص لعيسى عليه السلام ، ولما لم تكن تلك الكتب معجزة أمكن للبشر التصرف فيها وخلط كلامهم بكلامها ، ونقصها والزيادة عليها ، كما وقع ذلك في التوراة والإنجيل والزبور وغيرها ، وقد بين ذلك المتقدمون من العلماء والمتأخرون بكتب مبسطة وبراهين قطعية<sup>(١)</sup> .

وقال : «فكان محمداً ﷺ موجود كل عصر بين أظهرنا ، والوحي غير منقطع منا... يذكر الناس بصحة نبوته في سائر الأقطار... والشرعة المحمدية في كل عصر من الأعصار غضة طرية تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها لم يعتري ما اعتري سائر الشرائع لما اختصت به من الخصائص والأسرار التي أودعت فيها ، فكما أن في زمن حياة محمد ﷺ وأيام بعثته لم تمس الحاجة إلى إرسال رسول آخر كذلك في القرون التي بعده لا حاجة إلى رسول آخر وتشريع شريعة أخرى ، فالقرآن العظيم كلما يتلى تلاوة على وجهه كأن السامع يسمعه من رسول الله ﷺ ففائدة البعثة لم تزل موجودة ثابتة ، وهي دعوة الخلق إلى الحق وإرشادهم إلى مصالح المعاش والمعاد ، وإعلامهم بالأمور التي تعجز عنها عقولهم ، وتقرير الحجج القاطعة وإزاحة الشبه الباطلة»<sup>(٢)</sup> .

### أما حفظ الوحي الثاني وهي السنة:

فيكفي أن أقول جازماً إن طريق وصولها إلينا أقوى وأسلم وأصح من أي كتاب آخر على وجه الأرض غير القرآن ؛ فقد هيا الله لها الجهابذة الحفاظ الذين أفنوا حياتهم وضحوا بأعمارهم في سبيل الذب عن سنة المصطفى - صلى الله عليه وسلم - وحفظها والعناية بها ، حتى اختصت هذه الأمة بعلمي ؛ المصطلح ، وعلم الرجال ، وأصبح الإسناد واحداً من ركائز العلوم الإسلامية صيانةً للحديث الشريف ، وليس هناك من سبيل لإقناع من يطعن في السنة إلا أن نقول له ؛ الحكم على الشيء فرع عن تصوره ، فلو علم هؤلاء جهود المحدثين في حفظ السنة لما أقدموا على الطعن فيها أو الغضن من مكانتها

ولم يزل حماة هذا الدين من علماء الإسلام ينافحون عن سنة المصطفى : رداً

(١) الدلائل العقلية ، الألوسي - مخطوط - ل ٧٠ .

(٢) المصدر السابق ل ٨ .

على من ينكر الاحتجاج بالسنة، ودحضاً لشبهات المشككين فيها: بدءاً بمن يرى أن خبر الواحد ظني الثبوت، وانتهاءً بمن يقف عند النص القرآني ولا يعد السنة شيئاً، وقد تصدى أولئك العلماء لشبه المتشككين بالأدلة الدامغة والحجج الباهرة والتي أزال كل شبهة ورفعت كل ريبة وطردت أي شك يحوم حول السنة. ولكني أؤكد على قضية؛ وهي أن الذي يشكك في رواية الحديث أو في الأسانيد من المرجفين في القديم والحديث يرمون شبههم جزافاً دون سابق نظر أو علم بل إنهم على جهل عظيم بنبيهم وهديه، فلذلك أرى أن من أهم الأدلة التي ينبغي أن يُعَوَّلَ عليها في الرد على أصحاب الأهواء؛ هو توجيه نظرهم إلى السياج النولاذي الذي ضربه المحدثون في وجه المرويات المكذوبة أو الأحاديث الضعيفة، بحيث لا يُحكم على حديث بالصحة أو الحسن إلا بعد شروط قاسية يجب استيفاؤها لقبول الحديث، ومن أبرز الأمثلة على ذلك صنيع الإمام البخاري - رحمه الله - في صحيحه، والشروط التي اشترطها العلماء للحديث الصحيح، كما تُوجه أنظار هؤلاء إلى الجدار الحديدي الذي بناه المحدثون أمام رواية الأحاديث، فتراهم لا يُجيزون راوياً عندهم ولا يحكمون له بالعدالة والضبط إلا بعد التمهيص والتدقيق والاختبار لمروياته، وعرضها على مرويات الثقات الآخرين، ليُعلم مدى ضبطه وحفظه.. ومن هنا أطالب كل من يتكلم في السنة بلا علم أن يقف على جهود العلماء فيها<sup>(١)</sup>.

---

(١) ومنهم على سبيل المثال الحافظ المزي ت ٧٤٢هـ وخاصة في كتابيه؛ ١ - (تهذيب الكمال) الذي وصفه ابن السبكي قائلاً: «أجمع على أنه لم يُصنَّف مثله ولا يُستطاع». راجع مقدمة تهذيب التهذيب لابن حجر ٢/١. وكتابه الآخر: ٢ - (تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف) فهذان نموذجان يقف أمامهما الباحث مبهوراً بتلك العناية الفائقة والدقة المتناهية في البحث.

وَمَثَلُ هَؤُلَاءِ الطَّاعِنِينَ فِي السَّنَةِ كَمَثَلٍ مَنْ يَتَتَبَعُ لِّلْمَرِيضِ الْمَتَأَلِّمِ الْمُتَوَجِّعِ وَيُورِدُ عَلَيْهِ شَبْهًا مُخْتَلَفَةً غَايَتَهَا أَنْ يَقُولَ لَهُ إِنَّكَ تَدَّعِي الْمَرَضَ وَلَيْسَ بِكَ مَرَضٌ!! لِأَنِّي لَمْ أَجِدْ مَا وَجَدْتَهُ، وَلَا أَحْسَنَ بِالْمَلِكِ الَّذِي تَحْسَنُ بِهِ!! وَلَوْ كَانَ حَقًّا لَاشْتَرَكْتَ أَنَا وَأَنْتَ فِيهِ!! وَمَا أَحْسَنَ مَا قِيلَ:

أَقُولُ لِلْأَتَمِّ الْمَهْدِيِّ مَلَامَتَهُ ذِقِ الْهَوَى وَإِنْ اسْتَطَعْتَ الْمَلَامَ لَمْ .  
 هذا وقد عقد ابن القيم فصلاً في الصواعق المرسلة في الاحتجاج بالأحاديث النبوية على الصفات... وذكر فيه عشرة مقامات، ومنها المقام السابع «بيان كون الشيء قطعياً =

#### ٤ - المقارنة من حيث عموم نفع الرسالة وخيرها:

لا شك أن النفع الحاصل من دعوة محمد ﷺ أعظم بكثير مما حصل قبله؛ إذ كانت دعوة الأنبياء قبله مخصصة بأقوام معينين أما دعوته ﷺ فكانت دعوة عامة للناس أجمعين فشمّل خيرها العالمين.

ومن الجائز أن تنتشر دعوة ما ولكنها تكون دعوة إلى باطل فيظهر أثرها سيئاً في الناس، ومن الممكن أن تكون دعوة حسنة المقصد ولكنها إلى ضلال - كالرهبانية مثلاً - فهذه دعوة بدعية يترتب عليها عواقب سيئة لمخالفتها للفترة. لكن دعوته ﷺ كانت دعوة مباركة من كل جهة فكان أثرها مباركاً أينما كان.

قال الألوسي: «إن ما ترتب على بعثة محمد ﷺ من الفوائد والثمرات في العالم المدني أعظم من غيره، وأجل، وأكثر، وذلك أن [هدي] الرسول ﷺ هو الذي عالج الأرواح البشرية ونقلها من الاشتغال بغير الله إلى الاشتغال بعبادته، فكلما كان المقصود من الرسالة والنبوة هو هذا المعنى وكلما كان صدور هذه الفوائد عنه أكثر وأكمل وَجَبَ القطعُ أن رسالته أعظم وأكمل.

إذا عرفت هذا فنقول: إن تأثير دعوة موسى - عليه السلام - كانت مقصورة على بني إسرائيل فقط، وأما دعوة عيسى - عليه السلام - فكانه لم يظهر لها تأثير إلا في أقل قليل، وذلك لأننا نقطع بأنه ما دعا إلى الدين الذي يقول به هؤلاء النصراني؛ لأن القول بالآب والابن والتثليث أقبح أنواع الكفر وأفحش أقسام الجهل، ومثل هذا لا يليق بأجهل الناس فضلاً عن الرسول المعظم المعصوم... فعَلِمْنَا أنه ما كانت دعوته ألبتة إلى هذا الدين الخبيث، وإنما كانت دعوته إلى التوحيد والتنزيه ثم إن تلك الدعوة ما ظهرت ألبتة، بل بقيت مطوية غير مروية، فثبت أنه لم يظهر لدعوته إلى الحق أثر ألبتة.

أما دعوة محمد ﷺ إلى التوحيد والتنزيه فقد وصلت إلى أكثر بلاد المعمورة، والناس قبل وصوله كانوا على الأديان الباطلة، فعبدوا الأصنام كانوا

---

= أو ظنياً أمرٌ نسبيّ إضافي... فهذه الأخبار تفيد العلم [أي اليقين] عند من له عناية بمعرفة ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم... دون غيرهم» مختصر الصواعق ٢/٣٣٣ فيجب حينئذ الرجوع إلى المحدثين لمعرفة ثبوت الحديث من عدمه كما نعود لأهل كل مهنة في صناعتهم، ولكل فن أهله ورجاله.

مشتغلين بعبادة الحجر والخشب، واليهود كانوا في دين التشبيه وصنعة التزوير، وترويج الأكاذيب، وغير ذلك من المفاصد، والمجوس كانوا في عبادة إلهين، ونكاح الأمهات والبنات، والتصارى كانوا في التثليث، والصابئة كانوا في عبادة الكواكب، فكان أهل العالم معرضين عن الدين الحق.

فلما أرسل الله محمداً ﷺ إلى هذا العالم بطلت الأديان الخبيثة، وزالت المقالات الفاسدة، وطلعت شمس التوحيد، وأقمار التنزيه من قلب كل أحد وانتشرت تلك الأنوار في بلاد العالم.

فثبت أن تأثير دين محمد ﷺ في علاج القلوب المريضة، والنفوس الظلمانية كان أتم، وأكمل، من تأثير دعوة سائر الأنبياء، فوجب القطع بأنه أفضل من جميع الأنبياء والمرسلين، في كل ما يتعلق بالنبوة، والرسالة، وهذا برهان ظاهر من باب البرهان الكمي فإنا بحثنا عن حقيقة النبوة والرسالة ثم بينا أن كمال تلك الماهية ما حصلت لأحد من الأنبياء كما حصلت لمحمد ﷺ<sup>(١)</sup>.

## ٥ - نماذج مختصرة من فضائل الإسلام على غيره في باب العقائد وشعائر الإسلام الكبرى وآدابه:

فضائل الإسلام كثيرة ولولا خشية الإطالة لفصلت في كثير منها، ولكنني أحاول أن أذكر بعضها على سبيل الاختصار:

### أولاً: في باب العقائد:

العقيدة الإسلامية واضحة الأركان، موافقة لفطرة الإنسان، بعيدة عن التناقض والفلسفات، بعيدة عن مناقضة العقل، بل تدل البراهين العقلية على صحتها. وعلى رأس العقائد الإسلامية:

### الإيمان بالله:

ويشمل الإيمان بالله ثلاثة أنواع من أنواع التوحيد:

١ - توحيد الربوبية؛ بالاعتقاد الجازم بأن الله وحده متصف الربوبية من «الخلق» و«الرزق»، و«الملك»، و«التقدير»، و«التدبير»، و«الإحياء والإماتة»، و«جلب النفع»، و«دفع الضرر»، و«تسخير الأرض»، والشمس والقمر والشجر،

---

(١) الدلائل العقلية، محمود شكري الألوسي - مخطوط - ٧٧ - ٨.



والدواب للناس»، و«إجابة الدعاء»، و«الشواب، والعقاب، والجزاء»، و«علم الغيب»، و«هداية التوفيق والإلهام» وغير ذلك من صفات ربوبيته، والتي تجعل العبد المنعم عليه يتوجه في دعائه وسائر عبادته إلى خالقه، ورازقه، ومالكه، ومدبر أمره محييه، ومميته... أما غيره - سبحانه - فلا يملك من ذلك من شيء، وليس بشريك لله في شيء، قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾ [يونس: ٣١].

٢ - وتوحيد الألوهية، بإفراد الله وحده لا شريك له بالعبادة ونبذ عبادة ما سواه، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْتَّيْنِ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٨]. وقال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴿١٩﴾﴾ [محمد: ١٩].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٩﴾ لَا شَرِيكَ لِي وَلِذَلِكَ أُتِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣]. وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُمَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿١٣١﴾﴾ [البقرة: ١٦٣].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَكُمْ تَتَقُونَ ﴿٢٢﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [البقرة: ٢١ - ٢٢].

٣ - توحيد الأسماء والصفات؛ بإثبات ما أثبتته الله لنفسه وما أثبتته له رسوله من الأسماء الحسنى، ومن صفات الكمال من غير تشبيه ولا تمثيل ولا تحريف ولا تأويل ولا تعطيل، وتنزيهه عن صفات النقص، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف: ١٨٠].

وقال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١١﴾﴾ [الشورى: ١١١].

وهذا الوضوح في العقيدة والصفاء في التوحيد عند المسلمين يجعل المسلم

منهم يسير على هدى من الله؛ فلا أرباب مختلفون تشتت عليه شمله، ولا آلهة متشاكسون تفتت عليه قلبه، ولا تشبه عليه صفات الخالق بال مخلوق: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعِ اللَّهَ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١].

ومنها: الإيمان بالملائكة؛ ولم يسلم دين من الأديان الباطلة من العقائد الفاسدة في الملائكة، فمنهم من يقول: إنهم بنات الله، ومنهم من يقول إنهم إناث، ومنهم من يعاديهم ويلعنهم. أما دين الإسلام فيقرر أنهم عباد مكرمون، من نور مخلوقون، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

ومنها: الإيمان باليوم الآخر؛ ففي هذا الركن من التفصيل والتقرير والبيان ما لو نظر إليه الناظر بالمقارنة مع ما جاء في سائر الأديان لتبين له فضل دين الإسلام على غيره بدرجات عظيمة، فليس في الأديان الأخرى ما في الإسلام من الوضوح والاستدلال والإقناع كما هو الشأن في الإسلام. وقد جاء إثبات البعث بعد الموت في القرآن بدلائل متنوعة؛ عقلية وحسية في غاية البراعة والقوة، وللإيمان بهذا الركن العظيم أثر كبير في الحض على العمل الصالح، والتشويق إلى بذل النفس والمال في سبيل الله، والتخويف من الوقوع في المعاصي والآثام، ولذلك تكرر ذكره كثيراً في القرآن وبأساليب مؤثرة، تجعل المؤمن لا ييخل بمثقال ذرة من خير لأنه يعلم أن الله سيجزيه بها خير الجزاء، ويخشى من مثقال ذرة من إثم لأنه يعلم أن الله سيحاسبه عليها يوم القيامة، قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [٧] وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ [٨] [الزلزلة: ٧ - ٨] وانظر إلى قوله تعالى في التشويق إلى الجنة: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

والعجيب أن اليهودية لا تُلقي بالاً لهذا الركن العظيم مطلقاً، ولا يكاد يكون له ذكر في كتابهم المقدس، ولذلك لا نتعجب إذا كانوا أحرص الناس على حياة!! أما أن يكون مصير الإنسان مرهوناً بيد البابا أو رجال الكنيسة ففي هذا أعظم إهانة للجنس الإنساني والخط من كرامته، فالذي خلق الخلق هو الذي يحاسبهم.

## ثانياً: شعائر الإسلام:

يأتي على رأس شعائر الإسلام الكبرى «أركان الإسلام الخمسة» (الشهادتان، والصلاة، والزكاة، والصيام، والحج)، ولكن من الصعب الوقوف عند كل واحدة منها لبيان ما فيها من الفضائل على غيرها، ولكن يمكن القول بإيجاز مخل تحمل

عليه ضرورة البحث: إن فيها من مظاهر الكمال - ظاهراً وباطناً - ما يجعل المتمسك بها عبداً حقاً لله، وفيها من الأوصاف التفصيلية ما يجعلها بعيدة كل البعد عن الابتداع: فالعبادات في الإسلام معلومة الكيفية والكمية، ليست متروكة لرجال الدين من الأحرار والرهبان ليقولوا على الله بغير علم.

وللعبادات في الإسلام ثمرات عظيمة في إصلاح النفوس: فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، والصيام يطهر النفس من الآثام ويفطمها عن الشهوات، والزكاة تعالج شح النفوس، وتزكي المال والقلب،

ولا تقف شعائر الإسلام عند العبادات البدنية القلبية بل تتعداها إلى بذل الأموال، من الزكوات والصدقات التي لا يخفى أثرها ونفعها على المنفق والمنفق عليه، دون مئة أو انتظار مقابل.

ثم إنك لا تجد ديناً فيه من أنواع النسك والمنافع مجتمعة كالحج الذي جمع وجوه البر وسبل الأجر، وفيه من معاني التجرد لله والتعبد له شيئاً عظيماً، ابتداءً بالإحرام ومروراً بالتلبية وانتهاءً بالحلق.

وهناك أنواع من العبادات العظيمة الأخرى، كالذكر الذي يمكن أن يؤدي في كل وقت، وهناك قراءة القرآن وغيرها من الأعمال التي تجعل المسلم وثيق الصلة بربه، وباب أعمال القلوب والنوافل والطاعات باب واسع يجمعها أن كل ما يحبه ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة داخل في العبادة. كل هذا دون تنطع أو تشدد، لأن الله نهى عن التشدد في الدين؛ فدين الله يسر، ليس فيه مشقة وحرص على العباد، بل يريد الله أن يخفف عن عباده.

### ثالثاً: باب طلب العلم:

وهذا من الأبواب التي احتلت مكانة عالية ومنزلة رفيعة في الإسلام، يكفي أن تعلم أن الله ما أمر نبيه ﷺ أن يستزيد من شيء سوى العلم فقال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ [طه: ١١٤].

وأن الله يرفع من شأن العلماء درجات فقال تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

وقد جاء الإسلام بدعوة ملحة على طلب العلم؛ فلا يكاد يوجد دين فيه من الاهتمام بالعلم والعلماء والخض عليه كما هو الأمر في الإسلام. أما التراث اليهودي فالتلمود عندهم أعظم شأنًا من التوراة، وأما النصرانية فقرارات المجمع

الكنسية وكلام الرهبان وأوامرهم هو العلم الذي يدينون به .

#### رابعاً: باب الأخلاق والآداب:

أما باب الأخلاق فهو باب واسع جداً يكفي أن نعلم أن أقرب الناس منزلة عند الله وأحبهم إليه هو: «أحسنهم خُلُقاً»<sup>(١)</sup>.

وقال محمد ﷺ: «ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن، وإن الله يبغض الفاحش البذيء»<sup>(٢)</sup>.

وقال: «إن المؤمن ليدرك بحسن الخلق درجة الصائم القائم»<sup>(٣)</sup>.

أما باب الآداب وهو باب عظيم الشأن في الإسلام؛ فلا تكاد تخلو صلة بين المسلم وغيره إلا ولها أدب معين في الإسلام، ومن تلك الآداب التي حثت النصوص على مراعاتها: الأدب مع الوالدين، والأدب مع الأولاد، والأدب مع الزوجين، وحقوق كل واحد منهما على الآخر، الأدب مع الأقارب، والأدب مع الجيران، وهناك آداب للأخوة في الله والبغض في الله، وهناك أدب حتى مع الحيوان.

وهناك آداب للجلوس، وآداب في المجلس، وآداب للطريق، وآداب للأكل والشرب، وهناك آداب لقضاء الحاجة، وآداب للضيافة، وآداب للباس، وآداب في خصال الفطرة والزينة، وهناك آداب للنوم... إلخ

أما باب شريعته ﷺ وما جاء فيها من فضائل فمعجز آخر وسيأتي الحديث عليها مفصلاً - إن شاء الله - في (المبحث الثاني عشر من هذا الباب).

---

(١) ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» وعزاه إلى الطبراني من حديث أسامة بن شريك ٢٧/٨ وقال: «ورجاله رجال الصحيح، ورواه المنذري في «الترغيب» ٤٠٨/٣، وعزاه إلى ابن حبان في صحيحه.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتب الأدب، باب حسن الخلق ح ٤٧٩٩، والترمذي في جامعه، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في حسن الخلق ح ٢٠٠٢، وقال عنه: حسن صحيح.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتب الأدب، باب حسن الخلق ح ٤٧٩٨. وابن حبان في صحيحه ٣٥٠/١.

## المبحث الخامس

### صدق إخباره بالغيوب مع أنه كان أمياً

الاستدلال على نبوته ﷺ بالغيوب التي أخبر لها:

من أقوى الدلائل على صدق نبوته ﷺ إخباره بالغيوب؛ لأن الغيب ليس من المسائل التي يمكن أن يستنبطها العقل أو التفكير ولا مما يدركه الوجدان والشعور، بل هي أحداث عقلية بحتة لا مجال فيها للذكاء والاستنباط.

ماذا يقول المنكرون لنبوة محمد رسول الله ﷺ فيما قصه علينا مفصلاً من أنباء ما قد سبق على وجهه الصحيح كما وقع؟.

أيقولون إن التاريخ يمكن وضعه بإعمال الفكر ودقة الفراسة؟

أم يذهبون إلى المكابرة فيقولون إن محمداً قد عاصر تلك الأمم الخالية، وتنقل فيها قرناً فقرناً حتى شهد تلك الوقائع مع أهلها شهادة عيان، أو أنه ورث كتب الأولين، وعكف على دراستها حتى أصبح من الراسخين فيها؟ إنهم لا يسعهم أن يقولوا هذا ولا ذاك، لأنهم معترفون مع العالم كله بأنه ﷺ لم يكن من أولئك ولا من هؤلاء قال تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَقْلَمْنَاهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ ﴿٩٤﴾ [آل عمران: ٩٤].

وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ ﴿١٠٢﴾ [يوسف: ١٠٢].

وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْفَرْقِ إِذْ قَضَيْنَا إِلَيْكَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَوَلَّوْا لَنُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سِوَاهُكُمْ وَإِن تَوَلَّوْا لَنُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سِوَاهُكُمْ وَإِن تَوَلَّوْا لَنُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سِوَاهُكُمْ﴾ [القصص: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّ بِسْمِئِكَ إِذَا لَا تُرَاتَبَ الْمُتَبَلِّغُونَ﴾ ﴿٤٨﴾ [العنكبوت: ٤٨].

وقال تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ

مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَذَابَ لِلْمُفْسِقِينَ ﴿٤٩﴾ [هُود: ٤٩].

والشأن في التفاصيل الدقيقة والكنوز المدفونة في بطون الكتب لا تنتف  
اليسيرة التي يعرفها أغلب الناس عن أسماء الأنبياء ومجمل ما جرى لهم، أما تلك  
الكنوز وذلك العلم النفيس، الذي لم تنله يد الأميون فإنك لن تجد الصحيح المفيد  
منه محرراً إلا في القرآن الكريم<sup>(١)</sup>.

ومن خلال النظر في الآيات السابقة، والنظر في سيرته ﷺ تبرز الحقيقة  
التالية:

«محمد ﷺ رجل أمي ظهر من بين أظهر قوم أميين؛ يحضر مشاهدهم - في  
غير الباطل والفجور - يعيش معيشتهم، مشغولاً برزق نفسه وزوجه وأولاده، راعياً  
بالأجر أو تاجراً بالأجر، لا صلة له بالعلم والعلماء، يقضي في هذا أكثر من  
أربعين سنة من عمره، ثم يطلع علينا فيما بين عشية وضحاها فيكلمنا بما لا عهد  
له به في سالف حياته، ربما لم يتحدث إلى أحد بحرف واحد منه قبل ذلك،  
ويدي لنا من أخبار تلك القرون الأولى ما أخفاه أهل العلم، ويدي لنا من أخبار  
تلك القرون ما أخفاه أهل العلم في دفاترهم وقمطرهم، أفي مثل هذا يقول  
الجاهلون إنه استوحى عقله واستلهم ضميره؟ أي منطق يسوغ أن يكون هذا الطور  
الجديد العلمي نتيجة طبيعية لتلك الحياة الماضية الأمية؟ إنه لا مناص في قضية  
العقل من أن يكون لهذا الانتقال الطفري سرٌّ آخر يُلمس خارجاً عن حدود النفس  
وعن دائرة المعلومات القديمة، وإن ملاحظة الجاهلية وهم أجلاف الأعراب في  
البادية كانوا في الجملة أصدق تعليلاً لهذه الظاهرة وأقرب فهماً لهذا السر من  
ملاحظة هذا العصر، إذ لم يقولوا كما قال هؤلاء إنه استقى هذه الأخبار من وحي  
نفسه، بل قالوا إنه لا بد أن تكون قد أُنليت عليه منذ يومئذ علوم جديدة، فدرس  
منها ما لم يكن قد درس، وتعلم ما لم يكن يعلم ﴿وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ  
دَرَسَتْ وَلَيْسَتْ لَهُمْ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٥] ﴿وَقَالُوا أَتُطِيرُ الْأَوَّلِينَ  
أَكُنْتَبَهَا فِيهِ نُمُلِّ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥].

ولقد صدقوا فإنه درسها ولكن على «الروح الأمين» وأخذها ولكن من  
صحف مكرمة، مرفوعة مطهرة بأيدي سفرة، كرام بررة ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ

(١) انظر: النبأ العظيم ص ٣٦ - ٣٧.

عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرِيكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾  
[يونس: ١٦].

ذلك شأن ما في القرآن من الأنباء التاريخية لا جدال في أن سبيلها النقل لا العقل وأنها تجيء من خارج النفس لا من داخلها...<sup>(١)</sup>.

إذن لا سبيل إلى التوصل إلى الغيب عن طريق العقل أو الحدس أو الفراسة؛ تلك هي شقة الغيب تنطفئ عندها مصابيحُ الفراسة والذكاء، فلا يدنو العقل منها إلا وهو حاطب ليل وخابط عشواء؛ إن أصاب الحق مرة أخطأه مرات، وإن أصابه مرات أخطأه عشرات، على أن الذي يصادفه من الصواب لا يمكن الوثوق ببقائه معصوماً من التغيير والتبديل بل عسى أن تذهب به ريح المصادفة كما جاءت به ريح المصادفة ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنُ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]<sup>(٢)</sup>.

### خطورة الإخبار بالغيب:

إن الذي يبيت الحكم بتأ، ويحدده تحديداً حتى فيما لا تدل عليه مقدمة من المقدمات العلمية، ولا تلوح منه أماره من الأمارات الظنية العادية، فذلك ما لا يفعله إلا أحد رجلين:

إما مجازف؛ لا يبالي أن يقول الناس فيه صدق أو كذب، وذلك هو دأب الجهلاء من المتنبيين والعرافين والمنجمين.

وإما رجل؛ اتخذ عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده وتلك هي سنة الأنبياء والمرسلين...

فأي الرجلين تراه في صاحب هذا القرآن، حينما يجيء على لسانه الخبر الجازم بما سيقع بعد عام؟، وما سيقع في أعوام؟، وما سيكون أبد الدهر؟ وما لن يكون؟

ذلك وهو لم يتعاط علم المعرفة والتنجيم، ولا كانت أخلاقه كأخلاقهم، تمثل الدعوى والتقحم، ولا كانت أخباره كأخبارهم؛ خليطاً من الصدق والكذب والصواب والخطأ.

(١) المصدر السابق ص ٣٨ - ٤٠.

(٢) المصدر السابق.

بل كان مع براءته من علم الغيب وقعوده عن طلبه وتكلفه؛ يجيئه عفواً ما تعجز صروف الدهر وتقلباته في الأحقاب المتطاولة أن تنقض حرفاً واحداً مما ينبيء به ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَذْكُرُ لَمَّا جَاءَهُمْ وَلَئِنْ لَكُنْتُمْ عَزِيزٌ ۝ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝﴾ [فُصِّلَتْ: ٤١ - ٤٢] (١).

### قرائن في حاله ﷺ تدل على أن الغيوب من عند الله:

وهناك من القرائن ما يؤكد أن تلك الغيوب لا يمكن أن تكون إلا من عند الله، فالأخبار المفصلة عن قصة آدم ونوح وإبراهيم وموسى والمسيح وهود وشعيب وصالح لا تتأني لرجل:

١ - لم يتعلم ﷺ من أهل الكتاب ولا غيرهم:

٢ - ولم يكن بمكة أحد من علماء أهل الكتاب.

٣ - لم يكن ﷺ يحسن لساناً غير العربي.

٤ - لم يكن ﷺ يكتب.

٥ - لم يكن ﷺ يقرأ كتاباً مكتوباً.

### قرائن في قومه ﷺ تدل على أن الغيوب من عند الله:

١ - لم يبادر أحد من مشركي قريش بالقول إنه قد علّم رسول الله تلك العلوم، وكان قومه حريصين على القدح في نبوته؛ ولو لم يكونوا على علم كامل بأنه لم يتعلم من بشر لطعنوا فيه.

٢ - لم يبادر أحد من أهل الكتاب بالادعاء أنه قد علّم رسول الله شيئاً من الغيوب السابقة.

٣ - لم يستطع أن يثبت أحد أنه ﷺ قد تلقى من غيره؛ إذ يمتنع أخذ تلك العلوم بتفاصيلها العميقة والدقيقة من راهب كما ادعوا في نصف يوم، ثم لماذا لم يعلم هذا الراهب غيره لكي يظهره؟

٤ - لو كان هناك مصدر تعلم منه الرسول بعض العلوم لكان في أصحابه الذين آمنوا به من يعرف ذلك، وكان ذلك يشيع ولو تواصلوا بكتمانه، كما شاع ما كُتم من أمر الدول الباطنية التي كانت تتحرى الكتمان.

(١) انظر: المصدر السابق.



﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا آتَتْ بِشَرِّهِمْ غَيْرَ هَذَا أَوْ بَدِّلَتْ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَائِي بِغَيْرِ قَدَرٍ ۚ إِنَّ أُنْتِجُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ ۚ إِنَّكَ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتَ رَبِّي عَذَابٌ يَّوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٦﴾ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [يونس: ١٦].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «بين أنه لبث فيهم عمراً من قبله، وهو لا يتلو شيئاً من ذلك، ولا يعلمه، ولا يعلمهم به، فليس الأمر من جهته، ولكن من جهة الله، الذي لو شاء ما تلاه عليهم، ولا أدرأهم به، وتلاوته عليهم وإدراؤهم هو من الإعلام بالغيوب الذي لا يعلمها إلا نبي، وبين أن ذلك من الإرسال الذي يحبه الله ويرضاه...»<sup>(١)</sup>

وقومهم يعلمون أنه لم يُخبر به بما جاءهم به من الأخبار أحد من البشر، وهذا مما قامت به الحجة عليهم وعلى من بعدهم، فالكفار مع قوة عداوتهم له ﷺ وحرصهم لما يطعنون به عليه لم يمكنهم وعجزوا أن يطعنوا في تلك الأخبار وفي مصدرها طعنًا يُقبل منهم، وعلم سائر الأمم الأخرى بأن قومه المعادين له المجتهدين في الطعن عليه لم يمكنهم أن يقولوا: إن هذه الغيوب علمها إياه بشرٌ، ومقرون بأنه لم يجتمع بأحد يعلمه ذلك، وصار هذا منقولاً بالتواتر وكان مما أقر به مخالفوه، مع حرصهم على الطعن لو أمكن، فوجب على جميع الخلق أن يقرروا بأن ما جاء به محمد ﷺ من الأخبار لم يعلمه إياها بشرٌ، ولهذا قال سبحانه: ﴿تِلْكَ مِنْ آيَاتِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ ۚ إِنَّ الْفِتْنَةَ لِلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [هود: ٤٩] فأخبر أنه لم يكن يعلم ذلك ولا قومه، وقومهم تقرر بذلك<sup>(٢)</sup>.

وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٧﴾﴾ [يوسف: ١٧].

ومن استدلالات القرآن البديعة على هذه القضية قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْفُرْقَيْنِ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ

(١) الجواب الصحيح ٣٣٥/٥، وانظر في المصدر نفسه للتوسع ٣٢٥/٥ - ٣٣٥.

(٢) انظر: الجواب الصحيح ٣٩٩/١ - ٤٠٨.

﴿٤٦﴾ وَلَنَكُونَنَّ أَشْنَاءًا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْمُمُورُ وَمَا كُنْتَ تَأْوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَلَنَكُونَنَّ كُتًّا مُّرْسِلِينَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحِمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَاتِكَ وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [الْقَصَص: ٤٣ - ٤٧].

قال الشيخ السعدي في تفسيره للآيات السابقة: «والمقصود أن المجريات التي جرت لموسى - عليه الصلاة والسلام - في هذه الأماكن فقصصتها كما هي، من غير زيادة ولا نقص، لا يخلو من أحد أمرين:

١ - إما أن تكون [يامحمد قد] حضرتها وشاهدتها، أو ذهبت إلى محالها فتعلمتها من أهلها؛

فحينئذ قد لا يدل ذلك على أنك رسول الله، إذ الأمور التي يخبر بها عن شهادة ودراسة، من الأمور المشتركة غير المختصة بالأنبياء، ولكن هذه قد عُلِمَ وتُبَيَّنَ أنه ما كان وما صار، فأولياؤك وأعداؤك يعلمون عدم ذلك.

٢ - فتعين الأمر الثاني وهو: أن هذا جاءك من قِبَلِ الله ووحيه وإرساله، فثبت بالدليل القطعي صحة رسالتك، ورحمة الله بك للعباد، ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِن رَّحِمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الْقَصَص: ٤٦] ﴿١﴾.

### إخباره بالغيوب وفضح ما عند أهل الكتاب من ضلالات:

إن القرآن يفضح الضلالات الكبرى التي أحدثها اليهود والنصارى من خلال تحريف الكتاب، وتغيير الوقائع وتزييف الأحداث، فجاء القرآن ليظهر الحق من الباطل، والصدق من الكذب.

وهذا من دلائل صحة هذا الدين، ومن أمثلة ذلك:

١ - ادعى اليهود أن إبراهيم كان يهودياً وادعى النصارى أنه كان نصرانياً فنزل قوله تعالى مفنداً قولهم بحجة علمية تظهر الحق: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتْ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَدْوٍ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿١٥﴾ [آل عمران: ٦٥].

(١) تفسير السعدي ص ٥٦٧.

٢ - وزعم اليهود أن سليمان كان يستعمل السحر، فنزل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا...﴾ [البقرة: ١٠٢].  
تبرئة له من تعلم السحر وعمله.

٣ - وصف اليهود الغني سبحانه وتعالى بالفقر فنزل قوله: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاكُمْ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [آل عمران: ١٨١].

وقوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلِئِنَّمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ...﴾ [المائدة: ٦٤].

تنزيهاً له جل وعلا من ضلالات القوم الظالمين.

٤ - إنكار ما اعتقده اليهود والنصارى من نسبة الولد لله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِيهِمْ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَتَلْنَاهُمْ اللَّهُ أَفَ يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠].

٥ - إنكار ما زعمه النصارى من ألوهية المسيح، وإثبات حقيقة التوحيد قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي لِي سِدْرَةً لَأُعْبَدَ اللَّهُ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [النصارى: ٧٢ - ٧٣].

فالقرآن فضح الأكاذيب التي اختلقها أهل الكتاب على الله وعلى أنبيائه، وأثبت الحقائق والوقائع التي يعلم الله غيبها مهما حاول الناس أن يزيفوها أو ينكروها.

ومن تلك الحقائق التي أظهرها القرآن بعد أن خفيت على الناس قروناً عديدة؛ مسألة نفي الصلب عن المسيح عليه السلام:

**نفي صلب المسيح عليه السلام من دلائل نبوة محمد ﷺ:**

جاء القرآن مصححاً لما كان مشهوراً عند أهل الكتاب من أخبار الأمم السابقة؛ كنفي الصلب عن المسيح في قوله تعالى: ﴿فِيمَا نَقُصُّهُمْ مِنْهُمْ يُشْتَفَّهِمْ وَكُفِّرِهِمْ

يَايَتِ اللَّهِ وَقَوْلِهِمُ الْآيِيَّاهُ بِمَنِّ حَقِّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَعَّ اللَّهُ عَلَىهَا يَكْفُرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَيَكْفُرُهُمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ هَيْتَا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ [النساء: ١٥٥ - ١٥٧].

### وفي هذا مسائل هامة جداً:

١ - لو كان الإسلام ديناً ملفقاً من الديانات السابقة أو كان مزيجاً من الديانات الوثنية الرضعية - كما يدعي اليهود والنصارى -؛ لما خالف مصدره الأصلي «القرآن الكريم» اليهود والنصارى في مسألة الصلب، فكلتا الديانتين مُجمعتان على وقوع الصلب؛ إما على المسيح عند النصارى، أو على المدعي للنبوة - كما هو زعم اليهود - ، وبالرغم من ذلك كله لم تكن مسألة الصلب إحدى عقائد الإسلام، فلو كان الإسلام ديناً باطلاً أو كان ديناً ملفقاً، أو كان محمد ﷺ غير صادق في دعوته، أو أنه اقتبس دينه ممن سبقه من الأمم والديانات - كما يزعم ذلك المستشرقون -؛ لما توقف عند هذه المسألة وأنكرها بشدة، ولما حكم بضلال أمتين عظيمتين لهما ثقل تاريخي عند البشر.

٢ - لو كان الإسلام - كما يزعم أولئك - لأخذ بمسألة الصلب وذهب إلى القول بها كما ذهب إليها الديانتان السابقتان، لكي يضمن الانتشار أو عدم المعارضة على الأقل من أصحاب الديانتين السابقتين وغيرهم، وهذا لأن الإسلام دين الحق، ولا يجامل صاحب الحق أهل الباطل لكي يُقبلوا عليه، فالحق أحق أن يتبع.

وكان من السائغ أن يقع الصلب على عيسى عليه السلام من قبل اليهود؛ لكثرة جرائمهم واجترائهم على أنبيائهم، ولكن القرآن رسالة الله الخاتمة يعلن بقوة: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧].

فكيف يقال بعد ذلك كله بأن محمداً ﷺ جاء بكتاب مقتبس من كلام اليهود والنصارى الذين كانوا في الجزيرة أو الذين التقى بهم في رحلته إلى الشام، ثم يأتي بما يعارض عقيدتهم من أصلها؟.

٣ - قرر القرآن بأن شبهة اليهود على وقوع القتل والصلب على المسيح هي ذاتها شبهة النصارى؛ إن هي إلا الشك واتباع الظن ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ

مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتَّبَعَ الظَّنُّ وَمَا قَلَّوْهُ يَقِينًا ﴿٥٧﴾ [النساء: ١٥٧].

وفي هذا إرشاد لطالبي الحق إلى مفتاح حل هذا الخطأ التاريخي، وكيفية كشف هذه الشبهة بقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ شَيْءٌ لَهُمْ﴾ وقوله: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتَّبَعَ الظَّنُّ وَمَا قَلَّوْهُ يَقِينًا﴾.

وذلك بتفنيد حججهم، بما دلت عليه الآية من خلال إثبات: اختلافهم، وشكهم، واتباعهم الظن. فإذا أثبتنا ما دلت عليه الآية كانت تلك الاختلافات، والشكوك: اعتبارات كافية لإبطال قولهم بالصلب، وهذا المنهج هو المنهج الذي ينبغي أن يُسلك في مسألة إنكار الصلب.

٤ - إن مجرد نفي الآية لمسألة الصلب يُبطل سائر المعتقدات الأخرى الكفرية المبتدعة، التي بنوها على حادثة الصلب المزعومة، وهي معتقدات أصلية عندهم، ومنها:

\* إبطال الاعتقاد بأن الله أرسل المسيح مُخلصاً لهذا العالم ومكفراً لخطايا البشر عن طريق سفك دمه فداء للإنسانية!.

\* إبطال القول بأن بني آدم تحملوا وورثوا خطيئة أبيهم.

\* إبطال تقديس الصليب وعبادته وجعله رمزاً للنصرانية.

\* إبطال العشاء الرباني، أو التناول؛ والذي يتناولون فيه الخبز والخمر من يد القسيس على أنه دم المسيح ولحمه!!

كل تلك العقائد تتداعى وتسقط بمجرد إبطال القرآن الكريم لأصل بنيانهم الذي بنوا عليه كل تلك العقائد، وذلك بنفي الصلب في قوله تعالى: ﴿وَمَا قَلَّوْهُ وَمَا صَلَّبُوهُ وَلَكِنْ شَيْءٌ لَهُمْ﴾ فأغنى نفي الصلب ودحضه عن مناقشة كل تلك الخرافات الباطلة، فما بُني على باطل فهو باطل.

## نماذج من إخباره ﷺ بالغيوب

### أولاً: الأخبار الواردة من القرآن الكريم:

#### ١ - الإخبار بدخول المسجد الحرام:

قال تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِينَ مُخْلِفِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ۝﴾ [الفتح: ٢٧].

ويحلل د. محمد دراز يقين المؤمنين بوعده الله مع أن الظروف لا تدل على الوثوق بالمشركون حينها، فيقول: «منع المسلمون من دخول مكة عام الحديبية، واشترط عليهم قریش إذا جاؤوها في العام المقبل أن يدخلوها عزلاً من كل سلاح، إلا السيوف في القرب، فهل كان أن يثقوا بوفاء المشركين بعقدهم وقد بلوا منهم نكث العهود، وقطع الأرحام، وانتهاك شعائر الله؟ أليسوا اليوم يَخْبِسُونَ هديهم أن يبلغ محله؟ فما هم صانعون غداً؟ على أنهم لو صدقوا في تمكين المسلمين من الدخول فكيف يأمن المسلمون جانبهم إذا دخلوا عليهم دارهم مجردين من دروعهم وقوتهم؟ ألا تكون هذه مكيدة يراد منها استدراجهم إلى الفخ؟ وآية ذلك؛ اشتراط تجردهم من السلاح إلا السيوف في القرب، وهو سلاح قد يطمئن إلى أنهم لن ينالوهم بأيديهم ورماحهم، ولكن لا يأمنون معه أن ينالوهم بسهامهم ونبالهم!!

في هذه الظروف المريبة يجيئهم الوعد الجازم بالأمور الثلاثة مجتمعة: ١ - الدخول، ٢ - والأمن، ٣ - وقضاء الشعيرة فدخلوها في عمرة القضاء آمنين، ولبثوا فيها ثلاثة أيام حتى أتموا عمرتهم وقضوا مناسكهم<sup>(١)</sup>.

#### ٢ - الإخبار بهزيمة المشركين قبل الهجرة:

قال تعالى في سورة القمر وهي مكة: ﴿سَيَهَرُّ لُجَجُهُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ ۝﴾ [القمر: ٤٥] هذا وعد من الله للمسلمين بالنصر في زمن ضعفهم وقلة حيلتهم، وظهر تصديق ذلك قريباً في يوم بدر وغيره...

#### ٣ - الوعد باستخلاف المؤمنين في الأرض والتمكين لدينهم

مع أنهم كانوا في رعب شديد بمكة، فقال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ

(١) النبا العظيم - باختصار - ص ٤٨ - ٤٩.

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لِيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلِيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلِيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾ [النور: ٥٥].

فقد استخلف الله المسلمين، ومكن لهم دينهم، وأبدلهم بالخوف أمناً، فأية آية أو نبوة أصح وأبين من هذه؟! وقد كان القرآن من مكة يقص على المسلمين من أنباء الرسل ما يثبت به الأئمة ويعددهم الأمن والنصر الذي كان لمن قبلهم: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كُنُتُنَا لِإِبْرَاهِيمَ الْآرْمَلِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٥١].

وهم في هذه الأوقات العصبية ينبتهم القرآن بما سيكون لهم من النصر والغلبة علاوة على الأمن والاطمئنان فما هذا؟ أحلام وأمانى؟ لا، بل وعد مؤكد بالقسم ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لِيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [النور: ٥٥] فانظر كيف جاء تأويلها على أوسع معانيها في عصر الصحابة أنفسهم الذين وقع لهم خطاب المشافهة في قوله (منكم) فبدلوا من بعد خوفهم أمناً لا خوف فيه، واستخلفوا في أقطار الأرض فورثوا مشارقها ومغاربها. ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الحج: ٤٠] <sup>(١)</sup>

٤ - الوعد له ﷺ بأن الذين كفروا سيُغلبون:

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْيُهُمْ وَإِنَّمَا هُمْ فِي الدُّنْيَا كَمَا شَهِدَ النَّاسُ، وَهَذَا يَصْدُقُ الْخَبَرُ الْآخِرُ وَهُوَ أَنَّهُمْ سَيُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٢] فكان كما أخبرهم غلبوا في الدنيا كما شاهده الناس، وهذا يصدق الخبر الأخير وهو أنهم سيحشرون إلى جهنم وبئس المهاد.

٥ - الإخبار بعزم الذين كفروا بالمكر به ﷺ وأن الله سيرد مكرهم:

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال: ٣٠].

فكان كما قال الله، وأرادوا أن يمكروا به فرد الله مكرهم وأبسل كيدهم.

(١) انظر: النبأ العظيم ص ٤٧ - ٤٨.

٦ - الإخبار بما سيقع للمشركين يوم بدر ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَتَّبِعُ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَصْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَابِ وَأَصْرَبُوا بِنَبْتِ كَلِّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأنفال: ١٢] فكما قال الله، وفعل بهم كما أراد الله.

٧ - الإخبار بما سيحدث بين المنافقين ويهود بني النضير: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ بَشِيرٌ حَكِيمٌ ﴿١١﴾﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُولَيَنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الحشر: ١١ - ١٢]. فكان الأمر كما قال لنبيه ﷺ فإن هؤلاء أخرجوا فلم يخرج إخوانهم معهم، وقوتلوا فلم ينصروهم.

٨ - الإخبار بعاقبة المعارك وأحداثها قبل وقوعها: قال تعالى: ﴿فَتَلَوْتُمُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ مِنْكُمْ وَيُنْصِرُكُمْ عَلَيْهِمْ وَيشوف صدور قوم مؤمنين ﴿١٤﴾﴾ [التوبة: ١٤]. وقال: ﴿لَنْ يَنْصُرَكُمْ إِلَّا أَذَىٰ وَإِنْ يَتْلَوْكُمُ الْيَدْبَارُ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ ﴿١٥﴾﴾ ضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ الدَّلَّةُ أَنْ مَا تُفْقُوا إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِنَ الْنَّاسِ وَبَآءُ وَبَعْضُ مِنَ اللَّهِ وَضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [آل عمران: ١١١ - ١١٢] وقال: ﴿وَلَوْ فَتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾﴾ [الفتح: ٢٢]. وكان كذلك فلم يقاتلوهم بعد نزول الآية إلا انتصر عليهم المسلمون، وما زال الإسلام في عز وظهور حتى ظهر على أهل الأرض.

٩ - لما نزلت سورة النصر: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾﴾ [النصر: ١ - ٣].

نعى رسول الله ﷺ نفسه، وأنبأهم بما هو كائن بعده؛ من دخول الناس أفواجا وأرسالا في دينه، فكان ذلك كذلك، يرويه ظاهرا بعد دهر ولا يملك



المكذبون له ﷺ دفعاً ولا رداً.

#### ١٠ - الإخبار بنصر الروم على فارس:

﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا بِرُومٍ ۖ فِي أَثَرِ الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ صَبَغُورٌ ۖ﴾  
في يضع سينك لله الأثر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون ﴿يَنْصُرُ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الروم: ١ - ٥].

ولقد كان الإخبار بهذا النصر وبأنه كائن في وقت معين إخباراً بأمرين - كل منهما خارج عن تناول الظنون :-

١ - ذلك أن دولة الروم كانت قد بلغت من الضعف حداً يكفي من دلائله أنها غزيت في عقر دارها وهزمت في بلادها كما قال تعالى ﴿فِي أَثَرِ الْأَرْضِ﴾ فلم يكن أحد يظن أنها تقوم لها بعد ذلك قائمة فضلاً عن أن يحدد الوقت الذي سيكون لها فيه النصر، ولذلك كذب به المشركون وراهنوا على تكذيبه.

٢ - لم يكتف القرآن بهذين الوعدين، بل عززهما بثالث حيث قال: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۖ يَنْصُرُ اللَّهُ يَنْصُرُ...﴾.

إشارة إلى أن اليوم الذي يكون فيه النصر هناك للروم على الفرس سيقع فيه هاهنا نصر للمسلمين على المشركين؛ وإذا كل واحد من النصرين في حد ذاته مستبعداً عند الناس أشد الاستبعاد فكيف الظن بوقوعهما مقترنين؟ لذلك أكدّه أعظم التأكيد بقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٦] ولقد صدق الله وعده فتمت للروم الغلبة على الفرس بإجماع المؤرخين في أقل من تسع سنين، وكان النصر كذلك للمسلمين على المشركين في غزوة بدر الكبرى<sup>(١)</sup>.

ثم انظر إلى خطاب الله عما سيحدث للأعراب الذين تخلفوا عن النبي ﷺ فأنبأهم أنهم يقاتلون الروم والفرس أو يسلمون: ﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلَمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ١٦].

﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ٢٠].

(١) انظر؛ النبأ العظيم ص ٤٨.

فكان كذلك كما في القرآن يشهد بصحته العيان، وهذا كله وقع كما أخبر، فحصلت لهم الغنائم الكثيرة، ودخلوا المسجد الحرام بعد هذا آمنين.

#### ١١ - ومن الإخبار بالمستقبلات:

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرُكَ أَخَذْنَا مِنْهُمُ وَقْعًا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَسَوْفَ يُنْفِثُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المائدة: ١٤]. وكان كما أخبر، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَقْلُوبَةٌ عَلَيْنَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُفَيْنَا وَكُفِّرُوا وَآلَقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ كُلَّمَا أَقْبَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ لُطُفَّاها اللَّهُ وَتَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [المائدة: ٦٤] وكان كما أخبر، وقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَنَهُمْ عَنِ قِبَلِهِمُ الْحَزَنُ قَالُوا كَانُوا عَلَيْهَا قُلِ اللَّهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾ [البقرة: ١٤٢] وكان كما أخبر.

#### ١٢ - الإخبار بأن اليهود لن يتمنوا الموت أبدًا:

﴿قُلْ يَأَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧﴾﴾ [الجمعة: ٦ - ٧] فأخبر عن اليهود أنهم لن يتمنوا الموت أبدًا، وكان كما أخبر؛ فلا يتمنى اليهود الموت أبدًا، وهذا دليل من وجهين: ١ - من جهة إخباره أنه لا يكون أبدًا ٢ - ومن جهة صرف الله لدواعي اليهود عن تمني الموت. مع أن ذلك مقدور لهم، وهذا من أعجب الأمور الخارقة للعادة وهم مع حرصهم على تكذيبه لم تنبث دواعيهم لإظهار تكذيبه بإظهار تمني الموت<sup>(١)</sup>.

#### ١٣ - إخباره بهلاك أقوام على الكفر:

قال تعالى: ﴿ذَرَى وَمَنْ خَلَقْتُ وَجِداً ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً ﴿١٢﴾ وَبَيْنَ شُهُوداً ﴿١٣﴾ وَمَهْدَتْ لَهُ صِهْباً ﴿١٤﴾ ثُمَّ بَطَعُ أَنْ أَرِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّكَ كَانْتَ لَازِبِنَا عَيْنِداً ﴿١٦﴾ سَاهِقَهُ صَعُوداً ﴿١٧﴾ إِنَّكَ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَزِيدُكَ مَا سَقَرَ ﴿٢٧﴾ لَا تَبْقَى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾﴾ [المدثر: ١١ - ٢٨]

(١) الجواب الصحيح ٧٦/٦..

وكان كما أخبر به مات الوليد كافراً  
وقال تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝﴾ [المسد: ١ - ٥]

وكان كما أخبر به مات أبو لهب كافراً، ويلاحظ أن الأول حاول أن يصد الناس عن دليل صدق الرسول، والثاني حاول أن يصد الناس عن شخص الرسول بكل الوسائل فكانت عاقبتهم كما أخبر.

١٤ - الإخبار بظهور الهدى الذي جاء به محمد ﷺ:  
ومنه قوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣].

فقد صدق الله رسوله وأظهر دينه على كل دين وأذن له أهل كل ملة.  
فماذا عسى أن يقول القائل في هذه الآيات الكريمات القاطعات؟ والأحداث تشهد بوقوعها، وإن غمط ذلك غامط ولم يكتف بها وصمم في رده وتكذيبه لم يجن إلا على نفسه.

### ثانياً: إخباره ﷺ بالغيوب من السنة

لا يخلو كتاب من كتب دلائل النبوة المعروفة - للأصبهاني، والماوردي، والبيهقي - من ذكر طائفة من الأحاديث الشريفة الدالة على مغيبات أخبر الرسول ﷺ بوقوعها فوقعت كما أخبر، وأنها ستقع حتماً كما أخبر، وقد حدث ﷺ بذلك الصحابة الكرام، ووصلت إلينا عبر جهود المحدثين والحفاظ حملة السنة المطهرة - رحمهم الله - (١).

### تحديث الرسول الصحابة بالمغيبات

عن حذيفة بن اليمان - رضي الله عنه - أنه قال: «لقد خطبنا رسول الله ﷺ خطبة ما ترك فيها شيئاً في قيام الساعة إلا ذكره؛ علمه من علمه، وجهله من

(١) وخير من وقفت عليه في جمع تلك الدلائل المتعلقة بالمغيبات من خلال السنة رسالة علمية بعنوان: إزالة اللثام عما تنبأ به سيد الأنام عليه أفضل الصلاة والسلام، لمحمد ولي الله عبد الرحمن، جامعة الأزهر، كلية أصول الدين، قسم الحديث وعلومه ١٤٠٩ - ١٩٨٨. وقد استفدت من هذه الرسالة في هذا المبحث فلتراجع للاستزادة.

جهله، إن كنت لأرى الشيء قد نسيته فأعرفه كما يعرف الرجلُ الرجل إذا غاب عنه فرآه فعرفه»<sup>(١)</sup>

وسوف أسرد - بمشيئة الله - نماذج من إخباره ﷺ بتلك المغيبات:

\* أخبر ﷺ من مصارع كفار من قريش في بدر بل عيّن أماكن مصرعهم بل وقوع الغزوة بدقة، وقد كان كما أخبر وحدد؛ فقد قُتل من أكابر قريش من قُتل في الأماكن التي حددها رسول الله ﷺ<sup>(٢)</sup>

\* وأخبر ﷺ بانتهاء زمن غزو المشركين للمسلمين بغزوة الأحزاب، وبالفعل اندحر كفار قريش وأصبحت المبادرة بعدها للمسلمين<sup>(٣)</sup>.

\* وأخبر ﷺ ابنته فاطمة - رضي الله عنه - بأنها أول أهل بيته لحاقاً به بعد موته، وقد كان<sup>(٤)</sup>.

قال النووي - رحمه الله -: «هذه معجزة ظاهرة له ﷺ بل معجزتان فأخبر ببقائها بعده، وبأنها أول أهله لحاقاً به ووقع كذلك»<sup>(٥)</sup>.

\* وأخبر ﷺ بأن بيت المقدس سيفتح بعد وفاته، وقد وقع حيث فتح بيت المقدس في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه سنة خمس عشرة من الهجرة<sup>(٦)</sup>.

---

(١) رواه البخاري، كتاب القدر، باب «وكان أمر الله قدراً مقدوراً» ح ٦٦٠٤.

(٢) الحديث رواه أبو يعلى في مسنده من حديث أنس ٦/٦٩ ح ٣٣٢٢ قال: لما ورد بدرأً أوماً بيده إلى الأرض فقال: «هذا مصرع فلان...»، ورواه مسلم في صحيحه بنحوه في كتاب الجهاد والسير، باب غزوة بدر ٣/٢٤٠٣ ح ١٧٧٩ في حديث طويل.

(٣) الحديث رواه البخاري بلفظ «نغزوهم ولا يغزوننا، وذلك في يوم الأحزاب، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق ٧/٤٠٥ ح ٤١١٠ وعند البزار: «لا يغزوكم بعدها أبداً ولكن نغزوهم» ذكره الهيثمي مجمع الزوائد، وقال: رجاله ثقات ٦/١٣٩.

(٤) انظر: نص الحديث: عند البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، ح ٣٦٢٤. مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل فاطمة رضي الله عنها، ٤/١٩٠٥ ح ٢٤٥٠.

(٥) شرح مسلم للنووي ٥/١٦.

(٦) الحديث رواه البخاري في صحيحه عن عوف بن مالك، كتاب الجزية، باب ما يحذر من الغدر ح ٣١٧٦ بلفظ قال «أتيت النبي في غزوة تبوك وهو في قبة من آدم فقال: «أعددت سناً بين يدي الساعة؟ موتي، ثم فتح بيت المقدس...»

- \* وأخبر ﷺ بفتح بلاد الفرس، وقد فتحت في عهد عمر على يد سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه - كما أخبر ﷺ<sup>(١)</sup>
- \* وأخبر ﷺ بفتح مصر وقد فتحت على يد عمرو بن العاص سنة عشرين من الهجرة<sup>(٢)</sup>.
- \* وأخبر ﷺ بأن أسرع زوجاته لحوقاً به بعد وفاته زينب بنت جحش - رضي الله عنها - وقد كان كما أخبر<sup>(٣)</sup>.
- \* وأخبر ﷺ بقتال الترك<sup>(٤)</sup> وقد حصل أول قتال معهم في خلافة عمر سنة اثنتين وعشرين للهجرة.
- \* وأخبر ﷺ بأن الفتن ستدخل على المسلمين بمقتل عمر، وقد وقع ذلك بالفتن التي تابعت منذ وفاته<sup>(٥)</sup>.

(١) الحديث رواه مسلم في صحيحه من حديث عن جابر بن سمرة، كتاب الفتن وأشرار الساعة، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل . . . ٢٢٣٧/٤ ح ٢٩١٩، بلفظ: «لتنفخن عصابة من المسلمين أو من المؤمنين كنوز كسرى التي في القصر الأبيض».

(٢) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي ذر، كتاب فضائل الصحابة، باب وصية النبي بأهل مصر ٢٥٤٣ ح ١٩٧٠/٤ بلفظ: «إنكم ستفتحنون مصر وهي أرض يسمى فيها القيراط . . .». قال النووي: «قال العلماء: القيراط جزء من أجزاء الدينار والدرهم وغيرهما، وكان أهل مصر يكثرون من استعماله والتكلم به» شرح مسلم ٩٧/١٦. ولا يزالون.

(٣) عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أسرعكن لحوقاً بي أطولكن يداً، قالت: فكن يتناولن أيتهن أطول يداً، قالت: فكانت أطولنا يداً زينب لأنها كانت تعمل بيدها وتصدق». أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، ٢٨٦/٣ ح ١٤٢٠. ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل زينب أم المؤمنين رضي الله عنها ٤/١٩٠٧ ح ٢٤٥٢.

(٤) انظر: صحيح البخاري، كتاب الجهاد، باب قتال الترك ١٠٤/٦ ح ٢٩٢٨، ومسلم، كتاب الفتن، وأشرار الساعة ٢٢٣٣/٤ ح ٢٩١٢. وانظر: البداية والنهاية ١٣٥/٧ . . .

(٥) والعمدة في هذا الباب على حديث حذيفة: « . . . الفتن التي تموج كما يموج البحر قال [حذيفة لعمر - رضي الله عنهما] ليس عليك منها يا أمير المؤمنين، إن بينك وبينها باباً مغلقاً قال: «أيكسر أم يفتح؟ قال يكسر. قال: إذن لا يغلُق أبداً . . . فأمرنا مسروقاً فسأله فقال: «الباب عمر» أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مواقيت الصلاة، باب الصلاة كفارة ٨/٢ ح ٥٢٥. ومسلم في صحيحه كتاب الإيمان باب بيان أن الإسلام بدأ غريباً . . . =

- \* إخباره ﷺ بأن غزوات المسلمين ستمتد إلى البحر، وقد كان<sup>(١)</sup>.
- \* إخباره ﷺ بوقوع فتنة عظيمة بين فئتين من المسلمين، وقد كان<sup>(٢)</sup>.
- إخباره ﷺ بالصلح الذي جرى بين المسلمين بعد الفتنة على يد الحسن بن

= ١٢٨/١ ح ١٤٤. قال ابن حجر: «علم من الخبر النبوي أن بأس الأمة بينهم واقع، وأن الحرج لا يزال إلى يوم القيامة». فتح الباري ٥٠/١٣.

(١) وأخبر باستشهاد أم حرام - رضي الله عنها - في الغزو ﷺ «أول جيش من أمتي يغزون البحر قد أوجبوا - أي وجبت لهم الجنة - قالت أم حرام: قلت: يا رسول الله أنا فيهم، قال: أنت فيهم. ثم قال النبي ﷺ: أول جيش من أمتي يغزون مدينة قيصر مغفور لهم، فقلت: أنا فيهم يا رسول الله، قال: لا» رواه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد، باب ما قيل في قتال الروم ح ٢٩٢٤ وفي مواضع أخرى من الصحيح. ورواه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب فضل الغزو في البحر ١٥١٨/٣ ح ١٩١٢. وأم حرام هي بنت ملحان بن خالد بن زيد الأنصارية الخزرجية، وهي المعروفة بالرميصاء وقد بشرها رسول الله ﷺ بالشهادة وقد كان في سنة ٢٧هـ.

قال ابن كثير: «في هذا الحديث من دلائل النبوة ثلاث، أحدها: الإخبار عن الغزوة الأولى في البحر، وقد كانت سنة ٢٧ مع معاوية بن أبي سفيان حين غزا قبرص، وهو نائب عثمان بالشام، وكانت معهم أم حرام بنت ملحان هذه صعبة زوجها عبادة بن الصامت - أحد النقباء ليلة العقبة - فتوفيت مرجعهم من الغزو، قيل: بالشام، وقال ابن زيد بقبرص سنة ٢٧هـ.

والغزوة الثانية غزوة قسطنطينية مع أول جيش غزاها، وكان أميرها يزيد بن معاوية بن أبي سفيان وذلك في سنة ٥٢هـ، وكان معهم أبو خالد بن زيد الأنصاري، فمات هناك رضي الله عنه وأرضاه، ولم تكن أم حرام معهم لأنها كانت قد توفيت قبل ذلك في الغزوة الأولى، فهذا الحديث فيه ثلاث آيات من دلائل النبوة: الإخبار عن الغزوتين، والإخبار عن المرأة بأنها من الأولين وليست من الآخرين، وكذلك وقع البداية والنهاية ٢٥٣/٦.

(٢) قال ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان، وتكون بينهما مقتلة عظيمة ودعواهما واحدة» رواه البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام ٦١٦/٦ ح ٣٦٠٨. ومسلم في صحيحه، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب إذا تواجه المسلمان بسيفهما ٢٢١٤/٤ ح ٢٨٨٨. قال ابن حجر: «المراد بالفتنتين من كان مع علي ومعاوية رضي الله عنه لما تحاربا بصفين دعواهما واحدة أي دينهما واحد لأن كلاً منهما كان يتسمى بالإسلام أو المراد أن كلاً منهما كان يدعى أنه المحق» فتح الباري ٦١٦/٦ وكانت الموقعة سنة ٣٧هـ.

علي - رضي الله عنه - (١)

\* إخباره ﷺ بظهور فرقة الخوارج، وقد خرجوا وكفروا علماً - رضي الله عنه - وقاتلوه (٢).

\* إخباره ﷺ أن الله سيفتح على المسلمين بالقرون المفضلة فتحاً عظيماً، وقد كان؛ حيث وقع ما أخبر به الصادق المصدوق من أن ذروة الفتوحات الإسلامية كانت في عصر القرون المفضلة، بحيث كان الخط البياني لسلسلة

---

(١) عن أبي بكر رضي الله عنه قال: «سمعت رسول الله ﷺ على المنبر والحسن إلى جنبه ينظر إلى الناس مرة ويقول: ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به فتيت من المسلمين» أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام ٦/٢٢٨ ح ٣٦٢٩.

وقد وقع ما أخبر به رسول الله ﷺ سنة ٤٠ هـ لما استشهد علي رضي الله عنه آلت الخلافة إلى ابنه الحسن وكان في العراق، وكانت الشام تحت إمرة معاوية وكاد أن يقع بين الفريقين قتال عظيم، ولكن الله حقن دماء المسلمين بالحسن حينما صالح معاوية رضي الله عنه. انظر البداية والنهاية ٨/ ١٧٠.

(٢) عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «تمرق مارقة عند فرقة من المسلمين يقتلها أولى الطائفتين بالحق» رواه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم ح ١٠٦٤.

ففي سنة ٣٧ هـ خرجت الخوارج على علي رضي الله عنه حينما رضي بالتحكيم عند اختلافه مع معاوية انظر: البداية والنهاية ٧/ ٣٠٤.

وقد جاءت أوصافهم في حديث أبي سعيد الذي رواه الإمام أحمد قال: «كان رسول الله ﷺ إذا حلف واجتهد في اليمين قال: لا والذي نفس أبي القاسم بيده ليخرجن قوم من أمتي تحرقون أعمالكم مع أعمالهم، يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، قالوا فهل من علامة يعرفون بها قال: فيهم رجل ذو يدي أو ثدي، محلقي رؤوسهم» رواه أحمد في مسنده ٣/ ٣٣.

وقد ظهرت وتحققت هذه الصفات في الخوارج، قال النووي: «في هذا الحديث معجزات ظاهرة لرسول الله ﷺ فإنه أخبر بهذا، وجرى كله كفلق الصبح، ويتضمن بقاء الأمة بعده ﷺ، وأن لهم شوكة وقوة، خلاف ما كان المبطلون يشيعونه، وأنهم يفترون فرقتين، وأنه يخرج عليه طائفة مارقة، وأنهم يشددون في الدين في غير موضع التشديد، وببالغون في الصلاة والقراءة، ولا يقيمون بحقوق الإسلام، بل يمرقون منه وأنهم يقاتلون أهل الحق، وأن أهل الحق يقاتلونهم، وأن فيهم رجلاً صفة يده كذا وكذا فهذه أنواع المعجزات كلها، والله الحمد» شرح مسلم للنووي ٧/ ١٦٦.

الفتوحات الإسلامية في القرون الأولى من الصحابة والتابعين وتابعيهم في ارتفاع شديد، ولما انقضت تلك القرون تغيرت الأحوال<sup>(١)</sup>

\* إخباره ﷺ لبعض أصحابه بأنهم سيرون استقرار أمن الجزيرة العربية قبل موتهم، فلما أسلم عامة أهل الجزيرة العربية في عهد الخلفاء الراشدين سادها الأمن والاستقرار<sup>(٢)</sup>.

\* بشارته ﷺ للصحابة وهم في أحلك الأوقات التي مروا بها بفتح كل من: (الشام، وفارس، واليمن) وذلك في غزوة الأحزاب التي قال الله في وصف حال المسلمين فيها: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَكَلَفَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَنُظِّتُونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ۚ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا ۖ وَإِذْ يَقُولُ الْمُتَفَقِّهُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ۗ﴾ [الأحزاب: ١٠ - ١٢]<sup>(٣)</sup>.

(١) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يأتي زمان يغزو فثام من الناس فيقال: فيكم من صحب النبي صلى الله عليه وسلم؟ فيقال: نعم. فيفتح عليه، ثم يأتي زمان فيقال فيكم من صحب النبي أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فيقال نعم، فيفتح، ثم يأتي زمان فيقال: فيكم من صحب صاحب أصحاب النبي ﷺ، فيقال: نعم، فيفتح» رواه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد، باب من استعان بالضعفاء والصالحين في الحرب ٢٨٩٧/٦ ح ٢٨٩٧.

(٢) عن عدي بن حاتم قال: «بينما أنا عند النبي ﷺ إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة، ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل، فقال ﷺ يا عدي هل رأيت الحيرة، قلت: لم أرها، وقد أنبئت عنها قال: فإن طال بك حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة، لا تخاف أحداً إلا الله. قلت: فيما بيني وبين نفسي فأين دعار طي الذين سعروا البلاد» رواه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام ٦١٠/٦ ح ٣٥٩٥. وفي صحيح البخاري: «... والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون» كتاب المناقب، ح ٣٦١٢، وقيل المراد بصنعاء: صنعاء الشام انظر: الفتح ٦/٦١٩.

(٣) جاء ذكر هذا الإشارة عند البخاري في صحيحه مختصرة برقم ٤١٠٢ كتاب المغازي، باب الخندق. وعزاها ابن حجر مفصلة إلى أحمد والنسائي مرفوعة عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: «لما كان أمرنا رسول الله ﷺ بحفر الخندق عرضت لنا في بعض الخندق صخرة لا تأخذ فيها المعاول، فاشتكيننا ذلك للنبي ﷺ، فجاء فأخذ المعول فقال: بسم الله، فضرب ضربة فكسر ثلثها، وقال: الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام، والله إني أبصر =



## وهذا من أعظم أعلام النبوة

\* إخباره ﷺ بمقتل أحد المتنبيين الكذابين على يد رجل صالح في زمنه وقد كان<sup>(١)</sup>

\* إخباره ﷺ باكتفاء الناس من الأموال، حتى يخرج الرجال وملء كفه من ذهب أو فضة فلا يجد من يقبله، وهذا قد ظهر كما أخبر ﷺ في زمن عمر بن عبد العزيز الخليفة الراشد<sup>(٢)</sup>.

= قصورها الحمر الساعة، ثم ضرب الثانية فقطع ثلثها الآخر، فقال الله أكبر أعطيت مفاتيح فارس، والله إنني لأبصر قصر المدائن أبيض، ثم ضرب الثالثة وقال: بسم الله، فقطع بقية الحجر فقال الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن، والله لأنني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذا الساعة، فتح الباري ٣٩٦/٧ وقال ابن حجر عن إسنادها بأنه «حسن» المصدر السابق.

(١) وهو الأسود العنسي المتنبي الكذاب على يد العبد الصالح فيروز الديلمي باليمن، قال ﷺ «قتل الأسود العنسي الليلة رجل صالح من قوم صالحين» انظر أصل القصة في: صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب الأسود العنسي، الفتح ٧٣/٨ وانظر ترجمة فيروز في: الإصابة ٢٠٥/٣.

(٢) روى البخاري في صحيحه عن عدي بن حاتم قال: «بينما أنا عند النبي ﷺ إذا أتاه رجل فشكا إليه الفاقة، ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبل، فقال يا عدي: «هل رأيت الحيرة؟» قلت: لم أرها، وقد أنبت عنها، قال: «فإن طالت بك حياة لتترى الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة، لا تخاف أحداً إلا الله» - قلت فيما بيني وبين نفسي فأين دغار طئ الذين سغروا البلاد؟ - «ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى». قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: «كسرى بن هرمز، ولئن طالت بك حياة لتترى الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله منه فلا يجد أحداً يقبله منه. وليلقين الله أحداً من يوم يلقاه وليس بينه وبينه ترجمان يترجم له، فيقولون: ألم أبعث إليك رسولاً فيبلغك؟ فيقول: بلى. فيقول: ألم أعطك مالا وأفضل عليك؟ فيقول: بلى. فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنم، وينظر عن يساره فلا يرى إلا جهنم»، قال عدي: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد شق تمرة فبكلمة طيبة» قال عدي: فرأت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة، لا تخاف إلا الله، وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز، ولئن طالت بكم حياة لتروا ما قال النبي أبو القاسم: يخرج ملء كفه من كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام ٦١٠/٦ ح ٣٥٩٥ الفتح. ورواه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب الترغيب في الصدقة ٧٠٠/٢ ح ١٠١١. وقال البيهقي: «صدق الله تعالى قول رسول الله ﷺ في زمن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه» دلائل النبوة ٣٢٣/٦. وانظر: البداية والنهاية ٢٠٣/٩.

\* إخباره ﷺ بأن بركاناً سيقع بالحجاز<sup>(١)</sup>، وفي سنة ٦٥٤ هـ خرجت نار عظيمة جداً من جنب المدينة الشرقية وراء الحرة، وتواتر العلم بها عند أهل الشام وسائر البلدان<sup>(٢)</sup>.

### إخباره ﷺ بأمور تقع ويراهها الناس:

\* إخباره ﷺ بظهور داء الأمم في هذه الأمة في التنافس على الدنيا والبطر، والتحاسد، والتباغض...<sup>(٣)</sup>.

\* إخباره ﷺ بوقوع الناس في المال الحرام بلا مبالاة<sup>(٤)</sup>.

\* إخباره ﷺ بفشو الربا<sup>(٥)</sup>.

\* إخباره ﷺ بأن الخمر ستشرب وتُسمى بغير اسمها<sup>(٦)</sup>.

\* إخباره ﷺ بفشو الجهل والزنا، وقلة الرجال وكثرة النساء<sup>(٧)</sup>.

(١) قال ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصري» رواه البخاري من حديث أبي هريرة، كتاب الفتن، باب خروج النار ٧٨/١٣ ح ٧١١٨، ومسلم، كتاب الفتن وأشراف الساعة، باب لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز ٢٢٢٧/٤ ح ٢٩٠٢.

(٢) انظر: شرح مسلم للنووي ٢٨/١٨.

(٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «سيصيب أمتي داء الأمم. فقالوا: يا رسول الله وما داء الأمم؟ قال: الأشر، والبطر، والتكاثر، والتناجش في الدنيا، والتباغض، والتحاسد حتى يكون البغي» أخرجه الحاكم في المستدرک ١٦٨/٤. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. والأشر: أشد البطر. انظر النهاية في غريب الحديث ٥١/١.

(٤) عن أبي هريرة قال: قال ﷺ: «يأتي على الناس زمان ما يبالي الرجل من أين أصاب المال من حلال أم حرام» رواه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب من لم يبال من أين كسب المال ٢٩٦/٤ ح ٢٠٥٩ بنحوه واللفظ للنسائي.

(٥) عن أبي هريرة قال: قال ﷺ: «ليأتين على الناس زمان لا يبقى منهم أحد إلا أكل الربا فمن لم يأكل أصابه من غباره» رواه أبو داود في سننه، كتاب البيوع، باب اجتناب الشبهات ٣/٦٢٧ ح ٣٣٣١، وسكت عليه رحمه الله.

(٦) قال ﷺ: «ليشربن ناس من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها». رواه أبو داود في سننه، كتاب الأشربة ٩٢/٤.

(٧) عن أنس قال: لأحدثنكم حديثاً لا يحدثكم أحد به بعدي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أشراف الساعة أن يقل العلم، يظهر الجهل، ويظهر الزنا، وتكثر النساء، ويقل =

- \* إخباره ﷺ بتباهي الناس في المساجد<sup>(١)</sup>.
- \* إخباره ﷺ بكثرة الفتن حتى يكون المتمسك بدينه كالقابض على الجمر<sup>(٢)</sup>.
- \* إخباره ﷺ بانقلاب موازين الحق حتى يصبح المعروف منكراً والمنكر معروفاً<sup>(٣)</sup>.
- \* إخباره ﷺ بتغير أحوال الناس فلا يسلم المسلم إلا على من يعرف<sup>(٤)</sup>.
- \* إخباره ﷺ بكثرة القتل<sup>(٥)</sup>.

= الرجال حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد» رواه البخاري، كتاب العلم، باب رفع العلم وظهور الجهل ١٧٨/١ ح ٨١.

(١) عن أنس أن النبي ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس في المساجد» رواه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب في بناء المساجد ح ٤٤٩ ورواه ابن حبان في صحيحه كما في الإحسان لابن بلبان ٧٠/٣ ح ١٦١٢.

(٢) أنس بن مالك قال: «يأتي على الناس زمان الصابر فيهم على دينه كالقابض على الجمر». رواه الترمذي في سننه، كتاب الفتن، ح ٢٢٦٠. وحسنه السيوطي في الجامع الصغير ح ٩٩٨٨.

(٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه: قال: قال رسول الله ﷺ: «سيأتي على الناس سنوات خداعات يصدق فيها الكاذب، ويكذب فيها الصادق، ويؤتمن فيها الخائن، ويخون فيها الأمين، وينطق فيها الرويضة، قيل: وما الرويضة؟ قال: «الرجل التافه في أمر العامة» رواه ابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، باب شدة الزمان ١٣٣٩/٢/٢ ح ٤٠٣٦ ورواه الحاكم في المستدرک ٤/٤٦٥، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. سنوات خداعات: يظن أن يكثر فيها الخير لكثرة الأمطار مثلاً ولكن يقل الربيع فتطمعهم بالخصب ثم تخلف، النهاية ١٤/٢.

(٤) عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من أشراط الساعة أن يسلم الرجل على الرجل لا يسلم عليه إلا للمعرفة» رواه أحمد في مسنده ٤٠٦/١ واللفظ له. وابن خزيمة في صحيحه ٢٨٣/٢ ح ١٣٢٦.

(٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يكثر الهرج. قالوا: وما الهرج يا رسول الله؟ قال: القتل القتل» رواه مسلم، كتاب العلم، باب رفع العلم وقبضه... واللفظ له ٢٢١٥/٤ ح ١٥٧ رواه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب من أجاب الفتيا بإشارة اليد والرأس ١٨٢/١ ح ٨٥ شاهد الآن الحروب الدامية، والمجازر اليومية، والاعتقالات... إلخ.

\* إخباره ﷺ بتقارب الزمان<sup>(١)</sup>.

### إخباره ﷺ بأمور سوف تقع قطعاً كما أخبر

\* إخباره ﷺ بأن أرض العرب ستعود مروجاً وأنهاراً<sup>(٢)</sup>.

\* إخباره ﷺ بأن المدينة مصونة محفوظة من المسيح الدجال والوباء العام<sup>(٣)</sup>.

\* إخباره ﷺ بأن فتناً ستظهر كقطع الليل المظلم؛ يصبح الرجل فيها مؤمناً ويمسي كافراً، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً يبيع أقوام دينهم بعرض من الدنيا<sup>(٤)</sup>.

\* إخباره ﷺ ببقاء الروم إلى قيام الساعة<sup>(٥)</sup>.

---

(١) عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يتقارب الزمان، فتكون السنة كالشهر، والشهر كالجمعة، وتكون الجمعة كالיום، ويكون اليوم كالساعة، وتكون الساعة كالضربة من النار» رواه الترمذي في سننه، كتاب الزهد، باب ما جاء في تقارب الزمان وقصر الأمل ٥٦٧/٤ وقال: هذا حديث غريب من هذا الوجه. ورواه ابن حبان في صحيحه كما في الإحسان ٢٩٧/٨ ح ٦٨٠٣.

قال ابن حجر: «قال ابن أبي حمزة: يحتمل أن يكون المراد بتقارب الزمان قصره، والقصر: يحتمل أن يكون حسياً، ويحتمل أن يكون معنوياً؛ أما الحسي فلم يظهر بعد ولعله من الأمور التي تكون قرب قيام الساعة، وأما المعنوي فله مدة منذ ظهر يعرف ذلك أهل العلم الديني ومن له فطنة من أهل السبب الدنيوي فإنهم يجدون أنفسهم لا يقدر أحدهم أن يبلغ من العمل قدر ما كانوا يعملونه قبل ذلك، ويشكون لك ولا يدرون العلة فيه ولعل ذلك بسبب ما وقع من ضعف الإيمان لظهور الأمور المخالفة للشرع من عدة أوجه». فتح الباري ١٦/١٣ - ١٧.

(٢) انظر: صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب الترغيب في الصدقة ٧٠١/٣ ح ١٥٧.

(٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال ﷺ: «لا يدخل الجنة المسيح ولا الطاعون» رواه البخاري، كتاب الطب، باب ما يذكر في الطاعون ١٧٩/١٠ ح ٥٧٣١. قال ابن الأثير في المراد بالطاعون: «هو المرض العام والوباء الذي يفسد له الهواء فتفسد به الأمزجة والأبدان» النهاية في غريب الحديث ١٢٧/٣.

(٤) انظر: صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الحث على المبادرة بالأعمال قبل أن تظهر الفتن ١١٠/١ ح ١٨٦.

(٥) قال المستورد القرشي عند عمرو بن العاص - رضي الله عنه -: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تقوم الساعة والروم أكثر الناس»، قال له عمرو: أبصر ما تقول، قال: أقول ما سمعت من رسول الله ﷺ قال: لئن قلت ذلك؛ إن فيهم خصالاً أربعاً: إنهم لأحلم =

- \* إخباره ﷺ بعودة عبادة الأصنام<sup>(١)</sup>.
- \* إخباره ﷺ بإخراج الأرض كنوزها<sup>(٢)</sup>.
- \* إخباره ﷺ بالخسف الذي سيقع بجيش سوف يغزو الكعبة<sup>(٣)</sup>.
- \* إخباره ﷺ بخروج القحطاني الذي يسوق الناس بعصاه<sup>(٤)</sup>.
- \* إخباره ﷺ بأن الرجل يتمنى الموت لكثرة الفتن<sup>(٥)</sup>.
- \* إخباره ﷺ بأن الله سيبعث ريحاً من اليمن ألين من الحرير فلا تدع أحداً

= الناس عند فتنة، وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة، وأوشكهم كرة بعد فرة، وخيرهم لمسكين ويتيم وضعيف، وخامسة حسنة جميلة. وأمنعهم من ظلم الملوك». رواه مسلم في صحيحه. كتاب الفتن وأشراف الساعة، باب تقوم الساعة والروم أكثر الناس ٢٢٢٢/٤ ح ٢٨٩٨.

(١) «لا تقوم الساعة حتى تضطرب إليات نساء دوس على ذي الخصلة». رواه البخاري، كتاب الفن، باب تغير الزمان ٧٦/١٣ ح ٧١١٦، قال ابن حجر: «ويحتمل أن يكون المراد أنهم يتزاحمون بحيث تضرب عجيزة بعضهن الأخرى عند الطواف حول الصنم المذكور» فتح الباري ٧٦/١٣.

(٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: رسول الله ﷺ «تفنى الأرض أفلاذ كبدها؛ أمثال الأسطون من الذهب والفضة، فيجئ القاتل فيقول: في هذا قتلت، ويجئ القاطع فيقول: في هذا قطعت رحمي، ويجئ السارق فيقول: في هذا قطعت يدي ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئاً» رواه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة باب الترغيب في الصدقة ٧٠١/٢ ح ١٠١٣.

(٣) عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «يغزو جيش الكعبة فإذا كانوا ببيداء من الأرض يخسف بأولهم وآخرهم. قلت: يا رسول الله كيف يخسف بأولهم وآخرهم وفيهم أسواقهم ومن ليس منهم، قال: «يخسف بأولهم وآخرهم ثم يبعثون على نياتهم» رواه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب ما ذكر في الأسواق ٣٣٨/٤ ح ٢١١٨.

(٤) عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال «لا تقوم الساعة حتى يخرج رجلٌ من قحطان يسوق الناس بعصاه» رواه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب ذكر قحطان ٥٤٥/٦ ح ٣٥١٧. قال ابن حجر: «لم أقف على اسمه، ولكن جوز القرطبي أن يكون جهجاه الذي وقع ذكره في «مسلم» من طريق أخرى عن أبي هريرة بلفظ: «لا تذهب الليالي والأيام حتى يملك رجل يقال له جهجاه» أخرجه عقيب حديث القحطاني. قوله (يسوق الناس بعصاه) هو كناية عن الملك» الفتح ٥٤٥/٦ - ٥٤٦.

(٥) انظر نص الحديث في: صحيح مسلم، كتاب الفتن، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء ٢٢٣١/٤ ح ٢٩١٠.

في قلبه مثقال حبة من إيمان إلا قبضته<sup>(١)</sup>.

\* إخباره ﷺ بأن ذكر الله سينقطع من الأرض حتى لا يقال فيها: الله، الله<sup>(٢)</sup>.

\* إخباره ﷺ بأن اليهود سيقاتلون المسلمين ثم يسلط عليهم المسلمون ويقول الحجر «يا مسلم هذا يهودي ورائي فاقتله»<sup>(٣)</sup>.

\* وسوف يرى الناس عياناً ما أخبر به المصطفى ﷺ من آيات بين يدي الساعة، ومنها: الدخان، والمسيح الدجال، وخروج الدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى ابن مريم، وظهور يأجوج ومأجوج وغيرها من الآيات التي تؤذن بقرب قيام الساعة<sup>(٤)</sup>.

---

(١) انظر نص الحديث في: صحيح مسلم في كتاب الإيمان، باب الريح التي تكون قرب القيامة تقبض من في قلبه شيء من الإيمان ١/١٠٩ ح ١١٧.

(٢) انظر نص الحديث في: صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب ذهاب الإيمان آخر الزمان ١/١٣١ ح ١٤٨.

(٣) قال ﷺ: «تقاتلكم اليهود فتسلطون عليهم حتى يقول الحجر؛ يا مسلم هذا يهودي ورائي فاقتله» رواه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام ٦/٦٠٥ ح ٣٥٩٣، ومسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء ٤/٢٢٣٩ ح ٢٩٢١.

(٤) انظر أشراط الساعة في: صحيح مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب الآيات التي تكون قبل الساعة ٤/٢٢٢٥ ح ٢٩٠١. وصحيح البخاري ٤/٤١٤ ح ٢٢٢٢، و١٣/٩٠ - ١٠٥ ح ٧١٢٤ - ٧١٣٤، وللاستزادة في معرفة أشراط الساعة انظر: كتاب «الفتن والملاحم وهو النهاية»، لابن كثير، وكتاب «الإذاعة لما كان وما يكون بين يدي الساعة»، لصديق حسن خان القنوجي، وكتاب «الإشاعة لأشراط الساعة» لمحمد بن رسول البرزنجي الحسني.

## المبحث السادس بشارات الكتب السابقة به ﷺ وانطباقها عليه ﷺ

### - علماء أهل الكتاب يشهدون له ﷺ

مِنْ عَدَلِ دينه ﷺ استشهاده بما عند أهل الكتاب من علم؛ لأن البشارة به ﷺ قد وردت في الكتب السماوية ولا سيما في التوراة والإنجيل، حتى أن أهل الكتاب كانوا ينتظرون ظهوره ﷺ.

بل إن الله ثبت رسوله محمداً ﷺ بتصديق أهل الكتاب له فيما كذبت فيه قريش، كما صدقه ورقة من نوفل والنجاشي.

قال تعالى: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍ مِمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَسَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ بَيْنِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ٩٤﴾ [يونس: ٩٤].

وقال ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدُهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ٩٥﴾ [الزعد: ٤٣].

وقال ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى نَبِيِّهِمْ فَأَمَّا وَأَسْتَكْبِرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ٩٦﴾ [الأحقاف: ١٠].

وقال: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَؤُا بَنِي إِسْرَءِيلَ ٩٧﴾ [الشعراء: ١٩٧].

وقال: ﴿الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ٩٨﴾ [القصاص: ٥٢ - ٥٣].

وقال: ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ٩٩﴾ [الأنعام: ١٠٨].

وقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ١٠٠﴾ [المائدة: ٨٣].

وقال: ﴿لَكِنَّ الرّٰسِخُوْنَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾﴾ [النساء: ١٦٢].

وقال: ﴿الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَلَكْتَبَ يَمُرُّونَهُ كَمَا يَمُرُّونَ أَثْنَاءَهُمْ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنعام: ٢٠].

### أهل الكتاب أقرب الناس تصديقاً به ﷺ لأسباب:

لا تقتصر الأسباب الداعية لإيمان أهل الكتاب به ﷺ على مجرد البشارات، فأهل الكتاب قد تجاوزوا الانحرافات والضلالات التي وقع فيها غيرهم، ولذلك كان من الواجب أن لا يعترض كتابي واحد على رسول الله ﷺ للأسباب التالية:

١ - أن أهل الكتاب يعلمون موضوع دعوة الرسل حيث دعوا إلى عبادة الله وحده، ونهوا عن الشرك، كما في قوله تعالى: ﴿وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [الزخرف: ٤٥] ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٥٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصَّلَافَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسَبَّوْا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾ [النحل: ٣٦]، ولم يخرج محمد رسول الله ﷺ عن هذه الدعوة.

٢ - أن أهل الكتاب يعلمون حال الرسل من قبل وأن الله يرسل رسلاً إلى الناس من جنس البشر، لم يرسل إليهم ملكاً، فلا يجوز لهم أن يتعجبوا من ظهور محمد رسول الله ﷺ من البشر كما تعجب بعض كفار مكة حين زعموا أن الله لا يرسل إلا ملكاً، أو رسولاً معه ملك، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَّ اللَّهُ عَلَى النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا ابْعَثْ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴿١٤﴾﴾ قُلْ لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ مَلَكًا يَمْشُونَ مَطْمَئِنِّينَ لَلَّزْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء: ٩٤ - ٩٥].

وقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّبِعُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٣﴾﴾ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَكًا مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿١٤﴾﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا



رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَرَغَصُوا بِهِ حَتَّى جِئَ ﴿١٥﴾ [المؤمنون: ٢٣ - ٢٥].

وقال: ﴿كَذَّبْتَ ثَمُودَ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا ابْشِرْنَا وَحَدًّا نَنْقَعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾﴾ [القمر: ٢٣ - ٢٤].

وقال: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا الْآخِرَةِ وَاتَرَفْتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ لِيَغْلِبْهُمَا إِذْ لَخِيَرَتٌ ﴿٣٤﴾﴾ [المؤمنون: ٣٣ - ٣٤].

٣ - أن أهل الكتاب يعلمون عاقبة المؤمنين بالرسول وجزاء المكذبين بهم، فكان من الواجب أن يبادر كل كتابي لأن يؤمن به ﷺ.

٤ - أن أهل الكتاب يعلمون عن الدين الذي بعث الله به رسله، وهو دين الإسلام بمعناه العام الذي اتفقت عليه الرسل والرسول كلهم مسلمون، فكان من الواجب على كل كتابي أن يؤمن بمن جاء به ﷺ على الوجه الأكمل. وهذه الأمور متواترة عند أهل الكتاب معلومة لهم ليست مما يشكون فيه.

وأهل الكتاب عندهم من الشهادات والبشارات بنبوة محمد ﷺ الأخبار الكثيرة، وقد أخبر الله بذلك في القرآن: ﴿وَكَتُبْنَا لَكَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا عَذَابٌ أُصِيبَ بِهِ مِنْ أَشْيَاءِ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوزًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف: ١٥٦ - ١٥٧].

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١﴾﴾ [الصَّف: ١٦].

﴿قَدْ رَأَى نَعْلَكَ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلَتَوَلَّىكَ قِبَلَهُ تَرَصَّدَهَا قَوْلَ وَجْهَكَ شَطَرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ قَوْلُوا وَجْهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِتَغْلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبَلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَئِنَ الْطَلِيلِ ﴿١٥٩﴾﴾ الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ

الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾  
[البقرة: ١٤٤ - ١٤٦].

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾  
[البقرة: ٨٩].

والأخبار بمعرفة أهل الكتاب بصفة محمد ﷺ عندهم في الكتب المتقدمة متواترة عنهم.

وكان قبل أن يبعث النبي تجري حروب وقاتل بين العرب وبين أهل الكتاب، فتقول أهل الكتاب: قد قرب مبعث هذا النبي الأمي الذي يبعث بدين إبراهيم، إذا ظهر اتبعناه، وقتلناكم معه شر قتلة، فلما بعث النبي ﷺ كان منهم من آمن به، ومنهم من كفر؛ فقال تعالى: ﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: يستنصرون بمحمد ﷺ على الذين كفروا ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

ولهذا كان النبي ﷺ في خطابه لأهل الكتاب يقول لهم: «فوالله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أني رسول الله حقاً وإني جئتكم بحق...» الحديث (١) (٢).

### ليس من شرط النبي أن يُبَشِّرَ به مَنْ تقدمه

فهناك من الأنبياء من أرسله الله ولم يُبَشِّرَ به من قبل، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ليس من شرط النبي أن يُبَشِّرَ به مَنْ تَقَدَّمَ، كما أن موسى كان رسولا إلى فرعون، ولم يتقدم لفرعون به بشارة، كذلك الخليل عليه السلام أرسل إلى النمرود ولم يتقدم به بشارة نبي إليه، وكذلك نوح وهود وصالح وشعيب ولوط لم يتقدم هؤلاء بشارة إلى قومهم بهم، مع كونهم أنبياء صادقين، فإن دلائل نبوة النبي لا تنحصر في أخبار من تقدمه، بل دلائل النبوة منها المعجزات ومنها غير المعجزات...» (٣).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ ٢٦٠/٤.

(٢) انظر ما سبق من ص ٣٣٠ - ٣٣٢: الجواب الصحيح ٣٥٩/٢ - ٣٦٧ بتصرف واختصار.

(٣) الجواب الصحيح ٣٢/٢.

## تأصيل للاستشهاد بما عند أهل الكتاب:

يجوز للمسلم أن يحتج على أهل الكتب بما جاءهم من عند الله من كتاب، أما أهل الكتاب فلا يصح لهم الاحتجاج بما جاء في القرآن كما يفعل كثير منهم، وذلك لأننا نؤمن بالرسل جميعهم ولا نفرق بين أحد منهم قال تعالى: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَكَ إِلَّا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنَتم بِهِ فَقَدْ أَهْتَدُوا وَلَوْ لَوَلُوا فإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ تَبَيَّنَ لَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾ [البقرة: ١٣٦ - ١٣٧]، ونؤمن بما جاءهم من عند الله من كتاب، ولا يجوز لهم أن يحتجوا بالقرآن لأنهم فرقوا ولم يؤمنوا بمحمد رسول الله ﷺ.

ولكن النقل عن أهل الكتاب والاحتجاج عليهم يحتاج إلى شروط ثلاثة، أو كما سماها شيخ الإسلام ثلاثة مقدمات:  
أحدها: ثبوت - النقل - عن الأنبياء عليهم السلام.  
الثانية: صحة الترجمة.

الثالثة: تفسير ذلك الكلام تفسيراً صحيحاً ومعرفة المراد منه.  
فلهذا كان المسلمون لا يردون شيئاً من أقوال الرسل، ولكن قد يكذبون الناقل عنهم، أو تفسير المفسر عنهم على وجه الغلط، وهذا بخلاف ما عليه أهل الكتاب فإنهم يكذبون نفس النبي، وهذا كفر صريح، فمتى قالوا بكذب كلمة واحدة أخبر بها الرسول بطل احتجاجهم بأي كلمة يحتجون بها يزعمون أنه تدل على مذهبهم في أي مسألة من المسائل<sup>(١)</sup>

## خطورة إنكار البشارات بمحمد ﷺ النبي الخاتم:

قد لا يعي المكذب بمحمد ﷺ أن البشارات به من المتواتر في الكتب السابقة وخطورة التكذيب بمحمد ﷺ؛ أنه يؤدي إلى تكذيب تلك الكتب التي اشتملت على تلك البشارات، فقد مضى وقت طويل جداً لا يعهد مثله في أنبياء بني إسرائيل ولم يظهر من تنطبق عليه تلك الصفات المبشر بها إلا عليه ﷺ، ومع ذلك فلا يزال اليهود والنصارى يمتنون أنفسهم بظهور من يصدق تلك البشارات،

(١) انظر: الجواب الصحيح ١/ ١٣٢ - ١٣٨.

وهم في الوقت نفسه يصعرون خدودهم ويستغشون ثيابهم ويجعلون أصابعهم في آذانهم، مما رأوا وسمعوا وعرفوا من الحق.

ولعلي أستشهد هنا بما جاء في كتبهم الموجودة بين أيدينا، مما لا يحتمل التأويل؛ إذ قد استدل الأولون بلفظ: «الفارقليط» والتي تعني «محمد» وهي لفظة قد حذفت تماماً من الطبعات الجديدة من الكتاب المقدس، ولكن مهما حاولوا أن يحرفوا من الألفاظ ويخفوا من الكتاب يأبى الله إلا أن يبقى من النور الذي جاء به موسى وعيسى بقية تهدي الناس إلى أن محمداً ﷺ هو الرسول الخاتم.

#### أولاً: بشارات التوراة - العهد القديم :-

أهمها وأصرحها: تلك البشارة الواضحة والناصعة بأن الله سيجعل من نسل إسماعيل، هذا الذي أمه هاجر أمة عظيمة جداً جداً تكون لها الغلبة الباقية في الأرض على جميع الأمم:

جاء في: «الإصحاح السادس عشر:

وأما ساراي [سارة] امرأة إبرام [إبراهيم] فلم تلد له. وكانت له جارية مصرية اسمها هاجر. فقالت ساراي لإبرام: هوذا الرب قد أمسكني عن الولادة. ادخل على جاري. لعلني أرزق منها بنين. فسمع إبرام لقول ساراي... وأعطاها لإبرام زوجه له. فدخل على هاجر فحبلت. ولما رأت أنها حبلت صغرت مولاتها في عينيها. فقالت ساراي لإبرام ظلمي عليك. أنا دفعت جاريتي إلى حضنك. فلما رأت أنها حبلت صغرت في عينيها. يقضي الرب بيني وبينك. فقال إبرام لساراي: هوذا جاريك في يدك افعلي بها ما يحسن في عينيك. فأذلتها ساراي. فهربت من وجهها، فوجدها ملاك الرب على عين الماء في البرية... وقال: يا هاجر جارية ساراي: من أين أتيت وإلى أين تذهبين؟. فقالت: أنا هاربة من وجه مولاتي ساراي. فقال لها ملاك الرب: ارجعي إلى مولاتك واخضعي تحت يديها. وقال لها ملاك الرب: تكثيراً أكثر نسلك [أي: أكثر نسلك تكثيراً] فلا يُعد من الكثرة. وقال لها ملاك الرب: هل أنت حبلتي فتلدين ابناً. وتدعين اسمه اسماعيل لأن الرب قد سمع لمذلتك. وإنه يكون إنساناً وحشياً يده على كل واحد، ويد كل واحد عليه. وأمام جميع إخوته يسكن»<sup>(١)</sup>

---

(١) سفر التكوين الإصحاح (١٦) من ١ - ١٢.

وجاء في خطاب الله لإبراهيم:

«وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه:

**ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيراً جداً.**

اثني عشر رئيساً يلد وأجعله أمة كبيرة»<sup>(١)</sup>.

وفي موضع آخر من التوراة - العهد القديم - جاء فيه:

«ورأت سارة ابن هاجر المصرية الذي ولدته لإبراهيم يمرح. فقالت لإبراهيم اطرده هذه الجارية وابنها. لأن ابن هذه الجارية لا يرث مع ابني اسحق. فقبح الأم جداً في عيني إبراهيم لسبب ابنه. فقال الله لإبراهيم: لا يقبح في عينيك لأجل الغلام ومن أجل جاريتك. في كل ما تقول لك سارة اسمع لقولها لأنه بإسحق لك نسل. وابن الجارية أيضاً سأجعله أمة نسلك»<sup>(٢)</sup> فبكر إبراهيم صباحاً وأخذ خبزاً وقربة ماء. وأعطاهما لهاجر واضعاً إياها على كتفها والولد وصرفها. فمضت وتاهت في بركة بئر سبع. ولما فرغ الماء من القربة. طرحت الولد تحت إحدى الأشجار. ومضت وجلست مقابله بعيداً نحو رمية قوس. لأنها قالت لا أنظر موت الولد. فجلست مقابله ورفعت صوتها وبكت. فسمع الله صوت الغلام. ونادى ملاك الله هاجر من السماء وقال لها مالك يا هاجر. لا تخافي لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو. قومي احملني الغلام وشدي يدك به. لأنني سأجعله أمة عظيمة. وفتح الله عينها فأبصرت ماء. فذهبت وملأت القربة ماء وسقت الغلام. وكان الله مع الغلام فكبر. وسكن في البرية وكان ينمو رامي قوس. وسكن في بركة فاران...»<sup>(٣)</sup>.

وفي هذه البشارات من الإشارات ما يلي:

- لقد بُشّرت هاجر ببشارة لم تكن لأحد من نساء العالمين ولا لمريم في

---

(١) سفر التكوين الإصحاح (١٧): ٢٠.

هذا وقد أنجب إسماعيل اثني عشر ابناً (انظر: سفر التكوين الإصحاح ٢٥: ١٣ - ١٥)، وهذا العدد كان كفيلاً بحمد الله لأن يجعل من نسل إسماعيل أمة مباركة كبيرة فيما بعد.

(٢) وعند ابن ربن الطبري: «إني جاعل ابن أمتك أيضاً لأمة عظيمة لأنه من زرعك» الدين والدولة ص ١٣٢.

(٣) سفر التكوين الإصحاح (٢١): ١١ - ٢١.

ابنها المسيح عيسى عليهما السلام إذ تكررت تلك البشارة لها ولابنها بالعلو العظيم جداً<sup>(١)</sup>.

- في هذه البشارة إخبار بأن الله جاعل لنسل إسماعيل اليد العليا على جميع الناس ولم تتم تلك البشارة من كتاب موسى وتظهر إلا بظهور محمد ﷺ<sup>(٢)</sup>.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في تعليقه على البشارتين السابقتين:  
«ومعلوم باتفاق الأمم والنقل أن إسماعيل تربى بأرض مكة فعلم أنها فاران.  
وأنه هو وإبراهيم بنيا البيت الذي ما زال محجوجاً من عهد إبراهيم، تحجه العرب  
وغير العرب من الأنبياء وغيرهم<sup>(٣)</sup>».

ولما بعث الله محمداً ﷺ أوجب حجه على كل أحد، فحجت إليه الأمم من  
مشارك الأرض ومغاريها، والبئر الذي شرب منها إسماعيل وأمه<sup>(٤)</sup>، هي بئر  
زمزم... وكانت قد عميت ثم أحيها عبد المطلب جد النبي ﷺ، وصارت السقاية  
في ولده؛ في العباس وأولاده يسقون منها...

وهذا التعظيم [لأمة إسماعيل في النصوص السابقة] المؤكد بـ«جداً جداً»  
يقتضي أن يكون تعظيماً مبالغاً فيه، فلو قدر أن البيت الذي بناه لا يحج إليه أحد،  
وأن ذريته ليس منهم نبي، كما يقوله كثير من أهل الكتاب لم يكن هناك تعظيم  
مبالغ فيه «جداً جداً»، إذ أكثر ما في ذلك أن يكون له ذرية، ومجرد أن يكون  
للرجل نسل وعقب لا يعظم به إلا إذا كان في الذرية مؤمنون مطيعون لله.

وكذلك قوله: «أجعله لأمة عظيمة» إن كانت تلك الأمة كافرة لم تكن  
عظيمة، بل كان يكون أباً لأمة كافرة، فعلم أن هذه الأمة العظيمة كانوا مؤمنين،  
وهؤلاء يحجون البيت، فعلم أن حج البيت مما يحبه الله ويأمر به، وليس في أهل  
الكتاب إلا المسلمون، فعلم أنهم الذين فعلوا ما يحبه الله ويرضاه، وأنهم وسلفهم  
الذين كانوا يحجون البيت، أمة أثنى الله عليها، وشرفها، وأن إسماعيل عظمه الله

(١) انظر: الدين والدولة، لابن الطبري ص ١٣٠.

(٢) انظر المصدر ص ١٣١ - ١٣٢.

(٣) وقد حج موسى، ويونس، وموسى عليهم السلام إليه. انظر: صحيح البخاري كتاب  
اللباس، باب الجعد ١٠/٣٥٧ ح ٥٩١٣، وصحيح مسلم كتاب الإيمان باب الإسراء ١/  
١٤٢ ح ١٦٦.

(٤) سفر التكوين الإصحاح (١٦): ١٤.

جداً جداً بما جعل في ذريته من الإيمان والنبوة وهذا هو كما امتن الله على نوح وإبراهيم بقوله ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِثْنَهُمْ مِّنْهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٦]، وقال في الخليل: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَلِئَمْ فِي الْآخِرَةِ لِمَنِ الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

فعلم بذلك أن في إسماعيل وذريته معظمون عند الله ممدوحون، وأن إسماعيل معظم جداً جداً، كما عظم الله نوحاً وإبراهيم، وإن كان إبراهيم أفضل من إسماعيل، ولكن المقصود أن هذا التعظيم له ولذريته؛ إنما يكون إذا كانت ذريته معظمة على دين حق، وهؤلاء يحجون إلى هذا البيت، ولا يحج إليه بعد مجئ محمد غيرهم... وأيضاً فهذا التعظيم المبالغ فيه الذي صار به ولد إسماعيل فوق الناس، ولم يظهر إلا بنبوة محمد ﷺ، فدل ذلك على أنه حق ومبشر به، فهذا نعت محمد ﷺ لا نعت المسيح، فهو الذي بعث بشريعة قوية، ودق ملوك الأرض وأممها، حتى امتلأت الأرض منه ومن أمته من مشارق الأرض ومغاربها، وسلطانه دائم لم يقدر أحد أن يزيله كما زال ملك اليهود وملك النصارى عن خيار الأرض وأوسطها.

ومعلوم أن يد بني إسماعيل قبل مبعث محمد ﷺ لم تكن فوق أيدي بني إسحق، بل كان في بني إسحق النبوة والكتاب، وقد دخلوا مصر زمن يوسف مع يعقوب، فلم يكن لبني إسماعيل فوقهم يد، ثم خرجوا منها لما بعث موسى، وكانوا مع موسى أعز أهل الأرض، لم يكن لأحد عليهم يد ثم مع يوشع بعده إلى زمن داود، وملك سليمان الذي لم يؤت أحد مثله، وسلط عليهم بعد ذلك بخت نصر، فلم يكن لبني إسماعيل عليهم يد، ثم بعث المسيح وخرب بيت المقدس الخراب الثاني، حيث أفسدوا في الأرض مرتين، ومن حينئذ زال ملكهم وقطعهم الله في الأرض أمماً، وكانوا تحت حكم الروم والفرس، لم يكن للعرب عليهم حكم أكثر من غيرهم، فلم يكن لولد إسماعيل سلطان على أحد من الأمم، لا أهل الكتاب ولا الأميين، فلم يكن يد ولد إسماعيل على الجميع حتى بعث الله محمداً ﷺ الذي دعا به إبراهيم وإسماعيل حيث قالوا: ﴿رَبَّنَا وَأَبْنِ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩]. فلما بُعث صارت يد ولد إسماعيل فوق الجميع، فلم يكن في الأرض سلطان أعز من سلطانهم، وقهروا فارس والروم وغيرهم من الأمم، وقهروا

اليهود والنصارى والمجوس والمشركين والصابئين، فظهر بذلك تحقيق قوله في التوراة: وتكون يده فوق الجميع ويد الكل به. وهذا أمر مستمر إلى آخر الدهر.

فإن قيل: هذه بشارة بملكه وظهوره؟ قيل الملك ملكان، ملك ليس فيه دعوى نبوة، وهذا لم يكن لبني إسماعيل على الجميع، وملك صَدَرَ عن دعوى نبوة؛ فإن كان مدعي النبوة كاذباً ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣] وهذا من شر الناس وأكذبهم وأظلمهم وأفجرهم، وملكه شر من ملك الظالم، الذي لم يدع نبوة كـ«بختنصر»..

ومعلوم أن الإخبار بهذا لا يكون بشارة، ولا تفرح سارة وإبراهيم بهذا، كما لو قيل: يكون جباراً طاغياً يقهر الناس على طاعته ويقتلهم، ويسبي حريمهم، ويأخذ أموالهم بالباطل، فإن الإخبار بهذا لا يكون بشارة، ولا يسر المخبر بذلك، وإنما تكون بشارة تسره إذا كان يعدل، وكان علوه محموداً لا إثم فيه، وذلك في مدعي النبوة لا يكون إلا وهو صادق لا كاذب<sup>(١)</sup>.

ولعل من الحكم في أن إسماعيل عليه السلام عاش في البرية أن في هذا صوناً لنسبه وحفظاً لحرية.

ويدعي اليهود بأن «فاران» جزء من أرض «سيناء»، واليهود والنصارى يرفقون بالكتاب المقدس خرائط محرفة لمنطقة «سيناء» حيث إنهم يكتبون فوقها جبال «فاران»، فلم يقتصر تحريفهم على علم التاريخ بل تعداه إلى علم الجغرافيا أيضاً.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية عن سكنى إسماعيل في جبال فاران: «هذا خبر الله في التوراة أن إسماعيل ربي وسكن في برية فاران بعد أن كاد يموت من العطش، وأن الله سقاه من بئر ماء، وقد علم بالتواتر واتفاق الأمم أن إسماعيل إنما ربي بمكة، وهو أبوه بنيا البيت، فعلم أن أرض مكة: فاران<sup>(٢)</sup>».

يقول نبيل الفضل: «إن صح هذا الموقع لفاران وأنه جزء من «سيناء» فلنا أن

(١) الجواب الصحيح ٢١٠/٥ - ٢٢٥ باختصار.

(٢) المصدر السابق ٢١٠/٥.



نسال: تُرى أي أمة كبيرة تلك التي خرجت من سيناء أو عاشت بها؟  
لا يذكر التاريخ أو علم الآثار أن هناك «أمة كبيرة» عاشت في صحراء سيناء،  
فهل نكث الله بوعده لإبراهيم؟ حاشا لله... وهم لم ينتبهوا أبداً إلى أن جبال  
الحجاز تسمى «فاران» أيضاً، ومن الحجاز خرجت «أمة كبيرة» لا شك في ذلك،  
إنها أمة العرب التي كان إسماعيل أكبر أصولها...  
وهكذا فإن فاران جبال الحجاز تُثبت تحقيق وعد الله لإبراهيم في إسماعيل  
ابنه البكر من هاجر.

أما فاران التوراتية التي يقولون أنها كانت في سيناء فهي إن وجدت لا تبرهن  
تحقيق وعد الله لإبراهيم.

إن إسماعيل وكما يثبت التاريخ قد سكن في الحجاز، عند مكة، وفيها كان  
له أبناء وأحفاد وأحفاد أشكالوا أمة كبيرة، وأهل مكة كانوا أسياد رؤساء  
العرب تماماً كما وعد الله «إبراهيم» نبيه في ابنه البكر «إسماعيل» عليهما  
السلام<sup>(١)</sup>.

بل أسياد العالم لأكثر من ألف سنة ولا يزالون يمسكون بخيار بقاع الأرض  
وأوسطها على ضعفهم الآن.  
وجاء في السفر نفسه:

«ونادى ملاك الرب إبراهيم ثانية من السماء وقال: بذاتي أقسمت يقول  
الرب: إني من أجلك فعلت هذا الأمر ولم تمسك ابنك وحيدك أباركك مباركة  
وأكثر نسلك كثيراً كنجوم السماء وكالرمل الذي على شاطئ البحر. ويرث نسلك  
باب أعدائه. ويتبارك في نسلك جميع أمم الأرض. من أجل أنك سمعت لقولي.  
ثم رجع إبراهيم إلى غلاميه. فقاموا وذهبوا معاً إلى بئر سبع»<sup>(٢)</sup>.

وقد جاء في هذا الإصحاح أكثر من مرة: أن الذبيح الذي أمر بذبحه هو «ابنه  
الوحيد» ولا شك بأن إسماعيل عليه السلام قبل مجيء إسحق هو ابن إبراهيم  
الوحيد وهذا الوصف لا يجوز إطلاقه إلا على إسماعيل عليه السلام إذ يستحيل أن  
يجتمع قوله «ابنك الوحيد» مع «إسحق» كما فعله محرفو التوراة.

(١) كتاب: هل بشر المسيح بمحمد؟، لنيل الفضل ص ١٦٨ - ١٦٩.

(٢) سفر التكوين: ٢٢.

ومعلوم بأن هذه البشارات والنبوات لم تتحقق ويأتي تأويلها إلا بظهور محمد رسول الله ﷺ، حيث إن نسل إبراهيم عليه السلام من بني إسرائيل قد عاشوا فترة طويلة من الزمن في ذل وتفرق وغربة، لا عز لهم ولا ملك ولا قوة ولا كثرة، فقد تشتت جمعهم في أرجاء الأرض، إلى أن ظهر رسول الله محمد ﷺ من نسل إسماعيل بن إبراهيم فكانت له الغلبة والنصر على الأمم الأخرى حتى: «هشموهم هشماً، وذروهم في الهواء ذراً، وطحنوهم طحناً، وانتشروا في آفاق الدنيا، ومازجوا الأمم.. وعلوهم علو الثريا وملكوا ما بين الخافقين، وحيث يصطك موج البحرين، وظهر ذكر إبراهيم على أفواه الأمم كلها صباح مساء»<sup>(١)</sup>، وحين ظهر خاتم الأنبياء والمرسلين نبينا محمد ﷺ صدق تلك النبوات.

أما أمة اليهود فكانت طائفة محدودة، وحالهم معروفة من ذل إلى ذل، وأما أمة النصارى فلم يكن ظهورهم مطابقاً لما جاء في البشارات لأن موقع ظهورهم لم يكن في بلد إبراهيم وزوجه سارة، ولا في بلد آبائهما وأجدادهما، ولا في بلد هاجر وآبائهما، وسلطانهم وعزهم لم يكن بالقدر الذي جعله الله لنبيه محمد ﷺ.

وهكذا نرى أنه ببعثة محمد رسول الله ﷺ وهو من ولد إسماعيل بن إبراهيم قد تحقق ما وعد الله به هاجر؛ إذ جعل من ذريتها أمة عظيمة جداً وكانت على يديه الهيمنة على العالم، فمن حقر ما عظمه الله كان كمن عظم من حقره الله وهذا جرم عظيم، وكفر مبين.

\* جاء في التوراة أيضاً

«جاء الرب من سيناء، وأشرق لهم من سعير، وتلألاً من جبال فاران..»<sup>(٢)</sup> وفي التوراة القديمة: «واستعلن من جبال فاران»<sup>(٣)</sup>.

قال شيخ الإسلام تعليقاً على النص السابق: «ليس بهذا خفاء على من تدبره ولا غموض، لأن مجيء الله من طور سيناء، كالذي هو عند أهل الكتاب وعندنا، وكذلك يجب أن يكون إشرافه من ساعير إنزاله الإنجيل على المسيح عليه السلام، وكان المسيح من ساعير أرض الخليل بقرية تدعى ناصرة وباسمها يسمى من اتبعه من نصارى... قلنا: أليس في التوراة أن إبراهيم أسكن هاجر وإسماعيل فاران؟

(١) الدين والدولة، لابن ربن الطبري ص ٢٣٤.

(٢) سفر التثنية الإصحاح (٣٣): ٢.

(٣) انظر: الجواب الصحيح ١٩٩/٥ ..

قلنا: دلونا على الموضع الذي استعلن الله منه واسمه فاران، والنبى الذي أنزل عليه كتاباً بعد المسيح؟ أو ليس استعلن وأعلن هما بمعنى واحد؟ وهو ما ظهر وانكشف. فهل تعلمون ديناً ظهر ظهور الإسلام وفشا في مشارق الأرض ومغاربها فشوه؟...

والبرية التي بين مكة وطور سيناء تسمى برية فاران، ولا يمكن أحداً أن يدعي أنه بعد المسيح نزل كتاب في شيء من تلك الأرض، ولا بعث نبي فعلم أنه ليس المراد باستعلانه من جبال فاران إلا إرسال محمد ﷺ وهو سبحانه ذكر هذا في التوراة على الترتيب الزماني فذكر إنزال التوراة، ثم الإنجيل، ثم القرآن، وهذه الكتب نور الله وهده.

وقال في الأول: جاء أو ظهر، وفي الثاني أشرق، وفي الثالث استعلن، وكان مجئ التوراة مثل طلوع الفجر، أو ما هو أظهر من ذلك، ونزول الإنجيل مثل إشراق الشمس؛ زاد به النور والهدى، وأما إنزال القرآن فهو بمنزلة ظهور الشمس في السماء، ولهذا قال: واستعلن من جبال فاران، فإن النبى ﷺ ظهر به نورُ الله وهده في مشرق الأرض ومغربها، أعظم مما ظهر بالكتابين المتقدمين، كما يظهر نور الشمس إذا استعلت في مشارق الأرض ومغاربها، ولهذا سماه الله سراجاً منيراً وسمى الشمس سراجاً وهاجاً.

والخلق يحتاجون إلى السراج المنير أعظم من حاجتهم إلى السراج الوهاج، فإن الوهاج، قد يحتاجون إليه في وقت دون وقت، كما قد يتضررون به بعض الأوقات، وأما السراج المنير فيحتاجون إليه في كل وقت، وفي كل مكان ليلاً ونهاراً سرّاً وعلانية. وقد قال النبى ﷺ: «زويت لي الأرض مشارقها ومغاربها، وسيلغ ملك أمتي ما زوي لي منها»<sup>(١)</sup>.

وهذه الأماكن الثلاثة أقسم الله بها في القرآن في قوله تعالى: ﴿وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونِ ۖ وَلَطُورِ سَيْنِينَ ۖ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۖ﴾ [التين: ١ - ٣].

فأقسم بالتين والزيتون؛ وهو الأرض المقدسة التي ينبت فيها ذلك، ومنها بعث المسيح، وأنزل عليه فيها الإنجيل، وأقسم بطور سينين؛ وهو الجبل الذي كلم الله فيه موسى... وأقسم بالبلد الأمين؛ وهي مكة

(١) رواه مسلم عن ثوبان بنحوه، كتاب الفتن باب هلاك هذه الأمة ٢٢١٥/٤ رقم (٢٨٨٩).

إقسام منه بالأمكنة الشريفة المعظمة الثلاثة، التي ظهر فيها نوره وهدهاء... ولما كان ما في التوراة خبراً عنها، أخبر بها على ترتيبها الزمني، فقدم الأسبق فالأسبق.

وأما القرآن فإنه أقسم بها تعظيماً لشأنها، وذلك تعظيم لقدرته سبحانه وآياته وكتبه ورسله، فأقسم بها على وجه التدرج، درجة بعد درجة، فختمها بأعلى الدرجات، فأقسم أولاً؛ بالتين والزيتون، ثم بطور سينا، ثم بمكة، لأن أشرف الكتب الثلاثة: القرآن، ثم التوراة، ثم الإنجيل، وكذلك الأنبياء فأقسم بها على وجه التدرج<sup>(١)</sup>.

ومما جاء في التوراة - مؤيداً لما سبق - قوله: «الله جاء من تيمان، والقدوس من جبل فاران... جلاله غطى السماوات، والأرض امتلأت من تسبيحه، وكان لمعان كالنور له من يده شعاع، وهناك استار قدرته»<sup>(٢)</sup>.

**ومما بشر الله به موسى عليه السلام قوله:**

«أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به»<sup>(٣)</sup>.

زعم النصارى أن المراد بتلك البشارة «المسيح» - عليه السلام - ودليلهم على ذلك قوله: «مثلك» وأن المسيح مثل موسى:

«فموسى نبي» وكذلك «المسيح»،

«وموسى يهودي»، وكذلك «المسيح».

ويهودي هنا يقصد به أنه من سلالة «يهوذا بن يعقوب» ولكن هاتين الصفتين تنطبقان على جميع الأنبياء الذين أتوا بعد موسى وقبل المسيح. فإن أصروا على أن ذلك النبي هو المسيح بسبب ذلك التشابه،

فنقول: أما كون «موسى» نبياً فهذا أمر لا شك فيه، أما قولهم إن «المسيح» هو نبي فهذا مخالف لمعتقدهم بأن يسوع هو ابن الله، فإن قالوا: هو ابن الله وهو نبي كذلك، قلنا: إنه قد اختلف عن موسى بالزيادة.

(١) الجواب الصحيح - باختصار - ١٩٩/٥ - ٢٠٨.

(٢) سفر حبقوق، الإصحاح الثالث: ٣ - ٤ ص ١١٤٢.

(٣) سفر التثنية الإصحاح ١٨: ١٨.

أما قولهم بأن الاثنين يهوديا الأصل فنقول إننا سوف نرد على هذا بعد قليل لأننا نود أن نبين جهة الاختلاف بين الاثنين وجهة التشابه بين «موسى» و«محمد» ﷺ:

«موسى» و«محمد»: لهما أم وأب بشريان معروفان، أما المسيح فلا أب بشري له.

«موسى» و«محمد»: قد تزوجا وأنجبا ذرية. أما المسيح فلم يتزوج.

«موسى» و«محمد» قد اتبعهما شعباهما وقومهما، وحكم كل منهما شعبه.

أما المسيح فلم يتبعه قومه اليهود ولم يملكوه عليهم

«موسى» و«محمد» قد أتيا بشريعة ونظام جديدين، أما المسيح فشريعته شريعة من قبله مع بعض التخفيف.

«موسى» و«محمد» لم يقوموا من الموت، أما المسيح فقد قام من الأموات كما يقولون ويقولوه الإنجيل.

«موسى» و«محمد» لم يصعدا إلى السماء بعد موتهما، أما المسيح فقد ارتفع إلى السماء كما يقول الإنجيل.

س: ترى أيهما مثل «موسى»؟، المسيح أم محمد؟

نقف عند نقطة كون المسيح كان يهودياً وموسى كان يهودياً، لو عدنا إلى النص لوجدناه لا يقول إن ذلك النبي يهودي، وإنما قال إنه مثل «موسى» والشبه ليس في الأصل والعرق، وإنما في أشياء أخرى، والدليل على ذلك أن النص في الواقع يقول إن ذلك النبي ليس يهودياً، كيف؟

لأنه لا يقول: «أقيم لهم نبياً من وسطهم» أو «منهم» بل يقول:

«أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم» فمن هم أخوة اليهود؟ إن أقرب الناس والشعوب لأن تدعى أخوة اليهود هم العرب، لأن إبراهيم - عليه السلام - هو جد اليهود والعرب، و«إسماعيل» و«إسحاق» هما جدا العرب واليهود على التوالي ومن ثم فإن ذلك النبي ليس من اليهود بل من أقرب الشعوب إليهم، ألا وهم العرب، وهنا تثور ثائرة اليهود الذين يعتقدون بأن الأنبياء والمرسلين محصورون في الشعب اليهودي فقط.

ولو دققنا النظر في النص أكثر لوجدنا دلالة أخرى تثبت أن ذلك النبي هو «محمد»، ففي قوله: «وأجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به»، ومحمد

رسول الله ﷺ كان لا يتكلم إلا بما هو موضوع في فمه من كلام: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣ - ٤].

وفي التوراة: «ويكون ابن الإنسان الذي يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطلبه»<sup>(١)</sup>.

إن القرآن هو كلام الله، وتبدأ كل سورة باسمه تعالى<sup>(٢)</sup>. وجاء في التوراة قوله: «وحي من جهة بلاد العرب. في الوعر في بلاد العرب...»<sup>(٣)</sup>.

الوحي من جهة بلاد العرب، وأي وحي جاء من بلاد العرب؟؟ ومن أظهر النبوءات قوله في التوراة: «أو يدفع الكتاب لمن لا يعرف الكتابة، ويقال له: اقرأ هذا، فيقول: لا أعرف الكتابة»<sup>(٤)</sup>.

ولك أن تقارن بين قصة نزول الوحي وهذا النص. وبهذا يتبين أن النبي المبشّر به هو محمد ﷺ، لأن النصوص ذكرت المماثلة لموسى، ومحمد مماثل لموسى في كثير من الأمور، ومن أهمها: أنه أتى بشريعة جديدة، وأنه قد أمر بالجهاد والطهارة للصلاة، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ رَسُولًا شَهِدًا عَلَيْكَ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ [المزمل: ١٥].

كما بينت النصوص السابقة أن النبي المبعوث أمي يحفظ ما يسمع «وأجعل كلامي في فمه»، وأنه أمين يبلغ الوحي دون زيادة أو نقصان: «فيكلمهم بكل ما أوصيه به»

ولو لم يظهر النبي محمد ﷺ لبطلت تلك النبوات والبشارات التي نصت عليها التوراة.

(١) سفر التثنية الإصحاح ١٨ : ١٩.

(٢) انظر: في أوجه الشبه بين موسى ومحمد عليهما السلام في كتاب: هل بشر المسيح بمحمد؟، نبيل الفضل ص ١٦٤ - ١٦٥.

(٣) سفر أشعياء الإصحاح ٢١ : ١٣ - ١٧.

(٤) سفر أشعياء الإصحاح ٢٩ : ١٢.

## البشارة به في الإنجيل ﷺ اسماً وصفة:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَتَّبِعُوا لِيَؤَيِّدُكُم بِرُوحِي وَأَتَاكُم بِالْحَقِّ كَلِمَ تَصَدِّقُوهَا لِمَا بَيْنَ يَدَيْ مِنَ التَّوْرَةِ وَبَشِّرُوا بِرُسُلِي يُؤْتِي مِنْ بَعْدِي أَهْلَهُ أَتَمُّدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٦﴾ [الصَّف: ٦].

وهذا الاسم وما يحمله من صفة يصدق على نبينا محمد ﷺ بكل دقة، لكثرة حمده، وثنائه على الله، فأول سورة جاءت في الكتاب «الحمد لله رب العالمين» وتفتح بها الصلوات، وتقرأ في كل ركعة، وكان يبدأ خطبه بالحمد لله، ويبدأ بها رسائله وغير ذلك...

كما يصدق عليه اسم «محمد» لكثرة خصاله الحميدة وأخلاقه العظيمة. وممن ذهب إلى هذا الرأي ابن القيم؛ في أن ما جاء في الكتب المتقدمة وصفه<sup>(١)</sup>، بينما ذهب الأكثرون إلى أن النص جاء باسمه الصريح<sup>(٢)</sup>

### بشارات الإنجيل - العهد الجديد :-

قال المسيح - عليه السلام -: «لا تظنوا أنني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء. ما جئت لأنقض بل لأكمل. فإني الحق أقول لكم إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل»<sup>(٣)</sup>. هذا النص له أهميته في النقاط التالية:

- ١ - التأكيد على أن دين الأنبياء واحد وهو التوحيد، وفي ذلك إبطال لما زعمه النصارى من أن المسيح إله من دون الله
- ٢ - التأكيد على ما بشر به الأنبياء من قبل.

### نصوص البشارات من الإنجيل:

جاءت البشارة في إنجيل يوحنا، قال المسيح عليه السلام: «الحق الحق أقول لكم. الذي يقبل من أرسله يقبلني. والذي يقبلني يقبل الذي أرسلني»<sup>(٤)</sup>

(١) انظر: هداية الحيارى ص ٩١.

(٢) انظر: الفصل، لابن حزم ٥٨/١، الإعلام، للقرطبي ص ٢٧٣ وغيرهما.

(٣) متى: الإصحاح ٥: ١٧: ١١ - ١٨.

(٤) يوحنا الإصحاح (١٢): ٢٠.

في النص السابق بيان تلازم الإيمان بالمسيح مع الإيمان بمحمد ﷺ الذي بشر به المسيح - عليه السلام - ومن لم يقبل محمداً وكفر به فهو في الوقت نفسه كافر بالمسيح، وفيه أيضاً تلازم الإيمان بالرسول مع الإيمان بالله الذي أرسل الرسل.

وقال المسيح معتذراً عن عدم إكماله الدين كله: «إن لي أموراً كثيراً أيضاً لأقول لكم، ولكن لا تستطيعون أن تحملوا الآن»<sup>(١)</sup>.

وفي هذا النص تعليل لضرورة إرسال نبي بعده، وقد سبق في علم الله أن المسيح ليس الرسول الخاتم لعدم مناسبة أهل زمنه لتحمل الرسالة الخاتمة «ولكن لا تستطيعون أن تحملوا الآن».

وقال المسيح طالباً من الله أن يرسل مَنْ يبقى هديته للأبد، وتكون له الرسالة الخاتمة: «إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي. وأنا أطلب من الآب فيعطيكُم مُعزّياً آخر ليمكث معكم إلى الأبد. روح الحق الذي لا يستطيع العالم أن يقبله لأنه لا يراه ولا يعرفه. وأما أنتم فتعرفونه لأنه ماكث معكم ويكون فيكم لا أترككم يتامى»<sup>(٢)</sup>.

والمعنى أن المسيح - عليه السلام - يطلب من الله إرسال رسول مصدق له يبقى هديته إلى قيام الساعة؛ وكأن الناس بدون دين كامل كاليتامى بدون أب، ومحمد رسول الله ﷺ معه من الهداية ما يصلح أن يكون هداية أبدية أي رسالة خاتمة.

والنص التالي فيه بشارة وتوضيح للمراد بالآب، وبيان لنبوة المسيح ونفي الألوهيته، وهو في الإصحاح نفسه:

«إن أحببني أحد يحفظ كلامي ويحبه أبي وإليه نأتي... الذي لا يحبني لا يحفظ كلامي. والكلام الذي تسمعون ليس لي بل للآب الذي أرسلني. بهذا كلمتكم وأنا عندكم. وأما المعزّي الروح القدس الذي سيرسله الآب باسمي فهو يعلمكم كل شيء ويذكركم بكل ما قلته لكم... ولو كنتم تحبونني لكنتم تفرحون لأنني قلت أمضي إلى الآب. لأن أبي أعظم مني. وقلت لكم الآن قبل أن يكون

(١) يوحنا الإصحاح (١٦): ٢٠.

(٢) يوحنا الإصحاح (١٤): ١٥ - ١٨.



حتى متى كان تؤمنون. لا أتكلّم أيضاً معكم كثيراً لأن رئيس هذا العالم يأتي وليس له في شيء. ولكن ليفهم العالم أنني أحب الآب وكما أوصاني الآب هكذا أفعل»<sup>(١)</sup>.

وفي الإصحاح التالي من إنجيل يوحنا نفسه قوله: «لكن لكي تتم الكلمة المكتوبة في ناموسهم إنهم أبغضوني بلا سبب. ومتى جاء المعزي الذي سأرسله أنا إليكم من الآب روح الحق الذي من عند الآب ينبثق فهو يشهد لي. وتشهدون أنتم أيضاً لأنكم معي من الابتداء»<sup>(٢)</sup>.

أما النص التالي ففيه وضوح على أن مهمة المسيح قد انتهت، وسوف يأتي نبي بعده يرشد العالم كله إلى الخير، وما هو إلا وحي يوحى: «ولكني أقول لكم الحق: إنه خير لكم أن أنطلق. لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزي. ولكن إن ذهبت أرسله إليكم. ومتى جاء ذاك يبكّت العالم على خطية وعلى برّ وعلى دينونة. أما على خطية فلأنهم لا يؤمنون بي. وإما على بر فلأنني ذاهب إلى أبي ولا ترونني أيضاً. وإما على دينونة؛ فلأن رئيس هذا العالم قد دين.

وإن لي أموراً كثيراً أيضاً لأقول لكم، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن. وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلّم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلّم به ويخبركم بأمر آتية»<sup>(٣)</sup>.

هذه النصوص مأخوذة من النسخة المعاصرة المتداولة الآن<sup>(٤)</sup>، وهي الطبعة المعتمدة التي تطبع وتوزع في العالم، وتنشرها الكنائس حول العالم كله. أما الترجمات القديمة والنسخ القديمة فلا يذكرون «المعزي» وإنما يقولون: «الفارقليط» أو «البارقليط» ولكن هذه اللفظة حذفت من الطباعات الجديدة، لأن معناها من أصلها اليوناني: الحمد.

(١) يوحنا الإصحاح (١٤): ٢٣ - ٣١.

(٢) يوحنا الإصحاح (١٥): ٢٥ - ٢٧.

(٣) يوحنا (١٦): ٧ - ١٣.

(٤) الطبعة التي نقلت منها طبعة دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، يأتي في صدر كل إصحاح منها ذكر الموضوعات الرئيسة التي يتضمنها الإصحاح، وفي كل صفحة هوامش تتضمن إحالات لمواضع مشابهة للموضوع نفسه.

Arabic Bible 053 UBS-EPF 1995-series 6.5M.

وأما النص المطبوع مع تفسير الإنجيل، فقد جاء بتحريف آخر، فبدلاً من النص المعتمد الحالي السابق نقله: «إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي. وأنا أطلب من الآب فيعطيكُم مُعزِّيًّا آخر ليُمكث معكم إلى الأبد»<sup>(١)</sup> قالوا: «إن كنتم تحبونني فاعملوا بوصاياي. وسوف أطلب من الآب أن يعطيكُم معيّنًا آخر يبقى معكم إلى الأبد»<sup>(٢)</sup> فغيروا لفظ المعزي إلى المعين.

وجاء في تفسير كلمات الكتاب المقدس عندهم ما نصه: «معزياً (باراكليتوس): الشفيع - المحامي - المدافع - المعزي»<sup>(٣)</sup>.

### بيان بطلان تاويل النصارى لكلمة «المعزي»

بعد أن حرفوا كلمة (المعزي) إلى (المعين) قاموا بتأويل كلمة (معين) بـ(روح القدس) وكل ما أشير إليه آنفاً في الإصحاحات على أنها مبشرات بالنبيّ الجديد الخاتم الذي: يمكث معكم إلى الأبد (١٤ : ١٦)، وهو يعلمكم كل شيء (١٣ - ٢٦)، ويذكر بأقوال المسيح (١٤ : ٢٦) وهو مصدر كل الحق (١٥ : ٢٦)، ومتى جاء يبكت العالم على خطية وعلى برٍّ وعلى دينونة. أما على خطية فلأنهم لا يؤمنون بي. وإما على بر فلأنني ذاهب إلى أبي ولا ترونني أيضاً. وإما على دينونة؛ فلأن رئيس هذا العالم قد دين... ومتى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمر آية (١٦ : ٧ - ١٣)

وذكروا أن المراد بهذا كله هو الروح القدس<sup>(٤)</sup>.

ويعترض د. القس منيس عبد النور «النصراني» على احتجاج المسلمين بالنصوص الواردة في «المعزي» بعدة اعتراضات فيقول: «وللرد نقول:

(١) يوحنا الإصحاح (١٤): ١٥ - ١٧.

(٢) التفسير التطبيقي للعهد الجديد، وزعموا أنهم أخذوا النص الكتابي من الترجمة الحديثة للكتاب المقدس ص ٣٦٠ - ٣٦٥،

New Arabic Version (nav) Fook of Life second print 1996.

(٣) تفسير كلمات الكتاب المقدس، معجم الألفاظ العسرة، سيد مرقس إبراهيم ص ٤٢٣.

(٤) انظر: التفسير التطبيقي للعهد الجديد ص ٣٦٠ - ٣٦٥.

١ - (المعزي)، وفي اليونانية (بارقليط) تعني: (المؤيد) أو (الوكيل)، ولقب (المؤيد والوكيل) لا يصح إسنادهما إلى مخلوق، لأنهما من ألقاب الله.

٢ - لم تستعمل كلمة البارقليط (المعزي) في أسفار العهد الجديد إلا للدلالة على الروح القدس، وجاءت أيضاً للتلميح إلى المسيح.

٣ - هل تظنون أن مراد المسيح أن ينتظر تلاميذه بدون أن يمارسوا عملهم حتى يجيء نبي بعده؟ هذا محال<sup>(١)</sup>.

أقول: لم أقصد من هذا النقل بيان أنهم يحرفون النصوص فحسب بل لكي أبين طريقة ردودهم على الحق بأسلوب في غاية الضعف وما سبق نقله خير مثال على ما ذكرت؛ إذ ما المانع من إطلاق وصف (الوكيل) أو (المؤيد) على غير الله؟؟

وأما النقطة الثانية فقد نقض آخرها أولها بنفسه، ثم إن المعزي جاءت مراراً وتكراراً في «الكتاب المقدس» في أكثر من عشرة مواضع، أما مادة (عزي) فقد وردت أكثر من مائة مرة<sup>(٢)</sup>.

وأما النقطة الأخيرة: فلا أدري كيف توصل إلى تعطيل العمل بالشرعية بناء على الإيمان بالبشارة، فلو صح هذا لتوقف العمل بشرع كل من جاء ببشارة!!

ويذهب د. نبيل الفضل إلى أن كلمة «الروح القدس» التي جاءت بعد المعزي في النصوص: تحريف بالإضافة، كما أضافوا «إسحق» بعد قول الرب لإبراهيم «ابنك وحيدك...»

ثم قال: «فمثلما كان مستحيلاً على «إسحق» أن يكون المقصود بالابن الوحيد، كذلك هو مستحيل على «الروح القدس» أن يكون المقصود «بالمعزي»... والمنطق فيقول: إن افترضنا أن ذلك «المعزي» هو «الروح القدس»

---

(١) كتاب: شبهات وهمية حول الكتاب المقدس ص ٤٠٢ - ٤٠٣. وهذا الكتاب يُعلن عنه كثيراً في الإذاعات التبشيرية التي تصل للعالم الإسلامي ليقننيه المسلمون عبر المراسلة مجاناً. وهو من إصدار: كنيسة قصر الدوبارة الإنجيلية، القاهرة.

(٢) انظر فهرس الكتاب المقدس، د. جورج بوست ص ٤٠١ - ٤٠٢، وهو قاموس يُستدل به من ألفاظ الكتاب المقدس على مواضع آياته، وهو على غرار المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم.

فإننا أمام خيارين:

١ - إن نبوءة المسيح لم تتحقق . .

٢ - إن «الروح القدس» كان محابياً لبعض التلاميذ على البعض الآخر فآثرهم بتذكر أشياء نسيها الآخرون»<sup>(١)</sup>.

بدلالة:

النص الإنجيلي: «لكني أقول لكم الحق إنه خير لكم أن أنطلق. لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزي. ولكن إن ذهبت أرسله إليكم»<sup>(٢)</sup>.

ثم إن «الروح القدس» قد أتى من قبل بنص إنجيلهم:

«ولما كانت مريم أمه مخطوبة ليوسف قبل أن يجتمعا وجدت حبلى من الروح القدس»<sup>(٣)</sup>.

وجاءت نصوص صريحة تبين أن الروح القدس قد نزل على المسيح عليه السلام:

«ونزل عليه الروح القدس بهيئة جسيمة مثل حمامة»<sup>(٤)</sup>.

ومن خلال النص التالي يمكن أن ندرك أيهما أحق بالمراد؛ أهو محمد ﷺ أم الروح القدس؟:

«وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمر آتية»<sup>(٥)</sup>.

أما مهمة هذا «المعزي» فمن الواضح أن المراد بها غير الروح القدس بل محمد ﷺ حيث إنه ﷺ هو الذي قام بالمهام الثلاث:

«ومتى جاء ذاك:

يبكت العالم على خطية،

وعلى بر،

---

(١) هل بشر المسيح بمحمد؟ نبيل الفضل ١٨٨ - ١٨٩.

(٢) يوحنا الإصحاح (١٦) ٧.

(٣) متى الإصحاح (١) ١٨.

(٤) لوقا الإصحاح (٣) ٢٢.

(٥) يوحنا الإصحاح (١٦) ١٣ - ١٤.

وعلى دينونة.

أما على خطية: فلأنهم لا يؤمنون بي.  
وأما على بر: فلأنني ذاهب إلى أبي ولا ترونني أيضاً.  
وأما على دينونة: فلأن رئيس هذا العالم قد دين<sup>(١)</sup>.

قال نبيل الفضل:

«إذن فهناك مهام ثلاث لهذا المعزي:

١ - إنه يدعو للإيمان بالمسيح.

٢ - إنه يؤكد ارتفاع المسيح إلى الله.

٣ - إنه يحاكم رئيس هذا العالم ويدينه.

وهو في كل ذلك إنما يفعل للعالم كله وليس لمجموعة محدودة من الناس.  
أما دعوة محمد ﷺ للإيمان بالمسيح، فهي أمر لا يحتاج إلى دليل، وأما شهادته بأن المسيح قد ارتفع إلى الله، فهي موجودة في القرآن، وأما محاكمته لرئيس هذا العالم، فهي ما يحتاج إلى بعض الشرح؛ من هو رئيس العالم؟ حسب المفهوم الإنجيلي فإن رئيس هذا العالم هو الشيطان [ والرسول أعظم من أدانه وحذر منه ]... ألا ترى أيها القارئ أن محمداً ﷺ هو الذي قام بما وعد المسيح به التلاميذ من أعمال يقوم بها ذلك «المعزي»<sup>(٢)</sup>.

قال ﷺ: «إني دعوة إبراهيم، وبشارة عيسى، ورؤيا أمي التي رأت حين وضعتني وقد خرج لها نور أضاءت لها منه قصور الشام»<sup>(٣)</sup>

وباختصار نقول: إن تطبيق البشارة الأخيرة يحتاج إلى النظر في الأوصاف الواردة في «المعزي»، والذي كان يطلق عليه «الفارقليط» في الأناجيل القديمة، ومؤخراً ظهرت لفظة «المعين» بديلاً عن «الفارقليط» و«المعزي» في أحدث تطورات التحريف والتغيير والتبديل للإنجيل، وبالرغم من ذلك فليتنظر في أوصافه ومدى انطباقها على نبينا محمد ﷺ، ثم بيان بطلان تأويلات النصارى لهذه اللفظة

(١) يوحنا، الإصحاح ١٦: ٨ - ١١.

(٢) هل بشر المسيح بمحمد؟، نبيل الفضل ص ١٩٢ - ١٩٣

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرک عن العرياض بن سارية، وقال صحيح الإسناد وأقره الذهبي ٦٠٠/٢، وذكره أبو نعيم في الدلائل ص ٩.

«المعزّي» أو «المعين» بالروح القدس!! . وهذا ما حاولت القيام به ، سائلاً الله الهداية والتوفيق<sup>(١)</sup> .

---

(١) اقتصر في ذكر البشارات على أقواها - كما ظهر لي :-

وللاستزادة من البشارات انظر في الكتب التالية:

- خير البشر بخير البشر، لابن ظفر الحموي ت ٥٦٥هـ
- مسالك النظر في نبوة سيد البشر، سعيد بن حسن الإسكندراني ت ٦٩٨هـ.
- البشارة بنبي الإسلام في التوراة والإنجيل «رسالة دكتوراه» د. أحمد حجازي السقا.
- محمد ﷺ كما ورد في كتاب اليهود والتوراة، البروفسور عبد الأحد داود، ترجمة محمد فاروق الزين.
- بشارات الأنبياء بمحمد ﷺ، لعبد الوهاب عبد السلام طويلة.
- ماذا يقول الكتاب المقدس عن محمد ﷺ؟ ترجمة مجدي محمد عبد الرحمن.
- بشارات النبوة الخاتمة، د. رؤوف شليبي.
- محمد ﷺ في بشارات الأنبياء، محمد الشرقاوي.
- ربح محمد ﷺ ولم أخسر المسيح عليه السلام، د. عبد المعطي الدالاتي.
- محمد ﷺ نبي الإسلام في التوراة والإنجيل والقرآن، المستشار محمد عزت الطهطاوي.

## المبحث السابع

### آياته الأخرى (معجزاته ﷺ)

تعريف المعجزة: أقرب التعريفات - في نظري - للصواب، وأسلمها من الاعتراضات التعريف التالي:

«ما قصد به إظهارُ صدق من ادعى أنه رسول الله»<sup>(١)</sup>.

أما التعريفات الأخرى فلا تخلو من اعتراضات ومناقشات أعرض عنها لما تتضمنه من قيود وشروط باطلة<sup>(٢)</sup>.

---

(١) وهو تعريف الإيجي في كتابه «المواقف في علم الكلام» ص ٣٣٩. والإيجي: هو عبد الرحمن ابن أحمد بن عبد الغفار، أبو الفضل، عالم بالأصول والمعاني من (إيج) بفارس ولي القضاء، واتهمه القوطي بالفجور والفلسفة، مات سنة ٧٥٦هـ انظر: الأعلام ٣/ ٢٩٥.

(٢) لمعرفة مذهب المعتزلة في المعجزات انظر: «شرح الأصول الخمسة»، للقاضي عبد الجبار ص ٥٦٨ - ٥٧١. و«روح المعاني» للألوسي - في ثنايا كلامه عن موقف المعتزلة من السحر - ٣٣٨/١، وقد ناقشهم شيخ الإسلام ابن تيمية في شروطهم للمعجزة وفند لوازمهم الباطلة في كتابه «شرح الأصبهانية» ص ٤٧١ - ٦١٥ تحقيق فضيلة الشيخ د. محمد بن عوده السعوي،

ولمعرفة تعريف المعجزة عند جل المتكلمين انظر: «المستصفى»، للغزالي ٦/١، و«الأربعين»، للرازي ص ٢٠.

وقد نقل شيخ الإسلام ابن تيمية التعريف المشهور عنهم للمعجزة بطريقة تظهر عدم إقراره له فقال: «فإن من جعل المعجزات [وحدھا] دليلاً على نبوة نبي، وقال: المعجزة هي الفعل الخارق للعادة، المقرون بالتحدي، السالم من المعارضة ونحو ذلك مما يذكر في هذا المقام وجعلوا ذلك دليلاً على نبوة موسى وعيسى وغيرهما قيل: إن كان هذا دليلاً فهو دليل على نبوة محمد ﷺ، وإن لم يكن دليلاً؛ لم يكن دليلاً على نبوة موسى وعيسى، فإنه قد ثبت عن محمد ﷺ من المعجزات ما لم يثبت مثله عن غيره، ونقل معجزاته متواتر أعظم من نقل معجزات عيسى وغيره، فيمتنع التصديق بآياته مع التكذيب بآيات محمد ﷺ» الجواب الصحيح ٤٣/٢ - ٤٤.

أما أولئك الذي اشترطوا «التحدي» في المعجزات<sup>(١)</sup> فإنهم بهذا الشرط قد أخرجوا كثيراً من آياته ﷺ؛ كحنين الجذع، ونبع الماء من بين أصابعه، وتكثيره، وإمداد الملائكة في الغزوات وغيرها. فمعجزاته؛ منها ما هو مقرون بالتحدي كالقرآن الكريم، ومنها ما هو غير مقرون؛ فإن الآيات التي جاء بها ﷺ لا تتضمن شرط التحدي سوى القرآن<sup>(٢)</sup>.

الحقيقة أن غالب الشروط التي اشترطت في المعجزة كانت من أجل التمييز بين خوارق العادات التي تظهر على يد كل من النبي والساحر والكاهن والولي، وهؤلاء لو تأملوا في حال الداعي والدعوة ودليل الدعوة قليلاً لعلموا: «أن آيات الأنبياء مما يعلم العقلاء أنها مختصة بهم ليست مما تكون لغيرهم فيعلمون أن الله لم يجعل مثلها لغير الأنبياء، وسواء في آيتهم التي كانت في حياة قومهم، وآياتهم التي فرق الله بها بين أتباعهم وبين مكذبيهم، بنجاة هؤلاء وهلاك هؤلاء، ليست من جنس ما يوجد في العادات المختلفة لغيرهم... المقصود أن جنس الأنبياء متميزون عن غيرهم بالآيات والدلائل الدالة على صدقهم، التي يعلم العقلاء أنها لم توجد لغيرهم، فيعلمون أنها ليست لغيرهم لا عادة ولا خرق عادة...»<sup>(٣)</sup>

ثم إن خوارق السحرة والكهان من جنس أفعال الحيوان والجن فالقتل والطيران في الهواء من بلد إلى بلد، أو إحضار ما سرق ونحوها من الأعمال؛ كلها مقدورة غير خارجة عن قدرة المخلوق؛ فإن الموت والمرض والحركة أعراض، والحيوان يقبل في العادة هذه الأعراض، وهذا بخلاف كون الماء القليل نفسه يفيض حتى يصير كثيراً، أو أن ينبع الماء من بين الأصابع من غير زيادة

= هذا وقد ذكر جمال الحسيني أبو فرحة «عشرين شرطاً للمعجزة»!! في كتابه «ميزان النبوة المعجزة» - وهي رسالة علمية - بتقديم شيخ الأزهر محمد سيد طنطاوي، انظر تلك الشروط في المصدر نفسه: ص ١٦ - ٧٤، وللباحث نفسه تحفظات على بعضها.

(١) ومن الذين اشترطوا التحدي كل من: السيوطي في كتابه «اللائقان في علوم القرآن» ٢/ ١١٦، ومحمد سعيد رمضان البوطي في كتابه «كبرى اليقينيّات» ص ٢٢٩، ويوسف النبهاني في كتابه «حجة الله على العالمين في معجزات سيد المرسلين ﷺ» ص ١١.

(٢) لمناقشة من اشترط التحدي في المعجزات انظر: كتاب «النبوات» لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ١٥٦.

(٣) النبوات - باختصار - ص ١٦١ - ١٦٥.



يزادها، فهذا لا يقدر عليه إنسي أو جني<sup>(١)</sup>

فالأمران مفترقان بين آيات الأنبياء وخوارق السحرة والكهان، فالآيات تأييد من الرحمن، وخوارق السحرة والكهان تعاون وتلاعب من الشيطان، بالجن والإنسان.

علماً بأن هذه اللفظة؛ أي (المعجزة) لم ترد في القرآن دليلاً على النبوة، والذي ورد دليلاً على النبوة ألفاظ وتسميات أخرى، وهي كالتالي:

#### - الحق:

في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لِسِحْرٌ مِثْلُ مَا قَالِ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ۝﴾ [يونس: ٧٦ - ٧٧].

#### - البينات:

في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ...﴾ [الرؤم: ٤٧]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ...﴾ [الإسراء: ١٠١].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ...﴾ [البقرة: ٨٧].

#### - البرهان:

في قوله تعالى: ﴿أَسْأَلُكَ بِذَلِكَ فِي جَنَّاتِكَ نَخْرِجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمَمُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْمِ فَذَنْبُكَ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ...﴾ [القصاص: ٣٢].

#### - الآية:

في قوله تعالى عن معجزة موسى: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْنَا الْكَافِرِينَ ۝﴾ [النازعات: ٢٠] وقال عن معجزة صالح: ﴿وَأِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْفَوْرُ آعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَبَرٌ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا يُسَوِّفَ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝﴾ [الأعراف: ٧٣].

(١) انظر: النبوات - بتصرف - ص ٤ - ٧.

- سلطان:

في قوله تعالى ﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الذاريات: ٣٨].

\* وقد سمى الله ما جعله دليلاً على نبوة محمد ﷺ:

- آية:

كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [الأنعام: ٤]، كما قال تعالى: ﴿أَفَتَرَبَّيْتُ السَّاعَةَ وَأَنشَقُّ الْقَمَرُ﴾ [الأنعام: ١ - ٢].

﴿وَمَنْ يَسْتَعِزَّ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلاًّ آيَةٍ لَا يَأْمِنُوا بِهَا...﴾ [الأنعام: ٢٥].

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّنْهُنَّ يَتْلِيهِمْ رَأْيَ الْكَاذِبِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بَصَرَهُمْ مِنْ شَاءِ لَيْسَ فِي ذَلِكَ لَمِزَةً لَّا تُؤْذِي الْأَبْصَارَ﴾ [آل عمران: ١٣].

- وبرهاناً:

كما قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُم بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكَ وَأُنزِلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤].

وهذا الألفاظ إذا سُميت بها آيات الأنبياء، كانت أدل على المقصود من لفظ المعجزات.

**المعجزات ليست مستحيلة عقلاً:**

من العجيب حقاً أن يتناقض أصحاب المدرسة الفكرية الواحدة في المسألة نفسها:

- فأصحاب الاتجاه العقلاني القديم - المتكلمون؛ من المعتزلة والأشاعرة والماثرية والزيدية - قالوا بانحصار دلائل النبوة في المعجزات

- أما أصحاب الاتجاه العقلاني الحديث فقد حاولوا جردهم نفي المعجزات

- تأثراً بحصر الإيمان في الحسيات - ما عدا القرآن كما سبق بيانه<sup>(١)</sup>.

(١) انظر: في هذه الرسالة؛ مبني: مذهب المتكلمين في إثبات نبوته ص ١٦٨ - ١٨٦، =

والحقيقة أن المعجزات ليست من الممتنعات أو المستحيلات عقلاً بل هي جائزة عقلاً وشرعاً، وهي من الممكنات العقلية، إذ المعجزات ليست من قبيل الجمع بين النقيضين أو رفعهما أو من الدور أو التسلسل<sup>(١)</sup>

بل كان من الواجب على أصحاب الاتجاه العقلاني الحديث مع تأثرهم بالعلم الحديث ومنهجه ورؤيتهم لتلك المخترعات الحديثة؛ كطيران الإنسان في الهواء وقطع المسافات الطويلة في الزمن القليل مما كان يعد مستبعداً في ظن الناس ألا يقولوا باستحالة المعجزات.

### إنما الآيات عند الله

لم يجب القرآن على مطالب المشركين المتعنتة في تعيين المعجزات ونوعها، وإنما يظهر الله على يد نبيه ما شاء من الآيات وهو سبحانه أعلم حيث يجعل آيته، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَكَ لَكَ حَقٌّ تَفْجُرُ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَبُوءًا ۖ أَوْ تَكُونُ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّحِيلٍ وَعَسَىٰ فَتُنَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ۖ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قِيَلًا ۖ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَقًّا نَّزَلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ۖ﴾ [الإسراء: ٩٠ - ٩٣].

### والجواب:

﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ۖ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ۖ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ۖ﴾ [الإسراء: ٥٩].

وقال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنَنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ۖ وَنُقَلِّبُ أَفْعَادَهُمْ وَابْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ۖ﴾ [الأنعام: ١٠٩ - ١١٠].

قال ابن كثير: «اقتضت الحكمة الإلهية، والرحمة الربانية ألا يجابوا إلى ما سألوا، لأن الله علم أنهم لا يؤمنون بذلك فيعاجلهم بالعذاب»<sup>(٢)</sup>.

= ومذهب العقلانية المعاصرة ص ١٨٧ - ١٩٤.

(١) انظر: القول الفصل، لمصطفى صبري ص ٢٥ - ٢٨. والإسراء والمعراج، د. محمد محمود أبو شهبة ص ١٣.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ٤٩/٣ - ٥٢.

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أُولَٰئِكَ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَذِبٍ لَّكَاذِبُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الْقَصَص: ٤٨].

وقال الزمخشري تفسيراً للآية السابقة: «أي فلما جاءهم الحق: وهو الرسول المصدق بالكتاب المعجز مع سائر المعجزات، وقطعت معاذيرهم وسد طريق احتجاجهم ﴿قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾ [الْقَصَص: ٤٨] من الكتاب المنزل جملة واحدة ومن قلب العصا حية، وفلق البحر وغيرها من الآيات فجاءوا بالاقتراحات المبنية على التعنت والعناد، كما قالوا: (لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك) وما أشبه ذلك<sup>(١)</sup>».

### أقسام المعجزات:

ذهب المعتزلة إلى أن معجزات الرسول قسمان:

١ - القرآن

٢ - معجزات أخرى سوى القرآن، وهذا القسم على نوعين:

الأول: ما لا يقدر في مقدور العباد عليه؛ كقلب العصا حية.

الثاني: ما يدخل جنسه في مقدور العباد؛ كتحريك الأجسام الثقيلة من

غير ممارسة.

وقد جعل المعتزلة معجزات الرسول من النوع الثاني، وضربوا لذلك أمثلة؛ إشباع العدد الكبير، وحنين جذع النخلة، ومنها إخباره عن الغيوب، أما ما حدث قبل البعثة ولو صح انطباق شرطهم عليه - كحادث شق الصدر - فلا يُعد من آياته ﷺ فما كان في طفولته من معجزات يجب تأويله وحمله على أنه معجز لنبي آخر عُرف ذلك النبي أم لم يُعرف، واستثنوا معجزة كلام المسيح في المهد لقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾﴾ [مريم: ٣٠] وقالوا: ليس بممتنع أن يجعل الله عقل الصبي كاملاً في حال صغره ويبلغ في الفضل مبلغ الأنبياء!!<sup>(٢)</sup>.

(١) تفسير الكشاف للزمخشري ٣٨٤/٢.

(٢) انظر: المغني للمقاضي عبد الجبار ٢١٥/١٥، وشرح الأصول الخمسة، له ص ٥٩٥ - ٥٩٧، وراجع شرح الزمخشري لسورة الشرح ٧٧٠/٤.

وذهب الأشاعرة في تقسيمها للمعجزات - بناء على شروطها عندهم - إلى قسمين:

- ١ - ظهور فعل ليس معتاداً وجود مثله .
  - ٢ - تعجيز الفاعل بشيء معتاد عن فعل مثله؛ كمنع ذكرى عليه السلام عن الكلام ثلاث ليال بعد أن كان معتاداً له!! .
- وقد اهتموا بالقسم الأول حيث جعلوه على نوعين:

- ١ - نوع يندرج تحته المعجزات العقلية كالقرآن
  - ٢ - نوع يشتمل على أمور خارقة للعادة لا تدخل تحت قدرة أحد من الخلق كانشقاق القمر، وتسليم الحجر، وحنين الجذع، وإشباعه الخلق الكثير من الطعام اليسير . . .
- أما ما وقع قبل البعثة فقد منعه من الدخول ضمن المعجزات<sup>(١)</sup> وما ألجأهم إلى هذا إلا تلك الشروط والقيود التي ذكروها في المعجزة .
- وخلاصة القول في تقسيم المتكلمين للمعجزات هو أنهم لما حصروا دليل نبوة النبي بالمعجزات خسروا على هذا الأساس كثيراً من الدلائل فقاموا بالتقسيم لعلهم يدخلون في قسم منها أكثر ما يمكن من الدلائل تحت مسمى المعجزات العقلية أو المعجزات المعنوية مع أن كثيراً مما ذكروه لا يتطابق من الشروط والقيود التي ذكروها في المعجز<sup>(٢)</sup> .

أما مذهب السلف فهو أوسع المذاهب في ذكر آيات الأنبياء، فلم يحجروا واسعاً، ولم يغلقوا الباب في وجه الأخبار الواردة فيها، ولم يشترطوا التواتر أو التحدي أو كونها محددة بزمان النبوة ونحوها من الشروط التي تضيق ما وسع السلف الأخذ منه، وخير من يمثل السلف في ذلك البخاري رحمه الله، والذي عقد باباً في صحيحه بعنوان: «باب علامات النبوة في الإسلام» ويلاحظ دقته في اختيار كلمة «علامات» فالمعجزات لفظ حادث، والمقصود بال «علامات»: ما جعل علامة على صدق النبي ﷺ<sup>(٣)</sup>

---

(١) انظر للتوسع في مبحث المعجزات وأمثلتها عند الأشاعرة: الإبانة، للأشعري، ورسالة إلى أهل الشجر ص ٢٩١، والتمهيد ص ١٥٨، والاقتصاد في الاعتقاد ص ١٦٧، وشرح المقاصد للفتازاني ١٣٩/٢ .

(٢) انظر: مبحث منهج المتكلمين في إثبات النبوة ص ١٦٨ - ١٨٦ من هذه الرسالة .

(٣) فتح الباري ٥٨٠/٦ .

قال ابن حجر: «أما ما عدا القرآن من نبع الماء من بين أصابعه وتكثير الطعام، وانشقاق القمر ونطق الجماد، فمنه ما وقع التحدي به، ومنه ما وقع دالاً على صدقه، من غير سبق تحدي. ومجموع ذلك يفيد القطع بأنه ظهر على يديه من خوارق العادات شيء كثير؛ كما يقطع بوجود حاتم، وشجاعة علي، وإن كانت أفراد ذلك ظنية، وردت مورد الآحاد، مع أن كثيراً من معجزات النبوة قد اشتهر وانتشر، ورواه العدد الكثير، والجَم الغفير، وأفاد الكثير منه القطع عند أهل العلم بالآثار، والعناية بالسير والأخبار، وإن لم يصل عند غيرهم إلى هذه الرتبة، لعدم عنايتهم بذلك، بل لو ادعى مدع أن هذه الوقائع مفيدة القطع بطريق نظري لما كان مستبعداً»<sup>(١)</sup>.

والحكم على الشيء فرع عن تصوره؛ فالجهلة بعلم الأسانيد والرجال لا يعلمون عظمة هذا العلم ودقته، إذ الداعي له والباعث عليه هو المحافظة على سنة الحبيب المصطفى؛ وهو ﷺ أحب إلى المسلم من ولده ووالده ونفسه والناس أجمعين، فكيف يمكن لمن هذا حاله أن يُهمَل شأن الثبوت في النقل عنه؟.

قال محمود شكري الألوسي عن تنوع المعجزات ونصيب نبينا محمد ﷺ منها: «ينقسم ما خرج عن العادة على عشرة» وبعد أن سردها قال: «وقد ظهر في نبوة محمد ﷺ أكثر تلك الأقسام مع ما تقدّمها من إنذار، وظهر بها من آثار، وتحقق بها من أخبار، فصارت أعم النبوات إعجازاً، وأوضحها طريقة وامتيازاً، وأكثرها تأييداً إلهياً، وتعبداً شرعياً، تقهر شواهداها من باين وعاند، وتحجج دلائلها من ناكِر وجاحد، لأن المهيأ لأمر مطبوع على آله، ومنقاد إلى غايته، حتى يتدرج إليه من غير تكلف، ولم تزل آمارات النبوة لائحة في رسول الله ﷺ حين تدرج إليها وهو غافل عنها، وغير متصنع لها، فنهض بأعبائها حين أتته، وقام بحقوقها حين لزمته، غير ذاهل فيها، ولا عاجز عنها، إلى أن تكامل الشرع فتم على أصل مستقر، وقياس مستمر، لا يدفعه عقل ولا ياباه قلب، ولا تنفر منه نفس؛ هذا وهو أُمي لم يقرأ كتاباً، ولا اكتسب علماً فأوضح كل ملتبس، وبين كل مشتبّه، حتى رجع كثير من الملل إلى شريعته في علل ما قصروا عنه من حقوق وعقود، استوعب أقسامها، وبين أحكامها، وما ذلك إلا بعون إلهي، وإمداد لاهوتي، وحسبك بهذا شاهداً لو اقتصرنا عليه، وحجاجاً لو اكفينا به، ولكن قد ألفت كتب في معجزاته، وواضح آياته، مما يرد كل جاحد، ويصد كل معاند، من أنواع

---

(١) المصدر السابق ٥٨٢/٦.

متغايرة، وأخبار متواترة، وآثار متظاهرة، يصدق بعضها بعضاً ليكون تغايرها جامعاً لكل برهان، وتظاهرها دافعاً لكل بهتان... لتكون أصح بياناً، وأوضح برهاناً، وأعلها شأنًا، وأحقها بالمسابقة والتقديم إعجاز القرآن العظيم لأنه أصل شرعته، ومستودع رسالته<sup>(١)</sup>.

وهناك تقسيمات فنية تصنيفية للمعجزات؛

فمنهم من يقسمها إلى معنوية وحسية.

وهناك من يقسمها إلى باقية ومنتهية.

وهناك من يقسمها إلى علوية وسفلية.

وهناك من يقسمها إلى قولية وحسية.

وهناك من يقسمها إلى المتواتر وما دون المتواتر<sup>(٢)</sup>.

\* وأجمع التقسيمات وأشملها لمعجزاته ﷺ تقسيم شيخ الإسلام ابن تيمية وذلك بارجاعها إلى جهات الكمال وهما جهتان:

١ - ما كان جهته العلم

٢ - ما كان جهته القدرة:

والقدرة: إما على الفعل وهو التأثير.

وإما على الترك وهو الغنى.

والقدرة والتأثير:

إما أن تكون في العالم العلوي؛ كانشقاق القمر.

وإما أن تكون فيما دونه:

وما دونه: إما بسيط وإما مركب:

والبسيط: إما في الجو كالاستسقاء، وإما في الأرض كتكثير الماء

والمركب: إما في الحيوان، وإما في النبات، وإما في الجبل... وهذا

التقسيم تقسيم دقيق ومستوعب لآياته ﷺ<sup>(٣)</sup>.

(١) الدلائل العقلية - مخطوط - ل ٤ - ٦.

(٢) الشفاء، للمقاضي عياض ٤٩٣/١. وانظر الأربعين، للرازي ٨٧/٢ - ١٠، والمواقف، للإيجي ص ٣٤١.

(٣) انظر: النبوت ص ٧، وقاعدة شريفة في المعجزات ص ١١ - ١٩، والجواب الصحيح =

## نماذج من آياته ﷺ

**المطلب الأول: ما كان جهته العلم. وأمثله:**

يعد المبحث الخامس من هذا الفصل هو من باب الإخبار بالعلوم الغيبية ولولا أن الخطة نصت على هذا المطلب والأمثلة عليه لاكتفيت بما سبق تفصيله هناك. ولكن يمكن تناول هذا الموضوع تناولاً آخرًا، حيث إن هذه العلوم الإعجازية التي جاء بها محمد ﷺ يمكن تصنيفها كما يلي:

**أولاً: علوم تاريخية لا يتخلف منا حدث تاريخي واحد:**  
والإعجاز في هذه العلوم على ضربين:

### الضرب الأول:

أن النبي ﷺ وهو أمي أخبر بعلوم ماضية تفصيلية دقيقة جاءت مطابقة للواقع، ومصححة لما هو مشوه أو محرف تاريخياً، فجاء على سبيل المثال بتنزيه الأنبياء، وتبرئتهم مما ألصق بهم، وهذا ينطبق على قصص الأنبياء الواردة في القرآن.

### الضرب الثاني:

أن النبي ﷺ أخبر بوقوع أحداث فتأولت منها أخبار في زمنه ﷺ ومنها بعد وفاته ﷺ، ومنها لما يأتي تأويله فهي إذن على ثلاثة أنواع:

= ١٥٩/٦ - ٣٨٦.

ولم يرتض جمال الجسيني صاحب كتاب «ميزان النبوة المعجزة» هذا التقسيم حيث زعم أن العلم يُرد إلى القدرة!!، وقال: «أما تلك التقسيمات الفرعية التي ذكرها ابن تيمية وغيره فأرى أن لا فائدة منها» ص ١٧٨، ولكن لا نعجب من كلامه إذا قرأنا كلامه التالي: «وأرى أن تحقق ما أخبر به النبي ﷺ من غيب ليس بمعجز بذاته لأنه حدث عادي!... ومن ثم يمكن اعتبار هذه المعجزة عقلي باعتبار أن عقل الرسول معجز لأنه علم بإعلام الله تعالى مالا تعلمه عقولنا. كما يمكن اعتبارها حسية؛ لأننا سمعنا النبوءة بآذاننا ورأينا تحققها بأعيننا» المصدر نفسه. وقد قسم المعجزات إلى حسي ومعنوي فقط، وهو تقسيم يؤدي إلى الخلط والاضطراب حيث جعل القرآن معجزة حسية معنوية!! ص ١٨١. ولنقد هذا التقسيم بشيء من التفصيل انظر: كتاب «نبي الإسلام بين الحقيقة والادعاء»، د. عبد الراضي عبد المحسن ص ١٦٤.



\* النوع الأول: الأخبار التي وقعت كما أعلم بها فمنها على سبيل المثال:

إخباره ﷺ بدخول البيت الحرام، وهم بعد في المدينة ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّبَيَّا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِينَتَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ۝﴾ [الفتح: ٢٧]، وأخبر بهزيمة المشركين وهو في مكة وهو بين أظهرهم ﴿سَيَهْرُمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبَرَ ۝﴾ [القمر: ٤٥]، وأخبر بإلقاء الرعب في قلوب الكافرين قبل وقوعه فوق ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَكِكَةِ أُنْزِلْ إِلَيْكَ مِنْكَ فَتُؤْتَىٰ أَلَّذِينَ ءَامَنُوا سَأَلَتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأُفْرِغُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ۝﴾ [الأنفال: ١٢]، وأخبر بقوله تعالى: ﴿الَّذِي غَلَبَتْ الرُّومُ ۝ فِي أَثَرِ الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝ فِي بَضْعِ سِنِينَ ۝ لِلَّهِ الْأَثَرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝ يَنْصُرُ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝﴾ [الروم: ١ - ٥] فغلبت الروم ثم غلبت الروم الفرس في بضع سنين، ونزل قوله تعالى: ﴿وَنَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ سَيفُ الْقُرْآنِ يَنْقُضُ الرُّومَ وَالْغُلَامَ ۝﴾ [البقرة: ١٤٢] قبل قولهم هذا ولما سمعها سفهاء مكة قالوا ﴿مَا وَلَهُمْ عَن قِبَلِهِمْ﴾!!، وأخبر عن هلاك أبي لهب والوليد بن المغيرة كافرين في سورتي المسد والمدثر، فلم يسلما وماتا، وأخبر عن نصر الإسلام وظهوره: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ۝﴾ [التوبة: ٣٣]، وها هو الإسلام إلى اليوم باق بعقائده الثابتة التي لم تحرف، وشرائعه العادلة التي لم تغير، ومصادره المخفوظة التي لم تبدل، ورفعته الواسعة التي لم تستأصل.

وأخبر ﷺ فيما جاء في السنة الصحيحة<sup>(١)</sup> بمصارع كفار من قريش في بدر بل وعين أماكن مصرعهم قبل وقوع الغزوة بدقة، وقد كان كما أخبر وحدد ﷺ، وأخبر ﷺ بانتهاء زمن غزو المشركين للمسلمين بغزوة الأحزاب وبالفعل اندحر كفار قريش وأصبحت المبادرة بعدها للمسلمين، وأخبر بلحوق ابنته ﷺ فاطمة - رضي الله عنه - به بعد موته وقد كان، وأخبر ﷺ بفتح بيت المقدس وبلاد الفرس ومصر وقد فتحت في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وأخبر ﷺ بأن أسرع زوجاته لحوقاً به بعد وفاته زينب بنت جحش رضي الله عنها وقد كان. وأخبر ﷺ

(١) سأكتفي بسرد مضمون الخبر إذ سبق ذكر وتخريج هذه الأحاديث الصحيحة التي تتضمن تلك الأخبار والعلوم المعجزة في هذه الرسالة ص ٣١٥ - ٣٢٧ من مصادرها.

بقتال الترك وقد وقع. وأخبر ﷺ بأن الفتن ستدخل على المسلمين بقتل عمر، وهذا ما حصل. وأخبر ﷺ بأن المسلمين سيغزون في البحر، وقد كان. وأخبر ﷺ بوقع فتنة عظيمة بين فئتين من المسلمين، وقد كان، وأخبر ﷺ بالصلح الذي جرى بين المسلمين بعد الفتنة على يد الحسن بن علي رضي الله عنهما. وأخبر ﷺ بظهور فرقة الخوارج وظهرت وخرجت. وأخبر ﷺ بأن الله سيفتح على المسلمين بالقرون المفضلة فتحاً عظيماً، وقد كان؛ حيث كانت ذروة الفتوحات الإسلامية في عصر القرون المفضلة. وأخبر ﷺ باستقرار أمن الجزيرة العربية قبل موت أصحابه، فلما أسلم عامة أهل الجزيرة العربية في عهد الخلفاء الراشدين سادها الأمن والاستقرار. وبشر ﷺ الصحابة الكرام - وهم في أحلك الأوقات في غزوة الخندق محاصرين - بأن الله سيفتح على المسلمين كلاً من الشام، وفارس، واليمن، وفتحت كلها في زمن قصير جداً. وأخبر ﷺ بأن الناس سيكتفون من الأموال إلى درجة أن الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة فلا يجد من يقبله، وهذا ظهر كما أخبر في زمن عمر بن عبد العزيز الخليفة الراشد. وأخبر ﷺ بأن بركاناً سيقع بالحجاز، وقد وقع بجانب المدينة الشرقي وراء الحرة.

\* النوع الثاني: ما عَلَّمَهُ ﷺ وأعلم الناس به بأمور تقع ومن أمثلة ذلك: ظهور داء الأمم في هذه الأمة من التنافس على الدنيا، والبطر، والتحاسد، والتباغض، ووقوع الناس في المال الحرام بلا مبالاة، وفشو الربا فشواً عظيماً، وانتشار شرب الخمر حتى تُسمى بغير اسمها، وفشو الجهل، والزنا، وقلة الرجال وكثرة النساء، وتباهي الناس في المساجد، وكون المتمسك بدينه كالقابض على الجمر. وانقلاب موازين الأمور، وتغير أحوال الناس فلا يسلم المسلم إلا على من يعرف، وكثرة القتل، وتقارب الزمان.

\* النوع الثاني: ما علمه ﷺ وأعلم الناس به بأمور سوف تقع في المستقبل ولما يأتي تأويلها، ومنها: أن أرض العرب ستعود مروجاً وأنهاراً، وستبقى المدينة مصونة محفوظة من المسيح الدجال والوباء العام، وستظهر فتنٌ كقطع الليل المظلم؛ يصبح الرجل فيها مؤمناً ويمسي كافراً، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً يبيع أقوام دينهم بعرض من الدنيا، وسيبقى الروم إلى قيام الساعة، وستعود عبادة الأصنام، وستخرج الأرض كنوزها، وسيخسف بجيش يغزو الكعبة، وسيخرج القحطاني الذي يسوق الناس بعصاه، وستكثر الفتن حتى يتمنى الرجل الموت، وسيبعث الله ريحاً من اليمن ألين من الحرير فلا تدع أحداً في قلبه مثقال حبة من

إيمان إلا قبضته، وسينقطع ذكر الله من الأرض حتى لا يقال فيها: الله، الله، وسيقاتل اليهود المسلمين ثم يسلط عليهم المسلمون ويقول الحجر والشجر: «يا مسلم هذا يهودي ورائي فاقتله»، وسوف يرى الناس عياناً ما أخبر به المصطفى ﷺ من أشراط الساعة كالدخان، والمسيح الدجال، وخروج الدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى ابن مريم - عليه السلام -، وظهور يأجوج ومأجوج، وغيرها من الآيات التي تؤذن بقرب قيام الساعة.

### ثانياً: علوم هي من قبيل التحدي:

منها: تحدي اليهود بتمنى الموت، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَمُنُّونَ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ٧﴾ [الجمعة: ٧]. وإلى الآن لم يتمن الموت يهودي.

ومنها: عصمة الله لرسوله من الناس وكفايته له، وحفظ القرآن الكريم من التغيير والتبديل والتحريف.

### ثالثاً: علوم هي من قبيل السنن التي لا تتخلف:

منها: أن الله ينصر جنده، وينصر من ينصره، كما قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ٥٥﴾ [التور: ٥٥].

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الرُّسُلَ ٧١﴾ إِنَّهُمْ لَمُؤْمِنُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّا لَجُنَدَا لَهُمُ الْغَالِيُونَ ﴿٧٣﴾ [الصفافات: ١٧١ - ١٧٣].

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ٥١﴾ [غافر: ٥١].

### رابعاً: علوم هي من قبيل فضح ما يضمره الكفار في نفوسهم:

كما فضح القرآن مؤامرة المنافقين مع يهود بني النضير وما دار بينهم من اتفاق في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُولَيَنَّ الْأَدْبَرَ ثُمَّ لَا يُصَرُّوكَ ﴿١٢﴾ [الحشر: ١١ - ١٢].

وإخباره أن الباعث على بناء المسجد الذي بناه المنافقون هو الضرار لغيرهم من المسلمين، والكفر بالله، والمباهاة لأهل الإسلام، والتفريق بين المؤمنين، والإرصاد والإعداد لمن حارب الله ورسوله، وقولهم إنهم أرادوا ببناء هذا المسجد الحسنى، والله يشهد إنهم لكاذبون كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ لَكُمْ أَنْهُمْ لَكَذِبُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [التوبة: ١٥٧].

#### خامساً: علوم تبين صفة الخلق والكون بحقائق يستحيل تكذيبها:

وهذه العلوم هي من باب الإعجاز لكونها قد جاءت من رجل أمي لا يقرأ ولا يكتب وفي بيئته لا تسمح له مطلقاً بمعرفة تلك الأسرار الكونية وما اصطُح عليه اليوم بعلوم «الإعجاز العلمي» داخل في هذا الباب.

والأمثلة على هذا كثيرة، ومنها: الإخبار بأن الله خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام، وأن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقهما سبحانه، وأنه جعل من الماء كل شيء حي، والإخبار بأن الله مد الأرض ودحاها وجعلها فراشاً للناس، وجعل السماء بناء ذات حبك ورفعها بغير عمد، وأنها ذات بروج، والإخبار بأن الذي يصعد في السماء يضيق صدره، والإخبار بأن الله خلق الإنسان من طين لازب، من صلصال كالفخار من حمأ مسنون، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، وخلق سبحانه كل دابة من ماء، وأخبر بأطوار خلق الإنسان منذ خروج الماء الدافق من بين الصلب والترائب إلى أن يستقر في القرار المكين في بطن أمه في ظلمات ثلاث، مروراً بخلقه أطواراً من نطفة ثم علقه ثم مضغة، وأن تكون العظام يسبق اللحم إلى أن يسر السيل بخروجه من بطن أمه، والإخبار بأن العسل فيه شفاء للناس، والإخبار بكيفية خروج اللبن من بين فرث ودم، والإخبار بكيفية تكون السحاب والبرد ونزول المطر، والإخبار بأن الجبال أوتاد لكيلا تמיד الأرض، والإخبار بجريان الشمس، وبمنازل القمر، وولوج الليل في النهار وولوج النهار في الليل، وأن الليل يغشي النهار يطلبه حثيثاً، والإخبار بوجود برزخ بين البحرين، وأخبر بعلوم قد يخفى ضررها على الناس فنهى عن شرب الخمر وأكل الخنزير وأكل الميتة والدم والإسراف في الأكل والشرب، ونهى عن إتيان المرأة في دبرها أو وهي حائض، ونهى عن التبول في الماء الدائم ثم الوضوء منه. إلى غير ذلك من العلوم العجيبة، والآيات العظيمة.

هذا ولا تخرج علوم شريعته ﷺ عن الأعجاز بما جاء به ﷺ من علوم، فإن مجرد النظر في باب واحد منها كأحكام الموارث أو الحدود والجنايات مثلاً نجد أنها تحمل المرء على اليقين برسالته ﷺ إذ كيف يمكن لرجل أمي نشأ بين رعاة الإبل وعبداء الأصنام أن يأتي بكل تلك العلوم والأحكام، وما تضمنته من إتقان وإحكام، ولذلك سأفرد الحديث عن شريعته ﷺ بمبحث مستقل لبيان كونها آية على نبوة محمد رسول الله ﷺ.

### المطلب الثاني: ما كان جهته القدرة:

\* الإسراء والمعراج؛ فقد أسرى الله بعبد محمد ﷺ ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم عرج به إلى ما فوق السموات، والمعجزة الكبرى في الإسراء والمعراج؛ قطعه تلك المسافات العليا لرؤية آيات ربه الكبرى<sup>(١)</sup>، وقد أخبرهم ﷺ بنعت المسجد الأقصى فلم يخرم منه شيئاً، ووصف القافلة المقبلة على مكة فجاءت كما وصف؛ فظهر لهم صدقه، وكان صدقه في هذا آية على صدقه فيما غاب عنهم.

وهذا ثابت بالتواتر من القرآن السنة؛ أما القرآن ففي قوله تعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ الْإِسْرَاءِ ۖ إِنَّهُمْ هُمُ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝﴾ [الإسراء: ١].

وقوله تعالى: ﴿أَمْتَرُونَهُ عَلَيَّ مَا يَرَى ۝ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ۝ عِنْدَ مِدْرَءٍ النَّتْنَى ۝ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى ۝ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى ۝ مَا رَأَى الْبَصَرُ وَمَا طَعَى ۝ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ۝﴾ [النجم: ١٢ - ١٨].  
وأما أحاديث الإسراء والمعراج فثابتة بالتواتر أيضاً<sup>(٢)</sup>.

(١) وشيخ الإسلام يؤكد في أكثر من موضع على أن قطع المسافة البعيدة في الزمان اليسير ليس هو المعجز الأكبر المختص به ﷺ، فقد سخرت الرياح لسليمان، ونقل عرش بلقيس عن طريق عفريت من الجن، [بل في زماننا نرى هذا الأمر عن طريق الطيارات والصواريخ التي تقطع المسافات البعيدة في الزمن اليسير] وإنما الإعجاز الأعظم في الإسراء والمعراج؛ هو ما رآه من الآيات التي اختص بها فوق سبع سموات. انظر: الجواب الصحيح ١٦٧/٦ - ١٦٨. ثم إن ذلك الانتقال لم يكن بوسيلة عادية، ولم يكن في زمن عادي.

(٢) ذكره السيوطي في (قطف الأزهار المتناثرة في الأخبار المتواترة) ص ٢٦٣ رقم ٩٦، والحديث أخرجه الشيخان وغيرهما، وذكره الكتاني في (نظم المتنائر من الحديث =

\* حنين الجذع حزناً على بعده عنه ﷺ وشوقاً إليه ﷺ<sup>(١)</sup>.

وقد روى البخاري فيه ثلاثة أحاديث - أذكرها لما فيها من موقف مؤثر :-

١ - عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «كان النبي ﷺ يخطب إلى جذع، فلما اتخذ المنبر تحول إليه، فحن الجذع، فأتاه فمسح يده عليه».

٢ - عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: «أن النبي ﷺ كان يقوم يوم الجمعة إلى شجرة أو نخلة، فقالت امرأة من الأنصار - أو رجل -: يا رسول الله ألا نجعل لك منبراً؟ قال: إن شئتم، فجعلوا له منبراً، فلما كان يوم الجمعة دُفِع إلى المنبر، فصاحب النخلة صباح الصبي، ثم نزل النبي ﷺ فضمه إليه؛ يئن أنين الصبي الذي يُسْكَن»، وجاء في رواية الدارمي عن ابن عباس: «لو لم أحتضه لحن إلى يوم القيامة»

٣ - وعن جابر أيضاً مرفوعاً، وفي آخره:

«فلما صُنع له المنبر فكان عليه ﷺ فسمعنا لذلك الجذع صوتاً كصوت العِشَار<sup>(٢)</sup>، حتى جاء النبي ﷺ فوضع يده عليها فسكنت»<sup>(٣)</sup>.

= (المتواتر) ص ٢٠٧ رقم ٢٥٨، وقال: «مجموع رواه خمسة وأربعين صحابياً» وذكر منهم سبعة وعشرين نفساً، انظر: المصدر السابق. ثم ذكر الأحاديث المتواترة المتعلقة بأحاديث الإسراء؛ أحاديث البراق متواتر، وأحاديث أن موسى عليه السلام في السماء السادسة، وأحاديث فرضية الصلاة في تلك الليلة، وحديث شق الصدر ليلة الإسراء. انظر: (نظم المتنائر من الحديث المتواتر) للكتاني ص ٢٠٨ - ٢٠٩ رقم ٢٥٩، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٦٢.

(١) وهو حديث متواتر ذكره السيوطي في: «قطف الأزهار المتناثرة في الأخبار المتواترة»، من طريق عشرة أنفس ص ٢٦٨ رقم ٩٨، ورواه الشيخان وغيرهما، وذكره الكتاني في: «نظم المتنائر من الحديث المتواتر»، ص ٢٠٩ رقم ٢٦٣. وقال ابن كثير في الشمائل: ورد من حديث جماعة من الصحابة بطرق متعددة تفيد القطع عند أئمة هذا الشأن وفرسان الميدان» ص ٢٣٩.

(٢) والعِشَار: جمع عشراء، من الإبل وهي الناقة التي أتت عليها عشرة أشهر، وفي رواية: «اضطربت تلك السارية كحنين الخُلُوج» والخُلُوج الناقة التي انتزع منها ولدها. انظر: لسان العرب مادة (عشر) ٥٧٢/٤، وفتح الباري ٦/٦٠٢.

(٣) صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام الأحاديث ٣٥٨٣ - ٣٥٨٥ الفتح ٦/٦٠١ - ٦٠٢، ورواية الدارمي ذكرها ابن حجر في المصدر السابق من الفتح.

قال الشافعي رحمه الله: «ما أعطى الله نبياً ما أعطى محمداً ﷺ فقلت [الراوي عنه]: أعطى عيسى إحياء الموتى، قال [الشافعي]: أعطى محمداً حنين الجذع حتى سُمع صوته فهذا أكبر من ذلك»<sup>(١)</sup>.

\* لجوء الجمل إلى النبي ﷺ يشكو مالكة وعينه تدمعان فمسح عليه ﷺ فسكن وانتصر له من مالكة الذي آذاه<sup>(٢)</sup>.

\* إنشقاق القمر في عهد النبي ﷺ لما طلب المشركون آية على نبوته؛ وهذا أمر ثابت بالتواتر من القرآن: ﴿أَفَرَأَيْتِ السَّاعَةَ أَفَاشَقَّ الْقَمَرُ ۖ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعَرِّضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ۖ﴾ [القمر: ١ - ٢].  
وأحاديث انشقاق القمر ثابتة من السنة بالتواتر أيضاً<sup>(٣)</sup>.

وانشقاق القمر قد عاينه الناس، وتواترت به الأخبار، وكان النبي ﷺ يقرأ سورة القمر في المجامع الكبار مثل الجمع والأعياد<sup>(٤)</sup> ليسمع الناس ما فيها من آيات النبوة ودلائلها والاعتبار، ومعلوم أنه لو لم يكن انشقاق القمر لأسرع الناس إلى تكذيب ذلك؛ المؤمنون به فضلاً عن أعدائه من الكفار والمنافقين، لا سيما وهو يقرأ عليهم تلك السورة في أعظم مجامعهم ومعلوم أيضاً أن محمداً ﷺ كان من أحرص الخلق على تصديق الناس له واتباعهم إياه، مع أنه كان من أخبر الناس بسياسة الخلق، فلو لم يكن القمر قد انشق لما كان يخبر بهذا، ويقرأه على جميع الخلق، ويستدل به، ويجعله آية له، فإن من يكون من أقل الناس خبرة بالسياسة لا يعمد إلى ما يعلم جميع الناس أنه كاذب به فيجعله من أعظم آياته الدالة على صدقه ويقرأه على الناس في مجامعهم الكبيرة<sup>(٥)</sup>.

(١) عزاه ابن حجر إلى «مناقب الشافعي» عن ابن أبي حاتم عن أبيه عن عمرو بن سواد به «الفتح» ٦/٦٠٣.

(٢) وهو حديث متواتر ذكره السيوطي في قطف الأزهار المتناثرة في الأخبار المتواترة ص ٢٦٦ رقم ٩٧. وذكره الكتاني في: نظم المتناثر من الحديث المتواتر، ص ٢١٥ رقم ٢٦٩.

(٣) ذكرها الكتاني في: نظم المتناثر من الحديث المتواتر، ص ٢١١ رقم ٢٦٤ ورواه الشيخان وغيرهما انظر: صحيح البخاري مع الفتح ٧/١٨٣ - ١٨٥.

(٤) انظر: صحيح مسلم، كتاب صلاة العيدين، باب ما يقرأ في صلاة العيدين، حديث ٨٩١، ٦٠٧/٢.

(٥) انظر: الجواب الصحيح ١/٤١٨، - ٦/١٥٩ - ١٦٤.

## \* نبع الماء من بين أصابعه ﷺ وتكثيره:

روى البخاري في صحيحه سبعة أحاديث تدل على هذه الآية تحت: «باب علامات النبوة»، أختار أحدها:

«عطش الناس يوم الحديبية... قالوا: ليس عندنا ماء نتوضأ به ولا نشرب إلا ما بين يديك، فوضع يده ﷺ في الزكوة فجعل الماء يثور بين أصابعه كأمثال العيون، فشرينا وتوضأنا. قلت: كم كنتم؟ قال: لو كنا مائة ألف لكفانا، كنا خمسة عشر مائة»<sup>(١)</sup>

قال القاضي عياض: «أما الأحاديث في هذا فكثيرة جداً... ومثل هذا في هذه المواطن الحافلة، والجموع الكثيرة لا تنطرق التهمة إلى المحدث به، لأنهم كانوا أسرع شيء إلى تكذيبه، لما جُبلت عليه النفوس في ذلك، ولأنهم كانوا ممن لا يسكت على باطل، فهؤلاء قد رويوا هذا، وأشاعوه، ونسبوا حضور الجماء الغفير له، ولم يُنكر أحد من الناس عليهم ما حدثوا به عنهم؛ أنهم فعلوا وشاهدوه فصار كتصديق جميعهم له»<sup>(٢)</sup>.

وقال القرطبي عن ثبوت هذه الآية: «وقد روي نحو هذا من طرق كثيرة لا يتطرق لها الكذب ولم يردها أحد من أهل العقل والأدب، لكونها وقعت في جموع كثيرة وتناقلها جماعات عديدة، يدينون تحريم الكذب، ويرونه أقبح شبهة، وأشنع سبب، بل يبادرون إلى ذم الكاذب، وإظهار فضيحته، ولا يقرون شيئاً من الكذب بحال عند معرفته»<sup>(٣)</sup>.

ثم قال: «وإذا تأمل العاقل والمنصف هذا الباب علم أن نبينا محمداً ﷺ أوتي مثل معجزة موسى، التي هي نبع الماء من الحجر، وزاد عليه نبع الماء من بين أصابعه... من اللحم أعجب من انفجاره من الحجارة»<sup>(٤)</sup>.

---

(١) صحيح البخاري كتاب المناقب ٥٨١/٦ ح ٣٥٧٦، وانظر: نظم المتناثر من الحديث المتواتر، للكتاني ص ٢١٢ رقم ٢٦٥

(٢) الشفا ٤٠٥/١

(٣) الإعلام ص ٣٥٢.

(٤) المصدر السابق ص ٣٥٣ - ٣٥٤، وانظر: فتح الباري ٥٨٥/٦ حيث نقل ابن حجر عن المزني نحوه من كلام القرطبي



## \* تكثير الطعام:

يكثر ببركة يده الشريفة ﷺ الطعام القليل للعدد الكثير، أو بدعائه ﷺ فيأكل الناس الحاضرون كلهم ويشربون حتى يشبعوا، ولا سيما في أوقات شدة الجوع والعطش الذي كان يصيب المسلمين<sup>(١)</sup>.

وقال القاضي عياض: «وأكثرها في قصص مشهورة، ومجامع مشهودة؛ لا يمكن التحدث عنها إلا بالحق، ولا يسكت الحاضر لها على ما أنكر منها»<sup>(٢)</sup>.

## \* تسليم الحجر وارتجاف الجبل:

كان حجرٌ بمكة يسلم على رسول الله قبل أن يبعث<sup>(٣)</sup>، ورجف جبل أحد لما صعد عليه ﷺ وصحبه الكرام فقال: «أُثِّبْتُ أحد» فثبت<sup>(٤)</sup>.

## \* كلام الشجر معه ﷺ وطواعيتها له<sup>(٥)</sup>:

وآياته ﷺ كثيرة<sup>(٦)</sup>، وقد حاولت أن أمثل لكل نوع بمثال والله المستعان الكبير المتعال.

هذا وإن من أعظم آيات النبي ﷺ والتي لم ينص عليها من صنف في الدلائل؛

## \* كونه ﷺ آخر الأنبياء وخاتم المرسلين:

ومن عادة العلماء أنهم يوردون ذلك في خصائصه ﷺ، ووجه الدلالة منه أنه

---

(١) وقد روى البخاري رحمه الله في هذه الآية خمسة أحاديث في صحيحه، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام الأحاديث ٣٥٧٨ - ٣٥٨٢ الفتح ٥٨٧/٦ - ٥٨٨. وانظر: نظم المتناثر من الحديث المتواتر، للكتاني ص ٢١٣ رقم ٢٦٦، ٢٦٧.

(٢) الشفا ٤١٩/١.

(٣) انظر: صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي ﷺ ١٧٨٣/٤ ح ٢٢٧٧.

(٤) رواه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل أبي بكر بعد النبي ﷺ ٧/٢٢ ح ٣٦٧٥.

(٥) انظر: صحيح مسلم، كتاب الزهد والرفائق ٢٣٠٦/٤ ح ٣٠١٢ وهذا ثابت بالتواتر انظر: نظم المتناثر من الحديث المتواتر، للكتاني ص ٢١٤ رقم ٢٦٨.

(٦) ذكر النووي في مقدمة شرح مسلم أنها تزيد على الألف ومائتين، وعند البيهقي في «المدخل» بلغت ألفاً، وقيل: ثلاثة آلاف، وقد اعتنى بجمعها جماعة من الأئمة كأبي نعيم والبيهقي وغيرهما تحت عنوان (دلائل النبوة). انظر الفتح ٥٨٣/٦.

أخبر بأنه خاتم النبيين، وهذا أمر متواتر عنه، ولم يظهر أحد إلى اليوم وادعى النبوة إلا وقد افْتُضِح أمره ولم يتم له ما أراد.

أما كون آياته ﷺ متعلقة بالعالم العلوي والسفلي فهذا مما اختص به ﷺ، وفاق به سائر الأنبياء؛ إذ لم يجتمع لغيره تلك المعجزات من حيث قوتها، وبقاؤها، وجهتها، وجنسها، وكثرتها، وتنوعها، وأثرها. وكل ما كان متعلقاً بالسموات وما علا؛ كالإسراء والمعراج، وحراسة السماء بالشهب، وانشقاق القمر؛ يسمى «علوي»، وكل ما كان دون ذلك من آياته ﷺ فهو سفلي؛ أي ما كان أثره فيما دون السموات من جبل أو شجر، أو طعام، أو غمام، أو ماء، أو حيوان، أو غيرها.

## المبحث الثامن قرائن أحواله ﷺ القاطعة بصدقه

إن من يتأمل في سيرة المصطفى ﷺ يظفر بحوادث مدهشة، ووقائع باهرة تدل على عظمة صاحبها وتدخل تحت عناوين مختلفة؛ إذا نظرت في كل فصل منها على حدة قَطَعْتَ وتيقنت بأن من تدور حوله تلك الأحداث لا يمكن إلا أن يكون رسولاً من عند الله، ولا تملك أن تدفع عن نفسك غلبة اليقين من ثبوت نبوته ﷺ؛ وذلك لأن درجة اليقين من نبوته ﷺ لدى المطلع على سيرته ﷺ تزداد درجة درجة مع كل حدث من أحداثها حتى يصل المُنْصَفُ إلى درجة لا تحتمل الشك في نبوته ﷺ؛ ليس من خلال سيرته ﷺ كلها فحسب بل من خلال كل حلقة من حلقاتها.

وقد أمر القرآن بالتأمل في سيرته وأحواله ﷺ ليحصل التفريق بين حاله قبل النبوة وبعدها، وبين علمه قبل النبوة وبعدها، وبين حاله ﷺ وحال المجنون والساحر والكاهن؛ ليميز عند كل ذي عقل صحة نبوته ﷺ من عدمها.

قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُمْ يَمِينِكَ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

وقال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٦].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْطُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ خِثْلٍ خَلْتُمْ تَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [١١] ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [سَبَأ: ٤٦ - ٤٧].

وفي تلك القرائن ما يزيد من يقين المؤمن، ويثبت فؤاده، ولنضرب على ذلك ببعض الأمثلة من سيرته ﷺ:

## موقفه ﷺ من قومه:

أذى جهره ﷺ بالدعوة إلى انقسام الناس عليه إلى قسمين:

- قسم كفر به: وغالبيتهم من أشراف قريش وفيهم من أقاربه العدد الكثير، ممن نصبوا له العدا، ووقفوا في وجهه، وصدوا عن سبيله، وقاموا بقطع الطريق على دعوته، وقد تعرض للمهالك في هذا السبيل، ومع ذلك كان يرجو إسلامهم، ويحرص على إيمانهم أشد الحرص، إلى درجة أنه كاد أن يهلك نفسه لكي يسلموا، ويتأثر تأثراً بالغاً إذا أصروا على كفرهم ولم يؤمنوا؛ حتى عتب على ذلك فقال تعالى ﴿... فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٌ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨].

- وقسم آمن به: وكانوا قلة مستضعفة، وكان منهم سلمان الفارسي، وبلال الحبشي، وصهيب الرومي، وغيرهم ممن لم يكونوا من عشيرته وقومه، ومع ذلك قربهم وأحبهم ورفع شأنهم كسائر أصحابه.

وهنا وقفة: لو كان محمد ﷺ - كما ادعى اليهود والنصارى والمستشرقون - طالبَ دنيا وكان ممن يتميز بالدهاء والذكاء للوصول إلى السيطرة والغلبة على الأمم الأخرى؛ فهل يمكن من هذا حاله أن يستغنيَ عمن جُبلت الطباع على حبهم والاستنصار بهم من قومه وقبيلته وأقاربه وأرحامه؟ وهل يمكن لمن كان هذا مطلبه من أهل الدنيا أن يبدأ بمعاداة قومه الأقربين، ويصاحب من هو من شعوب آخرين ويقرب من هم من أقوام أبعدين؟؟ فأبي فائدة يمكن أن تعود عليه بهذا الصنيع؟؟

لا جواب: إلا أن يُقال: إن محمداً ﷺ رسولٌ من رب العالمين، جاء بدعوة الإسلام للثقلين، فمن آمن بها كان من حزب الرحمن، ومن كفر بها كان من حزب الشيطان، بقطع النظر عن أصله وجنسه ولونه، فهذا دين ولا محاباة في دين الله، مما يدل على صدقه ﷺ في دعوته، وسقوط دعاوي مناوئيه.

وقد جرت سنة الله في أتباع الأنبياء أن يكونوا في بادئ الأمر من الضعفاء، ومن يعدهم الناس من الأراذل بادئ الرأي؛ ويمكن أن نذكر في هذا المقام حديث هرقل، حينما قال لأبي سفيان: «وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه وهم أتباع الرسل، وسألتك أيزيدون أم ينقصون، فذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم. وسألتك أيرتد أحد منهم

سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه، فذكرت: أن لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب»<sup>(١)</sup>.

### زهده عليه السلام من القرائن:

كان زهده عليه السلام زهد من مَلَكَ الدنيا وأمسك بزمامها، وأتته وهي راغمة، لا زهد من عجز عنها.

وقد تحقق له ظهور الدين، وجاء الفتح المبين، ومع ذلك لم تأخذ الدنيا من قلبه شيئاً مما يدل على أن الدنيا ليست مطلبه ولا غايته وهدفه.

ومع ذلك كان عليه السلام يجوع حتى يربط حجرين على بطنه من شدته، وكان يخرج من بيته من شدة الجوع أحياناً، «وكان عليه السلام يبيت الليالي المتتابعة طاوياً وأهله لا يجدون عشاء، وكان أكثر خبزهم خبر الشعير»<sup>(٢)</sup>، ومع ذلك لم يشبع منه ثلاثة أيام تباعاً حتى فارق الدنيا، ولم يكن يعرف الخبز المرقق ولم يأكله حتى مات، وكان يمر الشهر والشهران ولا يوقد نار في بيته عليه السلام، وكان يمر الهلال والهلالان ولا يطعم سوى التمر والماء<sup>(٣)</sup>، وما عاب عليه السلام طعاماً قط إن اشتهاه أكله وإلا تركه، وكان عليه السلام لا يأكل متوكئاً. ولا يعني ذلك أنه كان يرفض الطيب من الطعام، فقد كان يحب من اللحم الكتف والذراع، ويحب الحلواء والعسل، ويعجبه القرع، ويأكل الرطب بالقثاء أو البطيخ، وكان كثير الشكر والحمد لربه على أكله وشربه ولبسه. وكان يرفع ثوبه، ويخفف نعله، ولم يكن يلبس الملابس الفارغة، أحبها إليه القميص، ولا ينام على الفرش الناعمة، بل كان فراشه من جلد حشوه من ليف، وكان يتوسد يده إذا نام، و«مات عليه السلام ودرعه مرهونة عند يهودي»<sup>(٤)</sup>.

- 
- (١) سبق تخريجه، وانظر: صحيح البخاري في بدء الوحي ٤/١ - ٦٧ ح٦.  
(٢) انظر: جامع الترمذي، في كتاب الزهد، باب ما جاء في معيشة أصحاب النبي عليه السلام، وقال عنه: حسن صحيح برقم ٢٣٦٥  
(٣) انظر: صحيح البخاري، في كتاب الرقاق، باب ما جاء في عيش النبي عليه السلام وأصحابه وتخليهم عن الدنيا ١٢١/٨ وما بعدها، وصحيح مسلم، في كتاب الزهد من ح ٢٩٧٦.  
(٤) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد، باب ما قيل في درع النبي عليه السلام ٤٩/٤. وكل ما ذكرته عن زهده وصفة أكله ولبسه عليه السلام مذكور في كتب الشرائع واخترت منها ما صح انظر: مختصر الشرائع للمحمدية للترمذي، اختصار وتحقيق الألباني، وكتاب: أخلاق النبي عليه السلام وآدابه لأبي محمد الأصبهني المعروف بابي الشيخ ت ٣٦٩ هـ، دراسة وتحقيق =

<http://www.al-maktabeh.com>

لَيَسْفِرَنَّكَ مِنَ الْأَرْضِ لِخُرُوجِكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةٌ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ [الإسراء: ٧٣ - ٧٧].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «بين سبحانه أنهم كادوا أن يمنعه بكل طريق، فإن الإنسان إنما يتم عمله بإرادته وقدرته، فمع الإرادة الجازمة والقدرة التامة، يجب وجود المقدور، وإذا تعذر أحدهما امتنع، فطلبوا تغيير إرادته ليركن إليهم فيغير ما أوحى إليه فعصمه الله وثبته.

ثم طلبوا تعجيزه بأن يستفزوه ويخرجوه، حتى يعجز عن تبليغ رسالة ربه، ولو كان ذلك لعاجلهم الله بالعقوبة، أسوة بمن تقدمه من الرسل، فإن الله إذا أراد إهلاك أمة أخرج نبيها منها ثم أهلكها، ولا يهلكها وهو بين أظهرها، كما قال تعالى في الأنفال: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِنْ عِنْدِكَ فَاتْمِطْزْ عَلَيْنَا حِكْمًا مِنْ آلِ سَمْعَاءَ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَتْ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَتْ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنفال: ٣٢ - ٣٣].

فلما خرج من بينهم بالهجرة أتاهم الله بعذاب أليم يوم بدر ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوْحِيََا إِلَيْكَ لِتَفْرِيَ عَلَيْنَا غَيْرُ وَإِذَا لَا تَخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٦﴾﴾ [الإسراء: ٧٣] إشارة إلى سعيهم في إفساد إرادته. وقوله: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْفِرُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِخُرُوجِكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾﴾ [الإسراء: ٧٦]: إشارة إلى سعيهم في تعجيزه<sup>(١)</sup> فلم يتم لهم ما أرادوا، وثبته الله جل وعلا.

وقال ابن الوزير عن الفتن التي تحملتها الأنبياء عموماً ونبي الله محمد ﷺ خصوصاً: «أنهم من أعدل الناس طريقة، وأصدقهم لهجة، وأكثرهم وقاراً، وأقلهم طيشاً وأرفضهم لحب الدعة والراحة، قد خيروا على طول الزمن، واشتدت عليهم المحن، واعتورت أحوالهم طوارق الفتن، وتفاقم في النكاية لهم كيد ذوي الإحن، فما لينت الشدائد منهم ضلماً، ولا فترت المكاييد لهم عزماً، بل كانوا كسبيكة الذهب، وفلذة الياقوت، كلما ازدادت النار لها أكلاً ازدادت على طول السبك حسناً، لا جافوا على حكم على عدو، ولا شهدوا بغير الحق لصديق... وهذا محمد ﷺ عرضت عليه قريش المال، والزوجة، والجاه، والرئاسة، ويترك ما يدعيه من تسفيه حلوم آبائه، وتعنيف الأحياء والميتين من عشيرته، فلم يرفع إلى

(١) الجواب الصحيح ٣٣٥/٥ - ٣٣٩.

كلامهم رأساً، ولم يلتفت إلى مقاتلهم أصلاً<sup>(١)</sup>.

### صبره ﷺ ورباطة جاشه:

وقد صبر ﷺ صبراً تجاوز حد الاحتمال فلم يتراجع عن دعوته شبراً يقول ابن القيم: «وإذا تأملت سيرة النبي ﷺ مع قومه وصبره في الله واحتماله ما لم يحتمله نبي قبله وتلون الأحوال عليه من؛ سلم وخوف، وغنى وفقر، وأمن وإقامة في وطنه، وظعن عنه وتركه، وقتل أحبابه وأوليائه بين يديه، وأذى الكفار له بسائر أنواع الأذى من القول والفعل، والكذب والافتراء عليه والبهتان، وهو مع ذلك صابر على أمر الله، يدعو إلى الله فلم يؤذُ نبي ما أؤذي، ولم يحتمل في الله ما احتمله، ولم يعط نبي ما أعطيه من رفع الذكر، وقرن اسمه باسمه وجعله سيد الناس»<sup>(٢)</sup>.

وقال الماوردي: «ثباته ﷺ في الشدائد وهو مطلوب، وصبره على البأساء والضراء وهو مكروب ومحروب، ونفسه في اختلاف الأحوال ساكنة، لا يخور في شديدة، ولا يستكين لعظيمة، وقد لقي بمكة من قريش ما يشيب النواصي، ويهد الصياصي، وهو مع الضعف يصابر صبر المستعلي، ويثبت ثبات المستولي»<sup>(٣)</sup>.

ولم يفر ﷺ من أعدائه لا قبل النبوة ولا بعدها، وإن عظم الخوف؛ مثل يوم أحد ويوم الأحزاب وهذا يدل على يقينه بوعده الله حيث قال: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤]، وقال: ﴿إِلَّا تَصْرُوهُ فَقَدْ نَبَذَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْفَكَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَخْرُجْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْغَالِبَةُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠].

وصبر على أذى من أساء إليه مع أنه قد شق عليه فقد: «قسم النبي ﷺ قسمة - كبعض ما كان يقسم - فقال رجل من الأنصار: والله إنها قسمة ما أريد بها وجه الله. قال ابن مسعود: أما لأقولن للنبي ﷺ، فأتيته - وهو في أصحابه -

(١) البرهان: القاطع ص ٢٧.

(٢) انظر مفتاح دار السعادة ص ١٠.

(٣) أعلام النبوة ص ٢٠٤.



فسارزته، فشق ذلك على النبي ﷺ، وتغير وجهه وغضب، حتى وددت أني لم أكن أخبرته، ثم قال: «قد أؤذي أخي موسى بأكثر من ذلك فصبر»<sup>(١)</sup>  
 فهذا نبي الله، مرسل من عند الله، مَنْ لا ينطق عن الهوى، من عصمه الله عما يشين ويقدح، ثم يُنسب ﷺ إلى الجور، ويقدح في عدله من بعض الناس في أمر كان يرجو فيه نفعهم؛ إنه والله لأمر يصعب تحمله، ولكنه رسول الله ﷺ.

### حفظه ﷺ للعهد ووفاءه بالوعد:

جعل ﷺ إخلاف الوعد واحدة من خصال النفاق، فقال ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان»، وقال ﷺ: «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً: ومن كانت فيه خصلة منهم كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها؛ إذا اؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»<sup>(٢)</sup>

وقد حافظ ﷺ على عهوده حتى شهد بذلك أعداؤه، فقد قال هرقل لأبي سفيان - حينما كان أبو سفيان على الكفر -: «... وسألت: هل يغدر؟ فذكرت: أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر...»<sup>(٣)</sup>.

وقال الماوردي: «يرى ﷺ الغدر من كبائر الذنوب، والإخلاف من مساوئ الشيم، فيلزم فيهما الأغلظ، ويرتكب فيهما الأصعب، حفظاً لعده ووفاء بوعده، حتى يبتدئ معاهدته بنقضه، فيجعل الله له تعالى مخرجاً، كفعل اليهود من بني قريظة، وبني النضير، وكفعل قريش بصلح الحديبية، فجعل الله تعالى له، في نكثهم الخيرة»<sup>(٤)</sup>.

وقد ضرب ﷺ أعظم المثل في الوفاء لزوجته أم المؤمنين خديجة - رضي الله عنها - النصيرة الأولى للدعوة، والمعينة له في الشدائد، وقد ظل ﷺ ذاكراً لجميلها حتى بعد وفاتها، وفاءً لها؛ حتى كانت زوجته عائشة - رضي الله عنها - تغار

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب الصبر في الأذى ٥١١/١٠ ح ٦١٠٠.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب علامة المنافق ح ٣٣، ٣٤ الفتح ٨٩/١.

(٣) تقدم تخريجه مفصلاً، انظر: صحيح البخاري في بدء الوحي ٤/١ - ٧.

(٤) أعلام النبوة ص ٢٠٩.

منها<sup>(١)</sup> لكثرة ذكر النبي ﷺ لها، وثنائه عليها، ووصله لصديقاتها، وكان ﷺ يقول: «قد آمنت بي إذ كفر الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله عز وجل ولدها إذ حرمني أولاد النساء»<sup>(٢)</sup>.

### جوامع كلمة ﷺ:

بعثه الله جل وعلا بجوامع الكلم<sup>(٣)</sup>، وآتاه فواتحه وخواتمه، واختصر له الكلام اختصاراً، فكان يقول كلمات يسيرة جداً تشتمل على معان عظيمة وكثيرة جداً، لو كتبت لا تزيد على سطر، لكنها تظل على مدار الزمن مناهل للخير والفكر<sup>(٤)</sup>.

قال النووي في خاتمة كتابه «الأذكار»: «فهذا آخر ما قصدته من هذا الكتاب، وقد رأيت أن أضم إليه أحاديث تتم محاسن الكتاب بها - إن شاء الله -، وهي الأحاديث التي عليها مدار الإسلام، وقد اختلف العلماء فيها اختلافاً متشراً، وقد اجتمع من تداخل أقوالهم مع ما ضمته إليها «ثلاثون» حديثاً»<sup>(٥)</sup>.

اختار من هذه الأحاديث الثلاثين - التي هي أصل الأربعين النووية - ثلاثة أحاديث ذكر العلماء أن عليها مدار الدين، ثم أذكر أربعة أحاديث أخص منها عليها مدار الآداب، ثم أختم بخمسة أحاديث متفرقة من جوامع كلمه: تعد اثنتا عشرة عيناً من عيون العلم والحكمة<sup>(٦)</sup>.

---

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب الفضائل، باب تزويج النبي خديجة وفضلها ١٣٣/٧ ح ٣٨١٨

(٢) رواه أحمد في المسند ١١٨/٦، وقال الهيثمي في المجمع: وإسناده حسن ٢٢٧/٩.

(٣) وهذا من خصائصه ﷺ

(٤) قال الزهري: «جوامع الكلم - فيما بلغنا - أن الله يجمع له الأمور الكثيرة التي كانت تكتب في الكتب قبله في الأمر الواحد والأمرين» انظر: مقدمة كتاب: جامع العلوم والحكم، لابن رجب الحنبلي ص ٥٣ - ٥٤.

(٥) الأذكار، تحقيق الأرناؤوط ص ٣٥٠.

(٦) أما التي عليها مدار الدين:

١ - حديث عمر «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى..»

قال ابن حجر عن هذا الحديث العظيم: «واتفق عبد الرحمن بن مهدي، والشافعي - فيما نقله البوطي عنه - وأحمد بن حنبل، وعلي بن المديني، وأبو داود، والترمذي، والدارقطني، وحمزة الكتاني: على أنه ثلث الإسلام، ومنهم من قال: ربه، واختلفوا =

= في تعيين الباقي الفتح ١١/١. وقال البخاري: «ليس في أخبار النبي ﷺ شيء أجمع وأغنى وأكثر فائدة من هذا الحديث» المصدر السابق. وقال عنه الشافعي هذا الحديث يدخل في سبعين باباً من الفقه. ذكره ابن رجب في جامع العلوم والحكم ص ٦١ وعزاه المحقق إلى طرح الشريب ٥/٢.

٢ - حديث عائشة: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»

٣ - حديث النعمان بن بشير: «الحلال بين والحرام بين»

فهذه الأحاديث الثلاثة هي الأحاديث التي عليها مدار الدين: لأن كل عمل من الأعمال يجب أن يُصَحَّح بآثاره وهو النية، وعليها يكون القبول والجزاء وهذا ما تضمنه حديث النية. وكل عمل يجب أن يُعرف حكمه: حلاله من حرامه: وهو ما تضمنه حديث النعمان. وكل عمل يجب أن تُعرف مشروعيته وصفته وموافقه لهدي الرسول حتى لا يقع المسلم في الابتداع وهو ما تضمنه حديث عائشة.

أما الأحاديث التي عليها مدار الآداب

وهذه الأحاديث: اختارها أبو عمرو بن الصلاح وقال فيها: «جماع آداب الخير وأزمته تتفرع منها» جامع العلوم والحكم ص ٢٨٨ في شرح الحديث الثامن عشر: فهي أربعة أحاديث:

١ - قوله ﷺ «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت».

٢ - وقوله ﷺ: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه».

٣ - وقوله ﷺ «للرجل الذي قال له: أوصني، قال ﷺ «لا تغضب» فردد مراراً قال: «لا تغضب».

٤ - وقوله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»

وأختم بخمسة متفرقة وهي:

١ - حديث: «احفظ الله يحفظك».

٢ - وحديث: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن».

٣ - وحديث: «ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما عند الناس يحبك الناس».

٤ - وحديث: «قل آمنت بالله ثم استقم».

٥ - وحديث: «البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس».

انظر: الأذكار للنبي وتخريجه لها ص ٣٥٠ - ٣٥٥، والأربعين النووية. وجامع العلوم والحكم شرح ٥٠ حديثاً من جوامع الكلم، لابن رجب الحنبلي.

وفتح الباري، شرح حديث عمر في النية في أول الفتح ١١/١.

وقال الماوردي واصفاً خصال كلامه ﷺ:

«أوتي ﷺ من الحكم البالغة، وأعطي من العلوم الجمة الباهرة، وهو أُمي من أمة أمية... فأتى بما بهر العقول، وأذهل الفطن، من إتقان ما أبان، وإحكام ما أظهر، فلم يعثر فيه بزلل في قول أو عمل... والخصلة الثالثة:

إحكامه لما شرع بأظهر دليل، وبيانه بأوضح تعليل حتى لم يخرج منه ما يجفوه معقول، ولا دخل فيه ما تدفعه العقول... نبه بالقليل على الكثير فكف عن الإطالة، وكشف عن الجهالة... والخصلة الخامسة:

وضوح جوابه إذا سئل، وظهور حجاجه إذا جُودل، لا يَخْصُرُهُ عِي<sup>(١)</sup> ولا يقطعه عجز، ولا يعارضه خصم في جدال، إلا كان جوابه أوضح. وحجاجه أرجح... والخصلة السابعة:

تحرير كلامه في التوخي به إبان حاجته، والاقتصار منه على قدر كفايته، فلا يسترسل فيه هذراً ولا يحجم عنه وهو فيما عدا حالتني الحاجة والكفاية؛ أجمل الناس صمتاً، وأحسنهم سمتاً، ولذلك حُفِظَ كلامه حتى لم يختل، وظهر رَؤْنُفُهُ حتى لم يَغْتَلْ، واستعذبتُه الأفواه، حتى بقي محفوظاً في القلوب، ومدوناً في الكتب. الخصلة الثامنة:

أنه أفصح الناس لساناً، وأوضحهم بياناً، وأجزلهم ألفاظاً وأصحهم معاني، لا يظهر فيه هُجْنَةُ التكلف، ولا يتخلَّلُهُ فيهِقَةُ التعسف [وذكر أمثلة كثيرة على جوامع كلمه في فصلين ثم قال: وهذا يسير من كثير، ولا يأتي عليه إحصاء، ولا يبغله استقصاء وإنما ذكرنا مثلاً لِيُغْلَمَ أن كلامه جامعٌ لشروط البلاغة، ومعربٌ عن نهج الفصاحة، ولو مزج بغيره لتمييز بأسلوبه، ولظهر فيه آثار التنافر، فلم يلتبس حقه من باطله، ولبان صدقه من كذبه، هذا ولم يكن متعاطياً للبلاغة...»<sup>(٢)</sup>

وقد شرع كثيرٌ من الناس في مختلف العصور أحكاماً، ووضعوا سنناً فلم يبق لها أثر أو خبر.

(١) لا يمنعه من البيان جهل أو ضعف.

(٢) أعلام النبوة ص ٢٠٩ - ٢١٠.

## كمال خلقه ﷺ

لم يوجد على ظهر الأرض من جُمع له من محاسن الأخلاق وكثرة الفضائل ما جمع لرسول الله ﷺ وفي قول الله فيه: ﴿وَأَنَّكَ لَكَلِّ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [الْقَلَم: ٤]. قال الحليمي<sup>(١)</sup>: «الأغلب أن الخلق يوصف بالكريم دون العظيم، لكن الوصف بالكريم يراد به الثناء على صاحبه بالسماحة والديانة، ولم يكن خلق رسول الله ﷺ مقصوراً على هذا بل كان رحيماً بالمؤمنين، رفيقاً بأولياء الله أجمعين، غليظاً على الكافرين، شديداً على المخالفين، لا يغضب لنفسه، ولكن يغضب لربه أشد الغضب، حتى ينتقم له، وكان مهيباً في صدور الأعداء، منصوراً بالرعب، ينهزم العدو منه مسيرة شهر فرقاً منه، فلم يكن من حقه أن يقتصر في وصفه على الخلق الكريم، بل كان الوصف بالعظيم أولى به ليدخل فيه الإنعام والانتقام معاً... ويُعلم أنه لم يكن ينصرف راجي خير منه بئس، ولا يسلم له عدو من بئس»<sup>(٢)</sup>. وهذا تنبيه لطيف يدل على أنه جاء ﷺ بدين وسط، وكان خلقه عظيماً لا ذل فيه لصاحبه ولا ظلم فيه على الآخرين.

ويقول محمد الصادق عرجون: «وهذا التكافؤ الخلقي في شخصية محمد ﷺ يوشك أن يكون معجزة الحياة... لأن التاريخ لم يذكر من النماذج العليا للبشر من كان هذا التكافؤ الخلقي خليقته العامة سوى الرسل، وعلى رأسهم أولو العزم، ويجمع سيدنا محمد ﷺ هذا التوازن بأبهى صوره... وهكذا تتفرق النهايات في الأخلاق والفضائل في نماذج متعددة، ولكنها تجتمع متكافئة في شخصية محمد، وهذا هو سر الإعجاز الإنساني في حياته»<sup>(٣)</sup>.

وكانت أخلاقه ذات أثر بالغ في أمته؛ إذ وصفه الله تعالى بأوصاف يتعدى نفعها إلى الناس كما قال سبحانه: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]. وفي هذه الآية يقول الطاهر بن عاشور: «وذكر هذا في صفة الرسول عليه

(١) وهو الحسين بن الحسن بن حليم البخاري الجرجاني، من علماء الحديث الكبار فيما وراء النهر توفي سنة ٤٠٣ هـ انظر: سير أعلام النبلاء ١٧/٢٣١.

(٢) المنهاج في شعب الإيمان ٧٣/٢.

(٣) محمد رسول الله، لعرجون ١/٢١١.

السلام يفيد أن هذا خلقاً له، فيكون أثر ظهوره الرفق بالأمة، والحذر مما يلقي بهم إلى العذاب في الدنيا والآخرة، ومن آثار ذلك؛ شفاعته للناس كلهم في الموقف،... ثم إن ذلك يومئ إلى أن شرعه جاء مناسباً لخلقهم فانتفى عنه الحرج والعسر قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا آلِدِينَكُمْ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَلَكُمْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ [البقرة: ١٨٥] وقال ﴿... وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ...﴾ [الحج: ٧٨] (١)

وقد عرفنا في بداية البحث كيف استدلت خديجة رضي الله عنها على نبوته ﷺ من خلال كرم خصاله؛

- إنك لتصل الرحم

- وتحمل الكل

- وتكسب المعدوم

- وتقرى الضيف

- وتعين على نوائب الحق (٢).

وقد وَصَفَ خُلُقَهُ أَقْرَبُ النَّاسِ إِلَيْهِ؛ خَادِمُهُ وَزَوْجُهُ مِمَّنْ عَاشُوا مَعَهُ مَدَّةَ وَعَرَفُوا أَخْلَاقَهُ عَنْ قَرَبٍ، فَعَنِ أَنَسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: «خَدَمْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَشْرَ سَنِينَ؛ فَمَا قَالَ: لِي أَفْ قَطْ، وَمَا قَالَ لِي شَيْءٌ صَنَعْتُهُ لَمْ صَنَعْتُهُ، وَلَا لَشَيْءٍ تَرَكْتُهُ: لَمْ تَرَكْتُهُ، وَكَانَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ خُلُقًا، وَلَا مَسَّتْ خِزَاءً، وَلَا حَرِيرًا، وَلَا شَيْئًا كَانَ أَلَيْنَ مِنْ كَفِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلَا شَمَمْتَ مَسكًا قَطْ، وَلَا عَطْرًا كَانَ أَطْيَبَ مِنْ عَرَقِ النَّبِيِّ ﷺ» (٣).

ووصفت زوجته عائشة - رضي الله عنها - خُلُقَهُ فَقَالَتْ: «لَمْ يَكُنْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَاحِشًا وَلَا مَتَفَحِّشًا» (٤)، وَلَا صَخَابًا فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا يَجْزِي بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ،

(١) التحرير والتنوير ٧٢/١٠.

(٢) انظر: صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي ٥/١.

(٣) الترمذي في الشمائل وقال الألباني في مختصره للشمائل: «صحيح» برقم ٢٩٦، وقولها:

«لم يكن فاحشاً ولا متفحشاً» جاء في صحيح البخاري، كتاب الأدب ح رقم ٦٠٢٩.

(٤) الفحش: كل ما خرج عن مقداره حتى يُستقبح، والفاحش: الذي يقول الفحش، =

ولكن يعفو ويصفح<sup>(١)</sup>. وكان ﷺ من أشد الناس حياء؛ فكان أشد حياء من العذراء في خدرها<sup>(٢)</sup>.

### وصف دقيق:

جاء في وصف رسول الله ﷺ أحاديث كثيرة؛ اختار منها أشملها، وهو حديث جامع لصفاته ﷺ الخَلْقِيَّة والخُلُقِيَّة؛ فقد وصف هندُ بن أبي هالة<sup>(٣)</sup> رسول الله ﷺ وصفاً دقيقاً - بناء على طلب من الحسن بن علي رضي الله عنه - وكان هند رضي الله عنه - رجلاً وصافاً فقال:

«كان رسول الله ﷺ فخماً مفخماً، يتلأأ وجهه تلاًأ القمر ليلة البدر، أطول من المربع، وأقصر من المشذب، عظيم الهامة، رجل الشعر إن انفرقت عقيقته<sup>(٤)</sup>، ولا يجاوز شعره شحمة أذنية إذا هو وفره، أزهر اللون، واسع الجبين، أزج الحواجب سوابغ في غير قرن، بينهما عرق يُدره الغضب، أقنى العرئين<sup>(٥)</sup>. له نور يعلوه، يحسبه من لم يتأمله أشم، كث اللحية، سهل الخدين، ضليع الفم، مفلج الأسنان، دقيق المسربة<sup>(٦)</sup>، كأن عنقه جيد دُمِيَّة، في صفاء الفضة، معتدل القامة، بادن متماسك، سواء البطن والصدر عريض الصدر، بعيد ما بين المنكبين، ضخم الكراديس<sup>(٧)</sup>، أنور المتجرد<sup>(٨)</sup> موصول ما بين اللبة والسرة بشعر يجري

---

= والمتفحش: الذي يتعمد ذلك ويكثر منه ويتكلفه. انظر الفتح ٤٥٣/١٠.

(١) الترمذي في الشمائل، وقال الألباني في مختصره للشمائل: «صحيح» برقم ٢٩٨.

(٢) الخدر الستر، وانظر: المصدر السابق برقم ٣٠٧.

(٣) هند بن أبي هالة التميمي ربيب النبي ﷺ، أمه خديجة زوج النبي ﷺ، روى عن النبي ﷺ، «وروى عنه الحسن بن علي صفة رسول الله، أخرجه الترمذي والبغوي والطبراني وغيرهم من طرق عن الحسن بن علي ووقع لنا بعلو... قتل مع علي يوم الجمل، وقال أبو عمر: كان فصيحاً بليغاً، وصف النبي ﷺ فأحسن وأتقن» الإصابة ترجمة رقم (٩٠٠٩) ٥٧٨ - ٥٧٩.

(٤) وفي رواية عقيصته: شعر رأسه الذي على الناصية، أي جعله فرقتين، ومعنى «رجل الشعر» قد وضحته رواية أخرى: لم يكن بالجعد القطط ولا بالأملس السبط.

(٥) أي طويل الأنف مع دقة أرنبتها، والعرنين ما صلب من الأنف.

(٦) الشعر الدقيق من السرة إلى الصدر.

(٧) رؤوس العظام عند ملتقى المفاصل.

(٨) أي نير العضو المتجرد عن الشعر، أو عن الثوب.

كالخط، عاري الثديين والبطن مما سوى ذلك، أشرع الذراعين والمنكبين وأعالي الصدر، طويل الزندين، رحب الراحة، شثن الكفين والقدمين، سائل الأطراف، خمصان الأخصمين، مسيح القدمين، ينبو عنهما الماء، إذا زال زال قلعاً، يخطو تكفياً ويمشي هوناً ذريع المشية، إذا مشى كأنما ينحط من صَبَب، وإذا التفت التفت جميعاً، خافض الطرف، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء، جل نظره الملاحظة، يسوق أصحابه، ويصدر من لقي بالسلام قال الحسن فقلت: صف لي منطق رسول الله فقال: «كان رسول الله متواصل الأحزان؛ دائم الفكر، ليست له راحة، طويل السكت، لا يتكلم في غير حاجة، يفتح الكلام ويختمه باسم الله تعالى، ويتكلم بجوامع الكلم، كلامه فصل، لا فضول ولا تقصير، ليس بالجافي ولا المهين، يعظم النعمة وإن دقت، ولا يذم منها شيئاً... لا تغضبه الدنيا، ولا ما كان لها، فإذا تعدي الحق لم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له، ولا يغضب لنفسه، ولا ينتصر لها.

إذا أشار أشار بكفه كلها، وإذا تعجب قلبها، وإذا تحدث اتصل بها، وضرب براحته اليمنى بطن إبهامه اليسرى، وإذا غضب أعرض وأشاح، وإذا غضب غض طرفه... جُلُّ ضحكه التبسم، يفتر عن مثل حب الغمام<sup>(١)</sup> قال الحسن: فكتمتها الحسينَ زماناً، ثم حدثته، فوجدته قد سبقني إليه فسأله عما سأله عنه، ووجدته قد سأل أباه عن مدخله ومخرجه وشكله، فلم يدع منه شيئاً. قال الحسين فسألت أبي عن دخول رسول الله ﷺ ومخرجه فقال: «... كان رسول الله ﷺ يَخْزَنُ لسانه إلا فيما يعنيه، ويؤلفهم ولا ينفهم، ويكرم كريم كل قوم يوليهِ عليهم... ويتفقد أصحابه، ويسأل الناس عما في الناس، ويحسن الحسن ويقويه، ويقبح القبيح ويوهيه.

معتدل الأمر غير مختلف، لا يغفل مخافة أن يغفلوا أو يميلوا، لكل حال عنده عتاد، لا يقصر عن الحق ولا يجاوزه. الذين يلونه من الناس خيارهم، أفضلهم عنده أعمهم نصيحة، وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة ومؤازرة. قال: فسألت عن مجلسه. فقال:

كان رسول الله ﷺ لا يقوم ولا يجلس إلا على ذكر، وإذا انتهى إلى قوم

(١) لون أسنانه الشريفة كلون البرد بيضاء نقية.



جلس حيث ينتهي به المجلس، ويأمر بذلك.

يعطي كل جلسائه بنصيبه ولا يحسب جلسيه أن أحداً أكرم عليه منه، ومن جالسه في حاجة صابرة حتى يكون هو المنصرف عنه، ومن سألَه حاجة لم يردّه إلا بها، أو بميسور من القول، قد وسع الناس بسطه وخلقه، فصار لهم أباً، وصاروا عنده في الحق سواء، مجلسه علم، وحلم، وحياء، وأمانة، وصبر، لا ترفع فيه الأصوات... متعادلين بل كانوا يتفاضلون فيه بالتقوى، متواضعين، يوقرون فيه الكبير، ويرحمون فيه الصغير، ويؤثرون ذا الحاجة، ويحفظون الغريب.

قال الحسين: سألت أبي عن جلسائه فقال: كان رسول الله ﷺ دائم البشر، سهل الخلق، لين الجانب، ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخاب ولا فحاش ولا عياب ولا مشاح.

يتغافل عما لا يشتهي، ولا يؤيسه منه راجيه، ولا تخيب فيه.

قد ترك نفسه من ثلاث: المراء، والإكثار، وما لا يعنيه. وترك الناس من ثلاث: كان لا يذم أحداً، ولا يعيبه، ولا يطلب عورته، ولا يتكلم إلا فيما رجا ثوابه.

وإذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير، فإذا سكت تكلموا، لا يتنازعون عنده الحديث، ومن تكلم عنده أنصتوا له حتى يفرغ، حديثهم عنده حديث أولهم.

يضحك مما يضحكون منه، ويتعجب مما يتعجبون منه، ويصبر للغريب على الجفوة في منطقته ومسألته، حتى إن كان أصحابه ليستجلبونهم<sup>(١)</sup> ويقول: إذا رأيتم طالب حاجة يطلبها فأرشدوه، ولا يقبل الثناء إلا من مكافئ، ولا يقطع على أحد حديثه حتى يجور، فيقطعه بنهي أو قيام<sup>(٢)</sup>.

وقال د. محمد دراز: «سيرته مجموعة رائعة من الأخلاق العظيمة إذا تأملتها صورت لك إنساناً الطهر ملء ثيابه، والجد حشو إهابه، يأبى لسانه أن يخوض فيما

---

(١) أي يفرح الصحابة إذا قدم من يسأل الرسول: إذ كانوا يهابونه ولا يكثرون عنده السؤال.  
(٢) الشماثل المحمدية، للترمذي ص ١٤١ - ١٤٣، ص ٢٢١ - ٢٢٤ حديث رقم (٦) مختصر الشماثل المحمدية للترمذي، للآلبي ص ١٨ - ٢٦.

لا يعلمه وتأبى عيناه أن تخفيا خلاف ما يعلنه، ويأبى سمعه أن يصغي إلى غلو المادحين له، تواضع هو حلية العظماء وصراحة نادرة في الزعماء، وثبت قلما تجده عند العلماء فأنى من مثله الختل أو التزوير أو الغرور أو التفرير؟ حاش لله! (١).

والحديث عن أخلاقه حديث طويل وممتع، وقد سبق الحديث عن بعض خصاله وسيأتي بعضها، ويكفي من الثناء على أخلاقه وأثرها العظيم في الأمة: قوله تعالى: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَأْمُرْ بِهِ لَكُنَّا مِنَ الْمُخَلَّفِينَ وَنَاوِرُهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

### تواضعه ﷺ:

قال الماوردي: «تواضعه للناس وهم أتباع، وخفض جناحه لهم وهو مطاع، يمشي في الأسواق، ويجلس على التراب، ويمتزج بأصحابه وجلسائه، فلا يتميز عنهم إلا باطرافه وحيائه، فصار بالتواضع متميزاً، وبالتذليل متعزراً. ولقد دخل عليه بعض الأعراب فارتاع من هيئته فقال: خفض عليك: فإنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة.

وهذا من شرف أخلاقه، وكريم شيمه، فهي غريزة فطر عليها، وجبلة طبع عليها لم تندر فتعد، ولم تحصر فتحد» (٢).

ومن تواضعه ﷺ أنه كان يكره أن يقوم له الناس، وأي إنسان تعرض له حاجة يجلس إليه، ويقبل الهدية مهما صغرت، وكان يعود المريض، ويركب الحمار، ويجيب دعوة العبد، ولا يأنف من أن يردف أحداً معه على دابته ولا يستكبر أن يمشي مع الأرملة والمسكين فيقضي له حاجته، وكان في بيته في خدمة أهله، فإذا حضرت الصلاة خرج إليها، وكان يحلب شاته ويخدم نفسه (٣).

(١) النبأ العظيم ص ٣٤.

(٢) أعلام النبوة، للماوردي ص ٢٠٧.

(٣) انظر: الشماثل المحمدية، للترمذي رقم ٤١٨، ٣١٤، ٣١٦. ومختصر الشماثل للالباني =

## صدقه ﷺ:

وقد عجز من عاصره ﷺ ومن بعدهم إلى يومنا هذا؛ عن إظهار كذبة واحدة في جميع عمره، من جميع أموره، على كثرة أخباره، وتنوع شرائعه، وتعدد موافقه، بل الأيام تُصدّق كل يوم أخباره، وفي الوقائع من كل زمان ما يثبت ما ذكره من مغيباته.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «دلائل صدق النبي الصادق، وكذب المتنبي الكذاب كثيرة جداً، فإن من ادعى النبوة وكان صادقاً فهو من أفضل خلق الله، وأكملهم في العلم والدين، فإنه لا أحد أفضل من رسل الله وأنبيائه، صلوات الله عليهم وسلامه، وإن كان بعضهم أفضل من بعض...»

وإن كان المدعي للنبوة كاذباً فهو من أكفر خلق الله وشرهم كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ بِمَثَلِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ٩٣﴾ [الأنعام: ٩٣].

وقال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ٣٤﴾ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ٣٥ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ٣٦ لَّهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ٣٧﴾ [الزمر: ٣٢ - ٣٤].

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ٦٠﴾ [الزمر: ٦٠].

فالكذب أصل للشر، وأعظمه: الكذب على الله، والصدق أصل للخير، وأعظمه: الصدق على الله تبارك الله وتعالى.

ولما كان هذا [النبي الصادق] من أعلى الدرجات، وهذا [المدعي الكاذب] في أسفل الدرجات، كان بينهما من الفروق الدلائل والبراهين التي تدل على صدق أحدهما وكذب الآخر ما يظهر لكل من عرف حالهما، ولهذا كانت دلائل الأنبياء

= ص ١٧٨ - وأخلاق النبي، لأبي الشيخ رقم ١٢٧ ص ٦٣، والأنوار، للبخاري رقم ٣٧٤، ٣٧٥، ٣٨٦، ٣٩٢.

وأعلامهم الدالة على صدقهم كثيرة متنوعة، كما أن دلائل كذب المتنبيين كثيرة متنوعة<sup>(١)</sup>.

وليس أدل على صدقه ﷺ من أنه كان ﷺ يتوقف أحياناً في مسائل يُسأل عنها من صلب الدين فلا يجيب حتى يأتيه البيان أو الحكم من الوحي، أليس ذلك من الأدلة الواضحة على أنه ناقل لا قائل، وأنه مأمور لا آمر؟. وكل ما جاء في أسباب النزول شاهد لهذا الأمر.

ولو كان ﷺ يعلم جواب ما سُئل عنه ليين لهم من فوره، لأنه لم يكن ليكنم عنهم هذا العلم وهم في أشد الحاجة إليه، وقد أشار إلى هذا د. محمد دراز في «النبا العظيم».

وقد قال هرقل لأبي سفيان: «وسألتك هل كنتم تنهمنه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فذكرت: أن لا. فقد أعرف أنه لم يكن ليذَر الكذب على الناس ويكذب على الله»<sup>(٢)</sup>.

قال الماوردي: «لم يزل ﷺ مشهوراً بالصدق في خبره، ناشئاً وكبيراً، حتى صار بالصدق مرقوماً، وبالأمانة موسوماً، وكانت قريش بأسرها تتيقن صدقه قبل الإسلام، فجهروا بتكذيبه في استدعائهم إليه، فمنهم من كذبه حسداً، ومنهم من كذبه عناداً، ومنهم من كذبه استبعاداً أن يكون نبياً أو رسولاً، ولو حفظوا عليه كُذبة نادرة في غير الرسالة لجعلوها دليلاً على تكذيبه في الرسالة، ومن لزم الصدق في صغره، كان له في الكبر ألزم، ومن عصم منه في حق نفسه، كان في حقوق الله تعالى أعصم، وحسبك بهذا دافعاً لجاحد، ورداً لمعانداً»<sup>(٣)</sup>.

والخلاصة: أن أحداً ما سمع منه ﷺ من أمور الدين ولا في شؤون الدنيا كذباً ألبته، ولو أمسك أعداؤه بكذبة واحدة ولو في شؤون الدنيا لاجتهدوا بكل سبيل لإظهارها، ولنشطوا في كل وسيلة إعلامية لنشرها وبثها في الآفاق، ولكنه الصادق المصدوق ﷺ.

(١) الجواب الصحيح ١٢٧/١ - ١٢٩.

(٢) سبق تخريجه، انظر: صحيح البخاري في بدء الوحي ٤/١ - ٧.

(٣) أعلام النبوة ص ٢١٢

## رحمته ﷺ وشفقته بأمته:

كاد ﷺ أن يهلك بسبب شفقته ورحمته بأمته، وكاد أن يموت بسبب حرصه الشديد على هداية الناس قال تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨].

﴿فَلَمَّا كَبِخَ نَفْسُكَ عَلَىٰ أَثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦].

﴿... وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨].  
﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

ولذلك بين الله له أن مهمته الأولى البلاغ، وأنه ليس عليهم بمسيطر، وأنه لا يهدي من أحب؛ فالهداية من عند الله، وتنتهي مهمته بمجرد أداء الأمانة في تبليغ الدين، وإيصال الحق للناس، والله يهدي من يشاء.

ومن رحمته أنه كان ميسراً على الناس، رحيماً بهم، لا يشق عليهم، ولو أخطأوا، يأخذ بالعفو والمسامحة، ويأمر بالعرف، ويعرض عن الجاهلين. قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

ومن أسماء النبي ﷺ: نبي الرحمة والتوبة<sup>(١)</sup>، وما خُير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما، ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه. وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله، فينتقم لله بها<sup>(٢)</sup>.

وهذه العبارة الأخيرة تقودنا إلى الخصلة التالية من خصاله ﷺ الكريمة.

## حلمه ﷺ وعفوه:

كان حلمه آية؛ فلم يكن يستجيب للاستفزاز، ولا يقع في الخطأ أثناء كلامه مع المشركين، وقد كان المشركون معه في غاية الخرق، وفي قمة الجفاء والحقاقة «فلم يوجد منه نادرة، ولم يحفظ عليه بادرة، ولا حليم غيره إلا ذو عشرة، ولا وقور سواه إلا ذو هفوة...»<sup>(٣)</sup>.

(١) انظر: صحيح البخاري مع الفتح ٥٥٤/٦ رقم ٣٥٣٢. ورواه مسلم في كتاب الفضائل ٤/ ١٨٢٨ ح ٢٣٥٤.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ ٥٦٦/٦ ح ٣٥٦٠.

(٣) أعلام النبوة ص ٢٠٨.

عن عائشة قالت: «ما ضرب رسول الله ﷺ شيئاً قط بيده لا امرأة ولا خادماً، إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما نيل منه شيء قط فينتقم من صاحبه إلا أن ينتهك شيء من محارم الله، فينتقم الله عز وجل»<sup>(١)</sup>.

قال الجاحظ «.. ولا ضرب أحداً بيده إلا في سبيل ربه. ولو لم يكن من كرم عفوه وثخانة حلمه إلا ما كان في يوم فتح مكة، فقد كان ذلك من أكمل الكمال وأوضح البرهان، وذلك أنه حين دخل مكة عنوة، وقد قتلوا أعمامه، وبني أعمامه، وأولياءه، وأنصاره، بعد أن حصروه في الشعاب، وعذبوا أصحابه بأنواع التعذيب، وجرحوه في بدنه، وأذوه في نفسه، وسفهوا عليه، وأجمعوا على كيده، فلما دخل بغير حمدهم، وظهر عليهم على صغر منهم، قام خطيباً فيهم فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أقول لكم كما قال أخي يوسف ﴿لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢]»<sup>(٢)</sup>.

وقال الماوردي: «وقد تناولته قريش بكل كبيرة، وقصدته بكل جريرة، وهو صبور عليهم معرض عنهم، وما تفرد بذلك سفهاؤهم دون حلمائهم، ولا أراذلهم دون عظمائهم، بل تمالأ عليه الجلة والدون»<sup>(٣)</sup>، فلما كانوا عليه من الأمر ألح كان عنهم أعرض وأصفح، حتى قهر فعفا، وقدر فقفر. وقال لهم حين ظفر بهم عام الفتح، وقد اجتمعوا إليه: ما ظنكم بي؟ قالوا: أخ كريم وابن أخ كريم، فإن تعف فذاك الظن بك، وإن تنتقم فقد أسأنا، فقال: بل أقول كما قال يوسف لإخوته: ﴿قَالَ لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢]. وأتته هند بنت عتبة، وقد بقرت بطن عمه حمزة، ولاكت كبده فصفح عنها، وباعها»<sup>(٤)</sup>.

قال أنس - رضي الله عنه -: «كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه برد نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فجبذه بردائه جبذة شديدة. وفي رواية: «حتى انشق البرد وذهبت حاشيته في عنقه» قال أنس: فنظرت إلى صفحة عاتق

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب مباحثته للأئمة ٤/ ١٨١٤ ح ٢٣٢٨.

(٢) البيان والتبيين للجاحظ ٥٢/٢، وانظر: أخلاق النبي وآدابه، للأصبهاني ص ٤٥، رقم ٨٢.

(٣) الكبراء والحقراء.

(٤) أعلام النبوة ٢٠٨ وانظر الحديث في: صحيح البخاري ١٥/٨، وزاد المعاد ٢/ ٣٩٤.

النبي ﷺ قد أثرت بها حاشية الرداء من شدة جبرته، ثم قال: يا محمد مز لي من مال الله الذي عندك. وفي رواية «فانك لا تحمل لي من مالك ولا مال أبيك». فالتفت إليه ﷺ فضحك، ثم أمر له بعتاء<sup>(١)</sup>.

قال ابن حجر: «في هذا الحديث: بيان حلمه ﷺ وصبره على الأذى في النفس والمال، والتجاوز على جفاء من يريد تألفه على الإسلام»<sup>(٢)</sup>.

### أسلوبه ﷺ في التعليم والتأديب:

من مهام الرسول ﷺ أنه يعلم الناس الكتاب والحكمة، وقد حقق ﷺ في هذا المجال من النجاح ما لم يحصل مثله في التاريخ، بدليل ظهور خير القرون من الصحابة الذين حملوا هذا الدين إلى الناس وكانوا يبلغون بأفعالهم قبل أقوالهم، وكان لأسلوبه ﷺ مع قوم عرفوا بالجفاء والغلظة مع جهل وقسوة ما استطاع به أن يجعل منهم العلماء والدعاة إلى الخير وقادة البشرية مع جمال في الأخلاق، ورقة في القلوب، وخوف من الله ويكاء في الليل، ووجل عند سماع آيات الله، وحسن في المجادلة.

وكان تعليمه ﷺ بأحسن وسيلة، وهي تخلقه هو بالأخلاق الحسنة، وامتناله لأوامر القرآن في نفسه فكان ﷺ أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ۖ﴾ [الأحزاب: ٢١].

وقد كان هذا الالتزام من النبي ﷺ فيما يأمر وينهى قبل أن يأمر وينهى؛ سبباً في إسلام الجُلندي ملك عُمان وقد بين ذلك فقال:

«لقد دلّني على هذا النبي الأمي؛ أنه لا يأمر بخير إلا كان أول آخذ به، ولا ينهى عن شر إلا كان أول تارك له، وأنه يَغْلِبُ فلا يَبْطُر... وأنه يفي بالعهد، ويُنجز الوعد، وأشهد أنه نبي»<sup>(٣)</sup>.

وأخلاقه لم تكن عن تكلف، بل كل ذلك منه وهو على طريقته في أول عمره إلى آخره، والكذاب المزور لا يمكنه ذلك، ولكنه ﷺ لم يكن من

(١) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب التسم والضحك ٥٠٣/١٠ ح ٦٠٨٨.

(٢) الفتح ٥٠٦/١٠.

(٣) الإصابة في ترجمة القائل ٣٣٩/٢.

المتكلفين، كما قال سبحانه: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦].

عن معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه<sup>(١)</sup> قال: «بينا أنا أصلي مع رسول الله ﷺ إذ عطس رجل من القوم، فقلت: يرحمك الله، فرماني القوم بأبصارهم، فقلت: واثكل أمياه<sup>(٢)</sup> ما شأنكم تنظرون إلي؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم، فلما رأيتهم يصمّتونني سكّث. فلما صلى رسول الله ﷺ دعاني، فبأبي هو وأمي، ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه، فوالله ما كهرني<sup>(٣)</sup>، ولا ضربني، ولا شتمني، قال ﷺ: إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن»<sup>(٤)</sup>

قال النووي: «وفيه بيان ما كان عليه رسول الله ﷺ من عظيم الخلق الذي شهد الله تعالى به، ومن رفقه بالجاهل، ورأفته بأمرته، وشفقته عليهم»<sup>(٥)</sup> وطرائقه ﷺ في التعليم كثيرة تختلف بحال المتعلم، وسنه، وطبيعته، فقد كانت حكمته تضع لكل شيء ما يناسبه.

\* وهناك من القرائن في سيرته ﷺ الشيء الكثير لا يسع المقام لذكرها، ولذلك نشير إلى بعضها بصورة موجزة جداً:

- سياسته ﷺ وحسن تدبيره للأموره، مع أوليائه وأعدائه في الداخل والخارج مع اختلاف الطبائع والمواقف والوقائع.

- جهاده ﷺ والفتوحات الكبيرة، والغزوات الكثيرة، والرقعة الواسعة التي وصل إليها الإسلام، في زمن قصير جداً، وقد كان أعداؤه قد أحاطوا به من كل جانب، وأثاروا عليه الأمم والقبائل من كل جهة، مع قلة النصير وضعف العشير ومع ذلك كانت العاقبة له.

- شجاعته ﷺ في مختلف الظروف التي عاشها ﷺ، شجاعة في قول الحق،

---

(١) معاوية بن الحكم السلمي، كان يسكن بني سليم، وينزل المدينة، وقال البخاري: له صحة، يعد في أهل الحجاز: الإصابة، لابن حجر ترجمة رقم ٧٠٦٦.

(٢) كلمة تقال عند الحسرة، والثلث: أن تفقد الأم ولدها.

(٣) نهربي.

(٤) رواه مسلم، كتاب الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة ٢٠/٥.

(٥) شرح مسلم ٢٠/٥.



وشجاعة في وجه العدو، في أحلك المواقف، وثباته حين تنزل الأقدام كما حدث في أحد الأحزاب وحنين وغيرها من المواقف الحرجة، وفي ذلك يقول علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -: «كنا إذا حمي الطيس واحمرت الحدق اتقينا برسول الله ﷺ، فما يكون أحد أقرب من العدو منه، ولقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي ﷺ وهو أقربنا للعدو»<sup>(١)</sup>.

- إصلاحه ﷺ الكبير في الزمن اليسير، وهذا الإصلاح شمل مختلف الجوانب، فكان إصلاحه ﷺ إصلاحاً عقدياً، وإصلاحاً أخلاقياً، وإصلاحاً تشريعياً، وإصلاحاً اجتماعياً.

- عبادته ﷺ وصلته بربه، وتهجده وقيامه حتى تنفطر قدماه، وذكره لربه على كل أحواله، وقراءته وتعليمه لكتاب ربه، وحرصه على الأعمال الصالحة حتى وفاته، وما تغيرت أحواله وما فتر عن عبادة ربه، حتى بعد أن فتحت له الأرض واستتب له الأمر، فلو كان مدعياً كاذباً وقد خضعت له الدنيا؛ فلماذا يواظب على طاعة ربه بهذا الشكل؟ حيث كان يمكنه أن يدعو الناس إلى دينه وهم له راضخون، ويشغل هو بحطام الدنيا.

- علومه ﷺ الزاخرة التي جاء بها وكانت كلها بعد الأربعين من عمره فجأة ودفعة واحدة؛ فلم يكن له قبل ذلك اهتمام بشيء من تلك العلوم، ولو كان منه أدنى كلمة تدل على اطلاعه على إثارة من علم ل قيل له: إنك أفنيت عمرك في الدراسة والتأمل ثم أظهرتها الآن بدليل تلك الكلمة، ولم يذكر أحد من أعدائه شيء من هذا، ولم يستطيعوا إثبات ذلك مع شدة حرصهم على نقض رسالته.

- ردوده ﷺ على الخصوم من أهل الكتاب وغيرهم بالجواب الباهر والحجة البالغة، وإفحامه لليهود حينما اختبروه بأشياء لا يعرفها إلا نبي.

- سوء عاقبة المستهزئين به ﷺ.

- اجتماع الفضائل فيه ﷺ على نسق فريد يستحيل معها أن يكون ﷺ مدعياً للرسالة.

---

(١) الشفا ٨٦/١.

## المبحث التاسع

### دعوته ﷺ وموافقته لأصل ما جاءت به الأنبياء

لا أبالغ إن قلت إن هذا الطريق هو من أكثر الطرق التي اقتنع بها الناس بنبوة محمد ﷺ؛ حيث كان ﷺ يبين للناس ما يدعو إليه، فلم يترك خيراً ولا عدلاً إلا ودعاهم إليه، ولم يترك شراً ولا ظلماً إلا وقد نهاهم عنه بجوامع كلامه ﷺ، دون أن يُشهر أمامهم آيته ومعجزته - في أغلب الأوقات - بل كان يترك الناس يتأملون في هذه الدعوة وحال الداعي ﷺ، وبناء على ذلك أسلم كثيرون وآمنوا به ﷺ لقناعتهم بالداعي ودعوته ﷺ.

ولو أردنا أن نتعرف عليه ﷺ من حيث حملُهُ للدعوة التي يدعو إليها ألا يصدق عليه ﷺ أنه (الماحي): الذي محا الله به الكفر<sup>(١)</sup>، هادماً لمظاهر الشرك، قامعاً للأوثان والأصنام، مُذلاً لعباد النيران؟

ألا يصدق عليه أنه ﷺ الذي أقام منار الدين بعد سقوطه؟ ألم يكن محرراً للإنسان من ذل الطاغوت والطغيان؟ وناهياً عن غلو أهل الكتاب الذي جرَّهم إليه الشيطان؟ - بيان ناصع وحجة دامغة - .

ألا يصدق عليه ﷺ أنه (المُقَفِّي): الذي اتبع آثار الأنبياء قبله بعد اندراسها؟ وأحيا دعوتهم بعد انطماسها؟ وجاء بأصول الاعتقاد التي جاؤوا بها<sup>(٢)</sup>.

---

(١) وهذا اسم من أسماء الرسول الثابت في الصحيح، انظر: صحيح مسلم، كتاب الفضائل ح ١٢٤، ١٢٥، وانظر: الرياض الأنيقة في شرح أسماء خير الخليقة، للسيوطي ص ٢٣٠.

(٢) وهذا الاسم جاء في الصحيح أيضاً، انظر: صحيح مسلم، كتاب الفضائل ح ١٢٦، «والمقفي: هو المتبع للأنبياء، يقال قفوته أقفوه وقفيت إذا اتبعته، وقافية كل شيء آخره» شرح مسلم، للنووي ١٥/١٠٦، وانظر: المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني ص ٤١٠، وقال السيوطي: «المتبع آثار من قبله من الأنبياء» الرياض الأنيقة في شرح أسماء خير الخليفة، للسيوطي ص ٢٥٢.

- ألم يدع ﷺ إلى ما دعا إليه إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام -؟<sup>(١)</sup>

بلى قد جاء بالخير كله من جميع وجوهه ونهى عن الباطل كله من جميع وجوهه :

- ألم يدع رسول الله ﷺ إلى تعظيم الله وتقديره حق قدره؟ وإثبات ربوبيته واستحقاقه لأن يُعبد وحده دون سواه؟، وأثبت الأسماء الحسنى والصفات العلى لله تعالى ووصفه بصفات الكمال ونزهه عن صفات النقص.

- ألم يأت رسول الله ﷺ بتبرئه الملائكة من أن يكونوا بنات لله، وبين مهامهم وأعمالهم الجليلة في العالمين العلوي والسفلي؟

- ألم يأت رسول الله ﷺ بالإيمان بما أنزل من كتب على من قبله من الرسل، وأنها اشتملت على هدى ونور ما دامت تهدي للتوحيد ويشرق فيها نور الإخلاص؟، ولكنها بعد أن تعرضت للتحريف والتلاعب على أيدي الذين يشتركون بآيات الله ثمناً قليلاً لم تعد صالحة للهداية.

- ألم يأت رسول الله ﷺ بالدلائل القاطعة والحجج الباهرة على إثبات اليوم الآخر والبعث بعد الموت؟؟ وهو أمر استبعده كثير من الناس ونفوه وكذبوا به قديماً وحديثاً، فجاء بأدلة دامغة على ثبوته.

- ألم يأت رسول الله ﷺ بالدعوة إلى التقرب إلى الله بأفضل العبادات؟ كالصلاة والزكاة الموافقة لما شرع عند من سبقه من الأنبياء ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۖ﴾ [مريم: ٣١]، والصوم ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لِمَ كُنتُم تَنفَوْنَ ۚ﴾ [البقرة: ١٨٣]، والحج: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ﴾ [الحج: ٢٧].

- ألم يأت رسول الله ﷺ بالتقرب إلى الله بصالح الأعمال ومحاسن

---

(١) والأدلة على أنه ﷺ قد دعا إلى ما دعا إليه الأنبياء من قبله، من التوحيد والأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، أدلة كثيرة، انظر: المواضع التالية من كتاب الله الكريم من السور التالية: يونس: (٧١ - ٧٢)، البقرة: (١٣٠ - ١٣٧)، يوسف: (١٠١)، الأعراف: (١٢٦)، النمل: (٤٤)، الشورى: ٢٣، المؤمنون: (٥١ - ٥٢ - ٥٣)، المائدة: (٤٤)، آل عمران: (٥٢)، المائدة: (١١١)، الأنبياء: (٩١ - ٩٢)، الأنبياء: (٢٥)، الروم: (٣٠ - ٣٢)، النحل: (٣٦).

الأخلاق؛ كالصدق، والوفاء بالعهد، وأداء الأمانات، وصلة الأرحام؟

- ألم يأت رسول الله ﷺ بالتحذير الشديد من الشرك، والتخويف والرعيد على الكفر؟

- ألم يأت رسول الله ﷺ بتحريم القتل، والزنا، وشرب الخمر، وأكل الربا. أليس هذا كله دين الأنبياء؛ الذي شرعه الله للناس ووصى به الرسل من لدن نوح إلى نبينا محمد ﷺ؟؟

كما قال سبحانه: ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَهُهُ اللَّهُ يَجْتَبِئُ إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴾ [الشورى: ١٣].

وما الفرق بين إرساله ﷺ وإرسال موسى من قبله، ألم يقل الله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۖ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخَذًا وَبِيلًا ﴾ [المزمل: ١٥ - ١٦].

وقد جاء الاستدلال على نفي الشرك في دعوته ﷺ بالنظر في دعوة الأنبياء قبله، وأذكر مثالا واحداً على ذلك، قال تعالى: ﴿ وَتَسْتَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٤٥].

بل جعل الله طريقة إبراهيم والذين آمنوا معه في الرءاء والبراء قدوة له ﷺ وللمسلمين حين قال: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَنَزَّلَ اللَّهُ مِنْ سَمَاهُ الْقُدُسِ إِلَيْكُمْ الْقُرْآنَ الَّذِي هُوَ الْخَيْرُ الْمُبِينُ ﴾ [الممتحنة: ٦].

وقد أمر الله نبيه محمداً ﷺ بالافتداء بالأنبياء قبله، كما قال تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ فَبِهِدْهُمْ أَفْتَدِ ۖ قُلْ لَا أَشْتَكُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٩٠] وقال تعالى: ﴿ قَاصِرٌ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعِزَّةِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا سَتَعِجِلَ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَوْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَابٍ فَأُولَٰئِكَ يَهْلِكُ إِلَهُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِثْلَ دِينِ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦١].

ولذلك لم يكن ﷺ بدعاً من الرسل كما قال تعالى: ﴿ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرَىٰ مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَيْتُمْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ [الأحقاف: ٩]. والرسول جاء مصداقاً لمن قبله من الأنبياء مصداقاً لما جاء

معهم من أصول الدين وقد جعل ذلك حجة على من لا يؤمن به ﷺ ولم يقل (مصدق به)، فالمصدق هو الرسول محمد له لا به، فالرسل والكتب قبله بحاجة إلى تصديق محمد ﷺ إياها، وإلا فهو مستغن عن تصديق الغير له، فدليل صدقه ذاتي قائم فيه<sup>(١)</sup>.

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ، وَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران: ٨١].

وقد حفظ الله بدعوته دعوة الأنبياء، وصحح ما انحرف، ثم أكملها، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣] وذلك لأن دين الأنبياء واحد كما مر<sup>(٢)</sup>. وإرسال محمد ﷺ بعد تحريف دين الأنبياء رحمة، رحم الله به العباد، وأعادهم به إلى الصراط المستقيم؛ صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين فكان رحمة للعالمين قال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧]<sup>(٣)</sup>

### جاءت دعوته ﷺ مؤكدة للوصايا الجامعة:

تلك الوصايا التي جاء بها الرسل واتفقوا عليها، وجاء محمد ﷺ مهيماً على ما بين يديه من الكتاب؛ ومؤكداً للوصايا الجامعة التي تأمر بمجامع الخير وتنهى عن أصول الشر، ويشهد بمثل ما في الكتب السابقة من الأخبار الصادقة والأصول الثابتة، والشرائع الجامعة، التي اتفق عليها الرسل، كالوصايا المذكورة في آخر

(١) انظر: نبوة محمد ﷺ في القرآن، د. حسن عتر ص ٢٧٧.

(٢) وقد سبق ذكر حديث: «الأنبياء أخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد». رواه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى (واذكر في الكتاب مريم...) ح ٣٤٤٢، ٣٤٤٣ مع الفتح ٤٧٨/٦، وقال النووي: «معنى الحديث أصل إيمانهم واحد، وشرائعهم مختلفة، وأنهم متفقون في أصول التوحيد، وأما فروع الشرائع فوقع فيها الاختلاف، «دينهم واحد»: فالمراد به أصول التوحيد وأصل طاعة الله تعالى وإن اختلفت صفتها وأصول التوحيد والطاعة جميعاً» شرح مسلم ١٢٠/١٥.

(٣) وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما أنا رحمة مهداة» ذكره السيوطي في الجامع الصغير ٣٤٨/١ انظر سبل الهدى والرشاد، للصالح ٥٧٣/١. فكل ما جاء به ﷺ رحمة.

الأنعام، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلُمْ شُهَدَاةُكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايِنِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَصْدُقُونَ ﴿١٥٠﴾ قُلْ تَكَلَّوْا أَنْتُمْ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِنَّهِنَّ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَمْ وَصَلَكُمْ بِهِ لَعْنُكُمْ تَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَيْلِ وَالْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكَكُمْ وَصَلَكُمْ بِهِ لَعْنُكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَإِنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكَكُمْ وَصَلَكُمْ بِهِ لَعْنُكُمْ تَقُولُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥٠ - ١٥٣].

وأول الأعراف، قال تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٨﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهم مُنْهَدُونَ ﴿٢٩﴾﴾ وَيَنْبَغِي مَا دَمَ خُدُودًا زِينَتَكَ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَامْشَوْا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣٠﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الأعراف: ٢٩ - ٣٢].

وقال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبِّيكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُنِي وَلَا تُنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٣٢﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٣٣﴾ زُكْرُكُمْ أَكْبَرُ يَمَا فِي نَفْسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِ غَفُورًا ﴿٣٤﴾ وَمَا ذَا الْقُرْبَىٰ حَقُّهُ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَلَا بُدْرَ تَبْذِيرًا ﴿٣٥﴾ إِنَّ الْمُبْدِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِمْ كَفُورًا ﴿٣٦﴾ وَإِمَّا تَرْضَيْنَ عَنْهُمْ آيَةً رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ رِجُوعًا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيَّسُورًا ﴿٣٧﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْشُورًا ﴿٣٨﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِنَّا كَرُّمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴿٤٠﴾ وَلَا تَقْرَبُوا الرِّزْقَ إِنَّمَا كَانَ فَرْحَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٤١﴾ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِرِيعِهِ مَلَكُنَا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴿٤٢﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا

﴿٢٢﴾ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزَنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٢٣﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٢٤﴾ وَلَا تَنسُوا فِي الْأَرْضِ مَرَمًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٢٥﴾ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُمْ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُومًا ﴿٢٦﴾ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا مَّاخَرَفَلَقْنِي فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَذْمُورًا ﴿٢٧﴾ [الإسراء: ٢٣ - ٣٩].

كلها وصايا عظيمة؛ تواتر على الأمر بها الأنبياء، ولكن محمداً ﷺ؛ أُنبتها، ووضحها، وأبانها أفضل بيان، وتكفل الله بحفظها له ولأمته من بعده.

وكان يكفي سامع تلك الوصايا العظيمة التي نص عليها القرآن الكريم أن يصدق بنبوته محمد ﷺ لما جاء فيها من الحث على معالي الأمور، وما اشتملت عليه من الحكمة، والأمر بمحاسن الأخلاق، والنهي عن القبيح من الأقوال والأفعال.

ولذلك أقام الله الحجة على كفر اليهود والنصارى، وبراءة إبراهيم منهم؛ بأن دين إبراهيم هو الحنيفية السمحة، فكل من كان متمسكاً بها فهو وليّ لإبراهيم عليه السلام، أما أولئك الذي خالفوا دين إبراهيم فليسوا أولياءه، إن أولياءه بحق هم المسلمون الذين آمنوا بدينه ولم يخالفوه في ذلك الأصل العظيم، قال تعالى ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ﴿٧﴾ إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ بِإِيزِهِمْ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ [آل عمران: ٦٧ - ٦٨].

وكل من فَرَّقَ بين رسل الله فأمن ببعض وكفر ببعض؛ فقد كفر لأن الرسل جاؤوا متفقين على تلك الوصايا الجامعة؛

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾ ﴿١٥٠﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٥١﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٥٢﴾ [النساء: ١٥٠ - ١٥٢].

قال شيخ الإسلام: «فلما كان محمد ﷺ خاتم النبيين، ولم يكن بعده رسول ولا من يجدد الدين، لم يزل الله سبحانه وتعالى يقيم لتجديد الدين من الأسباب ما يكون مقتضياً لظهوره؛ كما وعد به في الكتاب؛ فيظهر به محاسن الإيمان

ومحامده، ويعرف به مساوئ الكفر ومفاسده»<sup>(١)</sup>.

فمن خرج عن دين المرسلين الواحد فقد ضل وكفر، ولذلك يمكن القول: إن كل من خالف أصلاً من الأصول التي جاء بها الأنبياء فدينه باطل.

ومن العلامات الواضحة على معرفة دين المشركين؛ أنهم الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كما قال تعالى: ﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٥﴾ مُبِينٌ إِلَيْهِ وَاقْتُوهُ وَأَقِمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣٦﴾ مِنَ الدِّينِ فَرَقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الرُّوم: ٣٠ - ٣٢].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَذِهِ أَنتُمْ مُشْكِرُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٥٣﴾ فَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبْراً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [المؤمنون: ٥١ - ٥٣].

وقال تعالى: ﴿﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾﴾ [الشورى: ١٣].

ودعوة المتنبي الكاذب لا تخلو عن اعتقاد فاسد وعمل ساقط يؤدي إلى التفرق في الدين بعكس الصادق.

وقال تعالى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٥﴾ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٤ - ٨٥].

### الدعوة إلى كلمة سواء:

كان رسول الله ﷺ يدعو الملوك وأمراء الأمصار إلى الإسلام، وكان يرسل لهم الرسل، ويكتب لهم الكتب، وقد لاحظت أن الكتب والرسائل التي كان يرسلها قد تَضَمَّتْ - في أغلبها - تلك الدعوة العظيمة الواردة في قوله تعالى: ﴿قُلْ يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ تَمَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ-

(١) الجواب الصحيح ٨٣/١ - ٨٥، وانظر: فتح الباري ٦/٤٧٨.



شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ٦٤] <sup>(١)</sup>.

وهذه الدعوة في غاية الإنصاف، أن يقال للطرف الآخر تعال لأقف أنا وأنت عند كلمة مستقيمة سواء عدل بيننا وبينك: نترك الشرك، وندع عبادة بعضنا لبعض الآخر بأي نوع من أنواع العبودية.

قال السعدي في تفسيره للآية الكريمة: «هذه الآية الكريمة كان النبي ﷺ يكتب بها... وقرأ بها في الركعة الآخرة من سنة الصبح؛ لاشتغالها على الدعوة إلى دين واحد قد اتفق عليه الأنبياء والمرسلون، واحتوت على توحيد الإلهية، المبني على عبادة الله وحده لا شريك له، وأن يعتقد أن البشر وجميع الخلق كلهم في طور البشرية لا يستحق أحد منهم شيئاً من خصائص الربوبية، ولا من نعوت الإلهية، فإن انقاد أهل الكتاب وغيرهم إلى هذا فقد اهتدوا ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ٦٤] <sup>(٢)</sup>.

﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]، قال ابن جرير: «ولا يدين بعضنا لبعض بالطاعة فيما أمر به من معاصي الله» <sup>(٣)</sup>، ولا نعبد إلا الله ربنا وربكم، فهذه دعوة لا يملك أي عاقل أن يرها، أيرد العاقل من يدعوه إلى ترك الذلة والمهانة والخضوع لمخلوق مثله؟؟

### نموذج لعرض دعوته ﷺ عن طريق بعض أصحابه:

ولندع الكلمة إلى جعفر بن أبي طالب - رضي الله عنه - ليحدثنا عن دعوة الرسول ﷺ، وكيف كان أثرها فقال هذه الكلمات بين يدي النجاشي ملك الحبشة يوم أن كان نفر من الصحابة مهاجرين إلى الحبشة فراراً من التضييق الذي مارسه مشركو قريش عليهم، ووصل تضييقهم إلى الحبشة فأرسلوا إلى ملكها ليستردهم، فقال جعفر للملك لما أحضرهم عنده ليعرف دعوة الرسول ﷺ: «أيها الملك كنا

(١) انظر: كتاب: «إعلام السائلين عن كتب سيد المرسلين» محمد بن طولون، تحقيق محمود الأرنؤوط. وقد ذكر المؤلف كتباً كثيرة من الرسول ﷺ إلى الملوك وغيرهم تتضمن تلك الدعوة وهناك أمثلة لغير أهل الكتاب.

(٢) تفسير السعدي ١/١٠٩، وانظر: تفسير القرطبي ٤/٦٨، وفتح القدير ١/٣٤٨.

(٣) تفسير الطبري ٣/٣٠٢.

قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسئ الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نَسَبَهُ، وصدقه، وأمانته، وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده، ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه، من الحجارة والأثان، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم، والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة، والزكاة، والصيام، . . . فصدقناه، وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئاً، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا، فعذبونا، وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان، عن عبادة الله، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وشقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلدك . . .»<sup>(١)</sup>

والقصة طويلة فلما قرأ جعفر أول سورة مريم ليبين قول الإسلام في المسيح، وليرد على تهمة عمرو بن العاص يومها للمسلمين بالقدح في المسيح عليه السلام، فقال النجاشي بعدما استمع إلى القرآن: «إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة»<sup>(٢)</sup>

وبعث رسول الله ﷺ أحد أصحابه، وهو العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى العبدي - صاحب هَجَرَ<sup>(٣)</sup> - بكتاب النبي ﷺ يدعوه فيه إلى الإسلام، قال العلاء: «فلما دخلت عليه قلت: يا منذر، إنك عظيم العقل في الدنيا، فلا تصغر عن الآخرة، [ثم ذكر له فساد دين المجوس وتناقضه مع العقل والفطرة، ثم قال:]

(١) رواه أحمد في المسند ٢٠١/١ - ٢٠٣ من حديث أم سلمة، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، غير ابن إسحق، وقد صرح بالسماع» ٢٤/٦ - ٢٦، وقال صاحب الفتح الرباني: «الحديث صحيح» ٢٠/٢٢٩. ورواه أبو داود عن أبي موسى في الجناز، باب في الصلاة على مسلم يموت في بلاد الشرك بنحوه ٥٤٣/٣ برقم ٣٢٠٥، وأخرجه الحاكم في المستدرک، كتاب التفسير من حديث أبي موسى الأشعري، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، انظر المستدرک ٢/٣٠٩ - ٣١٠ كتاب التفسير.

(٢) انظر: المصادر السابقة.

(٣) البحرين سابقاً، المنطقة الشرقية الشمالية اليوم من شبه الجزيرة العربية انظر: الوثائق =

ولستَ بعديم عقل ولا رأي، فانظر: هل ينبغي لمن لا يكذب أن تصدقه؟ ولمن لا يخون أن تأمنه؟ ولمن لا يخلف أن تثق به؟ فإن كان هذا هكذا فهذا هو النبي ﷺ الأمي الذي والله لا يستطيع ذو عقل أن يقول: ليت ما أمرَ به نهى عنه، أو ما نهى عنه أمر به؟ أو ليتَه زاد في عفوه، أو نقص من عقابه، إن كل ذلك منه على أمانة أهل العقل وفكر أهل البصرا.

فقال المنذر: قد نظرت في هذا الذي في يدي [المجوسية]، فوجدته للدنيا دون الآخرة، ونظرت في دينكم فوجدته للدنيا والآخرة، فما يمنعني من قبول دين فيه أمانة الحياة، وراحة الممات، ولقد عجبت أمس ممن يقبله، وعجبت اليوم ممن يردّه، وإن من إعظام من جاء به أن يعظم رسوله، وسأنظر، ثم أسلم المنذر وكتب إلى النبي ﷺ بالإسلام والتصديق<sup>(١)</sup>.

### تصديق كثيرين له لموافقة دعوته ﷺ للأنبياء:

كما مر قريباً من شأن النجاشي وقوله: «إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة»، ولما سمع ورقة بن نوفل قصة غار حراء، ونزول جبريل على رسول الله بالوحي قال: «هذا الناموس الذي نزل الله على موسى، يا ليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ أو مخرجي هم؟ قال: «نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرأ مؤزرأ...»<sup>(٢)</sup>

ولقد صدقت الجن بنبوة الرسول ﷺ وآمنت به، بعد سماعها للكتاب الذي جاء به، والدعوة التي دعا إليها، ومما دلهم على أنها دعوة حق وديانة صحيحة موافقتها لدعوة موسى - عليه السلام - قال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالُوا يَنْقُومَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى

= السياسية، محمد حميد الله ص ١٥٠

(١) انظر: مسند الإمام أحمد مختصراً ٢٥/٥، وعيون الأثر لابن سيد الناس ٣٣٩/٢، وشرح المواهب اللدنية بالمنح المحمدية للزرقاني ٤٢٠/٣، وأعلام السائلين لابن طولون ص ٥٥ - ٥٩، وطبقات ابن سعد ٢٧٦/١، وزاد المعاد ٦٩٣/٣، والإصابة ٤٣٩/٣، والوثائق السياسية لمحمد حميد الله ص ١٥٠.

(٢) تقدم تخريجه، انظر: صحيح البخاري ح ٣. والمراد بالناموس هنا: جبريل عليه السلام.

طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٢﴾ يَنْقُومَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ، يَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِزَّكُمْ مِّنْ  
عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٣٣﴾ وَمَنْ لَا يُحِبِّ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ  
أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٤﴾ ﴿[الأحقاف: ٢٩ - ٣٢].

وقال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا  
﴿٣٥﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٣٦﴾﴾ [الجن: ٢] وَأَنَّهُ تَعَلَّى جَدُّ رَبِّنَا  
مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣٧﴾﴾ [الجن: ١ - ٣].

## المبحث العاشر عصمة الله ﷺ حين تعاقد المشركون على قتله.

ليس من الغريب أن يَسْلَمَ من القتل أو الأذى صاحبُ دعوة إلى أمر ما، ولو كانت هذه الدعوة على خلاف مألوف الناس، فقد يتخذ من الاحتياطات والأساليب، ما ينجيه من عدوه.

ولنألف العجيب حقاً حال رسول الله ﷺ مع مكذبيه وأعدائه حيث:

- وصف كتابه المكذبين بدعوته بالأوصاف المذمومة بأقوى عبارة وأعنف أسلوب: فقد وَصَفَهُم بالصمم والبكم والعمى في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٣٩﴾ [الأنعام: ٣٩] ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ٤٠﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ٤١﴾ [يونس: ٤٢ - ٤٣].

وَوَصَفَهُم بالموتى في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ٣٦﴾ [الأنعام: ٣٦] ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ ٣٧﴾ [فاطر: ٢٢].

ووصفهم بأنهم كالأنعام والدواب التي لا تعقل كما في قوله تعالى: ﴿وَمَثَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَقُولُ يَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءٌ وَنِدَاءٌ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْى فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ١٧١﴾ [البقرة: ١٧١] ﴿إِنْ سَأَلْتَهُ الدَّوَابَّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٥٥﴾ [الأنفال: ٥٥].

بل وصفهم بأنهم أضل من الأنعام: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَفْئِدَةٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاقِلُونَ ١٧٩﴾ [الأعراف: ١٧٩].

ووصف المكذب القاتل من المشركين إن القرآن ﴿أَسْطِطِرُّ الْأَوَّلِينَ﴾ بصفات

قبيحة جداً وهم كثر، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعْ كُلَّ حَلَافٍ مِّنْهُنَّ﴾ ﴿١٥﴾ هَازِلٌ مِّثْلُ نَيْسَبِ ﴿١٦﴾ مَتَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيرٍ ﴿١٧﴾ عَتَلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيرٌ ﴿١٨﴾ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَنَبِيرٌ ﴿١٩﴾ إِذَا تَنَازَعْتُمْ عَلَيْهِ بَيْنُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٠﴾ سَتِمْ عَلَى الْمُزُورِ ﴿٢١﴾ [القلم: ١٠ - ١٦] (١)

- وتوعدهم بالنصر عليهم وهزيمتهم في الدنيا، وبالعذاب الأليم لهم في الآخرة. قال تعالى ﴿سَيَهْرُمُ الْبَطْخُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ﴾ ﴿٢٢﴾ [القمر: ٤٥] (٢)، ولما رمت العرب عن قوس واحدة، وكان المسلمون في خوف شديد؛ وعُد رسول الله والمسلمون بالنصر عليهم: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ﴿٢٣﴾ [التور: ٥٥] (٣)

ورد الله كيد الأحزاب التي تكالبت عليهم مما زادهم غيظاً وحنقاً وقال فيهم: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَىٰ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا غَازِيًّا﴾ ﴿٢٤﴾ [الأحزاب: ٢٥].

وقال في شأن الخونة من اليهود: ﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُ مِن أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَاحِبِهِمْ وَقَدْ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبُ فَرِيقًا تَقْتُلُوتُ وَتَأْسِرُوتُ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُم أَرْضَهُمْ وَدِينَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطْثُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ ﴿٢٧﴾ [الأحزاب: ٢٦ - ٢٧].

- هذا في الدنيا أما في الآخرة فقد توعدهم بالعذاب الأليم، الذي يهيج العدو المستكبر المعاند:

فتوعد أشد أعدائه - أبا لهب وزوجه بالنار - بالعذاب الشديد في سورة المسد: ﴿تَبَّتْ يُدَا أَيْ لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَأَمْرَاتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَمٍ ﴿٥﴾﴾

(١) انظر: تفسير القرطبي في المراد بالآيات الكريمة ٢٣٣/١٨.

(٢) قال عمر: لما نزلت هذه الآية جعلت أقول: أي جمع يُهزم؟ أي جمع يغلب؟ فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثبت في درعه وهو يقول: ﴿سَيَهْرُمُ الْبَطْخُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ﴾ ﴿٢٢﴾ [القمر: ٤٥] فعرفت تأويلها يومئذ! انظر تفسير ابن كثير ٢٨٦/٤.

(٣) انظر: تفسير الطبري ١٨/١٢٢، والدر المنثور ٦/٢١٥.

وكما تواعد أباجهل - عندما سخر من خزنة جهنم - بأشد العذاب في النار  
كما قال تعالى: ﴿لَئِنْ شَجَرَتِ الرَّقُودِ ﴿٤٦﴾ طَعَامُ الْآثِيرِ ﴿٤٧﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي  
الْبُطُونِ ﴿٤٨﴾ كَغَلِّ الْحَمِيمِ ﴿٤٩﴾ خُدُّهُ فَاقْتُلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْحَبِيمِ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ  
رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٥١﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٥٢﴾﴾ [الدَّخَان: ٤٣ -  
٤٩] <sup>(١)</sup>

- وتواعد الوليد بن المغيرة - لما طعن في القرآن - بأشد الوعيد في قوله  
تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾﴾ [المَدَّثَر: ١١] ﴿سَأَرْهَقُهُمْ ضَعْفًا ﴿١٢﴾﴾ [المَدَّثَر: ٢٥ - ٢٦].

وقد بين ﷺ ضلال دينهم وانحرافه وبطلانه، وسفه أحلامهم، وآلهتهم التي  
كانوا يعبدونها، وواجه أصنافاً من المكذبين به؛ فمنهم الوثني، ومنهم اليهودي  
ومنهم النصراني، وقد جاء في القرآن من الآيات الكثيرة التي تبين ضلالهم  
الاعتقادي وانحرافهم الأخلاقي وغلوهم في دينهم، وتحدى المكذبين منهم  
بالمباهلة فلم يستجيبوا، وواجه عدواً شرساً من الداخل وهم المنافقون المندسون  
في صفوف المسلمين، وقد جاء في القرآن ذكر كثير من سماتهم وأساليبهم الملتوية  
ليفضحهم، ويظهر عوارهم.

كل هذه الظروف كانت كفيلة بامتلاء قلوب المعاندين له ﷺ والمستكبرين  
عن دعوته بمختلف صنوف الحقد والغل والرغبة في الخلاص منه  
ومع ذلك يأتي ذلك الإعلان العظيم بالبشارة للمسلمين بأنه عائدون في  
القريب العاجل إلى دارهم مكة منتصرين على هؤلاء المكذبين، إمعاناً في تبكيث  
الكافرين كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُلْ رَبِّيَ  
أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾﴾ [الْقَصَص: ٨٥].

بل ووعدهم بالنصر على أعدائهم: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي  
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَنَوْمٍ يَقُومُ الْأَشْهُدُ ﴿٥١﴾﴾ [غَافِر: ٥١]

هذا والرسول يعلم أن هناك عدداً من الأنبياء ذهبوا ضحية دعوتهم فقتلوا،  
وسُفِكَت دماؤهم، كما فعل اليهود بأنبيائهم: ﴿... أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ

(١) انظر: تفسير القرطبي ١٦/١٥١، وأسباب النزول للواحدي ص ٢٩٨.

أَنْفُسَكُمْ اسْتَكَبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ [البقرة: ٨٧].

فلم يؤثر فيه ذلك ولم يحجم خطوة واحدة عن سبيله، وقد كان المكذبون به ﷺ لا عمل لهم إلا الكيد والتخطيط لوأد الدعوة، والقضاء على رسول الله ﷺ بأي وسيلة كانت ولو عن طريق الاغتيال، وقد حاولوا استخدام هذه الوسيلة مراراً، ورسول الله ﷺ ماض في طريقه، يبلغ ما أنزل إليه، ولا يملك من وسائل الحماية إلا قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ يَلْعَلْ مَا نُزِّلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ مَا بَلَّغَتْ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَمْصُرُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [المائدة: ٦٧] وكفى بالله وكيلًا.

وتفرغ أناس من أكابر قريش للاستهزاء به ﷺ، والعمل على تشويه الرسالة وصاحبها، فأمر الله رسوله بالمضي في الدعوة والصدع بها، وهو سبحانه يكفيه استهزاء المستهزين فقال تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [الحجر: ٩٤ - ٩٥].

وقد كان من أشد المستهزين به عمه أبو لهب، وعقبة بن أبي معيط، والحكم بن العاص، والأسود بن المطلب بن أسد أبو زمعة، والأسود بن عبد يغوث الزهري، والعاص ابن وائل السهمي، والوليد بن المغيرة المخزومي، والحارث بن الغيطلة السهمي، وغيرهم فمر بهم رسول الله ﷺ واستهزؤا به فشكاهم ﷺ إلى جبريل فقال: كُفَيْتْكُمْ، فهلكوا بضروب من البلاء والعمى قبل الهجرة، وقد مات أبو لهب؛ عبد العزى بن عبد المطلب ابن هشام أشد الناس استهزاء بالنبي ﷺ بمكة سنة ٢هـ، عند وصول الخبر بانهزام المشركين ببدر بمرض (١).

وقد ثبت الله رسوله بما قص عليه من قصص الأنبياء، ومنها تحدي هود عليه السلام وهو رجل واحد يخاطب أمة عظيمة، هذا الخطاب لقومه بأنهم عاجزون عن إلحاق الأذى به، وإهلاكه، مهما كان كيدهم له، وهو غير جزع ولا فزع، بل واثق من وعد الله له، كما قال تعالى: ﴿... قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِنْ دُونِهِ فَيَكْذِبُونَ جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظَرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [هود: ٥٤ - ٥٥].

(١) انظر: دلائل النبوة للبيهقي ١٨٤/٢ - ٣١٨/٥ والبخاري، والخصائص الكبرى للسيوطي



ففي هذه الآية: توكيد لعصمة الله لمحمد ﷺ كما عصم هوداً من قبل، وقد عصم الله محمداً ﷺ مع وحدته وكثرتهم، ومنعه الله من أعدائه بالرغم من تحريهم لاستتصاله وإطفاء نوره.

**عصمة الله لرسوله ﷺ من أعظم الآيات على نبوته:**

- وهذا عرض موجز للمواقف الكبرى التي عصمها الله فيها -

«وقد حاول أعداؤه قتله غير مرة، وحرضوا عليه، ولكن منعه الله، وكفاه، وهذا الصرف للمشركين عنه أعظم من صرف الله كيد فرعون عن موسى، فإن بني إسرائيل كانوا كثرة بمصر على دين موسى، وطول مقام موسى مع فرعون بعد ادعاء النبوة سنة واحدة، ومحمد ﷺ أقام بمكة ثلاث عشرة سنة وجاءهم وحيداً منفرداً بدين خالف الأمم كلها من أهل زمانه ولم يعتصم بمخلوق ولا صوب أحداً من الأمم ولا من الملوك الجبابرة.

وقد أرسدوا له للقتل مرات لا يحصوها إلا الله، وكان أشد ما عليهم إذا قرأ القرآن وفيه عيبهم وعيب آلهم... فإنهم كانوا يثرون له ويفورون من أجله، وكان ذلك شديداً على رسول الله لوحدته وضعفه، ولما يعرف من بأسهم وغلظ أكبادهم، فسلامته ﷺ منهم وهذه حالهم أمر عجيب:

وحاله كمن قال: الدلالة على صدقي أنني أخوض هذه النار العظيمة وألث فيها وأخرج منها سليماً، فهذه كانت حال رسول الله ﷺ مع هذه الأمم، فإنه أقام بعد ادعاء النبوة بمكة ثلاثة عشر عاماً بين هذه الشدائد المتوالية، والأهوال المتصلة، وهو يخرج إلى المواسم، ويقوم في المحافل، ويبرز إلى القبائل، ويعرض نفسه، ويذكر ما يدعو إليه، وقريش ترصده، وتتبعه برجالها ودهاتها، في التنفير عنه، والصد عنه، وهو لا يلين ولا يفتر، وكان القرآن يتوالى نزوله بما يكرهون، فيجيب من يجيب منهم رسول الله ﷺ فيتضاعف غيظهم، ويتجدد عزمهم على قتله واستتصاله، فيجدون، ويشمرون، ويسعون، ويرهجون، فلا يغني عنهم كيدهم شيئاً: ﴿... وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُورَثُ ۝﴾ [فاطر: ١٠].

وكانوا يَمْكُرُونَ به مكرراً عظيماً، قال الله فيه: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ لِنَزُولِ مِنْهُ الْجِبَالِ ۝﴾ [إبراهيم: ٤٦] ولكن رد الله عليهم مكرهم وعصمه منهم.

ولقد ضاقت قريش ذرعاً بما تسمعه منه ﷺ ليلاً ونهاراً من مثل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ اللَّحَنِ وَالْإِنِّ لَمْ يَكُنْ لَّهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آفَاقٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلَّ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ۝﴾ [الأعراف: ١٧٩].

فكانوا يتربصون به الموت فلا يموت، ويرومون قتله مع وحدته فلا يتم، فأجمع أمرهم على مقاطعته ومقاطعة الأذنين من بني هاشم، مؤمنهم وكافرهم، إلا من جرد في صده مثل تجريدهم، وترك مبايعتهم ومناكحتهم، والتضييق عليهم والإساءة إليهم وحصرهم في شعب من شعاب مكة، وتحالفوا على ذلك، وكتبوه في صحيفة علقت في بيت الله الحرام بمكة، فمكث ﷺ ومن معه في ذلك الشعب أربع سنين متواليات في الحصار الشديد لا يدخل إليهم ما يتقوتون به إلا بالحيلة والمسارقة، ولا يقدر أن يخرج منهم إنسان في حاجة إلا عن غفلة من المشركين أو ليلاً.

وقد شمل المسلمين الخوف؛ فلا يؤمنون إلا من موسم إلى موسم، وأهله يتضرعون إليه بأن يلين لقومه من قريش، ويمسك عن عيب آلهم أو يرجع عن تضليل آبائهم، ويخوفونه فلا يلين لقومه من قريش، ويمسك عن عيب آلهم أو يرجع عن تضليل آبائهم ولا يزداد إلا شدة وصرامة، وبعد أربعة سنين من المقاطعة انتهى الأمر بخزي المشركين، وفرج الله عن بني هاشم فخرجوا من الحصار الذي كانوا فيه<sup>(١)</sup>.

ثم جاءت حادثة الهجرة، وأتم له ما أراد، مع شدة قريش على رسول الله، وأصحابه وأذاهم وحرصهم على قتله، وحادثة اجتماعهم في دار الندوة وتدابيرهم أمر اغتياله أمر معروف، وكتب الله نصره فخرج وهو يتلو قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَ يَدَيْهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝﴾ [يس: ٩] وقال: ﴿إِلَّا تَصْـُورُهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَالِثَ أَثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْفَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا نَجِزُكَ اللَّهُ مَعًا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُودِهِ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝﴾ [التوبة: ٤٠].

(١) انظر شأن الصحيفة في: سيرة ابن هشام ٣٨٨/١ - ٤٢٠.

فكانه يقول: فقد عرفتم أيها الناس نصري له حين هاجرتم وتركتموه مع صاحبه وحيدين، فأبطلت كيد المشركين مع كثرتهم ووحدتهم، وصدقت وعدي بمنعي عنه وعصمتي له، وأكذبت أقاويلهم، ولما فشل مشركو قريش في العثور عليه أو الظفر بصاحبه صالوا وجالوا وتحرقوا والتهبوا وأسفوا على فوات النبي ﷺ أما الآية العجيبة حقاً أن ينزل في تلك الأثناء قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَيْنَا مَعَارُفُ لِقَائِي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [القصص: ٨٥].

ومعاد الرجل بلده؛ لأنه ينصرف في البلاد ويضرب في الأرض ثم يعود إليه، وهذه الآية نزلت على رسول الله ﷺ حين خرج من مكة يريد المدينة فكان خروجه منها محزوناً لمفارقة وطنه، فبشره الله بالظهور والغلبة، وأعلمه أنه يعود إلى مكة فكان كما قال وكما أخبر.

ثم بدأ صراعه مع اليهود، منذ أن وطأت قدماه الشريقتان أرض المدينة، إلى حين وفاته، وفي كل معركة كانت له الغلبة عليهم، حتى أتم الله له أمر الرسالة، وقد كانوا أشد الناس حرصاً على قتله ﷺ واستنصاله وبواره، يبذلون في ذلك أموالهم ودماءهم، بل صارت حاله ﷺ بالمدينة قريباً من حاله بمكة.

مع العلم أنه ﷺ كان يمشي من غير حراسة بل قد يدعو به الرجل والمرأة لحاجة فيمشي مع مَنْ دعاه، ولم يكن على بيت من بيوته ﷺ أي نوع من أنواع الحراسة، بل كانت من جريد النخل وارتفاعها مقدار قامته، وقد مشى خلفاؤه الراشدون على نهجه في التبذل والتطرح إلا أن عمر رضي الله عنه قُتل، وقصد ابن ملجم قتل علي رضي الله عنه فقتله، وتحصَّن عثمان رضي الله عنه وأخذ حذره وجمع نفسه، ومع هذا قُتل، مع وجود هذه الأسباب وهم الأمراء، فتَعَلَّم أن سلامة رسول الله ﷺ من هذه الأشياء من الآيات العظيمة سيما وقد قال لعدوه: إن الله سيكفيَنَّكم، وفي هذا تهيج لعدوه على نفسه، وبعث على مكروهه، وقد كان أهل مكة يبعثون اليهود والنصارى ومن بالمدينة على قتل رسول الله ﷺ، ويحرشون بين الأوس والخزرج، وبعثونهم على من آمن برسول الله ﷺ وعلى من اتبعه، وقد كان اليهود وأعداء رسول الله ﷺ ممن بالمدينة يردون مكة ويلقون قريشاً فيبعثونهم على مكاره رسول الله ﷺ وقتله.

وقد كان المنافقون في مكة مصدر قلق وخيانة، وكان القرآن يفضحهم ويعري

نواياهم، وقد وعد الله رسوله بحفظه ممن سيؤذيه، فقال تعالى ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغُلَامِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَنَّ السَّبِيلَ فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَبْدَلَهُمُ فِيهِمُ سُورَةً تُنَزِّلُهَا عَلَيْهِمْ شُورَةً تَتَوَلَّى بَاطِنًا فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ أَسْتَهْزِئُ بِكُمْ إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْدُرُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [التوبة: ٦٠ - ٦٤].

وقد كان اليهود والنصارى بالحجاز وسائر الجزيرة العربية عدداً جمّاً، ولهم قرى وحصون، ولم يكن ذلك ليمنعه ﷺ من بيان الكفر الذي كانوا عليه، بل قد بذل وسعه في بيان الحق حتى أقام عليهم الحجة، وبدأ بغزو الروم، وعامل اليهود بما يستحقون.

ومن أعظم الوقائع تصديقاً للنبا الحق في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَتَّبِعُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

ذلك الموقف المدهش الذي وقفه النبي ﷺ في غزوة حنين؛ منفرداً بين الأعداء، وقد انكشف المسلمون، وولوا مدبرين<sup>(١)</sup>، فطفق يركض بغلته إلى جهة العدو، والعباس بن عبد المطلب آخذ بلجامها يكفها إرادة ألا يسرع، فأقبل المشركون إلى رسول الله ﷺ فلما غشوه لم يفر ولم ينكص بل ثبت كأنما يمكنهم من نفسه وجعل يقول: «أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب» كأنما يتحداهم، ويدلهم على مكانه، فوالله ما نالوا منه نيلاً بل أيده الله بجنده وكف عنه أيديهم، وهكذا أمتع الله به أمته، فلم يقبضه حتى بلغ الرسالة وأدى الأمانة<sup>(٢)</sup>.

أما الحوادث الفردية، والتي حاول فيها بعض الأفراد المخذولين قتل رسول

(١) وجاء في بعض الروايات الصحيحة: «حتى بقي وحده» انظر في الجمع بين هذا الرواية وبين الروايات الأخرى في وجود نفر قليل من الصحابة ثبتوا معه: فتح الباري ٢٩/٨.

(٢) انظر: سيرة ابن هشام ٨٧/٤ - ١٢٩، وصحيح البخاري، كتاب المغازي، باب: (ويوم حنين...) ح رقم ٤٣١٤، ٤٣١٥، ٤٣١٦، ٤٣١٧ مع الفتح ٢٧/٨، والنبأ العظيم ص ٤٥ - ٤٦.

الله ﷺ فمن أشهرها: قصة الرجل الذي شهر السيف على رسول الله ، ورسول الله نائم تحت ظل شجرة، وليس عنده أحد:

روى جابر بن عبد الله رضي الله عنه «أنه غزا مع رسول الله ﷺ قبل نجد، فلما قفل رسول الله ﷺ قفل معه، فأدركتهم القائلة في واد كثير العضاة، فنزل رسول الله ﷺ، وتفرق الناس، يستظلون بالشجر، فنزل رسول الله ﷺ تحت شجرة وعلّقَ بها سيفه، ونمنا نومة، فإذا رسول الله ﷺ يدعوننا، وإذا عنده أعرابي فقال: إن هذا اخترط عليّ سيفي وأنا نائم، فاستيقظت وهو في يده صلتاً، فقال [الرجل]: من يمنعك مني؟ فقلت: الله - ثلاثاً -، ولم يعاقبه وجلس»<sup>(١)</sup>.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد، باب من علّق سيفه بالشجر... ٩٦/٦ ح ٢٩١٠. وفي كتاب المغازي ح ٤١٣٥، ومسلم باب صلاة الخوف ٥٧٦/١ رقم ٨٤٣.

## المبحث الحادي عشر

### إتمام الأمر له ﷺ في حياته، ونصر أمته، وانتشار دعوته بعد مماته.

من الأدلة على صدق محمد رسول الله ﷺ نصر الله له وللمؤمنين الذين معه على ضعفهم وقتلهم، ولذلك سمي الله يوم بدر (آية) و(فرقاناً). لدلالته على صدق ما جاء به الرسول ﷺ وصحة ما عليه «الفئة القليلة التي تقاتل في سبيل الله» كما قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأًى الْمَيِّتِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ١٣﴾ [آل عمران: ١٣]، وقال تعالى ﴿إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَفَى الْأَحْمَاقُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٤١﴾ [الأنفال: ٤١].

ومن سنن الله أنه سبحانه ينصر من ينصره، قال تعالى: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٤٠﴾ [الحج: ٤٠].

وهؤلاء الذين ينصرهم الله لهم صفات مذكورة في الآية التي تلي الآية السابقة، في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عِزُّهُ الْأَمُورُ ٤١﴾ [الحج: ٤١].

وإن حصل شيء من الغلبة على المسلمين فلا بد أن يكون هناك خلل ما قد وقع فيه المسلمون؛ لأن سنة الله أن ينصر أوليائه إذا كانوا مخلصين كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ اللَّهُ وَعَدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرْسَلْنَاكُمْ مَّا نُحِثُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفْنَا عَنْهُمْ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمُ اللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ٥٢﴾ [آل عمران: ١٥٢] وقال تعالى ﴿أَوْ لَمَّا أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْنِهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ

قَدِيرٌ ﴿١٦﴾ ﴿آلِ عِمْرَانَ: ١٦٥﴾.

فالرغبة في عرض من الدنيا وعصيان الرسول ﷺ وقعا في غزوة أحد ف وقعت الهزيمة. بينما نصر الله المؤمنين في وقت كان المسلمون فيه في ضيق و حرج شديدين كما في بدر والأحزاب لإخلاصهم قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ [الأحزاب: ٢٢].

وظن المنافقون أنه لو ضرب حصار على المسلمين، فيمنعونهم من المال، فإن ذلك سيضعف شوكتهم ذلك ظن الذين كفروا، فالله هو الرزاق ذو القوة المتين قادر على أن يرزق عباده: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَيَّ مَنَ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْكَافِرِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾﴾ [المنافقون: ٧].

وقد انتصر ﷺ على أعدائه، وفتح له أول الأمر قلب الأرض الجزيرة العربية، ثم انتشر دينه في أطرافها وأخذ يسبح على وجه الأرض، في حدث لم يشهد التاريخ مثله، وقد بقي دينه وكتابه وهديه إلى اليوم محفوظاً أكثر من ألف وأربعمائة عام، وهذه الغلبة ليست بغلبة قوة فحسب، بل غلبة شرع وعقيدة على أديان باطلة وشرائع محرفة، كان المشركون يقاتلون من أجلها ويعظمونها ويرون أنها أهم شيء في حياتهم، ثم تبدل حالهم، واعتنقوا الدين الحق بعد أن عادوه، ودعوا إليه بعد أن صدّوا عنه!!

قال ابن ربن الطبري:

«الباب السابع في أن غلبة النبي ﷺ آية من آيات النبوة»:

من آيات النبي ﷺ هذه الغلبة التي احتجت بها الأمة كافة؛ وذلك أنه ﷺ خرج وحيداً، فريداً، يتيماً، عائلاً، كما قال الله عز وجل: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَكَأَوَّيْ﴾ [الضحى: ٦] فدعا ﷺ العرب قاطبة، والأمم عامة، إلى الإيمان بالله عز وجل، والناس يرمونه عن قوس واحدة... حتى ظهرت الدعوة، ودانت العرب قاطبة، وتتابع فيهم الآيات والنبوات، واحلولى لهم الدين، وسطع اليقين، فبلغ من حبهم له بعد البغض وانقيادهم بعد العداوة ما يرون ويسمعون.

فمن ادعى غلبة كانت باسم الله منذ خلق الله الدنيا، لها من الشرائط، والمحاسن، والدعاء إلى خالق السماء والأرض، والتزهيد في الدنيا، والترغيب في

الآخرة، والنهي عن الشرك والأنداد والفواحش والنجاسات، ثم ظهرت هذه الظواهر، والاستعلاء في أقطار الدنيا وآفاقها وبرها وبحرها... وكان لدعاتها من الزهد في الدنيا والاطراح لأسبابها، ورفع الهمم، وحسم النفوس عن كل لذة وشهوة، والقنوع بالقوت الممسك، والأمر بالتسوية في القسم، والعدل في الحكم... علمنا علماً يقيناً أن تلك الغلبة تقوم مقام آيات النبوة لا محالة...

أما غلبات الأمم الأخرى: لم تكن في الله ولا للدعاء إلى الله ولا إلى أنبيائه، بل لطلب الغلبة والعز والسمعة، وهم من دهري أو ثنوي فهذه لا تقاس بغلبة الإسلام وجلالته وإشراقه.

ولهذه الغلبة [المحمدية] بيئة أخرى كافية وشافية: وهي أنها لن تخلو [هذه الغلبة] أن تكون:

١ - من الله

٢ - أو من الشيطان.

٣ - فإن أقرروا أنها من الله؛ فالإسلام إذن حق يجب عليهم قبوله والدخول فيه.

٢ - وإن زعموا أنه من الشيطان؛ فالشيطان إذن موافق لله وأنبيائه غير مخالف، ومطيع غير عاص، إذ كان ينصر من دعا إلى الله الفرد الدائم، ويظهر دين من أمر بالصوم والصلاة، وينهى عن الفجور والكفر والفحشاء والمنكر، ومن جعل تكبير الله وتمجيده شعاره عند اللقاء، ومقدمته عند الزحاف، وجنته عند المداعسة الجلال، وإن من ظن بالشيطان أن يعين على إظهار مثل هذا الدين وتأنيده فقد أحسن فيه الظن، وقال فيه الجميل وكذَّب ما قال الله وأنبيأه فيه، كيف يُعين الشيطانُ من دعا إلى مثل هذا الدين وفيه انجثاث أصله؟!، وانبثات أسبابه؟ وإبادة جميع عبده ودعاته؟!

وقد ظن قومٌ من الفسقة بالمسيح عليه السلام مثل ذلك، وقال فيه رباينو اليهود أن هذا إنما يخرج الشيطان برئيس الشياطين... فقال [المسيح] لليهود: فإن كان الشيطان هو الذي يخرج الشيطان فكيف يدوم ملكه وعزه؟

فبُهِت اليهود عند ذلك، فهذه حجتنا على من قال في النبي ﷺ ما قالت اليهود في المسيح عليه السلام.

فإن مما أدى النبي عليه السلام عن الله عز وجل في الشيطان قوله: ﴿أَسْوَذَ



عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَسْأَلُكُمْ دُكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿١٩﴾ [المجادلة: ١٩]، وقوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

وقوله ﴿قَالَ فَلَخَرَجَ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ [٧] وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي لَإِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٨﴾ [ص: ٧٧ - ٧٨].

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ...﴾ [الثور: ٢١]. وسورة الناس

ولقد أمر النبي ﷺ بالاستعاذة منه... فإن كان الشيطان ينصر من يلعبه، وينذر الناس شره، لم نأمن أن يكون جميع ما ظهر من الأديان باسم الله الفرد الواحد من موافق للشيطان من عنده، وقد أجمعت الأمم كلها على أن الشيطان إنما يأمر بالشرك بالله، وعبادة الأوثان والنيران، ويزين الزنا والفجور والغدر، وفيه محبته ووسوسته، وأنه عدو الله وعدو للأنبياء الذين يأمرون بخلاف ذلك كله، فالله إذا برئ من حزب الشيطان، والشيطان برئ من حزب الله وأوليائه، وهذه الغلبة من الله لا من غيره<sup>(١)</sup>.

\* ومن الأدلة على بلوغ الإسلام أقاصي الأرض حديث ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها»<sup>(٢)</sup>.

قال النووي: «هذا الحديث فيه معجزات ظاهرة، وقد وقعت كلها بحمد الله، كما أخبر به ﷺ»<sup>(٣)</sup>.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وكان كما أخبر، فبلغ ملك أمته طرفي العمارة شرقاً وغرباً وانتشرت دعوته في وسط الأرض... لأنهم أكمل عقولاً وأخلاقاً، وأعدل أمزجة، بخلاف طرفي الجنوب والشمال»<sup>(٤)</sup>.

(١) الدين والدولة، لابن ربن الطبري - بتصرف يسير - ص ١٠٨ - ١١٣.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، باب هلاك الأمة بعضهم ببعض ٢٢١٥/٤، ح ٢٨٨٩. وزوى: قبضها وجمعها

(٣) شرح مسلم ١٣/١٨.

(٤) الجواب الصحيح ١/١٦٥، وقال بعد ذلك عن طرفي الجنوب والشمال: «فإن هؤلاء نقصت عقولهم وأخلاقهم، وانحرفت أمزجتهم. أما طرف الجنوب فإنه لقوة الحرارة =

## من سنن الله أن ينصر رسله ويؤيدهم ويخذل الكاذبين:

قال شيخ الإسلام: «وقد أيده ﷺ الله تأييداً لا يُؤيد به إلا الأنبياء، بل لم يُؤيد أحداً من الأنبياء كما أيده، كما أنه بُعث بأفضل الكتب إلى أفضل الأمم بأفضل الشرائع، وجعله سيد ولد آدم، فلا يُعرف قط أحد ادعى النبوة وهو كاذب إلا قطع الله دابره وأذله، وأظهر كذبه وفجوره، وكل من أيده الله من المدعين للنبوة لم يكن إلا صادقاً كما أيد نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى وداود وسليمان، بل وأيد شعبياً وهوداً وصالحاً؛ فإن سنة الله أن ينصر رسله، والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد،

وهذا هو الواقع، فمن كان لا يعلم ما يفعله الله إلا بالعادة فهذه عادة الله وستته، يُعرف بها ما يصنع، ومن كان يعلم ذلك بمقتضى حكمته فإنه يعلم أنه لا يؤيد من ادعى النبوة وكذب عليه تأييداً لا يمكن أحداً معارضته، وهكذا أخبرت الأنبياء قبله أن الكذاب لا يُتم الله أمره ولا ينصره ولا يؤيده، فصار هذا معلوماً من كل الجهات.

ولهذا أمر الله أن نعتبر بما فعله بالأمم الماضية من جعل العاقبة للأنبياء وأتباعهم، وانتقامه ممن كذبهم وعصاهم<sup>(١)</sup> فأخبر أن المكذبين له سيأتهم في المستقبل أخبار القرآن الذي استهزؤا به، وبين أن ما أخبرهم به حق بوقوع الخبر مطابقاً للخبر، وكان الأمر كذلك، ومثله قوله: ﴿سُرِّيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَّلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝﴾ [فُصِّلَتْ: ٥٣].

... وما يذكره بعض أهل الكتاب أو غيرهم من أنه نصر فرعون ونمرود

---

= اختلطت أخلاطهم فاسودت ألوانهم وتجمعت شعورهم. وأما طرف الشمال فلقوة البرد لم تنضج أخلاطهم، بل صارت فجة ففرطوا في سبوة الشعر والبياض البارد الذي لا يستحسن، ولهذا لما ظهر الإسلام غلب أهله على وسط المعمورة وهم أعدل بني آدم وأكملهم، والنصارى الذين تربوا تحت ذمة المسلمين أكمل من غيرهم من النصارى عقولاً وأخلاقاً، ولما فيهم من نقص العقول والأخلاق ظهرت فيهم النصرانية دون الإسلام، المصدر نفسه، وانظر: مقدمة ابن خلدون، ص ٨٤ - ٨٦.

(١) انظر الآيات في السور التالية: الصافات (١٧١ - ١٧٣)، الحج (٤٠ - ٦٤)، والروم (٩ - ١٠)، غافر (٤ - ٥)، (٢١ - ٢٢)، (٨٢ - ٨٥)، ص (١٢ - ١٤)، الشعراء (٥ - ٦).

وغيرهم من الملوك الكافرين.

جوابه ظاهر؛ فإن هؤلاء لم يدع أحد منهم النبوة، وأن الله أمره أن يدعوا إلى عبادة الله وطاعته، ومن أطاعه دخل الجنة ومن عصاه دخل النار، بخلاف من ادعى أن الله أرسله بذلك فإنه لا يكون إلا رسولاً صادقاً ينصره الله ويؤيده وينصر أتباعه ويجعل العقابة لهم، أو يكون كذاباً فينتقم الله منه ويقطع دابره، ويتبين أن ما جاء به ليست من الآيات والبراهين التي لا تقبل المعارضة، بل هي من جنس مخارق السحرة والكهان والكذابين التي تقبل المعارضة، فإن معجزات الأنبياء من خواصها أنه لا يقدر أحد أن يعارضها بمثلها بخلاف غيرها فإن معارضتها ممكنة فتبطل دلالتها<sup>(١)</sup>.

### ظهور دينه ﷺ أعظم حدث في الأرض:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «إن ظهور دين محمد ﷺ في مشارق الأرض ومغاربها أعظم حادث حدث في الأرض، فلم يُعرف دين قط انتشر ودام كانتشاره ودوامه؛

فإن شرع موسى وإن دام، فلم ينتشر انتشاره ودوامه، بل كان غاية ظهوره ببعض الشام، وأما شرع المسيح فقبل قسطنطين لم يكن له ملك بل كانوا يبيعون بلاد الروم وغيرها، وكانوا مستضعفين تقتل أعيانهم أو عامتهم في كثير من الأوقات، ولما انتشر تفرق أهلهم فِرَقاً متباينة يكفر فيها بعضهم بعضاً، ثم إن شرع محمد ﷺ ظهر في مشارق الأرض، ومغاربها، وفي وسط الأرض المعمورة... وظهرت أمته على النصارى في أفضل الأرض وأجلها عندهم؛ كأرض الشام ومصر والجزيرة وغيرها، ودام شرعه»<sup>(٢)</sup>.

ولا تزال بعض هذه الديار مطمعة لأهل الكتاب إلى اليوم فقد حاولوا أخذها أيام الحروب الصليبية ولكن ردها الله على المسلمين، وهم اليوم قد تسلطوا عليها من كل مكان، وبالرغم من ضعف المسلمين وقلة حيلتهم إلا أن الشرذمة التي تجثم على أرض فلسطين لم يتم لها الاستقرار والأمن والتمكين بل هم في قلق دائم، وخوف مستمر، وسوف يقاتلهم المسلمون حتى يقول الحجر والشجر يا

(١) ملخصاً من الجواب الصحيح ٤١٠/١ - ٤١٧.

(٢) الجواب الصحيح ١٨٩/٥.

مسلم يا عبد الله هذا يهودي ورائي فاقتله، كما أخبر الصادق المصدق.

### كان الوعد بالنصر له ﷺ في أحلك الأوقات:

كان ﷺ يتوعد قريشاً وهو بمكة بنصر الله له، وظهوره عليهم، فيقولون: أيظن محمداً أنه يغلبنا على مكة بأتباعه الفقراء والعييد؟؟ ونحن الأقوياء الأغنياء؟؟ والناس كلهم معنا؟؟ والرغبة عندنا لا عنده!! والبأس والنجدة لنا لا له!!، فتلا عليهم سورة القمر وما أنزل الله بالأمم أمة أمة التي يعرفونها إلى أن قال: ﴿أَكْفَأُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَئِكَ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ١٦ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ ١٧ سَيَهْرَمُ لَبَنُكُمْ وَيُؤَلِّقُونَ الذُّبُرَ ١٨ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذْنَى وَأَمَرُّ ١٩﴾ [القمر: ٤٣ - ٤٦].

فهزمت جموعهم، وكانت العقبي له كما أخبر وفصل، وقد كان في ظهر الرأي والحزم وموجب التدبير أن كان العاقبة لهم لا له، وهم الغالبون لا هو، لأنهم واليهود والنصارى وتلك القبائل يد واحدة عليه، وفي العداوة له، والكثرة والثروة والبأس والنجدة والسلاح معهم لا معه، فلن يغلبهم إلا أن يكون من قبل الله ورسولاً الله كما أخبر.

وأنه ﷺ قال حين دعا إلى الله وفي حال وحدته وضعفه: إن الله أرسلني ووعدني أن يظهر ديني على الأديان كلها، فيكون سلطاني أقهر من سلطان كسرى وقيصر، فأغلب الملوك، ويعلو ملكي، وملك أنصاري وأتباعي كل ملك في الأرض، ثم لم ير حتى جعله كتاباً يُقرأ، وقرآنًا مخلداً يُتلى، يعرفه العدو والولي فقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ١٨﴾ [الفتح: ٢٨] وقال أيضاً: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نَوْرَ اللَّهِ يَأْفِكُوهُمْ وَيَأْبَأَ اللَّهُ إِلَّا أَن يُنِيرَ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ١٩﴾ [التوبة: ٣٢].

فكان كما قال وكما أخبر، فلم يرض أن أظهر دينه بالحجة، حتى جعل أهله العالين بالقدرة، والظاهرين بالمنعة والقاهرين الملوك والجبابرة بالعز والملكة، ثم ما رضي حتى أوردته على وجه يغيظ ويغضب، ويبعث على الممانعة والدفع والمغالبة، وعلى وجه يجعل العدو على أهبة، بخلاف تدبير الملوك ودعاة الجبابرة، فأخبر بهذا وديانات العرب قائمة، وملوكهم على جزيرة العرب كلها مستولية، وهي جزيرة عظيمة فيها عدة ملوك، كل واحد منهم عظيم الشأن، ثم ديانات اليهود وملوكهم، وديانات النصارى وديانات الفرس وممالكها، وهي كانت أعظم ممالك الأرض وأوسعها ملكاً وأشدّها بأساً، وممالك الهند. فعَلَبَ ملوك

العرب في جزيرتها، وغلب ملوك اليهود، وممالك الفرس كلها، وممالك النصرانية والروم، فلم يبقَ ملك بحيث تناله الحوافرُ والأخفاف والأقدام إلا أزاله عنه وأخرجه منه، وأسنده إلى معاقل يأوي إليها، وقلاع ومطامير وخلجان وبحار يمتنعون بها.

ثم ركب البحارَ إليهم فأخرج الروم من الشام ومصر وأرض المغرب ولعلها مسيرة سنين...

فقد اعتبر العلماء وأهل التحصيل فما وجدوا أحداً جاء مجيء نبينا محمد ﷺ في الوحدة والفقر والفاقة ومنافرة الأمم كلها ومعاداتها... ثم صار أمره في القهر والغلبة ما صار أمره إليه، فإن ظاهر الأمر وموجب التدبير والعقل أن ذلك لا يتم ولا يكون، وأنه هو المغلوب المقهور المقتول إلا أن يكون من قبل الله الذي لا يغلبه شيء فإن أمره ﷺ كان كريشة دفعت الجبالَ فسيرتها وطيرتها، أو كزجاجة وضعت على الجبال فطحشتها وسوتها بالأرض، فتأمل هذه الآية العظيمة، وكل آياته عظام.

وما قلنا: إنه نبي لأن دعوته قامت ودولته اتسعت، ولكن لما قدمنا وشرحنا من؛ وحدته، وفقره، وتبرته من الأمم، وإكفارهم، وإسقاطهم، كما قد فسرنا غير مرة، ومجيئ ذلك كما قال وأخبر من أنه مع هذه الحالات سيظهره الله عز وجل، وقد علم ذلك من سمع أخباره ودعوته باضطرار أنه أخبر بذلك جميعه في أول أمره قبل أن يكون شيء منه، وأن الأمر كان كما أخبر.

ومعروف من سيرته أنه ﷺ كان يعرض نفسه على القبائل وفي المواسم ليتبعوه، ويشترط عليهم في دعوته عداوة الأمم كلها، ومحاربة الملوك، فيتعجبون من هذا القول: كيف تترك الملوك أنفقتها وأموالها وكبرياءها ونخوتها تذهب بكل سهولة، ويغلبها هذا الرجل الضعيف في قومه؟؟

ولهذا قال الله في خوفهم: ﴿وَقَالُوا إِن نَّبِيعُ الْمَدْيَنَ مَعَكَ تَنْخَطِفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَمْ تُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجِئَ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [القصاص: ٥٧].

وفي هذا المعنى يقول تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴿٥٨﴾﴾ [الحج: ١٥].

أي من كان يظن أن لن ينصر الله محمداً في الدنيا والآخرة ولن يفني بما يدعي محمد عليه فليجتهد جهده، وليستفرغ وسعه في استئصال محمد، وإطفاء نوره وطلب كذب يكون منه، ثم لينظر: هل يجد ما يشفي غيظه، فإنه لا يجد ذلك بل يجد ما يضاعف غيظه، وهذا أيضاً من تلك الأبواب التي تبعث على قتله وتذكر باستئصاله.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

فورثها أصحاب محمد ﷺ كما قال وكما أخبر..

ولم يقل: لا يرثها إلا الصالحون، ولا تخرج من أيدي الصالحين، ولكن في الآية وعد يؤيده ما جاء في آخر الآية: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

يزيدك علماً بأن المراد أن الوارثين للأرض هم أهل دينه والقائمون بشريعته وهذا خبر ويشري ووعد، وإخبار الله لا يكذب ووعد لا خلف له.

ونهض أصحابه بالأمر [من بعده] وليس معهم إلا التقوى والبصائر... وما غلبت العرب إلا بالتقوى ولا عزت إلا بالإسلام، ولقد كانت الفرس تنفذ إلى جزيرة العرب فيما يكرهونه بالرجل الواحد وبالنفر اليسير وكذا الروم... وعند الحرب ما كانوا ينفذون إلى الجمع الكبير من العرب إلا بالنفر اليسير، ثم عاد الأمر بخلاف ذلك فكان النفر من أصحاب رسول الله يلقون الجمع الكثير من الفرس والروم فينصرون عليهم، حتى كان الرجل وحده يسير إلى بلد من بلدانهم فيأخذه مع قلة سلاحهم وعتادهم وعدتهم حتى أخذ الله ملك الكفار مع ما معهم من رايات وتهويلات برجال ما كانت لسيوفهم قباع، وما كانت مجائهم إلا برادع جمالهم، وكانت ملوك الفرس والروم تعجب من انهزام عساكرها الخشنة المعدة القوية الشديدة من بين أيدي المسمين، مع قلتهم وضعفهم وقلة آلتهم وسلاحهم.

فلقد كانت العرب تعيش في شدة من العيش وقلة بين الناس وذلة وشقاء واستطالة الأمم عليها ثم إلى أي شيء آل أمرها برسول الله ﷺ فبلزوم طاعته نصروا وبها غلبوا الأمم وقهروا الملوك حتى أصبح ملكهم أعز من كل ملك في الأرض، ودينهم أظهر الأديان وأهيئها وأجلها، وأنهم ما لزموا ذلك لا يزالون

ظاهرين قاهرين .

أليس من العجيب أن يقوم سلطان المسلمين بذرة بيد أميرهم عمر رضي الله عنه، ومرقعة هي رأس مال حاكمهم ثم يغلبون الجبابرة وأهل الملك من أصحاب التدبير والسياسة والترتيب وأصحاب الكنوز، ثم يقوم هذا الأمير بقسمة كنوز تلك الممالك كلها، ولا يخزنها، ولا يبني له قصراً ولا منزلاً يتميز به على الناس، وتراه في طرف من أطراف المدينة لا يخاف مما تخاف منه الملوك!!<sup>(١)</sup>.

### جواب على من قال: لماذا لم يستأصل دينه الأديان؟

يظن بعض الناس أن الإسلام وإن ظهر على الأديان كلها وكان أقواها وأعزها ولكنه لم يستأصلها، ولا قلع أصولها، فقد بقيت لبعض دول الكفر بقية من ممالكها، ويرى أن هذا نقصاً في ظهور دينه ﷺ.

«قيل له: إنه لم يقل إنه مستأصل الديانات، ولا الممالك كلها حتى لا يبقى شيء منها، بل قال: ليُظهره على الدين كله، وقد ظهرَ وغلب، فصار أعزها وأظهرها وأقواها، فقد استوفى الخبرُ شرطه، ومع هذا فقد فرض الجهاد على أمته إلى يوم القيامة، فدل على أنه تَبَقَّى من الشرك بقية... فما ههنا عيب يكون لطاعن...»

لو ارتدَّ جميعُ أهل الدين حتى لا يبقى عليه أحدٌ من الناس كلهم لما قدح ذلك في الخبر الذي خبر أنه يظهر على الأديان كلها، لأن ذلك الخبر وتلك المعجزة قد صارت إلى ما قال وكما أخبر، فظهر على الأديان كلها فلما استوفت شرائطها وانتهت إلى حدودها فما قصرت عن شيء قاله عليه السلام أو شرطه.

وقد نزل بمكة قوله تعالى ﴿جُنْدٌ مَّا هُنَاكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَخْزَابِ ۝﴾ [ص: ١١] وقوله: ﴿سَبِّحْهُمْ لَجَمْعٍ وَيُولُوكَ الذَّبْرَ ۝﴾ [القمر: ٤٥] وقوله: ﴿وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْفِئْرَةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝﴾ [يونس: ٦٥].

كانت تلك الآيات تنزل وكان المسلمون يُضربون، ويُداسون ويُحبسون، فانظر في أي حال توعدهم بهزيمتهم، وعلى أي وجه أورده على قلوبهم، وأثأرهم وغازظهم وأرجعهم، فإنها حال كان فيها في قبضتهم وأسيراً في أيديهم، وهم القوم

(١) في العنصر السابق انظر: تثبيت دلائل النبوة ٣١٣/٢ - ٣١٦، ٣٢٤/٢ - ٣٢٥، ٣٤٨/٢ -

الذين لا صبر لهم على ضيم، ولا ينامون على وتر، ولا يقيمون على مكابرة الغيظ، كيف يقصر الله أيديهم عنه، ويقيه شرهم، وتلك حالهم فاحفظ هذا وأمثاله<sup>(١)</sup>.

### القطع بمجئ الحق وزهوق الباطل:

قطعت النصوص بمجئ الحق ونصره على الباطل، وهذا يعني النصر المبين له، والغلبة والهزيمة على الكافرين قال تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١] وقوله: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ: ٤٩].

فهل قدر المشركون على تكذيب هذا الوعد العظيم، وهم أشد الناس حرصاً على ذلك، ورسول الله ﷺ في قبضتهم، وهم المعروفون بغلظ الأكباد والفرار من العار؟؟.

### المنافقون وريبهم في نصر الله للمؤمنين:

شك المنافقون في الوعود بالنصر واستبعدوها، ولذلك أرادوا أن يوثقوا علاقتهم باليهود، ليأمنوا انقلاب اليهود عليهم، ورأوا أن تصديق الرسول طريق غير مأمون العواقب، وقد نزل القرآن بفضح صنيع المنافقين، ووعد في الآيات نفسها بالفتح والنصر والغلبة على اليهود وأكده، وأكد أن هؤلاء المنافقين سيندمون على موالاتهم للكفار ومسارعتهم إليهم، وتركهم رسول الله ﷺ، ثم ذكرت الآيات تهكم المسلمين بخذلان اليهود للمنافقين الذين وضعوا كل آمالهم فيهم، وهذا من دلائل نبوته ﷺ.

قال الله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَإِنَّهُمْ مِنْهُمْ إِنَّا لَا نَهْدِي الْقَوْمَ الْفَٰلِئِينَ ٥١﴾ فَقَرَىٰ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَحْشَوُكُمْ أَنْ تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَمَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُضْيِعُوا عَلَىٰ مَا أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ نُدِيمِينَ ٥٢ وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ٥٣﴾ [المائدة: ٥١ - ٥٣].

وكانت بداية سلسلة الفتوحات بيد، وهي بداية سلسلة الهزائم للكافرين، مع ما اعترى المسلمين في تلك المعركة من الخوف والقلّة ورغبة فريق من المسلمين

(١) تثبيت دلائل النبوة - باختصار - ٣٥٦/٢ - ٣٥٩.



في غير ذات الشوكة، فأنزل الله سكينته عليهم، حتى غشاهم النعاس في الوقت الذي لا يكون فيه نعاسٌ ويطير النوم للخوف على النفوس؛ فطيب قلوبهم وطيروا خوفهم، وكثرهم الله في أعين الكافرين، وأيدهم بالملائكة فثبتتهم وبشّرتهم، وأنزل عليهم الماء فشربوا وسقوا وتطهروا، حتى ثبتت أقدامهم، وقد جاء ذكر ما هياه الله من أسباب النصر للمسلمين في سورة الأنفال.

### الإخبار بالنصر والغلبة على المرتدين:

قال الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [المائدة: ٥٤].

وفي هذه الآية آيات من دلائل الإعجاز من وجوه، وهي:  
أولاً: الإخبار بظهور المرتدين، وقد ظهروا زمن أبي بكر رضي الله عنه.  
ثانياً: أن هؤلاء المرتدين سيكونون ممن أسلم على عهد رسول الله ﷺ بدليل قوله في الآية: (منكم).

ثالثاً: الإخبار بظهور خير الناس الموصوفين بتلك الصفات العظيمة وعلى رأسهم الصحابة، وفي الآية تشنيع على من طعن فيهم رضي الله عنهم.  
رابعاً: البشارة بالنصر لمن اتصف بتلك الصفات من المؤمنين.  
خامساً: الإخبار باندحار المرتدين وهزيمتهم.

### آيات النصر نزلت بمكة:

كان القرآن في مكة يقص على المسلمين من أنباء الرسل ما يثبت فؤادهم ويعددهم الأمن والنصر كما سبق نصره تعالى لعباده المؤمنين قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٣] ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٥١].

يقول د. محمد دراز: «فلما هاجروا إلى المدينة فراراً بدينهم من الفتن ظنوا أنهم قد وجدوا مأمَنهم في مهاجرهم ولكنهم ما لبثوا أن هاجمتهم الحروب المسلحة من كل جانب، فانتقلوا من خوف إلى خوف أشد وأصبحت كل أمنيتههم أن يجيء يوم يضعون فيه أسلحتهم، وفي هذه الأوقات العصيبة ينبتهم القرآن بما

سيكون لهم من الخلافة والملك علاوة على الأمن والاطمئنان فما هذا؟ أحلام وأمان؟ لا، بل وعد مؤكد بالقسم:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [التور: ٥٥].

وبالرجوع إلى أسباب النزول سنجد بأن هذه الآية نزلت والمسلمون في خوف شديد، حتى أنهم كانوا لا يبيتون إلا بالسلاح ولا يصبحون إلا فيه. انظر كيف جاء تأويلها على أوسع معانيها في عصر الصحابة أنفسهم الذين وقع لهم خطاب المشافهة في قوله (مِنْكُمْ) فبدلوا من بعد خوفهم أمناً لا خوف فيه: واستخلفوا في أقطار الأرض فورثوا مشارقها ومغاريها. ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُٗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٥٦﴾﴾ [الحج: ٤٠] (١).

#### قاعدة:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «كل من كان أتم إيماناً بالله ورسله كان أحق بنصر الله...» (٢).

#### من يصدق تلك الوعود ييسر الله نصره:

وقد أسلمت بلاد اليمن مع وعورة أرضها بلا جهاد، بسبب وعد من رسول الله بالنصر؛ آية لم يرها أهل اليمن، ولم يذهب إليهم رسول الله أو أحد أصحابه بل كانوا في المدينة.

وملخص القصة؛ أن الفرس كان سلطانهم على اليمن مبسوطاً، وقد أغضب كتاب رسول الله ﷺ الذي أرسله إلى كسرى فأرسل إلى نائبه على اليمن باذان (٣) لكي يبعث إلى رسول الله من عنده رجلين ليأتيا برسول الله ﷺ إليه! وجاء خبر من

(١) النبأ العظيم ص ٤٧ - ٤٨.

(٢) انظر: الأدلة بالتفصيل على هذه القاعدة في: الجواب الصحيح ١٧٩/٢ - ١٨٠.

(٣) كان ملك اليمن في زمان كسرى، وهو فارسي، وأسلم، وبعث بإسلامه إلى رسول الله فاستعمله على بلاده، ثم مات فاستعمل ابنه شهر بن باذان على بعض عمله انظر الإصابة ١٧٣/١.

وكان هذا الحدث بداية استجابة دعاء رسول الله ﷺ على ملك كسرى حيث إن كسرى لما ورده كتاب رسول الله ﷺ، فدعا عليهم النبي ﷺ فقال: «مَزَقَ الله ملكه». فتمزق ملكه شر ممزق، واستجاب الله دعاءه، ولم تقم قائمة للفرس إلى يومنا هذا<sup>(٢)</sup>.

عَدَّ كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ اسْتِجَابَةَ الدَّعَاءِ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ آيَاتِ نُبُوَّتِهِ، وَهُوَ كَذَلِكَ، وَلَكِنِّي لَمَّا تَأَمَّلْتُ تِلْكَ الْأَدْعِيَةَ الَّتِي اسْتُجِيبَتْ وَجَدْتُ أَكْثَرَهَا أَدْعِيَةً لِمَصْلُحَةِ الْمُسْلِمِينَ الْعَامَةِ، كَالدَّعَاءِ بِالنَّصْرِ عَلَى الْأَعْدَاءِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِئَةِ مِنَ الْمَلَكَةِ مُرْسِدِينَ﴾ [الأنفال: ٩].

وَسَأَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِلْأُمَّةِ أُمُورًا، وَاسْتَجَبَ لَهُ:

(١) انظر. تاريخ ابن جرير الطبري ٢/ ٦٥٥ - ٦٥٧، وطبقات ابن سعد ١/ ٢٦٠، والدلائل للأصبهاني ص ٢٩٣.

مكتبة المهتدين الإسلامية

٢ - أن لا يسلط عليهم عدواً من غيرهم فيجتاحهم، ولن يقدر عدو على استئصال المسلمين<sup>(١)</sup>.

ودعا ﷺ بأن يُعز الله الإسلام بأحب الرجلين إليه؛ بعمر بن الخطاب، أو بأبي جهل ابن هشام، فكان عمر بن الخطاب أحبهما إلى الله تعالى، فأسلم<sup>(٢)</sup>، قال ابن مسعود رضي الله عنه: «ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر»<sup>(٣)</sup>

وقد كانت الفتوح العظيمة شرقاً وغرباً على يد عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ ففتح الشام، والعراق، ومصر، وفارس!! وهذا من بركة دعاء رسول الله ﷺ.

وقد دعا ﷺ لبعض أصحابه بأمور يعود نفعها للأمة، فدعا لأبي هريرة رضي الله عنه فما نسي شيئاً سمعه من رسول الله ﷺ<sup>(٤)</sup>، وأصبح راوية الإسلام

ودعا لابن عباس بالفقه بالدين، والعلم بالتأويل فأصبح حبر هذه الأمة البحر<sup>(٥)</sup> ودعا لسعد بن أبي وقاص بأن يسدد الله رميته<sup>(٦)</sup>، فكان لا يرمي إلا يصيب، وعلى يده كان كسر فارس.

وفي المقابل دعا على من صد عن الدين وأتى فيه بأمر عظيم، فقد قنت شهراً على الذين قتلوا سبعين صحابياً كانوا من خيار الصحابة وكان يقال لهم القراء - غدرأ - ببئر معونة<sup>(٧)</sup>

ودعا ﷺ على نصراني: «أسلم، وقرأ البقرة وآل عمران، فكان يكتب للنبي ﷺ فعاد نصرانياً، فكان يقول: ما يدري محمد إلا ما كتبت له. فقال رسول الله ﷺ: «اللهم اجعله آية» فأماته الله، فدفنوه، فأصبح وقد لفظته الأرض، فادعى

---

(١) انظر: صحيح مسلم، كتاب الفتن، باب هلاك هذه الأمة ٢٢١٦/٤ ح ٢٨٩٠، وشرح مسلم ٤/١٨

(٢) انظر: سنن الترمذي، كتاب المناقب، باب في مناقب عمر ٦١٧/٥.

(٣) رواه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عمر بن الخطاب ٤١/٧ ح ٣٦٨٤.

(٤) انظر: صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب في فضائل أبي هريرة ح ٢٤٩٢ - وفي الباب نفسه دعا رسول الله ﷺ لأبي هريرة: «اللهم اهد أم أبي هريرة» فأسلمت بعد أن تعب معها أبو هريرة، ثم طلب من رسول الله ﷺ أن يدعو لها ح ٢٤٩١

(٥) انظر: صحيح البخاري، كتاب العلم ١٧٠/١ ح ٧٥.

(٦) انظر: جامع الترمذي، كتاب المناقب ٦٤٩/٥ ح ٣٧٥١.

(٧) انظر: صحيح البخاري، كتاب المغازي ٣٨٩/٧ ح ٤٠٩٤، ٤٠٩٥، ٤٠٩٦.

النصارى أن المسلمين قد نبشوا قبره، فحفر النصارى له فأعمقوا، فأصبح وقد لفظته الأرض فقالوا: هذا فعل محمد وأصحابه، نبشوا عن صاحبنا لما هرب منهم فألقوه خارج القبر، فحفروا له وأعمقوا له في الأرض ما استطاعوا، فأصبح قد لفظته الأرض، فعلموا أنه ليس من الناس، فألقوه، في رواية: «فتركوه منبوذاً»<sup>(١)</sup>. وكان ﷺ يدعو بشدة وربما سقط رداؤه، وظهر بياض إبطيه في المعارك الفاصلة للنصر، فكان التأييد يأتيه من الله بالملائكة أو بالريح ونحوها<sup>(٢)</sup>.

### أثر الصحابة - رضي الله عنهم - في نصره الدين:

قال تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠]، قال الماوردي عنهم - رضي الله عنهم -: «لزموا أوامره ﷺ واتفقوا زواجه، فتكامل بهم صلاح دينهم ودنياهم، حتى عز بهم الإسلام بعد ضعفه وذل بهم الشرك بعد عزه، فصاروا أئمة أبراراً، وقادة أخياراً»<sup>(٣)</sup>.

وذكر ابن ربن الطبري طرفاً من حياة الخلفاء الراشدين الذين حكموا البلاد وهم في غاية الزهد ثم قال: «فهذا زهد عدة من ملوك وخيار الأمة، الذين لا يوجد لهم شبيه في ملوك الأرض، وأمم الأنبياء مذ كانت الدنيا، فمن كان كذلك لم يُظن بهم الأباطيل والكذب، ولقد اعتنقتهم الدنيا فهربوا منها، وأقبلت عليهم بمحاسن وجهها فأدبروا عنها، وألقت إليهم أفلاذ كبدها ودفائن كنوزها، ونصبت لهم غرائب فخاخها وبدائع خدعها، فما دنوا منها، وقنعوا بالمطعم الخشن... وقد كانوا قبل الإسلام أصحاب سعة وماشية ونعم وأرباح وتجارات، فإن كان من صبر هذا الصبر وغلب الدنيا هذه الغلبة يُظن به الكذب والمخرقة فلم يسلم من هذه

(١) رواه البخاري، كتاب المناقب ٦/٦٢٥ ح ٣٦١٧.

(٢) كالتى أرسلت على جيوش الكفر يوم الأحزاب فاستأصلتهم من مواقعهم، وقد نُصر رسول الله بالرب، انظر: البخاري، كتاب الاستسقاء، باب قوله نصرت بالصبا ٢/٥٢٠ ح ١٠٣٥. وحتى الدعاء لنزول المطر كان عند الحاجة إليه، أو إمساكه عند فيضانه: فهو لمصلحة عامة انظر: حديث أنس في صحيح البخاري، كتاب الجمعة، باب الاستسقاء... ٢/٤١٣ ح ٩٣٣. وصحيح مسلم، كتاب صلاة الاستسقاء ٢/١١٢ ح ٨٩٧.

(٣) انظر: أعلام النبوة ص ٢١٠ - ٢١١.

التهمة والظنة غيره<sup>(١)</sup>.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية عن نصر الصحابة للدين: «هجروا لأجله الأوطان والأهل والمال، وصبروا على أنواع المكاره والأذى، طائفة كبيرة ذهبت إلى الحبشة مهاجرة بدينها لما عذبها المخالفون له حتى يرجعوا عن دينهم، وطائفة كانوا بمكة يُعذبون؛ هذا يُقتل، وهذا يُخرج به إلى بطحاء مكة في الحر، وتوضع الصخرة على بطنه حتى يكفر وهذا يمنع رزقه ويترك جائعاً عرياناً ثم إنهم هجروا أحب البلاد إليهم، وأفضلها عندهم مكة أم القرى إلى مدينة كانوا بها محتاجين إلى أهلها، وتركوا أموالهم بمكة، قال تعالى ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّالِحُونَ﴾ [الحشر: ٨] وقال تعالى: ﴿أُوذِيَ الَّذِينَ يَفْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [١٢] الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتِنَتِ صَوَامِعُ وَبِعٍ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿١٥﴾ [الحج: ٣٩ - ٤٠].

وقال تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنِّي بِبَعْضِكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَأَلَّيْنِ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَتَلُوا وَقُتِلُوا لَا كُفْرَانَ عَنْهُمْ سِقَاتِيهِمْ وَلَا أَذْلَظْنَهُمْ جَنَّتِ بَحْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ قَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٥﴾﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وجميع المهاجرين والأنصار آمنوا به طوعاً واختياراً قبل أن يؤمر أحد بقتال، فإنه مكث بمكة بضع عشرة سنة، لا يقاتل أحداً، ولم يؤمر بقتال بل كان لا يكره أحداً على الدين كما قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وكانوا خلقاً كثيراً ومعلوم أن الخلق الكثير الذين اتبعوا شخصاً قد جاء بدين لا يوافقه عليه أحد وطلب منهم أن يؤمنوا به ويتبعوه، ويفارقوا دين آبائهم، ويصبروا على عداوة الناس وأذاهم، ويهجروا لأجله ما ترغب النفوس فيه، من الأهل والمال والوطن، وهو مع ذلك لم يعط أحداً منهم مالاً، ولا كان لهم مال

(١) الدين والدولة ص ١٢٦ - ١٢٧. وانظر مجمل المبحث: ص ١١٤ - ١٢٩.

يعطيهم إياه، ولا ولى أحداً ولاية، ولا أكره أحداً ولا بقرصة في جلده، فضلاً عن سوط أو عصا أو سيف، وهو في كل ذلك يقول الله أرسلني الله أخبرني...<sup>(١)</sup>.  
ويلاحظ ترتب النصر والغلبة للصحابة في الآيات الكريمة جاء جزاء وفاقاً لما قدموه في خدمة الإسلام؛ صبراً، ودعوة، وهجرة للأوطان، والأموال، والأولاد.

---

(١) الجواب الصحيح بتصرف ٣٩٠/٥ - ٣٩٣.

## المبحث الثاني عشر

### شريعته ﷺ

يُعد النظر في الشريعة التي جاء بها الرسول ﷺ دليلاً على نبوته من وجهين :  
الوجه الأول: أنه يستحيل على بشر - مهما كانت قدراته وملكاته العقلية - أن يأتي بكل تلك الأحكام الشرعية التفصيلية الدقيقة التي جاءت بها شريعة محمد ﷺ، ففيها من الجلال والكمال والعظمة والحكمة والخبرة ما يجعل الناظر فيها يجزم جزماً قاطعاً أنها من عند خالق السموات والأرض .

الوجه الثاني: بالنظر إلى جزئيات الشريعة وأحكامها التفصيلية؛ حُكماً حكماً والتأمل فيها فضلاً فصلاً، نجد بأنه؛ في كل حكم من أحكامها القطعية ما لو عُرض على عقلاء الناس وحكمائهم لأن يأتوا بأفضل منه لانقطعوا وما قدروا، وذلك لما في الحُكم الشرعي من الفضل ما يجعله في المكان الأسمى على قدرة البشر، وفيه من الحكمة ما يجعله برهاناً وآية وشاهداً على أن شريعته ﷺ من عند الله .

وقد ذكر رحمةُ الله الهندي أن لإثبات النبوة عدة مسالك وذكر في المسلك الثالث ما يلي: «مَنْ نظر إلى ما اشتملت شريعته الغراء عليه مما يتعلق بالاعتقادات والعبادات، والمعاملات، والسياسات، والآداب والحكم، علم قطعاً أنها ليست إلا من الوضع الإلهي والوحي السماوي، وأن المبعوث بها ليس إلا نبياً»<sup>(١)</sup>.

وقد سبق الحديث عن بعض جوانب شريعته بمعناها العام<sup>(٢)</sup> حيث نزلت السور المكية بالأصول الكلية المشتركة التي اتفقت الرسل عليها، وأما السور

(١) إظهار الحق ص ١٨٠.

(٢) انظر: المبحث الرابع من هذه الرسالة: «اعتماد منهج الموازنة بين دينه والديانات الأخرى» ص ٢٦٦ - ٢٩٧ وقد ركزت هناك على الجانب الاعتقادي وشعائر الإسلام الكبرى، وهنا على شريعته .



المدنية ففيها هذا، وفيها ما يختص به محمد ﷺ من الشرعة والمنهاج، قال تعالى عن أهل التوراة والإنجيل والقرآن: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨] قال القرطبي: «ومعنى الآية أنه جعل التوراة لأهلها، والإنجيل لأهله، وهذا في الشرائع والعبادات، والأصل التوحيد لا اختلاف فيه»<sup>(١)</sup>. وقد خص المتأخرون مصطلح «الشريعة» بالأحكام العملية<sup>(٢)</sup>، وقد خص الله هذه الشريعة بمميزات عظيمة جعلها تُؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، ومن تلك المميزات ما يلي:

### كمال الشريعة وشمولها:

قال تعالى ﴿...الْيَوْمَ يَاسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوُا الْيَوْمَ أَكَلَتْ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَّتْ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا...﴾ [المائدة: ٣].

وهذه الخصيصة تقتضي شيئاً من التوسع، ولكن حديثاً نبوياً شريفاً يقرب المقاصد كلها التي يمكن أن تقال في هذا الموضوع بتشبيه بليغ؛

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي؛ كمثلي رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجملته، إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له، ويقولون: هلاً وضعت هذه اللبنة؟ قال: فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين»<sup>(٣)</sup>.

قال ابن حجر: «فكانه شبه الأنبياء وما بعثوا إليه من إرشاد الناس ببيت أسست قواعده، ورفع بنيانه، وبقي منه موضع به يتم صلاح ذلك البيت... وفي الحديث: ... فَضَّلَ النَّبِيُّ عَلَى سَائِرِ النَّبِيِّينَ، وأن الله ختم به المرسلين، وأكمل به شرائع الدين»<sup>(٤)</sup>.

هذا من حيث كمالها، وأما شمولها فمما يدل عليه:

أن بعض المشركين قالوا لسلمان الفارسي رضي الله عنه - وهم يستهزئون به -: «إني أرى صاحبكم يعلمكم كل شيء حتى الخِزَاء»<sup>(٥)</sup>! قال: «أجل، أمرنا

(١) تفسير القرطبي ٢١١/٦.

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ١٣٤/١٩.

(٣) رواه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب خاتم النبيين ٥٥٨/٦ - ٥٥٩ ح ٣٥٣٥.

(٤) الفتح ٥٥٩/٦.

(٥) بكسر الخاء آداب قضاء الحاجة «آداب التخلي».

أن لا نستقبل القبلة، ولا نستنجي بأيماننا، ولا نكتفي بدون ثلاثة أحجار، ليس فيها رجيع ولا عظم»<sup>(١)</sup>.

قال النووي في شرحه للحديث: «ومراد سلمان رضي الله عنه [بقوله: أجل] أنه علمنا كل ما نحتاج إليه في ديننا حتى الخراءة التي ذكرت أيها القائل فإنه علمنا آدابها؛ فنهانا عن كذا وكذا والله أعلم»<sup>(٢)</sup>.

ولو علم السائل المستهزئ ما في الجواب على سؤالهم من الحكم الباهرة التي تظهر فضل تعاليم الرسول ﷺ لما سألوا، ففي هذا الحديث الذي أرادوا به الطعن عن الإسلام من الحكم والأحكام ما يلي:

١ - لم يُغفل الإسلام آداب قضاء الحاجة والتخلي، وفي هذا عناية كبيرة بما يصلح حال العبد في سائر شؤونه، حيث راعى مصالحه في جوانب حياته المختلفة، وإذا كان هذا الدين قد اعتنى بهذا الأمر فلا شك أنه قد أولى مصالح العباد الكبرى العناية الكافية.

٢ - احترام القبلة التي هي موضع توجه المسلمين جميعاً في صلواتهم وحجهم ودعائهم وغيرها من العبادات.

٣ - الأدب مع الملائكة؛ فهي تتوجه إلى القبلة في صلواتها، ولا يخلو مستقبل القبلة ومستدبرها من عدم الأدب معها، والملائكة تتأذى مما يتأذى منه ابن آدم، ولذلك يُعفى في استقبال القبلة واستدبارها في الأماكن المغلقة والمبينة كالمراحيض ما لا يعفى في غيره.

٤ - الأدب مع الجن، والعظم طعام للجن فلا يجوز تنجيسه.

٥ - احترام الطعام، ففي الإشارة إلى تحريم استخدام العظم في التنظيف بعد قضاء الحاجة؛ تنبيه على تحريم استعمال المطعومات كلها.

٦ - مراعاة نظافة الإنسان بعد قضاء الحاجة.

٧ - مراعاة النظام في التفريق بين اليمين والشمال في الاستعمال، فقد جعل

---

(١) رواه ابن ماجه، كتاب الطهارة وسننها، باب الاستنجاء ح ٣١٦، وذكره الألباني في صحيح سنن ابن ماجه ٥٧/١ ح ٢٥٥.

والحديث رواه مسلم في الصحيح، ولكنني اخترت هذا اللفظ في سنن ابن ماجه لورود سبب الحديث فيها.

(٢) شرح مسلم ١٥٤/١

الإسلام اليمين للأكل، والشمال لإزالة النجاسة، ويشكل عام كان رسول الله ﷺ يحب التيامن في شأنه كله مما يخص الأمور الطيبة.

٨ - مراعاة صحة الإنسان وسلامته<sup>(١)</sup> فلا يجوز أن يؤذي المرء نفسه باستعمال فضلات الحيوان النجسة.

٩ - وفي الإشارة إلى تحريم استخدام فضلات الحيوان تنبيه على تحريم استخدام النجاسات كلها لضررها.

١٠ - مراعاة دواب الجن؛ إذ الرجيع وهو فضلات الحيوان علفٌ لدواب الجن.

وبعد ذكر هذه الحُكم نقول: هل كان في مقدور البشر أن يتنبه إلى كل ما اشتمل عليه هذا الحديث من آداب هامة؟؟، وهل كان يدور بخلد ذلك المستهزئ هذه الأمور العظيمة التي تتضمنها آداب التخلي، وما يترتب على تركها من مخاطر جسيمة؟؟ والتي لا يعلم عنها من حُرِمَ نعمة الإسلام شيئاً. فهل يمكن لبشر أن يتنبأ بما حمله هذا الحديث من الأحكام والحُكم والفوائد إلا بوحي من السماء.

وهذا الحديث اشتمل على مسائل فقهية من فصل واحد في كتب الفقه، من باب واحد، في كتاب واحد داخل تحت قسم العبادات، وقسم العبادات فيه مئات المسائل وعشرات الأبواب، وهناك قسم المعاملات وغيرها من الأقسام التي يدخل تحتها مئات الأبواب، وكل باب يشتمل على آلاف المسائل التي يتضمنها شرع المصطفى ﷺ.

وعن سعة شريعة محمد رسول الله ﷺ وشمولها قال الألويسي: «إنها أوسع الشرائع؛ فإنها أوضحت للأمة جميع ما كلفوه من العبادات، وبينت لهم ما يحل ويحرم من مباحات ومحظورات، وفصّلت ما يجوز ويمتنع من عقود مناكح

---

(١) لم تسطع وزارات الصحة العالمية كلها إلى يومنا هذا حتى في البلدان المتقدمة مادياً المتخلفة معنوياً - كبلاد الغرب - أن تقنع الناس بالتزام وسائل المحافظة على الصحة والنظافة لكي لا تقع في الأمراض الخطيرة، والتي قطع الشارع الحكيم أسبابها؛ فحرم الزنا، واللواط، وقضاء الحاجة في المياه الراكدة... هذا من جهة، وأمر من جهة أخرى بالاغتسال، والوضوء، والسواك، والختان، والاستحدا، وتنف الإبط، وتقليم الأظافر، وقص الشارب... بنظام عجيب. والدافع في الإسلام لفعل تلك الأمور الهامة هو الاستجابة لقول الشارع، ومن ثم تأتي الفوائد الصحية بالتبع.

ومعاملات، حتى احتاجت سائر الملل في كثير من معاملاتهم وموارثهم لهذه الشريعة ولم تحتج هي إلى شريعتهم... ثم إن فيها أصولاً تدل على الحوادث المُعَقَّلَة، وتستنبط منها الأحكام المهمة... وهي على سعتها محصورة في قواعد يسيرة... وهي:

- «اليقين لا يزول بالشك»،

- «الضرر يزال لا بضرر»،

- «المشقة تجلب التيسير»،

- «العادة محكمة».

وبيان أن اندراج جميع المسائل الفرعية في هذه القواعد مذكور في الكتب المفصلة، المشتملة على أحكام الشريعة، هذا مع ما فيها من:

- السهولة واليسر،

- وعدم الحرج،

فهي الحنيفية البيضاء التي ليلها كنهارها، فالحمد لله على هذه النعمة<sup>(١)</sup>.

### وضوح طريق العبادة في شريعة الإسلام:

وذلك لأن الإسلام دين الفطرة، دين الحنيفية السمحة، لا خضوع فيه لمخلوق، ولا عائق يعوق من أن يتوجه العبد لربه من دون واسطة حيث إن باب الابتداع في العبادات موصد أمام المبتدعين والدجالين والقبوريين؛ هؤلاء الذين يحولون بين العباد وربهم، فيكفي في دين الإسلام أن يتوجه العبد لربه بالدعاء وسائر العبادات وربهم، فيكفي في دين الإسلام أن يتوجه العبد لربه بالدعاء وسائر العبادات دون أي تعلق بمخلوق لتصح العبادة، قال تعالى ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [٦٠] ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

### الشريعة محفوظة:

من أسباب استمرار شريعته ﷺ؛ أنها محفوظة المصادر، فما دام أن القرآن

---

(١) الدلائل العقلية، محمود شكري الألوسي - مخطوط - ل ١٦٠.

والسنة محفوظة، فالشريعة محفوظة، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ الذَّكْرُ وَإِنَّا لَمُحْفَظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

قال د. محمد دراز: «فكم من مصلح صرخ بصيحات الإصلاح فما لبثت أصواته أن ذهبت أدراج الرياح، وكم من مدينة قامت في التاريخ ثم عفت، ودرست آثارها، وكم من نبي قُتل، وكم من كتاب فُقد أو انتقص أو بدل... فلا بد إذن من كفيل بهذا الحفظ... وكم مرة تنكر الأعداء لدولة الإسلام، وتسلبت الفجار على المسلمين، فاثخنوا فيهم القتل، وأكروهوا أمماً منهم على الكفر، وأحرقوا الكتب، وهدموا المساجد، وصنعوا ما كان يكفي القليل منه لضياح القرآن كلاً أو بعضاً كما فعل بالكتب قبله، لولا أن العناية تحرسه؛ فبقي في وسط هذه المعامع رافعاً راياته وأعلامه، حافظاً آياته وأحكامه... بل... كم من القناطر المقنطرة من الذهب والفضة تُنفق في كل عام لمحو هذا القرآن، وصد الناس عن الإسلام بالتضليل والبهتان والخداع والإغراء، ثم لا يظفر أهلها من وراء ذلك إلا بما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦].

ذلك بأن الذي يُمسكه أن يزول هو الذي يمسك السموات والأرض أن تزولا. ذلك بأن الله:

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصَّف: ٩]... والله بالغ أمره، ومتم نوره، فظهر، وسيبقى ظاهراً، لا يضره من خالفه حتى يأتي أمر الله<sup>(١)</sup>.

فلا يمكن التلاعب بمصادرها، وبالتالي لا يمكن التلاعب بالشريعة، إذ هي مستمدة من الوحي المحفوظ، ولا يمكن أن يتطرق إلى الشريعة الغراء تبديل ولا تغيير كما تطرق إلى غيرها، قال الألوسي: «فإن شرائع من قبله إنما اضمحلت وأبحرت لما اعترى كتبها من التحريف والتبديل، واختلاط مقاصد البشر بالمقاصد الإلهية المستوجبة سقوط الوثوق بها، وترك العمل بنصوصها لعدم التمييز بين الحق والباطل، فاهملت بالكلية، بخلاف الشريعة المحمدية، فإنها لما كانت معجزة بل

(١) النبأ العظيم - باختصار - ص ٤٣ - ٤٤.

أعظم معجزة ودليل؛ امتنع أن يداخلها شيء غيرها، وحُفظت مقاصدها الإلهية من المقاصد البشرية، وبذلك استقامت أنوارها ما أشرقت النجوم السماوية<sup>(١)</sup>.

ولا يجوز لأحد من المسلمين أن يغير شيئاً من شريعة الرسول ﷺ فيحرم ما أحل، ويحلل ما حرم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فدين أحمد ﷺ أكمل وأفضل، فذاك [شرع أهل الكتاب] مفضول مبتذل، وهذا فاضل لم يُبدل، وذلك مغلوب مقهور، وهذا مؤيد منصور»<sup>(٢)</sup>.

أما رجال الكنيسة فيحللون ويحرمون ويشرعون كما يريدون، واليهود يقيدون إرادة الله وشرعَه فلا يجوزون له سبحانه أن ينسخ شيئاً شرعَه وعطلوا بعض الحدود كرجم الزاني، وشددوا على أنفسهم بتشديدات ليس لها أصل من دينهم فشدد الله عليهم، وأما النصارى فقد بدلوا دين المسيح عليه السلام، حتى اضمحل بالكلية بسبب التحريف ودخول غيره فيه؛ فاستحلوا الخنزير، وتركوا الختان والطهارة من الحدث والخبث، وتعبدوا بالنجاسات، وكان المسيح في غاية الطهارة مما يدل على أن شريعتهم قد أحدثت. بخلاف دين المسلمين الذين أكمله رب العالمين بمحمد ﷺ خاتم النبيين، وأنزل عليه الكتاب المحفوظ المبين، وبلغه رسوله الأمين، فلا تحتاج أمته لأحد بعده ليزيد شيئاً في دينه، وإنما تحتاج لمن يفقه الدين الذي بعث به ﷺ.

### يسر الشريعة:

قال تعالى: ﴿... مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَمَّا كُنْتُمْ تَشْكُرُونَ ۝﴾ [المائدة: ٦].

قال الإمام البخاري - رحمه الله - في كتاب الإيمان من صحيحه: («باب الدين يسر، وقول النبي ﷺ: «أحب الدين إلى الله الحنيفية السُّمحة»، [ثم روى حديثاً بسنده]

عن أبي هريرة رضي الله عن النبي ﷺ: «إن الدين يسر، ولن يُشاد الدين أحدٌ إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا...»<sup>(٣)</sup>.

(١) الدلائل العقلية، محمود شكري الألوسي - مخطوط - ل ٨.

(٢) الجواب الصحيح ١٠٤/٥.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب الدين يسر ٩٣/١ ح ٣٩.

قال ابن حجر في شرح الحديث: «أي دين الإسلام ذو يسر، أو سُمي الدين يسراً مبالغة بالنسبة إلى الأديان قبله، لأن الله رفع عن هذه الأمة الإصرَ الذي كان على من قبلهم، ومن أوضح الأمثلة له: أن توبتهم كانت بقتل أنفسهم، وتوبة هذه الأمة بالإقلاع والعزم والندم،

قوله (أحب الدين)... أي ما كان منها سمحاً سهلاً فهو أحب إلى الله... وأحب الأديان إلى الله الحنيفية، والحنيفية ملة إبراهيم... وسمي إبراهيم حنيفاً لميله عن الباطل إلى الحق، والسمحة السهلة، أي أنها مبنية على السهولة، لقوله تعالى: ﴿...وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨]...

والمعنى: لا يتعمق أحد في الأعمال الدينية ويترك الرفق إلا عجز وانقطع  
 فيغلب. قال ابن المنير:

في هذا الحديث علم من أعلام النبوة، فقد رأينا ورأى الناس قبلنا أن كل متنطم في الدين ينقطع.

قوله (فسددوا) أي الزموا السداد، وهو الصواب من غير إفراط ولا تفريط...

قوله (وقاربوا) أي إن لم تستطيعوا العمل بالأكمل فاعملوا بما يقرب منه ،  
قوله (وأبشروا) أي بالثواب على العمل الدائم وإن قل... وأنهم المبشّر به  
تعظيماً له وتفخيماً<sup>(١)</sup>. وقال ﷺ: «هلك المتنطعون» ثلاثاً<sup>(٢)</sup>.

(١) فتح الباري ٩٤/٦. وبقية الحديث: «استعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة» أي استعينوا على مداومة العبادة بإيقاعها في الأوقات المنشطة، والاستعانة عليها ببعض الأوقات التي تكون فيها النفس منسرحة، ومقبلة على العبادة. ومنها: جزء من أول النهار، وهو المشار إليه بالغدوة، ووقت مثله في آخر النهار؛ وهو المشار إليه بالروحة، لأن الغدوة والروحة المرة من الغدو والرواح، وشيء من الليل؛ والمشار إليه في الحديث بـ«الدلجة». فلا يُقصر فيما أُمِر، ولا يحمل نفسه ما لا تطبيق، وحسن الاستعارة أن الدنيا في الحقيقة دار نقلة إلى الآخرة وأن هذه الأوقات بخصوصها أروح ما يكون فيها البدن للعبادة. انظر شرح الحديث في: المصدر السابق، والمحنة في سير الدلجة، لابن رجب ص ٥١.

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب العلم، باب هلك المتنتعون ٤/٢٠٥٥.

وقال الإمام البخاري رحمه الله: «باب: يُكْرَهُ من التعمق، والتنازع، والغلو في الدين والبدع؛ لقوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ [النساء: ١٧١]»<sup>(١)</sup>.

ثم روى البخاري - رحمه الله - نهى النبي ﷺ عن الوصال في الصيام. ومن فقه الإمام البخاري أنه قرّن الأمور الأربعة ببعضها وهي:

١ - الغلو في الدين ٢ - التعمق. ٣ - البدع. ٤ - التنازع، وذلك لما بينها من علاقة وثيقة، وكان من أسباب فساد الأديان التشدد أو الغلو أو التعمق الذي أدى إلى الابتداع، والتنازع.

وقال ﷺ: «لا تشددوا على أنفسكم فيشدد الله عليكم، فإن قوماً شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم، فتلك بقاياهم في الصوامع والديارات؛ رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم»<sup>(٢)</sup>.

وقال ابن القيم: «فنهى النبي عن التشديد في الدين؛ وذلك بالزيادة على المشروع، وأخبر أن تشديد المرء على نفسه هو السبب لتشديد الله عليه. إما «بالقدر» أو «بالشرع». فالتشديد بالشرع: كما يشدد على نفسه بالنذر الثقيل، فيلزمه الوفاء به، وبالقدر: كفعل أهل الوسواس فإنهم شددوا على أنفسهم فشدد عليهم القدر حتى استحکم ذلك وصار صفة لازمة لهم»<sup>(٣)</sup>.

قال تعالى في شأن اليهود الذين ظلموا أنفسهم: ﴿فَظَلَمُوا مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبِئَتْ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ۖ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ هُمُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبُطْلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٠ - ١٦١].

وكان البغي والتعدي والظلم الذي عليه اليهود سبباً في تحريم بعض الطيبات عليهم قال تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا كُذِيَ ظَفَرٌ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَمًا عَلَيْهِمْ شُحُومُهُمْ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمْ أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦].

(١) صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، ٢٧٥/١٣.

(٢) رواه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب الحسد ح ٤٩٠٤، وسكت عنه.

(٣) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ١٣١/١.



وكانت بعثة الرسول محمد ﷺ رحمة رحم الله بها العباد، ونعمة يسر الله عليهم، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوزًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَإِذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وصفة اليسر للشرعية من الصفات التي أكد القرآن عليها، فقال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

في معرض الرخصة بالإفطار للمريض والمسافر، قال تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَشْيَاءِهِ أَخَّرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

يريد سبحانه أن ييسر على عبادة الطريق الموصلة إلى رضوانه، فإن حصلت بعض العوارض أو الحرج خفف التكليف قال تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة: ٦].

وقد جاءت هذه الآية في معرض من لم يستطع استعمال الماء في الوضوء أو الاغتسال فينتقل إلى التيمم، وبين في نهاية الآية أن فرض الوضوء والاعتسال بالماء لتطهير العبد، وتلك من نعم الله علينا: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦].

وكان من هديه ﷺ التيسير، وكان يدعو إليه.

قال البخاري رحمه الله: («باب قول النبي الله: «يسروا ولا تعسروا»، وكان يحب التخفيف والتسري، على الناس»...

- ولما بعث رسول الله ﷺ أبا موسى الأشعري ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما إلى اليمن قال لهما: «يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا، وتطوعا...»،

- وعن أنس قال: قال النبي ﷺ: «يسروا ولا تعسروا، وسكنوا ولا تنفروا»

- وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «ما خَيْرَ رسول الله ﷺ بين أمرين قط إلا أخذ أيسرهما، ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه. وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه في شيء قط، إلا أن تنتهك حرمة الله، فينتقم بها الله».

- وعن الأزرق بن قيس قال: «كنا على شاطئ نهر بالأهواز قد نضب عنه الماء، فجاء أبو برزة الأسلمي على فرس، فصلى وخطب فرسه، فانطلقت الفرس، فترك صلاته وتبعها حتى أدركها فأخذها، ثم جاء فقضى صلاته، وفيما رجل له رأي<sup>(١)</sup> فأقبل يقول: انظروا إلى هذا الشيخ ترك صلاته من أجل فرس، فأقبل [أبو برزة الأسلمي رضي الله عنه] فقال: ما عتفني أحد منذ فارقت رسول الله ﷺ، وقال: إن منزلي متراخ فلو صليت وتركت لم آت أهلي إلى الليل، وذكر أنه صحب النبي ﷺ فرأى من تيسيره».

- «أن أعرابياً بال في المسجد فثار إليه الناس ليقعوا به، فقال لهم رسول الله ﷺ دَعُوهُ وأهريقوا على بوله ذَنْباً من ماء - أو سَجْلاً - من ماء فإنما بعثتم ميسرين ولم يُبعثوا مُعسرِينَ»<sup>(٢)</sup>.

وقال ابن حجر: «وفي هذه الأحاديث أن الغلو ومجاوزة القصد في العبادة وغيرها مذموم، وأن المحمود من جميع ذلك ما أمكنت المواظبة معه، وأمين صاحبه العجب وغيره من المهلكات»<sup>(٣)</sup>.

وذكر إسرائيل بن شموئيل الأورشليمي<sup>(٤)</sup> أن أحد أسباب إسلامه الرئيسية هو تعذر العمل بشريعة اليهود لما دخل عليها من تشديدات أو لأن الحكمة التي من أجلها فُرِضت بعض الآصار قد تصرمت، فقال وهو يخاطب قومه: «اعلموا يا أقربائي وبنِي جنسي أنني أخبركم أن الذي حملني بعد ذلك أن أتبع هذا النبي الجليل محمداً ﷺ من كوني نظرت أن جماعة اليهود على بكرة أبيهم في كل مصر

---

(١) قال ابن حجر: «لم أقف على اسمه.. وأن المراد بالرأي رأي الخوارج، والتنوين فيه للتحقير» الفتح ٥٢٦/١٠.

(٢) رواها كلها البخاري في صحيحه، كتاب الأدب ٥٢٤/١٠ - ٥٢٥، ح من ٦١٢٤ إلى ٦١٢٨.

(٣) الفتح ٥٢٦/١٠.

(٤) لم أعثر له على ترجمة كما لم يعثر المحقق «عبد الوهاب طويلة» على ترجمة له انظر: مقدمة الكتاب «الرسالة السبعية بإبطال الديانة اليهودية» ص ٦ دامش ٣.

ومكان وهم عاثشون بغير شريعة التوراة، ولا عاملون بأحكامها اللازمة، لكون العمل بها غير ممكن، لا بل ممتنع، وقد تصرّمت عنهم بالطبع وتلاشت، وهي باقية بالورق فقط.

ويظهر من ذلك أن الله سبحانه وتعالى قد استخدمها إلى أزمنة معلومة محدودة، غير راض بخلودها، لا بل إنه راض بانقضائها وتبديلها، والبرهان على ذلك من المشاهدات والمتواترات والتجربيات والحدسيات والأوليات...»<sup>(١)</sup>

ثم بعد أن بين في آخر رسالته امتناع العمل بالشريعة اليهودية، وامتناع التطهير من الخطايا لأن التوبة عندهم متعلقة بطقوس قد بادت أسبابها على ما قرره في الرد قال: «ثم حدثت نفسي وقلت: إذا كان غير ممكن العمل بكامل الوصايا، وممتنع أيضاً التطهير للواقع تحت مخالفتها، وديانة التوراة هي مربوطة بالوجهين، ومن لا يعمل بهما فهو كالذي بغير دين... من هنا أدركت أن الذي بناها [أي الشريعة اليهودية] بحكمته، هو الذي هدمها بحكمته، واحد لا يُسأل عما يفعل، وهم يسألون»<sup>(٢)</sup>.

وقد بين المؤلف أن أعمال الشريعة اليهودية قد عُلقَت بالهيكل السليماني، والمذبح، أما وقد خرب الهيكل، وهدم المذبح، وزالا من الوجود؛ فهو برهان واضح على نسخ الشريعة اليهودية وبطلان الديانة كلها إذ يمتنع أداء العبادات والتطهيرات - في شرعهم - إلا بوجودهما<sup>(٣)</sup>.

#### - توسط شريعته ﷺ:

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣] والتوسط والاعتدال؛ أحب الأمور إلى الله تعالى، كما ذكر ذلك الطبري، حينما علّل رحمه الله وصف الأمة بالتوسط فقال: «وأرى أن الله تعالى ذكّره إنما وصفهم بأنهم وسط؛ لتوسطهم في الدين، فلا هم أهل غلو فيه؛ غلو النصارى الذين غلوا بالترهب، وقولهم في عيسى ما قالوه.

(١) الرسالة السبعية بإبطال الديانة اليهودية ص ٢٨. وسماها سبعة: لأن الأسباب التي دعت للدخول في الإسلام سبعة أسباب بينها في رسالته المذكورة.

(٢) المصدر السابق ص ٦٠ - ٦١.

(٣) المصدر السابق ص ٢٩.

ولا هم أهل تقصير؛ تقصير اليهود الذين بدّلوا كلام الله، وقتلوا أنبياءهم، وكذبوا على ربهم، ولكنهم أهل توسط واعتدال فيه، فوصفهم الله بذلك إذ كان أحب الأمور إلى الله أوسطها<sup>(١)</sup>

والمقصود بالأمة الوسط: خيار الناس وعدولهم، لأنهم أقاموا العدل، واجتنبوا الظلم، ولم يقعوا فيما وقعت فيه أمّا الغلو والجفاء<sup>(٢)</sup>. ولذلك كان خير القرون ومن سار على نهجهم موصوفين بقوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّامًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ [الفتح: ٢٩].

ورسول الله ﷺ «نبي الرحمة» و«نبي الملحمة»؛ أي القتال، وأمه أشدّاء على الكفار رحماء بينهم، أدلة على المؤمنين، أعزة على الكافرين، بخلاف من كان ذليلاً للطائفتين، أو عزيزاً على المؤمنين بل مستكبراً؛ كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم كذبوا فريقاً، وقتلوا فريقاً<sup>(٣)</sup>.

وقال تعالى فيمن يحبهم: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

قال أبو الحسن العامري: «إن أحق الأديان بطول البقاء ما وجدت أحواله متوسطة بين الشدة واللين، ليجد كل من ذوي الطباع ما يصلح به حاله في معاده ومعاشه، ويستجمع له منه خير دنياه وآخرته.

وكل دين لم يوجد على هذه الصفة، بل أسس على مثال يعود بهلاك الحرث والنسل، فمن المحال أن يسمى ديناً فاضلاً.

وذلك مثل ما تمسك به رهابين النصارى من هجران المناكح، والانفراد في الصوامع، وترك الطيبات الرزق.

وما يتعاطاه الثنوية [المجوس] من حمل الأنفس على الوجاء والخصاء وملازمة الأصول الخمسة التي هي عندهم: الصدق، والطهر، والراحة، والقدس، والمسكنة دون غيرها من حركات العمارة.

(١) تفسير الطبري ٦/٢.

(٢) انظر: المصدر السابق، وتفسير ابن كثير ١/١٩٠، وفتح الباري ٦/٢٦.

(٣) انظر: الجواب الصحيح لشيخ الإسلام ابن تيمية ٥/٢٣٨.

وما انتهجه نساك الهند من إحراق الأجساد، وتغريقها في الماء، والتردي من الجبال، وإهلاكها...

ولو أن الله تعالى أراد بعباده حملهم على إهلاك الأنفس لما علمهم صنعة لبوس لهم لتحصنهم من بأسهم، ولما جعل لهم سرايل تقيهم الحر<sup>(١)</sup>.

وقد حُرِّم على اليهود كثير من الطيبات بسبب بغيتهم، وبالغوا في اجتناب ما ليس من النجاسات، حتى أنهم أقصوا الحائض فلا يؤاكلونها ولا يساكنونها، وكانوا لا يرون إزالة النجاسة من الثوب، بل يُقرض موضعها إلى غير ذلك من الآصار، والأغلال التي كانت عليهم.

وأما النصارى؛ فعامتهم لا يرون شيئاً حراماً، ولا نجساً، ويصلون متلبسين بالجنابة، والحدث، وحمل النجاسات، ويأكلون الخبائث: الدم، والميتة، ولحم الخنزير، فالحلال عندهم ما اشتتهه أنفسهم، والحرام عندهم ما كرهته أهواؤهم. وهدى الله الذين آمنوا إلى الحق بإذنه؛ فأحل لهم الطيبات وحرم عليهم الخبائث، وأزال عنهم الآصار والأغلال التي كانت على بني إسرائيل من قبلهم.

### شريعته ﷺ شريعة عدل وفضل:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «الشرائع ثلاثة، شريعة عدل فقط، وشريعة فضل فقط، وشريعة تجمع العدل والفضل، وتندب إلى الفضل فتوجب العدل وتندب إلى الفضل، وهذه أكمل الشرائع الثلاث»<sup>(٢)</sup>.

وبه شيخ الإسلام على من يسلب الفضل من شريعة موسى، أو من يسلب العدل من شريعة عيسى فهذا فيه غضاظة بشرية المرسلين لكن قد يقال: «إن ذكر العدل في التوراة أكثر، وذكر الفضل في الإنجيل أكثر، والقرآن جمع بينهما على غاية الكمال»<sup>(٣)</sup>.

وهذا من إنصافه رحمه الله فلم يحمله الرد على النصارى إلا القول بالحق، ثم ذكر رحمه الله أمثلة بديعة من القرآن على أن الشريعة الكاملة شريعة محمد ﷺ هي التي جمعت بين العدل والفضل على أجمل وجه، ومنها:

(١) الإعلام بمنابغ الإسلام ص ١٣٧.

(٢) الجواب الصحيح ٥٨/٥.

(٣) المصدر السابق ٥٩/٥.

١ - قال تعالى: ﴿وَأَن عَاقِبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ...﴾ ﴿فَهَذَا عَدْلٌ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ [التحل: ١٢٦] وهذا فضل.

٢ - قال تعالى: ﴿وَحَزَّوْا سَيِّئَةً سَبَيْتُمْ نَفْسًا...﴾ [الشورى: ٤٠] فهذا عدل ﴿...فَمَن عَفَا وَأَمْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ...﴾ [الشورى: ٤٠] وهذا فضل.

٣ - ﴿وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ...﴾ [المائدة: ٤٥] فهذا عدل ﴿...فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ [المائدة: ٤٥] وهذا فضل<sup>(١)</sup>.

ورد شيخ الإسلام على من زعم أن شريعة الإنجيل قد ألزمت الناس بترك حقوقهم، وأن لا ينتصف المظلوم من الظالم، وبين رحمه الله أن هذا ليس حكم المسيح بل حكم الكنيسة، وقال: «ولو أمرنا كل ولي مقتول لأن لا يقتص من القاتل وكل صاحب دين أن لا يطالب غريمه، وكل مشتوم ومضروب أن لا ينتصف من ظالمه لم يكن للظالمين زاجر يزجرهم، وظلم الأتقياء الضعفاء وفسدت الأرض، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

فلا بد من شرع يتضمن الحكم بالعدل، ولا بد مع ذلك من نذب الناس إلى العفو والأخذ بالفضل، وهذه شريعة الإسلام...

ولو قيل: إن المسيح عليه السلام أوجب على المظلوم العفو عن الظالم بمعنى أنه يستحق الوعيد والذم والعقاب إن لم يعف عنه لزم من هذا أن يكون كل من انتصف من الظالم ظالماً مستحقاً للذم والعقاب...

وما أحسن كلام الله وأعدله وأفضله حيث شرع العدل فقال: ﴿وَحَزَّوْا سَيِّئَةً سَبَيْتُمْ نَفْسًا...﴾ [الشورى: ٤٠]

ونذب إلى الفضل فقال: ﴿...فَمَن عَفَا وَأَمْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠]، ولما ندب إلى العفو ذكر أنه لا لوم على المنتصف، لئلا يظن أن العفو فرض فقال:

﴿وَمَنِ اتَّخَذَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤١] ثم بين أن السبيل يكون على الظالمين:

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ

(١) انظر: الجواب ٦٠/٥ - ٦١.

أَلَيْمٌ ﴿١١﴾ [الشورى: ٤٢]، ثم لما رفع عنهم السبيل، ندبهم مع ذلك إلى الصبر والعفو، فقال: ﴿وَلَكِنَّ صَبْرَ وَعَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ ﴿١٢﴾ [الشورى: ٤٣].

فهذا أحسن شرع، وأحكمه، وأجمله، يرغب في الصبر، والغفر والعفو، والإصلاح، بغاية الترغيب، ويذكر ما فيه من الفضائل، والمحاسن وحמיד العاقبة، ويرفع عن المنتصف ممن ظلمه الملام والعدل، ويبين أنه لا حرج عليه ولا سبيل إذا انتصر بعد ما ظلم<sup>(١)</sup>

وقال في جمع شريعته ﷺ بين الشدة واللين:

«إن شريعة التوراة تغلب عليها الشدة، وشريعة الإنجيل يغلب عليها اللين، وشريعة القرآن معتدلة جامعة بين هذا وهذا... والسبب أن بني إسرائيل كانت نفوسهم قد ذلت لقهر فرعون لهم، ولهذا لما أمروا بالجهاد نكلوا عنه و﴿قَالُوا يَمْوِسَّىٰ إِنَّا فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَنذُرُكَ حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنَهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ [المائدة: ٢٢] و﴿قَالُوا يَمْوِسَّىٰ إِنَّا لَنَنذُرُكَ أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلْنَا إِنَّا هُنَا قَتَلْتُمْ﴾ [المائدة: ٢٤]... فشرعت لهم الشدة لتقوى أنفسهم....

فلما نصر الله بني إسرائيل وأظهرهم ظهرت فيهم الأحداث بعد ذلك وتجبروا وقست قلوبهم وصاروا شبهاً بآل فرعون،

فبعث الله المسيح عليه السلام باللين، والصفح، والعفو عن المسيء، واحتمال أذاه ليلين أخلاقهم، ويزيل ما كانوا فيه من الجبرية والقسوة.

فأفرط هؤلاء النصارى في اللين، حتى تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله، وتركوا الحكم بي الناس بالعدل وإقامة الحدود، وترهب عبادهم منفردين....

فبعث الله محمداً بالشريعة الكاملة العادلة، وجعل أمته عدلاً خياراً لا ينحرفون إلى هذا الطرف ولا إلى هذا الطرف، بل يشتدون على أعداء الله، ويلينون لأولياء الله، ويستعملون العفو والصفح فيما كان لنفوسهم، ويستعملون الانتصار والعقوبة فيما كان حقاً لله، وكان ﷺ لا ينتقم لنفسه قط إلا أن تنتهك محارم الله

(١) الجواب الصحيح ١٠٤/٥ - ١١٣ باختصار.

فيغضب وينتقم لله، وما خير رسول الله بين أمرين إلا اختار أيسرها<sup>(١)</sup>، وكان يغضب غضباً شديداً إذا جاءه من يشفع في حد من حدود الله<sup>(٢)</sup>، ففي شريعته من اللين والعفو والصفح ومكارم الأخلاق أعظم مما في الإنجيل، وفيها من الشدة والجهاد وإقامة الحد على الكفار والمنافقين أعظم مما في التوراة، وهذا هو غاية الكمال، ولهذا قال بعضهم:

بُعث موسى بالجلال، وبعث عيسى بالجمال، وبعث محمد ﷺ بالكمال<sup>(٣)</sup>  
وقال الألوسي: «من نظر إلى شريعة موسى عليه السلام وجدها شريعة  
فهر... وأما عيسى عليه السلام فقد كان في مظهر الجمال...  
وأما نبينا محمد ﷺ فكان مظهر الكمال الجامع لتلك القوة والعدل والشدة  
في الله والرحمة.

فشريعة محمد ﷺ أكمل الشرائع، ولذلك أنت شريعته بالعدل إيجاباً له  
وفرضاً، وبالفضل ندباً له واستحباباً، وبالشدة في موضع الشدة، وباللين في موضع  
اللين، ووضع السيف موضعه، ووضع الندي موضعه، فيذكر الظلم ويحرمه،  
والعدل ويأمر به، والفضل ويندب إليه، حرم كل خبيث، وأباح لنا كل طيب  
ونافع...

إن الشرائع المتقدمة بعضها حكم بالقصاص، وبعضها حكم بالعفو والشريعة  
المحمدية جمعت بين الحكيمين فأجازت لولي المقتول أن يقتص من القاتل، وأن  
يعفو، ورغبته في العفو بأنه أقرب للتقوى، وهكذا الحال في كثير من  
الأحكام<sup>(٤)</sup>.

وقال شيخ الإسلام: «وجاءت شريعته ﷺ أكمل شريعة، لم يبقَ معروف  
تعرف العقول أنه معروف إلا أمر به، ولا منكر تعرف العقول أنه منكر إلا نهى  
عنه، ولم يأمر بشيء فقيلاً: ليته لم يأمر به، ولم ينه عن شيء فقيلاً: ليته لم ينه  
عنه، وأحل الطيبات؛ لم يحرم شيئاً منها كما حُرِّم في شرع غيره، وحرم الخبائث  
لم يحل شيئاً منها كما استحله غيره، وجمع محاسن ما عليه الأمم، فلا يُذكر في

(١) انظر: صحيح البخاري ح ٣٥٦٠.

(٢) انظر: المصدر السابق ح ٦٧٨٨.

(٣) الجواب الصحيح ٧٩/٥ - ٧٦. باختصار وتصرف.

(٤) الدلائل العقلية، محمود شكري الألوسي - مخطوط - ل ١٦.



التوراة والإنجيل والزيور نوع من الخير... إلا وقد جاء به على أكمل وجه...  
فليس في الكتب إيجاب لعدل وقضاء بفضل وندب إلى الفضائل، وترغيب  
في الحسنات إلا وقد جاء به على أكمل وجه، وبما هو أحسن منه.

وإذا نظر اللبيب إلى العبادات التي شرعها، وعبادات غيره من الأمم؛ ظهر  
فضلها، ورجحانها، وكذلك في الحدود، والأحكام، وسائر الشرائع<sup>(١)</sup>.

وذكر - رحمه الله - أمثلة على ما أشار إليه آنفاً في موضع آخر فقال: «ولم  
يُضيق [شرعه ﷺ] عليهم باب الطهارة والنجاسة كما ضيق على اليهود، ولم يرفع  
عنهم طهارة الحدث والخبث كما رفعتهم النصارى، فلا يوجبون الطهارة من الجنابة،  
ولا الوضوء للصلاة، ولا اجتناب النجاسة في الصلاة، بل يعد كثير من عبّادهم  
مباشرةً النجاسات من أنواع القرب والطاعات، حتى يقال في الراهب له سبعون  
سنة ما مس الماء، وتركوا الختان مع أنه شرع إبراهيم الخليل عليه السلام. واليهود  
إذا حاضت عندهم المرأة لا يوأكلونها ولا يشاربونها، ولا يقعدون معها في بيت  
واحد، والنصارى لا يحرمون وطء الحائض، وكان اليهود لا يرون إزالة النجاسة،  
بل إذا أصاب ثوب أحدهم قرضه بالمقراض، والنصارى ليس عندهم شيء نجس  
يحرم أكله أو تحرم الصلاة معه.

ولذلك المسلمون وسط في الشريعة فلم يجحدوا شرعه الناسخ لأجل شرعه  
المنسوخ كما فعلت اليهود، ولا غيروا شيئاً من شرعة المحكم، ولا ابتدعوا شرعاً  
لم يأذن به الله، كما فعلت النصارى<sup>(٢)</sup>.

وهذا كله يدل على أن صاحب هذه التشريعات مسدّد معصوم، وأن شريعته  
منزلة من عند الله الحكيم الخبير لإقامة العدل بين الناس.

### - الداعي لالتزام أحكام الشريعة:

الداعي لالتزام أحكام الشريعة والعمل بها دافع شرعي وداع قلبي يمليه  
الإيمان بالله والخوف من عقابه، والرغبة فيما عنده، وهذا أمر مفقود في الشرائع  
الأرضية الأخرى، ولذلك نرى في الآيات التي تتضمن التشريعات والحدود؛  
الترهيب من تعدي حدود الله كما جاء في آخر آية الطلاق: ﴿...وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ

(١) الجواب الصحيح ٤٤١/٥، باختصار.

(٢) المصدر السابق ٦٩/١ - ٧١، باختصار.

وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ [الطَّلَاق: ١].

وجاء بعد حكم الظهار في سورة المجادلة قوله تعالى: ﴿...ذَلِكُمْ تُوَعَّظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ [المَجَادِلَةُ: ٣]...ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُنُوتًا كَمَا كُنْتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيْكَ الْكِتَابُ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٥﴾ [المَجَادِلَةُ: ٤ - ٥].

والمسلم إذا ترك شيئاً محرماً كشرب الخمر والسرقة والزنا تركه الله لا يتركه خوفاً من المخلوق، أما الأمم الأخرى التي لا تؤمن بشريعة الأنبياء فإنهم يترهبون المخلوق، ولذلك إذا أفلت الواحد منهم من طائلة من يخشاه من البشر أسرف على نفسه بالمعاصي وجر على الناس ما استطاع من المصائب والمآسي.

#### قطع الشريعة المحمدية لدابر الجريمة:

ويكفي أن يقال لمن يشك في هذا الأمر: الحكم بيننا وبينك التاريخ، فلم يوجد في التاريخ شرع قضى على تفشي جرائم القتل، والسرقة، وجرائم الإفساد في الأرض الأخرى غير الإسلام.

#### حفل الشريعة لعوامل استمرار نفعها:

فبما أن الشريعة قائمة على الأخذ من نصوص الوحي، والوحي لا تنقضي عجائبه، ولا تنفذ فوائده، إذن فالشريعة مستمرة النفع والخير.

## الفصل الثالث

### خطورة إنكار رسالته ﷺ

وفيه مبحثان :

- المبحث الأول : الطعن في رسالته ﷺ طعنٌ في ذات الرب - تبارك وتعالى - بل جحد له بالكلية.
- المبحث الثاني : صلاح الحال والمآل لا يتمان إلا به ﷺ

## المبحث الأول

### الطعن في رسالته ﷺ طعن في ذات الرب - تبارك وتعالى - بل جحد له بالكلية

خلق الرحمن الرحيم الإنسان وكرمه بنعم لا تحصى؛ هو الذي جعل الأرض فراشاً والسماء بناء، ورفع السموات بغير عمد، وسخر الشمس والقمر ودبر الكون، ومد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً، وأنبت فيها من كل الثمرات زوجين اثنين، وفضل بعضها على بعض في الأكل، تسقى بماء واحد، يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد، وكل شيء عنده بمقدار، عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال، يعلم من أسر القول كعلمه لمن جهر به سواء، ويعلم من هو مستخف بالليل وسارب بالنهار، أبقى سبحانه بمنه وفضله ما ينفع الناس في الأرض فقال جل وعلا: ﴿فَأَمَّا الزُّبْدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ۝﴾ [الرعد: ١٧].

فالذي يدعو إلى دعوة الحق يبقى أثره ونفعه، والذي يدعو بدعوة الباطل يذهب باطله وأثره.

فالماء الذي يحمل الغشاء ويطفو الزبد على وجهه، لا يلبث أن يذهب وينتفع الناس بالماء الطيب العذب، ويزول الغشاء والزبد ولا يبقى له أثر، وكذلك الحق والباطل..

ومن سنة الله تعالى أنه شهد بنفسه شهادة عدل وحق لأعظم ما يحتاجه ابن آدم في دينه ودنياه، وذلك لحبه - تعالى - للعدر وإقامة الحجة؛ وأعظم حق وعدل شهد الله به هو:

١ - توحيده وعبادته وحده لا شريك له سبحانه.

٢ - والشهادة لرسوله ﷺ الذي بعثه هداية للناس.

وأظهر سبحانه تلك الشهادة أعظم إظهار وبيان؛ إذ لا فائدة للخلق إلا بأن

تكون بينة لإقامة الحجة، ومن عدل الله ورحمته أنه يُخزي من يكذب عليه وعلى الناس ويدعي أنه رسول الله من مدعي الرسالة ويسلط عليه من يفضح أمره والتاريخ خير شاهد على ذلك أيضاً، بل إن الطغاة والظلمة في التاريخ كله ينتهي أمرهم ولا يستمر ذكرهم إلا بشر، وترى الناس يلعنونهم للفساد الذي تركوه وراءهم في الأرض.

ورسول الله قد شهد له ربه شهادة بالقول وبالفعل بما أظهره من الآيات والتأييد والنصر له كما في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدُ عَلَمٍ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾﴾ [الرعد: ٤٣].

وقد نفع الله به ﷺ العباد أعظم النفع علماً وعملاً، وقرب الناس لربهم، وشهد الله له بما أظهر صدقه، كما شهد لنفسه في قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران: ١٨ - ١٩].

قال ابن القيم: «شهادته سبحانه تتضمن بيانه للعباد، ودلالاتهم وتعريفهم بما شهد به، وإلا فلو شهد شهادة لم يتمكنوا من العلم بها لم ينتفعوا، ولم يقم بها عليهم الحجة، كما أن الشاهد من العباد إذا كانت عنده شهادة ولم يبينها، بل كتمها لم ينتفع بها أحد، ولم تقم بها حجة، وإذا كان لا يُنتفع بها إلى بيانها فهو سبحانه قد بينها غاية البيان»<sup>(١)</sup>.

وقال: «وهو سبحانه لكمال عدله ورحمته، وإحسانه وحكمته، ومحبه للعذر وإقامته للحجة؛ لم يبعث نبياً من الأنبياء إلا ومعه آية تدل على صدقه فيما أخبر به، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥] وقال تعالى: ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِ الْبَيِّنَاتِ وَإِلَازِي قُلُوبَكُمْ فَلَمَّا فَتَنْتُمُوهُمْ إِنَّ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٢﴾﴾ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٨٣﴾﴾ [آل عمران: ١٨٣ - ١٨٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَتَتْلُوا مِنْهُ الذِّكْرَ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل: ٤٣ - ٤٤].

(١) مدارج السالكين ٣/ ٤٦٢ - ٤٥٦٣.

قال تعالى: ﴿وَلَنْ يُكَذِّبَكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾﴾ [فاطر: ٢٥].

حتى إن من أخفى آيات الرسل آيات هود حتى قال له قومه: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ [هود: ٥٣].

ومع هذا فبيّنته من أظهر البيّنات، وقد أشار إليها بقوله: ﴿إِنْ تَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا يُسْوُو قَالَ إِنَّي شَهِدْتُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾﴾ مِنْ دُونِهِ فَكُذِّبُوا جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظَرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ إِنَّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود: ٥٤ - ٥٦].

فهذا من أعظم الآيات: أن رجلاً واحداً يخاطب أمة عظيمة بهذا الخطاب، غير جزع ولا فزع، ولا خوار، بل واثق مما قاله جازم به، قد أشهد الله أولاً على براءته من دينهم، ومما هم عليه، إشهاد واثق به، معتمد عليه، معلم لقومه، أنه [سبحانه] وليه وناصره، وأنه غير مسلطهم عليه، ثم أشهدهم - إشهاد مجاهر لهم بالمخالفة - أنه برئ من دينهم وآلهتهم التي يوالون عليها ويعادون، ويبدلون دماءهم وأموالهم في نصرتها...

ثم قرر دعوته أحسن تقرير، وبين أن ربه تعالى وربهم الذي نواصيهم بيده، هو وليه ووكيله، القائم بنصره وتأييده وأنه على صراط مستقيم فلا يخذل من توكل عليه، وآمن به، ولا يُشمت به أعداءه، ولا يكون معهم عليه، فإن صراطه المستقيم الذي هو عليه في قوله وفعله يمنع ذلك ويأباه، وتحت هذا الخطاب أن من صراطه المستقيم هو العدل الذي عليه الرب تعالى، ومنه؛ انتقامه من أهل الشرك والإجرام، ونصره أوليائه، ورسله على أعدائهم وأنه يذهب بهم ويستخلف قوماً غيرهم، ولا يضره ذلك شيئاً، وأنه القائم سبحانه على كل شيء حفظاً ورعاية، وتدبيراً وإحصاءً، فأي آية وبرهان ودليل أحسن من آيات الأنبياء وبراهينهم وأدلتهم؟ وهو شهادة من الله سبحانه وتعالى لهم بينها لعباده غاية البيان، وأظهرها لهم غاية الإظهار بقوله وفعله، وفي الصحيح عنه أنه قال: «ما من الأنبياء نبي إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»<sup>(١)</sup>.

(١) رواه الشيخان وقد تقدم تخريجه ص ١٩٦ من هذه الرسالة.

ومن أسمائه تعالى: «المؤمن» وهو - في أحد التفسيرين - المصدق الذي يُصدق الصادقين بما يقيم لهم من شواهد صدقهم، فهو الذي صدق رسله وأنبياءه فيما بلغوا عنه، وشهد لهم بأنهم صادقون بالدلائل التي دل بها على صدقهم... فإنه سبحانه أخبر وخبره الصدق، وقوله الحق أنه لا بد أن يُرى العباد من الآيات الأفقية والنفسية ما يبين لهم أن الوحي الذي بلغته رسله حق فقال تعالى: ﴿سَرُّرِهِمْ ءَايَتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَقِّ يَتَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فُصِّلَتْ: ٥٣] وهو المتقدم في قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ﴾ [فُصِّلَتْ: ٥٢]. ثم قال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فُصِّلَتْ: ٥٣].

فشهد سبحانه لرسوله ﷺ بقوله: أن ما جاء به حق، ووَعَدَهُ أن يُرَى العباد من آياته الفعلية الخَلْقِيَّة ما يشهد بذلك أيضاً، ثم ذكر ما هو أعظم من ذلك وأجل وهو شهادته سبحانه على كل شيء؛ فإن من أسمائه «الشهيد» الذي لا يغيب عنه شيء ولا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء بل هو مطلع على كل شيء مشاهد له، عليم بتفاصيله، وهذا استدلال بأسمائه وصفاته... والاستدلال بالآيات الأفقية والنفسية بأفعاله ومخلوقاته.

ومن كماله المقدس؛ اطلاعه على كل شيء وشهادته عليه، بحيث لا يغيب عنه وجه من وجوه تفاصيله، ولا ذرة من ذراته باطناً وظاهراً، ومن هذا شأنه؛ كيف يليق بكماله أن يُقَرَّر من يَكْذِبُ عليه أعظم الكذب، ويخبر عنه، ويجيبُ دعوته، ويُهْلِكُ عدوّه ويُظْهِرُ على يديه من الآيات والبراهين والأدلة ما تعجز عن مثله قوى البشر، وهو - مع ذلك - كاذب عليه مفترٍ ساعٍ في الأرض بالفساد؟! ومعلوم أن شهادته سبحانه على كل شيء وقدرته على كل شيء وحكمته وعزته وكماله المقدس يأبى ذلك<sup>(١)</sup> كل الإباء، ومن ظن ذلك به وجوّزه عليه؛ فهو من أبعد الخلق عن معرفته<sup>(٢)</sup>...

وإذا تدبرت القرآن رأيته ينادي على ذلك<sup>(٣)</sup> فيُبيدُه ويعيده لمن له فهم وقلب

(١) أي تأبى حكمه الله ورحمته أن تؤيد وتنصر المدعي المفترى الكذاب.

(٢) أي من ظن أن الله يشهد للمفترى الكذاب بالنصر والتأييد فهو من أبعد الناس عن المعرفة بالله وكمال صفاته سبحانه.

(٣) أي أن القرآن الكريم بين في أكثر من موضع بأن عاقبة من يكذب على الله ويدعي النبوة؛ أشد العذاب وبش المصير.

عن الله، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَابِلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِيزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٧].

أفلا تراه كيف يخبر سبحانه؛ أن كماله وحكمته وعدله وقدرته تأبى أن يُقر من تَقُولَ عليه بعض الأقابيل؟ بل لا بد أن يجعله عبرة لعباده كما جرت بذلك سنته في المتقولين عليه، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُخَيِّقُ الْحَقَّ يَكَلِّمُ مَن يَشَاءُ إِنَّهُمْ عَلَىٰ ذَاتِ الْأُصْدُورِ ﴿٥١﴾﴾ [الشورى: ٢٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ يَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ يُبْدُونَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾ [الأنعام: ٩١].

فأخبر أن من نفى عنه الإرسال والكلام لم يُقدِّره حق قدره ولا عرفه كما ينبغي، ولا عظمه كما يستحق، فكيف من ظن أنه ينصرُ الكاذب المفتري عليه ويؤيده؟ ويظهر على يديه الآيات والأدلة؟...

ويستدل سبحانه بأسمائه وصفاته على بطلان ما نسب إليه من الأحكام والشرائع الباطلة، وأن كماله المقدس يمنع من شَرِّعِها، كقوله تعالى ﴿وَإِذَا قَالُوا فَتَحْنَا لَكَ الْأَرْضَ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُكُمْ يَفْعَلَنَّ اللَّهُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأعراف: ٢٨].

وقوله عقيب ما نهى عنه وحرمه من الشرك والظلم والفواحش والقول عليه بلا علم: ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾ [الإسراء: ٣٨].

فأعلمك أن ما كان سيئة في نفسه فهو يَكْرَهُه، وكمالُه يأبى أن يجعله شَرْعًا له ودينًا، فهو سبحانه يدل عباده بأسمائه وصفاته على ما يفعله ويأمر به، وما يحبه ويبغضه، ويشيب عليه ويعاقب عليه...

وقال تعالى لمن طلب آية تدل على صدق رسوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [العنكبوت: ٥١].

ثم قال: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٥١﴾﴾



[العنكبوت: ٥٢].

فإذا كان سبحانه عالم بجميع الأشياء كانت شهادته أصدق شهادة وأعدلها، فإنها شهادة بعلم تام، محيط بالمشهود به، فيكون الشاهد به أعدل الشهداء وأصدقهم، وهو سبحانه يذكر:

- علمه عند شهادته،

- وقدرته وملكه عند مجازاته،

- وحكمته عند خلقه وأمره،

- ورحمته عند ذكر إرساله رسوله ﷺ،

- وحلمه عند ذكر ذنوب عباده ومعاصيهم،

- وسمعه عند ذكر دعائهم،

فتأمل ورود أسمائه الحسنى في كتابه وارتباطها بالخلق والأمر، والثواب والعقاب<sup>(١)</sup>

قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدُ اللَّهِ عِلْمٌ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾﴾ [الرعد: ٤٣].

وفي هذه الآية أمر من الله لرسوله ﷺ أن يكل أمره إليه - سبحانه - في إظهار صدقه وإثبات رسالته فالله سيشهد له، فأجابهم ﷺ جواب الواثق المستشهد على ذلك بشهادة الصدق من إشهاد الله تعالى وإشهاد العالمين بالكتب والشرائع، ولما كانت الشهادة للرسول عليه الصلاة والسلام بالصدق شهادة على الذين كفروا بأنهم كاذبون جعلت الشهادة بينه وبينهم<sup>(٢)</sup>.

وقال ابن القيم: «فاستشهد على رسالته ﷺ بشهادة الله له، ولا بد أن تعلم هذه الشهادة، وتقوم به الحجة على المكذبين له؛ وقد شهد الله له فقال تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَدَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩].

وقال تعالى: ﴿يَسَّ ۝ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ۝ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝﴾ [يس: ١ - ٣].

(١) مدراج السالكين - بتصرف - ٤٦٤/٣ - ٤٦٩.

(٢) انظر: تفسير ابن جرير الطبري ١٣/١٧٦، والتحرير والتنوير لابن عاشور ١٣/١٧٥.

وقال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُتَنِفِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُتَنِفِقِينَ لَكَذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [المنافقون: ١].

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَنْ لَمْ يَرْحَمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَّجْ أَخْرَجَ سُلَيْمَةُ فَتَارَزُهُ فَأَسْتَقْلَطَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّطَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح: ٢٨ - ٢٩].

فهذا كله شهادة منه لرسوله، قد أظهرها وبينها، وبين صحتها غاية البيان، بحيث قطع العذر بينه وبين عبادته، وأقام الحجة عليهم، فكونه سبحانه شاهداً لرسوله معلوم بسائر أنواع الأدلة عقليها ونقلها وفطريها وضروريها ونظريها.

ومن نظر في ذلك وتأمله؛ علم أن الله سبحانه شهد لرسوله ﷺ أصدق الشهادة وأعدلها وأظهرها، وصدق به سائر أنواع التصديق، بقوله الذي أقام البراهين على صدقه فيه، وبفعله، وإقراره، وبما فطر عليه عبادته، من الإقرار بكماله، وتنزيهه عن القبائح، وعما يليق به، وفي كل وقت يحدث من الآيات الدالة على صدق رسوله ﷺ ما يقيم به الحجة، ويزيل به العذر، ويحكم له ولأتباعه بما توعدهم به من العز والنجاة والظفر والتأييد ويحكم على أعدائه ومكذبيه بما توعدهم به من الخزي والنكال والعقوبات المعجلة الدالة على تحقيق العقوبات المؤجلة ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾ [الفتح: ٢٨].

فيظهره<sup>(١)</sup> ظهورين:

- ١ - ظهوراً بالحجة والبيان والدلالة،
  - ٢ - وظهوراً بالنصر والظفر والغلبة، والتأييد، وحتى يظهره على مخالفيه ويكون منصوراً...
- من شهادته أيضاً؛ ما أودعه في قلوب عبادته من التصديق الجازم، واليقين

(١) أي يُظْهِرُ اللَّهُ رسوله على الناس بأمرين.

الثابت، والطمأنينة بكلامه ووحيه<sup>(١)</sup> فإن العادة تحيل حصول ذلك<sup>(٢)</sup> بما هو من أعظم الكذب والافتراء على رب العالمين، والإخبار عنه بخلاف ما هو عليه من أسمائه وصفاته، بل ذلك يوقع أعظم الريب والشك وتدفعه الفطر والعقول السليمة، كما تدفع الفطر التي فطر عليها الحيوان الأغذية الخبيثة الضارة التي لا تغذي كالأبوال والأنثان، فإن الله سبحانه فطر القلوب على قبول الحق والانقياد له، والطمأنينة به، والسكون إليه ومحبته، ولو بقيت الفطر على حالها لما أثرت على الحق سواه، ولما سكنت إلا إليه، ولا اطمأنت إلا به، ولا أحببت غيره، ولهذا ندب الله عباده إلى تدبر القرآن، فإن كل من تدبره أوجب له علماً ضرورياً وقيناً جازماً؛ أنه حق وصدق، بل أحق من كل حق، وأصدق من كل صدق، وأن الذي جاء به أصدق خلق الله، وأبرهم وأكملهم علماً وعملاً ومعرفة، ولو رُفعت الأقفال عن القلوب لباشرتها حقائق القرآن، واستنارت فيها مصابيح الإيمان، وعلمت علماً ضرورياً يكون عندها كسائر الأمور الوجدانية من الفرح والألم والحب والخوف أنه من عند الله، تكلم به حقاً وبلغه رسوله جبريل عنه إلى رسوله محمد ﷺ، فهذا الشاهد في القلب من أعظم الشواهد، وبه احتج هرقل على أبي سفيان حيث قال له: «هل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل في؟ فقال: لا. فقال له: وكذلك الإيمان إذا خالطت حلاوته بشاشة القلوب لا يسخطه أحد»، وقد أشار تعالى إلى هذا المعنى في قوله ﴿بَلْ هُوَ ءَايَتٌ يَبَيِّنُ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

وقوله: ﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُمْ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٤].  
 وقوله: ﴿وَبَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِينَ أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [سبا: ٦].  
 وقوله: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ [الرعد: ٢٧].

(١) وهذه شهادة لكلام الله بأنه حق، وشهادة للرسول أنه صدق لأن كلام الله هو حجة للرسول الله

(٢) أي يستحيل على صاحب الفطرة السليمة والعقل الصحيح أن يستسيغ الكذب ويطمئن إليه وتشرح نفسه به فكيف بالكذب على الله ؟؟.

يعني أن الآية التي يقترحونها لا توجب هداية... ثم نبههم إلى أعظم آية وأجلها في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ٢٨] أي بكتابه وكلامه ﴿أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

فطمأنينة القلوب الصحيحة والفطر السليمة به وسكونها إليه من أعظم الآيات؛ إذ استحيل في العادة أن تطمئن القلوب وتسكن إلى الكذب والافتراء والباطل<sup>(١)</sup>.

ودعوة محمد رسول الله ﷺ حصل بها من الطمأنينة والهداية ما جعل الناس يدخلون فيها أفواجا، ويمتنع أن يكون صاحبها من أكفر الناس؛ إذ لو كان كذلك لكان أحقهم بغضب الله وعقابه. وكل من قال إني رسول الله وهو صادق فهو من خير أهل الأرض وأحقهم برضوان الله وثوابه، أما إن كان كاذبا فهو من شر أهل الأرض وأحقهم بعذاب الله وغضبه وأليم عقابه.

وقد أهلك الله من كذب الرسل بألوان من العذاب؛ فأهلك قوم نوح بالغرق، وقوم هود بالريح الصرصر، وقوم صالح بالصيحة، وقوم شعيب بالظلة، وقوم لوط بالحاصب، وقوم فرعون بالغرق، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٣].

فكيف بمن يكذب على الله ويدعي أنه مرسل من عند الله؟؟ ثم صار المقصود بالرسالة لا يحصل إلا بالعلم والقدرة كما قال تعالى ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح: ٢٨] وهذا الظهور لم يتحقق إلا لرسولنا محمد ﷺ، وكان على يده إذلال المجوس وغيرهم من المشركين لا على يد اليهود والنصارى.

فقد جاء محمد رسول الله ﷺ بأكمل دين وأفضله؛ لم يُبدل ولم يغيّر، بل مؤيد من الله منصور، وأما دين غيره فهو دين مفضول ومبدل ومغلوب ومقهور<sup>(٢)</sup>.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في إظهار الله لآياته ﷺ رافة بالناس: «ولما كانت حاجة الناس إلى معرفة صدق الرسل أعظم من حاجتهم إلى غير

(١) مدارج السالكين ٣/ ٤٧٠ - ٤٧٢.

(٢) انظر: الجواب الصحيح ٥/ ٧٠ - ١٠٤.

ذلك أقام الله سبحانه من دلائل صدقهم وشواهد نبوتهم وحسن حال من اتبعهم وسعادته ونجاته، وبيان ما يحصل لهم من العلم النافع والعمل الصالح، وقبح حال من خالفهم وشقاوته، وجهله وظلمه، ما يظهر لمن تدبر ذلك: ﴿... وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [التور: ٤٠] (١).

ولو كان محمد ﷺ كاذباً في دعوته للزم أن يسبقه تحذير، ولو كان عند أهل الكتاب أخبار توجب ذمه والتحذير منه لظهرت واحتجوا بها ولاشتهرت عنهم، وكان ظهور ذلك أولى فيهم من ظهور خبر الدجال في المسلمين فإن هذا الأمر من أعظم ما تتوافر الدواعي على نقله واشتباره...

وفي الجملة: أمره ﷺ أظهر وأشهر وأعجب وأبهر وأخرق للعامة من كل أمر ظهر في العالم من البشر، ومثل هذا إذا كان كاذباً فلكذبه لوازم كثيرة جداً تفوق الحصر، متقدمة ومقارنة ومتأخرة، فإن من هو أدنى دعوة منه إذا كان كاذباً لزم كذبه من اللوازم ما يبين كذبه فكيف مثل هذا؟ فإذا انتقت لوازم المكذوب انتفى الملزوم (٢).

وقال ابن أبي العز: «إنكار رسالته طعن في الرب تبارك وتعالى، ونسبته إلى الظلم والسفه، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، بل جحد للرب بالكلية وإنكار.

وبيان ذلك: أنه إذا كان محمد ﷺ عندهم ليس بنبي صادق، بل ملك ظالم فقد تهيأ له أن يفترى على الله، ويتقول عليه، ويستمر حتى يحلل ويحرم، ويفرض الفرائض، ويشرع الشرائع، وينسخ الملل، ويضرب الرقاب، ويقتل أتباع الرسل، وهم أهل الحق، ويسبي نساءهم، ويغنم أموالهم، وديارهم ويتم له ذلك حتى يفتح الأرض، وينسب ذلك كله إلى أمر الله له به، ومحبته له، والرب تعالى يشاهده وهو يفعل بأهل الحق، وهو مستمر في الافتراء عليه ثلاثاً وعشرين سنة، وهو مع ذلك كله يؤيده وينصره ويعلي أمره، ويمكن له من أسباب النصر الخارجة عن عادة البشر، وأبلغ من ذلك أن يجيب دعواته، ويهلك أعداءه، ويرفع له ذكره، وهذا وهو عندهم في غاية الكذب، والافتراء والظلم، فإنه لا أظلم ممن كذب على الله، وأبطل شرائع أنبيائه وبدلها وقتل أوليائه، واستمرت نصرته عليهم دائماً والله تعالى

(١) الجواب الصحيح ١٤١/٥.

(٢) المصدر السابق ١٩٤/٥ - ١٩٥.

يقره على ذلك<sup>(١)</sup>، ولا يأخذ منه باليمين، ولا يقطع منه الوتين!!.

فيلزمهم أن يقولوا لا صانع للعالم، ولو كان له مدبر قدير حكيم لأخذ على يديه ولقابه أعظم مقابلة، وجعله نكالا للصالحين إذ لا يليق بالملوك غير ذلك؛ فكيف بملك الملوك وأحكم الحاكمين؟

ولا ريب أن الله تعالى قد رَفَعَ له ﷺ ذكره، وأظهر دعوته، والشهادة له بالنبوة، على رؤوس الأشهاد في سائر البلاد.

ونحن لا ننكر أن كثيراً من الكذابين، قام في الوجود، وظهرت له شوكة، ولكن «لم يتم له أمره، ولم تطل مدته»، بل سلط الله عليه رسله وأتباعه، فقطعوا دابرهم واستأصلوه، هذه سنة الله التي قد خلت من قبل، حتى إن الكفار يعلمون ذلك، قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّبَّيْنَاهُ بِرَبِّ الْمُنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الطور: ٣٠ - ٣١].

أفلا تراه أن كماله وحكمته وقدرته تأبى أن يُقَرَّ من تقوّل عليه بعض الأقاويل، بل لا بد أن يجعله عبرة لعباده كما جرت بذلك سنته في المتقولين عليه وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾ [الشورى: ٢٤].

وهنا انتهى جواب الشرط، ثم أخبر خبراً جازماً غير معلق؛ أنه يمحو الباطل ويُحقّ الحق، وقال تعالى ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ يَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ يُبَدُّونَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَقَالُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾ [الأنعام: ٩١]؛ فأخبر سبحانه أن من نفى عنه الإرسال.. لم يفدزه حق قدره<sup>(٢)</sup>.

ولا شك أن مدعي النبوة من أظلم الناس وشرهم، وملكه شر من ملك المَلِكِ الظالم الذي يستبيح أموال الناس ويسفك دماءهم ويستحيي نساءهم، قال

---

(١) يعني إذا كان محمد ﷺ كاذباً فقد جاء مدعياً أن الله أرسله وأبطل شرائع موسى وعيسى ومن قبلهما من الرسل وقتل أتباعهم ومع ذلك فالله ينصره، ويؤيده، فإن هذا لا يستقيم مع عدل الله ورحمته، ولو قيل بوقوع ذلك للزم عليه القول بانتفاء وجود الخالق القادر الحكيم!!.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ١/ ١٥٣ - ١٥٥.

تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ بِمِثْلِ مَا أُنْزِلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأنعام: ٩٣].

ومن سنة الله في مثل هؤلاء أن يظهر أمرهم وأن يفتضح كذبهم وأن يغلبوا في الأرض، ولا يترتب على دعوتهم إلا الشر المحض الذي لا خير فيه. ولكن أثر محمد ﷺ في تسبيح الله وتهليله أظهر من أي أمة على وجه الأرض.

فمن رحمته تعالى؛ أن أرسل للناس رسولا ظاهرة حججه وبيته آياته تهدي من رغب في الإنابة إلى ربه.

قال تعالى: ﴿وَقُولِ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّي. قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ ﴿٧٧﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٧٨﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴿٧٩﴾﴾ [الزهد: ٢٧ - ٢٩].

## المبحث الثاني

### صلاح الحال والمآل لا يتمان إلا بالإيمان به ﷺ

إن إنكار رسالته ﷺ جحودٌ للرحمة التي أرسلها الله للعالمين، وكفر بالآيات البينات التي يتلوها الرسول الصادق الأمين تعليماً وهداية للناس أجمعين، وجحود للحكمة التي جاء بها الرسول تزكية لنفوس المؤمنين.

والخير والكمال كله، والصلاح والسعادة كلها منحصرة في دعوته ﷺ فقد جاء ﷺ بصلاح العقائد التي لا شرك ولا إلحاد فيها، وجاء بصلاح الشرائع التي تستقيم بها حياة الناس، وجاء بصلاح الأخلاق التي بها يتعاملون وعلى نهجها يسرون.

- جاء ﷺ بصلاح شأن العقائد:

فقد تبع الناس خطوات الشيطان وانتشر الكفر والطغيان؛ فجاء ﷺ وقضى على عبادة الأوثان والنيران والصلبان، ودعا إلى التوحيد الخالص ورسخه في قلوب العباد.

ونبه إلى خطورة الغلو في الدين الذي وقع فيه أهل الكتاب من نسبة الولد لرب العالمين، والطعن في النبيين. وصحح مقالة السوء التي رمي بها المسيح عليه السلام من قبل اليهود الحاسدين.

أحيا دين المرسلين بالدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له؛ وجدد بذلك دين النبيين؟ قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ ۚ﴾ [الزخرف: ٤٥]، وقال تعالى مبيناً دعوة الرسل كلهم: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ۚ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وجاء بتعظيم الله وتنزيهه بعد أن نسبَت اليهودية له النقائص ونسبت النصرانية له الولد.



وأنقذ الناس من عبادة بعضهم بعضاً من دون الله كما فعل اليهود والنصارى من قبل في أحبارهم ورهبانهم؟

وجاء بكتاب محفوظ لا يأتيه الباطل من يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد؛ فيه الحجة، وفيه الدعوة؛ مشتمل على جميع ما في الكتب من المحاسن، وزیادات ضرورية لا توجد فيها، فلهذا كان مصداقاً لما بين يديه من الكتب ومهيماً عليها يقرر ما فيها من الحق، «ويبطل ما حرف منها، وينسخ ما نسخه الله، فيقرر الدين الحق، ويبطل الدين المبدل الذي لم يكن فيها، والقليل الذي نسخ فيها، فإن المنسوخ قليل جداً بالنسبة إلى المحكم المقرر»<sup>(١)</sup>. فكان في إرسال محمد ﷺ التصديق لما في الكتب السابقة من أصول الدين، والتفريق بين الحق والباطل، وبين الهدى والضلال، وبين الغي والرشاد، قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْقُوا عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانُكُم سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأَمْ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوا قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ [المائدة: ١٥ - ١٩].

وقد حصل بإرساله ﷺ صلاح العالم الذي كان يمجج بالكفر والظلم، ولن يصلح حال المسلمين إلا بالرجوع إلى هديه ﷺ والسير على طريقته، فهذا الخير العظيم الذي حصل ببعثته ﷺ ما وقع مثله من أحد من الأنبياء؛ فإنه أزال دين المشركين من قلب الأرض وأوسطها، وقضى على دين المجوس، وجمع اليهود، وكل واحدة من هذه الثلاث لم يقدر عليها أحد قبله من الأنبياء والمرسلين.

(١) معارج الوصول إلى أن أصول الدين وفروعه قد بينها الرسول، لشيخ الإسلام ابن تيمية ص

وجاء بمحاسن الأخلاق وتممها وجعلها سلوكاً يتمسك بها العباد ويتخلقون بها في حياتهم بصورة لم يقع لها مثيل في العالم، ودعا إليها دعوة جعلت أتباعه قادة الدنيا، وكانوا من: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالْفَرَّاءِ وَالْكُظَّيْنِ وَالْعَفَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤] و﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْإِتِلِ وَالْثَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٤] مقتدين بالنبي الذي قال الله له: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، ممثلين لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَيِّرْ خَذَلَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨].

ولما صلح حال القرون الأولى لأخذهم بما جاء به نبيهم من تلك الهدايات العظيمة حصل لهم القبول في الأرض ودخل الناس في دين الله أفواجا.

ولعل من أشق ما يواجه ولاية الأمر في أي دولة شأن إصلاح المجتمع، وقد أصلح ﷺ المجتمع بحكمته وتوجيهاته بحيث تغيرت حاله من الجاهلية الجاهلاء والظلمة الظلماء إلى أن جعله بالهدى الذي جاء به مجتمعاً متحاباً مترابطاً يحس المسلم فيه بالراحة والأمان، حيث أمر بحقوق الجار، وحق الطريق والقريب، وأمر بصلة الأرحام، واجتناب كثير من الظن، ونهى عن الغيبة، والنميمة، والبهتان، والسخرية، والتنازع بالألقاب، وأمر بالتعاون على البر والتقوى، ونهى عن التعاون على الإثم والعدوان، وبين أن عداوة المسلم تقابل بالعفو والإعراض عن الجاهل، والدفع بالتي هي أحسن، وأمر بالعدل، والإحسان، وإيتاء ذي القربى، ونهى عن الفحشاء والمنكر والبغى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

وحرص على وقاية المسلم في أسرته وأهله فقال تعالى: ﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

ولم يغفل شرعه أبواب صلاح المسلمين في دنياهم، فهذا باب المعاملات المالية، حذر فيه ﷺ من الكسب المحرم، وأحل البيع، قال تعالى ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ

عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ [البقرة: ٢٧٥] وقال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨]، ونهى عن أكل أموال الناس بالباطل، ونبه إلى ضرورة صرف المال في مصارفه الشرعية، ودفع حق الله فيه، مع أهمية التوسط والاعتدال في الإنفاق، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

فهل جاء أحد قبله أو بعده بشرع وصل اهتمامه ونفعه إلى كل تلك الأمور؟؟ - وهل جاء أحد بالمحافظة على الضرورات الكلية؛ في الدين والأنفس والعقول والأنساب والأعراض والأموال كما جاء ﷺ بالمحافظة عليها؟ لقد حرص على عدم المساس بتلك الضرورات فشرع أغلظ العقوبات على من اعتدى على شيء منها، ولو كان ذلك الاعتداء بمجرد كلمة باللسان، فشرع على سبيل المثال حد القذف لمن قذف المحصنات المؤمنات ثمانين جلدة. فهذا الشرع كفيل بالمحافظة على المجتمع ومصالحه.

- وهو شرع يراعي جانب التيسير على الناس، قال تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِالْفُحْوَ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٥] ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ومعلوم باتفاق أهل الأرض أنه لم يأت من ساد العالم باطناً وظاهراً، وانقادت له القلوب والأجساد، وأطيع في السر والعلانية، في محياه وبعد مماته، في جميع الأعصار، وأفضل الأقاليم شرقاً وغرباً، غير محمد ﷺ... ومحمد ﷺ أظهر دين الرسل قبله، وصدقهم، ونوّه بذكرهم، وتعظيمهم فيه ﷺ آمن بالأنبياء والرسل، قبل موسى والمسيح وغيرهما أمم عظيمة، لولا محمد ﷺ لم يؤمنوا بهم، ومن كان يعرف هؤلاء من أهل الكتاب كانوا مختلفين فيهم كاختلاف أهل الكتاب في المسيح، وكانوا يقدحون في داود وسليمان وغيرهما بما هو معروف عندهم... وأيضاً فإنه ﷺ ذكر لهم من الرسل ما لم يكونوا يعرفونه مثل هود وصالح وشعيب وغيرهم»<sup>(١)</sup>.

فلم يظهر دين الإسلام الذي جاء به الأنبياء جميعهم إلا بمحمد ﷺ. - ثم من الذي ناقض مراد الشيطان غاية المناقضة؟ بحيث لم يحدث في

(١) الجواب الصحيح - باختصار - ٣٠٦/٥.

الأرض أمر أعظم مناقضة للشيطان ومراده من رسالة محمد ﷺ.

- ومن الذي أكمل الله به الدين، وتركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها فلم يعد مجال لمستزيد غير دين محمد ﷺ؟، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] وقال تعالى: ﴿وَكَمَّمْتُ كَلِمَتِي لَكَ صِدْقًا وَعَدَلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَتِي وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥].  
وهكاذ جاء دينه ﷺ صدقاً: في الأخبار، وعدلاً: في الأحكام.

- ثم من الأمة التي قامت بتوحيد الله الذي كان عليه إبراهيم وموسى وعيسى وسائر الرسل وآمنت بكل كتاب أنزله الله وكل رسول بعثه، وأقامت دين الرحمن إقامة لم يقمها أحد من الأمم؟.

وحيث كان الواحد من أمته أو الطائفة من أمته متمسكاً بدينه، كان نوره ظاهراً، وبرهانه باهراً، معظماً منصوراً، يُعرف فضله على كل من سواه، وهذا أمر يعرفه الناس في أرض الكفار من المشركين وأهل الكتاب لما خص الله به محمداً ﷺ وأمته من الهدى، ودين الحق، وقد أظهرت أمته دينَ الرب في مشارق الأرض ومغاربها بالقول والعمل، فهل يقول - من عنده علم وعدل - إنه لا فائدة في إرسال محمد ﷺ وأنه يُستغنى عن رسالته؟

ولو قيل بذلك لكان هذا القول نظير القول بكسوف الشمس على ما يزيد على أربعة عشر قرناً إلى اليوم، بل أعظم لأن الشمس يحتاج الناس إليها في وقت دون وقت، وقد يتضرر بعض الناس بها من وهجها وشدة حرارتها، أما «السراج المنير» محمد بن عبد الله ﷺ فيحتاج الناس إليه في كل مكان ليلاً ونهاراً سرّاً وعلانية.

وأما صلاح المآل والآخرة به؛ فإن أول ما يُسأل عنه العبد بعد موته: من ربك؟ ما دينك؟ من نبيك؟

ثم إن العمل إذا لم يكن مبنياً على عقيدة صحيحة فلا قيمة له: قال تعالى: ﴿وَقَدْ مَنَّا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِن عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ نَبْأَةً مِّنْثَوْرًا﴾ [الفرقان: ٢٣] وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَّ عَنْهُمْ تَمَا كَاؤًا يَّعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨].

إن صلاح رسالته ﷺ للعالم أشبه ما يكون بأهمية الماء الذي أنزله الله للحياة، فمن ضيعها فقد حكم على نفسه بالهلاك والضلال، وكان حاله كحال من

ضيع دليله بيده في الطريق الموحش ولا سبيل له للاهتداء إلا به، وهو معرض عنه، وأشبه ما يكون بمن تتقاذفه الأمواج في البحر تائهاً لا يعلم وجهته، فلما أشرقت الشمس وبدأت معالم الأشياء تتضح أمامه أغلق عينيه إمعاناً في الضلال، وهو إلى هاوية الهلاك سائر، ولا منقذ له من العماية حائر، وهذه الحالة يعيشها كل من أعرض عن هدي الرسول ﷺ.

وانظر إلى ما آلت إليه الأمم التي لم تؤمن به ﷺ، قد ضلت في أهم شؤون حياتها؛ فهي قلقة ضائعة غير مطمئنة، لا تعرف ربها، ولا تعرف غاية وجودها، ولا تعرف مصيرها بعد الموت؟ يعيشون كالأنعام بل هم أضل.

# الباب الآخر

## بيان حقوقه ﷺ

وفيه ثلاثة عشر مبحثاً:

- المبحث الأول : الإيمان به ﷺ
- المبحث الثاني : تعظيم قوله ﷺ والتحاكم إليه.
- المبحث الثالث : كمال التسليم لما جاء به ﷺ.
- المبحث الرابع : وجوب طاعته ﷺ، والاستجابة لأمره ونهيه.
- المبحث الخامس : وجوب التماسي به ﷺ والأخذ بهديه.
- المبحث السادس : الحذر من مخالفة أمره ﷺ، والاقتراء بغيره.
- المبحث السابع : لزوم محبته ﷺ.
- المبحث الثامن : لزوم تعزيزه توقيره ﷺ.
- المبحث التاسع : وجوب الصلاة والسلام عليه ﷺ.
- المبحث العاشر : بر آله و«أهله» وذريته ﷺ.
- الحادي عشر : معرفة حق أزواجه ﷺ أمهات المؤمنين.
- الثاني عشر : الثناء على أصحابه ﷺ.
- الثالث عشر : صيانة سنته ﷺ، وأهمية الاحتجاج بها.

## المبحث الأول الإيمان به ﷺ

أوجب الله الإيمان به ﷺ في مواضع كثيرة من كتابه الكريم، ومنها:  
قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَجْرَرِ تُجُكُم مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تَوَّعَدَ  
بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾  
[الصف: ١٠ - ١١]،

وقوله: ﴿فَاتَّبِعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالتَّوْرَ الَّتِي أُنزِلَتْ بِهَا تَعْمَلُونَ خَيْرٌ ﴿٨﴾﴾  
[التغابن: ٨].

وقوله: ﴿... فَاتَّبِعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يُوَثِّقُ بِاللَّهِ وَكَلِمَتِهِ  
وَأَتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ  
وَالْكِتَابِ الَّذِي أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ  
ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾ [النساء: ١٣٦].

وقوله: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُتَسَلِّطِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ  
وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾﴾ [الحديد: ٧].

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ  
وَيَجْعَلْ لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [الحديد: ٢٨].

وقوله: ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾﴾ [الفتح:  
١٣] ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ  
وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾﴾ [الفتح: ٨ - ٩].

فترتب على الإيمان به - أخذاً من الآيات السابقة -: النجاة من السعير  
والعذاب الأليم، والهداية من الضلال البعيد، والفوز بمغفرته سبحانه وكفيلين من  
رحمته، والأجر الكبير.

## \* تنبيه هام:

حينما يأتي الحديث على الإيمان به ﷺ فيجب علينا أن نستحضر تعريف (الإيمان) عند السلف حتى يمكن أن نقف على معنى الإيمان به ﷺ على الوجه الصحيح،

قال الآجري<sup>(١)</sup> رحمه الله: «اعلموا - رحمنا الله وإياكم - أن الذي عليه علماء المسلمين؛ أن الإيمان واجب على جميع الخلق وهو «تصديق بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بالجوارح»، ثم اعلموا أنه لا تجزئ المعرفة بالقلب والتصديق، إلا أن يكون معه الإيمان باللسان نطقاً، ولا تجزئ معرفة القلب ونطق باللسان، حتى يكون عمل بالجوارح، فإذا كملت هذه الخصال الثلاث كان مؤمناً»<sup>(٢)</sup>.

وعرفه السلف بتعريفات مترادفة يجمعها القول:

إن الإيمان تصديق بالجنان وإقرار باللسان، وعمل بالأركان؛ وهو قول وعمل، يزيد وينقص<sup>(٣)</sup>.

والله سبحانه وتعالى بعث نبيه محمداً ﷺ إلى الناس كافة، ليقروا بتوحيد الله، ويؤمنوا برسوله، ويقولوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله، وفرض عليهم فرائض، منها؛ طاعة رسوله، فالمؤمن هو من نطق بالشهادتين بلسانه، موقناً من قلبه، وعاملاً بالفرائض التي أوجبها الله عليه<sup>(٤)</sup>.

وعليه فالإيمان به ﷺ يشمل؛ (اعتقاد القلب) و(قول اللسان)، و(عمل الجوارح).

وعلى هذه الأركان الثلاثة يُعرف الإيمان به ﷺ

---

(١) محمد بن الحسين بن عبد الله، أبو بكر الآجري، نسبة إلى (آجر) من قرى بغداد، فقيه شافعي، محدث، توفي سنة ٣٦٠ هـ انظر: سير أعلام النبلاء ١٦/١٣٣.

(٢) الشريعة ص ١١٩.

(٣) انظر: صحيح البخاري، كتاب الإيمان ٤٥/١، والإيمان لأبي عبيد ص ٥٤ [ضمن أربع رسائل من كنوز السنة] تحقيق الألباني، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، للالكائي ٤/٨٣٠ - ٨٣٤، وشرح العقيدة الطحاوية ص ٣٧٣.

(٤) انظر: الشريعة للآجري ص ١٠١.



فاما الركن الأول: (الاعتقاد) فيشمل ما يلي:

\* وجوب الإيمان أن الله قد أرسل محمداً ﷺ:

- (رسولاً إلى الناس كافة) لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨] وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: ٢٨].

- (والى الجن أجمعين)، إذ قالوا لما سمعوا القرآن: ﴿يَقَوْمَنَا لِيَجِئُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ، يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجْزِمَكُمْ مِنْ عَذَابِ آلِيرِ﴾ [الأحقاف: ٣١].

- (خاتماً للنبيين) ﴿... وَلَٰكِنَّ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ...﴾ [الأحزاب: ٤٠].

- (مؤيداً بالآيات والبراهين) ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ...﴾ [الحديد: ٢٥].

- (مصدقاً بحجج عظيمة، ومنها ما تحدى به العالمين)؛ وهي القرآن الكريم قال تعالى ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [٣٣] فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٣ - ٢٤].

- (ولا تختلف نبوته عن سائر المرسلين من حيث؛ الاصطفاء، والبشرية، والدعوة إلى أصول الدين، والعصمة في الدين وعما يشين<sup>(١)</sup>).

قال تعالى ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤] ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

- كما يجب أن نثبت أن الله - سبحانه وتعالى - قد خص نبيه محمداً ﷺ بخصائص كثيرة فاق بها المرسلين<sup>(٢)</sup> فهو سيد ولد آدم أجمعين، وأحلت له

(١) انظر في المراد بعصمته: مجموع الفتاوى ٣١٩/٤، ٢٩٥/١٠.

(٢) ألفت من الخصائص مجموعة من الكتب، منها: غاية السؤل في خصائص الرسول، لأبي حفص عمر بن المللقن، والخصائص الكبرى، للسيوطي. وخصوصيات الرسول، للقسطلاني، ومرشد المحتار إلى خصائص المختار، لمحمد الصالحى. والقول الأحمد في خصائص أمة محمد، لأبي عمر الحاي.

الغنائم، ونصر بالرعب، وأعطى جوامع الكلم، وهو خاتم المرسلين...  
وما دام أنه رسول رب العالمين؛ فيجب علينا تصديقه في كل ما يخبر به  
وهذا هو حال المؤمنين، كما أخبر الرحمن الرحيم: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ٢٢﴾  
[الأحزاب: ٢٢].

ولهذا كان من نواقض الإيمان به<sup>(١)</sup>:

\* تكذيبه ﷺ، أو تكذيب بعض ما جاء به ﷺ  
﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ ١٤﴾ [فاطر: ١٤].  
﴿إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ١٥﴾ [ص: ١٤].  
﴿وَأَنصَبَ الْأَنتَبَ وَهُمْ يُبْعِثُ كُلُّ كَذَّبَ الرُّسُلَ حَقٌّ وَعِيدِ ١٦﴾ [ن: ١٤].  
﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ١٧﴾  
[النحل: ١١٣].  
﴿وَلَا يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ١٨﴾  
[الأحزاب: ١٢].

\* ومن نواقض الإيمان به: الإعراض عن هديه ﷺ، وتحريم ما أحله أو  
تحليل ما حرمه ﷺ  
﴿وَيَقُولُونَ ءَأَمَّا بِاللَّهِ وَآلِ الرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ  
بِالْمُؤْمِنِينَ ١٩﴾ [التور: ٤٧].  
﴿فَتَبَيَّنُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ  
وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ  
وَهُمْ صَاعِقُونَ ٢٠﴾ [التوبة: ٢٩].

\* ومن نواقض الإيمان به ﷺ: الشك في صحة دينه أو هديه:  
﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ  
فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ٢١﴾ [الحجرات: ١٥].  
\* ومن نواقض الإيمان به ﷺ: كراهية ما جاء به أو بعضه:

(١) انظر: نواقض الإسلام، لشيخ الإسلام الإمام المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب،  
(ضمن مجموعة التوحيد) ص ٢٧.

﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٤﴾﴾ فَرَحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨٥﴾﴾ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٦﴾﴾ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَدْرَكَ لِّلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴿٨٧﴾﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [التوبة: ٨٠ - ٨٤].

\* ومن نواقض الإيمان به ﷺ: الطعن فيه أو إيذاؤه:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾﴾ [الأحزاب: ٥٧].

\* ومن نواقض الإيمان به ﷺ: السخرية والاستهزاء به أو بهديه:

﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧١﴾﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُمْ مَنْ يُحَادِدُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَبَقَ لَهُمُ نَارُ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ يَحْذَرُ الْمُتَّقُونَ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَغْفِرُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [التوبة: ٦٢ - ٦٥].

﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَكَاتِ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأنعام: ١٠].

﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمَلْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾﴾ [الرعد: ٣٢].

\* ومن نواقض الإيمان به ﷺ: موادة أعدائه ﷺ

﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [المجادلة: ٢٢].

\* ومن نواقص الإيمان به ﷺ: محادثته ومشاقته

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُنُوا كَمَا كُنْتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَذَلِكَ أُنْزِلَ آيَاتُكَ يَنْتَضُونَ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٥﴾﴾ [المجادلة: ٥].

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤﴾﴾ [الحشر: ٤].

\* نعود إلى بقية أركان الإيمان به ﷺ، بعد الركن الأول (الاعتقاد) يأتي الركن الثاني وهو:

### (القول باللسان):

قال تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّهِمْ وَلَا تُنْفِرُوا مِنْهُمْ قَوْلًا فَاغْنُ عَنْكَ اللَّهُ وَالنَّبِيُّ وَالْكَافِرُونَ وَمَا أَوْفَى مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أَوْفَى النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ نَسَبْتُمْ لَهُمُ اللَّهَ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٨٥﴾﴾ [البقرة: ١٣٦ - ١٣٧] وقوله: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْكَ مِنْ رَبِّهِمْ وَلَا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [آل عمران: ٨٤].

فلا بد من النطق بشهادة؛ أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. جاء في صحيح مسلم: «باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله...» ثم روى الإمام مسلم رحمه الله ثمانية أحاديث في هذا الباب، ومنها قوله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها. وحسابهم على الله»<sup>(١)</sup>.

وتعليقاً على قوله: (فإذا فعلوا ذلك) قال ابن حجر: «فيه التعبير بالفعل عما بعضه قول... إذ القول فعل اللسان»<sup>(٢)</sup>.

(١) رواه مسلم في صحيحه بسنده عن عبد الله بن عمر بن كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله... ٢١٢/١ شرح مسلم ح ٣٦. والحديث بلفظ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله...» حديث متواتر، ذكره السيوطي في قطف الأزهار المتناثرة في الأخبار المتواترة ح ٤، ص ٣٤ - ٣٥.

(٢) فتح الباري ٧٦/١ ح ٢٥.

وأما الركن الثالث فهو:

### (العمل):

بحقوقه ﷺ التي أمر المسلم بأدائها إليه، والتي جاءت بها النصوص، كتوقيره، ومتابعته، وتعزيزه، وطاعته، ومحبته، وغيرها من الحقوق التي سيأتي تفصيلها - إن شاء الله - في المباحث القادمة.

والدليل على دخول هذه الأعمال في الإيمان به ﷺ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوا إِنْ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّكَ اللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾ [النور: ٦٢].

أما من يقتصر على مجرد التصديق بالقلب والقول باللسان في الإيمان به ﷺ فقد أخطأ<sup>(١)</sup>.

وإن شئت أن تجمع ما سبق فانظر إلى تلك العبارة الموجزة للإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب: في معنى شهادة أن محمداً رسول الله حيث قال: «طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وألا يعبد الله إلا بما شرع»<sup>(٢)</sup>. ومما أخبر به: وجوب القيام بسائر حقوقه ﷺ.

---

(١) انظر: الشفا بتعريف حقوق المصطفى، للقاضي عياض ١٠/٢ - ١٤. حيث عرف الإيمان تعريفاً مختلاً حيث لم ينص على دخول العمل في مسمى الإيمان، بالرغم من أن معظم كتابه في هذا الجانب.

(٢) الأصول الثلاثة ص ٧.

## المبحث الثاني تعظيم قوله ﷺ والتحاكم إليه

يجب أن يكون لكلام رسول الله ﷺ وأقواله من الوقع والأثر في النفوس ما ليس لغيره بحيث يصل إلى القلوب فتؤمن بها إن كانت أخباراً، وتصل إلى الجوارح فتعمل بها إن كانت طلباً،

وحال المسلم مع أحاديث المصطفى ﷺ هو حال المقبل على كلام محبوبه، العالم بأن كلامه ﷺ سبيل نجاته، وطريق فلاحه، فتكون طريقة سماعه لأخباره أشد تقديراً وإجلالاً من سائر الأخبار؛ واهتمامه بها أعظم من سائر الأنباء، فأقواله ﷺ وحي لا ضلال فيها، وأحاديثه ﷺ معصومة لا زلل فيها، اشتملت على الهداية والموعظة والحكمة والشفاء، ولو كانت قلوب العباد حية بحق وألقت سمعها لأقواله ﷺ لكان حال المسلمين اليوم أفضل مما هم عليه، ولن يكون للمسلمين عز إلا بتعظيم قول الله وقول رسوله

ولعل من أعظم مظاهر تعظيم قوله التي أمرنا الله بها ما يلي:

- ١ - تقديم قول الله ورسوله ﷺ.
- ٢ - وجوب رد التنازع إلى الله ورسوله ﷺ.
- ٣ - التحاكم إلى الله ورسوله ﷺ.
- ٤ - نفي الاختيار مع اختيار الله ورسوله ﷺ.

## ١ - تقديم قول الله ورسوله ﷺ.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاعْقُوا لِلَّهِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾﴾ [الحُجَرَات: ١].

أي «لا تعجلوا بقضاء أمر في دينكم، قبل أن يقضي الله لكم فيه ورسوله... بمعنى يعجل الأمر والنهي دونه»<sup>(١)</sup>.

وقال ابن كثير: «أي لا تسرعوا في الأشياء بين يديه؛ قبله، بل كونوا تبعاً له في جميع الأمور... وقال الضحاك: لا تقضوا أمراً دون الله ورسوله من شرائع دينكم»<sup>(٢)</sup>.

وقد أرشد الله إلى وجوب لزوم الأدب والتبجيل والإعظام في الخطاب معه ﷺ؛ فلا يجوز تجهمه بالكلام، ولا الغلظة فيه، ونهى عن رفع الصوت فوق صوته، وندائه كما ينادى الناس بعضهم بعضاً بالاسم المجرد، بل عليهم أن يعظموه فيقولوا: يا نبي الله، يا رسول الله كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿١﴾﴾ [الحُجَرَات: ٢].

وأخطر ما في الأمر قوله ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحُجَرَات: ٢] إذ قد يترتب على رفع الصوت على صوته ﷺ ذهاب ثواب الأعمال الصالحة وحبوطها، دون أن يدري صاحبها بتلك المصيبة، وهذا في غاية الخسران، وهذا الوعيد الشديد فيمن يرفع صوته عنده ﷺ فكيف بمن يقطع أمراً دون أمره؟، وما مصير من لم يعظم قوله ﷺ؟، وما مآل من يتجاوز قوله ﷺ؟ أو يحيد عنه؟ رغبة عنه أو إهمالاً له؟ إنها مسألة في غاية الخطورة

وقد توقف الصحابة - رضي الله عنهم - في كيفية الصلاة على النبي ﷺ، وهذا شاهد عملي على وجوب التحري والتوقف في الأمور الشرعية لكي تكون على الوجه المقبول عند الشارع. فسأل بشير بن سعد رضي الله عنه رسول الله ﷺ فقال: «أمرنا الله تعالى أن نصلي عليك يا رسول الله، فكيف نصلي عليك؟ قال: فسكت رسول الله ﷺ حتى تمنينا أنه لم يسأله، ثم قال رسول الله ﷺ:

(١) تفسير ابن جرير الطبري ١١٦/١٣.

(٢) تفسير ابن كثير ٢٠٥/٤.

«قولوا اللهم صل على محمد، وعلى آل محمد، كما صليت على آل إبراهيم. وبارك على محمد، وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد»<sup>(١)</sup>.

## ٢ - وجوب رد التنازع إلى الله ورسوله ﷺ

قال سبحانه: ﴿... فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ٥٩﴾ [النساء: ٥٩].

وللشيخ محمد بن إبراهيم<sup>(٢)</sup> - رحمه الله - تعليق نفيس يدعو فيه إلى التأمل في هذه الآية لما تحمله من المعاني العظيمة عندما قال: «تأمل ما في الآية... كيف ذكر التكررة وهي قوله «شَيْءٍ» في سياق الشرط وهو قوله جل شأنه: ﴿فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ﴾ المفيد للعموم فيما يتصور التنازع فيه، جنساً وقدرًا. ثم تأمل كيف جعل ذلك شرطاً في حصول الإيمان بالله واليوم الآخر، بقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾. ثم قال: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ فشيء يطلق الله عليه أنه خير، لا يتطرق إليه شر أبداً، بل هو خير محض عاجلاً وآجلاً. ثم قال ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي عاقبة في الدنيا والآخرة، فيفيد أن الرد إلى غير الرسول - عند التنازع - شر محض وأساء عاقبة في الدنيا والآخرة»<sup>(٣)</sup>.

## ٣ - التحاكم إلى الله ورسوله ﷺ

قال تعالى مبيناً حال المنافقين مع ما أنزل الله وحكم الرسول ﷺ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا أَزَّلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ٦٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُتَفَوِّضِينَ يُضْذَوْنَ عَنْكَ ضُذُودًا ٦١﴾ [النساء: ٦٠ - ٦١].

قال الشيخ سليمان بن عبد الوهاب - رحمه الله -<sup>(٤)</sup> في أثناء شرحه للآية

(١) رواه مسلم في الصلاة ٣٠٥/١.

(٢) محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ، مفتي المملكة العربية السعودية في وقته، توفي سنة ١٣٨٩هـ. انظر: معجم الأعلام ص ٦٦٠.

(٣) رسالة صغيرة الحجم بعنوان «تحكيم القوانين» ص ٧٠٦.

(٤) سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، حافظ، فقيه، محدث، عالم بالرجال، قتله إبراهيم باشا سنة ١٢٣٣هـ انظر: معجم المؤلفين ص ٣١٦.



السابقة: «فمن شهد أن لا إله إلا الله، ثم عدل إلى تحكيم غير الرسول في موارد النزاع فقد كذب في شهادته... ومن لوازم ذلك متابعتة، وتحكيمه في موارد النزاع، وترك التحاكم إلى غيره، كالمنافقين الذين يدعون الإيمان، ويتحاكمون إلى غيره»<sup>(١)</sup>

ثم قال في الآية الأخرى [النساء ٦١]: «وهذا حال كثير ممن يدعي العلم والإيمان، في هذه الأزمان، إذا قيل لهم: تعالوا نتحاكم إلى ما أنزل الله، وإلى الرسول، رأيتهم يصدون وهم مستكبرون، ويعتذرون أنهم لا يعرفون ذلك، ولا يعقلون. بل لعنهم الله بكفرهم قليلا ما يؤمنون»<sup>(٢)</sup>.

هذا، وإن من أعظم ما من الله به على رسوله ﷺ؛ الحكم، والكتاب، والنبوة. قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩].

وقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَسُوْا بِهَا بِكَفِيرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩].

ويهمنا هنا معنى (الحكم)، وفيه أقوال؛ فقليل العلم، وقيل: الفهم، وقيل: الأحكام، وقيل: تفصيل الأحكام، وقيل: الحكم الشرعي<sup>(٣)</sup>. وكلها أقوال متقاربة سيأتي كلام ابن جرير وفيه إيضاح أكثر.

وآياه ﷺ: الحكمة: كما في قوله تعالى: ﴿... وَأَذْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣١].

وقيل في معنى (الحكمة): السنة، وقيل: هي المغفرة بالدين والفقه فيه، والاتباع له<sup>(٤)</sup>، وقيل: معرفة أسرار الشريعة<sup>(٥)</sup>.

(١) تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد ص ٥٥٤ - ٥٥٥

(٢) المصدر السابق ص ٥٥٧.

(٣) انظر: تفسير الطبري ٣/ ٣٢٤، ٥/ ٢٦٣، وتفسير القرطبي ٤/ ٧٨، وتفسير السعدي ص ١١٠.

(٤) انظر: تفسير الطبري ١/ ٥٥٨.

(٥) انظر: تفسير السعدي ص ٨٦.

ثم قال ابن جرير: «والصواب من القول عندنا في الحكمة: إنها العلم بأحكام الله التي لا يدرك علمها إلا ببيان الرسول ﷺ، والمعرفة بها، وما دل عليه ذلك من نظائره، وهو عندي مأخوذ من الحكم الذي بمعنى الفصل بين الحق والباطل... يقال منه: إن فلاناً لحكيم؛ يعني به إنه لَبَيِّنُ الإِصَابَةِ فِي الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ، وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَتَأْوِيلُ الْآيَةِ: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩]: ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك، ويعلمهم كتابك الذي تنزله عليهم، وفضل قضائك، وأحكامك التي تعلمهم إياها»<sup>(١)</sup>.

وإذا كان الله قد أتى رسوله الكتاب والحكمة فهو سبحانه قد أمره بأن يتلوهاما ويعلمهما للناس؛ وهذا من أعظم وظائف الرسل ومهامهم.

تلاوته ﷺ الحكمة: وهذا من أجل نعم الله علينا.

قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

وقال تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ رَبَّنَا وَأَبْعَثْ﴾ [البقرة: ١٥١].

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الَّذِينَ هَدَىٰ لَهُمْ سُلُوكَهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُهُم مَّا لَمْ رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وقال تعالى: ﴿وَأَذْكُرَنَّ مَا بُشِيَ فِي بُيُوتِكُمْ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٤].

وقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ كَاذِبُونَ﴾ [البقرة: ٢].

أمر الله له ﷺ بالحكم بين الناس:

قال تعالى: ﴿أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ لِلشَّحِيحِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَكَلَّا يَصْطُرُوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾

(١) تفسير الطبري ٥٥٨/١.

إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿١٧﴾ [المائدة: ٤٢].

وقال تعالى: ﴿الْحَكِيمُ﴾ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا النَّاسِ بِمَا أَرْتَكُ اللَّهُ وَلَا أَنْ اللَّهَ يَكْفُرُ ﴿١٠٥﴾ [النساء: ١٠٥].

وَقَالَ تَعَالَى وَاللَّهُ يَخْتَصِمُ لَكُمْ مَا لَمْ رِبَّوْا بَيْنَهُمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلِيُعْلِمَ هَذَا الْكَلِيفُ لِكَمْوَرِّزِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ لِلشَّحْرِ بِمَا وَكَّاكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرَضْتُمْ وَإِنْ تَعْرَضْتُمْ فَكَانَ يَصْرُوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْنَا عَنْكُمْ بِقَوْلِ سُلَيْمَانَ إِنْ أَلَّفَهُ تِلْكَ السُّطِينَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُذْكُرْنَ ﴿٢١٣﴾ [البقرة: ٢١٣].

وقال تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَىٰ مَا أَرْسَلْنَاكَهُمْ سُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِ رَبِّهِمْ طِبًّا لِلْوُجُوهِمْ وَمَا بَدَا لَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الْآيَاتِ هَاتِيكُمْ ءَايَاتِ رَبِّكُمُ الْكَرِيمِ ۖ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۚ لِلشَّحِيحِ الْمَوَكَّاتِ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِالْعُرْضِ عَنْهُمْ ۖ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلْيُعْرِضْ عَنْهُمْ قِسْطًا ۖ وَإِنْ كُنْتَ مِنْهُمْ بَاطِلًا لِيُظْهِرْ لَهُمْ إِلَهُكُمُ الْغَيْبُ الْبَاطِنُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُخَالِفُ طَائِفًا مِمَّنْ يُدْعِي إِلَىٰ الظُّلُمِ الْأُولَىٰ ۚ إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّهِينٍ ۚ وَاللَّهُ خَبِيرٌ النَّاسِ بِمَا أَرَاءَ ۚ وَلَا أَنْ ۝٤٨﴾

[المائدة: ٤٨ - ٤٩].

وبهذا نخلص إلى أن الله - سبحانه وتعالى - أتى نبيه محمداً ﷺ الكتاب والحكم والحكمة، وأمره سبحانه أن يعلم الناس وأن يحكم بين الناس، وهذا من أعظم ثمرات إرساله ﷺ؛

فإذا تقرر أن الله أرسل محمداً ﷺ بالكتاب ليتلوه على الناس فعلينا أن نتمسك بهذا الكتاب العظيم.

وإذ تقرر أن الله قد أتى محمداً ﷺ الحكمة ليعلمها الناس فعلينا أن نتلقاها  
كما نتلقى الغيث.

وإذا تقرر أن الله أعطى الله نبيه محمداً ﷺ الحكم ليحكم به بين الناس فعلينا أن نتحاكم إليه ونرضى بحكمه.

ولذلك كانت النصوص قد حضت المؤمنين على حقٍّ من أعظم حقوقه ﷺ  
على الناس، والتي أرسل لتحقيقها وهو أن يحكم بينهم بالقسط، كما جاءت  
محذرة من الإعراض عن حكمه بأنواع من الوعيد قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ ءَأَمَّا بِاللَّهِ  
وَبِالرُّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤٧) ولذا دُعُوا إِلَى  
اللَّهِ وَرُسُلِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فُرِقَ مِنْهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَلَنْ يَكُنْ لَهُمُ الْخُفْيَةُ يَا تَوْأَىٰ إِلَيْهِ الْمُدْعَوْنَ

﴿٤٩﴾ أَلَمْ يَكُنْ مِنْكُمْ رَجُلٌ مَرِضٌ أَوْ آتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾ [النور ٤٧ - ٥٠].

فهؤلاء: يُظهرون الإيمان بالسنتهم: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا﴾ ثم لا يصدقون هذا القول بأعمالهم: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ ولا يدعونون لحكم الرسول ﷺ إلا في حالة واحدة: ﴿وَلَنْ يَكُنْ لَهُمْ لَمَعٌ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعَبِينَ﴾، وأما السبب في ذلك الإعراض فقد بينه تعالى في الآية الأخيرة: ﴿أَلَمْ يَكُنْ مِنْكُمْ رَجُلٌ مَرِضٌ أَوْ آتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ﴿٥١﴾، وفيها التحذير من أن مَنْ أعرض عن الحكم الشرعي قد يكون من مرض في قلبه، أو ريب في إيمانه، أو سوء ظن بأحكام الشرع، وكلها أوصاف للمنافق والعياذ بالله<sup>(١)</sup>.

وأما حال المؤمنين الصادقين فإنهم إذا دعوا إلى حكم الله ورسوله أن يقولوا: سمعنا وأطعنا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ﴿٥٢﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٣﴾ [التور: ٥١ - ٥٢].

#### ٤ - نفي الاختيار مع اختيار الله ورسوله ﷺ.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلًّا مُبِينًا﴾ ﴿٥٤﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وهذا من التعظيم لقول الله ورسوله، فلا يجوز لمؤمن ولا مؤمنة أن يكون له الخيار في أوامر الله ورسوله، فيدعي أن له القرار في أن يأخذ بها أو لا يأخذ بها!!، أو يترك لنفسه الحرية في الالتزام بها من عدمه، فهذا الأمر في غاية الخطورة، بل على المؤمن الإسراع لمرضاة الله ورسوله.

ولابن القيم كلام نفيس حول هذا الموضوع؛

قال رحمه الله: «فَقَطَعَ اللَّهُ سبحانه التَّخْيِيرَ بعد أمره وأمر رسوله، فليس لمؤمن أن يختار شيئاً بعد أمره صلى الله عليه وسلم، بل إذا أمر فأمره حَتْمٌ، وإنما الخيرة في قول غيره؛

«إذا خفي أمره»، وكان ذلك الغير من أهل العلم به وبسنته، فهذه الشروط؛

(١) انظر فتح القدير، للشوكاني ٤/٤٤ - ٤٦.

يكون قولٌ غيره سائغٌ الاتباع، لا واجبٌ الاتباع، فلا يجبُ على أحدٍ اتباعُ قول أحدٍ سواه، بل غايتهُ أنه يسوغُ له اتباعه، ولو ترك الأخذَ بقول غيره لم يكن عاصياً لله ورسوله، فأين هذا ممن يجبُ على جميع المكلّفين اتباعه، ويحرمُ عليهم مخالفته، ويجبُ عليهم ترك كل قول لقوله؟ فلا حكم لأحد معه، ولا قولٌ لأحد معه، كما لا تشريع لأحد معه، وكلُّ من سواه، فإنما يجبُ اتباعه على قوله إذا أمرَ بما أمرَ به، ونهى عما نهى عنه، فكان مُبلّغاً محضاً ومُخبراً لا مُنشِئاً ومؤسّساً. فمن أنشأ أقوالاً، وأسس قواعدَ بحسب فهمه وتأويله لم يجبُ على الأمة اتباعها، ولا التحاكم إليها، حتى تُعرَضَ على ما جاء به الرسول، فإن طابقتَه ووافقتَه، وشهد لها بالصحة، قُبِلت حينئذ، وإن خالفتَه، وجب ردُّها، وأطراحها، فإن لم يتبين فيها أحد الأمرين، جُعِلت موقوفة، وكان أحسنُ أحوالها أن يجوزَ الحكم والافتاء بها، وتركه. أما أنه يجبُ ويتعيّن فكلا، ولمّا<sup>(١)</sup>.

وهذه قاعدة هامة يمكن تميمها على أقوال كل أحد غير قول الله جل وعلا، وقول رسوله ﷺ. فمن مقتضيات الإيمان بالله ورسوله أن تُعظّم نصوص الوحيين، ولا يكون حاله مكذباً مقالَه، فمن الناس من يدعي حب الرسول ﷺ ومع ذلك يتخذ أوراداً وأحزاباً منسوبة إلى بعض مشايخهم يفضلونها على الأذكار التي حث عليها النبي ﷺ، ولهذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «ومن أشد الناس عيباً من يتخذ حزباً ليس بمأثور عن النبي ﷺ، وإن كان حزباً لبعض المشايخ، ويدع الأحزاب النبوية التي كان يقولها سيد بني آدم ﷺ، وإمام الخلق، وحجة الله على عباده»<sup>(٢)</sup>.

فالخلاصة أن على المؤمن أن يصدّق في إيمانه ويقدم قول الله ورسوله ﷺ على كل قول وأن يرد التنازع إلى الله ورسوله ﷺ فيما حصل فيه تنازع، وإن أراد التحاكم فعليه أن يتحاكم إلى الله ورسوله ﷺ، وأن لا يكون له اختيار مع اختيار الله ورسوله ﷺ.

ومن أقواله التي ينبغي أن تقدم على كل قول قوله ﷺ «قاتل الله اليهود

(١) زاد المعاد ١/٣٨.

(٢) مجموع الفتاوى. ١٠/٥٦٠.

اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»<sup>(١)</sup>.

وعن جندب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ قبل أن يموت بخمس وهو يقول: «إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل، فإن الله تعالى قد اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلًا. ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، إني أنهاكم عن ذلك»<sup>(٢)</sup>

وعن عائشة رضي الله عنها؛ أن أم حبيبة وأم سلمة رضي الله عنهما: ذكرتا لرسول الله ﷺ كنيسة رأينها بأرض الحبشة يقال لها مارية، وفي رواية «فيها تصاوير»، فقال رسول الله ﷺ: «إن أولئك قوم إذا مات فيهم العبد الصالح أو الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة»<sup>(٣)</sup>

وعن ابن سعود رضي الله عنه مرفوعاً: «إن من شرار الخلق من تذكركهم الساعة وهم أحياء، والذين يتخذون القبور مساجد»<sup>(٤)</sup>.

«... أنا محمد بن عبد الله، عبد الله ورسوله، والله ما أحب أن ترفعوني فوق منزلي التي أنزلني الله عز وجل»<sup>(٥)</sup>.

وقال ﷺ: «إنما أنا بشر مثلكم أذكر كما تذكرون، وأنسى كما تنسون»<sup>(٦)</sup>.

وقد أنكر ﷺ على من قاله له: «ما شاء الله وشئت» فقال له: «أجعلني لله

---

(١) رواه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد على القبور ٣٧٦/١ ح ٥٣٠.

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد على القبور ١/٣٧٨ ح ٥٣٢.

(٣) رواه البخاري في صحيحه كتاب الصلاة، باب هل تنبش قبور مشركي الجاهلية؟ ٥٢٣/١ - ٥٢٤ ح ٤٢٧، وباب الصلاة في البيعة ٥٣١/١ ح ٤٣٤، وكتب الجنائز، باب بناء المسجد على القبر ٢٠٨/٣ ح ١٣٤١، وكتاب مناقب الأنصار، باب هجرة الحبشة ١٨٧/٧ - ١٨٨ ح ١٣٤١، ورواه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد على القبور ١/٣٧٥ ح ٥٢٨.

(٤) رواه أحمد في مسنده ٤٣٥/١، والبزار رقم ٣٤٢٠، والطبراني في الكبير برقم ١٠٤١٣.

(٥) رواه الإمام أحمد في مسنده ١٥٣/١. ٢٤١ وقد صحح الحديث ابن عبد الهادي في الصارم المنكي ص ٢٨٨.

(٦) رواه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد، باب السهر في الصلاة والسجود له ٤٠٢/١.

ندأ بل ما شاء الله وحده»<sup>(١)</sup>.

فأين هذا الذي أثبت التّدية للرسول ﷺ بالتشريك في المشيئة في اللفظ فقط لا في الاعتقاد ممن أعطى الرسول ﷺ صفات الألوهية؟؟، بل صفات الربوبية كالتيدير وعلم الغيب؟.

وشدد النبي ﷺ النكير على من جعل مشيئته كمشيئة الله جل وعلا في اللفظ؛ فعن ابن عباس رضي الله عنه أن رجلاً قال للنبي ﷺ : «ما شاء الله وشئت»، فقال: جعلتني لله عدلاً؛ ما شاء الله وحده»<sup>(٢)</sup>.

ولما جاءه الوفد الذين قالوا له: «أنت سيدنا، وابن سيدنا» قال لهم: «إنما السيد الله». فلما رأى من أولئك المبالغة في إطلاق الأوصاف قال ﷺ: «قولوا بقولكم أو بعض قولكم ولا يستجبرنكم الشيطان»<sup>(٣)</sup>.

وقد منع النبي ﷺ أن يحلف المسلم بغير الله تعالى كائناً من كان، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «من كان حالفاً فلا يحلف إلا بالله»<sup>(٤)</sup>. وقال ﷺ: «من حلف بغير الله فقد أشرك»<sup>(٥)</sup>.

وقوله ﷺ: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم فإنما أنا عبده فقولوا عبد الله ورسوله»<sup>(٦)</sup>.

---

(١) رواه أحمد في المسند ٢١٤/١، ٢٨٣، ٣٤٨٧، والبخاري في الأدب المفرد، مع شرحه فضل الصمد ٢٥٣/٢، والحديث صححه الألباني، وانظر تحذير الساجد ص ١٥٨.

(٢) رواه أحمد في مسنده ٢١٤/١، ٢٨٣، ٣٤٧.

(٣) رواه أبو داود في الأدب، باب كراهة التماذح ١٥٤/٥ ح ٤٨٠٦، وأحمد في المسند ٢٥/٤، وابن السني في عمل اليوم والليلة ح ٢٤٧، كلهم عن عبد الله بن الشخير، وقال الألباني: «إسناده صحيح على شروطهما» انظر تخريج إصلاح المساجد هامش ١٠٣ ص ١٣٩.

(٤) أخرجه النسائي في سننه، كتاب الإيمان والنذور باب التشديد في الحلف بغير الله تعالى ٤/٦.

(٥) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب النذور والإيمان، ما جاء في كراهية الحلف بغير الله ٤/١١٠، وقال: هذا حديث حسن.

(٦) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب واذكر في الكتاب مريم ١٤٢/٤.

## المبحث الثالث

### كمال التسليم لما جاء به ﷺ

الواجب كمال الانقياد والخضوع والتسليم لما جاء به الرسول ﷺ، لأنه ﷺ ما جاء بما جاء به من تلقاء نفسه بل أنزل الله عليه الكتاب والحكمة ولم يكن يدري ما الكتاب ولا الإيمان، ولكن جعله الله هادياً إلى الصراط المستقيم، وعلمه الحكمة، وفصل الخطاب، وما لم يكن يعلم، وآتاه جوامع الكلم، ولا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى فترى المتحاكم إليه منشراح الصدر بحكمه راضياً به، مطمئناً بما قضى، منقاداً بكل ارتياح ظاهراً وباطناً، مسلماً تسليماً كاملاً مطلقاً، قد انتفى عنده الضيق والحرَج والقلق الذي قد يساور البعض عندما يكون الحاكم عليه محل شك، أما وإن الحاكم هو رسول الله؛ فلا ممانعة، ولا معارضة، ولا مدافعة، ولا منازعة، ولا ضيق صدر، ولا حرج، ولا قلق، ولا اضطراب.

قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ۝﴾ [النساء: ٦٥].

قال ابن جرير الطبري: «يعني جل ثناؤه بقوله: (فلا) فليس الأمر كما يزعمون أنه يؤمنون بما أنزل إليك، وهم يتحاكمون إلى الطاغوت، ويصدون عنك إذا دعوا إليك يا محمد، واستأنف القسم جل ذكره، فقال (وربك) يا محمد (لا يؤمنون)؛ أي لا يصدقون بي وبك، وبما أنزل إليك حتى يحكموك فيما شجر بينهم، ويقول: حتى يجعلوك حكماً بينهم... (ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت)، وإنما معناه لا تخرج أنفسهم مما قضيت؛ أي لا تأثم بإنكارها مما قضيت، وشكها في طاعتك، وأن الذي قضيت به بينهم حق لا يجوز لهم خلافه... (ويسلموا تسليماً) يقول: ويسلموا لقضائك [يا محمد] وحكمك، إذعائاً منهم بالطاعة، وإقراراً لك بالنبوة تسليماً»<sup>(١)</sup>.

(١) تفسير الطبري ١٥٨/٥.



## وجوب كمال التسليم للرسول ﷺ:

لابن أبي العز الحنفي<sup>(١)</sup> كلام نفيس جداً في شرحه للعقيدة الطحاوية بين فيه أهمية التسليم للرسول ﷺ، وإنه أحد التوحيدين اللذين لانجاة للعبد إلا بهما ويقول فيه: «الواجب كمال التسليم للرسول ﷺ والانقياد لأمره، وتلقي خبره بالقبول والتصديق، دون أن يعارضه بخيال باطل يسميه معقولاً، أو يحمله شبهة أو شكاً، أو يقدم عليه آراء الرجال، وزبالة أذهانهم؛ فيوحده بالتحكيم والتسليم والانقياد والإذعان، كما وحد المرسل بالعبادة والخضوع والذل والإنابة والتوكل.

فهما توحيدان لا نجاة للعبد من عذاب الله إلا بهما؛ توحيد المرسل، وتوحيد متابعة الرسول ﷺ، فلا يحاكمُ إلى غيره، ولا يرضى بحكم غيره، ولا يقفُ تنفيذُ أمره، وتصديقُ خبره على عرضه على قول شيخه وإمامه وذوي مذهبه وطائفته ومن يعظمه، فإن أذنوا له نَقَدَهُ وَقَبِلَ خَبْرَهُ، وإلا فإن طلب السلامة فَوْضَهُ إِلَيْهِمْ، وأعرض عن أمره وخبره، وإلا حرقه عن مواضعه، وسمى تحريفه وتأويلًا وحملًا، فقال نؤوله ونحمله، فَلَأَن يلقى العبدُ ربَّه بكل ذنب - ما خلا الإشراك بالله - خير له من أن يلقاه بهذه الحال.

بل إذا بَلَغَهُ الحديثُ الصحيح يُعَدُّ نفسَه كأنه سمعه من رسول الله ﷺ،

---

(١) هو العلامة صدر الدين: أبو الحسن علي بن علي بن محمد بن أبي العز الأذري الأصل، الدمشقي الصالحي الحنفي، من أسرة معروفة بالعلم ولد سنة ٧٣١هـ، ولي التدريس بالقيمازية صغيراً في سنة ٧٤٨هـ لفرط ذكائه وحسن استيعابه. تولى التدريس في عدة مدارس وتولى الخطابة في جامع الأفرم، ثم ولي قضاء الحنفية بدمشق في آخر سنة ٧٧٦هـ، ثم استعفى فأعفي، وعاد إلى دمشق على وظائفه، وقد تعرض للمحنة بسبب ما علَّقه على قصيدة ابن أبيك حيث اعترض على قوله: «حسبي رسول الله» وقال: «لا يقال هذا إلا عن الله تعالى» وعلى قوله: «اشفع لي» فقال: «لا تطلب منه الشفاعة» وعلى غيرها من المواضع المتضمنة للغلو فيه ﷺ فأثار ذلك من ينسبون للعلم ورفعوا أمره للسلطان وادعوا أنه تنقص الرسول ﷺ فجرده السلطان من مناصبه كلها وحُبس مدة أربعة أشهر، وعُزِّرَ، فمكث مدة ملازماً بيته إلى أن قِضَ الله له أحد الأمراء في سنة ٧٩١هـ وهو سيف الدين يلْبُغا بن عبد الله الناصري الأتابكي فرد وظائفه إليه، وحاول أعداؤه أن يشنوا الأمير عن مرسومه ولكنهم لم يفلحوا وعاد إلى وظائفه معزراً مكرماً، وتوفي سنة ٧٩٢هـ انظر: إنباء الغمر لابن حجر ٩٥/٢، ومقدمة تحقيق شرح العقيدة الطحاوية، د. عبد الله التركي، وشعيب الأرنؤوط ص ٦٣ - ١٠٣.

فهل يسوغ له أن يؤخّر قبوله والعمل به حتى يعرضه على رأي فلان وكلامه ومذهبه؟!

بل كان الفرض المبادرة إلى امتثاله من غير التفات إلى سواء، ولا يُستشكل قوله ﷺ لمخالفته رأي فلان، بل تُستشكل الآراء لقوله، ولا يُعارض نصّ بقياس، بل تُهدّر الأقيسة، وتُلغى لنصوصه ﷺ، ولا يُحرّف كلامه عن حقيقته، لخيال يسميه أصحابه معقولاً، نعم هو مجهول، وعن الصواب معزول، ولا يُوقَفُ قبولُ قوله ﷺ على موافقة فلانٍ دون فلانٍ، كائناً من كان... ولا شك أن الله قد حرم عليه القول بغير علم، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَقُولُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٣] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٨﴾﴾ [الإسراء: ٣٦].

فعلى العبد أن يجعل ما بعث الله به رسّله، وأنزل به كتبه هو الحق الذي يجب اتباعه فيصدق بأنه حق وصدق، وما سواه من كلام سائر الناس يُعرض عليه فإن وافقه فهو حق وإن خالفه فهو باطل، وإن لم يعلم هل خالفه أو وافقه، لكون ذلك الكلام مجملاً لا يعرف مراد صاحبه، أو قد عرف مراده ولكن لم يعرف هل جاء الرسول بتصديقه أو تكذيبه؟ فإنه يمسك عنه ولا يتكلم إلا بعلم، والعلم ما قام عليه الدليل، والنافع منه ما جاء به الرسول ﷺ وقد يكون علمٌ عن غير الرسول ﷺ، لكن في الأمور الدنيوية مثل الطب والحساب والفلاحة، أما الأمور الإلهية والمعارف الدينية فهذه العلم فيها ما أخذ عن الرسول لا غير...

ولا يثبت إسلام من لم يسلم لنصوص الوحيين، وينقاد إليها، ولا يعترض عليها، ولا يعارضها برأيه ومعقوله وقياسه.

روى البخاري عن الإمام محمد بن شهاب الزهري<sup>(١)</sup> رحمه الله أنه قال:

---

(١) محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب أبو بكر القرشي الزهري المدني نزيل الشام، ولد سنة ٥٨هـ، الإمام العلم حافظ زمانه، ومن أول من دون الحديث، وأحد كبار الحفاظ والفقهاء، تابعي، وأخذ عن سعيد بن المسيب، ثم رحل إلى الشام، من أقواله: «لا يرضي الناس قولٌ عالم لا يعمل، ولا عمل عامل لا يعلم»، توفي سنة ١٢٤هـ انظر: سير أعلام النبلاء ٣٢٦/٥، ومعجم الأعلام ص ٧٩٦.

«من الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التسليم»<sup>(١)</sup> وهذا كلام جامع نافع.

فأمر الإيمان بالله واليوم الآخر إما؛ أن يكون الرسول الله قد تكلم فيه بما يدل على الحق أم لا، والثاني باطل، وإن كان قد تكلم على الحق بالفاظ مجملة محتملة فما بلغ البلاغ المبين، وقد شهد له ﷺ خيرُ القرون بالبلاغ المبين، وأشهد الله عليهم في الموقف الأعظم، فمن يدعي أنه ﷺ في أصول الدين لم يبلغ البلاغ المبين، فقد افترى على الرسول ﷺ.

ولا شك أن من لم يُسلم للرسول ﷺ، نقصَ توحيدَهُ فإنه يقول برأيه وهواه، أو يقلد ذا رأي وهوى بغير هدى من الله، فينقص توحيدَهُ بقدر خروجه عما جاء به الرسول ﷺ فإنه قد اتخذ في ذلك إلهاً غير الله، قال تعالى الله: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ﴾ [الْبَاقِيَّةُ: ٢٣] أي عَبْدَ ما تهواه نفسه<sup>(٢)</sup>.

وقد وقع الفساد في الدين بسبب عدم التسليم لنصوص الرُحيين، ووجد من الناس من يقدمون آراءهم وأقيستهم الفاسدة، وطرقهم المنحرفة على ما جاء به الرسول ﷺ، المتضمنة تحليل ما حرم الله ورسوله، وتحريم ما أباحه، واعتبار ما ألغاه، وإلغاء ما اعتبره، وإطلاق ما قيده، وتقيد ما أطلقه ونحو ذلك.

وهناك من يعترض على حقائق الإيمان والشرع بالأذواق والمواجيد والخيالات والكشوفات الباطلة الشيطانية؛ المتضمنة شرع دين لم يأذن به الله، وإبطال دينه الذي شرعه على لسان نبيه ﷺ، والتعوض عن حقائق الإيمان بخدع الشيطان، وحفظ النفس<sup>(٣)</sup>.

وداءُ تقديم الآراء على النصوص من الأدواء القديمة في الأمة أيضاً؛ وقد نشأ مع نشوء البدع، فترى المبتدع يقدم رأيَ شيخه وإمامه على النص الشرعي، ثم يؤول النص الشرعي أو قل يحرفه، فالأصل عندهم قولُ الشيخ والنص تابع له<sup>(٤)</sup>.

---

(١) ذكره البخاري عن الزهري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَا بَلَّتْ رِسَالَتُكُمْ﴾ [المائدة: ٦٧] الفتح ٥٠٣/١٣.

(٢) باختصار من شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٢٨ - ٢٣٧.

(٣) انظر: المصدر السابق.

(٤) «قال أبو بكر بن أبي داود:

فالواجب على المسلم أن يدع الهوى جانباً، وأن يعمل بما يجب عليه تجاه قوله ﷺ تصديقاً وخضوعاً وانقياداً وتسليماً.

---

ودع عنك آراء الرجال وقولهم      فقول رسول الله أذكى وأشرح  
وعن الحسن قال: إنما أهلك من كان قبلكم حين تشعبت بهم السبل، وحادوا عن  
الطريق، فتركوا الآثار، وقالوا في الدين برأيهم، فضلوا وأضلوا» انظر: الموافقات ٢ / ٣٣٤.  
وقال شيخ الإسلام: «ومن نصب شخصاً كائناً من كان؛ فوالى وعادى على موافقته في  
القول والفعل فهو: (من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً)» مجموع الفتاوى ٢٠ / ٨ - ٧.

## المبحث الرابع وجوب طاعته ﷺ، والاستجابة لأمره ونهيه

إن من أكثر الحقوق التي دعا إليها القرآن طاعة رسوله ﷺ؛ إذ هي ثمرة إرسال الرسول، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ۝﴾ [النساء: ٦٤].

- وبين سبحانه أن طاعة رسوله ﷺ طاعة له، كما قال تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

- وكثيراً ما قرنت طاعته سبحانه بطاعة رسوله ﷺ كما قال سبحانه: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ قُلْتُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ۝﴾ [آل عمران: ٣٢].  
وقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝﴾ [آل عمران: ١٣٢].

وقال تعالى: ﴿... فَأَتَقُوا اللَّهَ وَاصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۝﴾ [الأنفال: ١].  
وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ۝﴾ [الأنفال: ٢٠].

وقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ۝﴾ [الأنفال: ٤٦].

ولو تأملنا في دعوة الرسل لأقوامهم لوجدنا أن كل رسول يأتي قومه:

- ١ - آمراً لهم بتقوى الله وحده لا شريك له.
- ٢ - آمراً بطاعة الرسول الذي أرسل إليهم.
- ٣ - متبرئاً من المطامع الدنيوية.
- ٤ - محذراً من الضلال الذي كان قومه عليه.

وقد ظهر هذا الأمر جلياً في سورة الشعراء وقد ذكرت فيها دعوات كل من هود، وصالح، ولوط، وشعيب - عليهم الصلاة والسلام - ، قال تعالى: كَذَبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ مَائَةٍ تَبْنُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَارِعَ لَكُمْ تَخْلُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ ﴿١٣١﴾ [الشعراء: ١٢٣ - ١٣١]

﴿ كَذَبَتْ ثمودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتَعْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمَانٌ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنجُونَ مِنَ الْجِبَالِ الَّتِي هُنَا قُورَيْنِ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [الشعراء: ١٤١ - ١٥٢].

﴿ كَذَبَتْ قَوْمٌ لوطُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ ﴿١٦٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٩﴾ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٧٠﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾ [الشعراء: ١٦٠ - ١٦٦].

﴿ كَذَبَ أَصْحَابُ نِيعَةَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ﴾ [الشعراء: ١٧٦ - ١٨١]

فمن أراد الإصلاح والدعوة إلى الله فعليه باتباع طريق الأنبياء، والسير على نهجهم؛ بالأمر بتقوى الله وحده لا شريك له، والأمر بطاعة الرسول محمد ﷺ إذ طاعته طاعة لله، ثم يبين للناس بعمله وحاله قبل مقاله أن دعوته خالصة لوجه الله لا لعرض من الدنيا، ثم يحذر الناس من الضلالات والبدع والانحرافات المتفشية في أمته.

وبين سبحانه وتعالى أن من شأن المؤمنين مع أحكام الرسول ﷺ وأوامره أن يقولوا: سمعنا وأطعنا، كما قال تعالى ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [التور: ٥١].

وبين سبحانه أن طاعة غيره في الشرك والفسق والظلم هي سبب الضلال في الدنيا، والعذاب الأليم في الآخرة كما قال سبحانه: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ أَنْتُمْ بِذُنُوبِكُمْ أَسْتُ

اللَّهُ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفُتْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَيْكَ أَوَّلِيَّائِهِمْ لِيُجْدِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ [الأنعام: ١٢١].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ ثُفِّلَتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾ ﴿١٢٢﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ ﴿١٢٣﴾ [الأحزاب: ٦٦ - ٦٧].

وقال تعالى: ﴿وَلَنْ تُلَاقَ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ ﴿١١٦﴾ [الأنعام: ١١٦].

ونهى سبحانه عن الطاعة في المعصية، كما قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٨﴾ [العنكبوت: ٨].

### عاقبة طاعة الرسول ﷺ:

بين سبحانه عاقبة من أطاع وأطاع رسوله ﷺ بالجزاء الحسن بما يلي:

١ - الفوز العظيم لمن أطاع وأطاع رسوله، ودخول الجنات التي تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَدْخُلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ﴿١٣﴾ [النساء: ١٣].

٢ - أن من أطاع الله ورسوله فهو في معية خير الناس وأحسنهم رفيقاً؛ من الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، كما قال سبحانه: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ ﴿٧١﴾ [النساء: ٦٩].

٣ - أن من أطاع وأطاع رسوله فليُبشِّر بالهداية والفوز العظيم، كما قال سبحانه: ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ ﴿٧١﴾ [الأحزاب: ٧١].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ ﴿٥٢﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَنْ أَمَرْتَهُمْ لِيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ [النور: ٥٢ - ٥٤].

## في الاستجابة لأمره حياة القلوب:

والله عز وجل أمرنا أن نستجيب لأوامره سبحانه، وأوامر رسوله ﷺ، فإن في الاستجابة لله ورسوله ﷺ حياة القلوب، وكلما كانت الاستجابة لله ورسوله أكثر كانت حياة القلوب أعظم، ولذلك فإن الرجل المُعرض عن طاعة الله سبحانه وطاعة رسوله ﷺ لا يميز بين المعروف والمنكر لمرض قلبه أو موته إذا كان مُعرضاً بالكلية.

فهل هناك فائدة أعظم من هذه الفائدة، فإن حياة القلوب تورث الصلاح والاستقامة قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنفال: ٢٤].

وليعلم العبد أنه إذا لم يستجب لأمر الله ورسوله ﷺ فإنه على خطر عظيم؛ فإما أن يحول الله بين المرء وقلبه فلا يهتدي للطاعة مرة أخرى كما في الآية السابقة، وإما أن يَضِلَّ ويسقط في طريق الغواية والشقاء بسبب اتباعه لهواه بغير هدى من الله، ولا أحد حينئذ أضل حالاً منه، كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [الفصص: ٥٠].

ونختم هذا المبحث بطائفة صالحة من الأحاديث الشريفة التي تبين أهمية طاعة الرسول ﷺ؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى، قالوا: يا رسول الله ومن أبى؟ قال: من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى»<sup>(١)</sup>.

جاءت الملائكة إلى النبي ﷺ وهو نائم فضربوا له مثلاً فقالوا: «مثله كمثل رجل بنى داراً وجعل فيها مأدبة وبعث داعياً، وفمن أجاب الداعي دخل الدار، وأكل من المأدبة، ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار، ولم يأكل من المأدبة، فقالوا: أولوها له يفقهها، فقال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن الرسول ﷺ ٢٤٩/١٣ - ٢٥٠ ح ٧٢٨٠.



فقالوا: فالدار الجنة، والداعي محمد ﷺ، فمن أطاع محمداً ﷺ فقد أطاع الله، ومن عصى محمداً ﷺ فقد عصى الله، ومحمد ﷺ فُزق بين الناس<sup>(١)</sup>

وبين ﷺ مثل من أطاعه يوم أن دعا إلى الإسلام ومثل من عصاه فقال: «إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به، كمثّل رجل أتى قوماً فقال: يا قوم إني رأيت الجيش بعيني، وإني أنا النذير العريان، فالتّجاء فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا، فانطلقوا على مهلهم فنجوا وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم، فصبّحهم الجيش، فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثل من أطاعني فاتّبع ما جئت به، ومثل من عصاني وكذب ما جئت به من الحق»<sup>(٢)</sup>.

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «دعوني ما تركتكم، فإنما أهلك من كان قبلكم سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم»<sup>(٣)</sup>.

فالنهي بمقدور كل عبد تركه، وأما الأمر فبحسب الاستطاعة وهذا من يسر الإسلام.

(١) المصدر السابق ح ٧٢٨١.

(٢) المصدر السابق ح ٧٢٨٣.

(٣) المصدر السابق ح ٧٢٨٨.

## المبحث الخامس

### وجوب التأسي به ﷺ والأخذ بهديه

كان من فضل الله على الناس أن جعل لهم قدوة يتبعونها، وأسوة يأخذون بهديها، ويحققون بمتابعتها أحسن الأعمال، ويصوبون على نهجها عبادتهم لله، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ۖ﴾ [الأحزاب: ٢١].

قال مالك بن الحويرث<sup>(١)</sup>: «أتينا إلى النبي ونحن شببة متقاربون فأقمنا عنده عشرين يوماً وليلة، وكان رسول الله ﷺ رحيماً رفيقاً، فلما ظن أنا قد اشتهدنا أهلنا - أو اشتقنا - سألنا عن تركنا بعدنا، فأخبرناه، قال: «ارجعوا إلى أهليكم، فأقيموا فيهم وعلموهم ومروهم... وصلوا كما رأيتموني أصلي، فإذا حضرت الصلاة فليؤذن أحدكم، وليؤمكم أكبركم»<sup>(٢)</sup> وقال ﷺ: «خذوا عني مناسككم»<sup>(٣)</sup>.

فكان ﷺ حريصاً على أن يتبعه المسلمون لأن هديه أكمل الهدى فهو أعلم الناس بربه، وهو أخشاهم وأتقاهم لله، وكل طريقة غير طريقة الرسول ضلال. مع ضرورة مراعاة اختلاف أفعال الرسول ﷺ، واختلاف دلالتها على الأحكام الشرعية أيضاً، ولا يتسع المجال للدخول في هذا الموضوع، وهنا تظهر أهمية علم أصول الفقه، وكتبه مظنة التفصيل في أفعاله ﷺ، وقد ذكر القرطبي بصورة مجملة أن الاقتداء به ﷺ في الأمور الدينية واجب،

---

(١) مالك بن الحويرث بن أشيم بن زياد أبو سليمان الليثي، سكن البصرة، وله أحاديث، مات بالبصرة سنة ٧٤هـ. الإصابة في تمييز الصحابة ٣/٣٢٢ رقم ٧٦١٩

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الأذان، باب الأذان للمسافرين... ١١١/٢ ح ٦٣١.

(٣) رواه مسلم بلفظ: «لتأخذوا مناسككم» في صحيحه، كتاب الحج، باب استحباب رمي جمره العقبة يوم النحر راكباً ح ٣١٠.

وأما في الأمور الدنيوية فمستحب<sup>(١)</sup>.

وقد جاء في كتب السنة والسير ﷺ تفاصيل كثيرة عن حياته ﷺ بحيث يمكن للعبد أن يتابع الرسول ﷺ ويقتدي بهديه في سائر أعماله، ابتداء بكيفية صلاته، وصيامه، وحجه، وانتهاء بكيفية أكله، ومشيه، ونومه، وهذه نعمة عظيمة، فقد فَقَدَ غيرُ المسلمين تلك القدوة فضلوا عن سواء السبيل.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ  
الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَبِيرًا ۝﴾ [الأحزاب: ٢١].

ذكر المفسرون أن هذه الآية عتاب للذين تخلفوا عن القتال مع رسول الله ﷺ، وكان لهم في رسول الله قدوة فيه، حيث بذل نفسه وشُج وجهه، وكسرت رباعيته، وقتل أصحابه لنصرة دين الله، ومعنى «الأسوة» القدوة<sup>(٢)</sup>.

قال الشيخ السعدي: «واستدل الأصوليون في هذه الآية على الاحتجاج بأفعال الرسول ﷺ، وأن الأصل أنه أسوة أمته في الأحكام، إلا ما دل الدليل الشرعي على الاختصاص به.

فالأسوة نوعان: أسوة حسنة، وأسوة سيئة.

فالأسوة الحسنة؛ في الرسول، فإن المتأسي به سالك الطريق الموصل إلى كرامة الله، وهو الصراط المستقيم، وأما الأسوة بغيره إذا خالفه فهو الأسوة السيئة كقول المشركين حين دعته الرسل للتأسي بهم: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا مُّآبَةً عَلَيْنَا أُمَّةً وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ ۝﴾ [الزخرف: ٢٢]<sup>(٣)</sup>.

وكان رسول الله ﷺ حريصاً على متابعة الصحابة له، فقد كانوا معه في سفر، فناموا حتى فاتتهم صلاة الفجر، ثم انتقل من مكانه، وصلّاها بهم بعد ارتفاع الشمس، فجعل بعض الصحابة يهمس إلى بعض: «ما كفارة ما صنعنا بتفريطنا في صلاتنا؟» ثم قال ﷺ: «أما لكم في أسوة؟؟» أي في قضاء الصلاة<sup>(٤)</sup>. وإن قوماً سألوا عن عبادة النبي ﷺ فكانهم تقالوها، فأراد أحدهم أن يقوم

(١) انظر: تفسير القرطبي ١٤/١٠٣.

(٢) انظر: المصدر السابق ١٤/١٠٢.

(٣) تفسير السعدي ص ٦٠٩.

(٤) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب قضاء الفائتة واستحباب تعجيله ٥/١٨٦.

الليل فلا ينام، والآخر أن يصوم فلا يفطر، والثالث أن لا يتزوج النساء، فلما علم النبي ﷺ بأمرهم، قال: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ قالوا: نعم. قال: «ولكنني أقوم وأنام، وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»<sup>(١)</sup>.

وقد جاءت فاطمة - رضي الله عنها - بنت رسول الله ﷺ تسأل أبا بكر ميراثها من رسول الله ﷺ فقال أبو بكر: «إني سمعت رسول الله يقول: «لا نورث ما تركناه صدقة» إنما يأكل آل محمد في هذا المال، وإني والله لا أدع أمراً رأيت رسول الله ﷺ يصنعه فيه إلا صنعته»، وفي رواية أخرى قال أبو بكر: «لست تاركاً شيئاً كان رسول الله ﷺ يعمل به إلا عملته، وإني أخشى إن تركت شيئاً من أمره أن أزيغ»<sup>(٢)</sup>.

وقال يعلى بن أمية: ألا تستلم هذين؟ يعني الركنين من الكعبة اللذين من جهة الحجر، قال عمر: «ألم تطف مع رسول الله ﷺ؟ قال: بلى قال: أليس لك في رسول الله أسوة حسنة؟ قال: بلى. قال: فانفذ عنك»<sup>(٣)</sup>

وأكتب عمرُ على الحجر الأسود يُقبله فقال: «إني لأعلم أنك حجر، ولو لم أر حبيبي رسول الله ﷺ قَبْلَكَ ما قبلُك، أو استلمك ما استلمتُك ولا قبلُك، لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة»<sup>(٤)</sup>.

ولما سئلت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن القُبلة للصائم، قالت: «كان رسول الله ﷺ يفعله، ولكم في رسول الله أسوة حسنة»<sup>(٥)</sup>.

وسئل ابن عمر - رضي الله عنهما -: «عن رجل طاف بالبيت في عمرة ولم يَطُف بين الصفا والمروة؛ أيأتي امرأته؟ فقال: قدم النبي ﷺ فطاف بالبيت سبعا، وصلى خلف المقام ركعتين، وطاف بين الصفا والمروة سبعا، وقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة»<sup>(٦)</sup>.

وعن سعيد بن يسار أنه قال: «كنت أسير مع ابن عمر بطريق مكة، قال

(١) المصدر السابق ١٧٦/٩.

(٢) رواه أحمد في المسند ٦٠٤/١.

(٣) المصدر السابق ٤٢٢/٤.

(٤) المصدر السابق ٢١/١، وقال أحمد شاكر: «صحيح وله طرق كثيرة».

(٥) المصدر السابق ١٩٢/٦.

(٦) رواه البخاري في صحيحه، كتاب العمرة، باب متى يحل المعتمر ٦١٥/٣ ح ١٧٩٣.

سعيد: فلما خَشِيتَ الصبح نزلت فأوترت، ثم أدركته فقال لي ابن عمر: أين كنت؟ قلت له: خشيت الفجر فنزلت فأوترت، فقال ابن عمر: أليس لك في رسول الله أسوة حسنة؟ فقلت: بلى والله. قال: إن رسول الله ﷺ كان يوتر على البعير<sup>(١)</sup>.

وأراد سعد بن هشام بن عامر أن يغزو في سبيل الله فطلق امرأته وعزم على أن يبيع عقاراً له بالمدينة ليشتري به سلاحاً وخيلاً ويجاهد به الروم حتى يموت: «فلما قدم المدينة لقي أناساً من أهل المدينة فنَهَوْه عن ذلك، وأخبروه أن رهطاً ستة أرادوا ذلك في حياة نبي الله ﷺ فنهاهم نبي الله ﷺ وقال: «أليس لكم في أسوة» فلما حدثوه بذلك؛ راجع امرأته، وأشهد على رجعتها، فأتى ابن عباس فسأله عن وثر رسول الله ﷺ فقال: ألا أدلك على أعلم أهل الأرض بوثر رسول الله ﷺ. قال من؟ قال: عائشة... الحديث<sup>(٢)</sup>.

### الرسول ﷺ أعلمنا واتقانا لله:

فكل طريقة غير هديه ضلال؛ فمن أراد سلوك طريق التقوى لله فعليه باتباع هدي المصطفى

عن عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ دخل عليها وعندها امرأة. قال: من هذه؟ قالت: فلانة - تذكر من صلاتها<sup>(٣)</sup> - قال: «مَهْ»<sup>(٤)</sup>، عليكم بما تطيقون<sup>(٥)</sup>... الحديث<sup>(٦)</sup>، وعنهما رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أمرهم أمرهم من الأعمال بما يطيقون... ثم يقول: إن اتقاكم وأعلمكم بالله أنا<sup>(٧)</sup>.

(١) رواه مسلم في صحيحه، باب جواز صلاة النافلة على الدابة في السفر حيث توجهت ٥/ ٢٠٩.

(٢) رواه مسلم في صحيحه، باب صلاة الليل وعدد ركعات النبي ﷺ في الليل ٢٥/ ٦٠٠ - ٢٨.

(٣) أي لا تنام تصلي طوال الليل.

(٤) اسم سمي به الفعل مبني على السكون؛ بمعنى اكفف، وقيل أصل الكلمة «ما هذا؟» كالانكار.

(٥) أي اشتغلوا من الأعمال بما تستطيعون المداومة عليه.

(٦) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أحب الدين إلى الله أدومه ١/ ١٠١ ح ٤٣.

(٧) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: «أنا أعلمكم بالله» ١/ ٧٠ ح ٢.

فالرسول ﷺ أعلم الأمة بالله وبما يُرضي الله ومحاب الله، وهو في الوقت نفسه أخشى الناس كلهم لله وأتقاهم له، فلا يمكن بحال من الأحوال أن تكون هناك طريقة أفضل من طريقته ﷺ.

وعنها رضي الله عنها قالت: «صنع رسول الله ﷺ أمراً ترخص فيه، فبلغ ذلك ناساً من أصحابه، فكانهم كرهوه وتنزهوا عنه، فبلغه ذلك فقام خطيباً، فقال: «ما بال رجال بلغهم عني أمر فكرهوه وتنزهوا عنه، فوالله لأنا أعلمهم بالله، وأشدهم لهم خشية»، وفي رواية: «فغضب حتى بان الغضب في وجهه»، ثم قال: «ما بال أقوام يرغبون عما رخص لي فيه، فوالله لأنا أعلمهم بالله وأشدهم له خشية»<sup>(١)</sup>. قال النووي: «وفيه الحث على الاقتداء به ﷺ...»<sup>(٢)</sup>. ولذلك أمر الله باتباع الأنبياء والاقتداء بهم إذ هديهم أكمل الهدى وهم أعلم الناس به سبحانه وأخشاهم له، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَّبِعُوا النَّاسَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْهُمْ أَقْدَمَ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنعام: ٩٠].

**علامة محبة العبد لله؛ باتباع الرسول محمد ﷺ واتباع الرسول هو طريق الفوز بمحبة الله سبحانه:**

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران: ٣١].

سبب نزول هذه الآية الكريمة موافق تماماً لما يدعيه أقوام في العصور الحالية من الزعم أنهم يحبون الله دون تصديق لهذا الحب، حيث زعم «قوم - على عهد رسول الله -: إنا نحب ربنا، فأمر الله جل وعلا نبيه محمداً ﷺ أن يقول لهم: إن كنتم صادقين فيما تقولون فاتبعوني، فإن ذلك علامة صدقكم فيما قلتم من ذلك»<sup>(٣)</sup>.

(١) رواهما مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب وجوب اتباعه ١٥/١٠٦ - ١٠٧.

(٢) المصدر السابق.

(٣) تفسير الطبري، وقيل في سبب نزولها: «بل هذا أمر من الله نبيه محمداً أن يقول =

وقال السعدي: «هذه الآية هي الميزان التي يعرف بها من أحب الله حقيقة، ومن ادعى ذلك مجرد دعوى مجردة، فعلامة محبة الله؛ اتباع محمد ﷺ الذي جعل متابعتة وجميع ما يدعو إليه طريقاً إلى محبته ورضوانه، فلا تنال محبة الله ورضوانه وثوابه إلا بتصديق ما جاء به الرسول من الكتاب والسنة، وامتنال أمرهما واجتناب نهيهما.

فمن فعل ذلك أحبه الله، وجازاه جزاء المحبين، وغفر له ذنوبه، وستر عليه عيوبه.

فكانه قيل؛ ومع ذلك، فما حقيقة اتباع الرسول وصفتها؟ فأجاب بقوله: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ قُلُوا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢] (١)

وقد جعل الله من يتبع الرسول في صنف مقابل لمن ينقلب على عقبيه، ومن هنا تعلم خطورة عدم اتباع الرسول، وقد كان تحويل القبلية امتحاناً لمعرفة هؤلاء وهؤلاء، فمن كان متبعاً للرسول زاد إيمانه، وارتفعت درجته، ومن أعرض عن اتباعه انقلب على عقبيه واتبع هواه، قال تعالى: ﴿... وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣].

#### أما جزاء المتبعين للرسول فهو أعظم الجزاء:

يكفي أن الله قرنهم مع النبي ﷺ في الدخول في كفاية الله وحمايته ونصرته، قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤].  
فإن قام المؤمنون باتباع الرسول فلا بد أن يكفيهم الله ما أهمهم من أمور الدين والدنيا

وأمر الله نبيه محمداً ﷺ خير خلق الله أجمعين أن يخفض جناحه لمن اتبعه من المؤمنين، وفي هذا مكرمة وأية مكرمة: ﴿وَلَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥].

وقد لان رسول الله ﷺ لأتباعه، وكان معهم في غاية التودد والتحبب، وفي

= لوفد نجران الذي قدموا عليه من النصارى: إن كان الذي يقولونه في عيسى من عظيم القول إنما يقولونه تعظيماً لله وحباً له، فاتبعوا محمداً ﷺ ٢٣٢/٣ - ٢٣٣، وانظر: أسباب نزول القرآن، للواحدي، تحقيق كمال زغلول ص ١٠٥. وانظر: الدر المثور، للسيوطي ١٧/٢.  
(١) تفسير السعدي ص ١٠٥.

ذَلِكَ يَقُولُ سُبْحَانَهُ: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَأْتِ بِآيَاتٍ لَخَافَتْكُمْ كُرُوسُهُمْ يَوْمَ السَّاعَةِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

هكذا كان خلق رسول الله ﷺ مع أتباعه وهو رسول الله له المكانة العظمى عند ربه، ومع ذلك كان يعامل أتباعه بتلك الخصال الجميلة والأخلاق العالية الكريمة؛ وبناء عليه فالواجب على أتباعه حينئذ أن يكونوا على أعلى المستويات من الأخلاق الكريمة والمعاملة الحسنة اقتداء بالرسول الكريم ﷺ، وهذا هو اللائق بمن يدعي اتباع الرسول ﷺ، وبذلك نعلم ضلال أولئك الذين امتلأت قلوبهم بالحق على إخوانهم المؤمنين، وارتسمت على وجوههم علامات الشراسة والتجهم في وجوه إخوانه من المسلمين، وظهرت على أقوالهم وأعمالهم الغلظة والعنف، ثم يدعون أنهم على هدي الرسول ﷺ؟!!

وفي ذلك يقول الشيخ السعدي عمن هذه حاله وأخطأ في فهمه لمتابعة الرسول فساء خلقه مع الناس ويظن أنه على الحق: «وقد حصل من هذه المعاملة من المفساد وتعطيل المصالح ما حصل، ومع ذلك تجده محتقراً لمن اتصف بصفات الرسول الكريم، وقد رماه بالنفاق والمداينة... فهل يُعَدُّ هذا إلا من جهله وتزين الشيطان وخدعه له، ولهذا قال [بعد قوله]: ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِئِنْ أَتَبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [١٥٩] قال: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا فَعَلُوا﴾ [الشعراء: ٢١٥ - ٢١٦].

﴿فَإِنْ عَصَوْكَ﴾ في أمر من الأمور، فلا تتبرأ منهم، ولا تترك معاملتهم بخفض الجناح، ولين الجانب، بل تبرأ من عملهم، فعظمهم عليه، وانصحبهم، وابذل قدرتك في ردهم عنه وتوبتهم منه، وهذا الدفع؛ احتراز وهم من يتوهم أن قوله ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ﴾ للمؤمنين يقتضي الرضى بجميع ما يصدر منهم، ماداموا مؤمنين، فدفع هذا، والله أعلم<sup>(١)</sup>.

والمتبعون للرسول ﷺ يورثهم الله هداية في السبيل الذي يسرون عليه، وبصيرة في طريق الدعوة إلى الله؟ لأنهم على هدي الرسول ﷺ قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

(١) تفسير السعدي ص ٥٤٨.



﴿١٥٨﴾ [يوسف: ١٠٨].

اتباع الرسل ﷺ هو طريق الهداية والبعد عن الضلالة:

قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَّبِعُوا النَّاسَ فِي رِسُولِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَمَّا جَاءَ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف: ١٥٨].  
وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا يَنْقُورُ اتَّبِعُوا سَبِيلَ الرَّسُولِ ﴿١٥٨﴾﴾ [غافر: ٣٨].

﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَنْقُورُ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [يس: ٢٠] اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْتَلْزِمُ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [يس: ٢١].  
وبقدر ما تكون المتابعة للرسول ﷺ تكون الهداية في الأقوال والأعمال.

## المبحث السادس

### الحذر من: مخالفة أمره ﷺ والاقتداء بغيره

إن المؤمنين الصادقين في إيمانهم إذا كانوا مع رسول الله ﷺ على أمر جامع يجتمع له - كالصلاة الجامعة والجهاد ونحوهما - حضروا والتزموا أمر رسول الله ﷺ ولا ينصرفون عنه حتى يستأذنه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوا الْإِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾

ثم قال تعالى بعد الآية السابقة: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾ [التور: ٦٣].

ذهب ابن جرير الطبري في تفسير صدر الآية السابقة: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ إلى أن المقصود بالدعاء هنا: دعاء الرسول ﷺ على من يتسلل خارجاً دون إذن من النبي، فالآية نهى عن أن يعرض المرء نفسه لدعاء الرسول عليه فإن دعاءه عظيم الشأن ليس كدعاء بعض الناس على بعض فدعاؤه مجاب وهو مذهب ابن عباس في الآية<sup>(١)</sup>.

وقال آخرون بأن المراد بالدعاء هنا: النداء فالآية: «نهى من الله أن يذعوا [ينادوا] رسول الله بخلط وجفاء، وأمرهم أن يدعوه بليين وتواضع»<sup>(٢)</sup> أي أن يوقره ﷺ ويفخموه ويعظموه في أثناء ندائهم له.

والله سبحانه وتعالى لا يخفى عليه الذين يتسللون خفية من أمر رسول الله ﷺ، ويروغون ويستتر بعضهم ببعض، لكيلا يراه رسول الله ﷺ، فليتق من

(١) انظر: تفسير الطبري ١٨/١٧٧.

(٢) المصدر السابق.

يفعل ذلك أن تصيبه فتنة، أو يصيبه عذاب أليم؛ فيطبع الله على قلبه، ويكفر به، والعياذ بالله، ودخلت (عن) في الآية لأن معنى الكلام فليحذر الذين يلوذون عن أمره، ويدبرون عنه معرضين: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣] (١).

ولابن عاشور تفسير آخر للمراد بالنهي عن الدعاء في الآية فقال: «والمعنى: لا تجعلوا دعوة الرسول إياكم للحضور لديه مخيرين في استجابتها كما تنخبرون في استجابة دعوة بعضكم بعضاً» (٢).

وفي قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

فسر ابن كثير ﴿أَمْرِهِ﴾ بأنه «سبيله ﷺ، ومنهاجه، وطريقته، وسنته، وشريعته، فتوزن الأقوال والأعمال بأقواله وأعماله فما وافق ذلك قبل، وما خالفه فهو مردود على قائله وفاعله كائناً من كان.. فليحذر وليخش من خالف شريعة الرسول ﷺ ظاهراً وباطناً» ﴿أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي في قلوبهم من كفر، أو نفاق، أو بدعة ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٣).

وقال الله تعالى: ﴿... وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

قال الإمام البخاري: «باب... وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ» وروى حديثاً بإسناده عن عبد الله بن مسعود قال: «لعن الله الواشمات والمتوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن، المغيرات خلق الله، فبلغ امرأة من بني أسد يقال لها أم يعقوب فجاءت فقالت: «إنه بلغني أنك لعنت كيت وكيت، فقال: ومالي لا ألعن مَنْ لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ومن هو في كتاب الله. فقالت: لقد قرأت ما بين اللوحين، فما وجدت فيه ما تقول، قال: لئن كنت قرأته لقد وجدته أما قرأت» ﴿... وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧] قالت: بلى، قال: فإنه

(١) انظر: تفسير الطبري ١٨/١٧٨ ج ١٠، وفتح القدير ٤/٥٨.

(٢) التحرير والتنوير ١٨/٣٠٨.

(٣) تفسير ابن كثير ٣/٣٠٧.

قد نهى عنه»<sup>(١)</sup>

واستدل العلماء بهذا الآية على أهمية الاحتجاج بالسنة المطهرة الشريفة، وفيها الأمر بطاعة الرسول ﷺ فإن أمر بشيء فعلى المسلمين فعله، وإن نهى عن شيء فعلى المسلمين تركه ولو لم يرد في القرآن، فالقرآن نفسه أمر بطاعة الرسول.

### الحذر من التاسي بغيره:

إذا استقر ما مضى من أن قدوتنا وأسوتنا هو رسول الله ﷺ، والله أمرنا بذلك، لأنه أعلمنا وأتقانا وأخسانا الله، كما أمرنا بفعل أوامره وترك نواهيه، وحيث يظهر جلياً استغناء المسلم عن المتابعة المطلقة لغيره ويُسمى من تابع غيره بدون دليل ولا حجة التقليد الأعمى، وقد استدل جماعة من العلماء ممن شددوا على المقلدين للأئمة الأربعة في الفروع بمثل قوله تعالى: ﴿اتَّخِذُوا أَكْبَارَهُمْ زُرْعَتَهُمْ أَزْكِبَا بِنِ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١].

بالرغم من نزول هذه الآية في أهل الكتاب إلا أن ذلك لم يمنعهم كما قال ابن عبد البر: «احتج العلماء بهذه الآيات في إبطال التقليد، ولم يسغهم كفر أولئك [أهل الكتاب] من جهة الاحتجاج بها لأن التشبيه لم يقع من جهة كفر أحدهما، وإيمان الآخر، وإنما وقع التشبيه بين التقليدين، بغير حجة للمقلد، كما لو قلّد رجل فكفر، وقلّد آخر فأذنب، وقلّد آخر في مسألة دنياء فأخطأ وجهها، كان كل واحد ملوماً على التقليد بغير حجة، لأن ذلك تقليد يشبه بعضه بعضاً، وإن اختلفت الآثام فيه قال الله عز وجل: ﴿وَمَا كَانِ اللَّهُ لِيُخِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمَ مَا يَتَفَتُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٥]...»<sup>(٢)</sup>.

وقال الشوكاني: «وفي هذه الآية ﴿اتَّخِذُوا أَكْبَارَهُمْ زُرْعَتَهُمْ أَزْكِبَا بِنِ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] ما يزجر من كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد، عن التقليد في دين الله. وتأثير ما يقوله الأسلاف على ما في الكتاب العزيز والسنة المطهرة.

فإن طاعة المذهب لمن يقتدي بقوله، ويستن بسنته، من علماء هذه الأمة مع مخالفته لما جاءت به النصوص، وقامت به حجج الله وبراهينه، ونطقت به كتبه

(١) في صحيحه، كتاب التفسير ٨/ ٦٣٠ ح ٤٨٨٦.

(٢) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر، تحقيق: أبو الأشبال ص ٩٧٨.

وأنبياؤه؛ هو كاتخاذ اليهود والنصارى للأخبار والرهبان أرباباً من دون الله، للقطع بأنهم لم يعبدوهم بل أطاعوهم، وحرّموا ما حرّموا وحلّلوا ما حلّلوا، وهذا هو صنيع المقلّدين من هذه الأمة، وهو أشبه به من شبه البيضة بالبيضة، والتمرة بالتمرة، والماء بالماء. فيا عباد الله، ويا أتباع محمد ﷺ ما بالكم تركتم الكتاب والسنة جانباً، وعمدتم إلى رجال هم مثلكم... ففعلتم بما جاؤا به من الآراء التي لم تعمد بعماد الحق، ولم تعضد بعضد الدين ونصوص الكتاب والسنة، تنادي بأعلى نداء وتصوّت بأعلى صوت بما يخالف ذلك وبيّانه، فأعرتموها آذاناً صمّاً، وقلوباً غلفاً، وأفهاماً مريضة، وعقولاً مهیضة، وأذهاناً كليلّة، وخواطر عليلّة، وأنشدتم بلسان الحال:

وما أنا إلا من غُزِيّة إن غوت غويت وإن ترشد غُزِيّة أرشد...  
واستبدلوا بأقوال من تدعونهم بأئمتكم وما جاؤوكم به من الرأى بأقوال إمامكم وإمامهم، وقدوتكم وقدوتهم، وهو الإمام الأول محمد بن عبد الله ﷺ، اللهم هادي الضال، ومرشد التائه، موضح السبيل، اهدنا للحق، وأرشدنا للصواب وأوضح لنا منهج الهداية<sup>(١)</sup>.

وابن عبد البر والشوكاني رحمهما الله في كلامهما السابق يخاطبان المقلدة لأمة المذاهب الفقهية في الدين، فكيف لو علّمّا أن من المسلمين اليوم من يقتدي بمن هم على غير سبيل المؤمنين.

\* ومن العبارات المشهورة ذات المعاني المحمودّة عند السلف في هذا المقام:  
- قول مجاهد: «ليس أحد من خلق الله إلا وهو يؤخذ من قوله ويترك إلا النبي ﷺ».

- وفي رواية أخرى عنه: «ليس أحد بعد رسول الله ﷺ إلا وهو يؤخذ من قوله ويترك»<sup>(٢)</sup>.

- وقال الإمام مالك: «كل يؤخذ من قوله ويترك إلا صاحب هذا القبر» وأشار إلى قبر رسول الله ﷺ<sup>(٣)</sup>.

(١) فتح القدير ٣٥٤/٢.

(٢) رواها ابن عبد البر باسناده عن مجاهد في جامع بيان العلم وفضله ص ٩٢٥ - ٩٢٦.

(٣) البداية والنهاية، لابن كثير ١٣٩/١٤.

- وقال الإمام أحمد: «لا تقلّد دينك الرجال فإنهم لن يسلموا من أن يغلطوا»<sup>(١)</sup>.

وهذه العبارات تحذر من متابعة غير الرسول ولو كان من العلماء بغير حجة ولا برهان، لأن العصمة في الدين منتفية عن غير الأنبياء والمرسلين، وأسلم الطرق وأعظمها، وأعلمها، وأحكمها، وأحبها إلى الله للسير على الصراط المستقيم هو متابعة هدي المصطفى الأمين ﷺ.

---

(١) مجموع الفتاوى ٢٠/٢١٢.

## المبحث السابع لزوم محبته ﷺ

الأدلة عليها:

قال تعالى: ﴿قَدْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ  
اَقْتَرَبْتُمْوهَا وَبَنَادِرٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ آلِهِ وَرَسُولِهِ  
وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَكُمُ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾  
[التوبة: ٢٤].

قال القاضي عياض: «فكفى بهذا حصناً، وتنبيهاً، ودلالة، وحجة على إلزام  
محبته، ووجوب فرضها، وعظم خطرها، واستحقاقها له ﷺ؛ إذ قرع تعالى من  
كان ماله وأهله، وولده أحب إليه من الله ورسوله وأوعدهم بقوله تعالى: ﴿فَتَرَبَّصُوا  
حَتَّى يَأْتِيَكُمُ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾ ثم فسقهم بتمام الآية، وأعلمهم أنهم ممن ضل ولم يهده  
الله»<sup>(١)</sup>.

قال ابن كثير: «أي إن كانت هذه الأشياء «أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد  
في سبيله فتربصوا»: أي فانتظروا ماذا يحل بكم من عقابه ونكاله بكم»<sup>(٢)</sup>.

وقال القرطبي: «وفي الآية دليل على وجوب حب الله ورسوله صلى الله عليه  
وسلم ولا خلاف في ذلك، وأن ذلك مقدم على كل محبوب»<sup>(٣)</sup>.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال:

«جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله متى الساعة؟ قال: وما  
أعددت للساعة؟ قال: «حب الله ورسوله» قال: «فإنك مع من أحببت». قال أنس

(١) الشفاء بتعريف حقوق المصطفى ٥٦٣/٢

(٢) تفسير ابن كثير ٣٤٢/٢

(٣) تفسير القرطبي ٩٥/٨

رضي الله عنه: «فما فرحنا بعد الإسلام فرحاً أشد من قول النبي ﷺ: «فإنك مع من أحببت» قال أنس رضي الله عنه: «فأنا أحب الله ورسوله، وأبا بكر وعمر - رضي الله عنهما - فأرجو أن أكون معهم، وإن لم أعمل بأعمالهم»<sup>(١)</sup>  
وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين»<sup>(٢)</sup>.

قال ابن حجر: «وذكر الوالد والولد أدخل من المعنى؛ لأنهما أعز على العاقل من الأهل والمال، بل ربما يكونان أعز من نفسه... كأنه قال أحب عليه من أعزته»<sup>(٣)</sup>

وعن أنس عن النبي ﷺ قال: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار»<sup>(٤)</sup>.

وقال عمر رضي الله عنه: «كنا مع النبي ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال له عمر: «لأنت يا رسول الله أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي، فقال النبي ﷺ: لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك، فقال له عمر: فإنك الآن والله أحب إلي من نفسي. فقال: الآن يا عمر»<sup>(٥)</sup>. أي الآن كمل إيمانك.

- 
- (١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب ح ٢٦٣٩، وانظر الفتح ٥٥٣/١٠.  
(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب حب الرسول ﷺ من الإيمان ٥٨/١ ح ١٤١٥. ورواه مسلم بتقديم الولد على الوالد، كتاب الإيمان، باب وجوب محبة النبي ﷺ أكثر من الأهل والولد والوالد والناس أجمعين، وإطلاق عدم الإيمان على من لم يحبه هذه المحبة ١٥/٢.  
(٣) انظر: الفتح ٥٩/١.  
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان ٦٠/١ ح ١٦، ٢١، ٦٠٤١، ٦٩٤١. ورواه مسلم بنحوه، كتاب الإيمان، باب وجوب محبة النبي ﷺ أكثر من الأهل والولد والوالد والناس أجمعين، وإطلاق عدم الإيمان على من لم يحبه هذه المحبة ١٣/٢.  
(٥) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان والنذور، باب كيف كانت يمين النبي ﷺ ١١/١٢٣ ح ٦٦٣٢.



## المراد بمحبته ﷺ

بعد اطلاعي على أقوال العلماء<sup>(١)</sup> في المراد بمحبته خلصت إلى ما يلي:

إن النفس تميل إلى ما تنتفع وتستلذ به، وكلما زاد الانتفاع - سواء كان مادياً أو معنوياً - من شيء زاد ميل النفس إليه وتعلقها به، ولو تأمل المؤمنون في النفع الحاصل لهم من الرسول ﷺ لقالوا: هو سبب هدايتنا إلى الإيمان، وإنقاذنا من الضلال، وهو النور الذي به خرجنا من الظلمات إلى النور، عرفنا ربنا ومحابه، وحذرنا من عدونا ومصائده، ودلنا على كل خير، ونهانا عن كل شر، وأحل لنا الطيبات، وحرم علينا الخبائث، ورفع عنا الآصار والأغلال التي كانت على غيرنا من الأمم، هو قدوتنا في الحياة الدنيا، وسبب نجاتنا في الآخرة، وهو شفيعنا، وإمامنا وقائدنا يوم القيامة، نفعه مستمر، وخيره عميم، برحمة من الله لأن للمؤمنين، وخفض جناحه لهم، وعاملهم أحسن معاملة، عظيم الخلق، جميل الخلق، فمن عرف ذلك النفع الشامل للرسول عليه<sup>(٢)</sup> من كل تلك الجهات من أنواع الفضائل، وجمال الظاهر والباطن؛ فسوف بلا شك ولا ريب يجد حلاوة الإيمان، وتكون محبته ﷺ مع محبة الله - قبله - أحب إلى العبد مما سواه، وتداعي هذه المعاني وتراكمها يولد زيادة المحبة.

ومن المعلوم فطرة وعقلاً أن من أحب أحداً أحب كل شيء يحبه إذا ظهر له

- 
- (١) انظر: الشفاء، للقاضي عياض الباب الثاني ٥٦٣/٢ - ٥٨١، وشرح مسلم، للنووي وقد نقل كثيراً عن المصدر السابق ١٣/٢ - ١٦، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ٢٠٦/١٠، ومدارج السالكين، لابن القيم ٩/٣ - ١١، وروضة المحبين ص ٥٩ - ٦١ وعمدة القاري، للعيني ١٦٩/٢٣، وفتح الباري، لابن حجر ٥٨/١ - ٦٢، ٤٦٣/١٠ وقد أضاف على ما سبق؛ معنى المحبة عند كل من الخطابي، والبيضاوي، والقرطبي.
- وقد انتقد ابن حجر متابعاً صاحب المفهم على «القاضي عياض» اشتراطه المحبة لصحة الإيمان، انظر: الفتح ٥٩/١، ولم أجد اشتراطاً لمحبته ﷺ للإيمان في كلام القاضي. «في الشفاء» بل قال - بعد أن ذكر صفة محبته -: «ومن خالفها... فهو ناقص المحبة، ولا يخرج عن اسمها» ثم ذكر حديث شارب الخمر الذي أقيم عليه الحد ونهى رسول الله ﷺ عن سبه وقال عنه: «فإنه يحب الله ورسوله» الشفاء ٥٧٢/٢.
- (٢) أما نعم الله جل وعلا فلا تحصى؛ كالخلق والرزق وسائر صفات الربوبية له مما لا يملك مخلوق منها شيئاً، ولذلك كان حقه سبحانه أعظم الحقوق على العبيد بالتوحيد وإخلاص العبادة له دون سواه.

نفعه، فترى المحب يُكثر من ذكر محبوبه، ويستلذ بطاعته، ويفرح بأوامره، وينفر مما يسخطه، ويحذر مما يغضبه، ويدافع عنه في كل حال، وينصره في جميع الأحوال.

وهذا الحب النابع من تلك المنافع ليس حباً عقلياً محضاً يدفع إلى الطاعة الظاهرة فقط وليس حباً عاطفياً محضاً يملأ النفس بمشاعر الشوق فقط بل حبٌ يجمع الأمرين لأن نفعه قد شمل الجهتين.

ولذلك قال: «وجد بهن حلاوة الإيمان» فكلما كان العبد مستحضراً لتلك المنافع وعمل بموجبها وجد حلاوة الإيمان، ولذلك من كان راضياً بالله رباً وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ رسولاً؛ ذاق طعم الإيمان، «مجرد ذوق»، أما من ترقى عن تلك المرتبة [ذوق طعم الإيمان] التي خضعت الجوارح الظاهرة إلى مراتب أعلى أسرت القلوب ووصلت إلى شغافها؛ عرف حلاوة الإيمان

وقد يغلب داعي الشهوة أحياناً فيغفل لحظة عن تلك المعاني وتغيب عنه، فيقع في معصية ثم يبصر خطاه، ويقوم من غيبته، وما أدت إليه غفلته، فهذا لا ينفي عنه الإيمان والحب لله ورسوله، وإن كان ينفي الكمال فيه.

ولا تعني المحبة أن يكون العبد ملاكاً يفعل كل ما يؤمر ولا يقع منه خطأ، ولا يليق أيضاً أن يكون المرء مدّعياً للحب وهو غارق في مخالفة محبوبه!!.

وكون حب الله وحب رسوله ﷺ فوق كل حب فلأن النفع الحاصل من جهتهما وفضلهما على المرء فوق كل نفع وفضل، كما أن نفع غيرهما منقطع، وأما نفعه ﷺ فشامل للدارين وفضله على الثقلين. وقد عظم حق الوالد بعدهما لكونه وسيلة الوجود على وجه الأرض، والعناية أثناء الصغر، وهكذا يعظم الحق بمقدار عظم النفع والفضل.

وقد ذكر الحافظ ابن حجر أن علامة محبته ﷺ: «أن يُغَرَّضَ على المرء أن لو خُير بين فَقْدِ غَرَضٍ من أغراضه أو فَقْدِ رؤية النبي ﷺ أن لو كانت ممكنة، فإن كان فَقْدُها - أن لو كانت ممكنة - أشدَّ عليه من فقد شيء من أغراضه فقد اتصف بالأحبية المذكورة، ومن لا فلا. وليس ذلك محصوراً في الوجود والْفَقْد، بل يأتي مثله في نصرة سنته، والذب عن شريعته، وقمع مخالفها<sup>(١)</sup>».

---

(١) فتح الباري ٥٩/١.

قلت: هذه علامة ضعيفة، فما قيمة غرض من الأغراض يُفقد في مقابل رؤية النبي ﷺ؟<sup>(١)</sup>

وأقوى من تلك العلامة وأصدق تحقيقاً: الاقتداء به ﷺ، واستعمال سنته، واتباع أقواله وأفعاله، وامتنال أوامره، والتأدب بأدابه، وإيثار ما شرعه وحض عليه على هوى نفسه، وتعظيمه وتوقيره.

ومحبته ﷺ منها: ما هو فرض تقتضي قبول ما جاء به، وتلقيه بالرضا والتسليم، وعدم طلب الهدى من غير طريقه، وتصديقه في كل ما يخبر به، وترك ما نهى عنه، ونصرة دينه.

ومنها: ما هو فضل وندب كالاقتداء به في زهده<sup>(١)</sup>.

---

(١) انظر تفصيل هاتين الدرجتين في: استنشاق نسيم الأنس، لابن رجب الحنبلي ص ٣٤ - ٣٥.

## المبحث الثامن لزوم تعزيره ﷺ وتوقيره

قال تعالى ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿٨﴾ لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ  
وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ [الفتح: ٨ - ٩].  
التعزير؛ النصرة،

وذلك بقمع كل ما يضر الرسول ﷺ أو يؤذيه.  
أما التعزير بالمعنى المعروف عند الفقهاء وغيرهم: فهو نصرة من وجه آخر  
وهي بقمع المخطئ عما يضره.

فالأول: نصرة الرسول بالقضاء على كل ما يضره،  
والثاني: نصرة للمخطئ بقمعه وتأديبه للبعد به عما يضره<sup>(١)</sup>.  
وقال ابن عباس:

(يعزروه): يعني الإجلال

(ويوقروه): يعني التعظيم

وقال قتادة:

(يعزروه): ينصروه

(ويوقروه): ليعظموه

وقال عكرمة:

(ويعزروه): يقاتلون معه بالسيف<sup>(٢)</sup>.

ثم قال ابن جرير: «ومعنى التعزير في هذا الموضع: التَّقْوِيَةُ بالنصرة  
والمعونة... فأما التوقير: فهو التعظيم والإجلال والتفخيم»<sup>(٣)</sup>.

(١) انظر: المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني ص ٣٣٣ مادة (عزر).

(٢) انظر: قول ابن عباس وكتادة وعكرمة بالإسناد في تفسير الطبري ٧٤/٢٦ - ٧٥.

(٣) المصدر السابق.

والهاء في قوله: (وتسبحوه) لله وحده دون الرسول، وقال الضحاك: «يسبحون الله رجع إلى نفسه»<sup>(١)</sup>

وأضاف ابن كثير معنى جديداً في التوقير وهو: «الاحترام»<sup>(٢)</sup>  
وقال الطاهر بن عاشور: «التعزير: النصر والتأييد»<sup>(٣)</sup>. أما مرجع الضمائر في الآية، قيل: كلها لله تعالى

وقيل: بعض الكلام راجع إلى الله وهو التسبيح من غير خلاف، وبعضه راجع للرسول وهو التعزير والتوقير

وقال القرطبي في المقصود بالتوقير والتعظيم: «أي تدعوه بالرسالة والنبوة لا بالاسم والكنية»<sup>(٤)</sup>

بمعنى أن يقول له الصحابة ومن كان حاضراً في وقته: يا أيها الرسول، ويا أيها النبي، لا أن ينادوه باسمه محمد هكذا كما فعل بعض الأعراب أو حتى بكنيته.

ولذلك عظم شأن النبي في القرآن فلم ينادى أي نبي أو رسول غيره بهذا النداء (يا أيها الرسول) و(يا أيها النبي).

والحقيقة أن كل ما من شأنه نصره الرسول فهو داخل في «التعزير»، وكل ما من شأنه تعظيم الرسول فهو داخل في «التوقير».

روى الإمام مسلم في صحيحه عدة أحاديث في: «باب توقيره وترك إكثار السؤال عليه»، قال النووي في المقصود بها: «مقصود أحاديث الباب أنه نهاهم عن إكثار السؤال، والابتداء بالسؤال عما لا يقع، وكره ذلك لمعان: ...» وذكر في إحداها ما له صلة بالبحث هنا وهو:

«أنهم ربما أخفوه بالمسألة، والحفوة: المشقة والأذى...» وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٧]»<sup>(٥)</sup>.

(١) المصدر السابق.

(٢) تفسير ابن كثير ٤/١٨٥، وانظر: فتح القدير ٥/٤٧.

(٣) التحرير والتنوير ٢٦/١٥٦.

(٤) تفسير القرطبي ١٦/١٧٧.

(٥) شرح مسلم ١١٠/١٥ - ١١٥.

فانظر كيف يراعى جنابُ الرسول ﷺ ومقامه الشريف . وقد مر معنا خطورة التقديم بين يديه ﷺ ورفع الصوت فوق صوته ﷺ في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاقْبُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ①﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ② إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ③ إِنَّ الَّذِينَ يُتَادُونَكَ مِنَ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ④﴾ [الحُجُرَات: ١ - ٤].

كما نهى عن قول: (رَاعِنَا) بحضرته ﷺ تعظيماً وتبجيلاً له ﷺ فقد كان اليهود يريدون منها معنى فاسداً في خطابهم مع رسول الله فنهى الله عن هذه الكلمة قطعاً للذريعة ولزوماً للأدب معه ﷺ، وأمروا بأن يقولوا: (انظُرْنَا) فهي كافية في حصول المقصود، وخالية من المحذور. فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِكُلِّ زِينَةٍ عَذَابٌ أَلِيمٌ ⑤﴾ [البَقَرَة: ١٠٤].

## المبحث التاسع وجوب الصلاة والسلام عليه ﷺ

قال الإمام البخاري - رحمه الله - :  
«باب: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

قال أبو العالية: صلاة الله ثناؤه عليه عند الملائكة، وصلاة الملائكة الدعاء  
قال ابن عباس: (يصلون) يُبْرَكُونَ، ثم روى حديثين بإسناده:  
عن كعب بن عجرة رضي الله عنه: «قيل يا رسول الله، أما السلام عليك فقد عرفناه، فكيف الصلاة عليك؟»، قال ﷺ: قولوا: اللهم صل على محمد، وعلى آل محمد، كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد، وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد» وروى صيغة أخرى عن أبي سعيد الخدري<sup>(١)</sup>.

وروى الإمام مسلم في باب: الصلاة على النبي ﷺ بعد التشهد بإسناده «عن أبي مسعود الأنصاري قال: أتانا رسول الله ﷺ ونحن في مجلس سعد بن عباد، فقال له بشير بن سعد: أمرنا الله تعالى أن نصلي عليك يا رسول الله، فكيف نصلي عليك، قال: فسكت رسول الله ﷺ حتى تمنينا أنه لم يسأله، ثم قال رسول الله ﷺ قولوا: اللهم صل على محمد، وعلى آل محمد، كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد، وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد، والسلام كما قد علمتم»<sup>(٢)</sup>.

\* مما دلت عليه الأدلة السابقة ما يلي:

---

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير ٥٣٢/٧ ح ٤٧٩٧، ٤٧٩٨.  
(٢) ثم روى صيغة أخرى للصلاة عليه، صحيح مسلم، كتاب الصلاة ١٢٤/٤ - ١٢٥.

١ - وجوب الصلاة عليه ﷺ ولا سيما عقب التشهد الأخير ولو تركت لم تصح الصلاة، وهو قول الشافعي وأحمد، وهو مروي عن عمر وابنه عبد الله، فإن الأمر للوجوب، والقدر الواجب عند الشافعية والحنابلة: (اللهم صل على محمد) وما زاد عليه سنة<sup>(١)</sup>.

ومما يدل على عموم القول بوجوبها:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «من ذكرْتُ عنده فليصل عليّ، ومن صلى علي مرة صلى الله عليه بها عشراً»<sup>(٢)</sup>.

وعن أبي بكر الصديق قال: قال رسول الله ﷺ: «أكثرُوا الصلاة عليّ، فإن الله وكل بي ملكاً عند قبري، فإذا صلى علي رجل من أمتي، قال لي ذلك الملك: يا محمد إن فلان ابن فلان صلى عليك الساعة»<sup>(٣)</sup>.

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «البخيلُ مَنْ ذُكِرْتُ عنده فلم يصل عليّ»<sup>(٤)</sup>.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رغم أنف رجل

---

(١) انظر: المغني، لابن قدامة ٢٢٨/٢ - ٢٣٠ وروى عن الإمام أحمد القول بأنها غير واجبة ورجح ابن قدامة الوجوب وقال أبو يعلى: ظاهر كلام أحمد أن الصلاة واجبة على النبي حَسْبُ، لقوله لأبي زرعة: الصلاة على النبي أمر، من تركها أعاد الصلاة، ولم يذكر الصلاة على آله، وهذا مذهب الشافعي، وجاء في الزاد «زاد المستقنع» للحجاوي، وشرحه «الروض المربع»، للبهوتي أنها ركن من أركان الصلاة ص ٩١، وانظر حاشية الروض لابن قاسم ١٢٦ - ١٢٧ وقال الركن من التشهد الأخير قول: «اللهم صل على محمد» لظاهر الآية، وما بعده سنة. المصدر السابق، وانظر: جلاء الأفهام، لابن القيم حيث ذكر خلافاً طويلاً في حكمها من حيث الوجوب والاستحباب ص ٢٦٣ - ٢٩٣، وانظر: شرح مسلم للنووي ١٢٣/٤ - ١٢٤، وانظر: القول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيع، للسخاوي، وقد ذكر عشرة أقوال في حكم الصلاة عليه ص ١٤ وما بعدها.

(٢) ذكره النووي في «الأذكار» وعزاه لابن السني وقال: بإسناد جيد ص ٩٨، وذكره ابن القيم في «جلاء الأفهام»، وقال: إسناده صحيح ص ٢٩٥.

(٣) ذكره الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ح ١٥٣٠، وصحيح الجامع ح ١٢١٨.

(٤) رواه الترمذي في سننه، كتاب الدعوات، باب: «قول الرسول ﷺ رغم أنف رجل» وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب» ح ٣٥٤٦ رواه الحاكم في المستدرک، وقال: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. ٥٤٩/١٠.



ذُكِرَتْ عنده فلم يُصَلِّ عليّ...»<sup>(١)</sup>

وقال الترمذي - رحمه الله - : «ويروى عن بعض أهل العلم قال : إذا صلى الرجلُ على النبيِّ مرة في المجلس أجزأ عنه ما كان في ذلك المجلس»<sup>(٢)</sup>.

٢ - المراد بـ «يباركون له» الواردة في صحيح البخاري : أي يدعون له ﷺ بالبركة ، وقال النووي : «البركة هنا : الزيادة من الخير والكرامة ، وقيل : الثبات على ذلك من قولهم بركت الإبل أي ثبتت على الأرض ، ومنه بركة الماء ، وقيل : التزكية والتطهير من العيوب كلها»<sup>(٣)</sup>.

٤ - آل النبي : قال ابن قدامة : «آل النبي : أتباعه على دينه ، كما قال تعالى : ﴿ادْخُلُوا آلَ نَبِيِّكُمْ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر : ٤٦] يعني أتباعه من أهل دينه»<sup>(٤)</sup> ، وسيأتي تفصيل المراد بآله في المبحث التالي.

٥ - طريق الجمع بين أفضلية محمد ﷺ على العالمين وقوله : «كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم» :

ذكر النووي في هذه المسألة ثلاثة أقوال :

١ - وهو محكي عن الشافعي : أن معناه «صلُّ على محمد . وتمَّ الكلام ، ثم استأنف : «وعلى آل محمد» ؛ أي وصلُّ على آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، فالمسؤول له مثل إبراهيم وآله هم آل محمد لا نفسه .

٢ - السؤال للمشاركة في أصل الصلاة لا في القدر بمعنى : «اجعل لمحمد وآله صلاة منك كما جعلتها لإبراهيم وآله»

٣ - «أنه على ظاهره : والمراد ؛ اجعل لمحمد وآله صلاةً بمقدار الصلاة التي لإبراهيم وآله ، والمسؤول مقابلة الجملة [محمد وأتباعه] بتلك الجملة [إبراهيم وأتباعه] التي فيها خلائق من الأنبياء»<sup>(٥)</sup>.

وزاد ابن حجر فقال : «ومعنى قوله : (كما صليت على آل إبراهيم) أي

---

(١) رواه الترمذي في سننه ، كتاب الدعوات ، باب : «قول الرسول ﷺ «رغم أنف رجل» ، وقال : حديث حسن غريب ح ٣٥٤٥ .

(٢) سنن الترمذي ، كتاب الدعوات ٥٥١/٥ .

(٣) شرح مسلم للنووي ١٢٦/٤ .

(٤) المغني ٢٣٢/٢ ، وانظر : المبحث العاشر من هذه الرسالة ٥٤٣ - ٥٥٢ .

(٥) شرح مسلم للنووي ١٢٥/٤ - ١٢٦ .

تَقَدَّمَ مَنْكَ الصَّلَاةَ [يارب] عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، فَسَأَلَ مَنْكَ الصَّلَاةَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ بِطَرِيقِ الْأُولَى، لِأَنَّ الَّذِي يَثْبِتُ لِلْفَاضِلِ يَثْبِتُ لِلْأَفْضَلِ بِطَرِيقِ الْأُولَى، وَبِهَذَا يَحْصُلُ الْإِنْفِصَالُ عَنِ الْإِيرَادِ الْمَشْهُورِ مِنْ أَنَّ شَرْطَ التَّشْبِيهِ أَنْ يَكُونَ الْمَشْبُوهُ بِهِ أَقْوَى.

ومحصل الجواب: أَنَّ التَّشْبِيهِ لَيْسَ مِنْ بَابِ إِلْحَاقِ الْكَامِلِ بِالْأَكْمَلِ، بَلْ مِنْ بَابِ التَّهْيِيجِ وَنَحْوِهِ... وَحَاصِلُ الْجَوَابِ: أَنَّ التَّشْبِيهِ وَقَعَ لِلْمَجْمُوعِ بِالْمَجْمُوعِ لِأَنَّ مَجْمُوعَ آلِ إِبْرَاهِيمَ أَفْضَلُ مِنْ مَجْمُوعِ آلِ مُحَمَّدٍ، لِأَنَّ فِي آلِ إِبْرَاهِيمَ الْأَنْبِيَاءَ بِخِلَافِ آلِ مُحَمَّدٍ...<sup>(١)</sup>

### حُكْمُ الصَّلَاةِ عَلَى غَيْرِهِ ﷺ:

قَالَ النَّوَوِيُّ فِي: «قَوْلِهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ»: احْتُجَّ بِهِ عَلَى جَوَازِ الصَّلَاةِ عَلَى غَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ، وَهَذَا مِمَّا اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِيهِ، فَقَالَ مَالِكٌ وَالشَّافِعِيُّ وَالْأَكْثَرُونَ: لَا يُصَلَّى عَلَى غَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ اسْتِقْلَالًا، فَلَا يَقَالُ: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى أَبِي بَكْرٍ، أَوْ عُمَرُ، أَوْ عَلِيٍّ أَوْ غَيْرِهِمْ، وَلَكِنْ يَصَلَّى عَلَيْهِمْ تَبَعًا فَيَقَالُ: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ وَزُجَّاجَتِهِ وَذُرِّيَّتِهِ كَمَا جَاءَتْ بِهِ الْأَحَادِيثُ»<sup>(٢)</sup>

وَقَالَ ابْنُ حَجَرٍ: «وَأَجَابَ مَنْ مَنَعَ [مَنْ الصَّلَاةَ عَلَى غَيْرِهِ ﷺ] بِأَنَّ الْجَوَازَ مُقَيَّدٌ بِمَا إِذَا وَقَعَ تَبَعًا، وَالْمَنْعُ إِذَا وَقَعَ مُسْتَقْلًا... وَلَا حُجَّةَ لِمَنْ أَجَازَ ذَلِكَ مُنْفَرَدًا [فِي الْأَدْلَةِ الَّتِي فِيهَا الصَّلَاةُ عَلَى غَيْرِ النَّبِيِّ ﷺ] فَإِنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ وَقَعَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ، وَلِصَاحِبِ الْحَقِّ أَنْ يَتَفَضَّلَ مِنْ حَقِّهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ... وَيَقْوِي الْمَنْعُ [مَنْ الصَّلَاةَ عَلَى غَيْرِهِ ﷺ] بِأَنَّ الصَّلَاةَ عَلَى غَيْرِ النَّبِيِّ ﷺ صَارَ شَعَارًا لِأَهْلِ الْأَهْوَاءِ يَصْلُونَ عَلَى مَنْ يَعْظُمُونَهُ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ وَغَيْرِهِمْ... ثُمَّ أَخْرَجَ [إِسْمَاعِيلُ بْنُ إِسْحَاقٍ فِي كِتَابِهِ أَحْكَامَ الْقُرْآنِ] عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ قَالَ: «لَا تَصَلِّحُ الصَّلَاةَ عَلَى أَحَدٍ إِلَّا عَلَى النَّبِيِّ، وَلَكِنْ لِلْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ الْاسْتِغْفَارَ»<sup>(٣)</sup>.

هَذَا وَقَدْ وَقَعَ فِي الْعَقْدَيْنِ الْأَخِيرَيْنِ مِنْ هَذَا الْقَرْنِ تَغْيِيرٌ طَافِيفٌ عَلَى الصِّيغَةِ

(١) فتح الباري ٨/٥٣٣.

(٢) شرح مسلم للنووي ٤/١٢٧.

(٣) فتح الباري ٨/٥٣٤.

التي استقر عليها سلف الأمة ومن بعدهم منذ زمن. خير القرون في الصلاة المطلقة عليه في غير الصلوات الخمس المفروضة وهي «صلى الله عليه وسلم» فأضيف إليها «وآله»!، فأصبح الكثيرون يلتزمون القول: «صل الله عليه وآله وسلم»؟، ولم أقف على قول للسلف بوجوب التزام الصيغة الواردة في التشهد الأخير في غير الصلاة ولا القياس عليها.

وقد نص القرآن على أفراد الصلاة عليه كما نص على أفراد السلام عليه وأكدته: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

ثم قد جاءت الصيغة التوقيفية التي في التشهد الأول مقرونة بالرحمة والبركة وبالسلام على الأمة: «.. السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، والسلام علينا وعلى عباد الله والصالحين...»<sup>(١)</sup>.

وإذا قيل بوجوب أو استحباب القياس على الصيغة الواردة في التشهد فيلزم على قولهم أن يقال إذا مر ذكره:

(صلى الله عليه ورحمته وبركاته وعلينا وعلى آله وعلى عباد الله الصالحين)، ولا قائل بهذا، بل إن القدر الواجب عند من يقول بوجوب الصلاة عليه في التشهد الأخير الذي يقال في الصلاة المفروضة هو (اللهم صل على محمد) وما زاد عليه سنة<sup>(٢)</sup>.

ثم إن كتب الحديث المليئة والمشحونة بذكر الرسول ﷺ والتي تلقتها الأمة بالقبول، والتي روى فيها الصحابة عن النبي ﷺ أقواله وأفعاله وتقريراته قد اقتصر فيها على الصيغة المعهودة والمعروفة: (صلى الله عليه وسلم) بدون ذكر (وآله) فلماذا هذا التغيير الطارئ الآن؟ والله أعلم<sup>(٣)</sup>.

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الأذان، باب التشهد في الآخرة ٣١١/٢ ح ٨٣١، ٨٣٥، ١٢٠٢، ٦٢٣٠، ٦٣٢٨، ٧٣٨١.

(٢) كما مر قريباً ص ٥٣٨.

(٣) ومن أراد الاستزادة في مواطن الصلاة عليه ﷺ، والأحاديث الواردة في فضل الصلاة عليه ﷺ، والصيغ الواردة في الصلاة عليه ﷺ، فلينظر؛ كتاب: جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام، لابن القيم.

## المبحث العاشر بَرُّ آلِه «أَهْلِه» وَذَرِيَّتِه ﷺ

لا شك إن من توقير الرسول ﷺ وإعظامه مراعاة حقوق آلِه ﷺ، بأن تحفظ مكانتهم وينزلوا المنزلة اللائقة بهم، ويذب عنهم، فهم أقرب الناس صلة به ﷺ، وأوثقهم به علاقة، ولذلك دخلوا في الصلاة الواردة في التشهد الأخير، فهل هذه الصلاة المنصوص عليها في التشهد مخصوصة بقرابة الرسول ﷺ فحسب؟ للجواب على هذا السؤال علينا أن نتعرف أولاً على معنى الآل والأهل في اللغة، ثم لننظر في معانيها في النصوص الشرعية.

### أولاً: المراد بالـ (آل) والـ(أهل) في اللغة:

هما بمعنى واحد، قال الجوهري: «وآل الرجل: أهله وعياله، وآله أيضاً أتباعه... والأهل: أهل الرجل، وأهل الدار»<sup>(١)</sup>. وقال الراغب:

«آل مقلوب عن الأهل، ويصغر على أهيل، إلا أنه خُصَّ بالإضافة، إلى أغلام الناطقين دون النكرات، ودون الأزمنة، يقال آل فلان، ولا يقال آل رجل، ولا آل زمان كذا، أو موضع كذا، ولا يقال آل الخياط، بل يُضاف إلى الأشرف والأفضل، يقال: آل الله، وآل السلطان.

والأهل يضاف إلى الكل، يقال أهل الله، وأهل الخياط، كما يقال أهل زمن كذا، وبلد كذا.

وقيل: هو في الأصل اسم الشخص ويصغر أويلاً، ويستعمل فيمن يختص بالإنسان اختصاصاً ذاتياً؛ إما بقرابة قريبة، أو بموالاتة»<sup>(٢)</sup>.

(١) الصحاح ٤/١٦٢٧ - ١٦٢٩ مادة (آل)، و(أهل)، وانظر: لسان العرب لابن منظور ٢٨/١١.

(٢) المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني ص ٣٠ - ٣١ مادة (آل).

في نهاية الكلام السابق بدأ الراغب في الدخول في الاستعمال الشرعي للكلمتين (الآل) و(الأهل) فكل من القرابة والولاء معنيان لكل من الكلمتين.

## ثانياً: المعنى الأول للـ(آل) والـ(أهل) في النصوص:

### ١ - المعنى الأول: القرابة النسبية

وأدلة هذا المعنى كثيرة، ومنها:

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ﴾ [النساء: ٣٥].

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمَنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ...﴾ [النساء: ٩٢].

وقوله تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ﴾ [الأنبياء: ٨٤].

وقوله تعالى: ﴿إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا...﴾ [طه: ١٠].

وقوله تعالى: ﴿فَرَأَىٰ إِلَيْكَ أَهْلِيهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ [الذاريات: ٢٦].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَنْطَلِقُ﴾ [القيامة: ٣٣].

وقوله تعالى: ﴿... قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [٥٥] قَالَ هِيَ رَوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِيهَا﴾ [يوسف: ٢٥ - ٢٦] في الموضعين وقوله تعالى: ﴿... مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطِيعُونَ أَهْلِيكُمْ...﴾ [المائدة: ٨٩].

وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَوْا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا...﴾ [التحریم: ٦].

\* ومن أصرح الآيات في إطلاق الـ(آل) على القرابة النسبية، بقطع النظر عن الدين قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [غافر: ٢٨].

وقال ابن كثير: «المشهور أن هذا الرجل المؤمن كان قبطياً من آل فرعون، قال السدي: كان ابن عم فرعون، ويقال: إنه الذي نجا مع موسى عليه السلام، واختاره ابن جرير.

وقد كان هذا الرجل يكتُم إيمانه عن قومه القبط، فلم يظهر إلا هذا اليوم، حين قال فرعون (ذروني أقتل موسى)، فأخذت الرجل غضبة لله عز وجل، وأفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر، ولا أعظم من هذه الكلمة عند فرعون وهي قوله: ﴿أَنقَتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾<sup>(١)</sup>.

ثم ذكر ابن كثير موقف أبي بكر الصديق رضي الله عنه ودفاعه عن الرسول ﷺ على أنه يناظر موقف مؤمن آل فرعون، فقد جاء في الصحيح من طريق عروة بن الزبير قال: سألت عبد الله بن عمرو بن العاص عن أشد ما صنع المشركون برسول الله ﷺ، قال: رأيت عُقبة بن أبي معيط جاء إلى النبي ﷺ وهو يصلي، فوضع رداءً في عنقه فخنقه به خنقاً شديداً، فجاء أبو بكر حتى دفعه عنه فقال: ﴿أَنقَتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾<sup>(٢)</sup>.

والعجيب أن أبا بكر صاحب هذا الموقف العظيم يخرج من صلاة المسلمين على «الآل» على قول من يحصر «الآل» في قوله: (وعلى آل محمد) بقرابة النبي ﷺ فحسب.

نعود إلى الآيات الواردة في مؤمن (آل فرعون) فهي دليل على أن هذا الرجل المؤمن نُسب إلى (آل فرعون) باعتبار النسب والقرابة لا باعتبار الدين والأُتباع، وهو الذي قال الله فيه بعد أن صدع بالحق: ﴿فَوَقَّعَ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكُرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ۝٤٥﴾ [غافر: ٤٥]، ونجاه الله منهم، فهو منهم باعتبار القرابة، والضمير عائد إلى مؤمن آل فرعون فوقاه الله في الدنيا والآخرة<sup>(٣)</sup>.

### ثالثاً: المعنى الثاني للـ(آل) والـ(أهل) في النصوص:

#### ٢ - الأُتباع على الدين:

دل على هذا المعنى ما يلي من الآيات:

قول الله تعالى: ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ۝٤٦﴾ [غافر: ٤٦].

ولو قيل: إن المقصود بالآل في الآية الأقرباء، لدخلت زوجة فرعون

(١) تفسير ابن كثير ٧٧/٤

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي: «لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً» ٢٢/٧ ح ٣٦٨٧.

(٣) انظر: تفسير ابن كثير ٨١/٤

المؤمنة، التي ضرب الله فيها المثل لمن آمن ونجاها من القوم الظالمين، كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَمْرَاتٍ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾﴾ [التحریم: ١١].

وقد أخبر الرسول ﷺ أنها من النساء اللاتي كملن على مر الدهور فعن أبي موسى - رضي الله عنه - قال قال: رسول الله ﷺ: «كَمُلَ من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا؛ آسية امرأة فرعون، ومريم ابنة عمران وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»<sup>(١)</sup>.

ولو قيل: إن المقصود بالآل في الآية الأقرباء، لدخل مؤمن آل فرعون، وقد قال تعالى: ﴿فَوَقَّهَ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا...﴾ [غافر: ٤٥] كما مر قريباً.

وتأمل في قصة نوح عليه السلام في سورة [هود: ٣٥ - ٤٨] ولا سيما في قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنُ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٥٠﴾﴾ [هود: ٤٠].

أي: واحمل المؤمنين من أهلك في السفينة، وإذا علمنا أنه لم يحمل زوجه وولده فيها لأنهما لم يؤمنا بالله تبين أن المراد بالأهل هنا في قوله: (وَأَهْلَكَ) هم المؤمنون معه وما آمن معه إلا قليل.

ويؤكد هذا المعنى في نفي لقب (الأهل بمعنى الاتباع) عن (الأقارب الكافرين) ولو كان من الولد بقوله تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَجُلَهُ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي أَبْتِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ قَالَ يَنْتُحِ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴿٥٢﴾﴾ [هود: ٤٥ - ٤١].

كأنه يقول أهلك هم المؤمنون معك.

وقد بارك الله على أهل بيت إبراهيم، ولا يدخل فيهم قطعاً من قتل الأنبياء من بني إسرائيل وظهرت منه القبائح الشنيعة، وهم كثر: قال تعالى: ﴿وَأَمْرَأَتُهُ قَاهِلَةٌ فَضَحِكَتْ فَهَسَرْتَهَا يَسْحَقٌ وَمِنْ وَرَاءِهِ سَحَقٌ يَعْقُوبُ ﴿٧١﴾﴾ قَالَتْ يَنْتُلِقُ ءَالِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾﴾ قَالُوا أَنْتَجِدِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُمْ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾ [هود: ٧١ - ٧٣].

وهذه الآية تدل دلالة قاطعة على أن (أهل البيت) الواردة في سورة الأحزاب

(١) فتح الباري ٦/٤٤٧.

يراد بهم أزواج الرسول، وتدل دلالة واضحة أيضاً على دخول أزواج النبي محمد ﷺ في الصلاة المفروضة؛ وقارن بين الصيغة الواردة في الآية ﴿رَحِمْتُ اللَّهَ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ ﴿٣٣﴾ ومدى تشابهها وتقاربها من الصيغة المعروفة في التشهد.

وأطلق الآية على أتباع لوط المؤمنين به (آل لوط) كما قال تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ أَلَا لَوْطٌ مِنْ قَرَبِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْفُسٌ يَنْظَهُرُونَ﴾ ﴿٥٦﴾ [النمل: ٥٦] ثم قال تعالى: ﴿قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُئُوسُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْفُتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَانِكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ ﴿٨١﴾ [هود: ٨١].

فأخرجت الآية زوجة لوط من (أهل لوط) لكفرها؛ فدل ذلك على أن (أهله) هم أتباعه المؤمنون به المتطهرون من الخبائث وساروا معه ليلاً.

وليس في الإسلام أسرة مقدسة، انظر إلى قوله تعالى في ذرية إبراهيم وإسحاق الذين تضمنتهم الصلاة الإبراهيمية والفضائل الكثيرة:

﴿وَنَذَرْنَاهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ ﴿١٣٣﴾ [الصافات: ١١٣].

فهناك في هذه الشجرة المباركة محسن وظالم لنفسه مبين، وهذا يعني أن الصلاة والدعاء بالبركة تكون على المحسن لا الظالم.

ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا مَوْتَهُ بِهِمْ وَصَافَ بِهِمْ ذُرًأً وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجِيكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرَانِكَ كَانَتْ مِنْكَ الْغَنِيَّةُ﴾ ﴿٣٣﴾ [العنكبوت: ٣٣] <sup>(١)</sup>

وقال عن أتباع داود: ﴿يَعْمَلُونَ لَكَ مَا يَُشَاءُ مِنْ مَحَبَّةٍ وَنُمُودٍ وَجَفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ أَعْمَلُوا أَلَا دَاوُدُ شُكْرًا وَقِيلَ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ ﴿١٣٣﴾ [سبا: ١٣].  
والخلاصة: يتبين مما سبق أن (الاهل)، وال(آل) جميعاً لهما معنيان:

١ - القرابة

٢ - الاتباع.

وبعد هذا التقرير نقول: حينما قال رسول الله ﷺ: «اللهم صل على محمد

(١) انظر: تفسير الطبري ٨٦/١٢، وتفسير الزمخشري ٢٢٦/٢.



وعلى آل محمد... فمن المقصود بـ(آل محمد) هنا؟  
ألا يكون الجواب: هم أتباعه ﷺ، ويدخل قرابته المؤمنون به من بني هاشم  
وبني عبد المطلب دخولاً أولاً.

لا سيما إذا عرفنا أن البخاري رحمه الله قد روى أحاديث ورد فيها ذكر «آل  
محمد» والمراد به أزواجه:

حديث: «ما شبع آل محمد منذ قدم المدينة من طعام بر ثلاث ليال تباعاً»،

وحديث: «ما أكل آل محمد أكلتين في يوم إلا إحداهما تمر»،

وحديث: «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً»، في باب واحد وهو:

(«باب: كيف كان عيش النبي ﷺ وأصحابه، وتخليهم عن الدنيا»)<sup>(١)</sup>

وهذا مثال على إطلاق الآل على الأزواج.

وقال الإمام البخاري: «باب هل يُصلى على غير النبي؟» وقوله: (وصل  
عليهم إن صلاتك سكن لهم) [ثم روى بسنده]: عن عمرو بن سليم الزُّرقي قال:  
«أخبرني أبو حميد الساعدي: أنهم قالوا يا رسول الله كيف نصلى عليك؟ فقال:  
«قولوا: اللهم صلى على محمد وأزواجه وذريته، كما صليت على آل إبراهيم،  
وبارك على محمد وأزواجه وذريته كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد»<sup>(٢)</sup>

فالأرجح والله أعلم في آل النبي ﷺ ولا سيما في التشهد؛

أنهم أتباعه ﷺ من أمته إلى يوم القيامة، وإليه ذهب النووي<sup>(٣)</sup>، وابن  
قدامة<sup>(٤)</sup>، وروى عن مالك<sup>(٥)</sup>، وقيده الراغب بأتباعه

---

(١) كتاب الرقاق ح ٦٤٥٤، ٦٤٥٦ من حديث عائشة، وح ٦٤٦٠ من حديث أبي هريرة على  
الترتيب ٣٨١/١١ - ٢٩٣.

(٢) كتاب الدعوات ١٦٩/١١ ح ٦٣٦٠.

(٣) وعزاه إلى المحققين انظر: شرح مسلم للنووي ١٢٣/٤ - ١٢٤.

(٤) ورجحه ابن قدامة في المغني وقال: «آل النبي: أتباعه على دينه، كما قال تعالى: ﴿أَذِلَّةً  
مَّالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦] يعني أتباعه من أهل دينه، وروى حديث  
«آل محمد كل نقي» المغني ٢/٢٣٢، والحديث «آل محمد كل نقي» ضعيف، ضعفه ابن  
حجر ١٦١/١١.

(٥) قال ابن حجر: «قال ابن العربي: مال إلى ذلك مالك واختاره الأزهري وحكاه أبو الطيب  
الطبري عن بعض الشافعية» ١٦٠/١١.

الأتقياء<sup>(١)</sup>، وهو مذهب أبي يعلى<sup>(٢)</sup>.

ثم إن القول بأن (آل محمد) الذين يصلي عليهم المسلمون في كل صلاة هم من تحرم عليهم الصدقة فقط<sup>(٣)</sup>، يقتضي مايلي:

- إخراج جل الصحابة الكرام الذين أثنى الله عليهم في كتابه الكريم، وكان لهم تلك الوقفات العظيمة مع الرسول الكريم، والدور الكبير في نصرته الدين.

- إخراج أزواج النبي ﷺ كلهن اللاتي طهرهن الله وأذهب عنهم الرجس.

- إخراج الأنصار كلهم الذين قال الله فيهم: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَعْنَهُ نَفْسُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ٩ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ١٠﴾ [الحشر: ٩ - ١٠].

وقال رسوله الكريم ﷺ فيهم: «لو أن الأنصار سلكوا وادياً أو شعباً لسلكت في وادي الأنصار، ولولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار»، فقال أبو هريرة: ما ظلم - بأبي هو وأمي - آووه ونصروه<sup>(٤)</sup>. ومع ذلك فإن القول بحصر (آل محمد) على من تحرم عليهم الصدقة - بناء على قولهم المرجوح - قد أخرج أولئك كلهم.

- إخراج عباد الله الصالحين كلهم من هذا الفضل العظيم.

وعلى القول الراجح بأن المراد بـ (آل محمد) هم الأتباع نجد بأن بركة الدعاء لأولئك المذكورين آنفاً ظاهرة جداً، وهناك حجة أخرى في صيغة السلام عليه ﷺ الواردة في النصوص نجد بأنها تجمع بين:

= وقد تردد ابن حجر في ترجيح القول بالآل فرجح أولاً أنهم من حرمت عليهم الصدقة ثم في آخر ما توصل إليه قال: «فالمراد بالآل في التشهد؛ الأزواج، ومن حرمت عليهم الصدقة، ويدخل فيهم الذرية، فبذلك يُجمع بين الأحاديث» فتح الباري ١١٢/١٦٠.

(١) المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني ص ٣٠ - ٣١ مادة (آل).

(٢) المعتمد ص ٢٥٧.

(٣) وهو قول ابن القيم وعزاه للجمهور: بأنهم من حرمت عليهم الصدقة بنو هاشم، وبنو عبد المطلب. انظر: جلاء الأفهام، لابن القيم ١١٢ - ١٢٢ وذكر في المسألة أربعة أقوال.

(٤) رواه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب والأنصار، باب مناقب الأنصار، وباب لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار ١١٢/٧ ح ٣٧٧٨، ٣٧٧٩.

١ - السلام على النبي ﷺ، ٢ - وعلى عباد الله الصالحين وكذلك الصلاة عليه في الصبح الواردة تجمع على القول الراجح بين:

١ - الصلاة عليه ﷺ،

٢ - وعلى أتباعه من أمته

١ - والبركة عليه ﷺ،

٢ - وعلى أتباعه من أمته

ويدخل في (أتباعه) من كل صنف عترته المؤمنون دخولاً أولاً وبهذا ينتفي كل إشكال، علماً بأن السلام عليه في الصلاة أكد عند الجمهور من الصلاة عليه، ومؤكد في النص القرآني: (وسلموا تسليماً)، وصيغته الواردة تنص على أتباعه ﷺ المؤمنين، (السلام عليك أيها النبي... السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين).

فلو قيل: إذن بم يفضل آله الأقربون على غيرهم؟

الجواب: إن الله خصهم بخصائص مختلفة - إضافة إلى دخولهم في «الصلاة على آله» دخولاً أولاً - ومنها:

١ - أن الله كرمهم عن أخذ الصدقة كسائر الناس، لقوله ﷺ: «إنا لا نأكل الصدقة»<sup>(١)</sup> ولو جعل الخلاف فيمن «تحرم عليهم الصدقة» من آله هنا لكان متوجهاً<sup>(٢)</sup>.

٢ - أن الله أعزهم فزهم عن أوساخ الناس، فالزكاة تطهير وتزكية لأموال الناس، قال: «لا تنبغي لآل محمد إنما هي أوساخ الناس»<sup>(٣)</sup>.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب ما يذكر في الصدقة للنبي ﷺ ح ١٤٩١، وذكر ابن حجر ألفاظاً أخرى صحيحة، مثل: «إنا آل محمد لا تحل لنا الصدقة» وعزاه للطحاوي وقال: إسناده قوي ٣/٣٥٥.

(٢) قال النووي: «هم بنو هاشم، وبنو عبد المطلب؛ هذا مذهب الشافعي، وبه قال بعض المالكية، وقال أبو حنيفة ومالك؛ هم بنو هاشم خاصة، وقال بعض العلماء: هم قريش كلها، وقال أصبغ المالكي هم بنو قصي» شرح مسلم ١٧٦/٧.

وقال ابن القيم: «الذين حرمت عليهم الصدقة، فيهم ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم بنو هاشم وبنو عبد المطلب، وهذا مذهب الشافعي وأحمد في رواية عنه.

والثاني: أنهم بنو هاشم خاصة، وهذا مذهب أبي حنيفة، والرواية الثانية لأحمد. =

قال النووي: (إنما هي أوساخ الناس) تنبيه على العلة في تحريمها على بني هاشم وبني عبد المطلب، وأنها لكرامتهم، وتنزيههم عن الأوساخ، ومعنى أوساخ الناس: أنها تطهير لأموالهم ونفوسهم<sup>(١)</sup>، كما قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٣]، وهذا في عموم المسلمين في (أموالهم) الزكاة المفروضة، و(تطهيرهم) من الذنوب، (وتزكيهم) تنمي أموالهم، وتزيد في أخلاقهم الحسنة وثوابهم الدنيوي والأخروي، (وصل عليهم) ادع للمؤمنين عموماً وخصوصاً عندما يدفعون الزكاة، (إن صلاتك سكن لهم) أي طمأنينة لقلوبهم، واستبشار لهم<sup>(٢)</sup>.

٣ - أن النبي ﷺ أشركهم في سهم ذوي القربى، ولم يعط أحداً من قبائل قريش غيرهم.

٤ - أن عدم أخذهم من الصدقة تصديقاً لنبوته ﷺ: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رِبِِّ الْقَالِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٩]، ولو أحلها لآله لأوشك أعداؤه أن يطعنوا فيه.

٥ - إثبات ما ورد فيهم من فضل كما ثبت في الحسن والحسين أنهما: «سيدا شباب أهل الجنة» رضي الله عنهما.

٦ - واجب المسلمين متعين بحفظهم وصيانتهم لصلتهم به ﷺ، ويجب إكرامهم لكرامة رسول الله ﷺ لهم ووصيته بهم حيث قال: «أذكركم الله في أهل بيتي»<sup>(٣)</sup>.

٧ - البر والصلة بهم كما كان يقول الصديق رضي الله عنه:

«والذي نفسي بيده لقرابة رسول الله ﷺ أحب إلي من قرابتي»<sup>(٤)</sup>.

= والثالث: أنهم بنو هاشم ومن فوقهم إلى غالب، فيدخل فيهم بنو عبد المطلب، وبنو أمية، وبنو نوفل، ومن فوقهم إلى بني غالب، وهو اختيار أشهب من أصحاب مالك «جلاء الأفهام ص ١١٢، وانظر: القول البديع، للسخاوي ص ١٢١ - ١٢٢.

(١) رواه مسلم في صحيحه، باب ترك استعمال آل النبي على الصدقة، ١٧٩/٧.

(٢) شرح مسلم للنووي ١٧٩/٧.

(٣) انظر: تفسير السعدي ص ٣٠٨.

(٤) رواه مسلم في صحيحه، باب فضائل علي بن أبي طالب ١٨٠/١٥.

ويقول: «ارقبوا محمداً في أهل بيته»<sup>(١)</sup>.

٨ - ونزلهم المنزلة اللائقة بهم، كما أن لقريش منزلة بين القبائل، وللعرب منزلة بين الأمم؛ فلهم حقهم المصون من تعويضهم عن الصدقة بالهدية، وأداء الخمس والفئ واحترامهم وتقديرهم ونحوها من الأدب معهم.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الفضائل، باب مناقب قرابة رسول الله ﷺ ٧٨/٨ ح ٣٧١٣.

## المبحث الحادي عشر معرفة حق أزواجه ﷺ أمهات المؤمنين

إن لأزواج رسول الله ﷺ من الحق العظيم ما غفل عنه الكثيرون، فهل هناك أعظم حقاً بعد حق الله ورسوله ﷺ من حق الأم على ولدها، وقد قال سبحانه عن أزواج النبي ﷺ: ﴿الَّتِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَيْكَ أُولِيَاكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٦١﴾﴾ [الأحزاب: ٦].

فما يقال من البر بالأمهات من حقوق الطاعة والتقدير والاحترام والبر يقال عن أزواج النبي ﷺ لأنهم أمهات المؤمنين بنص القرآن، فلهن منزلتهن في استحقاق التعظيم، والرفع لجنابهن، وفي الحكم وبالترسيم<sup>(١)</sup>، ولهن حق الترضي والدعاء والذب عنهم.

قال ابن قدامة: «ومن السنة الترضي عن أزواج رسول الله ﷺ أمهات المؤمنين المطهرات المبررات من كل سوء»<sup>(٢)</sup>.

وكأنه رحمه الله في آخر كلامه يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَقَرَنَ فِي يُبُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ وَأَذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي يُبُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ [الأحزاب: ٣٣ - ٣٤].

لا يخفى على كل قارئ للقرآن ممن يعرف العربية أن يقول إن المراد بقوله ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ من أزواجه ﷺ

(١) فلا يحل لأحد أن يتزوج بواحدة منهن، كما لا يحل أن يتزوج بأمه، وفي مسألة هل أخوات أزواج النبي خالات للمؤمنين؟ انظر: فتح القدير ٤/ ٢٦١ - ٢٦٢.

(٢) لمعة الاعتقاد ص ٢٩.

فالسباق واضح غاية الوضوح في أن المخاطب والمراد بكل ما جاء فيه أنهم أزواج النبي ﷺ.

ولذا قال ابن كثير: «الذي لا يشك فيه من تدبر القرآن أن نساء النبي ﷺ داخلات في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾. فإن سياق الكلام معهن ولهذا قال بعد هذا كله: ﴿وَأَذْكُرَنَّ مَا يَتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾<sup>(١)</sup> ومما يؤكد هذا المعنى، قوله تعالى عن إبراهيم وزوجه: ﴿وَأَمَّا أَنْتُمْ فَآيَمَةُ فَضَحَكْتُمْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِهِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾<sup>(٢)</sup> قَالَتْ يَتْوَلَّى ءَالَهُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ<sup>(٣)</sup> قَالُوا أَتُتَجَبَّنِ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكْنَاهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُمْ حَمِيدٌ مَجِيدٌ<sup>(٤)</sup> [هود: ٧١ - ٧٣]، فهذه الآية تدل دلالة قاطعة على أن (أهل البيت) الواردة في سورة الأحزاب يراد بها أزواج الرسول ﷺ أو على الأقل لا يخرجن منها، وتدل دلالة واضحة أيضا على دخول أزواج النبي محمد ﷺ في الصلاة المفروضة، وقارن بين الصيغة الواردة في الآية ﴿رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكْنَاهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُمْ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ ومدى تشابهها وتقاربها من الصيغة المعروفة في التشهد الأخير.

أما حديث «الكساء» الذي يستدل به من يذهب إلى أن المراد بـ(أهل البيت) في آية سورة الأحزاب هم من حرمت عليهم الصدقة، والذي روته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها - وهذا من أمانتها وإنصافها - قالت: «خرج النبي غداة، وعليه مرط مرحل<sup>(٢)</sup> من شعر أسود، فجاء الحسن بن علي فأدخله، ثم جاء الحسين فدخل معه، ثم جاءت فاطمة فأدخلها، ثم جاء علي فأدخله، ثم قال ﷺ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣]<sup>(٣)</sup>.

قال القرطبي: فهذه دعوة من النبي ﷺ لهم بعد نزول الآية أحب أن يدخلهم

- 
- (١) تفسير ابن كثير ٦٠٥/٣، وذهب إلى هذا القول: كل من ابن عباس وعكرمة، وعطاء الكلبي ومقاتل وسعيد بن جبير، انظر تفسير القرطبي ١٨٢/١٤، والكشاف للزمخشري، وتفسير أبي السعود ٤١٧/٤، وفتح القدير للشوكاني ٢٧٨/٤ - ٢٧٩.
- (٢) كساء موشى منقوش على صور رجال الإبل انظر: شرح مسلم للنووي ١٩٤/١٥.
- (٣) المصدر السابق.

في الآية التي حُوطِبَ بها الأزواج<sup>(١)</sup>.

وأفضل زوجاته «خديجة» - رضي الله عنها - بلا منازع، وأول خلق الله أسلم بإجماع المسلمين<sup>(٢)</sup>.

ثم «عائشة» - رضي الله عنها - أفقه نساء الأمة على الإطلاق<sup>(٣)</sup> فكان للأولى الفضل في تثبيت رسول الله ﷺ في أول النبوة، وكان للثانية الفضل في نشر علم رسول الله ﷺ بعد موته، فروت عنه علماً كثيراً طيباً مباركاً فيه.

---

(١) تفسير القرطبي ١٤/١٨٤، وانظر منهاج السنة، لابن تيمية ٤/٢١.

(٢) خديجة أم المؤمنين، وسيدة نساء العالمين في زمانها، أم القاسم ابنة خويلد بن أسد بن العزى بن قصي ابن كلاب، القرشية الأسدية، أم أولاد رسول الله، وأول من آمن به، وصدقه قبل كل أحد، وثبتت جأشه، ومضت به إلى ابن عمها ورقة، ومناقبها جمّة، وهي ممن كمل من النساء، كانت عاقلة جلييلة دينة مصونة كريمة، من أهل الجنة [بشرها رسول الله بيّيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب متفق عليه]، وكان النبي يثني عليها، ويفضلها على سائر أمهات المؤمنين، ويبالغ في تعظيمها، بحيث إن عائشة كانت تقول: ما غرّث من امرأة ما غرّث من خديجة من كثرة ذكر النبي لها [متفق عليه]. ومن كرامتها عليه أنه لم يتزوج امرأة قبلها... ولم يتزوج عليها قط، ولا تسرى إلى أن قضت نحبها، فوجدَ لفقدتها، فإنها كانت نعم القرنين... توفيت في رمضان، ودفنت بالحجون عن خمس وستين سنة قبل الهجرة بثلاث سنين. سير أعلام النبلاء ١٠٩ - ١١٧.

(٣) بنت الإمام الصديق الأكبر خليفة رسول الله ﷺ أبي بكر، أمها أم رومان تزوجها رسول الله ﷺ قبل مهاجره ببضعة عشر شهراً، ودخل بها في شوال سنة اثنتين منصرفه من غزوة بدر وهي ابنة تسع، حدث عنها خلق كثير اشتمل مسند عائشة على ٢٢١٠ حديثاً لم يتزوج النبي ﷺ بكراً غيرها، ولا أحب امرأة حبها، وثبت في الصحيح أن عمرو بن العاص سأل رسول الله ﷺ: أي الناس أحب إليك قال: عائشة، قال فمن الرجال: قال أبوها. قال الذهبي فمن أبغض حبيبي رسول الله ﷺ فهو حري أن يكون بغيضاً إلى الله ورسوله، وكان حبه لها مستفيضاً، وكان يقول ﷺ: «لا تؤذي في عائشة، فإنه والله ما نزل علي الوحي، وأنا في لحاف امرأة منكن غيرها» متفق على صحته وقال ﷺ: «فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام» متفق عليه، ومات رسول الله ﷺ في بيتها وبين سحرها ونحرها، وكانت من أكرم أهل زمانها سخاء وعطاء برأها الله من فوق سبع سموات في آيات نزلت في شأنها لما خاض أهل الباطل في إفكهم توفيت سنة ثمان وخمسين. انظر: سير أعلام النبلاء ٢/١٣٥ - ٢٠١.



## المبحث الثاني عشر الثناء على أصحابه ﷺ ورضي عنهم

لما كَذَّبَ أهلُ الرياسة رسولَ الله ﷺ وعادوه، وسَعَوْا في هلاكه اتَّبعه الصحابةُ<sup>(١)</sup> الكرام، ولم يتبعوه طمعاً في مال فإنه لم يكن عنده مال فيعطيه، ولا في جاه فلم يكن له سلطان على جهات فيوليه، بل كان السيف والمال والجاه مع أعدائه، وقد وجدوا رضي الله عنهم من الأذى أنواعاً ومن التعذيب ألواناً، وهم صابرون محتسبون، لا يرتدون عن دينهم لما خالط قلوبهم من حلاوة الإيمان والمعرفة وكان يلقي ﷺ من قبائل العرب تكذيب المكذب، وجفاء الجافي، وإعراض المعرض إلى أن اجتمع بأهل يثرب يومها والتي أصبحت تُعرف بالمدينة، وكانوا جيران اليهود، قد سمعوا أخباره ﷺ منهم وعرفوه، فلما دعاهم علموا أنه النبي المنتظر، فأمنوا به، وبايعوه على هجرته، وعلى الجهاد معه فهاجر هو ومن اتبعه إلى المدينة، وبها المهاجرون والأنصار، وليس فيهم من آمن برغبة دنيوية ولا برهبة، ثم أذن له في الجهاد ثم أمر به وقام نشر الدين ونصرته بفضل الله ثم بأصحاب رسول الله ﷺ ورضي عنهم، فكانوا خير الناس ديناً، وعلماء، وعبادة، وطاعة لله، ورسوله، وشجاعة، وصبراً على المكاره في دين الله، وسخاء وبذلاً، وسماحة نفس حتى ظهرت الدعوة في جميع أرض العرب التي كانت مملوءة من عبادة الأوثان، ومن أخبار الكهان، وطاعة المخلوق في الكفر بالخالق، وسفك الدماء المحرمة، فصاروا أعلم أهل الأرض، وأدينهم، وأعدلهم، وأفضلهم حتى أن النصراني لما رأوهم - حين قدموا الشام - قالوا: ما كان الذين صحبوا المسيح بأفضل من هؤلاء، وهذه آثار علمهم وعملهم في الأرض ظاهرة<sup>(٢)</sup>.

(١) قال ابن حجر في تعريف الصحابي: «من لقي النبي مؤمناً به ومات على الإسلام»

الإصابة في تمييز الصحابة ٧/١.

(٢) انظر: الجواب الصحيح، لابن تيمية ٤٣٧/٥ - ٤٤٠ بتصرف.

ولقد كانت أحوالهم وسيرتهم إحدى دلائل الرسالة  
ومعتقد أهل السنة والجماعة فيهم، كما قال أبو جعفر الطحاوي<sup>(١)</sup>:

«ونحب أصحاب رسول الله، ولا نفرط في حب أحد منهم، ولا نتبرأ من أحد منهم، ونبغض من يبغضهم، وبغير الخير يذكرهم، ولا نذكرهم إلا بخير، وحبهم دين وإيمان وإحسان، وبغضهم كفر ونفاق وطفیان»<sup>(٢)</sup>.

ومما يجب اعتقاده فيهم: (عدالتهم)

وقد ذكر الخطيب البغدادي<sup>(٣)</sup> فصلاً نفيساً بعنوان: «باب ما جاء في تعديل الله ورسوله للصحابه وإنه لا يحتاج إلى سؤال عنهم، وإنما يجب فيمن دونهم» قال فيه: «عدالة الصحابة ثابتة معلومة بتعديل الله لهم، وإخباره عن طهارتهم، واختياره لهم في نص القرآن: فمن ذلك قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُوكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفَتْح: ١٨]، وقوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَدَّمُونَ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:

٦٤].

وقوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهِجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا

(١) أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الأزدي الحنجري المصري الطحاوي: نسبة إلى طحا؛ قرية من قرى صعيد مصر ولد سنة ٢٣٩هـ، وكان رحمه الله: ثقة ثباتاً، فقيهاً، عاقلاً، جليل القدر، عالماً باختلاف العلماء، بصيراً بالتصنيف، زاهداً، قال عنه الذهبي: «من نظر في توالييف هذا الإمام، علم محله من العلم، وسعة معارفه» توفي سنة ٣٢١هـ انظر: سير أعلام النبلاء ٢٥٠/١٥.

(٢) العقيدة الطحاوية، مع شرحها لابن أبي العز ص ٦٨٩.

(٣) الحافظ الناقد، أبو بكر؛ أحمد بن علي بن ثابت البغدادي، صاحب التصانيف، ولد سنة ٣٩٢هـ نشأ ببغداد، وقرأ القراءات بالروايات، ورحل إلى البصرة ونيسابور صغيراً، ثم إلى الشام كهلاً، ومكة وغير ذلك، كتب الكثير، وتقدم في علم الحديث والفقه، وجمع وصنف وصحح، وعلل وجرح وعدل، وأرخ وأوضح، وصار أحفظ أهل زمانه على الإطلاق، له مؤلفات كثيرة، وتصديق كثيراً، وأوقف كتبه، توفي سنة ٤٦٣هـ انظر: سير أعلام النبلاء ٢٧٠/١٨.

مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولُهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ بَوَّءُوا النَّارَ وَالْإِيمَانَ  
مِن قَبْلِهِمْ يَحْتُونُ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى  
أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ  
جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي  
قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ [الحشر: ٨ - ١٠].

في آيات كثيرة يكثُر إيرادها، ويطول تعدادها، ووصف رسول الله ﷺ  
الصحابة مثل ذلك وأطنب في تعظيمهم، وأحسن الثناء عليهم<sup>(١)</sup>.

ثم أورد الأحاديث النبوية الشريفة في ذلك ثم قال: «والأخبار في هذا المعنى  
تتسع، وكلها مطابقة لما ورد في نص القرآن، وجميع ذلك يقتضي طهارة الصحبة،  
والقطع على تعديلهم، ونزاهتهم، فلا يحتاج أحد منهم مع تعديل الله تعالى لهم،  
المطلع [سبحانه] على بواطنهم، إلى تعديل أحد من الخلق له... وقد برأهم الله  
عن ذلك، ورفع أقدراهم عنه، على أنه لو لم يرد من الله عز وجل ورسوله ﷺ  
فيهم شيء مما ذكرناه لأوجبت الحال التي كانوا عليها من الهجرة والجهاد والنصرة  
وبذل المهج والأموال، وقتل الآباء والأولاد، والمناصحة في الدين، وقوة الإيمان  
واليقين، القطع على عدالتهم، والاعتقاد لنزاهتهم، وإنهم أفضل من جميع  
المعدّلين المزكين، الذين يحيئون بعدهم أبد الآبدين، هذا مذهب كافة العلماء ومن  
يعتد بقولهم من الفقهاء<sup>(٢)</sup>. ثم روى رحمه الله أثراً هاماً بإسناده إلى أبي زُرعة  
يقول فيه: (إذا رأيت الرجل ينتقص أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ فاعلم أنه  
زنديق، وذلك أن الرسول ﷺ عندنا حق، والقرآن حق، وإنما أدى إلينا هذا القرآن  
والسنن أصحاب رسول الله ﷺ وإنما يريدون أن يَجْرَحُوا شهودنا لِيُبْطِلُوا الكتاب  
والسنة، والجرح بهم أولى...<sup>(٣)</sup>).

وقال ابن حجر: «اتفق أهل السنة على أن الجميع - أي الصحابة - عدول ،  
ولم يخالف في ذلك إلا شذوذ من المبتدعة<sup>(٤)</sup>».

ومما يجب ذكره من الآيات التي تدل على فضلهم والثناء عليهم رضي الله

(١) الكفاية في علم الرواية، تحقيق: أحمد عمر هاشم ص ٦٣ - ٦٤.

(٢) المصدر السابق ص ٦٦ - ٦٧.

(٣) المصدر السابق ص ٦٧.

(٤) الإصابة في تمييز الصحابة ٩/١ - ١٠.

عنهم ولم ترد في كلام الخطيب السابق قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَنْ لُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزْبٍ أَخْرَجَ مِنْهُمُ الشُّعْرَةَ فَاتَّخَذُوا فَاسْتَفْظًا فَاستَوَى عَلَى سُرْقَةٍ يُعَجِّبُ الرُّعَاةَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح: ٢٩].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في قوله تعالى: (لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارُ):

«فلا بد أن يغيب بهم الكفار، وإذا كان الكفار يغيطون بهم؛ فمن غيب بهم فقد شارك الكفار فيما أذلهم الله به وأخزاهم وكتبهم»<sup>(١)</sup>

وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ يَرْثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلُوا وَكَلَّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحَسَنَى وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ حَبِيرٌ ﴿١٥﴾﴾ [الحديد: ١٥] قال ابن حزم: «وصح بالنص: كل من سبقت له من الله الحسنى فإنه مبعّد عن النار، لا يسمع حسيستها، وهو فيما انتهى خالد لا يحزنه الفزع الأكبر»<sup>(٢)</sup>. يعني قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٥﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَةً وَهُمْ فِي مَا تَأْتَتْهُمُ أَنْفُسُهُمْ خَلِيدُونَ ﴿١٦﴾ لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّيْنَهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٥-١٧].

وجاء في فضلهم أحاديث كثيرة وعديدة صحيحة وثابتة تدل على عظم قدرهم ومنزلتهم، وكان الرسول ﷺ ينسبهم إلى نفسه فيقول أصحابي ويدافع عنهم، كما في حديث: «لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً، ما بلغ مدّ أحدكم ولا نصيفه»<sup>(٣)</sup>.

وقال ﷺ: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»<sup>(٤)</sup>.

(١) الصارم المسلمون على شاتم الرسول ص ٥٧٩.

(٢) المحلى ٤٢/١.

(٣) رواه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل النبي ﷺ، وباب «لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً» ١٩٥/٤ ح ٣٦٧٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب تحريم سب الصحابة رضي الله عنهم ١٨٨/٧ ح ٢٥٤١.

(٤) رواه البخاري، في صحيحه، كتاب الشهادات، باب لا يشهد على شهادة جور إذا شهد =

وقال ﷺ: «لا يدخل النار أحدٌ ممن بايع تحت الشجرة»<sup>(١)</sup>.

وقال ﷺ: «الله الله في أصحابي، لا تتخذوهم غَرَضاً بعدي، فمن أحبهم فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه»<sup>(٢)</sup>.

وفضائلهم أشهر من أن تنكر، وأكثر من أن تذكر، وأفضلهم الخلفاء الراشدون، ثم العشرة المبشرون، وانظر إلى إنصاف مذهب السلف في قول أبي جعفر: «ومن أحسن القول في أصحاب رسول الله ﷺ وأزواجه الطاهرات، وذرياته المقدسين من كل رجس فقد برئ من النفاق»<sup>(٣)</sup>.

وهكذا نرى أن مذهب السلف لا يقوم على ما تهواه النفوس، بل نفوسهم خاضعة لما جاء به الرسول ﷺ، ولن تجد مسألة مما اعتقدوه أو ذهبوا إليه تخالف هديه ﷺ إذ به يهتدون وعلى نهجه يسرون، والله أعلم.

---

= ١٥١/٣ ح ٢٥٦١، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة ثم الذي يلونهم ثم الذين يلونهم ١٨٤/٧ ح ٢٥٣٥.

(١) رواه الترمذي في سننه، كتاب المناقب، باب في فضل من بايع تحت الشجرة، وقال الترمذي: «وهذا حديث حسن صحيح» ح ٣٨٥٩، ورواه مسلم بنحوه مع قصة في آخره ح ٢٤٩٦.

(٢) رواه الترمذي في سننه، كتاب المناقب، باب بدون ٦٩٦/٥ ح ٣٨٦٢.

(٣) العقيدة الطحاوية في شرحها ص ٧٣٧.

## المبحث الثالث عشر صيانه سنته ﷺ، والاحتجاج بها

لو جاء لأحدنا رسالة خطية من أحد الكبراء تتضمن تشريفاً للمرسل إليه، فسوف يفرح بها فرحاً شديداً، ويحافظ عليها أشد المحافظة، ويعمل بحذافيرها، ويحرص على نشرها.

والحقيقة أن السنة المطهرة الشريفة أولى بالاهتمام من هذا كله حيث جمعت أقوال المصطفى ﷺ وأفعاله وتقريراته وصفاته الخلقية والخلقية وسيرته العطرة الزكية، وفيها الحكمة والنور والهداية للناس.

والواجب ألا نفرق بين الرسل في الإيمان، وألا نفرق بين الكتاب والسنة في الاحتجاج، وألا نفرق بين المتواتر والآحاد في العمل والاعتقاد، وألا نفرق بين الأحاديث التي تتضمن الاعتقاد أو الأعمال في الأخذ والاستدلال والاسترشاد؛ هذا ما عليه سلف الأمة ممن عرفوا قيمة الجهود المضنية لحملة السنة، ورواة الأثر وحرصهم الشديد البالغ على أن يصلنا حديث رسول الله ﷺ، وكأننا نسمعه من فيه المبارك؛

حذرين خافين من وعيد قوله ﷺ:

«من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»<sup>(١)</sup>.

راجين ثواب قوله ﷺ:

«نَضَّرَ الله امرأً سمع منا شيئاً فبلغه كما سمع؛ فرب مبلغ أوعى من سامع»<sup>(٢)</sup>.

---

(١) حديث متواتر، وممن رواه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب إثم من كذب على النبي ﷺ ٢٠٣/١ ح ١١٠، والترمذي في سننه، كتاب العلم، باب ما جاء في تعظيم الكذب على رسول الله ﷺ ح ٢٦٥٩ - ٢٦٦١.

(٢) رواه الترمذي في سننه، كتاب العلم، باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع، وقال =

وكيف نهمل السنة والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَمَا يَطِئُ عَنِ الْوَحْيِ ۖ إِنَّهُ هُوَ إِلَّا رَحِيٌّ يُوْحِي ۝﴾ [النجم: ٣ - ٤].

وانظر إلى ما قاله ابن حزم عن أقسام الوحي حيث جعل السنة قسيماً للقرآن<sup>(١)</sup> والوحي من الذكر وقد قال تعالى عن الذكر: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝﴾ [الحجر: ٩].

وكيف نهمل السنة ولا قيام للدين إلا بها، ولا فهم لكتاب الله إلا بها، ولا تفصيل لما أجمل من الأحكام إلا بها؟ والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّوكَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ۝﴾ [النساء: ١١٣].

ويقول سبحانه: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَبَرِّكَتْهُمْ أَلِفُهُمْ أَلِ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۝﴾ [آل عمران: ١٦٤].

قال الشافعي في تفسير (الحكمة): «فسمعت من أرضى من أهل العلم بالقرآن يقول: الحكمة سنة رسول الله...»<sup>(٢)</sup>.

وكيف نهمل السنة والرسول ﷺ قد قال: «ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه...»<sup>(٣)</sup>.

هذا وإن من علامات نبوته وصفه لمن يرد حديثه، قال: «لَا أَلْفِينٌ أَحَدَكُمْ مَثَكُنًا عَلَى أُرِيكَتِهِ يَأْتِيهِ أَمْرٌ مِمَّا أَمَرْتُ بِهِ أَوْ نَهَيْتُ عَنْهُ، فيقول: لا أدري، ما وجدنا في كتاب الله أتبعناه». وفي رواية: «يقول: بيننا وبينكم كتاب الله، فما وجدنا فيه حلالاً استحللناه، وما وجدنا فيه حراماً حرّمناه، وإن ما حرّم رسول الله كما حرّم الله»<sup>(٤)</sup>.

= هذا حديث حسن صحيح ٣٤/٥ ح ٢٦٥٧  
(١) انظر الأحكام في أصول الأحكام لابن حزم ١٠٨/١، وانظر: تقريره لحفظ الله للسنة في المصدر نفسه ١١٠/١.

(٢) الرسالة ٧٨/١.

(٣) رواه أبو داود في سننه، كتاب السنة، باب لزوم السنة ١٠/٥ ح ٦٤٠٤ وسكت عليه.

(٤) رواهما الترمذي في سننه، كتاب العلم، باب ما نهى عنه أي يقال عند حديث النبي ﷺ،

وقال عن الأولى: هذا حديث حسن صحيح ٣٧/٥ - ٣٨ ح ٢٦٦٣، ٢٦٦٤

ومن شدة عناية المسلمين بحديث الرسول ﷺ أن أصبحت علوم الحديث من العلوم التي تفوقت بها الأمة الإسلامية على غيرها في تحري الأخبار وسبرها. قال ابن حزم: «نقل الثقة عن الثقة مع الاتصال حتى بلغ النبيّ خص الله به المسلمين دون سائر أهل الملل كلها، وأبقاه عندهم غصّاً جديداً على قديم الدهور»<sup>(١)</sup>.

وقال أبو علي الجبائي: «خص الله تعالى هذه الأمة بثلاثة أشياء لم يعطها قبلها: الإسناد، والأنساب، والإعراب»<sup>(٢)</sup>.

وكم تمنيت أن يطلع أولئك المجازفون المتهورون المخاطرون بنفوسهم الذين يقدحون في السنة على جهود السلف في صيانة سنة المصطفى لكي يعرفوا ما بين أيديهم من كنوز، وهذا نموذج يقدمه أبو عبد الله الحاكم صاحب المستدرک على الصحيحين واصفاً حال حملة الحديث ونقله السنة فقال: «سلکوا محجة الصالحين، واتبعوا آثار السلف من الماضين، ودمغوا أهل البدع والمخالفين، بسنن رسول الله ﷺ، من قوم آثروا قطع المفاز والقفار، على التمتع في المدن والأوطار، وتنعموا في البؤس في الأسفار مع مساكنة العلم والأخبار، وقنعوا عند جمع الأحاديث والآثار، بوجود الكسر والأطمار، قد رفضوا الإلحاد الذي تتوق إليه النفوس الشهوانية... جعلوا المساجد بيوتهم، وأساطينها تكاهم، وبيوارها فرشهم... أصحاب الحديث خير الناس، وكيف لا يكونون كذلك وقد نبذوا الدنيا بأسرها وراءهم وجعلوا غذاءهم الكتابة، وسَمَرهم المعارضة، واسترواحهم المذاكرة، وخلقهم الممداد ونومهم السهاد، واصطلاهم الضياء، وتوسدهم الحصى، فالشدائد مع وجود الأسانيد العالية عندهم رخاء، ووجود الرخاء مع فقد ما طلبوه عندهم بؤس، فعقولهم بلذاذة السنة غامرة، وقلوبهم بالرضى بالأحاديث عامرة، تعلّم السنن سرورهم، ومجالس العلم حبورهم، وأهل السنة قاطبة إخوانهم، وأهل الإلحاد والبدع بأسرها أعداؤهم»<sup>(٣)</sup>.

وقال الخطيب البغدادي في شرف أصحاب الحديث: «وقد جعل الله أهله أركان الشريعة، وهدم بهم كل بدعة شنيعة، فهم أمناء الله في خليقته، والواسطة

(١) الفصل ٢/ ٨٢.

(٢) تدريب الراوي ص ٣٥٩.

(٣) معرفة علوم الحديث ص ٢ - ٣.



بين النبي ﷺ وأمتة، والمجتهدون في حفظ ملته، أنوارهم زاهرة، وفضائلهم سائرة، وآياتهم باهرة، ومذاهبهم ظاهرة، وحججهم قاهرة، وكل فئة تتحيز إلى هوى ترجع إليه، أو تستحسن رأياً تعكف عليه، سوى أصحاب الحديث، فإن الكتاب عدتهم، والسنة حجتهم، والرسول فتنهم، وإليه نسبتهم، لا يعرجون على الأهواء ولا يلتفتون إلى الآراء، يُقبل منهم ما رَووا عن الرسول ﷺ وهم المأمونون عليه والعدول، حفظة الدين وخزنته، وأوعية العلم وحملته، إذا اختلف في حديث كان إليهم الرجوع، فما حكموا به فهو المقبول المسموع، ومنهم كل عالم وفقه، وإمام رفيع نبه... وهم الجمهور العظيم وسبيلهم السبيل المستقيم، وكل مبتدع باعتقادهم يتظاهر، وعلى الإفصاح بغير مذاهبهم لا يتجاسر، من كادهم قصمه الله، ومن عاندهم خذله الله، لا يضرهم من خذلهم، ولا يفلح من اعتزلهم، المحتاط لدينه إلى إرشادهم فقير، وبصر الناظر بالسوء إليهم حسير، وإن الله على نصرهم لقدير... فشأنهم حفظ الآثار، وقطع المفاوز والقفار، وركوب البراري والبحار، في اقتباس ما شرع الرسول المصطفى ﷺ لا يعرجون عنه إلى رأي ولا هوى، قبلوا شريعته قولاً وفعلاً، وحرسوا سنته حفظاً ونقلًا، حتى ثبتوا بذلك أصلها، وكانوا أحق بها وأهلها، وكم من ملحد يروم أن يخلط بالشرعية ما ليس منها، والله تعالى يذب بأصحاب الحديث عنها، فهم الحفاظ لأركانها، والقوامون بأمرها وشأنها، إذا صدف عن الدفاع عنها فهم دونها يناضلون، أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون»<sup>(١)</sup>.

ونحن اليوم عاجزون عن بيان جهود المحدثين وما قام به الأولون للدفاع عن السنة، في وجه الطاعنين في الحديث.

هذا وإن كراهية السنة والأخبار عن المصطفى المختار ﷺ دليل على الابتداع: روى الحاكم بسنده إلى أحمد بن سنان القطان يقول: «ليس في الدنيا مبتدع إلا وهو يُبغض أهل الحديث وإذا ابتدع الرجل نزع حلاوة الحديث من قلبه»<sup>(٢)</sup>.

ونشأ علم الجرح والتعديل ودراسة الأسانيد والبحث في أحوال الرواة،

(١) شرف أصحاب الحديث ص ٨ - ١٠ باختصار.

(٢) معرفة علوم الحديث للحاكم النيسابوري ص ٤.

والتمييز بين الصحيح من السقيم حفاظاً على سنته ﷺ، وصيانة لها من الدخيل، وتكبدوا في سبيل ذلك المشاق، وقد ضرب رجال الحديث أروع الأمثلة في التضحية بالنفس والمال من أجل تحصيل حديث واحد عن رسول الله ﷺ فكان الواحد منهم يسير الأيام والليالي في طلب الحديث الواحد، لأنهم يعلمون أن سنته حياة القلوب وشفاء النفوس، وهذا نابع من حبهم لرسول الله ﷺ.

## الخاتمة

### أهم نتائج البحث والتوصيات

\* يعد ما ألف من مؤلفات في إثبات صحة نبوته ﷺ بقصد مخاطبة من لم يؤمن به ﷺ قليل جداً، ولذلك يجب أن يحظى هذا الجانب الهام من ديننا بالاهتمام المطلوب.

\* ثبت بالبراهين المختلفة والوقائع الثابتة بأن العقل يستحيل عليه وحده أن يكون مصدراً للهداية بل إن الحقائق التاريخية تثبت بأن المعولن على العقل وحده هم من أضل الأمم سبيلاً.

\* كما ثبت بالبراهين الظاهرة أن العلم الحديث القائم على الحس والمادة والتجربة قد فشل فشلاً ذريعاً في تقديم الهداية إلى الناس.

\* ليس الضلال الأكبر عن الدين هو إنكار وجود الله تعالى لأن الفطر والعقول قد فرضت على الإنسان أن يقر به سبحانه، ولكن المشكلة الحقيقية وهي مشكلة مستمرة على مدار التاريخ إلى يومنا هذا في أن قسماً من الذين يؤمنون بالله هم في الوقت نفسه يجحدون نعمة ربهم عليهم فتراهم يعرضون عن رسالة الأنبياء التي هي بمثابة الروح للأبدان، والنور للأبصار، والماء للحياة بل أعظم، فهي الوسيلة التي تطمئن بها القلوب، وتبصر بها العقول، إذ هي ضرورة علمية، وأخلاقية، وتعبدية، ونفسية، وضرورية لإقامة العدل بين الناس، وبدون الأخذ بها يقع الهلاك في الدنيا والآخرة.

\* عاش الناس قبيل بعثته ﷺ حقبة من أسوأ الحقب التاريخية حيث مقت الله أهل الأرض عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب، وأما أغلبهم فقد ضلوا وأضلوا وطمسوا النور الذي جاء به المرسلون إليهم، وحرفوا وبدلوا واشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً، ووقع فيهم الشرك في العقائد والتحريف في الشرائع، والتبديل في الكتب، وأصبح ما يصدر عنهم سبباً في إضلال الناس لا في هدايتهم، هذا في أهل الكتاب فكيف بالأمم الأخرى التي لم ينزل عليها كتاب؟ فكانت الحاجة ماسة

إلى إرسال من يكون سبباً في إخراج أولئك كلهم من الظلمات إلى النور.  
\* لما كانت الرسالة ضرورية كانت أدلتها من جنس أدلة الربوبية من حيث الظهور والكثرة والقوة، وإن كان بعضها أظهر من بعض، وبعض الناس يظهر له من الدلائل بالتأمل ما لا يظهر لغيره.  
\* من أهم الدلائل التي أرشد إليها القرآن على نبوة محمد رسول الله ﷺ النظر والتفكير فيما يلي:

#### ١ - دعوته ﷺ من حيث:

- موافقتها لدعوة الأنبياء وأنها ليست بدعة من الرسالات.
- ما اشتملت عليه من عقائد وغيبات وأحكام وشرائع...
- ظهورها على الدين كله.
- التذكير بعاقبة المكذبين بها.

#### ٢ - في حال الداعي ﷺ من حيث:

- خلقه وصفاته التي يستحيل معها تكذيبه.
- بشارات الكتب السابقة به.
- نصر الله له؛ وعصمته، ونصر دينه وأتباعه.
- شهادة الله له.

#### ٣ - آياته ومعجزاته؛ وعلى رأسها آيته الكبرى القرآن الكريم.

\* وقد أخذ السلف بطريقة القرآن هذه، وعبروا عنها بقرائن الأحوال، ولم يحصروها بالمعجزات كما فعل المتكلمون.

\* طريقة المتكلمين في إثبات نبوته ﷺ ليست طريقة واحدة ثابتة، وإن كانت المعجزات تسيطر على طرقهم كلها سيطرة تكاد تكون كلية، فأولئك الذين نوعوا في الاستدلالات وانطلقوا في رحاب السيرة يستدلون ويستشهدون لم يلبثوا أن عادوا وأذعنوا للقول بحصر المعجزات، ولم يشذ عن طريقهم إلا النادر.

\* بالرغم من أن أصحاب الاتجاه العقلاني المعاصر قد تخرجوا من المدرسة العقلانية نفسها التي تجمعهم مع المتكلمين إلا أنهم أتوا بطريقة لم يسبقوا إليها، وهي الاستماتة في إنكار المعجزات، مجارة لغلبة الحضارة المادية وما فيها من

منجزات ومخترعات، واكتفوا بصفاته الشخصية المؤثرة في النفوس، واقتصروا على القرآن وحده من المعجزات.

\* تحتاج الجوهرة الفريدة إلى عرض أصحابها لها حتى يدرك الناس قيمتها، وهكذا إعجاز القرآن يحتاج من أهله بذل الجهود ليقف الناس على وجوهه الباهرة.

\* من أهم وجوه الإعجاز حسب ما وقفت عليه: الإعجاز بلغته، وعلومه ومعارفه ومعانيه، وأخباره القاطعة التي لا تتخلف، وبمغيباته، وتأثيره على النفوس، وسلامته من الاختلاف.

\* يلزم من الكفر به ﷺ الكفر برسالة الرسل كلهم، لأن الطريق التي آمن بها من يؤمن بغيره من الأنبياء هي نفسها التي تؤدي إلى الإيمان بمحمد رسول الله ﷺ بل إن طرق الإيمان به ﷺ أكثر وأعظم وأقوى وأصح.

\* من قام لله قياماً خالصاً وتفكر في نفسه أو مع غيره في شأن نبوة محمد رسول الله ﷺ فإن كان طالب حق فسوف يذعن ويسلم بأنه نبي، ولو عاود وقلب نظره كرتين في أخباره وسيرته وسائر شؤونه فسينقلب إليه القول باليقين أنه رسول من رب العالمين.

\* من يتحرى العدل ويجتنب الهوى والطغيان ويوازن بين الإسلام وغيره من الأديان سيظهر له حتماً الحق من البطلان، والدين الذي ينزه الرحمن ويرفع شأن الإنسان بالتوحيد والإيمان هو دين ظاهر البرهان، أما الدين الذي ينتقص الملك الديان، ويهين كرامة الإنسان بالشرك والظلم فهذا من البهتان.

\* من شهادة الله لرسوله ﷺ أن بقيت بعض الصفات في الكتب السابقة - بالرغم من تحريفها - التي لا تنطبق إلا عليه ﷺ وقد أبقوها حرصاً على اتباع من تهواه أنفسهم فلما جاءهم محمد رسول الله ﷺ وعرفوا أنه الحق كفروا به حسداً من عند أنفسهم.

\* إنكار رسالة الرسول ﷺ سلب لصفات الرحمة والحكمة وغيرها عن الله الذي أقام السموات والأرض على العدل.

\* ضرورة إقامة تعريف الإيمان به ﷺ على ثلاثة أركان؛ الاعتقاد، والقول، والعمل.

\* من أهم مظاهر تعظيمه ﷺ وتعظيم قوله ﷺ؛ تقديم قول الله ورسوله ﷺ على كل قول، ووجوب رد التنازع إلى الله ورسوله ﷺ، وضرورة التحاكم إلى الله

ورسوله ﷺ، ونفي الاختيار مع اختيار الله ورسوله ﷺ، والحذر من مخالفة أمره ﷺ.

\* كل وسيلة فيها نصرة وتأييد للرسول ﷺ ودينه فهي من باب تعزيزه وتوقيره.

\* طاعة الرسول ﷺ طاعة لله، والاستجابة لأمره ﷺ استجابة لأمر الله وفيهما الفلاح وحياة القلوب في الدنيا والنجاة في الآخرة.

\* الرسول ﷺ أعلمنا وأتقانا لله، فالواجب التأسى به ﷺ ولا سيما في عبادته وخلقه العظيم.

\* القول الراجح في آله ﷺ إذا أطلق أنهم أتباعه ﷺ ولا سيما في الصلاة عليه في التشهد.

\* منشأ الضلال في الرسول إخراجهم ﷺ من حيز البشرية والعبودية والرسالة والخروج على هذا الحد فتح باب لا يغلّق من البدع والضلالات.

\* تكون المحبة على قدر النفع الحاصل من المحبوب:

فالنفع الحاصل به ﷺ ومن دعوته لا يوجد في أي مخلوق آخر فهو ﷺ الذي دل على طريق النجاة في الدنيا والآخرة، ولذلك كان حبه ﷺ أعظم من النفس والولد والوالد والناس أجمعين، ولكن نفعه ﷺ مهما امتد فلن يصل إلى نفع الخالق بحال فأني للمخلوق أن يتصف بصفات الربوبية من الخلق والملك والرزق والتدبير، ولذلك لا تكون العبادة الخالصة إلا لله المستحق لذلك وحده لا شريك له، والواجب على أهل العلم إيضاح هذه المعاني لكيلا يقع الخلق في الخلط بين حقوق الخالق والمخلوق، والله أعلم.

\* وتبقى المسؤولية قائمة على أهل العلم في بذل أقصى الجهود لنشر أدلة صدق الرسول ﷺ، وبيان عظمة الرسالة، وتوضيح حقوق الرسول ومحاربة البدع التي ظنها بعض الناس من حقوقه.

وصلّى الله وسلم على نبينا محمد

وكتبه: ثامر بن ناصر بن فهد بن غشيان

## فهرس المحتويات

٥	..... المقدمة
٨	..... سبب اختيار الموضوع
٨	..... الدراسات السابقة
١١	..... عرض مجمل لموضوعات الرسالة ومنهجي فيها
١٣	..... خطة البحث
<b>الباب الأول</b>	
<b>- الباب التمهيدي للرسالة -</b>	
١٩	..... المبحث الأول: ضرورة البشرية إلى الرسالات
٢٢	..... بيان عجز عقولهم عن أن تكون مصدراً للهداية
٢٢	..... - تخطب المقدسين لعقولهم في أهم القضايا وأخطرها
٢٣	..... - الحيرة المخيمة على أصحاب هذه الاتجاه
٢٤	..... - ضلال أمم بأكملها بسبب تقديسها لعقولها
٢٥	..... - يذهب المقدسون لعقولهم إلى ما تحيله العقول!
٢٥	..... - العقول متفاوتة: فعقل من نعتمد؟
٢٧	..... - قصور العقل عن المعارف الضرورية
٢٨	..... - عجز العقول عن إدراك تفاصيل الشرع
٣٠	..... - موقع العقل من مصادر المعرفة
٣٤	..... بيان عجز علومهم المادية عن أن تكون مصدراً للهداية
٣٤	..... - اختلال ثوابتهم العلمية
٣٦	..... ومن اختلال ثوابتهم المادية جزمهم بأزلية المادة
٣٧	..... - سطحية علومهم
٣٨	..... - افتقار علومهم للوفاء بأبسط الحاجات البشرية
٣٩	..... تناقضهم

٣٩	..... النتائج الوخيمة لعلومهم المادية
٤١	..... - اعتراف بعد جحود
٤١	..... تقرير حاجة البشرية إلى الرسالة
٤٢	..... - رسالة الأنبياء روح العالم ونوره
٤٧	..... - الرسائل ضرورة لقيام الحجة على الناس
٤٨	..... - الرسالة سبيل النجاة
٤٨	..... - ضرورة الرسالة لمعرفة حال المجرمين وبيان سبيل المرسلين
٤٩	..... - ضرورة الرسالة لبيان مراد الله من عباده
٤٩	..... - الرسائل رحمة من الله بعباده
٥٠	..... - ضرورة الرسالة لإقامة العدل بين الناس
٥٤	..... - الرسالة ضرورة أخلاقية
٥٦	..... الرسالة ضرورة نفسية
٥٦	..... - حكم إرسال الرسل على الله تعالى
٦١	..... المبحث الثاني: نسبه ﷺ وخلاصة سيرته
٦٣	..... نسبه ﷺ الشريف
٦٣	..... أما سرد نسبه ﷺ
٦٥	..... خلاصة سيرته ﷺ

## الباب الثاني

- الباب الرئيسي للرسالة وهو - بعنوان:

إثبات نبوته ﷺ وصحة رسالته ﷺ

٧٩	..... الفصل الأول: طرائق الناس في إثبات نبوته ﷺ
٨١	..... المبحث الأول: طريقة السلف في إثبات نبوته ﷺ
٨٣	..... طريقة القرآن في إثبات نبوة محمد ﷺ
٨٣	..... - الاستدلال بمجيء الأنبياء قبله ﷺ وأنه ﷺ جاء من جنسهم
٨٥	..... - التحذير من الكفر به ﷺ بالتذكير بحال المكذبين بالرسول من قبله
	..... - موعظة قرآنية جليلة تدعو إلى القيام لله مثنى وفرادى ثم التفكير في شأن
٨٦	..... هذا الداعي ﷺ
٨٦	..... - تقرير استحالة أن يكون محمد ﷺ كاذباً في دعوته
٨٧	..... - نفي المطامع الشخصية وترفعه عن المطالب الدنيوية



- عدم مجارة في تلبية طلباتهم للمعجزات ورد اقتراحاتهم في تعيين  
 ٨٨ ..... جنسها
- القرآن كاف لمن أراد الوقوف على حقيقة رسالة محمد ﷺ ..... ٨٨
- إثبات الرسالة بآياته ﷺ الأخرى ..... ٩٠
- شفقتة ﷺ الشديدة بالخلق لمصلحة الخلق ..... ٩٠
- استحالة صدور هذا الكتاب العظيم من محمد ﷺ الكريم ..... ٩١
- شهادة الله تعالى لمحمد ﷺ بكونه مرسل من الله ..... ٩٤
- قسمه سبحانه بالقرآن على أنه ﷺ من المرسلين ..... ٩٥
- نصر الله له ﷺ ذلك النصر الباهر ..... ٩٦
- اجتماع أكمل الصفات الحسنة فيه ﷺ ..... ٩٦
- بشارات الكتب السابقة به ﷺ ..... ٩٦
- إخباره ﷺ بالغيوب ..... ٩٧
- عصمة الله له ﷺ ..... ٩٧
- هيمنة شرعه على كل الشرائع قديمها وحديثها ..... ٩٧
- تفنيد مزاعم المكذبين بالرسول ﷺ ..... ٩٧
- تمهيد موجز لطريقة السلف في إثبات نبوته ﷺ حول (ظهور الآيات على  
 نبوته - وكثرتها) ..... ٩٩
- طريقة السلف في إثبات نبوته ﷺ ..... ١٠١
- نماذج من السلف وطريقتهم في إثبات نبوته ﷺ ..... ١١٥
- \* العلماء الذين نشطوا في جمع الأدلة على نبوته ﷺ لم يحصروها في  
 المعجزات، ومنهم ..... ١١٩
- \* خضوع بعض المتكلمين لمنهج السلف في إثبات نبوته ﷺ ..... ١٢٠
- \* وهذا هو الشأن فيمن ألف في إثبات نبوته من المتأخرين، ومنهم ..... ١٢١
- المبحث الثاني: طرائق المخالفين في إثبات نبوته ﷺ ..... ١٢٣
- المطلب الأول: طريقة المتكلمين في إثبات نبوته ﷺ ..... ١٢٥
- طريقة المعتزلة ..... ١٢٧
- الجاحظ وطريقته في إثبات نبوته ﷺ ..... ١٢٨
- طريقة الغزالي ..... ١٣٠
- طريقة الرازي ..... ١٣٣

١٣٦	..... الطريقة المرضية عند الرازي
١٣٧	..... طريقة الماتريدي
١٤١	..... طريقة الماوردي
١٤٣	..... المطلوب الثاني: طريقة العقلانية في إثبات نبوته ﷺ
١٤٤	..... قول العقلانية على النقيض من قول المتكلمين
١٤٥	..... أمثلة ونماذج
١٥١	..... الفصل الثاني: أمهات الدلائل في إثبات نبوته ﷺ
١٥٣	..... المبحث الأول: آيته الكبرى القرآن الكريم
١٥٣	..... الأدلة على أن القرآن هو الآية الكبرى لنبينا محمد ﷺ
١٥٥	- توضيح هذا الإعجاز
١٥٥	- بيان حال محمد ﷺ
	- أنه ﷺ أتى بكتاب نسبه إلى الله، أجمع العرب على فصاحته وبلاغته
١٥٦	وحسن نظمه واشتماله على علوم شتى وآداب تترى
١٥٦	- وقوع التحدي بهذا الكتاب
١٥٦	- وجود دواعي التحدي
١٥٦	- نتيجة التحدي صدق نبوة محمد ﷺ لأنهم
١٥٨	تفسير شيخ الإسلام لآية التحدي وإبرازه مجموعة من علامات النبوة
١٦٠	معجزة القرآن تعادل أضعاف معجزات الأنبياء
١٦١	وجوه إعجاز القرآن
١٦٥	- من أبرز وجوه إعجاز القرآن
١٦٦	- محاولة متواضعة لجمع أبرز وجوه الإعجاز في القرآن: وهي ستة وجوه
١٦٧	الوجه الأول: الإعجاز بلغته من حيث
١٧٠	الوجه الثاني: الإعجاز بعلومه ومعارفه ومعانيه
١٧٢	تنبيه
١٧٤	الوجه الثالث: الإعجاز بأخباره القاطعة التي لا تتخلف
١٧٤	حفظ القرآن من أي تغيير - حذفاً كان أو إضافة أو تبديلاً -
١٧٤	تيسير حفظ القرآن
١٧٤	الإخبار بنصر الروم على الفرس بمدة
١٧٤	الإخبار بموت أناس بأعيانهم على الكفر

وأخبر بهزيمة كفار قريش والقرآن يتنزل في مكة .....	١٧٤
وأخبره بظهور دين محمد ﷺ على الدين كله .....	١٧٤
ومن أعظم وجوه تعجيز القرآن للمنكرين .....	١٧٤
تعجيز اليهود عن تمنى الموت .....	١٧٤
عجز النصارى عن المباهلة .....	١٧٦
الوجه الرابع: الإعجاز بالمغيبات .....	١٧٨
الوجه الخامس: الإعجاز بتأثيره في النفوس .....	١٧٩
والجن تعجبت منه فأمنت .....	١٨٠
الوجه السادس: الإعجاز بسلامته من التناقض والاختلاف .....	١٨٢
المبحث الثاني: توقف الإيمان بالرسول على التسليم بنبوته .....	١٨٣
من فرق بين متماثلين فليتهم عقله .....	١٨٤
من أصول الدين عدم التفريق في الإيمان بين الرسل .....	١٨٥
التكذيب بنبوته محمد ﷺ تكذيب بسائر الأنبياء قبله .....	١٨٥
بالمقارنة تتضح الحقائق .....	١٨٧
امتناع التصديق بنبوته نبي مع التكذيب بمحمد ﷺ .....	١٨٧
الضرورة كانت تدعو إلى إرساله ﷺ .....	١٨٩
مقصود دعوة الرسل قد تحقق على يديه ﷺ .....	١٩٠
محمد ﷺ مصداق سنة الله في المرسلين .....	١٩١
المبحث الثالث: الأخذ بدليل السبر والتقسيم للتوصل إلى صحة نبوته .....	١٩٣
- أن يكون كذاباً .....	١٩٤
- أن يكون مجنوناً .....	١٩٥
- إنه شاعر!! .....	١٩٨
ورموه ﷺ بالسحر والكهانة .....	٢٠٠
وأما أن يكون - عند المكذبين به - متاجراً بدعوته طالباً لجمع المال .....	٢٠١
شبهة أخرى .....	٢٠٢
أم يقولون تقوله .....	٢٠٤
الشبهة الأولى .....	٢٠٥
أن يكون محمد ﷺ قد تقوله من تلقاء نفسه .....	٢٠٥
حاجته لتنزل القرآن في أحوال كثيرة .....	٢٠٥

آيات العتاب .....	٢٠٥
آيات التحذير والتنبه .....	٢٠٦
الزعم بأنه ﷺ يتلقى علومه من مشركي العرب .....	٢٠٧
الزعم أن محمداً ﷺ يتلقى العلم عن أهل الكتاب .....	٢٠٧
الزعم بأن محمداً يتلقى علومه من أعجمي .....	٢١٠
المبحث الرابع: اعتماد منهج الموازنة بين دنيه والديانات الأخرى .....	٢١٣
الأسس التي تقوم عليها الموازنة .....	٢١٣
١ - إقامة العدل وتحريم الظلم .....	٢١٣
العدل حق لكل أحد، والظلم محرم في كل حال .....	٢١٤
٢ - تجنب الطغيان .....	٢١٦
الشرك بالله أعظم الظلم والطغيان .....	٢١٧
ولذلك نهى الله عن الغلو في الدين .....	٢١٨
٣ - اجتناب الهوى .....	٢٢١
قاعدة في الموازنة والغرض منها .....	٢٢٢
بعض الأمثلة التي تبين فضل الإسلام على غيره .....	٢٢٣
١ - تحقيق العدل وتجريد التوحيد لله .....	٢٢٣
٢ - القرآن والكتب الأخرى .....	٢٢٦
٣ - مصادر الإسلام محفوظة .....	٢٣٠
أما حفظ الوحي الثاني وهي السنة .....	٢٣٢
٤ - المقارنة من حيث عموم نفع الرسالة وخيرها .....	٢٣٤
٥ - نماذج مختصرة من فضائل الإسلام على غيره في باب العقائد وشعائر الإسلام الكبرى وآدابه .....	٢٣٥
أولاً: في باب العقائد .....	٢٣٥
الإيمان بالله .....	٢٣٥
ثانياً: شعائر الإسلام .....	٢٣٧
ثالثاً: باب طلب العلم .....	٢٣٨
رابعاً: باب الأخلاق والآداب .....	٢٣٩
المبحث الخامس: صدق إخباره بالغيوب مع أنه كان أمياً .....	٢٤٠
خطورة الإخبار بالغيوب .....	٢٤٢

- قرائن في حاله ﷺ تدل على أن الغيوب من عند الله ..... ٢٤٣
- قرائن في قومه ﷺ تدل على أن الغيوب من عند الله ..... ٢٤٣
- إخبار بالغيوب وفضح ما عند أهل الكتاب من ضلالات ..... ٢٤٥
- نفي صلب المسيح عليه السلام من دلائل نبوة محمد ﷺ ..... ٢٤٦
- وفي هذا مسائل هامة جداً ..... ٢٤٧
- نماذج من إخباره ﷺ بالغيوب ..... ٢٤٩
- أولاً: الأخبار الواردة من القرآن الكريم ..... ٢٤٩
- ١ - الإخبار بدخول المسجد الحرام ..... ٢٤٩
- ٢ - الإخبار بهزيمة المشركين قبل الهجرة ..... ٢٤٩
- ٣ - الوعد باستخلاف المؤمنين في الأرض والتمكين لدينهم ..... ٢٤٩
- ٤ - الوعد له ﷺ بأن الذين كفروا سيُغلبون ..... ٢٥٠
- ٥ - الإخبار بعزم الذين كفروا بالمكر به ﷺ وأن الله سيرد مكرهم ..... ٢٥٠
- ٦ - الإخبار بما سيقع للمشركين يوم بدر ..... ٢٥١
- ٧ - الإخبار بما سيحدث بين المنافقين ويهود بني النضير ..... ٢٥١
- ٨ - الإخبار بعاقبة المعارك وأحداثها قبل وقوعها ..... ٢٥١
- ٩ - لما نزلت سورة النصر ..... ٢٥١
- ١٠ - الإخبار بنصر الروم على فارس ..... ٢٥٢
- ١١ - ومن الإخبار بالمستقبلات ..... ٢٥٣
- ١٢ - الإخبار بأن اليهود لن يتمنوا الموت أبداً ..... ٢٥٣
- ١٣ - إخبار بهلاك أقوام على الكفر ..... ٢٥٣
- ١٤ - الإخبار بظهور الهدى الذي جاء به محمد ﷺ ..... ٢٥٤
- ثانياً: إخباره ﷺ بالغيوب من السنة ..... ٢٥٤
- تحديث الرسول الصحابة بالمغيبات ..... ٢٥٤
- وهذا من أعظم أعلام النبوة ..... ٢٦٠
- إخباره ﷺ بأمور تقع ويراهها الناس ..... ٢٦١
- إخباره ﷺ بأمور سوف تقع قطعاً كما أخبر ..... ٢٦٣
- المبحث السادس: بشارات الكتب السابقة به ﷺ وانطباقها عليه ﷺ ..... ٢٦٦
- علماء أهل الكتاب يشهدون له ﷺ ..... ٢٦٦
- أهل الكتاب أقرب الناس تصديقاً به ﷺ لأسباب ..... ٢٦٧

٢٦٩	ليس من شرط النبي أن يُشَرَّ به مَنْ تقدمه
٢٧٠	تأصيلٌ للاستشهاد بما عند أهل الكتاب
٢٧٠	خطورة إنكار البشارات بمحمد ﷺ النبي الخاتم
٢٧١	أولاً: بشارات التوراة - العهد القديم -
٢٧٢	ها أنا أباركه وأثمره وأكثر كثيراً جداً
٢٧٩	ومما بشر الله به موسى عليه السلام قوله
٢٨٢	البشارة به في الإنجيل ﷺ اسماً وصفة
٢٨٢	بشارات الإنجيل - العهد الجديد -
٢٨٢	نصوص البشارات من الإنجيل
٢٨٥	بيان بطلان تأويل النصارى لكلمة «المعزي»
٢٩٠	المبحث السابع: آياته الأخرى (معجزاته ﷺ)
٢٩٢	- الحق
٢٩٢	- البينات
٢٩٢	- البرهان
٢٩٢	- الآية
٢٩٣	- سلطان
٢٩٣	- آية
٢٩٣	- وبرهاناً
٢٩٣	المعجزات ليست مستحيلة عقلاً
٢٩٤	إنما الآيات عند الله
٢٩٤	والجواب
٢٩٥	أقسام المعجزات
٢٩٩	نماذج من آياته ﷺ
٢٩٩	المطلب الأول: ما كان جهته العلم. وأمثله
٢٩٩	أولاً: علوم تاريخية لا يتخلف منا حدث تاريخي واحد
٢٩٩	الضرب الأول
٢٩٩	الضرب الثاني
٣٠٢	ثانياً: علوم هي من قبيل التحدي
٣٠٢	ثالثاً: علوم هي من قبيل السنن التي لا تتخلف

٣٠٢	..... رابعاً: علوم هي من قبيل فضح ما يضمرة الكفار في نفوسهم
٣٠٣	..... خامساً: علوم تبين صفة الخلق والكون بحقائق يستحيل تكذيبها
٣٠٤	..... المطلوب الثاني: ما كان جهته القدرة
٣٠٥	* حنين الجذع حزناً على بعده عنه ﷺ وشوقاً إليه ﷺ
٣٠٧	* نبع الماء من بين أصابعه ﷺ وتكثيره
٣٠٨	..... تكثير الطعام
٣٠٨	* تسليم الحجر وارتجاف الجبل
٣٠٨	* كلام الشجر معه ﷺ وطواعيتها له
٣٠٨	* كونه ﷺ آخر الأنبياء وخاتم المرسلين
٣١٠	المبحث الثامن: قرائن أحواله ﷺ القاطعة بصدقه
٣١١	..... موقفه ﷺ من قومه
٣١٢	..... زهده ﷺ من القرائن
٣١٣	..... ثباته ﷺ
٣١٥	..... صبره ﷺ ورباطة جأشه
٣١٦	..... حفظه ﷺ للعهد ووفائه بالوعد
٣١٧	..... جوامع كلمة ﷺ
٣٢٠	..... كمال خلقه ﷺ
٣٢٢	..... وصف دقيق
٣٢٥	..... تواضعه ﷺ
٣٢٦	..... صدقه ﷺ
٣٢٨	..... رحمته ﷺ وشفقته بأمته
٣٢٨	..... حلمه ﷺ وعفوه
٣٣٠	..... أسلوبه ﷺ في التعليم والتأديب
٣٣٣	المبحث التاسع: دعوته ﷺ وموافقته لأصل ما جاءت به الأنبياء
٣٣٦	..... جاءت دعوته ﷺ مؤكدة للوصايا الجامعة
٣٣٨	..... كل ما خالف دين المرسلين فقد كفر
٣٣٩	..... تفريق الدين من أظهر علامات الضلال والكفر
٣٣٩	..... كلمة سواء
٣٤٠	..... نموذج لعرض دعوته ﷺ عن طريق بعض أصحابه

٣٤٢	تصديق كثيرين له لموافقة دعوته ﷺ للأنبياء
٣٤٤	المبحث العاشر: عصمة الله له ﷺ حين تعاقد المشركون على قتله
٣٤٨	عصمة الله لرسوله ﷺ من أعظم الآيات على نبوته
٣٤٨	- وهذا عرض موجز للمواقف الكبرى التي عصمه الله فيها -
	المبحث الحادي عشر: إتمام الأمر له ﷺ في حياته، ونصر أمته، وانتشار
٣٥٣	دعوته بعد مماته
٣٥٧	من سنن الله أن ينصر رسله ويؤيدهم ويخذل الكاذبين
٣٥٨	ظهور دينه ﷺ أعظم حدث في الأرض
٣٥٩	كان الوعد بالنصر له ﷺ في أحلك الأوقات
٣٦٢	جواب على من قال: لماذا لم يستأصل دينه الأديان؟
٣٦٣	القطع بمجئ الحق وزهوق الباطل
٣٦٣	المنافقون وريبهم في نصر الله للمؤمنين
٣٦٤	الإخبار بالنصر والغلبة على المرتدين
٣٦٤	آيات النصر نزلت بمكة
٣٦٥	قاعدة
٣٦٥	من يصدق تلك الوعود يسر الله نصره
٣٦٦	دعاء الرسول ﷺ والنصر للأمة
٣٦٨	أثر الصحابة - رضي الله عنهم - في نصره الدين
٣٧١	المبحث الثاني عشر: شريعته ﷺ
٣٧٢	كمال الشريعة وشمولها
٣٧٥	وضوح طريق العبادة في شريعة الإسلام
٣٧٥	الشريعة محفوظة
٣٧٧	يسر الشريعة
٣٨٢	- توسط شريعته ﷺ
٣٨٤	شريعته ﷺ شريعة عدل وفضل
٣٨٨	- الداعي لالتزام أحكام الشريعة
٣٨٩	قطع الشريعة المحمدية لدابر الجريمة
٣٨٩	حمل الشريعة لعوامل استمرار نفعها
٣٩١	الفصل الثالث: خطورة إنكار رسالته ﷺ



المبحث الأول: الطعن في رسالته ﷺ طعن في ذات الرب - تبارك وتعالى -	
بل جحد له بالكلية .....	٣٩٣
المبحث الثاني: صلاح الحال والمآل لا يتمان إلا بالإيمان به ﷺ .....	٤٠٥

## الباب الآخر

### بيان حقوقه ﷺ

المبحث الأول: الإيمان به ﷺ .....	٤١٣
* تنبيه هام .....	٤١٤
فأما الركن الأول: (الاعتقاد) فيشمل ما يلي .....	٤١٥
ولهذا كان من نواقض الإيمان به .....	٤١٦
(القول باللسان) .....	٤١٨
(العمل) .....	٤١٩
المبحث الثاني: تعظيم قوله ﷺ والتحاكم إليه .....	٤٢٠
١ - تقديم قول الله ورسوله ﷺ .....	٤٢١
٢ - وجوب رد التنازع إلى الله ورسوله ﷺ .....	٤٢٢
٣ - التحاكم إلى الله ورسوله ﷺ .....	٤٢٢
تلاوته ﷺ الحكمة: وهذا من أجل نعم الله علينا .....	٤٢٤
أمر الله له ﷺ بالحكم بين الناس .....	٤٢٤
٤ - نفي الاختيار مع اختيار الله ورسوله ﷺ .....	٤٢٦
المبحث الثالث: كمال التسليم لما جاء به ﷺ .....	٤٣٠
وجوب كمال التسليم للرسول ﷺ .....	٤٣١
المبحث الرابع: وجوب طاعته ﷺ، والاستجابة لأمره ونهيه .....	٤٣٥
عاقبة طاعة الرسول ﷺ .....	٤٣٧
في الاستجابة لأمره حياة القلوب .....	٤٣٨
الأمر بطاعة الرسول ﷺ من السنة .....	٤٣٨
المبحث الخامس: وجوب التأسي به ﷺ والأخذ بهديه .....	٤٤٠
الرسول ﷺ: أعلمنا وأتقانا الله .....	٤٤٣
علامة محبة العبد لله؛ باتباع الرسول محمد ﷺ واتباع الرسول هو طريق	
الفوز بمحبة الله سبحانه .....	٤٤٤
أما جزاء المتبعين للرسول فهو أعظم الجزاء .....	٤٤٥

٤٤٧	اتباع الرسل ﷺ هو طريق الهداية والبعد عن الضلالة
٤٤٨	المبحث السادس: الحذر من: مخالفة أمره ﷺ والاقتداء بغيره
٤٥٠	الحذر من التآسي بغيره
٤٥٣	المبحث السابع: لزوم محبته ﷺ
٤٥٣	الأدلة عليها
٤٥٥	المراد بمحبته ﷺ
٤٥٨	المبحث الثامن: لزوم تعزيزه ﷺ وتوقيره
٤٦١	المبحث التاسع: وجوب الصلاة والسلام عليه ﷺ
٤٦٤	حكم الصلاة على غيره ﷺ
٤٦٦	المبحث العاشر: برُّ آله «أهله» وذريته ﷺ
٤٦٦	أولاً؛ المراد بالـ (آل) والـ(أهل) في اللغة
٤٦٧	ثانياً: المعنى الأول للـ(آل) والـ(أهل) في النصوص
٤٦٧	١ - المعنى الأول: القرابة النسبية
٤٦٨	ثالثاً: المعنى الثاني للـ(آل) والـ(أهل) في النصوص
٤٦٨	٢ - الأتباع على الدين
٤٧٦	المبحث الحادي عشر: معرفة حق أزواجه ﷺ أمهات المؤمنين
٤٧٩	المبحث الثاني عشر: الثناء على أصحابه ﷺ ورضي عنهم
٤٨٤	المبحث الثالث عشر: صيانته ﷺ، والاحتجاج بها
٤٨٩	الخاتمة أهم نتائج البحث والتوصيات
٤٩٠	١ - دعوته ﷺ من حيث
٤٩٠	٢ - في حال الداعي ﷺ من حيث
٤٩٠	٣ - آياته ومعجزاته؛ وعلى رأسها آية الكبرى القرآن الكريم
٤٩٣	فهرس المحتويات